الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني

أوليا چلبي

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

راجعها وأكمل مواقعها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الأول



الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثمانى

أوليا چلبى

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصرى وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الأول





دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩
تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
EMAIL:Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١
الترقيم الدولى : 1 - 126 - 344 - 944

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهـــــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساسى
فى النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب



تقـــــديــــم

تعتبر رحلة الرحالة العثماني أوليا جلبى (توفى عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م) نموذجا فريدا غير مسبوق فى تاريـخ الثقافة الإسلامية. إن فوائدها كثيرة خـاصة فى وصف البلدان، لقد تفوق أوليـا جلبي الذي جاب ٣٣ دولة من الدول القائـمة آنذاك فى ثلاث قارات: أوربا، وأسـيا، وإفريقـيا. وتحتـاج هذه الدول معـرفة هذه الـرحلة لـتكون أساسـا فى تاريخها. فقد اهتم أوليا جلبى فى رحلته بوصف النظام الإدارى فى كل مكان ذهب إليه بدقة وتـفصيل وقدم لنـا معلومات عن مـالية كل بلد يـذهب إليه، وأخلاق أهل الـبلد ومدى قربهـم أو بعدهم عن التـدين. وصف المساجد بـدقة وكذلك الكنـائس والأديرة والمعابد اليهودية بإحصائيـات دقيقة مع إيراد تواريخـها. هذه الإحصائيات التـى قدمها لأوليا جلبى تشد الانتباه وتخدم علماء الاجتـماع وعلماء السكان أيضا. كما تعد رحلة أوليا جلبي مصدار هـاما لدراسة الجوانب التاريخية والحياة الاقتصـادية والاجتماعية في مصر العثمانية يعتمد عليها كل من أراد دراسة مصر فى القرن السابع عشر.

حدثنـي أستاذي بكير كـوتوك اوغلو الأستاذ بـجامعة استانـبول، قبل ما يزيـد على خمس وعشـرين سنة، أنه كون لجـنة لتحقيق رحـلة أوليا جلبـي، ففيها نقـص كبير، وتواريخ متروكة، وفراغـات، إذ مات الرحالة قبل أن يكتبها. وطلـب بكير بك مني أن أشترك فى هـذه اللجنة لتـحقيق الجزء الخاص بمصـر فى الرحلة. وحدثـته عن ضرورة ترجمتها إلى العربيـة فرأى أن تحقق فى لغتها الأصلية وتستكمل علـميا ثم يُنظر في أمر ترجمتها. ولم يتم مشروع لجنة التحقيق هذه.

ولأن ترجمة الرحلة إلى اللغة العربية ضرورة، فقد توفر عليها، أسماء كبارنا، ذلك الجيل القيم: محمد على عوني وقيل إنه ترجمها وسلمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

ليراجعها وراجع بعضها وترك أغلبها ليراجها الدكتور أحمد السعيد وعدّل هذا فيها وبدّل فوجد نفسه فى النهاية أمام ترجمة جديدة من صـنعه ومن صياغته. وقيل إنه لم يسلمها لوزارة الثقافة المصرية، بل عهد بها إلى أحد أبنائه الأساتذة. كما قام كاتب هذا البحث بتكوين لجنة من الأساتذة الشبان المتخصصين فى اللغة التركية ليترجموا هذه الرحلة تحت إشرافي وكنت وقـتها رئيسا لوحدة البـحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بـجامعة عين شمس بالـقاهرة عام ١٩٨٢م، لكن لـم يتم أحد من هذه اللـجنة عملهـا إلا الدكتورة ماجدة مخلوف، وكانت وقتها مدرسا مساعدا.

وعندما تولينا - أي كـاتب هذه السطور - رياسة المركز المصري للدراسـات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان سنة ١٩٩٠م، عـهدنا إلى أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصرى (عليه رحمة الله) بترجمة هذا العمل - أي رحلة أوليا جلبي، على ما في أصله العثماني من نقص، وعـهدنا إلى مجموعة من الباحثين الشبان بمـساعدته. وأنفق المركز على هذه الترجمة الشئ الكثير. وقد تطوعت الدكتور ماجدة مخلوف بمراجعتها وإكمال نواقصها. ولم نستطع نشر هذه الترجمة فـى حينها لأسباب متعددة رغم أنه لم يكن لنا أى مطالب مادية فيها، إلى أن اضطلعت دار الآفاق العربية بنشر هذه النسخة الورقية من الترجمة. عـلى كل حال، يظل أوليا جـلبي، رغم كل هذا، قمة أدب الـرحلات عند المسلمين.

أوليا جلبي: حياته ومسار رحلته

تعتمد معرفتنا لحياة أوليا جلبي. عـلى ما دوّنه في كتابه الضخم ذي المجلدات العشر الذي سجل فيه رحلته.

غير معروف لنا اسمه الكامل والحقيقي، وربما يكون اسم أوليا جلبى نسبة إلى معلمه أوليا محـمد أفندي. ارتحل أوليا جـلبي داخل كل البلاد العـثمانية وخارجهـا فى رحلة استغرقت حوالى الأربعـين عاما. وقد سجل رحلته هذه والتي تعتـبر نموذجا فريداً غير مسبوق في تاريخ الثقافة التركية ومازالت هذه الرحلة هامة حتى يومنا هذا.

ومن خلال ما جاء فى هذه الرحلة من معلومات، نقول أن أوليا جلبي ولد في العاشر من المحرم عام ١٠٢٠هـ- الخامس والعشرين م مارس عام ١٦١١، في حي (اون قايا) أحد أحياء استانبول. كان والده- كما ذكر في بعض المواضع من رحلته - يدعي درويش محمد أغا، ابن درويش محمد ظلي أفندي، وكان هذا الأخير صائغ ذهب. قيومجي) فى القصر السلطاني. وقد مال أوليا جلبي إلى المبالغة كثيرا في ما ذكره من أخبار في ثنايا رحلته. ومن هذه (المبالغات) أنه كان يوجد في بيوتهم عند مولده حوالي سبعين من العلماء والشيوخ، وقد تمكن بمددهم المعنوي أن ينجو بيسر وسهولة من كل ما صادفه في حياته من آلام وصعاب. وقد دون هذا كله ليذكر أن والده كان رجلا معروفا، وما يؤكد هذا التصور، ما ذكره من أن والده اشترك فى فتح جزيرة قبرص، وأنه قد مفاتيح ماغوسا. كما أنه صنع بنفسه ميزاب الكعبة في زمن السلطان أحمد الاول، وحمله إلى الحجاز باعتباره أمينا للصرة. واشترك في أعمال زخرفة باب ونوافذ مسجد السلطان أحمد، وأنه حظى بتقدير السلطان أحمد الأول لهذا السبب فرفع مكانته حتى أصبح (مصاحبا للسلطان). أما ماذكره أوليا جلبي عن أجداده، فلايعدو أن يكون معلومات غير منتظمة. ويتصل نسب عائلته بأبناء كرميان، ويذكر أنه ينحدر من نسل الشيخ أحمد يسوي. وأن أحد أجداده وكان يدعي ياووز أرْ، كان بيرقدار السلطان الفاتح. وأن ياووز أرْ هذا قد ابتني من مال الغزو مائة دكان أوقفها كلها، وكذلك البيت الذي ولد فيه أوليا جلبي.

ذكر أوليا جلبي أن أجداده عاشوا في حي زره كان في كوتاهية. ثم جاءوا بعد الفتح إلى استانبول واستقروا فيها. وكانت عائلته تمتلك - علاوة على البيوت التي تمتلكها في كوتايهة-، منزلا في حي اينه لك، وآخر في بورصه، وفي مغنيسيا، ومزرعة في صنديقا. وبعد استقرار عائلته في استانبول، امتلكت بيتين ودكانا في (أون قابان). وفي مدار حديث أوليا جلبي عن هذه الممتلكات، يذكر أن له حديقة في قاضي كوي. أما أمه فكانت من الأباظه (الأبخار)، وذكر أنه تربطه صلة قرابة من ناحية أمه بكل من ملك أحمد باشا، ودفتردار زاده محمد، وإبشير مصطفى باشا. وأن له أخ يدعى

محمود، وأخت اسمها إينال، وقد تزوجت أختـه هذه من الياس باشا الباليكسرى الذي تمرد في زمن السلطان مراد الرابع.

تلقي أوليا جلبي تعليما جيدا، وواظـب على تلقي العلم من خلال المدرسة لمدة سبع سنوات وذالك في مدرسـة شيخ الإسلام حامد أفندي. وانكب على حـفظ القرآن على يد أستاذه أوليا محمد أفندي. كما تعلـم فن الخط على يد والده، ثم انتسب إلى القصر وواصل تعليمه داخل الأندرون. كما تعلم الموسـيقى بسبب جمال صوته. واستعان في هذا بدرويش عمر أفنـدى واستفاد منه. وبعد فترة، قدّمه إبراهيـم أفندى الروزنامجي، والخطاط حسن بـاشا، إلى السلطان مراد الـرابع، وفي هذه المقابلة رأى ولـلمرة الأولى «أمير كونـه خان». وصار أوليا جلـبى المسئول عن الكـيلار الخاص بأمر من الـسلطان. وهناك أتم تعليمه وتـلقى دروسا في الخط والموسيقى والنحو والتـجويد، وغير ذلك من المعارف.

وحسب قبـول أوليا جلبي نفـسه، أنه كان كثير التـواجد في مجلس الـسلطان مراد الرابع، وكان يقص عليه اللطائف. وكان الـسلطان يستدعيه لمجلسه إذا ما اعتراه الضيق. ولاشك أن الجو الـعام داخل القصـر، لعب دورا هاما وإلي حـد كبير في زيـادة قدرته الأدبية، ومعارفه، وقدرته على الملاحظة. وكان أوليـا جلبي يطمح إلى أن يقضي حياته في التعلم، ولهذا ترك عمله في الأندرون، بعد أربع سنوات فقط قضاها ضمن السباهية براتب قدره أربعون أقچه.

واعتملت لـدى أوليا جلبي الرغبة فـي الرحلة للمرة الأولى، بـسـبب أحاديث والده التي كان يتـكلم فيها عن عمـله لدى الباشوات منذ زمـن القانوني حتى زمن الـسلطان إبراهيم ووقائع الرحلات المختلفة التـي استمع إليها من أصدقاء والده. ولاشك أن هذه الحكايات حركت لدى أوليـا جلبى الرغبة فى السفر. ويذكر أوليـا جلبي في كتابه، أن قيامه بهذه الرحلات، كان بسبب رؤيا رآها في منامه، في ليلة عاشوراء من شهر المحرم سنـة ١٠٤٠هـ (١٩ أغسطـس ١٦٣٠) وفيها رأى الـرسول عليـه الصلاة والسـلام في جماعة في مسجد آخـي جلبي بجوار يميش اسكله سي في استانـبول، فاعتراه الانفعال

وهم يقبل يد رسول الله، وبدلا من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال من فرط الانفعال «السياحة يارسول الله» فتبسم له النبي وبشره بالشفاعة والسياحة والزيارة (الحج) ودعا له الصحابة في هذه الجماعة، وتمني له سعد بن أبي وقاص أن يكتب مايراه. وقال له الشيخ عبد الله دده شيخ «المولوي خانه» في حي «قاسم باشا»، في تفسير هذه الرؤيا، «اتبع نصيحة سعد بن أبي وقاص، وابدأ بالكتابة عن استانبول». بناء على ذلك قرر التجول في المدينة التي ولد وعاش فيها أولا، وكتابة كل مايراه. تجول أوليا جلبي في استانبول وطاف بأحيائها واحدا تلو الآخر، وجالس الناس في المجالس على اختلافها، وفى المقاهى والحانات، وجمع المعلومات عنها. وكانت أول رحلة له خارج استانبول في عام ١٦٤٠، وكانت إلى بورصه. وقد ذهب إليها بغير إذن من والده، ولدى عودته منها، أذن له والده بالرحلة مرة أخرى، وأوصاه بكتابتها. وربما تمكن أولياء جلبى أثناء تجواله فى استانبول، من القيام برحلات إلى كوتاهية ومغنيسيا، وإزميد، لكنها كانت رحلات قصيرة بسبب ارتباطه بعائلته.

كانت أول رحلة لأوليا جلبي إلى بلاد بعيدة، ظفر بها من خلال وجوده مع كته نجي عمر باشا والي طرا بزون. فقد ذهب أوليا في معية الباشا إلى هناك عن طريق البحر، ومنها توجه إلى عنابه. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة التى قادها حسين باشا لاسترداد قلعة آزاق سنة ١٦٤١م. ولم تسفر الحملة عن شئ فتوجه إلى القرم وحل ضيفا على بهادر خان. وقطع الشتاء فى باغجه سراي. وفي الربيع. اشترك في فتح الأزاق، ثم رجع من القرم إلى استانبول عن طريق البحر. وتعرضت المركب التي يركبها لعاصفة قوية وكادت أن تغرق. وبعد رجوعه إلى استانبول توقف عن الرحلات لمدة أربع سنوات وربما كان هذا بسبب الخوف. ثم خرج للرحلة مرة أخرى في عام ١٦٤٥. وفي هذه المرة اشترك في الحملة على كريت مع يوسف باشا. وشاهد فتح قلعة قانيه، ثم عادة إلي استانبول. وفى العام التالي رافق دفتردار زاده محمد باشا إلى أرضروم لدى تعيينه أمير أمراء عليها، وصاحبه أوليا باعتباره مؤذن ومصاحب له. وصار ضمن رجاله. وأثناء الرحلة زار بعض مدن الأناضول، واشترك في حملته على شوشك،

ورافق رسول الصفويين لدى عودته إلى تبريز. وتجول في اذربيجان وكردستان، وطوّف بأنحاء باكو وتفليس وروان وكوموش خانه وطورطوف، وشارك في الحملات على كردستان. ثم نُقل دفتر زاده محمد أفندي الذى أقام علاقة مع الباشوات المتمردين في تلك القري، من عمله هذا وعيِّن في قارص، لكنه لم يهذب إلى عمله الجديد، وعندما خرج للعودة إلى استانبول، كلف أوليا جلبي بنقل رسائله أثناء قيام أوليا جلبي بوظيفته هذه، تعرف برؤساء الجلالية مثل قره حيدر أوغلو ممد وقاطرجي أوغلو محمد. كما عاصر تمرد واردار على باشا، ويفسح فى كتابه مكانا للحديث عن هزيمته على يد بشير مصطفى باشا، ومقتله. (سياحتنامه ج٢، ص ٤٤٨-٤٥٢).

ثم ذهب أوليا جلبي في شهر أغسطس من عام ١٦٤٨ إلى الشام بصحبة مرتضى باشا لدى تعيينه بكلر بك هناك، ومن هناك تمكن نقل مرتضى باشا من الشام إلى سيواس، ذهب معه أوليا جلبي إلى سيواس، وتحايل بوسائل شتى حتى تمكن من السياحة في مدن وسط وشرق الأناضول، ثم رجع إلى استانبول سنة ١٦٥٠.

وفى العام نفسه، وأثناء وجوده في استانبول اعتلى ملك محمد باشا منصب الصدارة وكانت تربط بينه وبين أوليا جلبي صلة قرابة ومعرفة وطيدة، فكان ذلك واحدة من أهم نقاط التحول في حياة أوليا جلبي. فصار واحدا من أقرب الرجال إلى الصدر الأعظم. لم يتردد في أن يسجل صراحة الوجه الآخر للأحداث التي شاهدها من خلال موقعه هذا. وسجل في كتابه أدوارهم في التمردات والمظالم التي وقعت. وكان قيام ملك محمد باشا بسك عملة مغشوشة للخروج من الأزمة المالية، سببا في تمرد أصحاب الحرف بتحريض أغوات الانكشارية، وبناء عليه تم عزله من الصدارة، وتم تعيينه بكلر بك في أوزي، مما أتاح السبيل أمام أوليا جلبي للسياحة مرة أخرى. فذهب برفقة ملك باشا إلى هناك. وخلال ذلك شاهد روسجق وسلتره، وبابا داغي. واشترك في أعمال وكتابة وتحرير القرى والقصبات التى هناك. كما كان برفقة ملك أحمد باشا أثناء وتوليه منصب بكلر بك الروملي. ولكنه رجع إلى استانبول في يوليو ١٦٥٣ بعد عزل الباشا. وظل في استانبول لفترة طويلة. وذات مرة حمل رسالة إلى ابشير مصطفي باشا في

قونيه. ثم عاد أوليا جلبي ليطوف مرة ثانية في دروب الأناضول بعد تكليف ملك أحمد باشا بمنصب بكلر بك، وان. وأثناء هذه الرحلة تمكن من التجول في كثير من الأماكن في شرق الأناضول كما تجول في أنحاء إيران وبغداد من خلال مهام مختلفة قام بها. عقب هذا، ذهب مع ملك أحمد باشا إل أوزي مرة أخرى بمناسبة تكليفه بمنصب بكلر بك. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة المتجهة إلى راقوجزى، كما اشترك أيضا في الحملات التي شنها محمد كيراي الرابع، خان القرم ضد الروس والقازاق.

وبعد أن أقام فترة في استانبول، خرج في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٧، وتجول في بوصره وجناق قلعه وغاليبولي. وفي عام ١٦٥٩، أتيحت له الفرصة للسياحة مرة أخرى، وفي هذه المرة انضم إلى القافلة المتجهة إلى إقليم ستيفانيتزا من البغدان. واشترك في هجمات متعددة مع فرسان القرم وفي التحركات التي تمت لتأديب ميهنيان الثالث أمير الأفلاق المتمرد. وعقب عودته إلى أدرنه مباشرة، اشترك في حملة كوسه على باشا إلى واراد. وبعد هذا التحق مرة أخرى بملك أحمد باشا أمير أمراء البوسنة، وطاف بولاية البوسنة. واشترك في كل التحركات العسكرية التي تمت في هذا الإقليم. ثم ذهب إلى صوفيا أيضا مع ملك أحمد باشا، وتجول في الروملي بسبب تكليفه بمهمة جمع الضرائب. وفى هذه الفترة، اشترك في حملة كوسه على باشا على الإردل في صحراء طمشوار. (١٦٦١). وهناك، جال في الإردل مع جنود القرم. ثم ذهب إلى بلجراد لقضاء فصل الشتاء وعقب ذلك كُلف بتحصيل المال فى الأرناؤوط (ألبانيا) عقب عودته إلى استانبول، كان أوليا جلبي يتحين الفرص للقيام بسياحة جديدة فاشترك في حملة فاضل أحمد باشا على النمسا فى عام ١٦٦٣. واشترك في كل مراحل هذه الحملة. وعقب فتح قلعة أويوار، - وحسب روايته - تجول في ديار كثيرة من بوهيميا حتى بلغ السويد وهولندا. ولدى عودته إلى بلغراد، حمل رسالة إلى سوخ راب محمد باشا في الهرسك. وهناك اشترك في التحركات التي جرت على طول حدود البندقية. وبعد ذلك رجع إلى المجر، وحضر معركة رَعْب. وقد قدم معلومات مستفيضة عن هذه المعركة. (سياحتنامه، ج٧، ص ٨١-١٢٠) وفي عام ١٦٦٤، ذهب إلى فيينا فى

صحبة السفير قره محمد باشا وطاف معه على القلاع التى تم فتحها حديثا وذلك عقب معاهدة وارسوار، وكتب أوليا جلبي أنه التقي في فيينا بالإمبراطور ليوبويد الأول، والقائد مونته جوجوللي، وأنه ذهب إلى الدانمارك وهولند (١) وبراند نبرج بإذن من الإمبراطور، وقال أنه طاف ببلاد كثيرة، لكن هذا أمر مشكوك في صحته.

وبعد فترة ذهب أوليا إلى القوقاز سالكا طريق القرم، فوصل حتى شواطئ الفولجا، وقال أنه بعد أن طاف بهذه الأماكن انضم إلى قافلة ورجع إلى قلعة آزاق، ثم ذهب من كفه إلى باغجه سراى، واشترك في بعض الحملات التي قام بها عادل كيراي. وفي مايو ١٦٦٨، رجع أوليا إلى استانبول. وفى شهر ديسمبر من العام نفسه طاف بمدن الروملي مثل أدرنه وكوموجنه وسلانيك. ثم ركب البحر من الأناضول إلى كريت وفى تلك الأثناء كانت قلعة قنديه في كريت مازالت تحت الحصار، فشاهد بنفسه كل صفحات هذه الحصار، وسجل أحداثه في رحلته، وكتب «فتحنامه قنديه» وتجول أوليا في كريت وقدم معلومات مفصلة عنها. ثم رجع من هناك إلى المورة واشترك في التنكيل بمتمردي «فانبوت ثم ذهب إلى بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) وطارق بها، ثم رجع إلى استانبول في ديسمبر عام ١٦٧٠. ظل أوليا في استنابول بضع شهور، ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج الذي كان يتحرق شوقا إليه منذ أمد، فقرر الارتحال مرة أخرى. وارتبط خروجه للرحلة هذه المرة برؤيا رآها في ليلة القدر عقب عودته من زيارة قبر أبو أيوب الأنصاري، فقد رأي في منامه، والده، وشيخه محمد أفندي وأوصياه بالحج فخرج من استانبول لهذه الغاية برفقه صديقه سائلي جلبي، وثلاثة من الرفاق وسبعة من الخدم، وذلك في مايو من سنة ١٦٧١. وكانت هذه الرحلة هي الأولى التي يرتحل فيها في رحلة طويلة بدون أن يلتحق بقافلة، إنما خرج مع مجموعة محدودة من الرجال. لهذا اختلف مساره في الرحلة عن ذى قبل. فقد مر ببورصه وكوتاهية وافيون ومنها إلى إزمير، ومن هناك ذهب إلى جزر صاقيز وسيسام، ثم رجع ثانية إلى غرب الأناضول، فطاف بسواحل آيدين ومنتشا وجزر استان كوي ورودس، وكتب معلومات عنها استفاد فيها من دفتر خانة رودس. (سياحتنامه، ج٩، ص ٢٥٦.) ثم انتقل أوليا من رودس إلى الأناضول،

وزار مدن جنوب الأناضول التي لم يتمكن من زيارتها من قبل، وتجول في إطنه ومرعش وعينتاب وكليس ومنها ذهب إلى سوريا. وفي الشام التحق بقافلة أمير الأمراء حسين باشا وتوجه إلى الحج. وقد سجل في كتابه، على حده، مسار رحلته للحج. وبعد أدائه للفريضة، ذهب إلى مصر. وسنحت له الفرصة وهو في مصر ليطوف بالمنطقة كلها فذهب إلى السودان والحبشة. ولعله خص لهذه الديار الجزء العاشر والأخير من رحلته، والذى كتبه فى مصر. ونتبين منه أنه قضى فى هذه المنطقة مدة تربو على عشر سنوات، وذكر أنه أثناء إقامته في مصر، انعقدت الصداقة بينه وبين الأمير أوبك بك، وقد احتوى الجزء العاشر محصلة هذا. لكن النسخ التي كتبها من هذا الجزء انتقلت إلى استانبول بعد إهدائها إلى الحاج بشير أغا، أغا البنات المشهور في زمن السلطان محمود الأول. ثم انتهي الجزءالعاشر من رحلة أوليا جلبي بدون أن يكتمل، لهذا فإن التصور هو وفاة أوليا جلبي قبل أن يضع نهاية كتابه، وليست هناك معلومات مؤكدة عن مكان أو تاريخ وفاته. وقد ذكر جاويد بايصون أنه بناء على المعلومات الواردة في نهايات الجزء العاشر من الرحلة، تكون وفاة أوليا جلبي في حوالي سنة ١٠٩٣-١٦٨٢م (دائر المعارف الإسلامية، ج٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المعلومة تم تصحيها بعد ذلك حيث ومحتمل أنه كان على قيد الحياة عام ١٩٠٥هـ-١٦٨٤م، وأنه أدرك حصار فيينا للمرة الثانية. كما أن هناك أقوال بأن وفاته كانت بعد عودته من مصر إلى استانبول. ويقال أن قبره موجود في مدافن أسرته بجوار قبر (ميت زاده).

ثم يتزوج أوليا جلبي. ونتبين من كتابه أنه كان ماهرا في الفروسية، ولعب الجريد، وكان دؤوبا نشيطا، عذب الصحبة، له في مجالسه لطائف يتوق الجالسون إلى سماعها، ورغم معرفته الجيدة برجال الدولة في عصره، إلا أنه لم يحرص على المناصب ولم يسع إليها. وأوقف حياته كلها على السياحة. وكان يجد في الوظائف التي شغلها كأن ينقل الرسائل أو يقوم بتحرير (=كتابة) القرى، ويجمع الضرائب عونا له في القيام بهذه الرحلات، وكان في بعض الأوقات ينضم إلى موكب أحد السفراء ليرتحل ويجد في هذا فرصة للقيام برحلة مأمونه. وكان ثراء عائلته يؤمن له نفقات رحلاته الطويلة، فكان

يأخذ معه خدامه وعبيده بل وأصدقاءه. وكانت العطايا التي يحصل عليها مقابل أدائه بعض الخدمات، والأموال التي تتوفر له من بيع غنائم الحملات التي اشترك فيها كل هذا كان يوفر له مصادر إضافية للمال. كما أن انضمامه إلى بعض الهيئات الرسمية كان يعفيه من نفقات بعض الرحلات.

ومثّل ملك أحمد باشا دورا هاما في رحلات أوليا جلبي، سواء أثناء توليه منصب الصدارة أو أثناء شغله وظيفة أمير الأمراء في أوزى والبوسنة والروملي ووان وديار بكر، حيث أن أوليا جلبي لم يفارقه في أي منها. وبذلك تمكن من التجول في مناطق كثيرة من الأناضول والروملي. حتي أنهم وصفوه بلقب «المنسوب إلى ملك أحمد باشا». واكتسب أوليا جلبي من رحلته التي قاربت نصف قرن من الزمان، تجارب ومعارف لانهاية لها. فكان شاعرا وخطاطا، ومزخرفا وعارفا بالموسيقى. وقد أكد مواهبه في مواضع كثيرة. وقد قام بكتابة الخطوط التي على الحرم الهمايوني على النسق القره حصاري. كما أنه عبر في كتابه، عن الانبهار الذي شعر به أمام الكتب المذهبة وذات المنمنمات التي شاهدها في مناطق ترحاله. وكانت له روح رقيقة متصوفة يصف نفسه بأنه «أوليا بلاريا» (أوليايي بي ريا) وبسبب تواضعه التف حوله الكثير من الأصدقاء. فضمت حاشيته الولاة والقادة. لكنه لم يتراجع عن توضيح ما لمسه فيهم من نقاط للضعف. ويغلب علي أوليا جلبي في كتابته حسن التعبير. أما أسلوبه، يجذب القراء رغم مايبدو فيه من أخطاء نحوية متناثرة. ونجد فيه بعض الأشكال التي لاتتواءم في فهمها مع لغة الكتابة. وقد أعطى أوليا جلبي أهمية خاصة لأشكال الحديث واللغة بين الاناس في الأماكن التي طاف بها. وهو بعبارته البسيطة وتعبيراته الصادقة التي كتبها وكأنه يتكلم، ظهر وكأنه يخاطب بها كل إنسان. وقد رأي بعض الباحثين في سياحتنامة هذه أنها مذكرات. وكان أوليا جلبي كثيرا مايدنو من الأحداث بصورة أخّاذة. ولايتورع عن تقليد من يلتقي بهم من شخصيات. وكان أحيانا يروي حادثة أو خبر مصطنع لكي يجعل الشئ الذي ينقله أكثر إثارة (تلونا). كما يبدو وقد أفسح مكانا للغريب من الوقائع التي لاتتفق مع العقل بغرض جذب اهتمام القارئ. مثال ذلك أن القرية التي يمر

منها الأفـيال، تقوم النســاء فيها بتولـيد الأفيال. والمغامـرات التي تقص أنبـاء الغيب، والأطباء الذيـن يعالجون الأمراض التي لاعلاج لـها، وما شابه ذلك. ويصـيغ كل هذه الأشياء غير العادية بأسلوبه وشرحه الجميـل، حتى أنه يمكن القول إنه اجتهد بهذا النوع من الحكايـات التي تثير اهـتمام قطاع كبـير من الناس، وأن يضـفي على كتابـه مسحة شعبية. ودفعته رغـبته في أن يترك أثره في الأمكان التي يمر بهـا- إلى جانب تواضعه- إلى أن يكتب على جدران المنازل «الفاتحة على روح أوليا» فقد كان صاحب دعابة.

وحسبمـا نتبين من كتـابه، كان أوليا جلبـي يحب أوقات المرح، كمـا كان صاحب ذوق. ولاشك أنه لهذا تأثير فيما كتبه وذكره من وقائع غريبة ولطائف. وكان أثناء تجوله في كل شبر من استانبول، يخالط رواد المـدارس والحانات ورواة المأثورات الشعبية، كما تعرف على أرباب الحرف فيها وصادقهم.

مسار رحلة أوليا جلبي

تضمن كتاب سـياحتنامه أوليا جلبـي بمجلدته العشر، الأحداث التـي شاهدها أوليا جلبي فـي الأمكان التي تجول بـها، ويعتبر بمـثابة كتاب شامـل وهام في تاريخ الثـقافة التركـية. . وهذا الكتـاب المعروف باسم سـياحتنامـة أوليا جلبـي، وباسم أوليا جـلبي سياحتنامه سـي، تحمل بعض النسخ منه اسم «تاريخ سـيّاح». والجزء الأول منه يصور استانبول، والثانـي يصور بورصه وإزميد، وبارطين، وأماصرا، وإينـه بولو، وسينوب، بافرا، وصامصون، وكيره سون، وطرابيزون. كمـا يقدم معلومات عن كرجستان وديار الأباظـه، وحملة كـريت وفتح قـلعة خانـيه، ودوزجه، وبولـو، وكرهده، وأماسـيا، ونيكسار، وأرضـروم، وأرزنجان، وشبنقره وحصار، ومرزيـفون، وجوروم. وفي الجزء الثـالث يأخذ بـالحديث عن اسـكيشهـر، وليكين، وقـونيه، وأولوقـيشله، وبـاياص، والإسكندرون، وأنطاكيه، وحما، وحمص، والـشام، ويافا، وبحر لوط، والرمله، ثم قيـصري، وسـيواس، وموش، وعـرب كير، وخـربوط، وبـينكـول، ومدن بـرغاز، وبراوادي، وشومـنو، هزارجراد، وروسجـق، ويركويي، ونـيبولو، ثم يـصف أطراف

أوزي، وكستانجه، وباباداغي، وزغره العتيقة، وفلبه، وتاتار بازارجق، وصوفيا، وجسر مصطفى باشا، وأدرنه. وفي المجلد الرابع يقدم معلومات عن ديار بكر، وماردين، بتليس، وان، ومن إيران رومية وتبريز، وهمدان، وكرمان شاه. في المجلد الخامس يبدأ أوليا جلبي بوصف ما رآه في مساره من إيران إلى بغداد، ومن هناك إلى سعرد، ومروره بطوقاد أثناء عودته إلى استانبول. بالإضافة إلى أنه في هذا المجلد يصف الطريق إلى اوزي، ويصف وارنه، وإسماعيل، وآق كرمان وبندر، وحملة لهستان (بولندا) التي اشترك فيها من هناك، وأوكرنيا، وبروت، كلبورن، ورحلة الأناضول التي خرج فيها مع السلطان محمد الرابع بعد عودته إلى استانبول، والوقائع المتعلقة بأباظه حسن باشا رئيس الجلاليين. والأماكن مثل القلعة السلطانية وبوزجعده، غاليبولي، وبولاير، وكاشان، والقره، والبوسنه، واسكوب، ومناستر. وفي المجلد السادس يبدأ أوليا جلبي بذكر الحملة التي خرج فيها إلى الإردل برفقة كوسه على باشا، ويمر ببلاد الصرب، والمجر، ورومانيا. ويتكلم عن المدن التي في هذه البلاد. وفي المجلد السابع، يصف الذهاب إلى فيينا مع سفارة قره محمد باشا، ويصف قانيجه، واستويني، وبلجراد، فيينا وقلاعها، ثم الوصول إلى المجر وبودين، وطمشوار، وولايات الأفلاق والبغدان، والأقوام في ولاية القاراق، والقرم وداغستان، والقوقاز، ولغاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم.. وفي المجلد الثامن، ويصف العودة إلى استانبول من الآزاق عبر طريق كفه، وباغجه سراي، وقيل بورون، وآق كرمان وإسماعيل، وبابا داغي، وخاص كوي، وأدرنه وديماطوقه، وكوموجينه، ودراما، وسلانيك، مرورا من الزوره وخانيه، كما يتكلم عن ما بعد اشتراكه في فتح قنديه، فيذهب إلى الأرناؤوط، ومن هناك يصف العودة إلى استانبول من فوق يانيه وتبه دالن، وبولونيا، ودراج، وايلباصان، واوهري، ورسنه، ومناستر، اشتيب، وجسر مصطفى باشا وأدرنة. وفى المجلد التاسع، يصف المدن الواقعة على الطريق الطويل الممتد من استانبول إلى مكة والمدينة، وغرب وجنوب الأناضول وسوريا. أما الجزء العاشر فكله خاص بمصر، وتناول فيه الأقاليم القريبة من مصر، وشواطئ النيل، والسودان وبلاد الحبشة.

مسار رحلة أوليا جلبي في مصر، كما وردت في رحلته

القاهرة - شبرا - بطن البقر - قنطرة الملك الطاهر - مصر خيم - عفريت - تفاحية - مبهوم - شبرتين - زفتي - ميت غمر - سرسنه - منوف - سرسنه - طوخ النصارى - طنطا - محلة مرحوم - ابيار - نهاريه - بلدة القبيلة - بلدة الفرزدق - محلة صال (محلة قلبية) - محلة أبو علي - بلدة المجنون - دسوق - مرقص - رحمانية - داودية - سنهور - دمنهور - حوش عيسى - مدينة العُقَّاب - دمنهور - جبل قاسم بك - بصطيره - رزقون - زاوية الجنزال - ناصرية - سنتاويه - برسك - نحل - أبو خضر - قراوي - قافلة - دشوش - بُركه - رويجب - لقون - بُركه - جريون - مولضفي - اقريش البستلقون البيضا - جنان - الإسكندرية - أبوقير - ادكو - رشيد - الإسكندرية - عزبة المغدي - هدية - محلة الأمير - برمبال ديَّه - ادفينا - محلة مطوبس - جمشيره - فزاده - ديروط - سنديان - عاطف - فوه - شرف - شرمباي - مالك - شموخزاد رحمانية - إبراهيم الدسوقي - أبو على - مركز - دية البير - شبراخيش - شبريش - ميت جناح - كفر جديد - نقله - فرزدق - اشلميه - طاهريه - كفر الزيات - شبوج - سلمون - كفر النحا - كفر جديد - أبو أحمد - البحيرة - زايره - طنوب - طيرنه - علقمة أبو الجاوي - طماليه - جزي - طراره - زاويَّة - أبو نشانه - إشمون جريس - كفر شركس - قوطه - أم دينار - شيراوي - دراري - بارودخانه - شبرا - الورّاق - امبابة - بولاق - العزبه - عزبة الحاج - البرلس - بلطيم - السنانية - دمياط - تينه - فَرْص فارسكور - كفر السليمانية - شرباص - ميت أبو غالب - رأس الخليج - أبو عبد الله - طهربة - بُشاط - دِنْجي - مساط - شربين - بدوي - بترا - درمبال - دياسط - خياريه - قاش - المنصورة - المنزله - طلخا - الشيخ رمضان - ميت خميس - ميت الغرقي - ميت ويش - ميت عساس - ميت نورسي - ميت المنيا - سمنهود - أبو على قيطاس - أغا- محلة الكبير (المحلة الكبرى) - سمنود - أبو الحارث - أبوصير - ميت برقع - بريه - المنظره - ميت بدر - ميت دمسيس - ميت أنسا - سنباط - شرنجي - دنهور - غمار - رفتي - المعصرة - غريب - صهريج -

مسيد - صيد - عز - هارون - صفين - تـغني - سندي - بريّ - أشمون - مويش - ملاو - بنها - بطاي - رمبلي - أبو الطـوافتي - العطار - سيدي - خصر - عطف - طُخلا (طلخا) - جـوخ (طوخ) - عفيف - طنط - برشمس - بـرسوم - أبو شعره - قليوبية - شبرا - شروي - شبرا - القاهرة - الـبساتين - المعدية - مُحنط - قهوه خانه - دلي حسين باشا - الزاوية - كوم الدير - ميمـونه بني سويف - الفشن - أبو جرجو - كليـس (قيس) - سمنود سـعيد - المنيا أشـمونين - ملاوي - دار شيد - صـنبو - منفلوط - أسيوط - شطوب - جبل الطير (طيلمان) - أبوتيج - الشيخ بن عابد - طما - الجزيرة - سوهاج - المنـشية - جرجا - خالد - جمادي - مزار - بـلابيش - فوحة على - قنـا - القصير - أنبـوت - قوص - شمونين - طوت - شـفارس - أم على - حجيـزه ردسي - شبيـكه - سلسلـة - إدفو - - كوم سيـاه - كوم امبو - سـنباص - أسوان - الشـلال الأول - علوي- باب الـنوبه - قلـعة إبريب - كـنوزين - مهـريه - كلابشـه - أبوخور - سنـيال - قشطامـينه - كورد - وادي الـعرب - أزرق - إبريم - وادي حلفا - إبريم - سبوع - كنوز - طمانيس - رقُبه - كرخ عرباني - حمام فرعون - باجه - إدفو - حجيزه - جعفري - كلخ - فرشوط - سمنهو - برديس - أسيوط - هركه - قـلمون - ألواح - البـهنسا - - لاحون - الهـوارة - الفيوم - كامـيا - خان القهوة - أطفيح - الجيزة - القاهرة - الإسكـندرية - القاهرة - سبيل علام - المطرية - عين شمس الخـانكة - مشيره - دراعم بابـيس - رني - قرين - ستاره - الـصالحية - قرين - على - القاهرة - الإسكندرية.

مصادر رحلة أوليا جلبي

يقول أوليا جلبي في مقدمة رحلته في مصر :

«وبينمـا كنت أبحث عمن أقـام تلك الأبنية ذات الطـلاسم، وتلك القصور الـعالية رجعت إلى مالا يحده الحصر من التواريخ القيمة، وهذا بيان بعناوينها:

١- تاريخ المقريزي وهو كتاب عظيم مشهود له بصحته التاريخية، وهو مستخدم من

كتب قبطية وسـريانية، ودهلوية ومغولية ولاتيـنية ويونانية ويتقبله الخـاص والعام بقبول حسن. ٢- تاريخ ابن جرير الطبرى صاحب التفسير القديم وهو تاريخ نفيس.٣- تاريخ الشيخ الإمام السيوطى، وهو تاريخ له ماله من عظيم قيمته.٤- تاريخ صابئة.٥- كتاب فتوحات مصـر لابن عبد الحكم.٦- كتاب فـضائل مصر لابن الكنـدي.٧- كتاب ابن زولاق (فضائل مصر وأخبارها).٨- كتاب خطط الـقضاع.٩- كتاب إيقاظ المتغفل لتاج الدين محمد بن عـبد الوهاب الزبيري. ١٠- كتاب مناهج الفكـر ومنهج العبر. ١١- كتاب عوان عنوان السير. ١٢- كتاب المسالك لابن فضل الله. ١٣- كتاب الإصابة في معرفة الـصحابة. ١٤- كتاب الرجـال العشرة للحـسيني. ١٥- كتاب طبـقات الحفاظ للذهـبي. ١٦- كتاب طبـقات الشافعـية للسـبكي. ١٧- كتاب طبـقات المالكـية لابن فرحـون. ١٨- كتاب طـبقات الحـنفيـة لابن دقـماق. ١٩- كتـاب مرآة الزمـان لابن الجوزي. ٢٠- كتاب الـبداية والنهاية لابـن كثير. ٢١- كتاب إنبـاء الغمر بأنبـاء العمر لابن حجـر. ٢٢- كتاب الطـالع السعـيد الجامع أسـماء نجباء الـصعيد. ٢٣- كتـاب السكُردان لابن حجلـة. ٢٤- كتاب سجع النهرين في أوصاف نهـر النيل. ٢٥- كتاب ثمار الأوراق لابـن حجة. ٢٦- كتـاب تواريخ الشهـاب جلبي ترجـمة لكتـاب حسن المحاضرة «للشيخ السيوطي. ٢٧- تاريخ محمد جلبي.

ثم يقول أوليا جلبي :

«علاوة علـى تلك الكتـب السالف ذكرهـا قرأت كثرة مـن الكـتب والـدواوين في مصر.

وهكذا يوضح أوليا جلبي للقارئ الكتب والمـصادر التي اطلع عليها قبل زيارته لمصر ثم يوضح أن هناك كتبا أخرى استعان بها وقرأها فى مصر.

أما عن طريق تعامل أوليا جلبي مع المصادر فقد اختلفت من مصدر لآخر، حيث أن هناك مـصادر مفضلـة بالنسبـة له اعتمد عـليها اعتـمادا كبيرا فـي أغلب فقرات كـتابه ولتوضيح ذلك على النحو التالي:

أولا : يقول أوليا جلبي عن مصادره المفضلة.

«وليعلم من يطلعون عليها (يقصـد رحلته) أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمـدة من خرائط علوم الهـيئة والأطلس والجغرافيـة وتواريخ القبط وتواريـخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوي العقول الراجحة.

ومن أمثلة استعانته بتلك المصادر التى ذكرها يقول :

وبناء على تـواريخ اليونات أن مصر أول بلـد عربى على وجه الأرض تميز بـالعمائر العـظيمة والأخـرى بغداد والصـين وعراق الداديـين وهذه المدن الأربعـة تشكل الـسوء الأعظم من العالم.

«وبناء من أمثلة اعتماده على تواريخ الصابئة وهي من المصادر الأساسية له خاصة في فترة التاريخ القديم منذ هبوط آدم، وأخبار وسير أبنائه يقول: «وجاء في تواريخ الصائبة أن إدريس كان له في علم الكتاب اليد الطولـي والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما في الوجود من شئ، ويحرز جميع الوقائع في يوميات ويحفظها في جبال الأهرام».

أيضا اعتمد على تـواريخ القبط فقال في إحدى فقراته التى نقـلها عن هذه التواريخ وهي خاصة بدعـاء سيدنا آدم عليه السلام لمـصر يقول أوليا جلبـي: «أما دعاؤه لمصر، الذي أخذت ترجمته عن التواريخ القبطية فسوق نـكتبه في مجموعتنا تلك. دعاء سيدنا آدم عليه السلام صفي الله في حق مصر بلـسان كلام الله العبري «صام اللهم طط زد لم يتم إيما نمي حوز جيرز بـاشيطا لأن صقله فلازريبا قورتا ربني قـورتا بني (مصرع ثاني) شوزم تراكن جملة ملكلرك طرز ولـم شريزتنا بكا خذمت اتسنلر.

وعن مصادر في المـعلومات الجغرافية كان «بـطليموس» هو المفضل لـه حيث يقول: «وعلى حد بطـليموس الحكيم على وجـه الأرض مئتا نهر عظيم وأربـعة وأربعون ألف عين جارية».

هذا بالنسبة للتاريخ القديم، والنواحـى الجغرافية، أما عن تاريخ مصر الإسلامية فإن أهم المصادر التى اعتمد عليها هو كتاب تاريـخ المقريزي والذي نقل عنه الكثير واستشهد به في كثير من مواضع كتابه، بل ومدحه قائلا:

«وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزي القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية، والقبطية، واليونانية، وكأنه في كثرة سياحاته فيثاغورث وقد تحدث عن أول من بنى مصر القـديمة وكان ما قاله صحيحا، وهو القائل إن آدم اسـتوطن مصر ثم أمره

الله بالتوجه إلى الشام، وكان لشيث ولده اسمه (غرياب) وابنه نقراوش، وكان نقراوش هذا متضلعا في جميع العلوم، وقد أحب نقراوش هذا وسماه «مصرايم» وأمره بتعمير مصر ومضى آدم إلى الشام لزراعتها ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فرارا من ظلم قابيل...»

ويقول أوليا جلبي عن المقريزي في موضوع آخر من كتابه إنه مؤرخ العالم وهذه المبالغة فى مدحه إنما لشدة إعجابه به وأخذه عنه فيقول:

«يقول مؤرخ العالم الشيخ المقريزي: إنه لايخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم».

وهكذا تكرر استشهاد ونقل أوليا جلبي الكثير من تاريخ المقريزي. ومن المصادر التي اطلع عليها أوليا جلبي كتاب تذكرة داود، ويبدو أنه من الكتب التي اطلع عليها في مصر حيث إنه لم يذكره في المصادر التي ذكرها بداية كتابه يقول أوليا جلبي عن عصير العرقسوس: «وقد بذكر داود في تذكرته سبعين فائدة له، ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر البول».

ومن المصادر التي اعتمد عليها أوليا جلبي خاصة في ذكر الفتح الإسلامي لمصر كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم وإن كان ما أخذه عنا بن عبدالحكم قليل فهو لم يذكه كما يذكر المقريزي وقد أخذ عنه ما يلي:

وبناء على قول بن عبدالحكم رحمه الله: إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينبع وعرفات وإلي ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم.

ويبدو أن أوليا جلبي لم يكن ينقل نقلا تاما عن هذه المصادر وإنما كان يصيغ ما يأخذه منها بأسلوبه، فقصة زيارة عمرو بن العاص لمصر في الجاهلية مقارنة بما جاء في رحلة أوليا جلبي فوجدته يتفق في المضمون مع ماجاء في كتابي فتوح مصر لابن عبدالحكم وما جاء فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى ولكنها تختلف بعض الشئ في صيغتها كما أنها أكثر اختصارا فى رحلة أوليا جلبى.

ومما يؤخذ على أولياء جلبي أن سرده للجزء التاريخى المتعلق بفتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب يتسم بالسطحية حيث لم يأخذ عن ابن عبد الحكم إلا ما ذكرناه سالفا

مع العلم إن ابن عبد الحكم مرجع المؤاخين القدامى فى كتابه حسن المحاضرة. أيضا لم يحدد المصدر الذى رجع إليه فى الأحداث المتعلقة بهذه الفترة.

ومن المصادر الأخرى التى اطلع عليها وذكرها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى، والذى نقل عنه كثيرا من المعلومات الخاصة بالطوفان ومصر، وأبناء نوح عليه السلام، وكتاب ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة.

أيضا من المصادر التى اطلع عليها وذكرها فى ثنايا كتابه ولم يذكرها فى بداية كتابه عند ذكره للمصادر كتاب مروج الذهب للمسعودى، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وكتاب عبد الوهاب الشعرانى أحد أقطاب الصوفية فى مصر العثمانية، وقد اعتمد أوليا جلبى على كتابه لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار أو مايعرف بالطبقات الكبرى، وكتابه البداية والنهاية لابن كثير. أيضا اعتمد على كتب التفسير فاستخدم تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، كما استخدم العديد من كتب الحديث كان أهمها كتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م كذلك صحيح مسلم.

يؤخذ على أوليا جلبى قوله فى كثير من الفقرات التى ينقلها:

وبناء على قول كثير من المؤرخين أو بناء على قول كثير من المفسرين أو أجمع المؤرخون دون تحديد مصدر نقل عنه أو تحديد من هم هؤلاء المؤرخين أو المفسرين والأمثلة على ذلك كثيرة منها. قوله «وهذا مااجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين»، أيضا قوله «وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين» وفى ص ٢٩ «أجمع المؤرخون على القول الصحيح وهو أن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد عبد وفاة النبي (ﷺ) بثمانية عشر عاما».

وهكذا تكثر هذه المقولة فى كتابه أوليا جلبى وكان الأفضل أن يذكر اسم كل مصر ينقل عنه.

ورغم ذلك نجد أوليا جلبى يتميز بتحليل ومناقشة أراء غيره ومقارنة بعضها ببعض فى كثير من مواضع كتابه مثل قوله: «ومن الخطأ قولهم إن الفيّوم من ألف يوم، وإن

وفى تفسير قوله تعالى «مثل جنة بربوة» يقول بعض المفسرين إن المقصود بالربوة مصر كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير إن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر» .

ويقول فى موضع آخر مناقشا ومفندا أراء بعض المؤرخين:

«قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام» وقد أخفاها الله حتى قيل إن جواهر وجدت فى سبيل علام، وقد رأيتها تباع بألف قرش، وبناء على قول بعض المؤرخين إن حديقة إرم بالقرب من دمشق أن أعرابيا أنخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فعلم أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، وقال كثر من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلى مدينة أسوان وقالوا إن حديقه إرم فى مصر على الأرجح» وعن نقده لأراء غيره يقول فى ذكره لمعركة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثمانى والسلطان الغورى» ويقول بعض المؤرخين إن الغورى قتل فى هذه المعركة، ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشا. ويؤخذ عليه هنا أنه لم يأت بالأدلة والبراهين التى تؤكد على صحة ما قاله.

ومن أمثلة نقده وتحليله ما جاء بشأن مدينة القسطاط: يقول: «ويسميها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى عهد الطوفان، وهي الآن كذلك مدينة عتيقة، والأحجار التى فيها كبيرة كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعا، وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لايقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولاعلم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلايتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان

القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلايتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض فى ذلك لاعلم لـه ولاخبر لديه عن علم جر الأثقال وليعلم أيضا أن (زحمة الرجال تقلع الجبال).

أما عن مصادر أوليا جلبي الخاص بالإحصاءات والأعداد التى ذكرها فى كتابه فيبدو أنه اطلع على سجلات خاصة بذلك وقد ذكر فى كثير من مواضع رحلته أنه أخذ هذه الإحصاءات عن ما يسمى بسجلات الغزالى حيث يقول:

«بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيا للمسلمين وفيها ٧٨ قصرا لسلاطين السلف وأن اللسان ليعجز عن وصف كل منها فعلى شط بركة بركة الفيل قصر السلطان قايتباي وفى قلعة الكبش قصر السلطان جاولى وأسفله قصر محمد بك، وقبالته قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات وقصر بيقلى محمد بك وقصور نوالى بك. . . . على هذه القصور (٢٢٠٠٠) بيت للمسلمين، أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين، واثنتان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة. . . وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق. . . وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج وهناك أربع حارات للأورام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج، والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمة، ولاوجود لغجر الأورام، أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا.

ويقول فى موضع آخر: وطبقا لما ورد فى كتب «الغزالى» فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر وهذا مافيه الحاجة إلى مجلد خاص به».

أيضا عند ذكره لقرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها والدوانق

ويبدو أن أوليا جلبى استطاع الأطلاع على هـذه السجلات حتى يتمكن من ذكر هذه الأرقام الكثيرة جدا والإحصاءات الدقيقة خاصة فـيما يتعلق برواتب وطوائف الجند وما يتقـاضونه كل شهر أو كـل ثلاثة أشهر أيضـا ما يتعلـق بعوائد القرى والمـدن والمحاكم وغيرها. فيقول أوليا جلبى عن هذه السجلات:

«كما وجد رئيس المترجمين، وأمين السجلات، وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخلـيفة عمر رضى الله عنه وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا».

وبعلاقة أوليـا جلبى بالإدارة العثمانـية فى مصر، وهى علاقة كـانت لاشك وطيدة حيث كان مقربا من الكتخدا وغيـره، استطاع الأطلاع على هذه السـجلات، وهذا الذى مكنه من رصد هذه الأرقام وهذه الإحصاءات.

يعد أولـيا جلبى الرحـالة الوحيد من بـين كل من سبقـوه بالرحلة إلى مـصر الذى حرص عـلى إظهار الجـوانب المضيـئة للحـضارة الإسلامـية في مصـر فى فترة الحـكم العثمانى، وهى الفتـرة التي نعتها كثير من المؤرخين والكتاب بـأنها فترة تخلف وظلام، فجاءت رحلة أوليا جلبى لتظهر هذه الجوانب وتبين ماكان فى مصر من مدارس ومساجد وكتاتيب، ودور للقراء، وتكايا، ومستشفيات ومـحاكم، ومبرّات، كما بينت بالتفصيل صورة الحياة الاقـتصادية فى مصر من خـلال عرض ما كخان بها من حـرف وصناعات ووكالات ودكاكين، ومسـتوى معيشة الناس وحالـة الرغد والرفاهية التي شـهدها أوليا جلبي في أثناء سياحته التى قام بها فى مصر.

أبرز أوليا جلبـى أهمية مصر، وعظمة مكانتـها من خلال الخلفية التاريخيـة البسيطة التي بدأ بها رحلته والتى تناول فيها تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلي الأرض وحتى الفتح العثماني لها، ودعوة الأنبياء لها، واستقرارهم بها، وذكرها فى كتاب الله وفى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

جمعت رحلة أولـيا جلبى بين نمطين من الرحلات التـى تمت لمصر، الأولى رحلات الأجانب الغير مسلمين والتى ركز أصحابها على إظهار صورة مصر الفرعونية والمسيحية من خلال آثـارها، والنمط الآخـر رحلات المسلمـين أمثال بن جبـير وابن بطوطـة التى أظهرت بـعض مظاهر الحضـارة الإسلامية فى مصـر من مدارس ومساجد وخـانقاوات وغيرها، فجمع أوليا جلبى بين النمطين فـلم يهمل آثار الفراعنة بمصر من أهرام ومقابر وغيرها.

تميز أوليا جلـبى بالدقة فى الحصر، والاعتمـاد فى وصفه على مشاهداته الـشخصية وليس على مشاهدات وآراء الـغير والإتيان بإحصاءات غاية فى الأهمية لـم يستطع غيره من السابقين الإتيان بها.

لم تقتصر سياحـة أوليا جلبى ومشاهداته على القاهرة أو مصـر القديمة والإسكندرية كسابقيه ولكـنه زار وشاهد أغلب - إن لم يكن كل - مدن وقصـبات مصر آنذاك حتى مدينة أسوان بل وزار بلاد السودان والحبشة وهذا ما لم يقم به غيره من الرحالة السابقين عليه.

عرض موجز لرحلة أوليا جلبى فى مصر والسودان والحبشة

وتتناول رحلة أوليا جلبى إلى مصر فى بدايته تاريخ مصر منذ بدء الخليقة وهبوط آدم إلى الأرض والدول التى تعاقبت على حكمها حتى الفـتح العثمانى لها ونظم العثمانيين بها، ثم وصف للقاهرة أو مصر القديمة كما شاهدها أوليا جلبى حيث قام بتصوير الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية والعلمـية بها، ومنشآتهـا من منازل وجوامع ومساجـد وتكايا وأسبلـة ومدارس وكتاتـيب وحمامـات ووكالات وخلجـان وترع وزراعات وحيـوانات وأضرحة وغيرها، ثم وصف لبقية رحلته مـن القاهرة إلى الإسكندرية ثم رشيد ودمياط ثم عودته لـلقاهرة واستئـناف رحلته إلى بـقية قصبات ومـدن مصر إلى الصعـيد فمزار الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وغيـرها حتى وصل إلى أسوان وتوغل حتى بلاد السودان والحبشة ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

وقد جاءت رحلة أوليا جلبى فى نحو ثلاثة وسبعين فصلا، بدأها بمقدمة حمد الله فيها وأثنى على رسوله الكريم، ثم تناول قصة خلق آدم وحواء وهبوطهما إلى الأرض وتنقلهما فى الأرض حتى وصولها إلى مصر حيث صارت مستقرا لهما ولذريتهم.

ثم ذكر أوليا جلبى بداية دخوله مصر وإعجابه بها وبأبنيتها، والمصادر التى اطلع عليها وفى ذكر مصر فقال فى تواضع جم يدل على رفعة نفسه وتدينه الشديد:

«دخلت أنا أوليا جلبى الحقير سياح العالم ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف، فوجدت داخلها وخارجها وأعجبت له كل العجب ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلا ما ليحده الحصر من التواريخ القيمة».

وفى خاتمة شرح أوليا جلبى خط سير رحلته التى كتب مسوداتها فى مدينة أبريم بالحبشة وهى آخر ما وصل إليه فى رحلته حيث يقول فى ذلك «واسترحنا فى مدينة أبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجة ولقد كتبت مسودات رحلتى».

ثم عاد أوليا جلبى إلى مصر ولكنه سلك الضفة الغربية للنيل أثناء عودته حيث كان فى ذهابه يسلك الضفة الشرقية وفى ذلك يقول:

«ومن مدينة أبريم ودعت خلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى رلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية».

ومر أوليا جلبى بعدد من المدن والقصبات أثناء عودته حتى وصل مدينة «ألواح الكبرى» بولاية الواحات وبها بلغ كتابه نهايته، ووضع أوليا جلبى خاتمته التى شرح فيها خط سير رحلته ومشاهداته وطريقة كتابته لهذا الكتاب فيقول :

«ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله نثنى عليه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل

خرقة الدراويش ذات الألوان وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر وإلى مصر الباشا وأتممنا كتابنا فى ظل خيرة ورعايته، وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لايخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بألفاظ جذلة، والمرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو الغلط عنه. . . فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عاما ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة، ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حدث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك جرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول) وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت هذا التاريخ.

كتبه أضعف الكتاب الحاج محمد المعروف بحافظ القران المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

منهج أوليا جلبى فى كتابة رحلته

استهل أوليا جلبى رحلته بموجز عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة، واستقرار أبناء أدم من الأنبياء بها، وحكام مصر قبل الطوفان وبعده حتى الفتح الإسلامى لها فى خلافة عمر بن الخطاب، وتعاقب الدول الإسلامية على حكمها حتى الفتح العثمانى لها.

وقد كان هذا الموجز التاريخى من أسباب عظمة هذا الكتاب، حيث جعله عملا ثقافيا متكاملا يمتع قارئه، فهو يجمع بين تاريخ مصر وجغرافيتها منذ أقدم العصور وحتى عصر هذه الرحالة وهو بذلك يختلف عن أسلوب سابقيه من الرحالة فى هذا المجال.

وأفاض أوليا جلبى فى ذكر الفتح العثمانى لمصر، ودواوين العثمانيين بها ورسومهم، ومواكبهم، وجندهم ورواتبهم وملابسهم، وفرقهم وذلك من خلال صفحات الكتاب.

علاقة مصر والدولة العثمانية من خلال رحلة أوليا جلبى

من أهم مميزات هذا الكتاب هو توضيحه لموقف مصر من الدولة العثمانية قبل دخول العثمانيين إليها، ثم توضيح وإظهار الصورة المضيئة للعثمانيين فى ظل حكمهم مصر.

أما بالنسبة للنقطة الأولى والمتعلقة بموقف مصر من الدولة العثمانية قبل الفتح العثمانى لها بيّن أوليا أن دخول العثمانيين مصر كان بناء على رغبة أهلها وبموافقاتهم ولم يدخلوها عنوة حيث يقول:

وبسبب ظلم الشراكسة وطغيانهم، قدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاد بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم، وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لاثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض، إليهم، فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة، وهتف كل من الشيخ أبو الجارحى، والشيخ مرزوق كفافى قائلا: تعال يا سليم تعال ياسليم وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسية مع وزراءه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا يونس باشا إننا سمعنا من قال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة، فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفاف بالمكاشفة: ياسليم روح اجلس على تخت أبوك وإذا ما دعوناك إلى مصر فاقدم هذا ماقالاه.

ويقول أوليا جلبى عن بشريات فتح العثمانيين مصر:

«ومضى سليم إلى بورسة لزيارة أمير سلطان فقال السلام عليكم يا أهل القبور،

فسمع صوتا يقول: وعليكم السلام ياصاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وتردد هذا الصوت من القبر الشريف، فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم، لقد بشرت يامولاي بفتح مصر.

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره وهناك جمع جميع علماء الترك، وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة، فطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر، وكان الطواش سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك، وتبينوا ما جاء فيها، وقالوا مادام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

وبعد ما ذكر أوليا جلبى فى كتابه مضمون الفتوى قال:

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذي القدر وسبعين من أبنائه وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان، وفيها يقول: مادامت حيا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلا تعال إلى ميدانى، وعندما تسلم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور وإذا ما قتل سفراء المسلمين، فقتل الغورى حلال، فانهض يامولانا لساعتك وخف إليه ولاترفع يدك عنه.

وجهز السلطان سليم جيشه وخاض معارك ضارية ونجح فى هزيمة الغورى وضم بلاد الشام. ثم اتجه إلى مصر ودارت بينه وبين الجراكسة حروبا شرسة حتى مكنه الله فى نهايتها من ضم مصر لحوزة العثمانيين.

وأما النقطة الثانية التى وضحها أوليا جلبى ألا وهى الصورة المضيئة للعثمانيين فى

مصر فقد ظهرت منذ استقرار العثمانيين بـها، فبعد أن مكّن الله السلطان سليم من فتح مصر ودانت له، يقول أوليا :

ويإذن من علماء مصـر جميعا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضـاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصـر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألـف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كـفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبـة باسم سلطان البرين وخاقان الـبحرين خادم الحرمين الشريفـين سليم خان ابن بايزيد أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان. وبـإذنهما الشريف سكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر، ضارب النصر غرو النصر فى البر والبحر السلطان سليم خان بن بايزيـد خان عز نصره سـنة ٩٢٢» وبعد ذلك جـمع سليـم ذات يوم الديوان الســلطان وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خير بك وأجلسه على سرير الخـلافة ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليـمى وريشة نفيسة، وعلى ظهر خلـعة فاخرة من السمور، وحول خصره مـنطقه مرصعة تعلق فـيها خنجر مرصع وحرص سـليم على أن يلـبسه كل ذلك بنفـسه، ورفع يده بالدعـاء وقال: لقد جعلتك ياخير بك وزيرا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام، فأنا لارغبة لى فى شئ من مصر، لقد ظفرت بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى.

ووقف جميع محاصـيل مصر على النبى ﷺ فاشهدوا من الآن فـصاعدا ياخير بك أنت مولى هذا الوقف فأحسن خدمته.

ثم وضع السلطان سلـيم قانونا تسير عليه الإدارة فى مصر كـان من أهم ما جاء فيه التالى :

جعل مائـة من الأغوات بكوات الشراكسـة، وأمر ألا يجتمع الديوان ثـلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العـطلة هى الجمعة والسبـت والأربعاء، ويحضر قاضى العـسكر الديوان خمسة أيام، ومن أجل الديوان في كل يوم كيـسان من دنانير. ويقدم ثلاثة آلاف صحن من طـعام، ويطعـم كل أعضاء الـديوان والخدم والآتون مـن بعيد وجـعل سليـم ذلك قانونا، ولشـاويشية الديوان كل يوم خـمسة خراف وأردب من أرز وكيلتـان من العدس

والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان مـن شمع العسل، كما أجرى على الإئمة والمؤذنين راتبا.. ولجميع أقاليم مصر ثمانـون كشافا وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساءالفرق بـعد سماطهم، يبسـطون الموائد للعوام والخواص، وفـى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع. وجعل ذلك قانونا، ودامت هذه النعمة، وما كـانت مثل هـذه النعـمة فى بـلاد سلـطـان آخر، وبعـــد ذلـك لم يصدر قـانون سلطانى.

وهكذا يتبين مما سبـق نبل وعظمة هدف العثمانيين من دخول مـصر فحدده السلطان سليم بأنه لخدمة الإسلام حيث جعل كل خيراتها وقفا لله تعالى.

وشهد الناس فى ظل حكمه عطف ورعاية لامثيل لها حيث نراه يأمر كاشفى الأقاليم بعمل أسمطـة صباحا ومساء لإطعاء الناس، ولجـدية الأمر يأمر بأن تقرع الطبـول لينبه جميع الجياع.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن مصر شـهدت ازدهارا اقتصاديا فى ظل حكم العثمانيين كما يتبين لنا ذلك من الرحلة، وتبين ذلك أيضا من طبيعة النشاط الاقتصادى وكثرة الحرف والدكاكين والوكالات والصناعات.

كما شهد الناس نوعـا من الرغد والرفاهية فالمستشفيات تعـمل مجانا والمبررات توزع طعامهـا ليلا ونهارا مجانـا، والاحتفالات كثيرة ومـتعددة مما يدل على نـوع من الراحة والاستقرار وإن كان ذلـك فى الفترة التى عاشهـا أوليا جلبى فى مصـر. إلا أنها كشف عن الكثير من إيجابات الحكم العثمانى فى مصر.

تقويم رحلة أوليا جلبى

فى أوليا جـلبى كثير مـن الصفات الجليـلة أولها القدرة عـلى تحمل المشاق والـصبر عليها، وقـد أوردنا جزءا يسيرا فى أمثلة سـابقة من هذه المشاق، والرحلة بـها غير هذه الأمثلة، عشرات الأمثلة.

ومن صفاته أيضا شجاعته، وإصراره على بلوغ هدفه وثقته بالله وإيمانه الشديد به سبحانه وتعالى:

مثال : أثناء عزمه زيارة فنجستان يقول :

«ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع، ولاتأمنون عادية اللصوص من الزنوج ويسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لايدخلنى مطلقا، لأن الله تعالى : (والحافظون لحدود الله)، وقد حفظت منذ أربعين عام، وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة. وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع، وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا، وأنت لاتحمل هدية، فأنا لا أرد جوابا، وماذا أصنع بالهدايا التى للملك فونجستان، وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودعيت الله، ودعيت الله قائلا أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك، فالحمد لله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقا لارحل، وألححت فى الدعاء، فقالوا لاتنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة.

ومن صفات أوليا جلبى أيضا الواضحة تماما فى رحلته تدينه الشديد، وغلبة الروح الصوفية عليه، ويظهر ذلك فى كثير من فقرات كتابه، وفى تناوله وذكره للأولياء خاصة، والمتصوفة. أيضا يظهر تدينه الشديد من كثرة استشهاده بالآيات القرآنية وأحاديث النبى ﷺ .

ما يؤخذ على أوليا جلبى فى رحلته

يلاحظ القارئ لكتاب أوليا جلبى مبالغته فى سرد بعض المشاهد والأحداث التى يرويها فى مواضع متعددة من كتابه فعلى سبيل المثال، عند وصفه للتمساح، والحكايات التى أوردها عنه ذكر عجيبة من العجائب قائلا:

ومن عجب أن هذا التمساح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابو لنفسهم الأمارة بالسوء يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التمساح أنثاه وهى على ظهرها، يخرج من كمينه، ويطلق صيحة الية، فيجفل التمساح الذكر ويطرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها، لاتحرك ساكنا، فهى لاتستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة، وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الاتصال بأنثى التمساح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولاحياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التمساح ألذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة، ويقول إن الدم الأحمر يسيل من كل جماع بكر، وإذا ما جامع أنثى التمساح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

ثم يروى حكاية أخرى طويلة عن نفس الموضوع نقلا عن أحد الأشخاص، ثم يقول فى سبب جماع الناس للتماسيح:

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر حضورهم، ولكى يبرءوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء، من هذا الداء، والبعض ممن لايجامعون التماسيح يجامعون الجوارى الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منّى وغيره.

ولم تكن هذه هى المرة الواحدة فقط التى يذكر فيها أوليا جلبى ذلك عن التماسيح ولكنه عاد وذكرها فى مواضع أخرى، والحقيقة أن ذلك فيه نوع من المبالغة والاستفاضة فى موضوع ليس ذا أهمية. كما أنه مخالف للفطرة البشرية.

ومن المبالغات التى ذكرها أيضا تحت عنوان . . «لطيفة غريبة»:

«رأيت فـى صحراء «هيـهات» قوم القـالموق أكلة لحـوم البشر، إنـهم يأكلـون لحم موتاهم، وقد خنقوا بعض أسرارهم من النوغـاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لاتتسرب دماؤهم فهـم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونـهم، ويقولون أن ألذ اللحم لحم البشـر والثعابين والخنازير، كـما يقولون أن إلية الخـنزير وإلية البشر ألـذا ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق، ويعرفون ذلك حق العرفة أما أنا فقد شـاهدت ذات مرة أحدا يقبـل حسناء فذبت فيـه الحياة وشعر بمزيـد من السرور فأدرت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

ومن المبالغات والمتنـاقضات لأوليا جلبى ما ذكره فى الفصل الـثامن والخمسين قائلا «إن عدد المصابين بالرمد فى مصر مالا يعـلمه إلا الله فى حين أنه لاوجود لكحال ماهر فيهـا، وجيادها كثيـرة فى حين إنه لاوجود فيـها لبيطار، ومـرضاها كثير فـى حين إنه لاوجود لطبيب يعالجـهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتـى تمزقت ولايجد له جراحا، ورجالها كثـير فى حين أنه لاوجود لحاكم يحـكمهم، وما أكثر قضاتـها فى حين أنه لا وجود لمن يقول الحق فيها، وما أكثر شهود الزور فـيها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين إنه لا وجـود لمن يتفـوه بكلمـة طيبة، وجـندها كثـرة فى حين أنه لـيس لهم ضـابط، ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لاوجود لمحاسب ذى ضمير، وهـذه العبارات أصبحـت أمثالا تضرب فى مـصر وهى تدور على ألـسنة الناس.

والعجيب فى مقولة أوليا جلبى هذه أنهـا تتناقض بعض الشئ مع ما ذكره قبل ذلك فى رحلته، فبالنسبة للمرضى ذكر أن بها بيملرستانات وأنها تعالج المرضى مجانا، وعن قول الحق قال قبل ذلك أن مصر لايضيع فيها الحق «وأن بمصر إحقاقا للحق ليس له من وجود»، وأن بها جراحين لعملية ختان البنات والصبيان، كما أن كلامه ذلك كلام مطلق فليس من المعقول أنه لايوجد واحد فقط يقـول الحق أو واحد فقط يتكلم كلمة طيبة أو محاسب ذى ضمير، رغم أن أوليا جلبى ذكر فى فضائل أهل مصر ومحاسنهم كثيرا من الأخلاق الحميدة، التى أعجـب هو بها وذكرها فى كتابه، مثل وقوفهـم بجوار بعضهم البعض فى حالات الوفاة، والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

خاتمـــة

وخاتمة القول فى ذلك :

١- قدمت إلى المكتبة العربية شخصية رائدة فى مجال أدب الرحلات هو أوليا جلبى، للمرة الأولى، ونشر هذا البحث معناه اهتمام الباحثين العرب به.

٢- أوليا جلبى: عالم ورحالة وأديب وصحفى وناقد. هذه نتيجة خرجت بها من دراسته. والمتداول عنه إنه مجرد رحالة.

٣- كما أنه رجل إدارى.

٤- أوليا جلبى، مثل للثقافة الإسلامية بفروعها الثلاثة الأساس: العربية والفارسية والتركية العثمانية.

٥- قدمت هذا البحث ليكون عونا على دراسة رحالة أوليا جلبى فى مصر التى تبلغ فى أصلها التركى ألف صفحة.

٦- الثقة فى المؤرخ العثمانى الذى قدم لنا إحصائيات فاقت ما قدمه عظيم أدب الرحلات ابن بطوطة.

٧- دراسة أوليا جلبى، تؤدى بالضرورة، إلى الكشف عن عصر التنوير الإسلام فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى.

والله الموفق

محمد حرب

- ١ -

الحمد لله وحده وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده وحبيبه ورسوله، وبعد..

حمدًا بلا حدّ وثناءً بلا عدّ، على الخلاق الباقى رب العباد، الذى أوجد كل ما فى هذا الوجود، وأتم خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض والليل والنهار مخاطبًا إياها بقوله كن: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، إن الله على كل شىء قدير.

خالق بلا نصب إله عظيم، خالق الأرض رب العرش العظيم.

ذلك الصانع المصورُ القيوم، اقتضت حكمته الأزلية وحسب علمه أن يأتى بحبيبه المصطفى إلى أديم هذه الأرض، وأن يُزيِّن الأرض ببنى آدم، وكيما يزين الأرض ببنى آدم، خلق من التراب بيد قدرته صفىَّ البشر آدم، ونفخ فيه الروح من روحه، وجعله الكامل المكمل النبى وجعله حقيقًا بجواره وأدخله جنة المأوى، وألّف بينه وبين جميع الملائكة، ومتَّعه بالحور والغلمان فشاهد جمال البارى دونما واسطة وعلّمه كلمات وكان له عند الله حسن القبول، وسجد لآدم جميع الملائكة المقربين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعلى حد قول المفسرين إنه سكن أرض الجنة العالية عامًا واحدًا وعاش مع أمنا حواء أطيب العيش وفى نهاية الأمر كان لا يُسئل عما يفعل، وبناء على مشيئة الله الأزلية نهاه بتلك الآية الشريفة: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وبعد النص القاطع صدر الأمر القاطع لآدم فما ذاق آدم حبة من قمح سنين عددا، ولكن بما أن العصيان مركوز فى طبع الإنسان نسى ما أمره الله به وبإيعاز من أمنا حواء أكل حبة من قمح، فطرد آدم من مقره إلى الأرض فى جزيرة (سرنديل) من أرض الهند، أما أمنا حواء فاستبعدت إلى جدة، وبناء على قول المفسرين إن آدم وأمنا حواء بعد هبوطهما كانا يسيحان فى الأرض ويتجولان عريانين وعلى رأسهما التاج، وقد بلغ منهما الجوع مبلغه ومست حاجتهما إلى حبة قمح وهما يهيمان على وجهيهما.

- ٢ -

وبعد ذلك أهدت عصافير الجنة شعرة من لحية آدم إلى أمنا حواء، وأتت من شعر غدائر حواء لآدم عدة شعرات كالعنبر، فكانت طيور عصافير الجنة سبب لقائهما فى عرفات، فتم التقاء آدم بحواء فى عرفات، ولذلك سمى الجبل بـ «عرفات» وهو فى اللغة العربية جبل (عرفه)، وباجتماعهما تم لهما الصفاء، ولذلك كان دعاؤهما لعصفور الجنة، فقال العصفور: حيال خدمتى لكما، لى عندكما رجاء، بما أن لحمى غاية فى لذة طعمه، فإن كل الأفاعى والدويبات كثيرة الأرجل أعدائى، فلا أجد الذريّة، لى رجاء أبسطه لديكما هو أن يكون عشى فى داركما حيثما كنتما، يا آدم أعطنى من لحيتك شعرات، وعلى حواء كذلك أن تقدم عدة شعرات تمتزج بالطين وأصنع منها عشًا فى داركما ويسعد عيشى فى ظلكما وتكون لى ذرية، فوقع رجاؤه موقع القبول، فقدم آدم وحواء الشعرات إلى عصفور الجنة فخمرها فى الطين وجعل العصفور عشه بناء صغيراً فى دار آدم، وبسبب ذلك تعيش طيور عصافير الجنة فى البيوت إلى يومنا هذا، والبيت الذى بناه آدم وحواء فى أسفل جبل عرفات. ويسمون مطبخ آدم البيت الشريف، وهو الآن موضع يُزار، وقد عمَّر هذا البناء نوح - عليه السلام - بعد الطوفان، وهو مزار للحجيج.

وقد حملت أمنا حواء شتاءً فى عرفة، وقد أورد المؤرخون كثيرًا من الروايات الأخرى، بينما كان آدم فى عالم التجرد احتلم فى منامه، فوقع منيّه على الأرض، وبعد عام ظهر منه (شيث) وأصبح مثل آدم مخلوق من التراب.

وفى قول أن وسط آدم انقبض فسقط منيّه على الأرض فخلق الله عشبًا وانتشر هذا العشب فى البنغال وايرجيش ودماوندو جبل الرهبان فى بروسة وجبل البرز، إنه عشب من الجن منهم رجال ونساء وله شعر ولحية وهما من غريب خلق الخالق، وفى لسان العرب (يبروح الصنم وعبد السلام)، وبعض الأطباء يجعلون هذا العشب فى المعاجين لتكون أدوية، إنه عشب مقو إلى حد بعيد.

ولما هبـط آدم إلى الأرض نبت هذا الـعشب من منيّـه، وإن قيل إنه ليـس (شيث)، والقول الأرجح أنه هو، لأن شـيث من آدم وحواء كما أن (شيث) لم يشـترك مع بنت فى الرحـم لأن آدم قـال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، باسطًا الرجاء إلى البارى تعـالى، طالبًا لشيث حورية، وسرعان ما جاء جبريل الأمين بحورية لآدم، وقدمت زوجة (لشيث)، وفى ذلك العصر كان عقد النكاح كلمة (لا إله إلا الله آدم صفـى الله)، ثم مضى (شيث) مع أنيسته إلى أرض حوران بالشام.

- ٣ -

وهناك مكث مـدة من الزمن وهذه الحورية يخـطئون فى تسميتـها حوران، وهذا ما سلف ذكره فى مجلد سابق، وكان مقرهمـا الأول سرنديب والمقر الثانى جبل عرفات، أما مقرهما الثالث فمكة التى بلغاها بإذن من الله تعالى ـ واستوطناها.

ومـن أجل ألفـة وأنـس آدم أنـزل الله ـ تعالى ـ قصرًا من جنة المأوى إلى مكة واسم هذا القصر البيت المعمور، وفى رواية أنه كان من الياقوت الأحمر، وفى أخرى أنه كان من اللؤلؤ الأبـيض، وبعد الطوفان بينمـا كان الله يرفعه إلى الجنة، انفصـل عنه الحجر الأسود، وقيل إنه اسودّ من ماء الطوفان، وقيل فى إحدى الروايات، أنه اسودَّ من مسح العُصَاة وجوههم عليه، ثم فرض رب العزة على آدم أن يطوف بالبيت المعمور هذا، وقد عَلَّمَ جبريل الأمين آدم العبادة فيه ودام على تلك الحال طويلاً وهو يسكن مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن آدم كان له أربعون ألفـًا من الولد وكان يطوّف فى كل عام أبنائه حول البيت المـعمور ويجعلهم يؤدون مناسك الحج، ولكـن تأذت نفسه كثيرًا لأن مكة أرض غير ذات زرع، فمضى إلى أرض مصر مـؤتمرًا بأمر الحق ـ تعالى ـ واستوطن شاطئ النـيل، فمصر هى وطنـه الرابع فاشتغل بـالزراعة وتحصلت له وفـرة من الغلال بحيث كان من كل حبة قمح مائة سنبلة وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى البداية دعى آدم مع كل أبنائـه لمصر، ودعا لهم بلسان عـبرى إذ إن آدم حين هبوطه من الجنة نـسى لغته العربية الـتى كان يتحدث بها فـى الجنة بسبب عصيـانه، فعلمه جبريـل الأمين كلمات

عبرية، أما دعاؤه لمصر والذى أخذته عن التواريخ القبطية فسوف نكتبه فى مجموعتنا تلك.

دعاء سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ صفى الله فى حق مصر باللغة العبرية:

اللهم احفظ إيمانى من الشيطان ونجنى، نجنى ولتكن جميع الملائكة فى خدمتى، واعطنى القمح لأصنع الخبز. اللهم اجعل هذا البلد عامراً لأبنائى بعد مماتى.

قال سيدنا آدم هذا الدعاء فى حق مصر بلسان عبرى على وزن مفتعلن مفتعلن، ولقد أصبحت جميع الديار معمورة أبداً منذ ذلك اليوم وحتى الآن. والمدينة الواحدة نصف الدنيا، وأصبحت مصر معمورة منذ أول الخلق وسوف نبين ولاة مصر وملوكها منذ هبوط آدم وكيفية حكمهم وتصريفهم لأمورها حتى يومنا هذا ومدة حكمهم وأعمارهم.

* * *

ذكر أوصاف أقدم البلاد وأعظم المدن
مصر المحروسة
نادرة الزمان أم الدنيا: القاهرة المعزيّة،
حفظها الله من الآفات السماوية والأرضية

دخلت أنا أوليا الحقير سياح العالم، ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف فوجدت داخلها وخارجها ما عجبت له كل العجب، ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلى ما لا يحده الحصر من التواريخ القيمة وهذا بيان بعناوينها:

- أسماء تواريخ مصر وغيرها من الكتب النادرة:

أولاً: تاريخ المقريزى: وهو كتاب عظيم القيمة مشهود له بصحته التاريخية وهو مستمد من كتب قبطية وسريانية ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية تلقاه الخاص والعام بقبول حسن.

وتاريخ ابن جرير الطبرى، صاحب التفسير القديم: وهو تاريخ نفيس.

تاريخ الشيخ الإمام السيوطى: وهو تاريخ له ما له من عظيم قيمته.

وتاريخ صابية وكتاب فتوحات مصر لابن عبد الحليم.

وكتاب فضائل مصر لابن عبد الكندى.

وكتاب ابن زولاق.

وكتاب خطط القضاع.

وكتاب إيقاض المتفضل وهو مختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب مباهج الفكر ومناهج العبر.

وكتاب عوان عنوان السير محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وتاريخ الصحابة.

وتاريخ التجريد فى الصحابة للذهبى.

وكتاب المختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر.

وكتاب الرجال العشرة للحسينى.

وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى، وكتاب طبقات الشافعية لابن السبكى، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون[1]، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق، وكتاب مرآة الزمان لابن الجوزى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكمال الإدفوى، وكتاب السكردان لابن حجلة، وكتاب سجع النهر نيل فى أوصاف نهر النيل، وكتاب ثمار الأوراق لابن حجة، وتواريخ الشهاب جلبى ترجمة لكتاب «حسن المحاضرة» للشيخ السيوطى، وعلاوة على تلك الكتب السالف ذكرها، قرأت كثرة من الكتب والدواوين فى مصر وأدرجت فى رحلتى هذه ما تنبغى معرفته من قواطع الأدلة وأوصاف الرواة والحوادث، وقسمت تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى يومنا هذا، وتجرأت على كتابة هذا «وبه نستعين وبالله التوفيق».

* * *

(١) فى الأصل: مرحون.

الفصل الأول

فى وصف فسطاط مصر بالقرب من جبل المقطم

بعد هبوط آدم أبو البشر وصفى الله اهتدى إلى مصر ووطأتها قدمه، وهى أول ما استوطن آدم أبو البشر وابنه شيث، وكذلك أبناؤه وقينان ومهلائل وهو النبى هود، وابنه اخنوخ وهو هرمس وفى العبرية اخنوخ، أى إدريس، وكان يقال عنه فى لغة أهل الجنة من الملائكة اخنوخ هرمس، وسموه بهذا الاسم لأنه كان يدرس العلم لبنى آدم والملائكة فكان يقال إدريس النبى، أما مهلائل فكان كاهن العصر فى علم النجوم وقد بدأ ذيوع علم النجوم بفضله، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسكنون فى الكهوف ولقد شاهدت فى ديار مصر هذه الكهوف وهى تسع جند آل عثمان، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسمون أرض مصر (ايلون) وفى مصر ولد اخنوخ وإدريس، وأصبح سياح العالم وتعلم علم النجوم على يد مهلائل، وتعلم علم الكتاب من جبريل وعلم الحياكة بتمامه، وفى الأربعين من عمره جاءته النبوة فى مدينة (أسوان)، وأصبح نبيًا لقومه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة وكانت له البراعة فى علم الهندسة، والمهارة فى علم النجوم وشاع عنه أنه يعرف كل غريب وعجيب فى جميع العلوم، والمدن التى أقامها إدريس النبى على شاطئ النيل هى الآن مدن عامرة، وفى أرض الجيزة المواجهة لفسطاط مصر هرمان بناهما «سوريد» الحكيم بفضل علم إدريس وحفظ فى الهرمين جميع الكتب والكنوز لعلمه وقوع الطوفان، وبعد وفاة آدم وإدريس أصبح هذان الهرمان كعبة للصابئة يحجونها فى كل عام. وكان الرجال يحجونها من الجهة الشمالية أما الجهة الجنوبية فكانت خاصة بالنساء، ولما كان آدم ـ عليه السلام ـ على قيد الحياة كان جيمع أبنائه يمضون من مصر إلى البيت المعمور ويطوفون حول الكعبة الشريفة حجاجًا، كما كانوا حينًا يقدمون إلى مصر وحينًا آخر يمضون إلى الشام إلى موضع قريب من «حوران»، وهناك يسكنون، وجاء فى تواريخ الصابئة أن إدريس كان له فى علم الكتاب اليد الطولى والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما فى الوجود، ويحرر جميع الوقائع فى يوميات

ويحفظها فى جبال الأهرام، واقتضت حكمة الله أن ينقضى زمان «شيث» ويوافيه الأجل.

ويقال إن إدريس دفنه فى جبل الأهرام، كما كان الملك «مصرايم» والملك «بيطار» بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهما ملكان قديمان، مدفونين كذلك فى الأهرام، وكان من أبناء «شيث» الملك «نقراوش» كاهن العصر وقد شيد فى مصر مدينة عظيمة سماها «أمسوس» وأمسوس فى العبرية بمعنى المدينة الجديدة وسمى القبط هذه المدينة الفسطاط وقد عمرت ورممت بعد الطوفان وسميت «مصرايم» ولذلك تسمى الآن مصر وفى اللغة اليونانية تسمى «مقدونية» وفى العبرية «زرابيت» أما فى العربية فاسمها «القاهرة المعزية»؛ ذلك أنه عام خمسمائة وخمسة وسبعين كان السلطان معز الدين ملكًا للمغرب، وكان سلطان مصر سلطان الإخشيديين واستأذن الملك معز الدين من ملك الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، فأرسل من يسمي «قائد أزهر»، وهو مملوك عربى، ومال فى ألف خزانة، وخمسين ألف نجار وبنّاء وعامل وحمّال ومعهم العدة والعتاد، والعبد المسمى «أزهر» تولى أمر بناء الأزهر الذى تم بعد سبعة أعوام، وانطلق معز الدين سلطان المغرب إلى مصر وأغار عليها ليلاً، كما أن جنده ادعوا أنهم إنما قدموا من المغرب إلى مصر لبناء جامع الأزهر، واستولوا على مصر من يد أحمد بن على سلطان الإخشيديين جبرًا وقهرًا، وأقام مصر الحديثة، لذا يقال لمصر «مصر المعزيّة»، ولذلك فأهل مصر جميعًا يتسمون إما بقهّار أو بقابض على أنهم ينقبضون على رجال الله، وتسمى مصر «أم الدنيا»[1].

أما نقراوش، هو الذى عمَّر مصر أى «أمسوس» بعد آدم ويمتد عمرانها مسيرة ثلاثة أيام، و«نقراوش» هذا مَلَك مصر مائة وثمانين عامًا، ولما زايل الدنيا الفانية دُفن في جبل الهرمين، وخَلَفَه ملكًا علي مصر ابنه «نتراش»، وقد كان مثل جده سيادة وكمالاً وعلمًا.

---

(١) يأتى سبب تسميتها بذلك فى الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب.

وأقام بعض المدن في الواحات، ولما مات دفن في جبل الأهرام وكان مُلك مصر بعده لأخيه.. مصرايم بن نقراوش.. وكان حكيمًا كاهنًا ساحرًا، ومن جملة علمه أنه كان يسخِّر الأسود، وكانت الجن والأسود يحملون سرير ملكه، ولما أدركه الموت دفن في الأهرام.

ومَلَكَ مصر بعده من يسمى «عبقام» وهو من ذوى قرباه، وقد أقام العدل في الناس، وفي عهده رُفع إدريس في أسوان إلى السماء، ولقد أخذ الحزن والألم الصابئة لعروج إدريس في السماء فأظهروا الفزع والجزع وانتحبوا فكفوا عن العبادات والطاعات. وتمثَّل إبليس اللعين في صورة إنسان وادعى للناس أن صورته من الله وقال لهم سائلاً: يا قوم ما لكم تبكون ويأخذكم شديد الأسى؟؛ وحكى قوم إدريس ما جرى من نقل إدريس، وفي التو قال إبليس: يا قوم لا تحزنوا سأحضر لكم صورة إدريس وعلى كل منكم أن يحتفظ بصوره في داره، وفي كل يوم تشاهدون هذه الصورة كأنكم شاهدتم إدريس وهذا عزاء لكم. فصنع لهم صورة إدريس وحفظوها في ديارهم، وكلما شاهدوها ذهب عنهم الحزن ونعموا بالسلوى.

وبعد موت الصابئة رأى أحفاد أحفادهم صورة إدريس في دارهم وقد توارثوها عنهم فزادت محبتهم لها، وشرعوا يعبدونها وهذا أول عهد الصابئة بعبادة الأصنام، وبقيت فيهم من قوم إدريس ومات كذلك الملك «عبقام» الذى كان في عصر إدريس وخلفه «عرياق»، وكان هاروت وماروت مصلوبان من قدميهما على مدخل غار في مدينة بابل وسماع قصتهما يثير الفزع، وأوصاف هذين الملكين مسطورة في كتاب ابن جرير الطبرى، ثم كانت وفاة «عرياق» وأفضى المُلك من بعده لابنه «الوخيم» وهو الذى أقام مدينة «شرق أخميم» شيد سبعمائة دير ومات.

وجاء بعده ابنه «خُصيليم» وعُمِّر سبعمائة سنة وهو أول من أنشأ مدينة «أسوان» على شاطئ النيل، كما أنه أقام في تلك المدينة أول مقياس وهذا يعني أن مصر هي أيضًا أم علم القياس، وتأسيسًا على علم الهندسة كذلك الترع في جميع أراضي مصر، وأجرى ماء النيل إلى كل زقاق في مصر، وروى أرض مصر فزادت محاصيلها وبطَّن كل الترع

بالرخام السُّمَاقى والمرمر الخام، وأقام السدود على جانبى نهر النيل، وشيد المدن وأوصل النيل إلى بلاد النوبة، وأمر بحفر اثنتى عشرة عينًا، وأنشأ جسرًا عظيمًا وآثارها اليوم ظاهرة باهرة ووُلِدَ نوح - عليه السلام - فى عهد الملك «حُصيليم» هذا، وتكاثر عدد الناس فى هذا العهد حتى ازدحمت الأرض بهم إلى حد أنه لم يبق موضع فيها لزراعته، وأصاب الناس القحط واشتد الغلاء فعمد الناس جميعًا إلى صيد السمك من الأنهار والبحار، وبذلك عاشوا فى كفاف. ومات «حُصيليم» وأصبح المُلك من بعده للملك «ترسان ابن هوسال» ولما جاءت نوح النبوة وهو فى الأربعين من عمره، آمن به «ترسان»، ثم جاء بعده الملك «شَرْيَاق» ثم ولده الملك «شهلوق ثم ابنه الملك سوريد»، وكان جبارًا فى الأرض ظلومًا وهو أول من فرض الخراج على الرعية.

وبنى الأهرام الكبيرة الواقعة إلى جانب .. بنى سويف .. ولذا تسمى الأهرام أهرام سوريد، وفى حجر منها تاريخ مسطور بالعبرية، ثم جاء بعده ولده «افروس» ومات ودفن إلى جانب أبيه، ثم كان المُلك لابن عمه «فرغان»، ووقع الطوفان فى عصره وكان أول القيامة، وبطل كل علم السحر ومحيت كل العجائب والغرائب والطلاسم والمخطوطات العربية (   )(1) تفجرت الجبال والتى تحمل المعادن والكنوز فى داخلها عيون من الماء وتفجرت الأنهار من الجبال وتلاطمت الأمواج كأمواج البحر وصعد منها العجيج ودام الحال على ذلك أربعين يومًا وليلة فظهرت جميع المعادن والكنوز المخيفة فتغير وجه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، وعند الطوفان كانت سفينة نوح راسية بجانب جبل الجودى بالقرب من الموصل، وبمناسبة نجاتهم يوم عاشوراء صنع قدرًا ووضع فيها طعام عاشوراء فأصاب الناس جميعًا من هذا الطعام، فشكروا له، وإن طهو طعام عاشوراء هذا سُنّة لنوح وهو آدم الثانى، ويجب أن تكون موضع اعتبار، وثمة دليل قاطع على نجاته من الطوفان على هذا الجبل، فقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وتلك آية نزلت على حبيب الرحمن، وبعد نجاة

(١) بياض فى الأصل.

نوح بسفينته على جبل الجودى وهى أرض مباركة، سكن فيها، وبعد الطوفان شيد نوح مدينة الجودى وهى الآن بلدة صغيرة فى قمة جبل الجودى بالقرب من الموصل.

وبعد ذلك بعث بيظرى بن حام إلى مصر، وبنى مدينة العريش فى أرض حاسان القريبة من مصر، ثم بنى مدينة بلبيس، وقد عمرت تلك المنطقة أيضًا بعد الطوفان ومعروف أنه دُفن فيها سبعة عشر نبيًا، ثم بعد ذلك جاء بيظرى إلى مصر وأنشأ مدينة أمسوس القديمة التى هى مصر فصارت معمورة ثم بنى مدينة منوف، وقد بنى سام بن نوح الشام وفلسطين والقدس، وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزى القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية والقبطية واليونانية وكأنه فى كثرة سياحاته فيثاغورث، وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحًا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره الله بالتوجه إلى الشام، وكان «الشيث» ولد اسمه (غرباب)، وابنه «نقراوش»، وكان نقراوش هذا من النجباء الراشدين متطلعًا فى جميع العلوم، وقد أحب آدم نقراوش هذا وسماه «مصرايم»، وأمره بتعمير مصر، ومضى آدم إلى الشام، لزراعتها، ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فرارًا من ظلم «قابيل»، وكيما يجدوا لهم موطنًا قطعوا المراحل وطووا المنازل إلى أن بلغوا فى مصر جبل «غداس»، فطاب لهم هواؤه، فألقوا عصى التَّسْيار، واستوطنوا، ولأن جدهم آدم تجول كثيرًا فى مصر إلا أنه لم يقم فيها أثرًا له، وفى ذلك العهد كانوا يسكنون الأكواخ، أما «نقراوش» المسمى «مصرايم» فكانت له فى مصر ذرية، فكان صاحب عشائر كثيرة وكان يشيد المدن والأبنية، وفى كل عام اعتاد أن يزور جده آدم فى الشام وحوران وبصرى ويدعو له، وسماه آدم ملك مصرايم، وسماه الملك فى اللغة العبرية، وكان له الملك مائة وثمانية عشر عامًا، وحكم جميع العشائر، وقد عمر وكان جبارًا عتيًا، وتعلم من أخيه الأكبر «ررايل» من عجائب وغرائب العلوم، واستخرج من جوف الأرض كثيرًا من الكنوز، وأمر قومه جميعًا أن يجمعوا من الجبال الأحجار، ومن هذه الأحجار بنى مدينة فى موضع الخيام تسمى «أمسوس» وهى الآن على ساحل النيل تعرف بمصر القديمة، ويسميها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى

عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة والأحجار التى فيها كبيرة، كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعًا.

وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعًا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لا يقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولا علم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاثة أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جَبَلَ (بيستون) ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض فى ذلك لا علم له ولا خبر لديه عن علم جر الأثقال، وليعلم أيضًا أن (همة الرجال تقلع الجبال).

وفى مدينة (أمسوس) خلق كثير، وقد حشد الملك (مصرايم) جيوشًا جرارة وأراد الانتقام من (قابيل)، فانطلق إلى الشام، كما أن (قابيل) جيّش جيشًا عظيمًا إلى فلسطين وقد عسكر فى مدينة الرملة، وقد اجتمع الجيشان وخاضا حربًا ضروس، وقتل «هابيل» من رجال «قابيل» مائة ألف إنسان، وإن قابيل هو الذى ناشب (مصرايم) هذه الحرب وبما أن هذه الحرب وقعت فى صحراء الرملة. يسمونها فى العبرية فلسطين، وقد ألحق مصرايم الهزيمة بقابيل وغنم أموالاً وغنائم كثيرة وصلت مصر، وبهذه الأموال التى غنمها قسّم النيل إلى فروع، وشق الترع والخلجان فروى الصحراء والحقول، وزرعها، وكان النيل يجرى وله فرع إلى بلاد النوبة، وآخر إلى بحر السويس، وفرع يجرى إلى المغرب فى أرض بنى هلال ويصب فى خليج (كبرت)، ولكن بفضل علم مصرايم بالهندسة ارتفعت كل أرض فكانت تنقسم إلى خلجان وبذلك كان يُجرى النيل إلى الأراضى التى يريد ريها.

* وبنى مصرايم الهرمين التى فى مواجهة مصر، وأنشأ لنفسه مرقداً ومخزنًا لكنوز الفرعون الكثيرة وبعد أن عُمر مصرايم سبعمائة وخمسة عشر عامًا انطوى كتاب عمره،

وجعل الهرمين مقبرة له، ودفنوا معه أمواله ومن عهد الطوفان إلى اليوم لم ينقطع نسله، وكان لذريته مُلك مصر، ومَلَك مصر من ذرية نقراوش سبعون ملكًا.

وفى زمن الطوفان بناء على ما سلف ذكره كان للملك (لفرغان)، وإن نقراوش المذكور وهو من أبناء مصرايم كان له كاهن يسمى (قليمون) وله طول الباع فى شتى العلوم، حتى إنه استطاع بغزارة علمه أن يتنبأ بوقوع الطوفان على أنه غضب من الله، وقبل الطوفان زايل جده وطنه مصر ومضى ليكون إلى جوار نوح فى الكوفة، فشرف بالإيمان، وسكن العراق مع أهله وعشيرته.

وكان بعد ذلك لنوح ابن يسمى «حام»، وكان لحام ابن يسمى (بيطار)، وقد زوج قليمون الكاهن ابنته بيطار، وبذلك تمت القرابة بنوح، ولما حل زمان الطوفان، ركب نوح وجميع من معه السفينة، ونجى من الطوفان، واستوت على الجودى بعد أربعين يومًا، وبعد الطوفان عمر نوح مدينة الجودى، وهى الآن قصبة الجودى، وتلقى قليمون الكاهن وصهره بيطار الأمر من (نوح) بالتوجه إلى إسوس التى بناها جده مصرايم، وهى مصر القديمة، وبعد قطع المنازل وطى المراحل كانت نجاتهما من الغرق، وجعل بيطار يبحث عن طريق، ونزلا بمكان بالقرب من مصر يسمى العريش وأقاما فيه، والعريش فى اللغة العبرية بمعنى المقر أو المستقر.

وكانت قد غرقت فى طوفان الغضب، وجلسا يستريحان فى ظل شجرة، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون لبيطار هذا من ابنة الكاهن قليمون التى تسمى (زوزه) ولد وسمى كذلك مصرايم، وكان مصرايم بن بيطار هو أول مولود ولد بعد الطوفان، وأقاموا الأفراح فى العريش، وبما أن ظل الشجرة موضع مبارك زينوا الشجرة بالثياب وانطلقا إلى بلبيس واستطابا جوها ومكثا فيها، وقبل الطوفان كانت بلبيس مدينة السحرة، ووجدوها خرابًا وبعد ذلك مضوا إلى أرض مصر ولكنهم لم يجدوا فى مدينة أمسوس التى بناها مصرايم أثرًا بعد الطوفان إلا ما فى مواجهة النيل من أهرام بناها إدريس للتعليم، ولكى ينجوا من الطوفان دخلاها فغرق كل متاعهما فقالا لنبحث لنا عن وطن آخر، فمضيا فى سفينة إلى منوف ووجدا فيها مكانًا طيب الهواء، وبجانبها

جزيرة جميلة فى النيل، فمكثا هناك وسكنا أكواخًا وخيامًا، وعلى مر الأيام كانت لهما ذرية وتحصل لهما مال جزيل من الزراعة؛ وكان وطنًا كثير الخيرات والبركات، وهناك أقاما بليدة صغيرة، وسموها منوف، ومعنى منوف فى اللغة العبرية (مكان المتعة).

وكانت منوف هى القرية الثانية التى تم بناؤها بعد قرية الجودى التى بناها نوح - عليه السلام - على جبل الجودى بالقرب من الموصل حيث رست سفينته بعد الطوفان، وقد عاش فيها بيطار عمرًا طويلاً، ومنوف مدينة عظيمة وبإيعاز من قليمون الكاهن صحب بيطار أهل بيته معه إلى «أمسوس» التى بناها جده وعمَّر قليمون مصر العتيقة التى بناها أجداده، وعمر قليمون الكاهن ألف سنة ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم وكان قليمون هذا هو أول من مات بعد الطوفان، ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم، وهو الذى أقام فى مصر مدينة الواح.

* * *

الفصل الثانى

بيان من ملكوا مصر بعد الطوفان

بعد نجاة بيطار بـن حام بن نوح من الطوفان أذن له نوح بالذهاب إلـى مصر بصحبة حماه الكاهن قليمون، فدعى نوح لبيطار بألا ينقطع نسله وأن يكون ملك مصر له، وأن يعمر طويلاً، ويجـد سعادة الدارين، فكان هذا دعاء له بالخيـر، وقدم بيطار أرض مصر وبنى مـدينة منوف، وجلـس على العرش، ويطـلق علماء التـاريخ على بيطـار هذا أبو القبـابطة، وكان له ثـلاثون من الولد، ومـصرايم أول من ولد لـه عندما قدم مـصر فى العريش، وهو أعلـم وأعقل أبناء بيطار الثلاثـين، وعلمه جده قليمون الكـاهن كثيراً من العلوم العجيبة، حتى أصبح فريد دهره، ودله قليمون على جميع الكنوز التى فى مصر، وعُمِّرَ بيطار بـعد والده مصرايم ثمانمائة وخمـسين سنة ولما تُوفى دفنوه فى الـهرم الكبير بجوار حماه قليـمون الكاهن، وجعلوا الخلافة من بعده لمصـرايم الذى ولد فى العريش، فاستقل بالمُلك، وبلغ إسنا وأسوان والسودان وبلاد الفونجة «فونجستان» وأصبح ملكًا نافذ الحكم، ووزع ثلاثـين من إخوته على أقالـيم مصر، وحكم كل مـنهم إقليمًا وشـيد فيه مدينة، وبفضل دعاء نـوح كان لهذه المدن أسماء أبناء بيطار للذكرى، فـمثلاً كان لبيطار ابن اسمـه رشيد فسميـت مدينة رشيـد باسمه، وكذلـك دمياط باسم دميـاط، وكذلك اسكندر باسم اسكنـدر، كما أن منهم تينه وسيف الذى شيد مدينـة بنى سويف، ومنهم من يسمى مـينا الذى أقام مدينة المنـيا، والشأن كذلك فى أشمـون، وأسيوط، وجرجة، وقنا، وقوص، وإسنـا، وأسوان، وشلال وإبريم وصاى وحلفا وسنـارة والسودان. فكل أمير من هؤلاء الأمراء شيد مدينة وإلى اليوم هذه المدن عامرة على ساحل النيل.

وكانت مهمـتهم فى تلك المدن مهمـة الحكام، أما أخوهم الأكبر مصـرايم فهو ملك العالـم وقد ولدته أمـه فى العريش ومـضت به إلى ظل شـجرة وكستـه من أوراق هذه الشجرة وزينت الأشجار بأحجار ثمينة، وجريًا على العادة عبدت الله تحت هذه الشجرة وبنت مدينة عظيمة بالقرب من تلك الشجرة واسمها (درسان) ومعناها فى العبرية (باب

الجنة)، وبينما كان مصرايم فى طريقه من غزة إلى مصر ظهرت علـى يُمنة طريقه آثار كثير من الأبنية، وعندما هدم بخت نصَّر مصر انهدمت كذلك مدينة درسان.

ومن الملوك الذين ملكوا مصر بعد ذلك يوسف صلاح الدين، والسلطان قايتباى، ولقد أقاما جامعًا وقلاعًا من أحجار ورخام درسان، وعمرا مصر، وابن مصرايم بانى هذه المدينة مدفون فى قبر عالى القبة، قبته تمس الفلك علوًا، وقد تخربت هذه المدينة، أما سبب عمران هذه القبة فهو أن جميع القبط يزورونها ويعمرونها ويرممونها واسمه قبطم بن بيطار بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ، أما مصرايم فقد عُمر سبعمائة عام وبذل الجهد فى إعمار مصر كأنها صرح شامخ، وكان له مائتان من الولد وكثرت لأولاده ولإخوتهم الثلاثين الذرية، حتى أصبح إقليم مصر بحرًا من بنى آدم، وكانوا جميعًا على دين جدهم نوح ـ عليه السلام ـ، وأولاد مصرايم هذا استقل كل منهم بحكم إقليم وبعد أن عاش مصرايم سبعمائة عام وقع تحت حكم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر: ٢٨]، ودفن مصرايم مع أبيه بيطار فى الهرمين إلى جانب سوريد بانيهما قبل الطوفان، وفى ذلك العهد كان يزور الهرمين عوام الناس وخواصهم لأن الملوك قاطبة كانوا يدفنون فيها، كما كانوا إلى عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ يطوفون حولها كالطواف حول الكعبة، ولكن أصبح الملك من بعد فى مدينة درسان لقبطم، وهو من أم قبطية، وفى درسان التى أقامها أبوه مصرايم بدأ يعبد الله تحت الشجرة التى ولد فى ظلها، وبدأت عبادة الشجرة بقبطم، وقد ارتد عن دين جده نوح، ووقعت الفرقة بين إخوته وعمومته الثلاثين، وابتدع كل منهم له مذهبًا، وأخذ ابن مصرايم له مذهبه عن قبطم، وذاعت له الشهرة وأصبح ملكًا عظيمًا، وجميع القبط من نسله، وبقيت تواريخ القبط منه، ومن نسل إدريس عالم أحاط بكل العلوم وكتب تواريخ القبط (فليس لتواريخ القبط أصل ونشأة، لأنه بعد هبوط آدم وبفضل إدريس انتشر علم الكتابة وعلم الحساب وعلم النجوم، وقد تيسرت تلك العلوم لقوم القبابطة، إنهم لا يشبهون قومًا آخرين، والآن[1] فى مصر كل أرباب الدولة فى حاجة إليهم، فليس لهم من نظير

(١) على عهد الكاتب.

فى علم الحساب والفراسة والتخطيط، حتى إن أعيان مصر يعتقدون أنهم أهلهم، وأن جميع حوائجهم ولوازمهم منهم، إنهم قوم يتقنون الحساب، فهم يحسبون كل (دانق) ينفق، ويقيدون، ولا وجود لهم إلا فى ديار مصر، ويقول هؤلاء القوم إن الملك قبطم (نبى)، وأما الآن فهم على دين المسيح ـ عليه السلام ـ، وهم قوم مدققون كثيرًا فى أكلهم وشربهم، ويقولون فى جميع الأوقات نحن قبط.

وتقول تواريخ الصابئة إن سيدنا هود ولد فى عهد قبطم بمدينة (ثمود)، ومن عهد آدم إلى عهد قبطم كان الناس يتكلمون بالعبرية، ولكون قبطم متضلعًا فى شتى العلوم شاعت فى عهده لغات مختلفة، وقد ألهم الله قبطم الفصاحة فى اللغة القبطية، وظل قبطم ملكًا لمدة أربعمائة وثمانين عامًا، وأدركه الموت ودفن فى جبل الهرمين إلى جانب أبيه مصرايم، ثم ملك بعده أخوه (اشمون)، واشمونين مدينتان وهو بانيهما، وأشمون فى العبرية بمعنى مَلَك له صفة الثور حامل الأرض ولهذا السبب كانت الثيران غاية فى الكثرة بتلك المدينة، ومن المشهور بين عرب مصر أن الإنسان الأبله يُشَبَّه بثور أشمون، ويجرى هذا مجرى المثل، إلا أن هذه المدينة ليست عامرة، وفى وقتنا هذا قراها عامرة، ومات أشمون، فملك أخوه اتريب، ومات كذلك، وخلفه صاى وبينما كان يصيد فى بلاد الفونجة قتله فيل، وقد كان ملكًا غاية فى النجدة والبسالة، وهو الذى شيد مدينة صاى الحالية[1] وقلعتها على حدود مصر وبلاد الفونجة، وأفضى الملك من بعده إلى تدارس بن صاى، وولد صالح ـ عليه السلام ـ فى عهد تدارس هذا، ومات وتولى بعده ابنه ماليق، إلا أنه لم يعمر إلا مائتى سنة، ولم يعقب فكان الملك لأخيه (خَرِبْتا) بن قبطيم، وانقضى عمره.

فكان الملك لولده (كلكن)، ولم يعقب كذلك، فخلفه فى الملك أخوه (مَلْبَاية) بن خربتا وقد شيد فى بلاد النوبة كثيرًا من المدن، ولما فارق الدنيا أصبح ابنه طوطيس ملكًا وكان طاغية جبارًا.

(١) على عهد الكاتب.

• حكاية •

قدم إبراهيم - عليه السلام - فى عهد طوطيس إلى مصر مع أمنا سارة فَمَدَّ طوطيس يده إليها، فجفّت يده بأمر الله - تعالى -، ولكن دعا له إبراهيم ربه، فشفيت يده إلا أنه لم يستطع كبح جماح نفسه الأمَّارة ووضع يده على أمنا سارة فأصبحت يداه قديداً، ولكن إبراهيم عفا عنه ثانية ودعى له، فعادت يداه إلى ما كانت عليه من قبل، وفى التو رفع طوطيس أصبع الشهادة قائلاً: «لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله»، ودخل فى الإسلام وزوج إبراهيم من أمّنا هاجر وولد من هاجر القبطية سيدنا إسماعيل، وثم قدّم طوطيس إلى إبراهيم ما لا يحصى كثرة من الهدايا، وأرسل إبراهيم إلى مدينة جدة على بحر السويس، ثم شق طوطيس الجبال الواقعة فى مقابل مدينة بنى سويف لفرط محبته لإبراهيم، وأجرى النيل إلى بحر السويس بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، فأرسل كثيرًا من السُّفن فى النيل إلى السويس، وكانت له مكة، وعاش مائتى عام ودام له الملك مائة وثمانين عامًا، وملك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، ودفنوه فى الهرمين إلى جانب أبيه خربتا، وأصبحت ابنته (خَرُوبَا) ملكة من بعده و(خَرُوبَا) بنت طوطيس هى الملكة الأولى على هذه الأرض، ودام الملك لها سبعين عامًا وهى على ملة إبراهيم، ثم ماتت ثم كان الملك من بعدها لابنة عمها (زَالِقا)[1]، إلا أنها تعاطت السحر كثيرًا، ودفنت إلى جانب أبيها (ماموم)، ويقول القبابطة الآن إنها زوجة نبىّ، وهذا اعتقاد باطل، ولها ضريح يزار فى مدينة (بهنيا) واستخدمت السحر على أنها تصنع به المعجزات، وكتب عنها القبط فى تواريخهم، ولكن لله من الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبىٍّ وليس فيهم أحد من النساء، وامتد بزاليقا العمر طويلاً، وكثر عدد القبط فى عصرها إلى حد أنهم انتشروا فى أقاليم مصر كلها، وإلى وقوع الطوفان، ومن بيطار بن حام بن نوح إلى عهد زليخة حكم مائتان وأربعون وألف ملك، ودامت دولهم ألفى عام وستة وفى عصر زاليقا ظهر بنو (العمالقة)، وألحقوا الهزائم بجند مصر وكان لهم ملكها.

* * *

(١) وتعريبها: زليخة.

الفصل الثالث

فى ذكر أحوال أهل العمالقة

(عَمْلاق) من أبناء العماليق، وكان وليد بن (إيدوس) أحد ملوكهم عنيدًا ذا بأس وشدة، طمع فى الاستيلاء على مصر من حوزة القبابطة لعمرانها، فجيش جيشًا عظيمًا كأنه موج البحر، اتجه به إلى مصر وخاض حربًا ضروسًا مع جيش (رَآلِقا) بنت (مأموم)، وفى النهاية لم يكن للقبط طاقة بالعمالقة فلحقت بهم الكسرة، وانهزموا أمام جيش الوليد، وحكم وليد قرنًا من الزمان، ووقف مصر على كنيسة آيا صوفيا، وكان حاكمًا ظلومًا غشومًا، فسلط الله عليه أسدًا هصره وأكله، فأمن أهل مصر شروره، وكان ضخم الجسم يعبد الشجر، تزن سنّه ثمانية عشر رطلاً، وكان العمالقة هكذا قومًا ضخام الأجسام.

وملك بعده ابنه ريّان، وفى تاريخ الصابئة أن ريّان هذا كان فرعون يوسف، ويسمى الكافر من الملوك فرعون، والجمع فراعنة، واختار ريَّان ركن العزلة لنفسه، فخلفه فى الملك يوسف الصديق، وعُمّر مائة من الأعوام، وزان الدنيا بعدله وعمّر مصر.

* * *

الفصل الرابع

بيان تشييد يوسف الصديق لمدينة الفيوم وحفره لبحيرة يوسف بإذن الله ـ تعالى ـ

جاء فى تاريخ الشيخ السيوطى ـ رحمه الله ـ: أن يوسف كان عبدًا مملوكًا لعزيز مصر قبل أن يشب فتًى يافعًا، وقيل افتراءً على يوسف أنه يعشق زليخة (امرأة العزيز) وتعشقه، فألقى الملك ريان يوسف فى السجن بمدينة الجيزة، وقد نزلت هذه الآية الشريفة على الرسول الكريم ﷺ على سبيل القصص: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:٣٦]،وهذا السجن يقع الآن فى منطقة الجيزة فى مواجهة مصر القديمة وبالقرب من جامع بوصير، وفى هذا الجامع يوجد كذلك الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ولدها من خشية فرعون وألقته فى النيل، وتخلص يوسف من هذا السجن ببركة صدقه، وآل إليه حُكم مصر. وحكَم يوسف مصر على سُنّة إدريس ودعا الله قائلاً: «اللهم إنى غريب فحببها إلى وإلى كل غريب»، ولأجل دعاء يوسف هذا نعمت طائفة العبيد، وغريبو الديار، بالعزة والسعادة.

ولقد أصبحت أنا الفقير الذليل الحقير قرير العين فى مصر وببركة دعاء يوسف ـ عليه السلام ـ حبا الله الأرض عَشْر نِعَم اختص مصر بتسع منها، والعاشرة هى كل الدنيا، لأنها الإقليم الآخر وفيها كثير من المطلسمات والعجائب والمعادن الغريبة، ولقد جاءت النبوة إلى يوسف من قِبَل المولى جل وعلا وهو فى الأربعين من عمره، إلا أنه كان خليفة فى الأرض وله من العمر ثلاثون عامًا، ولما كانت مصر أرض الجبارين زايلها ومضى إلى وادى الفيوم، وطاب له جوها السَجْسَج وشيد مدينة الفيوم فى ألف يوم، ومن الخطأ قولهم إن الفيوم من ألف يوم وإن كان التحقيق فى لسان العرب مقبول، وقد رفعت بالمعرّفة باللام، ولذلك يقولون فيوم بمعنى المدينة التى بُنيت فى ألف يوم، ولقد حمل يوسف الصديق بنفسه تراب الخليج فى ذيله مؤتمرًا بأمر جبريل الأمين؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ لجبريل: «الحق يا جبريل بيوسف وأعنه»؛ فهبط جبريل من السماء إلى الأرض وكأنه برق خاطف؛ فضرب البحيرة بجناحه فتطاير التراب إلى السماء ونزل إلى القعر فى الثريا، وضرب الصعيد العالى بجناح فانشقت ترعة فجرى فيها ماء النيل إلى

بحيرة الـفيوم، إنها فج عمـيق كم فيها من مخـلوقات وحشرات البحـر، وفى كل عام يطهرون التـرع بالثيران، ولكن بما أن هذه التـرعة شقها جبريل فلن تجـرف إلى انقضاء الزمن.

إن النيل يجرى ولكن إذا دخل ماؤه البحيرة أصبح ملحًا أجاجًا، وعلى جوانب هذه البحيرة الأربـعة ثلاثمائة وست وستون قـرية كل واحدة منها تشـبه «إرم ذات العماد»، وسوف نذكر أوصاف الفيوم فى موضعها بمشيئة الله.

وحينما كان يوسف الـصديق يسكن الفيوم لم يطق فراقه أبوه يـعقوب، فقدم مصر من أرض كنعان مع أهله وعشيرته، وبينما كان الملـك ريَّان فى عزلته منزويـًا عن الدنيا مضى إلى يعقوب والتقى به ونال منه خير الدعاء له، وأكرمه كل الإكرام، وبعث به إلى الفيوم، كما خرج يـوسف الصديق مسافة مـيلين خارج الفيوم لإستـقبال (أبيه) لذا يطلـقون على هذين الميلين اللذين تحف بهما البساتين اسم ميلىّ يوسف، وهناك التقى الابن بأبيه، والتقيا تعانقًا، وتبادلا القُبل وقد غمرت البهجة نفـس يعقوب بلقاء يوسف، ومع أن عينيه ابيضتا حزنًا على يوسف وذهب بصرهما فإنهما أنارتا كنرجستين، فأعتق يوسف تسعين عبدًا له، فامتلأ قلب يعقوب سرورًا، ودعا الله ليوسف وسكـن مصر ستة عشر عامًا. وكانت عيناه باصرتين إلى أن وافاه الأجل، وقبل أن يغمض يعـقوب عينه عن الدنيا أوصى يوسف بأن يحمل نَعْشه إلى القدس ويدفن إلى جانب خليل الرحمن فى جبل جبرون.

ذكر وفاة يوسف. عليه السلام.

حين أدركت يوسف الوفاة كان ريَّان قد مات ومـلك بعده ابنه دارم فى مملكة أسوان فسمع بموت يوسف فاستقل بالملك، وبنـاء على وصية يوسف ألقوا يوسف فى صندوق من البرونز فى النيـل، وبقى هذا الصندوق فى النيل إلى عهد سلـيمان عليه السلام ـ، وقدم سليمان مع الإنس والجن إلى شاطئ الـنيل، ومكثوا مدة، وأتت امرأة عجوز إلى سلـيمان فقالـت: «يا سلـيمان فى هذا المكـان ألقوا صنـدوقًا من البـرونز فيه جـثمان يوسف»، فتحـين الفرصة لإخراجه، وفى التوّ أمـر سليمان الجنَّ بحمـل الصندوق وبه جثمان يوسف الصديـق، فحملوه إلى القدس الشريف حيث دفنوه بـجانب أبيه يعقوب فى جبل جبرون وهما الآن يرقدان فى قبر عظيم الأنوار يُزار.

* * *

الفصل الخامس

فى بيان آل الريَّان وذكرهم

بعد وفاة يوسف الصديق أصبح الملك ريّان جباراً فى الأرض، وكان من عَبَدة الأصنام، وقد غرق فى النيل، وأصبح (كاشم بن معدان) من بعده ملكًا، وأدركه الموت، وجاء بعده الفرعون ابن حَرِيم بن كنور؛ بن زيد موسى واعتلى العرش فى منوف، وكان مقدم موسى عليه بعد عشرين عامًا، وعُمر أربعمائة سنة، وكانت معظم أيامه حروبًا مع موسى، وآخر الأمر بينما كان يناشب موسى القتال، غرق مع جنده، فى موضع من بحر القَلْزَم يسمى خليج قلوندر، وهذا ثابت بقواطع الأدلة فى كل التفاسير، وكان المُلك من بعده لملكة تسمى دلوكة بنت زيباكا، وقد شيدت معظم عمائر منوف من الحديد، وكست كل عمائرها بالرصاص، كما كفتت سطوحها بالنحاس الأصفر، وزينت أبوابها بالنحاس، وأنشأت سبعمائة حمام، فما كان فى أرض مصر مدينة مثل منوف.

وفى اللغة القبلية: منوف اسم عروس، أى أنها مدينة مزينة كأنها عروس الدنيا وأصبحت الملكة دلوكة زينة الدنيا بالسحر، إلا أنها حكمت عشرين عامًا، وماتت فى الستين بعد المائة من عمرها، وبعدها كان الملك «الدركون»، وبعد موته كان الملك لابنه «تودس»، وبعده الملك «القاس»، ثم الملك «مرينا» ثم ابنه «اسمارس» الذى قتل وهو أول ملك يقتل لأنه كان ظالمًا غداراً عاتيًا، وملك بعده «بطولس بن ميكاكل»، وحكم أربعين عامًا وخلفه ابنه «بالوس»، ثم ملك «مياكل» وهو أخو بالوس، ودام حكمه مائة وعشرين عامًا، وقد خرّب القدس وبيت المقدس، ولكن رَمَحَهُ[1] الفرس الذى كان يركبه فهلك، وملك بعده ابنه «مرتشوس» وجاء بعده «مرمورة» وكان عادلاً منصفًا يرعى جانب رعيته، وعمر أرض القدس ومصر، وعاش ستين عامًا، وجاء بعده «القاس»، وقتل فى الحرب، وجاء بعده «قوبش»، وسافر فى البر والبحر وأغار على خمسين إقليم، وفى عهده خرج بُخْتِنَصَّر من بلاد الأكراد يطلب دم يحيى النبى فجعل ـ حلب ودمشق وبليسر وطبرستان

(١) رَمَحَتْ الدابة فلانًا رَمْحًا: رَفَسَتْهُ.

ونابلس والقدس وعكة ورملة وصفد وغزة ومصر والإسكندرية ـ خرابًا يبابًا، والحاصل أنه دمر ألف وسبعمائة مدينة من المدن الإسرائيلية، وشوى الأسرى شيّا، ولقد ادعى أنه يطالب بدم (يحيى ـ عليه السلام ـ) وكإبن من يهودى قتله، وظلت مصر أربعين عامًا بالتمام خرابًا يبابًا، ووجد من الأنبياء اليا وأرميا، ودانيال فى مدينة (صَفَت) فأسرهم، وبينما كانوا فى سجن المدينة، تنزل الوحى، فلما شاهده بختنصّر أطلق سراحهم من سجنهم وكان ذلك برجاء بسطه إليه هؤلاء الأنبياء الثلاثة، ورحّل أهل مصر إلى مصر، وأمر بتعمير القدس، وفى هذا العصر غلب الروم بمدد من بختنصّر على إسرائيل، وتسلطوا على جميع الشعوب المسيحية، حتى إنهم فى إيران أطلقوا ناقوسهم وأرغنهم[1]، ونزلت على النبى ﷺ آية: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١ ـ ٢]، فى هذا الشأن ولم تبق بقية من آل ريّان والعمالقة.

* * *

(١) الأرغن: آلة موسيقية نفخية بها منافيخ جلدية وأنابيب ومفاتيح لتنغيم الصوت.

الفصل السادس

ذكر من دخل مصر من الأنبياء العظام (عليهم السلام)

نزلت الصحف على قينان بن شيث بن آدم بعد نزولها على آدم وشيث، وكان لمعلائيل المعجزة فى علم النجوم، ونزلت الصحف على أخنوخ ويلقب إدريس بهرمس ومعناها الشيخ فى العبرية.

ولد فى مصر وقد ساح فى جزيرة مصر من أقصاها إلى أقصاها، والآن تعتبر أسماء إدريس وحمد وحمود وخنوخ وجرجيس وكفيل مقبولة فى العديد من قرى مصر.

بعث إدريس فى مصر لقوم الصابئة، وأقام مائة وأربعين مدينة، وله كل البراعة فى علم الهندسة وعلم النجوم، وله المعجزات، ولكثرة ما علم الناس العلم سموه إدريس، ومن الدليل القاطع على عروجه فى السماء قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]، ولذلك يعرف فى جنة المأوى بالحائك لأنه كان واسع العلم بالحياكة وعلم الكتابة، وإليه ينسب علم الحياكة وعلم الكتابة.

أتمّ سيدنا إبراهيم وإسماعيل بناء مكة، وقدما مصر فى عهد الملك طوطيس، كما قدم يوسف الصديق مصر، وكذلك قَدِمَها يعقوب (عليه السلام) حين جاء لرؤية يوسف، قدمها مع أولاده الإثنا عشر وأكبرهم يهودا، وفى مقدمهم إلى مصر طرحوا يوسف فى الجُبِّ قائلين إن الذئب أكله، وسامحهم يوسف، ولبثوا فى مصر ستة عشر عامًا، وبعد وفاة أبيهم يعقوب مضوا جميعًا إلى مدينة صفت وهم مدفونون فى غار (بيت الحزن)، أما ابن يامن ويوسف لما كانا لام واحدة بقيا فى الفيوم، وولد ليوسف افرايم فى الفيوم، وافرايم وابن يامن مدفونان فى قبر بجوار قبر عمر بن الفارض، وما دفن فى أرض مصر سواهما من أبناء الأنبياء، ولوط والأخوان موسى وهارون ولدا فى مدينة أرمنت بالقرب من أسوان، ووضعت أم موسى موسى فى صندوق من خشية فرعون وطرحت الصندوق فى النيل، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون لفرعون قَصْرٌ على شاطئ النيل، وذات صباح فتحت السيدة (آسية) الصندوق ورأت عليه مخايل إلهية، فأحبته واحتفظت به وقامت على تربيته، ومن حكمة الله أن أبا موسى كان

بوابًا لفرعون، كما كانت أمه من خواص حـريمه، ودفعت آسيا موسى إلى أمه لتربيه، وقصة فرعون مع موسى مذكورة فى كل كتـب القصص، وسيدنا داود وسليمان والملك رحعيم بن سليمان وهود وشعيب قدموا مصر، وسيدنا ثمود كان يزور مصر فى كل مرة وفى مصر القديمة دير يُسميه قبط مـصر دير ثمود وهم يزورونه، والخلاف قائم فى نبوة سيدنا لقمان والخضر.

كان لقمان النبى فى أرض مصر والسـودان عـالم نحرير أسمر اللون، ووقع مثل هذا الخلاف فيما يـتعلق بالإسكندر ذو القـرنين وقالوا إنه نبى، والبعـض يرى أن الآية التى نزلت عـلى نبينـا ﷺ هى قوله ـ تـعالى ـ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]، قد نزلت فى شأن الإسكندر.

وفى الدنيا أربعـة يُـسمى كل منهم إسكندر، ومن قوم الروم فيـلقوس ابن الإسكندر ذو القرنـين اليونانـى، أمـا فـى كتب التـاريخ فهو الإسكـندر بن مرزبة واسمـه مرزبا، وكنيته الإسكنـدر؛ وكان يطلق القرن على اثنين وثلاثين عامـًا، ولما كان الإسكندر قد ملك ستين عامًا لذلك يُسمى ذا القـرنين، وفى رواية أن له قرنين من لحم ولذلك سمى بذى القرنين.

حكاية شرف نامه

يقول التبليسى صاحب شرف نامه فـى تاريخ أسلافه: «إن الإسكندر لم يسترح أبدًا من آلام قرنيه فجمع زلفًا من الأطباء يسـتشيرهم، إلا أنهم لم يجدوا من دواء لوجعه، فساح فى الأرض إلى أن بلغ ماء الحياة فى الظلمات، إلا أنه لم يجد ماء الحياة، فمضى إلى أرض العراق وشرب من زلال شط العرب، فسكن وجع قرنيه ووجد الراحة، ورأى فى منام من قال لـه: يا اسكندر وأنت تشرب ماء الحياة امـض إلى الموصل واشرب من الماء المخلوط بماء شط العرب، إن ما رأيت فيه نـفعًا وجدت راحة البرء منه، فامضِ إلى شاطئ هذا الـنهر، وسر حتى تـبلغ منبعه، وأقـم هناك أربعين يومًـا، واشرب هذا الماء وسوف تشفى مـن ألم قرنيك، وهذا ما أجمع الحكـماء جميعًا على القـول به. فمضى الإسكنـدر صوب الموصل وعـبر أنهارًا وأنهـارًا، وشرب من ماء الـنهر الذى يـأتى إلى

جزيرة العُمر. فتجددت فيه روحه ونعم بالراحة، وقبل ذلك بينما كان يمضى إلى شاطئ النهر. انشق النهر شقين؛ فشرب من ماء الشق الأول فَسُرَّ، ومضى إلى ساحله، وبالقرب من قلعة «بتليس» انشق النهر شقين، وشرب من ماء النهر الآتى من (ماد)، وارتفع أنين الإسكندر، وبينما كان يشرب من النهر الآتى من بتليس غمر السرور نفسه، فعطف بعنايته عن هذا المكان، وحينما قدم مدينة بتليس انشق النهر أسفل القلعة شقين، وشرب من النهر الآتى من داخل السوق، إلا أنه لم يجده طيبًا، أما حين شرب من الماء الآتى من أسفل القلعة وجد حياة الخلود.

وفى تلك الأثناء سقط أحد قرنيه، وبقى القرن الآخر، فحمد الله، ولما مضى إلى ساحل هذا النهر رفع صخرة وأسكن عسكره فى موضعها، وجعل يشرب من زلال هذا الينبوع أربعين يومًا، فسقط قرنه الآخر، وكان للإسكندر الخلاص من قرنيه ووجد البرء من وجعه، فشيد قصرًا شامخًا على رأس هذا النهر جعله خانقاه، وفيها كان المتصوفة من الدراويش وأهل العرفان وأصحاب المواجيد يقيمون ناعمين، وهو الآن مكان نزه، وكان للإسكندر خازن يسمى «بتليس» وكان عاقلاً مدبرًا، فأمره أن يقم قلعة حصينة عند منبع النهر أسماها بتليس على اسم خازنه، وفى عام ١٦٠٥ حيث وصل أفندينا ملك أحمد باشا بتليس وصفها على التفصيل، ولكنى رأيت فى التواريخ كلامًا عنها مؤداه أن الإسكندر أقام سدّ يأجوج، وقلعة الإسكندرية فى مصر، وقيل أنه الإسكندر هو ابن تارح بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ، وفى قول أنه الإسكندر بن داراب بن بهمن بن اسفنديار.

ومجمل القول أن الإسكندر مضى إلى مصر، وبنى قلعة الإسكندرية، ولهذا السبب فالإسكندر هو الخضر، لأن الخضر كان فى جند الإسكندر شيخًا محنكًا مُسنًا، وكان مع الإسكندر فى الظلمات، ويقولون الآن إنه على قيد الحياة ولكن وقع الخلاف كذلك فى نُبوته، ولكن مقدمه إلى مصر مثبت فى القرآن الكريم، ومدة ملكه أربع وستون سنة، ومات فى بابل وهو مدفون فى الإسكندرية، وفى مدينة دمياط بمصر يختلط ماء النيل المبارك بماء البحر وقد بلغ موسى هذا الموضع الذى يُسمى «مرج البحرين»، وقد خرق

الخضر سفينة ليتيم فغرقت، فلم يعجب ذلك منه موسى فكان الفراق بينهما: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقد نزلت هذه الآية على المصطفى ﷺ، وتكفى هذه الآية دليلاً على أن موسى كان يسكن مصر وقد بلغ مصر رفيقًا للخضر فى مرج البحرين؛ كما أن يوشع كان من الأنبياء الذين كانوا فى مصر ومولده فى مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة، ويوشع بن نون ليس ذا النون المصرى، وذو النون المصرى ولد كذلك فى مصر وكان حكيمًا عظيمًا من القبابطة، وقد أرسل المقوقس إلى النبى ﷺ رسولاً معه ثلاث جوارى من القبط وسيفًا وبغلاً هدية منه، وبينما كان يسلم هذه الهدايا شرف بالدخول فى الإسلام، وقد منح النبى ﷺ إحدى هذه الجوارى أبا بكر وسماها عين شمس، وولدت له حمد الأكبر، وأهدى جارية كذلك إلى حسان وسماها درّة ولدت له عبد الرحمن بن حسان، واحتفظ الرسول له بواحدة واسمها «مارية» وهى أم إبراهيم ابن الرسول ﷺ.

وحضر ذو النون هذا فتح مصر مع عمرو بن العاص، واستشهد كما استشهد الشيخ عقبة الجهنى العامرى، وهو مدفون بجانب ذى النون، أما يوشع بن نون فهو نبى، وغادر مصر إلى طرابلس فى الشام وهو مدفون هناك، وقد أسر بختنصر سيدنا دانيال وأرميا وعندما قدم مصر لتخريبها أحضر هذين النبيين معه، ثم جاء بهما إلى بلاد الأكراد، وقد هاجرت السيدة مريم والدة المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ من مدينة نابلس، وفى مصر سكنت المطرية أعوامًا ثلاثة، وكانت تحت شجرة بليسان، ولم تشاهد هذه الشجرة على وجه الأرض حتى ظهرت فى عصر دولة الأكراد. أما الآن فبقيت منها جذورها، كما حفر عيسى ـ عليه السلام ـ تحتها بئرًا، وحينما كان الطين فى النيل شرب عظماء وكبراء مصر الماء من بئر المطرية هذا وهو الآن مزار للمسيحيين، ومنها بلغ عيسى ـ عليه السلام ـ مدينة البهنسا وسكنها مع أمه ثلاثة أعوام، ومما يشير إلى دخول عيسى ـ عليه السلام ـ هذه الآية الكريمة: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، والمفسرون يشيرون بهذه الآية إلى دخول المسيح ـ عليه السلام ـ مصر، وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين ـ وهو الصحيح ـ أن هؤلاء الأنبياء دخلوا

مصر، ولـكن ليس فى مصـر نبى مدفون سـوى اثنين من أبنـاء الأنبياء وهما يـامن بن يعقوب، وافرايم بن يوسف الصديق، والسلام.

ذكر من دخل مصر من أهل بيت رسولٍ

فـى البـداية أمنا حـواء، أمنا حوراء زوج شيـث، وأمنا سـارة زوج إبـراهيـم (عليه السلام) وأمنا آسيه زوج فرعون، والتى استشهدت على يد فرعون، ويجدر بها أن تكـون زوجـة النبى ﷺ فـى الآخـرة، وكذلك أم سيدنـا موسى يوحينـه، وأم سيدنا يهـودا بن يعقـوب، والسيـدة مريـم أم المسيح عيسى، هذا ما اجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين.

ذكر من دخل مصر من قدماء الحكماء

أولهم إدريس الكاتب والحائك والحكيم، وكذلك لقمان، وفيثاغورث عالم التوحيد، وتيمون وفـليسله، وإسلاوس، وكـاوس، ويزدجرد، وبقراط، وسقـراط، وأفلاطون، وإقلطس، وارسططـاليس وبطليموس العالم بـالنجوم (الفلكى)، وإقلطـموس وفيلقوس وذو النون وأبو على (بن) سينا وأبو الحـارث، وهؤلاء من قدماء الحكماء والآن يؤخذ بما جاء فى مؤلفاتهم والسلام.

ففى مصر بعد هـبوط آدم وبعد طوفان آدم الثانى نوح (عليه السـلام) تناسل بنو آدم فى أرجاء الأرض، وكم مـن نبى وملك قدموا مـصر وكانت مصر فى حـوزتهم، ومن جملتهم (دارة) الـذى ادعـى المُلْك فـى زمـن الجاهـلية وهـو كيومرس أحـد أبنـاء نوح - عليه السلام -.

أما فى زمن الضلالة قبل النبى ﷺ، كان الملوك منقسمين إلى طبقات أربعة: الطائفة الأولى أهل الأديان، والطائـفة الثانية الإشكانيين، والطـائفة الثالثة الكيانـيون، والطائفة الرابعة أهل الـساسانيين، ومعظم هـؤلاء المذكورين حكموا أرض إيران ومـا وراء النهر وديار العراق ومصر.

* * *

الفصل السابع

ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب بفضل معجزات وبركات النبى ﷺ

أما سبب فتح مصر فهو أن الإسكندر اليونانى كان فاتحًا عظيمًا فاستولى على الأقاليم السبعة، ثم دخلت مصر فى حوزته فجعل للمقوقس القبطى رتبة الإمارة، ولكى يمضى إلى مكة والمدينة قطع طرق النيل قبالة بنى سويف، لما لم تصل السفن إلى السويس قحطت مكة والمدينة وغلت الأسعار، ورغمًا عن الكفار أرسل إلى القدس ثمانين ألف جندى وفتح عمر بنفسه القدس الشريف، وأمَّر خالد بن الوليد على جيش قوامه أربعين ألف مقاتل لفتح دمشق، وأثناء حصاره لدمشق جاءه مدد من أربعين ألف جندى، وفتح خالد بن الوليد بقوة ساعده دمشق واستخلصها من يد الملك خرقيل العنيد، وأرسل ما غنم من غنائم إلى المدينة المنورة، وقد أسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، وفى عصر النبى ﷺ كان خالد بن الوليد أول من خرج إلى الروم، ثم شق الروم فى القدس عصا الطاعة، ففتحت فى خلافة عمر، فاستاء الروم والقبط من خالد، وبينما كان جند الروم ينهزمون أمام جند العرب أرسل خرقيل من قبل ملك أنطاكية مددًا قوامه أربعون ألف فارس، وأربعين ألفًا من المشاة الروم إلى قلعة الإسكندرية ومصر، فانشرحت لذلك صدور الروم والقبط؛ وكان عمرو بن العاص فى الجاهلية من أثرياء قريش، وفى كل عام يمضى إلى البصرة والقدس الشريف، وهناك كان يستظل بشجرة طلبًا للراحة، واتفق أن ظهرت له أفعى كأنها تنين وهاجمت من كان فى ظل الشجرة، فحمل عمرو قوسًا ورشق الأفعى بها، فاستيقظ من كان نائمًا فى ظل الشجرة ورأى عمرو وهو يرشق الأفعى بالسهم، فسأل هذا الرجل عمرًا ما هذا؟ فقال له: رشقت الأفعى بالسهم وقتلتها. فأكب الرجل على يد وقدم عمرو، فقال عمرو: أنا مسقط رأس مكة، وأنا من آل هاشم. فقال الرجل: أنا أخوك فى الدنيا والآخرة، وتلك الأخوة جزاء إنقاذى من الأفعى، قال عمرو، إنما صنعت هذا حسبة لله، أنا أعيش من التجارة فى كفاف وحاجتى ماسة إلى الله.

قال الرجل: يا أخى أنا كذلك تاجر عظيم فى الإسكندرية، أنا شماس واسع الثراء ولى أملاك كثيرة فى الإسكندرية، ولكنى قدمت إلى القدس للزيارة، والآن أنا غريب الديار، تعال معى إلى الإسكندرية، وسأعطيك سكة ذهبية وجواهر ثمينة وأقمشة فاخرة، وسأبعث بك إلى مكة فى قافلتين تحملان مالاً جزيلاً، قال ذلك راجيًا، وأقر ذلك من سمعه، كما أن عمرو لم يعترض وقطع المنازل وطوى المراحل من القدس حتى دخل الإسكندرية بعد أيام عشرة، ونزل ضيفًا على دار الشماس، ووفّى الشماس بوعده وأعطى عمرو عشرة آلاف ذهبًا ومضى به إلى متنزهات المدينة، وبينما كانا يشاهدان ما حولهما، اقتضت حكمة الله أن جاءت الكرة إلى الصولجان وخطر لعمرو رأى، وأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجالس وكان بين أهل الإسكندرية عقيدة مؤداها أنه كل من كان على رأسه صولجان وكرة أصبح ملكًا، وهزأ الناس جميعًا من تلك الكرة التى على رأس عمرو، وقالوا: هذا العربى أيصح أن يكون ملكًا علينا؟! وابتسموا، ومضى عمرو مع الشماس إلى داره وكان الشماس فريد عصره فى علم الإسطرلاب فنظر فى طالع عمرو فرأى أن له مُلك مصر، ولما أصبح الصباح قدم إليه سبعين جملاً تحمل المال، فأرسل عمرواً إلى مصر ومكث عمرو فى مصر شهراً، ووقف على كل أحوال مصر، فمضى إلى مكة فى قافلة عظيمة، وقدم إلى جميع أهل مكة الهدايا، ومدح قلعة الإسكندرية ومصر أم الدنيا إلى حد أن جميع جند الإسلام دعوا الله أن يفتح عليهم مصر، ومثل عمرو فى حضرة الرسول ﷺ وعرض الهدايا وقبل الرسول من الهدايا، فرفع عمرو يده وشرف بالإسلام والحق بزمرة الصحابة الكرام، ووصف للرسول ﷺ الإسكندرية ومصر على الحقيقة، فَسُرّ ﷺ وقال: «اللهم يَسّرْ بالعمرين» وجعل يرغب الصحابة الكرام من يوم إلى يوم فى فتح مصر والقسطنطينية. وبلغته من المقوقس ملك مصر الهدايا والرسائل مراراً؛ وجاء فى إحدى الرسائل: «يا محمد لقد غلبنا وظلمنا من الروم وسلبوا مصر من يدنا»، وبعد نصر النبى ﷺ فى العام السادس للهجرة فى غزوة الحديبية أوْفَدَ الرسول ﷺ أبا الدرداء وحاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى عظيم مصر (المقوقس)، وبلغا مصر سالمين لدعوة المقوقس إلى الدين

الحنيف، وفى هذا روايات مختلفة، فى إحداها أن المقوقس وقع على الرسالة بأنه أسلم وأرسل المقوقس مع ذى النون ثلاث جوارٍ وبغلاً وسيفًا، فقالوا:

يبعث نصر إلينا ∴ وحتى فتح الله علينا

ومن المحقق أن النبى طاب بذلك نفسًا، ومن المؤكد المحقق أنه أحبه حبًا جمًا.

نقول والعهدة على الراوى: إن أبا الدرداء مع ابن أبى بلتعة قدما من قِبَل المقوقس، ووصفا للنبى ﷺ طيب هواء مصر، وأنواع الزروع فيها، والمطعوم والمشروب بها، وحاصلاتها، فقال النبى ﷺ عدة أحاديث خاصة بمصر، كما سيرد ذكره. وصرح بتفضيل القرآن الكريم لمصر وما ورد فى ذلك الأمر على طريق القصص تلاه تصريحًا وتنبيهًا بمسمع ومشهد من الصحابة، وبذلك أقنعهم بغزو مصر.

* * *

الفصل الثامن

بيان بالآيات الكريمة التى ذكرت فيها مصر صراحة وكناية وتنبيهًا

قال - عز من قائل -: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1] الآية، وذلك على الحكاية، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[2]، وقال - تعالى - عن قصة يوسف الصديق: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[3]، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[4].

وقال فى قصة فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[5]، وعن قصة يوسف الصديق قال - عز من قائل -: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[6]، ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[7]، و ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[8]، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[9]، كما قال - تعالى - فيما يختص بعيسى - عليه السلام - والسيدة مريم: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[10]، ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾[11]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾[12]، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾[13]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[14]، ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾[15]، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[16]، ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[17]، ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[18]، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٦) سورة يوسف: الآية ٣٠.

(٧) سورة القصص: الآية ١٥.

(٨) سورة القصص الآية ١٨.

(٩) سورة يس: الآية ٢٠.

(١٠) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.

(١١) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(١٢) سورة يوسف: الآية ٢١.

(١٣) سورة يوسف: الآية ٨٠.

(١٤) سورة القصص: الآية ٤.

(١٥) سورة القصص: الآية ١٩.

(١٦) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

(١٧) سورة الأعراف: الآية ١١٠.

(١٨) سورة الشعراء: الآية ٥٧، ٥٨.

مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات﴾[1]، ﴿كمثل جنة بربوة﴾[2]، يقول بعض المفسرين أن المقصود بالربوة مصر، كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير أن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر، ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾[3]، ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾[4]، ﴿وقدر فيها أقواتها﴾[5]، ﴿إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[6].

قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام»، وقد أخفاها الله حتى قيل أن جواهر وجدت فى سبيل علام وقد رأيتها تباع بألف قرش. وبناء على قول بعض المؤرخين أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، أن أعرابيًا أناخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فَعُلِمَ أن حديقة إرم بالقرب من دمشق.

وقال كثير من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلى مدينة أسوان، وقالوا إن حديقة إرم فى مصر على الأرجح، وجاء عن مصر: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾[7]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾[8]، ومن الحق أن من جند مصر كثيرًا من الفاسقين والجبارين والعتاة، ﴿أمر كل جبار عنيد﴾[9]، وجميع الرعايا والبرايا فيها من قوم الفراعنة، وهم جبارون بحكم جوها، ويتألفون من طائفتين، طائفة هابيل وطائفة قابيل، فطائفة منهم أخيار والأخرى أشرار، فهم ليل نهار فى تشاجر وتناحر، والغالب يبقر بطن زوجة المغلوب ويقتل جنينها وهم على هذا النحو جبارين عتاة، وفرسهم الذى يشرب من ماء النيل

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٣. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥. (٣) سورة المائدة: الآية ٢١.
(٤) سورة السجدة: الآية ٢٧. (٥) سورة فصلت: الآية ١٠. (٦) سورة الفجر: الآية ٧، ٨.
(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٠. (٨) سورة الأعراف: الآية ١٤٥. (٩) سورة هود: الآية ٥٩.

جموح، وقال الله عنهم كذلك: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(١)، ولكن ما ذكره الله ـ تعالى ـ خاص بالبلد القديم وما فيه من جبارين وفاسقين ما كان له دوام وفيه البلاء، كما أن الجراد كذلك لا يدوم له فى مصر البقاء، وبحمد الله ـ تعالى ـ لا يصيب الجراد محاصيلها قط، وفى عام ١٠٨٨ إذ كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر هبط الجراد فى مصر كالوابل، حتى ضؤل وهج الشمس، واسودت السماء ولم يشاهد وجهها، ولما هبط الجراد على الأرض بفضل الله احتفلت المدن والقرى والكبار والصغار بعيد الأضحى وطعموا وانمحى الجراد ذات يوم وغرق فى النيل.

وفى رواية أنه هلك بريح عظيم، وفى عهد الرسول ﷺ أصاب الجراد مكة ووادى فاطمة فقال أهل مكة: يا رسول الله إن الجراد أصاب مدينتنا فما عاقبة الأمر؟ ولما قالوا ذلك بسط ﷺ يده فدعى الله قائلاً: أرسل هذه الحشرات إلى مصر. فقال الصحابة الكرام: يا رسول الله إن كل أرزاق أمتك فى مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا ما وصل هذا الجراد إلى مصر أصاب الناس القحط وغلت الأسعار، فقال: إنه رجع عن رأيه.

ومصر حمى الله وكنانة أرضه، وفى مصر نجباء يحرسونها وهم سبعون كلهم رجال الله وليس منهم فاسق ولا ظالم، وإذا ما بلغ الجراد مصر من مكة فهو هالك، ودعا الله قائلاً: كل من نظر إلى مصر بعين الحقارة حُقر وذل، ومن عدل سلم،

من عدل فى مصر القديمة ∴ أعزته مصر بنعمها

وكم من آيات شريفة نزلت فى شأن مصر ولكن بسبب قوة ذاكرتى ألهمت كتابة هذه الآيات الشريفة، وقد رغب المصطفى ﷺ صحابته الكرام فى فتح مصر.

ذكر الأحاديث الشريفة التى ورد فيها ذكر مصر

قال رسول الله ﷺ: «افتحوا مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»، فسيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولد للسيدة هاجر من قبابطة مصر، والرسول ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وكانت أم النبى من

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

مصر، والحديث الآتى ذكر خاص بالسيدة هاجر ومصر، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحمًا». وقال ـ عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالأدم الجُعْد» والجعد بمعنى أسمر اللون، ويطلق على القبط. وقال ﷺ : «إن إبليس دخل العراق وقضى حاجته فيها، ثم دخل الشام فطرد حتى بلغ ميسان ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرته».

وقال ﷺ الجزة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله فى أرضه»، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن ولد مصر معاف من الفتن ومن يريدهم بسوء إلا صرعه ولا يريد أحداً إهلاكهم إلا أهلكه، من يقصده بسوء غيرّ الله وجهه، ونهرها نهر العسل، ومأدبة من الجنة وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا».

وكم من حديث شريف جاء فى شأن مصر، إلا أننى اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث وكم من عالم وشيخ وشاعر نظم شعراً فى مصر.

وقال الشيخ الكندى ـ رحمه الله ـ لا يُعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى عليه الله فى القرآن الكريم بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر. كما مدح الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض لمصر كأنما مدحوا إرم ذات العماد.

وقد سلف ذكر الحديث الذى قاله ﷺ لأصحابه ترغيبًا فى فتح مصر، ولكن فى عهد النبوة لم يسترح ﷺ من المغازى والسرايا، وقال: «الأمور مرهونة بأوقاتها» ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى وآلت الخلافة إلى أمير المؤمنين أبى بكر الصديق، وفى عهده وقعت الفرقة بين الصحابة وظهرت أحداث متباينة، فما استطاعوا إلى مصر التفاتًا، كما امتثل قول ربه: ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾[1]، وأفضت الخلافة إلى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ، فعقد النية على فتح مصر.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.

الفصل التاسع
ذكر فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب
على يد عمرو بن العاص

أجمع المؤرخون على صحة القول بأن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد بعد وفاة النبى ﷺ بثمانية عشر عامًا، وفى خلافة عمر استولى الملك هرقل اللعين على القدس الشريف، وأعاد عمر فتح القدس الشريف بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل، ووجه عمرو بن العاص والأسود بن المقداد على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل لفتح مصر، فاتجها إلى مكة المكرمة، ومن جانب جمع عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة من فرسان العرب وأربعة آلاف مختارين من خيرة العربان البواسل الأبطال مشاة، وبعد طى المنازل وقطع المراحل، بلغ عمرو بن العاص الرَّملة على مقربة من العريش وهناك مكث حينًا، وحين مقامه فيها جاءه رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة فحواها قوله له:

«إذا بلغتك رسالتى وكانت قدمك قد وطأت أرض مصر. فاحمل على مصر، وسوف ييسر الله أمرك بمشيئته ـ تعالى ـ، أما إن كنت لم تدخل أرض مصر بعسكر الإسلام، وكانت غزوة عمان فى العراق ولزام أن تعود».

فجمع عمرو رجاله وأهل البلاد وتلا الرسالة ثم سألهم: العريش فى أرض مصر أم هى أرض فلسطين؟ فردوا عليه قائلين: يا عمرو إن العريش على منزلين داخل مصر، ولما شهدوا له على ذلك؛ أرسل إلى عمر يخبره هذا الخبر مع راكب الوجناء لسرعة سيرها، فقال عمرو بن العاص: توكلت على الله، وتوجه إلى مصر.

وكان المقوقس على الفسطاط وإليا لليونان وهى الآن تسمى مصر القديمة، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رسائل فى الخفاء، ومن ناحية أخرى أرسل هرقل اللعين من أنطاكية وطرابلس وصيدا وعكا ألف سفينة تحمل ستين ألفًا من جنده إلى قلعة الإسكندرية. فحملوا جميعًا على جند الإسلام، واتجهوا إلى ساحة مدينة بلبيس للقتال، واختلط جند الفريقين فى ساحة الوغى وتراشقوا بالسهام، فكانا بحرين تلاطمت

أمواجهما ودام القتـال شهرًا بتمامه، والتقى الجمعـان، جيش أهل لا إله إلا الله وجيش الكفر، ودخل جند المسلمين المعركة، فمنهم من قطع رأسًا ومنهم من قطع رأسه.

نـزع سيفنا جوشنهـم[1] ∴ وودعت الأجساد أرواحها

فتغـطت أرض حاسان بأكوام مـن أجساد القتـلى ونصر البـارى جنده نصرًا مبـينًا، ولحقت هـزيمة ماحقة بـالروم، وفى تلك الحـرب حمل «أشقف» الـقبطى من المـقوقس رسائل، وقد حضر هذه الحرب ورأى الروم فى كسرتهم، فأخبر بذلك المقوقس، فجعل القبط يقاتلون الروم، وفى موضع يسمى «قـواصر» أقام عسكر الإسلام خيامهم ومكثوا فيها، وقال القبابطة إن جند العرب جند شداد غلبوا ملكنا المقوقس وأوقعوه فى الأسر، وسبق أن هزمـونا وأسرونا ـ قال هذا بـعضهم لبعـض ـ وكان يقول بعضـهم أيضًا: إن هؤلاء العرب قوم أحبـهم ملكنا المقوقس وهم جـند محمد العربى وإذا انضمـمنا إليهم كانوا المظفرين وفى هذا الأمر تشاوروا.

فغادر جند المسلمين بلبيس وعسكـروا فى موضع يسمى «أم دنين» بالقرب من مدينة الخانكـة ومن هذه الجهة خـرج جيش الروم وفى صحـراء الخانكة اقتـتل الجيشان ثـانية وتقاتلوا سبع ساعات حتى المساء ثم تهـاونوا عند الغروب، وفى هذا اليوم استشهد من الصحابة الكرام سبعون رجلاً ـ عليهم رحمة الله ـ ومن الغد فى الصباح وصل مدد من قبل عمر يتألف من أربعة آلاف رجل هم من خيرة الجند، فدبت فى جند المسلمين روح جديدة، وفى هذا اليوم حاصروا قلعة «بابليون» وهناك دار قتال ضار، وفى النهاية تولى القيادة الزبير بن العوام والأسود بن مقداد وشدوا من جانب القلعة التى دكت بالمنجنيـق ففتحـت وغنـم المسلمون كثيـرًا من الغنـائم وفـى موضـع القلعـة المفتوحة ـ بحمد الله ـ جاء مدد من أربعة آلاف جندى من خيرة الجند والفى جمل وسُرَّ عسكر الإسلام سرورًا عظيمًـا وانخلعت قلـوب من فى مصر من الروم رعـبًا، وتشاور عمرو بـن العاص فى الأمر وأقر الهجوم على مصر من جهاتها الأربع، ثم رأى جواز محاصرتها، ثم انطلقوا إلى الإسـكنـدرية؛ وطووا المـراحل فـى أرض البحـيرة وضـربوا الحـصار علـى قلـعة

(١) الجوشن: الصدر، والدرع.

الإسكندرية، ووصل المدد تباعًا للروم. إلا أن عسكر الإسلام أحاطوا بداخل القلعة، وبعد أن دام الحصار تسعة أشهر بالتمام خرج القبط من القلعة آمنين ومضوا إلى مدينة حوش عيسى بالقرب من دمنهور، أما جند هرقل اللعين لم يقبلوا الصلح الذى اقترحه ملكهم وخرجوا للقتال، وفى آخر الأمر فى العام التاسع عشر للهجرة مات هرقل اللعين فى مدينة قيصرية فجزع الروم الموجودون فى الإسكندرية لموته، وعرف عسكر الإسلام كذلك هذا الخبر، وأغارت جيوش الموحدين من نواحى القلعة التى دكها المنجنيق وفى يوم الجمعة فى شهر المحرم من العام العشرين للهجرة فتحت قلعة الإسكندرية الحصينة وغادرها كل من فيها راكبين السفن ومضوا إلى عكا وصيدا ومنهم من اتجه إلى الرملة واستولى جيش المسلمين على قلعة الإسكندرية، وأقاموا أديرة ومساجد وتكايا، وبشر عمرو بن العاص عمر بن الخطاب بهذا النصر وأرسل له عشرة آلاف صندوق من الذهب كما أرسل إليه مراراً مائة ألف قطعة من السلاح ولما وصلت عمر أصدر أمراً يقول له فيه: «لا شك أنك مالك مصر، ولا تنظر إلى القلاع على ساحل البحر، إن الحفاظ عليها أمر عسير، فإذا ما قدم الروم فى سفنهم استولوا عليها، أما إذا جاء الروم من ناحية البر انهزموا بمشيئة الله، وجاء بذلك رسالة مع خلعة فاخرة، لقد غنم جند المسلمين أموالاً كثيرة إلى حد أن خص كل منهم على الأقل مائة ألف دينار من ذهب، وفى زمن الجاهلية قدم عمرو بن العاص القائد الأعظم من القدس إلى الإسكندرية، ونزل ضيفًا على دار الشماس.

وفى ميدان اللعب بالصولجان وضع عمرو على رأسه كرة الصولجان، فتذكر عمرو هذا فمضى إلى الشماس فوجده مريضًا طريح الفراش، فداواه أيامًا عدة حتى عُوفِى الشماس من مرضه؛ فمنحه عمرو سبعين جملاً تحمل مال الخزائن، ودعى الشماس إلى الإسلام، فشرفه الشماس بالدخول فى الدين الحنيف توًا بلا تردد، وقدّم الملك المقوقس إلى غزاة المسلمين فى الإسكندرية من أطايب الطعام والشراب وكثيراً من الهدايا، وجعل عسكر الإسلام يغتنمون ولكن عسكر الروم كانوا محصورين فى مصر القديمة لأنهم كانوا مجبرين على أن يكونوا فى يد الروم وسوف نذكر أوصاف مدينة الإسكندرية فيما يلى بمشيئة الله.

وصف حصار عمرو بن العاص . رضى الله عنه . لمدينة القاهرة

فى العام الحادى والعشرين للهجرة حينما كانت الخلافة لعمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص أن يضرب الحصار حول مدينة الفسطاط، وهى مصر القديمة، بجيش كموج البحر؛ وذلك بعد فتح القدس. وفى الحملة الرابعة على الشام وبالقرب من مدينة دمشق فى موضع يسمى (حابية) أنفذ عمر إلى عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف مقاتل، وبينما كان فى طريقه من دمشق إلى مصر فتح فى البداية ديار عسقلان وقلعة يافا وقلعة تينة وقلعة دمياط وقلعة البرلس وقلعة رشيد وبعد ذلك فتح مدينة خوش وقلعة الفيوم وقلعة بهنيسا، وبعد ذلك أحاط بمصر القديمة، وبعد قتال دارت رحاه ثلاثة أشهر وفى المرة الثالثة جاء المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام ومقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، مضى المقوقس فى أمان مع من معه إلى حوش عيسى، ولم يستطع الروم الصمود للحصار؛ فسلموا قلعتهم صلحًا ومضوا فى النيل إلى دمياط، وأصبحت جميع الكنائس مساجد، وبلغت عمر بن الخطاب البشرى بفتح الفتوح هذا، وعبَّر جميع الصحابة الكرام وجميع أهل مكة والمدينة عن فرط ابتهاجهم بذلك، وقدم عمرو بن العاص واليًا على مصر من قبل عمر بن الخطاب وبدأ عمرو بن العاص بإقامة العدل بين الناس وأولى عمران مصر اهتمامه، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة أقام عمرو بن العاص فى موضع خيمته مسجدًا عظيمًا وحمامًا وسموه حمام (الفأرة)، وأقام فى جانب مدينة الجيزة قلعة كما أقام قلعة فى جزيرة أم القياس وسماها قلعة الروضة، واليوم تسمى هذه الجزيرة جزيرة الروضة، لأنها تشبه روضة من رياض الجنة وآثارها اليوم بادية للعيان.

ودانت بالطاعة لعمرو من قبائل العرب قبيلة بنى مالك وقبيلة بنى شكر التى سكنت جبل الكبش، وأقام فى موضع الخيام مدينة أسماها فسطاط شكر وكان اسمها من قبل مدينة جبل الكبش، فقد كان فيها فى عصر الكهنة كبش من النحاس الأصفر وهو طلسم عظيم، وإذا ما تعارك هذا الكبش مع الكباش زاد عدد الشياه، ولذلك سموه جبل الكبش، وقدمت قبيلة بنى حَجَر وبنى سيف ونافع وهمدان وأطاعت عمرو بن العاص، واستوطنوا العرب المناطق الواقعة من الجيزة إلى أرض المغرب إلى أوجله، كما

أطاعته قبيلة ابن همام وبنى جوَّارة وبنى عـابد واتخذوا من مصر العليا وطنًا وقدم الملك المقوقس إلى عمرو خزانة من ذهب وبسط إليه الرجاء أن يقيم على جبل المقطم وسفحه فى الجانب القبلـى من مصر، ولم يقبل عمرو ما قدم إليـه المقوقس من ذهب، وعرض ذلك على عمر بن الخطاب فى المدينة ولـم يرض عمر بذلك وكتب إليه يقول: «إن هذه أرض مباركة وأقم لموتى المسلمين فيها مقبرة، لأن فيها سيدنا عامر أو مغافر وفى السفح دفن خمسة رجال وحذافـة بن عبد الله السهيمى وعبد الله بن حـارث الزبيدى من زبيد وهى مدينة من مدن اليـمن، كما دُفن فيها أبو نصر الغفارى وعامر بـن عقبة الجهينى، كما دفـن فيها كثيـر من الأنبياء قـبل الطوفان، وكـم من أبناء الأنبيـاء دفنوا فيهـا بعد الطوفان، ولا تكون المقبرة إلا للمسلمين».

هـذا ما كتـب عمر فى رسالته إلى عمـرو، فما أعطى عمرو هذا المكان لـلمقوقس إنـه الآن المقبرة الكبرى، وفيها يدفن عظـماء مصر وسوف نكتب عن هذا بمشيئة الله فى موضعه.

وبناء على قول ابن الحكم ـ رحمه الله ـ إن جبل خليل الرحمن فى القدس وجبل طور سيناء وجبل ينـبع وعرفات وإلى ساحل نهر مراد والرها وحلـب وربح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حـتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحـكم، ويذهب إلى هذا كذلك كعب الأحبار، ولكن بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين يقولون: «أرض حاسان هى مدينة بلبيس وما بعدها إلى مصر أرض غير مقدسة»؛ فافهم بقول صحيح..

أما فـى تواريـخ القبـط فمـن يدفنـون فى جبل المقطم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عـذاب، وهـذا ما تبينه أحاديـث سيدنا إدريس ـ عليـه السـلام ـ ودانيـال والعـزيـر والنبى قفاح.

وإذا ما دخل مصر مـن اشتد به العلة ورقد فى ظـل جبل المقطم سبعـة أيام شفى بإذن الله، وعند طـلوع الشمس مـن وراء هذا الجبل يمتد ظـله إلى مصر الـقديمة الواقعـة على ساحل النيل، وعلى حد قول وهب بن سفيان أن ما يقع عليه ظل هذا الجبل فى مصر يُعد أرضًا مقدسة، لأن فى هذه المنطقة دفن أنبيـاء وبنوهم وما أكثرهم، والحق أنها جديرة بأن تكون أرضًا مقدسة ففى داخل مصر وخارجها دفن من الصحابة ثلاثمائة وأربعون.

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر دفن فى أركان مصر الأربعة سبعة آلاف شهيد من الصحابة الكرام ومجمل القول أنه حينما حكم عمرو بن العاص مصر عمرت إلى حد أن أصبحت عروس الدنيا وأم الدنيا.

وفى زمن إبراهيم - عليه السلام - أجرى طوطيس ماء النيل إلى بحر السويس وبعد ذلك سمع أبو المقوقس بظهور النبى ﷺ فَسَدَّ الخليج رغمًا عنه، فلم يجر النيل إلى السويس، لكن عمرو بن العاص جرف هذا الخليج مرة أخرى، فجرت فى النيل سفن تحمل الغلال إلى السويس ومنها مضت السفن إلى جدة وينبع، وغُنِمت مكة والمدينة، لأن البارى فتح من الجنة على وجه الأرض أربعة أبواب: باب فتح على ميناء جدة، والثانى على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غزة، والرابع على ولاية الإسكندرية وهى ولايات مصر، والسلام.

وبعد ذلك توفى عمر فى المدينة، وآلت الخلافة إلى عثمان، وفى عهده مات عمرو ابن العاص فى مصر، وجعل عثمان الحكم فى مصر لمحمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق، ولكن مروان كاتب عثمان وهو غير مروان الحمار، ما إن بلغ محمد الأكبر مصر حتى وجّه من قبل عثمان، إلى أهل مصر رسالة، وبحيلة من مروان الكاتب وهو يكتب كتب عبارة: إذا جاء الأمير فاقبلوه. وجعل القاف والباء بلا نقط وختمه بخاتم عثمان، ثم جعل فوق الباء غير المنقوطة نقطتين فأصبحت «فاقتلوه»، وأرسل مروان الكاتب هذه الرسالة إلى مصر واقتضت حكمة الله أنه حينما وصلت هذه الرسالة وقعت فى يد محمد الأكبر فردها إلى المدينة المنورة، ولما أطلع أهلُ المدينة عثمان عليها قال: حاشا لله لا علم لى بهذا الخبر، وحجزه فى بَيْتِه وضرب أهل المدينة الحصار على بيت عثمان أربعين يومًا وبينما كان عثمان يتلو القرآن الكريم فى اليوم الحادى والأربعين قتلوه شهيدًا. وأوصاف المدينة المنورة مذكورة أعلاه.

ثم كانت الخلافة بعد عثمان لعلى بن أبى طالب، إلا أن دولته لم تكن وطيدة الأركان وظهرت فى مصر الفتنة والفساد إلى الغاية، فكانوا يولون كل يوم حاكمًا. وبقى حالها هكذا إلى زمان دولة العثمانيين.

* * *

الفصل العاشر

بيان من حكم مصر من أمة محمد إلى عهد آل عثمان

أى إلى عهد السلطان محمد الرابع،

ومن خرجوا إلى مصر ليكون لهم الملك فيها

وأسماء هؤلاء وألقابهم ومدة حكمهم

إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو عرض ما ذكر مؤرخو الروم وأهل العلم، ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، وبناء على توجيه هذه الآية الكريمة، جعلت بداية الكلام فى ذكر أبى البشر آدم من لدن هبط على أديم هذه الأرض وانتشرت ذريته فيها، وقد استولى على الأرض أولاد آدم، ولكن وقع كثير من الخلاف فى مختلف الأمم وأسلاف الملوك؛ أما فيما يختص بأهل مصر وبلاد الفيوم فالطوائف المتباينة فى هذا البلد شاء الحى القيوم أن يخلقها إظهاراً لقدرته ـ تعالى ـ وذلك قبل أن يخلقها ومن أجل أن يجعل من مصر موئلاً لأمة حبيبه محمد ﷺ وأمر بذلك أنبياءه. وما أكثر ما حكمها من ملوك إلى أن دخلت فى حوزة عمر خليفة النبى ﷺ فى العام الحادى والعشرين للهجرة، وكان فتحها على يد عمرو بن العاص الذى امتد حكمه فيها (   )[2] عامًا، وعُمِرَ (   )[3] عامًا، وفى عهده كانت جزيرة مصر مساحتها ثمانية آلاف ميل كجزيرة الإنجليز وهى أرض الغرب، وفى هذه الجزيرة كان الحكم لثمانية عشر ملكًا ضربت باسمهم السكّة[4]، وقد خشوا جانب عمرو فأطاعوه وانقادوا له، إذ إن كثيراً منهم أغاروا على مصر بَيْد أنهم ارتدوا عنها منهزمين وانتهى بهم الأمر إلى أن يؤدوا الخراج وبذلك قر قرارهم، إذ إن عمرو بن العاص كان قائدًا مغواراً باسلاً.

وبعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أفضى الأمر إلى الخلفاء الراشدين وهم أمراء المؤمنين، وانتهت خلافتهم بالإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ وقد انصرف الإمام

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٦٤.

(٢ ، ٣) بياض بالأصل.

(٤) السكّةُ: النُّقُود.

الحسين عن الخلافة عن رضى وطـواعية وتنازل عنها ليزيد بن معاويــة، وبما أنه لم يبايع يزيد وجه يزيد بآلاف من جنده إلى الكوفـة لمحاربة الحسين، وفى العام الحادى والستين للهجرة استشهد الإمـام الحسين واستقل يزيد بالشام ملكًا عليـها، أما أبوه معاوية فكان من كتاب الوحى ومن ذوى قربى الرسول ﷺ ، وكان ملكًا على الشام فى خلافة على ـ كرم الله وجهه ـ.

بنو أميـــة

إنهم أربعة عشر: أولهم معاوية، وأمه هند بنت عتبة[1] بن عبد شمس، وقبل زواج أبى سفـيان منها كـانت زوجة لأبى عمـرو حفص بن المغـيرة المخزومى، وقد ولـد لها معاوية. وكان مـعاوية فى الثامنة والخمسـين حين كانت له الخلافة، وتملك تـسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر، وعاش ثمانية وستين عـامًا، وأفضت الخلافة من بعده إلى ولده يزيد بن معاوية وقد هلك عام ستين للهجرة وله من العمر تسعة وثلاثون عامًا وثلاثة أشهر، وقبره فى دمشق.

وفى رواية: أن تيمور نبش قبره ووجد جثته سلـيمة غضة فأضرم النار فيها. وكانت الخلافـة بعـد يزيد لولده معاوية، ثم خلفه مروان، ثم عبد الملك، وبعده الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان، ثم عمر بن عبد العـزيز، ثم يزيد، ثم هشام، والوليد، وإبراهيم، ثم مروان الحمار، هؤلاء هم جميع خلفاء بنى أمية.

ولقد حارب مروان الحمار عـلى شاطئ نهر الفرات ولحقت به الهـزيمة، فانطلق إلى مصر هاربًا وفى ديار مصر على الشاطئ الغربى لـنهر النيل فى قرية أبو صير قبالة مصر القديمة قطع عنقه عامر بن الجرجانـى وعبد الله بن مازن وأُرسلت رأسه إلى أبى مسـلم، وبذلك انقرضت دولة بنى أمية.

ودامت دولتهم إحدى وتسعين سنة وقد مـلكوا عراق العرب وعراق العجم، ومصر وبلاد المغرب، ومائـة بلد، وكان أبو أيوب الأنصارى قائد جـيشهم إلى القسطنـطينية، وامتلكوا نصف القسطنطينية، وقد كَتَبْتُ تفصيلاً عن ضريحه الشريف، وانتقلت الخلافة من بعد إلى بنى العباس، وتربعوا على العرش (   )[2] عامًا.

---

(١) فى الأصل: عينية، والصواب ما أثبتناه.

(٢) بياض فى الأصل.

أوصاف دولة بنى العباس

إنهم سبعة عشر: أولهم المستنصر بالله الذى كان له ملك مصر، وكان الملك فى بغداد لعشرين من العباسيين، وثلاثون منهم سكنوا مصر، وانقرضوا بالمعتصم، وأولهم عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومدة خلافتهم جميعًا خمسمائة وأربع وأربعين سنة، أما المنقرضون فى مصر من آل العباس فانقرضوا بالمتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب، وفى عهد السلطان قلاوون دامت له الخلافة فى مصر إحدى وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، وفى عام سبعمائة وعشرة للهجرة لم يكن حكمه نافذًا، وقد عدم حياءه، ولم يأت خليفة من العباسيين يشابهه فى سفاهته وانتهى أمره بأن قتلته أخته.

ولقد بلغ هولاكو بغداد بإيعاز من نصير الدين الطوسى، وبعد أن استشهد المعتصم بالله كان المستنصر هذا فى بادية العرب فى صحراء بغداد، ولم يستطع بلوغ بغداد خشية التتار، فهام على وجهه شريدًا، ولكن دعاه الظاهر بيبرس إلى مصر، وفى عام ستمائة وتسعة وخمسين استقل بمنصب الخلافة فى مصر، وبايعه الظاهر بيبرس وأعيان مصر قاطبة، وأصبح صاحب السكة والخطبة، ومضى إلى دمشق بجيش عظيم تحت إمرته، وحينما غادر دمشق إلى بغداد أسند حكم مصر إلى الظاهر بيبرس، وبلغ بغداد فابتهج العباسيون بمقدمه وأقام الحاكم بأمر الله العباسى مرة ثانية فى قلعة الكبش فى مصر خوفًا من بطش هولاكو خان. وعاش إحدى وأربعين سنة فى مصر وله الخلافة فيها، وفى عام سبعمائة وتسعين ولد فى مصر ولده المستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله، وسكن قلعة الكبش التى سكنها أبوه، وتربع على سرير الخلافة، إلا أن مقاليد الحكم كانت فى يد الظاهر بيبرس، وجرى قضاء الله وحكمته أن تقع الجفوة بين المستكفى بالله بن الحاكم بأمر الله والظاهر بيبرس بسبب وقيعة؛ فَرَحلّه مع أسرته إلى مدينة قوص فى الصعيد الأعلى، وهناك أدركته الوفاة فى عام سبعمائة وسبعة وثلاثين للهجرة.

ولما كان الحاكم بأمر الله على قيد الحياة جعل الخلافة فى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله، إلا أن ابنه هذا مات قبله؛ فأوصى الحاكم بالخلافة لابنه الأصغر أحمد المستكفى

بالله، إلا أن الملك الصالـح لم يعمل بوصية الحاكم بأمر الله ورأى أن ابـن أخيه إبراهيم هو بالخلافة أجدر، ولقبه الواثق بالله، إلا أنـه كان صاحب لهو ولذلك نُفِىَ إلى قوص وأصبـح ابنه محـمد خليـفة، وكان كذلـك سفيهًـا فنُفى إلـى قوص، وهؤلاء الخلـفاء مدفونون فى قوص.

ومن بعدأصبحت الخلافة فى مصر ثلاث عشرة سـنة لأحمد المستكفى بالله سليمان، وفى عهد الملك الصالـح بن الملك الناصر مات بالطاعون عام سبعـمائة وثلاثة وخمسين وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة، ثم كانت الخلافة من بعده فى مصر للمتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر.

وفى عام سبعمائة وثمانين كانت الخلافة لبرقوق من الجراكسة وطالب بالسلطنة فخلع المتوكل من الخلافة، فسجنه فى قلعة الجـبل وأقام فى سجنه ستة أعوام ثم أطلق برقوق سراحه وجعله خليفة.

وفى عام ثمانمائة وسبعة وتسعين أرسل السـلطان العثمانى يلدريم با يزيد رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا، وطلب منه الإذن بالبيعـة تبركًا، فدعى الخليفة الله للسلطان يلدريم بايزيـد قائلاً: بارك الله فـى السلطان يـلدريم، وأهدى إليه سـجادة مع صحـيفة. ودام سجن هذا الخليفة وخلافته وعزله خمسة وأربعين عامًا وتوفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن إلى جوار السيدة نفيسة. إلا أن أحوال مصر والشام اختلت فى عهد الخليفة المتوكل هذا.

وفى عام ثمانمائة وسـتة عشر خَرَبَ تيمور خان الشام، وانخفض مـنسوب النيل ولم يكن له فيضان، فأصـاب الناس قحطٌ عظيم، فثارت الفتنة ووقـع الفساد وآلت الخلافة بعد ذلـك إلى الواثق بالله عـمر بن إبراهيـم بن المستمـسك بالله ابن الحاكـم بأمر الله، ووافاه الأجل عام سـبعمائة وثمانـية وثمانين للهـجرة، وهو مدفون فى ضريـح السيدة نفيـسة، ودامت الخلافة مـن بعده للمقتصد بالله داود ابن المتوكل عـلى الله محمد اثنتين وثلاثين سنة.

وفى عام ثمانمائة وخـمسة وأربعين توفاه الله وشهد جنازته السلـطان جيقماق، ودفن بجـوار السـيدة نفيسـة، وكانت الخلافة من بعده للمستكفى بالله سليمان، والمتوكل على

الله محمد، ولـكنه ظل خليفة تـسعة أشهر ليس إلا، وشهـد جنازته السلطان جـيقماق وأخوه المـقتصد بـالله مدفون فـى ضريح السـيدة نفيسـة، وهو كـذلك مدفون فـى هذا الضريح، وأصبح الخليفة بعده القائم بـأمر الله حمزة ابن المتوكل على الله محمد، وبعد خمسة أعـوام غضب عليه سـلطان مصر إينـال فنفاه إلى الإسكـندرية، وبها توفـى سنة ثمانمـائة وثلاث وستين، وأخوه المـستعين بالله مدفـون بجواره فى الإسكـندرية، ودامت الخلافة للمستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد خمسة وثلاثين عامًا.

وفى عام ثمانمائة وأربعة وثمانين شهد السلـطان قايتباى جنازته، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى مقبرة سـائر الخلفاء العباسيين، ودامت الخلافة للمتـوكل على الله عبد العزيز ابن يعقوب بن المتوكـل على الله تسعة عشر عامًا، وتوفى عام تسعـمائة وثلاثة فى عهد السلطان الناصر محمد قايتباى ودفن بجوار السيدة نفيـسة.

ولقد عاصر المـتوكل على الله محمد ابن المـستمسك بالله يعقوب فـاتح مصر ساكن الجنان السلطـان سليم، ومضى مع السلطـان سليم إلى اسطنبول وأعزه كـثيرًا وأكرمه، وتوفى السلطان سلـيم، وبعده أكرمه وأجلَّهُ السلطان سليـمان إلى أبعد غاية، وفى أول خلافته تقلد السيف منه فى جامع أبى أيوب الأنصارى وتلقى منه البيعة وجلس سليمان على العرش وذلك لأنه ـ أى الخليفة المتوكل ـ من خلفاء العباسيين القدامى.

ولحكمة الله حينما بـلغ المتوكل نعى أبيه المستمسك قدم مصـر معززًا مكرمًا بإذن من السلطان سليمان، وخلف أباه فى الخلافة. وكـانت خلافته ثلاثة وعشرين عامًا، وتوفى عام تسـعمائة وثمـانية فى عهـد ولاية داود باشا ودفـن بجوار السـيدة نفيسة، وبـوفاته انقرض خلفـاء بنى العباس فى مصـر وهم سبعة عشر خلـيفة ودامت خلافتهم سـتمائة واثنين وثلاثين عامًا.

وخلفـاء بنى العباس فـى مصر كانت لهـم مرتبة شيخ الـشيوخ، ولكن الحل والـعقد والضبط والربط كان فى أيدى الجراكسة، والمنح والمنع وتدبير الأمور فى يد الجراكسة منهم وكانوا يبايعون وحسب. ويُسمى الواحد منهم خليفة رسول الله ﷺ وبعدهم كانت:

الدولة الطاهرية

وهم فى خراسان خمسة:

أولهم طلحة الخليفة، والخليفة عبد الله، والخليفة على، والخليفة محمد، ومدة حكمهم ثمانية وتسعون عامًا، لم يملكوا مصر وجاءت بعدهم:

الدولة الصفارية

وكان فى حوزتهم ديار خراسان وبلخ والعراق وأصفهان، وهم تسعة، إنهم عبارون لهم الشهرة بالنجدة والبسالة، وحكموا اثنتين وخمسين سنة، لم يملكوا مصر، وبعدهم قامت:

الدولة السامانية

وهم تسعة أولهم إسماعيل السامانى، ثم أحمد، ثم نصر، ثم نوح ثم عبد الملك، ثم المنصور، ثم نوح، ثم منصور، ثم عبد الملك، وبدلاً من سلطان وخليفة يقال لهم سامان والجمع سامانيان (أى السامانيون)، وحكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وجاءت بعدهم:

دولة بنى آل زياد

وكان لهم ممالك خراسان، وجرجان، وطبرستان، والعراق، حتى إن أنو شيروان عزم على أن ينطلق من بغداد إلى مملكتهم فى اليمن، ولكن تابعة اليمن يدينون لهم بالطاعة، إلا أنه انثنى عن عزمه، وهم ستة ويقول المؤرخون إنهم العدول: العادل مرداونج، والعادل شمكين والعادل بهسان، والعادل قابوس، والعادل منوجهر، والعادل أنو شيروان، دامت حكومتهم (   )[1] عامًا وقيل إنهم أقاموا العدل فى الناس مثل أنو شيروان العادل، وجاءوا فى عهد الكفرة، وكان عدلهم كعدل أنو شيروان، هذا ما يذكره الناس، إلا أننا لم نقع عليه فى كتب التاريخ وقد عُمر أنو شيروان هذا طويلاً، وجاءت بعدهم:

---

(١) بياض بالأصل.

الدولة البويهية

وهم سبعة عشر، دام الحكم لهم (   )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

الدولة السبكتكية

(دولة آل سبكتكين)

وهم أربعة عشر، حكموا مائة وستة وسبعين عامًا، وجاءت بعدهم دولة:

دولة آل غوره

وهم خمسة، دام الحكم لدولتهم (   )[2] عامًا، ثم قامت:

الدولة الخوارزمية

وهم تسعة حكموا مائة وستة وثلاثين عامًا، حكموا ممالك (. . . . .)[3] ثم قامت بعدهم:

الدولة السلجوقية

وهم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى منهم: ملكت إيران وما وراء النهر، وهم أربعة عشر، ودام ملكهم (   )[4] سنة.

الطبقة الثانية: (دولة السلاجقة الثانية): وهم الذين ملكوا كرمان وعددهم أحد عشر، حكموا مائة وتسعة وخمسين عامًا.

دولة سلاجقة الروم

وهؤلاء أربعة عشر، جاءوا أول أمرهم من بلاد ما وراء النهر، وقدموا إلى ديار اليونانيين أى قره مان، وقونيه وسيواص ـ فملكوها، وهم كيانيو الروم لأن أسماءهم كيقباد وكيخسرو وكيارسلان، وهم سبب رفعة آل عثمان، وسنوضح ذلك فى موضعه إن شاء الله، وجاءت بعدهم:

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة تاج الدولة

وهم ستة، ولهم ألقاب الملوك آل تاجيان، ملكوا الشام والعراق ودامت دولتهم ( )[1] عامًا. ثم قامت بعدها:

دولة الأتابكة

وهم ستة، حكموا فى بلاد الشام ودمشق، حكموا ( )[2] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل عمرية

بعد مرور مائتى عام بعد الهجرة النبوية كان ظهورهم، فتحوا الموصل وجزيرة العمر وآمد وملاطيا، وأقام الأمير عمر ملاطيا حاضرة لدولتهم؛ وهم ثلاثة: أولهم الأمير زياد ثم ابنه الأمير لقمان، ثم ابنه الأمير عمر فاتح ملاطيا. ثم قامت:

دولة الأتابكة الكبرى

وهم ستة: أولهم نور الدين الشهيد، وبينما كان الكفار يدبرون لنبش قبر النبى ﷺ كان نور الدين هذا سلطانًا، وقد رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له: هلمّ يا نور الدين وذُدْ عن حُرمة قبر رسول الله، واقتل الكفار. فأحاط نور الدين الشهيد الروضة المطهرة بصناديق مملوءة بالحديد والنحاس والرَّصاص، ونور الدين الشهيد بن آق سُنْقُر البُرْسُقى أول مَنْ أقام قلعة للمدينة المنورة.

وقد ملكوا الشام والعراق وأَذَرَبيجان والبصرة والحسا وسيس وترسوس وأطنه. وانقسم الأتابكيون ست فرق، كل فرقة منها تتألف من ستة عشر، وأولهم:

الصلاحيون

الذين لحقوا بخدمة نور الدين الشهيد، ولقد استولى فرنجة إسبانيا على دمياط ورشيد فى مصر، وأغاروا وسلبوا ونَهَبُوا، فاستنجد المصريون بنور الدين الشهيد، وأمَّر نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على جيش قوامه مائة ألف مقاتل استخلص عسقلان ويافا ورشيد ودمياط من أيدى الكفار،

(١، ٢) بياض بالأصل.

وقد أعجب أهل مصر كل الإعجاب بنجدة وشجاعة صلاح الدين فحكم مصر، ولم يضرب السكة ولا قرأ الخطبة باسم سيده نور الدين، وبينما كان صلاح الدين يأمر بأن تقرأ الخطبة باسم الخليفة المتقى فى بغداد، مَر ذلك بمسمع نور الدين الشهيد فى دمشق فأخذه شديد الأسى، فاستدعى يوسف صلاح الدين هذا إلى دمشق، إلا أن صلاح الدين خاف الذهاب إلى دمشق فانتحل المعاذير، وفى عام خمسمائة واثنين وسبعين شيّد القلعة الداخلية فى مصر بمال الغزو وأحاط القاهرة من جوانبها الأربعة بسور طوله تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وهو إلى الآن بادٍ للعيان، وبعد ذلك توفى نور الدين فى دمشق واستقل صلاح الدين يوسف هذا ملكا بِملك على مصر كما ملك دمشق وحلب، وجعل فى مصر من رعاياه سبعة عشر ملكًا، وفى زمان خلافة صلاح الدين وفى عام خمسمائة واثنين وستين شن حربًا شعواء على الفرنجة فى مرج العيون، ولها أخبار فى جميع التواريخ، وأقام مدرسة عظيمة فى مصر بالإمام الشافعى بأموال الغزو.

وطبقة أخرى من الأتابكة هى:

دولة آل أيوب بن شاد الكردى

يقول بعض المؤرخين: إن صلاح الدين من الأيوبيين، وهم سبعة: منهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى حاصر قلعة عكا أربعة وأربعين يومًا، وفتحها بحرب ضروس، وحتى لا يستولى الكفار على عكة هدم قلعة عكا من أساسها، وسوف نكتب عنها من بعد، وبعده دفن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين فى جامع صلاح الدين، وهو من آل أيوب، وبعده كانت الخلافة للملك الكامل، ثم أصبح الملك الأشرف خليفة، وفى زمنه استولى الفرنجة على جميع القلاع التى على ساحل البحر وسلم القدس للفرنجة صلحًا، وكان ذلك عام ستمائة وخمسة وثلاثين، فكان ذلك افتضاحًا، ومات من ألم فى رأسه وهو فى الستين من سِنيّه، وجاء من بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى دفن فى مصر. وبعده آل الأمر إلى الملكة شجرة الدر والمماليك البحرية، وهم ثمانية وثلاثون، دامت دولتهم مائة وستة وثلاثين عامًا.

وجاء من بعدهم:

دولة الجراكسة

إن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ولى نعمة الجراكسة والأباظية، والجراكسة يقال لهم المماليك البرجية، وبعده الملك الكامل محمد كامل، الذى توفى فى المنصورة وله من العمر ستون عامًا، وحُمل نعشهُ من المنصورة ليدفن فى جامعه فى القاهرة، وفى مصر بين القصرين شيد أربع مدارس للمذاهب الأربعة، كما شيد قلعة فى جزيرة الروضة وأثرها ما زال باقيًا، وحينما توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب والد الملك المعظم توران شاه فى المنصورة، كان حسن كيقباد واليًا على كردستان، وأمه شجرة الدر خاتون (وهى التى كست الكعبة حريرًا أسود) وهى التى كتمت سر وفاة الملك الصالح فى المنصورة ثلاثة أشهر. وأرسلت إلى حسن كيقباد بن الملك المعظم رسولاً فى عجلة وخفية، ودخل الملك المعظم مصر بعد ثلاثة أشهر وتربع على سرير الخلافة، وفى عام ستمائة وثمانية وأربعين أعمل القتل فى جميع الفرنجة الذين استولوا على دمياط، وفتحها وقد تمرد على هذا الملك عبيده وقتلوه شهيداً. فانتقلت الخلافة إلى شجرة الدر والدته، فأمرت بأن تكسى الكعبة حريراً أسود وذلك خير عظيم لم يتيسر للملوك، وأصبح زوجها أى بك (أيبك) وتلقب بالمعز، وكانت مصر بعد ذلك لدولة:

دولة التركمانيين (آل كمانيان)(١)

وعددهم ستة: وهم كذلك من طوائف الأتابكة، ثم غضب شجرة الدر على زوجها (أيبك) التركمانى لأنه كان سببًا فى قتل ابنها معظم شاه، وتزوج أيبك من ابنة أمير الموصل، فذلت شجرة الدر وحقرت وسقطت منزلتها، وبينما كان أيبك يغتسل فى الحمام تحينت شجرة الدر الفرصة فأمرت جواريها أن يحملن عليه بالسلاح، وحينما اقتحمت الجوارى الحمام يحملن أسلحتهن لم يكن أيبك غافلاً، وكانت عورته بادية فوقف أمام الجوارى وقفة الأسد، وفى تلك اللحظة كانت شجرة الدر تنظر من ثقب فى قبة الحمام، وشاء الله أن تنهدم القبة وتسقط منها بجانب أيبك التركمانى، وقد تهشمت عظامها، ولما رأى ذلك أيبك ترك الجوارى وقتل شجرة الدر إلا أن الجوارى قتلنه، وهما

(١) بياض بالأصل.

الآن دفينان فى قبر فى «زقاق الخلالين» بالقرب من السيدة نفيسة، وكذلك ولد شجرة الدر الشهيد معظم شاه مدفون فيها.

وانقرضت سلالة الأيوبيين بمعظم شاه هذا، وانتقلت سلطنتهم إلى مماليكهم، ولكن فى تلك الأونة كان لأيبك التركمانى ولد من ابنة أمير الموصل فى الخامسة من عمره، وقيل إن لقبه المنصور، ملَكَ ثمانية أشهر، وفى عهد العباسيين استولى هولاكو التترى على بغداد واعتقلوا المُستعصم خليفة العباسيين، ووضعوا السيف فى سائر أبناء الخلفاء ( )[1] وأرسل إلى مصر، وفى عام ستمائة وسبعة وثمانين فتح بلاد النوبة، وفى عام ستمائة وثمانية وثمانين استولى على طرابلس الشام من الفرنجة وفى شهر ذى القعدة من آخر عام ستمائة وتسعة وثمانين أدركته الوفاة؛ ودامت سلطنتة أحد عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، وخلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، واستولى على قلعة عكا من الفرنجة، وفى المرة الثالثة التى قدم فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون أصبح السلطان ثانية وذلك فى عام سبعمائة وثلاثة وثلاثين، وفى عهده عُثر على الحاكم بأمر الله فى جبل جوشيد قتيلاً، ومن الأتابكة طائفة:

دولة الأكراد

ومن الأتابكة طائفة انشعبت عنهم دولة الأكراد وهم سبعة، وفى مصر كانت دولتهم غير وطيدة الأركان، وكانت مدة حكمهم ( )[2] عامًا، وكان أعظمهم السلطان محمد أكراد الذى أقام قبة على ضريح الإمام الشافعى وكساها بالرصاص الأزرق، وهم مدفونون مع أمهم عند قدم الإمام الشافعى.

وجاءت من بعدهم:

الدولة القره خاطئية

وهم ثمانية ومن الأتابكة، وحكومتهم فى ولاية كرمان، ودام الحكم لدولتهم

(١، ٢) بياض بالأصل.

(   )[1] عامًا، وجاءت من بعدهم:

دولة الأيوبيين

وهؤلاء حكموا اليمن، وهم سبعة، وقد عمروا أرض اليمن وأسلافهم مدفونون فى مدينة مزيب باليمن، وكانت مدة سلطنتهم (   )[2] عامًا، ثم جاءت من بعدهم:

دولة آل ملاح

ثمانية وفى قول آخر إنهم اثنا عشر، حكموا فى مدينة قوهستان، دام حكمهم مائة واثنين وثمانين عامًا، ومن بعدهم:

دولة بنى ارتق

حكمت حلب وملاطيا وديار بكر، وهم خمسة وعشرون، وكانت دولتهم قوية عظيمة، ومن ألقابهم رجل الكلام، وكانت مدة خلافتهم (   )[3] عامًا، و:

دولة آل مروان

حكمت دولتهم ديار بكر والموصل والجزيرة، وهم سبعة حكموا (   )[4] عامًا، و:

دولة بنى مرداس الكلابى

وحكمت دولتهم حلب وعينتاب ومرعش، وهم سبعة، ويسمون دولتهم دولة الأكراد، والآن الأكراد منهم، حكموا (   )[5] عامًا.

وبعدهم جاءت:

دولة آل بنى أسد

وحكمت دولتهم الحلة وتكريت وشهرزور، وهم سبعة وفى كردستان يسمونهم آل شيران، وألقاب سلاطينهم يزدن شير عبد آل شير، ضياء الدين، دام ملكهم (   )[6] عامًا، و:

دولة آل بنى حمدان

ملكوا موصل الحرير واردلان ورومية ودوم دمى، ودمبولى، وهم ستة، دام ملكهم

(١ : ٦) بياض بالأصل.

(   )[٢] عامًا.

دولة آل بنى عقيل بن أبى طالب

وهو أخو الإمام علـى بن أبى طالب ـ كـرم الله وجهه ـ، وحكموا المـوصل والحلة وتكريت وهم عشرة، ومدت خلافتهم (   )[٣] عامًا، وبعد ذلك زحفوا إلى مصر إلا أن الأمويين سدوا عليهم الطريق، وحاربوهم حربًا شعواء، ولحقت بهم الهزيمة.

دولة التركمانيين

وهم خمسـة كل منهم يلقـب بالأمير، أولهم الأمـير كربُوغا، وفى أنطـاكية حارب الفرنجة ودارت عـليه الدائرة، وذلك فـى عام أربعمائة وخمسـة وتسعين، ونجى بـنفسه ومضى إلى أصفهان ودفن خارج مدينة (خوى)، حكموا (   )[٤] عامًا.

وجاءت بعدهم:

دولة الدانِشْمَنْدِيين

ملكوا بلاد سـيواس ونيكسار وبافرة وأماسيـة وقيصرية، وهم سبعة ويـسمى الواحد منهم الملك، أولهم الملك غازى الذى دفن فى قلعة نيكسار وهم أول من حاربوا الروم، وحكموا (   )[٥] عامًا، وجاء بعدهم:

دولة آل قره يوسفيين . أى: (دولة الشياه السوداء)

يسمونهم القره قيونليين، وكانوا ملوكًا عظامًا، وهم عشرة، وكانت لهم السيادة على ديار بكر وأذربيجان والعراق وفارس، تلقب الواحد منهم بالبيك. ومنهم أوزون حسن، ودان بالطاعة لتيـمور، وكان يمشى بجانب ركاب تيمور، وبعد مـوت تيمور هزم حسن هذا أولاده واستولى على الملك، وأصبح ملكًا عظيم الشأن، وأقام قلعة فى أرض الروم سميـت بقلعة حـسن، وبعد ذلـك حارب السلطـان أبا الفتح مـحمد خان الـغازى فى صحراء ترجان حربًا حامية الوطيس، وتعلق معظم جند حسن بأذيال الفرار أمام سيوف جند محمد، وبلغ أوزون حسن تبريز وفـيها أدركه الموت كمدًا، وهو مدفون فى ساحة

(٢ : ٥) بياض بالأصل.

مسجده، ومدت دولتهم (   )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل آق قيونليين، أى: (دولة الشياه البيضاء)

وهؤلاء ملكوا كذلك ديار بكر وأذربيجان والعراق، إنهم تسعة ويسمون الواحد منهم (باى)، ولأنهم كانوا ملوكًا مترفين إلى أبعد غاية لقب الواحد منهم (باى)، ومدة خلافتهم (   ) [2]عامًا وكانوا طوال حكمهم ملوكًا صالحين عابدين زاهدين متقين؛ وسلالة من آل عثمان تنتهى إليهم، قدموا من ديار ماهان، وفى تاريخ محمد چلبى الأدرنوى أن أوزون حسن منهم، وقال بعضهم إنه من دولة الشاة السوداء، وأنا سميت الاثنين قيون،أى: الشاة، ومن بعدهم:

دولة شاه شاهان إيران توران

وقد أقام دولتهم فى أردبيل الشيخ صفى الأردبيلى، وأول أمرهم كانوا خلفاء فى بلاد العجم وكانت لهم الحكومة والقطبية[3] الكبرى، وبعده الشيخ جنيد وكان هو الآخر قطب أقطاب الآفاق على الإطلاق، وابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ خواجه على بن الشيخ حيدر موسى ابن الشيخ صفى الدين أبو إسحاق الأردبيلى الذى كان أول ملوكهم، وهم إلى عهد الشاه عباس خمسة، ويطلقون عليهم من ألقاب السلاطين لقب شاه، وهم إلى الآن[4] يملكون أذربيجان وإيران، ويلقبون فى اللغة الفارسية خدا وندكار، شاه شاهان، وشه، وشاه، وشاهنشاه، وخسرو، وشهريار، وسرور، وتاجوار، وصاحب قران، وشاه إيران توران، وجاءت بعدهم:

دولة الدريندييين

وهم تسعة ويلقبونهم بالملوك المالكون، وكان تحت حكمهم كنجه وسيواس شماقى

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) القطب هو: الواحد الذى هو موضع نظر الله ـ تعالى ـ من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرافيل ـ عليه السلام ـ. والقطبية الكبرى هى مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ فلا يكون إلا لورثته؛ لاختصاصه ـ عليه السلام ـ بالاكملية. معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشانى ص١٦٢. تحقيق د. عبد العال شاهين. القاهرة، دار المنار ١٤١٣هـ.

(٤) يعنى إلى زمن المصنف.

وباكو وباب الأبواب، وهم سنيون متعصبون وهم من نسل أنو شيروان، وظلموا وانقرضت دولتهم، ويحكم أملاكهم تارة آل عثمان وتارة شاه جهان، وبعدهم جاءت:

دولة الشام خاليين

وهم كذلك من نسل أنو شيروان وهم سنيون متعصبون، ويسمون ملوكهم الآن (شامخال) أو شامقال وهم فرقة من الأوغوز، ولهم الآن ثمانين ألف جندى، وهم يذكرون آل عثمان فى الخطبة، ومنهم (الأكار) الذين يسكنون جانب شمال جبال البُرُز، ولهم هناك سبع إمارات: إمارات قره بوذاق ومدنهم طَرْخُو، وقووز، واندرى، وطابيسران وفى ناحيتهم الشمالية دميرقبو على ساحل بحر الخزر، وفى ناحيتهم الشرقية كنجة وشروان شماقى، وفى ناحيتهم الجنوبية (جهة القبلة) جورجيا، لا تزال سلطنتهم قائمة للآن ومنهم تمير خان وحارب (أيد الله دولته) العجم لأن أقاليم ولايتهم جبال صعبة المرتقى وهم غزاة بواسل، ومن بعدهم:

دولة الأوزبكيين

وألقابهم: «سلطان بلخ وبُخارى وخراسان»، وقد دخلوا فى الدين الحنيف برسالة من النبى ﷺ، وقد ظهر جميع أولياء الله من خراسان، إنهم الآن قوم مؤمنون موحدون، لم يملك أحد منهم مصر، لأنهم يقعون فى الإقليم السادس والسابع، وكل أيامهم حروب مع العجم والهند، وبعدهم:

دولة الجنكيزيين

وفى تواريخ ميرخان أن جنكيز خان تربع على العرش عام خمسمائة وتسعة وسبعين، إنهم اثنتا عشرة فرقة من الملوك، وكل طائفة لهم خمسة عشر ملكًا وملكة، وفى القرم وداغستان طائفتين هما قومى وموغول بوفل وكل طائفة عشروات يملكون مائة ألف جندى، كما أن أقوام القزاق والأوزبك ونوغان وهشوك وموسكو والصين وختا وختن وفغفور ولبقه وبادران الهند والسند والعجم والأتراك التركمان وآل عثمان من التتار المتفرقين. وقول تاريخ تحفة الدول تحفة تاريخية حقًا، وعلى حد قوله إن آدم له صفة التتار، فابتداء أمره حين هبط من السماء كان أول تتارى ازدانت به الأرض، ثم

ظهرت العرب بعد إسماعيل وإسماعيل أول من نطق بلسان العرب، وفى قول إن زوجة شيث جاءت من الجنة وبما أنها كانت حورية كانت تتكلم بلسان الجنة العربى، وكان أبناء آدم يتكلمون العبرية حتى شاع اللسان العبرى لدى إسماعيل وبناء على ذلك لا وجود لكثير من الأقوام غير العرب والتتار.

ولى كثير من سياحاتى فى القرم وداغستان وقالمق ونوغاى وهشدك ودشت وقپجاق (أى صحراء القپجاق) ولم أر قومًا أكثر من التتار وهم موحدون عدا القالموق.

دولة أبناء جنكيز

ملوك إسلام يقطنون سبعمائة وخمسين ميلاً فى جزيرة القرم، ولهم من الجند مائة ألف ومن الخيل مئات أضعاف هذا العدد، ولم تكن لهم عمائر عظيمة أما مالهم فهو الخيل والإبل والغنم، ولقبهم الخان، ووصفه الكيراى، مثال ذلك بهادر كيراى إسلام وغازى كيراى خان، وفى عهد طوخطمش خان كان الاستيلاء على القرم من كفار جِنَويز، والوزير من أقارب اكان أو من إخوته ويسمونه قلغا سلطان، وهم فى مدينة آق مسجد، ويسمون الوزير الأيسر نور الدين سلطان، ويسمون وزيره الأوسط أغا، ويسمون رؤساء عشائرهم شيرين ومنصور وسجوت واولان، واولان هو من ولد لبناتهم، ويسمون طوائفهم العسكرية قِرَاجى، ويسمون قوم القِرم بارداق، وبعد ذلك فتح السلطان با يزيد من آل عثمان اق كرمان وقلعة كلى، وقدم إلى القرم فى البداية منكلى كيراى خان، ودان بالطاعة لآل عثمان، ووفّى بعهده، وقدم العون لآل عثمان، وضرب سكته باسمهم، وقرأت الخطبة أول الأمر باسم آل عثمان، ثم باسم كيراى خان، وهم إلى عهد السلطان محمد خان الرابع عشرون خانًا ولقد رأيت منهم كرمًا وإحسانًا أدام الله دولتهم.

دولة الجنكيزيين فى بلاد ما وراء النهر

وهم كذلك من ذرية الأوزبك، وهم اثنا عشر ملكًا، أدام الله دولتهم إلى الأبد،

وبينما كان هشام بن عبد الملك خليفة فى دمشق أرسل إليهم رسالة فأسلموا، وسلطنتهم الآن قائمة.

دولة الطبقة الثالثة للجنكيزيين

ملكوا إيران وتوران وصحـراء قپجاق، والصين والخَتَا والخُتَن، وكانوا ثـمانية عشر، وبإيعاز من نصير الدين الطوسى وخيانة الـوزير العلقمى أغار هولاكو خان التتارى بمائة ألف مقاتـل على بغداد عشر مـرات، وقتل المستعصم بـالله العباسى، وبينـما كان أحد العباسيين فى البريّة فر إلى مصر، وفيهـا أصبح خليفة كشيخ، وكان هولاكو خان يملك جيشًا عـظيمًا. وهم ثمانيـة عشر، ودامت دولتهم أربـعمائة وخمسة عشـر عامًا، ومن ألقابهم كذلك (خان).

دولة الطبقة الرابعة للجنكيزيين

آل تيمور الكوركانى (صاحب خروج جهان)

فتح تـيمور خان إيـران وتوران وصحراء قـبجاق والهـند والسنـد ومولتان والـصين والماضين وخَـتَا وخُتَن وموسـكو والبلغار والـقرم وداغستان وجـورجيا والعراق الـعربى والعجمى وبلاد الروم والشام. وقد سار فى ركابه أربعون ملكًا وكانوا تحت حكمه.

ولقد أرسل تيمور رسالة إلى يلدريم با يزيد لـيكون فى طاعته، فطرد يلدريم با يزيد رسول تيمور، فتـوجه إليه تيمور بجيش كـموج البحر، ووقعت بينهـما حرب شعواء، وبسوء تدبير وزراء يلدريم بـا يزيد دارت الدائرة عليه فتقهقر با يـزيد أمام جيش التتار، وسقـط تحـت فرسـه، وتدحرج على الأرض، وفى التو تجمهر جند التتار على رأس با يزيد فحارب مـترجلاً ساعة وفى النهاية مـضى إلى الصحراء ومُثُل فى حـضرة تيمور، وكلمّه فـى جرأة ودار الحوار بينهـما وكان يلدريم مـستعليًا علـى الدوام، وشاء الله أن يصاب بالحمـى المحرقة ويموت محمومًا، وحـملت جثته إلى بروسـة، ودفن فى ساحة مسجده، ثم انطلق محـمد بن با يزيد يلدريم إلى تيمور انتقامًا مـنه لأبيه وتعقبه، وفى سهل يسمى طَاشَق لحق تيمور وسلخت جلود جنود التتار، وبما أنه مكث فى هذا المكان سموه (طـاشق اووسى) أى: سهل الخصـية، وهذا اسم خارج عـن حدود الأدب، ثم تعلق تيمور بأذيال الفرار، واتخذ من قره باغ مشتى له.

وقبل ذلك فى الربيع كان قد فتح دمشق واستولى على ألف خزانة مال من خزائن مصر، وبلغ عِزّةَ الهاشم، واستراح هو وجنوده فى ذلك المكان عدة أيام، ثم غادره وبلغ صحراء قطية وأم الحسن ولما بلغ هذا الموضع كان الإعياء قد بلغ مبلغه من عسكره وخيله، وجاء السلطان برقوق سلطان مصر من ناحية ومير فرج من ناحية أخرى من كُرْتَباى وأنفذوا إليهم الجنود الشجعان كأنهم ذئاب جائعة، وشد جند مصر عليهم شدة فنصبت عظامهم ظاهرة فى الصحراء إلى الآن. فما ملك تيمور مصر وفرَّ منهزمًا ودفن فى مدينة ( )[1] ومدة حكمه ( )[2]. وبعدهم:

دولة الطبقة الخامسة لآل جنكيز أى أولاد تيمور

استولوا على إيران وتوران وحمدان ونَخْشِوَان وأصفهان وكيلان وأذربيجان، وأبناء تيمور واحد وأربعون ملكًا، وكل منهم كان ملكًا على بلد، وهُم ست طوائف. ولكن دبت الفرقة بينهم فتقاتلوا، وكان السلطان اوزون حسن يمشى فى ركاب تيمور، فقتل عدة من أبناء تيمور انتقامًا منه، فأصبح ملكًا استقل بديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وأذربيجان إلا أن أبناء تيمور المذكورين لم تطل أعمارهم وابنه الأكبر ( )[3] أصبح ملكًا على الهند.

دولة الطبقة السادسة للجنكيزيين

أى: أبناء تيمور كُوركَان ملك الهند والسند

دولتهم قديمة، دخلوا الإسلام برسالة من النبى ﷺ، وهم الآن على مذهب الحنفية، والآن هم ملوك عظام يملكون بلادًا عظيمة. وهم ملوك الهند وبعدهم آل عثمان، وإن كان ملك موسكو كذلك ملك عالمًا عظيمًا، ولكن معظم آل تلك الولايات لا يسكنون المدن لشدة برد الشتاء. والهند بلاد شديدة القيظ، ولكن لطيب جوها هى بلاد عظيمة العمران، ويقال لملوكها (راى). فمثلاً يقال لأكبر راى، أورَنكيزيب راى وبدلاً من أن يقول له الرعايا عند لقائه يا مليكى يقولون له يا (راى). تلك كانت ألقابهم، وفى الهند سبع عشرة مملكة وكل مملكة على مذهب.

(١ : ٣) بياض بالأصل.

دولة ملوك السند

يسمون ملوكهم موغان، مثل موغان سيد، موغان تاد، موغان راى، موغان سرشاد؛ لهم أسماء من هذا القبيل، إلا أنهم الآن يتبعون ملوك الهند وهم يعبدون النار.

دولة ملوك مونتان

وأسماؤهم داد أو مونتان داد وهلاس مونتان. ورعاياهم كثيرة فى الحبشة بسواكن وسهل خرق وموص ويلبسون بيض العمائم، وهم جميعًا عبدة النار ويُسمى ملوكهم مونتان وهم كذلك من أتباع ملك الهند، ودولتهم الآن ممتدة. وهم قوم يعبدون النار والبقرة والفيل والشمس والقمر والشجر، إلا أنهم يقرون بوجود البارى، وإذا ما أوردنا ما جاء عنهم فى كتب التاريخ لطال بنا الكلام، ولا رغبة لى فى أن أكتب شيئًا لا أعلمه فى جزم ويقين ولكنى كتبت ما كتبت بمقتضى سياق الكلام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

وإن لم يكن لهم من الممالك ما لملوك الهند إلا أن لهم اثنتى عشرة ألف مدينة على ساحل البحر المحيط، ويسمون ملوكهم الخاقان، إنهم لا يخشون الملوك، ورعية ملكهم كثيرة، وإذا ما قدم بحار من بلد إلى بلد قدم التجار سلعتهم هدية إلى الملك، ويقول هؤلاء التجار: نحن عبيد ملك الهند والعجم فيجدون السبيل إلى المثول بين يدى ملك الصين ويشرفون بالتحدث إليه وفى عودة هؤلاء التجار إلى بلادهم يجود عليهم السلطان بأكثر من قيمة سلعهم أضعافًا مضاعفة، ويعود هؤلاء التجار إلى أوطانهم ودولتهم قائمة إلى الآن.

دولة سلطان فغفور

إن مملكة فغفور تمتد إلى عالم الظلام ويقال لكل ملك فغفور، وفى عام (١٠٣٠) ألف وثلاثين استولى قالمق على هذه المملكة، وفى أكثر من مرة قتل منهم مائة ألف فغفورى وأكله، حتى إنه طبخ الفغفور «حجنان» وأكله لأن قوم قالمق أكلة البشر، ومنذ هذا العهد انقرضت دولة الفغفور وهم الآن يحكمون مملكة قالمق.

ذكر أحوال دولة الديالمة

لقب سلاطينهم قاشانيان وهم سبعة عشر على المذهب السنى ومدة حكمهم قرنان من الزمان، وبلادهم ديلم وكرمان وكاشان.

ذكر أحوال ملك بلخ

إنهم ملوك سنيون يلقبون بدارا، وقد ألحق اليونان الهزيمة بملك هؤلاء الدارا بالقرب من الموصل فى موضع يُسمى (قره دره) واستولوا على إيران وأدّى الإيرانيون الخراج لليونان، ودولتهم قائمة وهم ملوك سنّيون.

دولة الأنجوليين

أصبح ملك الآنجوليين ملكًا على المغول، ويسمى المغول ملكهم آنجور، وكان فى بلاد إيران، إنهم ثلاثة، وفى عام ٧٠٠ ثار المغول وقتلوا آنجور هذا وهم يسمونه حيدر آنجور واسد آنجور.

دولة آل المظفر

حكموا فارس والعراق وكرمان، وهم ثمانية يطلقون عليهم لقب مظفر، مثل جعفر المظفّر وعلىّ المظفر. دام لهم الحكم مائة عام وخمسة، وهم كذلك من طوائف الملوك.

دولة آل الجوبانيين

حكموا إيران وأذربيجان، وهم اثنا عشر، ويقال للواحد منهم الأمير، ومدة حكمهم (   )[1] عامًا.

دولة الإيلكانيين

حكموا أذربيجان وهم ستة ويقال للواحد منهم قامى، إنهم من طوائف الملوك وكانوا عدولاً، ومدة حكمهم (   )[2] عامًا وبعدهم:

دولة آل كرتباى

وكانت الخطبة للملك كرتباى فى بلاد خراسان وغورستان، وكانوا ملوكًا سنيين، وهم ثمانية، ومدة حكمهم ثمانية وثمانون عامًا.

(١، ٢) بياض بالأصل.

دولة السرابداريين

حكموا سبزوان وخراسـان وألقابهم السرابداريون، وهم سبعـة، ولكن لا نسب لهم ولا حسب، ولكنهم سرابداريون تغليبًا، وهم كذلك من طوائف الملوك.

ذكر دولة العباسيين

كان لهم الحكم فى بـغداد والبصرة ولحسة واليمن والمدينة ومـصر أم الدنيا، ودمشق وحلب ومرعش وديار بـكر وأرضروم وجورجيا، أما من حكم بغـداد فى سالف الدهر فكان يقال للملك منهم كسرى، والجمـع أكاسرة، وبعد النبى ﷺ آلت بغداد لدولة بنى العباس، وهم ثلاثون، حكموا خمسمائة وثـلاثًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا ويومًا، والعباس عم النبى ﷺ، وهو العباس بن عبـد المطلب إلا أنه يكبر النبى ﷺ بعامين، عاش خمسًـا وثمانين سنة، ومات بـعد الهجرة باثنـين وثلاثين عامًا، وقبره فـى المدينة المنورة، ومدفون فى البقيع وأصبح ابنه السفـاح خليفة بعده، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وعاش خـمسين عامًا، قبره فى الكوفة، وخلفه ابنـه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبد الله محمد المهدى، ثم ابنه أبو محمد الهادى، ثم جعفر بن عبد الله وابنه كذلك أبو منصور هارون الرشيد وكانت الخلافة لأربعـة من أبناء هارون الرشيد، منهم أبو عبد الله وأبو العباس عبد الله، وأبو إسحاق محمد المسـتعصم بالله، ومنهم الخليفة المأمون، وقدم المأمون هذا مصـر بنفسه وسوَّف فى مصر طولاً وعرضًـا وأخرج من الأهرام كنزًا عظيمًا، واستولى منه اليونان علـى أطنه وسيس ومصص وقره كوركزى وطرسوس وهو مدفون فى ركن مظلم بـالجهة اليسرى من جامع النور، والخليفـة المأمون مذموم لضعف فى عقيدته، وضريـحه لا يُزار، وكان الناس فى عصر بنى العبـاس يقرأون الخطبة وهم جلوس، ولكن أبا العباس عبد الله السفاح بـن محمد بن على بن عبد الله العباس كان يتلو الخطبـة وهو واقف وأُخذت هذه السُّنَّة عنهـم، ويُسمون فى العربية بالخـليفة وأمير المؤمنين والأمير، والسلطان، والملك والخاقان، والمؤيد من عند الله وبذلك يمدحون.

والحاصل أن الخلفاء العباسيين فى بغداد أنابوا عـنهم فى مصر ثلاثين خليفة وحكموا مصر إلى أن أسقط هولاكو دولة الـعباسيين بقتله للمستعصم، وفـر أبناء المستعصم إلى

مصر، وشيَّد منصور الدوانقى فى عام ثلاثمـائة وخمسة مدينة ملاطيا وقدم مكة ووسع الحرم الشريف وأقام منارة، وفى عام ثمانمائة وواحد وخمسين توفّى وله من العمر ثلاث وستون عامًا، وهو مدفـون فى المحلة. وفى عهد خلافة العباسيـين كان فى سائر البلاد اثنتا عشـر طبقة من الملوك وكلهم مـن سلاطين الإسلام، تضرب السكة وتتـلى الخطبة بأسمائهم.

دولة آل ساسان

تسعة، حكموا واحدًا وتسعين سنة ثم:

دولة الديالمة

وهم خمسة عشر، مدة حكمهم قرنان، ثم:

دولة السُلفريين

وهم خمسة عشر ومدة حكمهم مائة عام وثلاثة أعوام. ثم استولى بعض خلفاء بنى العباس على كردستان وهم كذلك اثنتا عشرة طبقة:

أكراد دول آل عباس

الطبـقة الأولى منهم تحـكم جزيرة العُمـر الواقعة بالقـرب من مدينة الموصـل ولهم عشرين ألف محارب من حملة البندقية.

والطبقة الثانية منهم عليها سيد خان الذى له من الجند أربعون ألفًا.

أما الطبقة الثالثة لها الحكم فى صوران ولها عشرون ألف مقاتل.

والطبقة الرابعة تحكم أردلان ولها عشرة آلاف مقاتل.

والطبقة الخامسة تحكم الحرير وعدة مقاتليها خمسة آلاف من حملة البندقية.

والطبقة السادسة لها الحكم فى بتيلنشى وهم خمسة آلف مقاتل.

والطبقة السابعة تحكم للمحمودى ولها ثمانية آلاف جندى.

والطبقة الثـامنة تحكم حكّارى ولها أكثر مـن أربعين ألف مقاتل من حملـة البندقية، وعشرة آلاف فارس، وفى عام ألف وستمائة وخمسة منح اشير باشـا الملك أحمد باشا مديـنة وان، وبتكـليف مـنه أحضرت خـلعة الحكـم إلى يزدَن شـير حاكم حَـكّارى،

وشاهدت استعراض جنده ومن الحق القول إن الحكاريين جند يطلقون النار بمهارة عظيمة.

أما الطبقة التاسعة فتحكم فى هيزان ولهم عشرة آلاف جندى.

أما الطبقة العاشرة فتحكم تبليس ولهم عشرون ألف مقاتل، وتحت حكمها عشرون عشيرة.

والطبقة الحادية عشرة فتحكم حَضّو واليزيدية.

والطبقة الثانية عشرة تحكم باك ولهم عشرة آلاف مقاتل.

إن هذه الحكومات الاثنى عشرة منذ قانون السلطان سليم لا يولون ولا يعزلون وهم يحكمون هم وذريتهم من قبل الوزراء وبأمر السلطان ويُرْسَلُ إليهم أمرٌ سلطانىٌّ بذلك، وأهل الولايات يسمون الحاكم منهم الخان، ولكن هذه الطبقات السالف ذكرها من ذرية العباسيين، وغيرهم لهم فى إقليم أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرذل وولاية بغداد مائتان من رؤساء العشائر ويوليهم أو يعزلهم الوالى، ولهم مقاطعات مثل: أكيل، ميافارقين، كارنى، هيرون، اسبير، دوزريقى، باركيرى، وملاذكرد، ولله الحمد فقد سِحْتُ فى كردستان ذات الأرض الحجرية سبعة أعوام، وكتبت عن كردستان ما تحققت من صحته فى كتاب قائم بذاته، ولولا وجود كردستان كسد بين آل عثمان والفرس لما تحقق الاستقرار لآل عثمان لأن الفرس خصم عتى شجاع، والأكراد الذين ملكوا مصر من أكراد العباسيين. ثم جاءت:

دولة الكيانيين

وهم عجم وحكم منهم أحد عشر ملكًا إيران وما وراء النَّهر، ودام الملك لهم (   )[1] عامًا، ثم:

دولة الاشكانيين

وهم سبعة، حكموا فى همدان ودركزبن وأردبيل وحكموا ثمانية وسبعين عامًا، وكان أسلافهم ملوكًا قبل الإسلام، وبعد المأمون أصبح هؤلاء السبعة خلفاء وهم

(١) بياض بالأصل.

أشكانيون، ثم:

دولة آل قروانيين

ستة، حكموا (   )[1] عامًا، ثم:

دولة آل مانيانيين

عددهم (   )[2] ومدة حكمهم (   )[3] عامًا.

دولة آل ساسان

عددهم (   )[4] ومدة حكمهم (   )[5] عامًا.

دولة آل ماهانيين

ظهروا أول ما ظهروا في بلاد ما وراء النهر، وغادروا ماهان خوفًا من الجنكيزيين، وفي ديار أخلاط كان السلطان أوحده الله وهو جد سلاطين تبليس وقد سكنوا إلى جوارهم، وهم قوم اشتهروا بشجاعتهم، فحمد الأهالي ذلك منهم، وولوهم حكامًا عليهم، ودامت حكومتهم في أخلاط مائة وسبعين عامًا، وهجروا أخلاط كذلك خوفًا من الجنكيزيين، ودخلوا أرض السلاجقة، وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل في ساحل نهر مراد بالقرب من قلعة جعبر غرق في النهر، وتولى قيادتهم أرطغرل، وبينما كان أرطغرل في صحراء قونية صعد جبلاً وبينما كان ينظر من قمته رأى حربًا تنشب، ورأى أن الغلبة كانت للتتار على السلاجقة، فانطلق بسبعمائة مقاتل نحو التتار ورشقوهم بسهام كالمطر، فتقهقر التتار، وبهذا النصر عادت الحياة إلى السلاجقة بعد موتهم، فأعزّوا أرطغرل وأكرموه وأجَلُّوه وأقاموا على عتبته قبة هي قبة البك، وبذلوا له المال الجزيل، وقيل له كل مقاطعة تفتحها إلى جانب بروسة فهي لك وتحت تصرفك، وجعلوه قائدًا عظيمًا، وبأمر الله كان أرطغرل مظفرًا حيثما اتجه، ومع ما غنم من أموال غنم ديار السلطان السلجوقي، وأرطغرل هذا من الماهانيين أجداد العثمانيين.

والآن في أخلاط في عهد حكمهم اثنا عشر ضريحًا، وفيها موتاهم على عروشهم، ومعهم أسلحتهم وقد زرتها جميعها.

(١ : ٥) بياض بالأصل.

وقد حكم فى أخلاط من الماهانيين أجداد العثمانيين أربعة وأربعون حاكمًا، والآن ليكن الدوام إلى الأبد لدولة آل عثمان فهى من هذه السلالة الطاهرة، ولها الآن الحكم فى العراق وبغداد ومصر أم الدنيا ومكة والمدينة وبلاد المجر والروم والعرب والعجم وخاقانها سلطان البرين والبحرين، وجميع الخلفاء هم السلاطين المذكورون.

ذكر دولة آل بنى رسول

إنهم خمسة عشر ملكوا اليمن وعدن وصنعاء، ويسمون اليمن جزيرة العرب، واليمن من إقليم عُرْفيّة، ومن الشرق إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الغرب يحيط بها بحر القلزم[1]، وبقية اليمن من ناحية البرية بحر الإحساء، وبحيرة اليمن ويفصل بين الشرق والغرب خط فاصل، أما معنى اليمن ففيه عدة أقوال، منها: أنه إذا اتجه أحد فى اليمن إلى ناحية الشرق فبما أن هذا الإقليم واقع على يمنته سُمى اليمن، وقيل: إن اليمن إنما سميت بذلك لوقوعها على يمنة الكعبة الشريفة.

وكانوا يسمون ملوكها التبابعة فى العصر الجاهلى، والواحد منهم تُبع، ولكن قبل أن يحكم ساداتها كانوا يُسمون الملوك، والآن يُسمون الأئمة.

واستولى العثمانيون على اليمن فى عهد السلطان مراد الرابع، أما الآن فهى على مذهب الزيدية، وقد أشاعوا زواج المتعة؛ فالرجل يتزوج امرأة عدة أيام لقاء أجر، ولها أن تكون من بعده لسواه، وفى إقليم اليمن أربع حكومات وليس بينها وفاق، وساكنو الجبال من الأعراب الفقراء المعدمين، إلا أنهم يحسنون القتال بالبُندقية، وأهل اليمن صلحاء أتقياء ومعظمهم شرفاء ومعظمهم من أبناء الصحابة الكرام، ففى عهد النبى ﷺ هاجر بعض الصحابة إلى اليمن، وظهرت كرامات لأولياء الله فيها.

دولة أشراف مكة. أى: دولة الهاشميين.

وفى حوزتهم الحجاز والطائف والعباس والمدينة ووادى القرى ومدينة ثمود، وقد اجتمع مرارًا الأشراف واليمن، وعقدوا العزم على أن يملكوا مصر، إلا أنهم لم يحققوا

---

(١) هى البحر الأحمر.

بغيتهم، وهم ثمانية وثلاثون وهم حسينيون لهم حسب ونسب، ومدة حكمهم (   )[1] عامًا، ويسمونهم كذلك آل حيدر.

دولة أشراف مكة. أى دولة بنى قِتَادَة.

سبعة وعشرون، ينتهى نسبهم إلى الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ، وبناء على قول هؤلاء الأشراف ـ وهو صحيح ـ أنهم منذ عهد إسماعيل أبناء أنبياء، ويقولون إن أسلافهم بنى جرهم، وهى قبيلة هاجرت من اليمن وقدموا مكة واستوطنوها، وتزوج إسماعيل فتاة من بنى جرهم وولد له منها (   )[2] ولما بلغ الأربعين من عمره أنزلت عليه الصحف بالعربية، ودام البقاء للغة العربية على ما يقال، وهم يقولون هذا معلنين عن ذريتهم القديمة[3].

وفى هذه الممالك المحروسة التى زرناها، كثيراً ما رأينا مئات الألوف من العشائر والقبائل الساكنة الصحارى، كما كان يوجد فى صحاريها وجبالها أمراء ورؤساء لهذه العشائر وقد أمسكنا عن ذكرهم لأنهم لم تضرب لهم سكة ولم تقرأ باسمهم خطبة، ولأنهم كانوا أصحاب سيف وقلم أيَّد الله حكومتهم وأودعهم بطشاً وقوة فيؤدب بهم خليفة الله فى أرضه عبيده البغاه، ويأمن عباده المظلومين من ظلم الطغاة.

إذا غاب السلطان عند بلد ... فان بيوت المظلومين تكون طعما للظالمين

وقد جعل الله تعالى نفحات الخليفة على عباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب، وإذا لم يكن فى الأرض خليفة، لم يُجر على وجه الأرض عبادات أو طاعات أو إسلام وإيمان وإعتقاد وبذلك يختل الدين المبين. والآية الشريفة **﴿لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾** (الحج ٤٠). هى دليل قاطع على هذا نسأل الله أن يديم الخلفاء فى الأرض. حديث (لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا).

* * *

(١ ، ٢) بياض بالأصل.
(٣) أمسكنا عن ترجمة بضع سطور هنا لغرابة ما ورد فيها.
(٤) تخريج الآية (الحج ٤٠).

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

إن أول خلفاء على وجه الأرض منذ ظهور الإسلام هم الخلفاء الراشدون، وهم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى - رضى الله عنهم - ويقال للواحد منهم أمير المؤمنين فى اللغة العربية، كما يقال أمير المؤمنين للإمام الحسن والحسين والأمويين والعباسيين، وأول خليفة من الخلفاء الراشدين ملك مصر عمر بن الخطاب بعد فتح عمرو بن العاص لها، ثم ملكها الأمويون، ثم العباسيون، وهم كذلك طبقتان منهم طبقة فى بغداد أنابوا عنهم ولاةً فى مصر، وطبقة أخرى بعد انقراض العباسيين بغارة هولاكو، وكان أبناؤهم فى الصحراء لدى الأعراب، فجاء بهم الظاهر بيبرس من الصحراء إلى مصر وأجلسهم على مسند الخلافة، وأصبحوا خلفاء مستقلين.

ديار مصر والإخشيديون

وهم (   )[1]، ومدة خلافتهم (   )[2] عامًا، بعد ذلك كان المعز لدين الله القاهر الفاطمى ملكًا عظيم الشأن فى بلاد المغرب، وأعطى أحد مماليكه - كان يدعى أزهر وهو عربى من الحبشة - عشرين ألف تبسًا، وحتى لا يُعارض فى مصر أمره أن يطلب الإذن من الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، ووقع هذا موقع القبول من رجالها، فشرع فى بناء الجامع الأزهر، ومن أجل بناء هذا الجامع قدم مصر كل من كان فى بلاد المغرب من نَحَّات وبَنَّاءٍ، ولقد أفاد الأزهر علماء مصر فائدة عظيمة، حتى إن بناء الأزهر قبل تمامه كان طلاب العلم يجتمعون فيه ولما قرب تمامه ذاع أن معز الدين الظاهر آتٍ إلى مصر، وحشد المعز لدين الله حشودًا من الجند وانتزعها من الإخشيديين، وصلى فى الجامع الأزهر، ويسمونها القاهرة لأن معز الدين القاهر قدم من المغرب وفتحها، وعددهم (   )[3] ودامت دولتهم (   )[4] عامًا.

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة بنى البحرية

وهم ثمانية وعشرون ودامت دولتهم مائة وثلاثين عامًا، والمظفر بالله بن الحافظ لدين الله الفاطمى قتل مملوك مصر وأصبح بعده أبو القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله ملكًا، ولما بلغ هذا الخبر بغداد وسمعه المتقى بالله العباسى ولّى من وزراءه - نور الدين محمود بن زنكى - المُلك، فقدم فى جيش عظيم واستولى على مصر، ثم حاصر قلعة دمشق وخليفة الشام بحير الدين طُقتِكين الذى كان محاصرًا فى القلعة، وسلم قلعة دمشق لنور الدين محمود صلحًا، وذلك فى عام خمسمائة واثنين وستين (٥٦٢)، وجاءت بعد ذلك.

دولة الجراكسة

وأولهم برقوق وآخرهم طُومَان باى، ملكوا (   )[1] عامًا وأول من كان له مماليك الجراكسة نجم الدين الصالح أيوب، وجملتهم اثنا عشر فارس، كما كان له اثنا عشر ألف اشتراهم، وفى قول إن السلطان فرج هزم تيمور وأحضر جميع عبيده مع ما غنم منه من غنائم إلى مصر، وبقى فى مصر الجراكسة والأبخاز (الأباظية) والجورجيون والروس منذ عهد السلطان فرج، وقد مرّ ذِكر السلاطين الذين ولوا مصر على الترتيب،

أول من ملك مصر من آل عثمان

كان أول من ملك مصر من العثمانيين السلطان سليم، وإن شاء الله سوف نذكر فتح مصر وجميع ما وقع من أحداث.

أول من حكم مصر الفراعنة، ومن طبقاتهم من يعرف بالعزيز، كما قيل إن منهم القبابطة والجمع أقباط، ولما فتح السلطان سليم مصر سُمى خادم الحرمين الشريفين، ومن سماه بهذا الاسم كمال باشا زاده، وأبو السعود افندى، وعندما فتح السلطان سليمان المجر سموه صاحب قران الزمان، وفى عام ٩٢٩ تسعمائة وتسعة وعشرين فتح سليمان خان جزيرة رودس واستولى عليها من نصارى مالطة، وبعد هذا الفتح فتح فى

---

(١) بياض بالأصل.

البحر الأبيض سبعمائة وستين جزيرة فسماه كمال باشا زاده وأبو السعود أفندى سلطان البرين وخاقان البحرين، وفتح كذلك بغداد فسماه علماء الترك سيد العرب والعجم، ولما فتح طنجة فى بلاد المغرب والجزائر وتونس وطرابلس سموه فاتح المغارب، ولما فتح سليمان باشا الطواشى (الخادم) بإذن من السلطان سليمان سبعة أقطار وسبعة من الموانئ فى الهند سموه فاتح المغارب، وفى ثمانية وأربعين عامًا من خلافته فتح أقطارًا فى سبعة أقاليم، وجعل لآل عثمان نصيبًا من أقاليم الدنيا السبعة أما أول غزاة آل عثمان فهم الأمير عثمان والأمير أورخان والأمير يلدريم والأمير مراد حتى أبى الفتح، ويطلق عليهم جميع علماء الترك أولو الأمر، ولأن أبا الفتح كان يحب العلماء فقد كان يجمع العلماء والمشايخ حوله من الأقاليم السبعة، فقد كان سلطانًا عالمًا فاضلاً كاملاً مجاهدًا فى سبيل الله، عندما اعتلى العرش العثمانى، كان دائم الجلوس بالعمامة (العرفى) وكان يعقد الديوان بها، ولم يرتدى أى سلطان قبله تلك العمامة العرفى، بل كان الملوك من قبله يضعون تيجانًا يعجز اللسان عن وصفها، ولما فتح استانبول كان فى معيته سبعون من كبار الأولياء وعلماء العرب والعجم من العراق وخراسان، وكان فى معيته أيضًا الشيخ آق شمس الدين وأنصار ده ده، والمولا جورانى وأمير البخارى وغيرهم من كبار العلماء وكان بعض علماء الترك المذكورين يطلقون على السلطان محمد الثانى لقب أبو الفتح محمد خان، أما علماء الروم فيطلقون عليه لقب السلطان، أما كل مشايخ العجم فيطلقون عليه لقب خنكار أى صاحب الخبز، نظرًا لكثرة ما أنفق من خبز فى هذا اليوم، وبعد فتح استانبول جمع محمد الفاتح كل الجند فى ميدان الرماية (اوق ميدان) وأولم لهم الولائم العظيمة، وملأ ذيل ثوبه بالخبز، يقدم منه الطعام لجند الإسلام، ولأن العجم يطلقون على الخبز كلمة (خون) أطلق على الفاتح لقب خنكار.

وتذكر إحدى الروايات أن أبو الفتح السلطان محمد أنشأ أثناء حصار مدينة استانبول مائتى فرقاطة فى مكان يسمى مزرعة اللوند، ولضيق ميدان الرماية قام جنود فرقة العزب بناء على رأى القبطان شاه قولى بفتح أشرعة تلك المراكب وأنزلوها إلى المياه بسحبها برًا بالقرب من حديقة ترسخانه، ولا تزال آثار سحب تلك السفن على اليابسة واضحة للعيان فى ميدان الرماية.

وعندما رأى الملك تكفور تلك السفن المشرعة قادمة إليه من البر من قصره الموجود فى مكان يسمى تكفور سراى انقطع أمله هو ومن معه من القسطنطينية، إذ جاء فى كتبهم أن ملكًا يدعى محمد من الأمة المحمدية يأتى على رأسه عمامة يمتطى بغلاً وكل بساطه من الجلد، يرتدى الصوف، وينتعل بحذاء أزرق، يسير السفن على اليابسة ويأخذ القسطنطينية، وهذا مسطور على المسلة الواقعة فى آت ميدان (ميدان الخيل).

وفور رؤية الكفار لمجىء السفن على اليابسة قالوا لنهيئ أمرًا آخر وجرت حكمة الله القادر القيوم بأن تظهر فى سراى بورنو اثنتا عشر سفينة للفرنسيين جاءت مددًا، لأن جميع الكفار كانوا مطمئنين من جهة البحر وقاتلو من جهة البر وكان ملكهم فى قصره الكائن فى اكرى قابى.

أما من ناحية البحر فكانت الطيور لا تستطيع الطيران من ناحيته، وذلك لأن ألف مدفع فى (سراى بوررونو) ومائة مدفع فى (قيز قله سى)، وخمسمائة مدفع كانوا يقفون أمام دار المدفعية القديمة فى (غالاطة) والتى تسمى اليوم باسم (كرج قابى). وعندما كان الحقير فى صباه شاهد هذه المدافع أمام (كرج قابى) للاحتفال بالعيدين. ولما وجهه السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا على رأس الجيش إلى بغداد، أفسد تلك المدافع وصب مدافع صغيرة، وأرسلها بالسفن إلى الإسكندرون حيث ظلت ثلاثة أيام فى قلعة بيره جيك، ثم أرسلها إلى بغداد بالقوارب عبر نهر الفرات.

ولذلك لم تكن الخشية من المدافع المنصوبة فى (سراى بوررونو) ولما قدم المدد من سبعة عشر سفينة للروم من ناحية ميناء (بطريق خانه)، وفى موضع يسمى (فنار قبوسى) أطلقوا المدافع والبنادق، فأعلنوا شديد فرحهم، ثم ألقوا مراسى السفن، ولما كانوا فى سيرهم إلى قرى النصارى، أنزل السلطان محمد من ناحية اليابسة مائتين من الفرقاطات تحت إمرة القبطان شاه قولى وكانت وكأنها التنانين، ووصلوا إلى السفن كأنهم البرق الخاطف، وبأمر الله لم تطلق اثنتا عشرة سفينة المدافع والبنادق، وسحبوا هذه السفن الواحدة تلو الأخرى إلى حديقة ترسخانه.

فقال رجالنا إننا قدمنا لنستولى على ما فى حوزتكم من ممالك، وكانت هذه ثلمة فى صفوف الفرنجة أوقعتهم فى فزع ورعب، ونمى خبر الانتصار على هذه السفن إلى أبى

الفتح وكان فى حصار ادرنه قابى وركب زورقًا فى ميناء (يا ودود) ورأى فى حديقة ترسخانه اثنا عشر سفينة تسمى جهنم الحمراء وهى تشبه أصل الجحيم محملة بالغنائم فأخرج منها العشر حسبما يقضى قانون الغنائم، ووزعوا بقية ذلك على الغزاة من المجاهدين.

وفى سفينة من تلك السفن كانت توجد ابنة ملك فرنسا وهى تشبه ضوء الشمس وكانت مخطوبة لملك استانبول، ومعها ألف فتاة من الفتيات الطاهرات من بنات أمّة محمد، أخذهن الكفار عندما أغاروا على غزا وعكا والرملة ليكنّ جوارى لهذه الفتاة وقد أودعن جميعهن أمانة لدى الشيخ آق شمس الدين، وفى نفس الوقت كان أبو الفتح مشغول بحصار القلعة، وفى شهر يوليو من عام ثمانمائة وسبعة وخمسين للهجرة، وفى اليوم الذى حدده الشيخ آق شمس الدين فُتحت القسطنطينية بمشيئة الله وهذا تاريخ مذكور فى تواريخ أخرى.

لطيفة صوفية

بعد ذلك مضى أبو الفتح إلى حديقة ترسخانه وخلع باب قلعة الروح وجعل فيها عسكر النفس، فتزوجها وكانت حكمة الله أن حملت فى تلك الليلة بابنه الأمير با يزيد وبعد أن قضى السلطان الفاتح ليلته هذه مع ابنة ملك فرنسا اغتسل ثم توجه فى الصباح إلى الشيخ آق شمس الدين، لقد أسلت دماء فى تلك الليلة دلالة على زواجه بابنة ملك فرنسا وإنى لأرجو ألا تسفك الدماء إلا فى الحق، وأطعم غزاة المسلمين الذين شاركوا فى فتح استانبول، لتكون تسميتهم لك بخنكار فى موضعها، وقد أطلقوا على السلطان أبو الفتح السلطان محمد لقب خنكار لأنه أطعم غزاة المسلمين وأحسن عليهم بالتيمارات والزعامات.

ولكل ملك ألقاب ولقب آل عثمان سلطان، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر، وسيد العرب والعجم، وصاحب قران الشرق والغرب، وخنكار والسلام، ولكن أول ما فتح السلطان سليم مصر كان عرب مصر تقول: «الله ينصر السلطان سليم»، ويسمونه فى اللغة الفارسية سلطان بلاد قيصر، ويُسمون ملوكهم سلطان بلاد إيران، ويسمون أمير الحج فى مصر سلطان البر.

وكان جيش العثمانيين يؤدى خدمة عظيمة لحجاج المسلمين ولما كان بين العرب أمراء للأقاليم نزل عليهم كثير من الرحالة ضيوفًا، ويُسمى العرب الواحد منهم سلطان البر أما عرب صحراء الشام فيسمون شيوخهم آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل بنى رباج وآل بنى زهد، أما الآن فيقال لوزراء مصر عزيز مصر والمتولى، ونظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر ويسمون كذلك والى مصر (الصوباشى) وهذا المنصب تبقى من عهد الفراعنة وفرعون فى أول أمره كان صوباشيا إلى أن غيّر الملك ثوبه فصلبه فى سوق الصليبة وبعد ذلك أصبح فرعون ملكًا مستقلاً وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وبمرور الزمان قلّ لقب صوباشى إلى أن جاء الإمام الشافعى فما وجد فى مصر صوباشى.

حكاية غريبة

قدم الإمام الشافعى من بغداد، ولما وطأت قدمه مصر سرق اللصوص داره، إلا أن كل ما أخرج من مؤلفات لم يَضِعْ، وإن سرقوا مئات منها فاكْتَأبَ لذلك الإمام الشافعى وأخذه مُرُّ الأسى لضياع مؤلفاته النفيسة. ومضى إلى السلطان محمد سلطان الأكراد، وبسط رجاءه بأن يُعين صوباشيًا على أن يكون شديدًا فقبل رجاءه، فجعل هذا الرجل عالى مصر سافلها، وإن كان مدبرًا، وسديد الرأى، وصاحب فراسة.

واحتفل ذات ليلة فى منزله بالمولد الشريف، ودعا جميع علماء مصر إلى حضور هذا المولد، وأثناء الكلام قال الصوباشى:

لقد سمعتم بأن الإمام الشافعى تكرم علىّ بأن جعلنى صوباشيًا، وهو الآن يطلب منا رشوة فهل يكون المذهب الشافعى حلالاً لنا؟. وأنتم بما أنكم علماء مصر هل ترون هذا الظلم جائز؟ وهل جميع علماء مصر على المذهب الشافعى؟ قال هذا وفى قلبه مرارة. فقال علماء مصر فى التو: يا أيها الوالى خذ حذرك ولا تقدم فلسًا ونحن لا نقبل مذهبه وهو مذهب صاحب تفسير جرير، وقد شئنا أن نسرق كل ما لديه من كتب ونحرقها جميعًا بعد بضعة أيام كما نريد رجمه أو ننفيه إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشى هذا بأدب وقال: يا أيها النقباء ويا أساتذتى أتموا المولد والآن خذوا صرتكم وعطيتكم. ومضى يتجول فى المدينة بحجة الحراسة، ثم انطلق إلى السلطان محمد سلطان الأكراد وعرض عليه كل ما قال العلماء، فامتطى فرسه وحبس

جميع العلماء فـى بيت الصوباشى واقتحم بيوت العلماء وأخـرج كل ما فيها من أموال وأرزاق أمام الإمـام الشافـعى، وانـعقد الـديوان فى الـصباح وسـلم الإمـام الشافـعى الصوباشى كل ما أشار إليه، وقتل مائتين من مخالفى الإمام الشافعى من المتشيعين، كما أن مائتين آخريـن تابوا وأنابوا؛ فجدد الإمام الشـافعى مذهبه، وبسبـب من هذا ظهرت كتب الإمام الشافعى واسترد المذهب الشافعى اعتباره.

والآن فى مصر ثلاثـمائة من الحراس يحملـون الهراوات فى يدهم ومعهـم اثنا عشر جلاداً يفتحون بيت الصوباشى كل صباح ويحضر جميع خدامه ويدعون للإمام الشافعى على أنه بـرهم وسبب رفعتـهم، ثم يتجول ليـل نهار لتعرف الأحـوال، ولا شك أنهم يجدون اللصوص والنـشالين، وكل لقطاء مصر مقيدون فى دفـتر الصوباشى. وإذا كان الصوباشـى يحكم حكمًا مطـلقًا فإنه بذلك يـكون كالوالى، وكل المجرمين يـخشُونه. وسواء كانوا مذنبين أو أبرياء قتلهم.

وهكذا كـان هذا الرجل يـستحل الـقتل كوسـيلة لإصلاح الـعالم، إذ لم يـكن فى الإمكان الـسيطرة علـى الفلاحين فى مـصر، وكذلك مَنْ يـدعون الولاية من مـكحول العين، ومن يـحمل على رأسه سـبحة، والواعظ الذى يـحمل المسواك، مظـهرهم هذا دليل بلـههم، ومشجع علـى اللصوصية والفـوضى، والحاصل أن كل ما ليـس شرعيًا يرتكبـه علماء مصر حتى إنـهم يبيعون ما أوقف مـنذ تسعين عامًا علـى أن هذا الوقف يتوارث أبًـا عن جد، وهكـذا تسرق جميـع أوقاف الله، وكم من آلاف مـن دور القراء ودور الحديث والمدارس جعلوهـا بيوتًا وعليه فلا بد لمصر من حـاكم جبار وإذا ما غلت الأسعار (   )[١] فإن هذا يظل فى يد الحاكم وبناءاً على قراره.

* * *

(١) بياض بالأصل.

الفصل الحادى عشر
ذكر ثمانية واربعين ملكاً وسلطاناً فى جزيرة مصر

من المتعارف المعلوم لدى سياح الترك أن البارى خلق فى الربع المسكون من الأرض فى بحر الاقيونوس والبحر المحيط والبحر الأبيض مائة ألف جزيرة، زينها ببنى آدم والعلم عند الله. وخلق اثنتى عشرة جزيرة فى بحر جزيرة الهند والصين وبلاد السند، وبسياحتى فى الهند لم أجر قلمى بالكتابة. أما فى البحر الأبيض فسبعمائة وستون جزيرة كبيرة وصغيرة فى حوزة آل عثمان، ففى البحر الأسود جزيرة القرم، وفى البحر الأبيض جزيرة قبرص وجزيرة المورة وجزيرة كريت التى فتحت منذ زمن يسير. وهذه جزر تتراوح مساحتها بين سبعمائة وستين ميلاً وسبعمائة وسبعين ميلاً.

وعلى حد قول بطليموس المهندس وقول بادرا وقولون، أن جزر مدللى وايلمنى وصاقر واستانكوى ورودس من جزر العالم الجديد وكلها تقع الآن تحت حكم آل عثمان تتراوح مساحتها بين الثلاثمائة والأربعمائة ميل، ومحاصيلها كمحصول روضة الجنات، وفى البحر الأبيض كذلك جزيرة مسنّة ومساحتها مائة وسبعون ميلاً، ومنذ عمرت لم تطأ أرضها قدم ثائر ولا لص وهى الآن تحت حكم ملك إسبانيا، كما أن جزيرة ميورقة ومينورقة تبلغ مساحتهما سبعمائة ميل، وهما جزيرتان خصبتان غاصتان بالسكان، وهما تحت حكم أسبانيا وجزيرة قورسقه فى البحر الأبيض تبعد عن الجزائر بسبعمائة ميل، إنها جزيرة معمورة وقد دخلت حكم أسبانيا حيناً وحكم البرتغال حيناً آخر وهى إلى الآن لأسبانيا.

وعلى مسافة ألفي ميل فى إتجاه الغرب من مضيق سبته تقع جزيرة الإنكليس (الإنجليز) وهى جزيرة عظيمة محيطها ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس.

وحاضرة ملك الإنكليز مدينة لوندرة الواقعة على ضفة نهر لوندرة، وهى مدينة عظيمة وعلاوة على هذه المدينة سبعمائة مدينة معمورة، وهذه المدن لها

واسع الشهرة لدى سياح الترك، وفى البحر المحيط كذلك جزيرتان إحداهما جزيرة ( )[1] والأخرى جزيرة ( )[2] ومحيطها عشرون ميلاً، وهما تحت حكم الإنجليز فى كل زمان إلا أنهما ليستا معمورتين ولا جميلتين مثل جزيرة الإنكليز.

مدح الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة

مصر القاهرة المعزية

ولكن جزيرة مصر أكبر من جزيرة الإنكليز وكانت السياحة فيها لجميع مهندسى علماء السلف ألف مرة براً وبحراً، وكتبوا عن طول نهرها وأرضها وسكانها ومائها وهوائها. ومحيطها ثمانية عشر ألف ميل إنها جزيرة مصر أم الدنيا المربعة الشكل، وطرفها الشمالى يطل على البحر الأبيض ومن مضيق سبتة إلى بحر العريش ألف ميل وفى تلك المساحة ـ التى تُعْبَرُ فى ثلاثة أشهر ـ على البحر الأبيض سبتة وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس وجربة وجزيرة كريت، وصحراء بنى هلال، وتنتهى بالإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة وبحيرة العريش، وبعد يومين يكون الوصول إلى السويس وهى أرض يابسة، وعلى حسب ما سلف ذكره من حاجة قطع ملوك السلف هذه المساحة وسبق أن قلت إنها جزيرة حقًا، وعلى ساحل بحر السويس إلى أرض الصعيد العالى كثير من المدن وفى الساحل المقابل لبحر السويس طرف أرض الكعبة قلاع ازلم، ومويلح، وينبع، وجدة، ومن الجانب البرى لجزيرة مصر تقع أرض الحبشة وعلى ساحل بحر السويس ميناء بورغه والقصير وريده وأبراش وعجون ودنقلاب وميناء آت وميناء مدينة سواكن وهى حاضرة باشا الحبشة، وميناء مدينة كيف وبعدها ميناء زيلع، وبعدها قلعة هندية، ثم ميناء طوزلة، ثم ميناء بَهْلُولة، ثم ميناء مدينة زيلع، ومن ميناء السويس إلى هذا الموضع ألف ميل.

إن هذه الموانى الحبشية المذكورة معمورة وتقع على ساحل بحر السويس أى بحر القلزم، بعد ذلك على ساحل البحر المحيط فى جزيرة مصر من مصب النيل إلى مضيق سبتة موانى على مسافة قدرها أربعة عشر ألف ميل. وهذه الموانى وغيرها من المدن

(١، ٢) بياض بالأصل.

المعمورة جميعها فى حوزة ملك البرتـغال، وليس الحكم فيها لأحد، وفى داخل جزيرة مصر هذه أحاطت البرتغال من ثلاثة جوانب بثمانية وأربعين ملكًا.

إن جزيرة مصر جزيرة عظيمة، يقسمها خط الاستواء بالقرب من الشلالات بعشرين مرحلة. وعـندما دخلتُ هذه المنـطقة كان ربع دائرة الليـل والنهار متساويـين، والإقليم الأول والثانـى يقعان فى جزيـرة مصر، أما الإقلـيم الثالث فـيقع فى جزيرة مـصر فى الإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة.

إنها جزيرة متراحبة الأرجاء، ويشق هذه الجزيـرة نهر النيل المبارك إلى وسطها، وفى جنوب جزيرة مصر طريـق بطول ثلاثة أشهر وهو صحراء قاحلة لا يسـكنها أحد وفيها حيوانات سامـــة، وفـى أرض وعـرة مـــن جبل القَمَر ينبـع نهر النيل، وهناك تـتجمع مياهـه، ويصب فى بحيرة، ومن هناك يمتد طريـقه بطول سبعة أشهر، وشعبة من النيل تمضى إلـى رشيد وأخرى تمـضى إلى دمياط، وعـدة شعب من الـترع أيضًا تـصب فى البحر.

أما فرعا رشيد ودمياط فهما الفرعان الرئيسـيان وفى المواضع التى يَختلط فيها ماؤها بماء البحر الأبيض تسمى مرج البحرين يلتقيان، وتجعل ثلاثمائة ميل من ماء البحر المالح حلوًا، وتجـعل لون البـحر ضاربًا إلى الحُـمرة، وحينـما تقترب سـفن الترك مـن مصر ويريدون العلم بالاقتراب منها يتذوقون مـاء البحر فإن كان عذبًا أدركوا أنه لم يبق على بلوغ رشيد ودمياط إلا مـائتان أوثلاثمائة ميل وإذا كان الجو صحوًا جـعل ماء النيل لون ماء البحر ضاربًا إلى الحـمرة فيدركون أنهم اقتربوا من دمياط ورشيـد، وللنيل فرع آخر من الناحية الغربية لمصر يجرى إلى السودان وفرع آخر فى أرض المغرب فى مقابلة جزيرة كريت، وفى بلاد بنى هلال كان يَصُبُّ فى البحر الأبيض.

والآن الأماكن التى كان يجرى فيها تبدو للـعيان، ثم قطع سيف بن ذى يزن مضايق الشلالات فجرت كلها إلى نيل مصر، والنيل لا يجرى إلى أرض بنى هلال لقد عطّل، وبعد أن خرج فرع آخر لنهـر النيل من جبل القَمر يجرى من الجانـب الغربى إلى إقليم السودان وكان يصب فى البحر المحيط، وفى ديـار مصر مئات الآلاف من الترع المتفرعة عن النيل إلا أنهـا ليست طبيعية وإنما مـن صنع البشر، وهى تجرى عند فـيضان النيل، وسوف نتحدث عن الترع فى موضعه بمشيئة الله ـ تعالى ـ.

وفى الناحية الجنوبية وراء خط الاستواء كانت إقـليمًا خاليًا ولشدة القيظ فيه والخوف من الحشرات السامـة فيه لا يعد إقليمًا مسكـونًا والآن يسكنه البرتغاليـون ويسمونه بلاد الفونج وهذا ما حكاه القبطان حمداد.

والآن أكثر من نـصف مصر فى قبـضة العثمانيـين، وقد تجولت فى ربوعـها ما عدا جنوبها، وعَرَّفتُ بسلاطينها وأصحاب السكة والخطبة وبألقاب غيرهم.

أولاً سلاطين اشراف الأدارسة

حكم ممالك المغرب خمسة أولهم إدريس؛ ولذلك سموا بالأدارسة، إن نسبهم يتصل بالإمـام عـلى بـن أبـى طالـب ـ كرم الله وجهه ـ وكلهـم حسينيون ومدة خـلافتهم ( )[1] عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل حمود

حكم ممالك الأنـدلس سبعة أولهم النـاصر لدين الله، وثانيهم المـأمون بالله، دامت دولتهم ( )[2] عامًا وجاء بعدهم:

سلاطين آل الموحدين

وهم فى بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ثلاثـة عشر، وأول ظهورهم من الشام، وكان الدوام لدولتهم ( )[3] عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل بنى طاش

وهم فى ممالك فاس ومكناس سبعة ومدتهم ( )[4] عامًا ويُسمى الواجد منهم كذلك ملكًا، وجاء بعدهم:

سلاطين آل مُكَثّمين

وهم فى ممـالك المغرب والأندلـس ستة، ولكن ـ عـلى العمـوم ـ بقى حكم إقـليم

(١ : ٤) بياض بالأصل.

الحبشة لجزيرة مصر، وأصلهم من اليمن من قبيلة حِمير، حتى إنهم مضوا لغزو الشام في عهد عمر بن الخطاب، وبعد فتح الشام قدم عمرو بن العاص مع قبيلة الملثمين، وكان عمرو بن العاص واليًا على مصر (........)[1] ثم سمع عمرو بن العاص بغارة الكفار على طنجة وجعل تحت إمرة موسى بن نصير جيشًا قوامه خمسون ألفًا من مصر، وكان الملثمون حكامًا على أوجله فمضوا إلى طنجة وحاصروا قلعتها وفتحوها بقوة سواعدهم، وسكن الملثمون هؤلاء قلعة طنجة وتناسلوا وأصبحوا خلفاء وخلافتهم لهذا السبب، ودام ملكهم (   )[2] عامًا.

سلاطين آل بنى حرين

وهم سبعة من ملوك فاس ومراكش، وبعد مائتين وثمانين عامًا دالت دولتهم، وانتقل ملكهم لغيرهم إلا أنهم كانوا قومًا غاية في نجدتهم وبسالتهم، وأغاروا على أسبانيا والبرتغال بألف سفينة وحصَّلوا منهم الخراج.

سلاطين أشراف آل الكاملين

وهم في فاس ومراكش والمغرب سبعة، ويسمون أشراف الكاملين، فمن أسمائهم مثلاً نصر الدين الكامل وسليمان الكامل، وقد أغار سُبُّوعُ الكامل على مصر، ولما اقترب من مصر بجيش عظيم وفي أرض البحيرة في مصر بمدينة حوش عيسى هبت ريح عاتية عصفت بالجيش وأهلكته عن آخره، وانتهت دولة الكاملين بالشريف سُبُّوعُ هذا.

دولة بنى الأغلب

حكام دولة إفريقية عشرة، ويسمون الأغلبين وكانوا على الدوام مع أسبانيا في قتال ونزال، دامت دولتهم (   )[3] عامًا. والآن في أرض المغرب إذا كلم أحد آخر فخورًا متباهيًا سأله قائلاً: أأنت من بنى الأغلب وهذا مثل سائر، وبأمر الله إذا شد عشرة منهم على عدو كانت لهم الغلبة عليه، ودامت دولتهم (   )[4] عامًا، وبعدهم:

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة بنى كلب

وهم تسعة فى جـزيرة صقلية، لهم البراعـة فى الملاحة، وهم بسفنهم يـغيرون على الأعداء، دامت دولتهم (　　)[1] عامًا، جاء بعدهم:

دولة آل باديس

إنهم فى أفريقيا ثمانية، دامت دولتهم (　　)[2] عامًا.

دولة آل بنى حفص

اثنـان وعشـرون حكـمـوا ولايـة تونـس وأفريقيـة وفـى عام ٦٠٣ ستمائة وثلاثة فتح عبـد المؤمن الأموى هذه الديـار بألف سفينـة، وولاه بنو حفص حاكـمًا، وأصبح خليفة وتسمى ذريـته آل بنى حفص، وهم ينتسبون إلى حفصـة بنت عمر بن الخطاب، وجاءت بعدهم:

دولة سلاطين فاس

فى المغرب مديـنة عظيمة هى فاس وبما أن لـهم عرشًا يسمون ملـوك فاس ودولتهم مستمرة منذ عهد بنى العباس إلى يومنا هذا[3].

وأسماؤهـم هى هارون فاس ومنـصور فاس، ومملكتـهم على ساحـل المحيط إلا أن البرتغاليين أحيانا ماكانوا يستولون على قلاعهم لأنها كانت مشاع مع فرنجة البرتغال.

دولة سلاطين مرانكش العظام

فى جزيـرة مصر لا وجود لدولـة أقدم منهم يمـلكون ملـيون من الجند، وهـم على المذهب المالكى، وليس فى دولتهم ثغر، والآن وهب الله مال قارون الهند لبلاد مرانكش هذه، ويسمون ملكهـم السلطان، وكلهم بيض البشرة، لكن لم يـتيسر لى الوصول إلى ديارهم وبينهم وبين البرتغاليين حروب، وفى جنوب مملكتهم:

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) يعنى زمن المؤلف.

دولة سلاطين السودان

وهم يسمون الملك من ملوكهم بدلاً من سلطان سودان، مثل محمد سودان وعبد الله سودان وهم على مذهب الإمام مالك، وهم أهل بحر، وإذا انتقلت الخلافة من أحدهم إلى الآخر دون موافقتهم لا يصبح خليفة ودولتهم منذ سبعمائة عام، ولهم جنود لا يحصون كثرة، ولهم الآن مائة حصن حصين وسد متين وقلاع، وهم على الدوام فى حرب مع البرتغاليين، إنهم أهل شجاعة ونخوة وقد اختلطت بهم كثيرًا فى بلاد الفونج إنهم بيض الأجسام ضخام وعيونُهم فى موضع حواجبهم، أكثرهم بحَّارة.

وصف دولة سلاطين فونجستان

هم قوم عرب سُمر البشرة يسكنون ساحل النيل، ولهم جنوب خط الاستواء عشرون قُناق، وملكهم يسمى الملك، ويعتقدون فى أبناء الشيخ البكرى، إنهم ملوك أتقياء صلحاء، ليس لهم سكة ولكن فى الخطبة يذكرون ملكهم الملك عطاء الله، ويسمونه ماى أى السلطان، وفى الناحية الشمالية:

دولة ملك بربر ستان

ويسمون مدنهم دنقلة وهى مدينة فى حجم البلدة على ساحل النيل، وهم جميعًا سُمر البشرة إلا أنهم غاية فى الجمال، وليس لهم سكة، ولكن يذكرون فى الخطبة الملك إدريس والملك حمد والملك حسن، وسيأتى الحديث عنهم فى موضعه، وهؤلاء البربرستانيون أتقياء وعلى مذهب الإمام الشافعى ويطلقون على ملوكهم اسم دنقل مثل دنقل إدريس، ودنقل حميد ودنقل إلياس، ولسانهم هو اللسان العبرى، لأن إدريس بعث فى هذه الديار.

دولة آل قِرْمَانقة

يسمون ملكهم ققان، مثل عادى ققان، زوال ققان، إدريس ققان، إنهم مسلمون، ووجوههم ضاربة للحمرة، إذا أوقعوا فى أسرهم قومًا كافرين باعهم النخاسة فى مصر، وهم يتكلمون السريانية، وهى لغة صعبة.

دولة آل بغه ونسكى

يسمونهم بغه ونسكى، ومملكتهم فى الصحراء على الجهة الغربية، إنهم عراة عيونهم صفر وحمر، إلا أنهم لا يؤمِّنون جيرانهم، وليس لهم سكة، وفى الخطبة يسمون ملكهم عمران، أى السلطان، مثل ذلك على عمران، كمال عمران، ومهما كانت أسماؤهم يضيفون إليها كلمة عمران مثل الصُهَيْب عمران، وقد استولى هؤلاء القوم على الحبشة وما بين النيل، إنهم عراة.

ويخافهم جيرانهم لما لديهم من أسلحة، وسلاحهم ينفذ فى الإنسان كأنه مبضع وهم يختلطون بالبرتغاليين فى الأغلب ويشترون منهم ويبيعون لهم، ومنهم من يعمر ألف عام، وسن الفيل وقرن الكركدن وجلد الزواحف والذهب والزباد غاية فى الكثرة عندهم ولا يفهم لغتهم سوى البرتغاليون أولاد الزنا، وهم يجعلون كلامهم بالإيماء والإشارة، ويستخدمون ذلك فى المعاملات والمهملات، أئمتهم فى الخطبة يوردون الآيات والأحاديث ويذكرون بالحشر والنشر، ويسمون لسانهم العمرانى، ولم أسمع لسانًا مثله، وسوف أورد بعضًا من ألفاظه من بعد.

دولة ملوك ذى اليزن

يسمون ملوكهم ناصر يزان وقاسم يزان، وهى تخفيف ذى اليزن، يقولون قاسم يزدان أى إنهم ينتسبون إلى سيف ذى اليزن، إنهم مؤمنون موحدون على المذهب الشافعى، سود البشرة وليس لديهم سكة، ولديهم ذهب كثير ولكنهم لا يعرفون له قيمة، وقد رأيت فى فونجستان مدينة تسمى شولومقاى، وقد التقيت مع بعض من قوم ذى اليزن، إلا أن لغتهم صعبة، ولقد جئت برجل من أولاد فونج يعرف لغتهم ليترجم لى، وسألته فقال: نحن اثنا عشر ملكًا، وكل ملك منهم له ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى، وقد أحطنا بديار الحبشة من الخلف، ولولانا لاستولى البرتغاليون على الحبشة. إلا أن قائل ذلك كان منهم والله أعلم، وإذا ما وقف قرد على قدميه ومشى أشبهه.

إن أفخاذهم كأرجل الجراد وبطونهم سود، وأجسامهم غاية فى النحول، وجميع بنى آدم يخافونهم، أما الأقوام الآخرون فهم لا يعرفون الكفر ولا الضلالة ولا الحشر والنشر

ولا الجنة والنار، وكأنهم حيوان ناطق، إلا أنى لم أرهم والله على ما أقول شهيد.

دولة بنى آل هلال

تقع دولتـهم فى أرض المغرب بجـانب أوجلة، ومدينة بـنى هلال تقع قبـالة جزيرة كريت، وكانت مديـنة عظيمة فى الزمان الخالـى، أغار عليهم الأسبان وقتلـوا ملكهم، وكان بنو هلال هم هؤلاء الملوك وبذلك انقرضوا والآن من ذريتهم قوم بنى هلال، وهم مئات آلاف من العرب الرحل، وحيواناتهم كثيرة، ولما كنت فى عسكر الإسلام وجدت عندهم زيـتًا له رائحة المسـك وهم يحضرونه إلى مـصر، وهو زيت غاية فـى اللطف، وقديمًا كـانوا يطلقون عـلى ملوكهم اسـم هلال مثل نور الله هلال، صـنع الله هلال، فضل الله هلال، وقد أقاموا فى صحراء بلاد المغرب.

دولة آل افاريقة

إنهم جنود عظام وكثير من أثريائهم يسكنون المدن، ويحكمونها ويسمون أفريقه وفى الجمع أفاريقه.

دولة ماى بورنو

إنهم ملوك سُنّيون حَنْبَلِيون، وقوم مسلمون موحدون، يسمون ملكهم ماى مثل ماى سنجال وماى عباس وماى صادق، وماى بمعنى سـلطان، لا سكة لهم وبدلاً من النقود يستخدمون الخرز، ويرسلونه إلى مصر ويـأخذون الذهب، وملوكهم ونساؤهم بدلاً من التزين باللؤلؤ يتزينون بالخرز، وفى كل عام يصل الحجاج فى ثمانية أشهر إلى مصر عن طريق صحراء الأشراف، إلا أنهم يستولون على الذهب المصرى، وقد تيسر لى أن ألتقى بالملك ماى سـنجال الدين ولكى يمضـى إلى الحج كان معه ألف جمـل تحمل الذهب، وكان قد ستر وجهه كأنه امرأة محتشمة.

دولة آفنو

هم سبع قبائل قبيلة منهم مسلمة، لـيس لديهم سكة، ولكن لهم خطبة، إنهم سمر

البشرة، وغيرهم لا يعرفون ما الضلال، وبما أنهم ليسوا على المذهب السنى يأسرون غيرهم فى الحرب ويبيعون أسراهم فى أوجله ومصر، وفى هذه الجزيرة كثير من الملوك إلا أنى لم أشاهدهم ولكنى حسب ما اتصل بعلمى بقدر ما على وجه الأرض ممن يلبسون ثيابًا فى جزيرة مصر عرايا.

دولة ولاية الجزائر

كانوا ملوكًا أصحاب سكة تحت حكم الأسبان، وفى عام ( )[1] فتح السلطان سليمان القانونى بلادهم على يد ( )[2] باشا وهى الآن ولاية ولها وزارة ولهم سكة وخطبة، ولهم اثنا عشر ألف جندى مسلحون بالبنادق.

دولة ولاية تونس

مملكة لها سكة وتحت حكم الأسبان، فتحها السلطان سليمان خان عام ( )[3] على يد دورقود باشا، وهى ولاية ذات وزارة والآن لها سكة وخطبة ولها عشرون ألف جندى.

دولة ولاية طرابلس المغرب

كانت كذلك تحت حكم أسبانيا، فتحها السلطان سليمان خان عام ( )[4] على يد (هالا) باشا، ولها عشرون ألف جندى يحاربون الكفار، ويمتصون دماءهم، ولديهم سكة وخطبة، ولما كانوا تحت حكم الأسبان كانت لهم كذلك مملكة وسكة، ومكتوب على سكتهم صاحب النصر صالح النصّر ضارب النصّر فى البر والبحر السلطان ابن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره. ولهم دنانير بلون المسك لأن الذهب كثير فى بلادهم، وتسمى إيالتهم المحلات، ومن عرب الصحراء من يسميها المحلات، وفى بعض المحلات يحتشد جند الجزائر وتونس وطرابلس ويخرج عرب المحلات للحرب لأن السلطان يغدق عليهم من ماله.

ولو كنت على معرفة بشيوخ هؤلاء العرب لذكرت أوصافهم وأخرجت فى ذلك

(١ : ٤) بياض بالأصل.

كتابًا. أما فـى سكة غيرهم من السلاطيـن فبعد أن يكتبوا عبـارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يكتبون أسماء كل ملك من ملوكهم، وتحت حكم السلاطين السالف ذكرهم وهم: آفنو، وبـورنو، وقرمانق، وبغه نسـكى، وفونج، كان لكل منـهم أسرى. ذلك أنهم إذا حاربوا أقـوامًا أوقعوا فى الأسر ذريتهم، ويَـخْصُونَ صبيانهم وكـان النخاسون يبيعونهم فى مصر.

وهكذا خلق الله فـى هذه البلاد قومًا لهم هـذا الشأن العجيب والسـلام ولقد ذكرنا السلاطين الـذين فى غرب مصر والآن نذكر الـسلاطين فى شرقها وإذا سـأل سائل عن حدودها الشرقية والغربية، فإن النيل يـجرى فى وسطها وغربها الجزائر وفاس ومرانكش والسودان. وفى شرقها الحبشة ودهلك وزيلع وبلاد الفونج.

دولة ملوك الدُّمْبيَه

الله أعلم بحدودها، إنهم قوم سمر البشرة، وهم عبدة النار، إن لهم مال قارون.

دولة آل حابية

وهم قوم كثير عددهم ويقال لملكهم (رداقاى) وهـم من ذرية كنعان بن نوح المرتدين، وهم قوم سمر البشـرة عبوس وجههم، يعبدون الشمس، والحـاصل أن فى بلاد الحبشة سبعين ملكًا، وكل منهم على مذهب، وكلهـم سمر البشرة، لأنهم يسكنون فى المنطقة الحارة، أما فى الناحية الغربية على شاطئ البحر يسكنها قوم بيض البشرة.

أوصاف دولة ملوك الحبشة

كانوا يـسمون ملكهـم فى الجاهلية نجـاشى، ولما ملكوا عـالمًا واسعًا من بعـد سموه سلطان، وفى عام (   )[1] فى عهد السلطان سليمان خان فتح اوزدمير باشا وهو من بقية جند الـسلطان الغورى الشراكسة مع الطـواشى سليمان باشا الحبشة بِـمَدَدٍ تلقاه من

---

(١) بياض بالأصل.

السلطان سليمان، والآن[1] كل عمائرهم وقلاعهم ومســاجدهم من خيراته، وهى بلاد لها سكة وخطبة ووزارة، وتحــت حكمهم أقوام مختلفة لغاتهم، ومنــهم من ليسوا على الإسلام لأنهم كثيراً ما يختلطون بالبرتغال الكفار، كما أنهم ترددوا فى الضلالة، وبذلك يكون كل من فى جِزيرة مصر قد تم ذكرهم، وسوف يذكر هؤلاء الملوك منذ الأزل إلى عهد الملوك المسيحيين.

* * *

(١) يعنى زمن المؤلف.

الفصل الثانى عشر
فى ذكر الملوك المشركين والضالين
الذين ساءت أحوالهم وأفعالهم

أول من كان له الملك على وجه هذه الأرض هو الملك كيومرث وهو من أبناء نوح ـ عليه السلام ـ الذين يعرفون بالعمالقة، والملوك الذين ظهروا فى عهد المسيح ـ عليه السلام ـ أربع طبقات وسلف ذكرهم، ومع كونه غير مناسب ذكروا، الطبقة الأولى الدارانيون والطبقة الثانية الكيانيون والطبقة الثالثة الأشكانيون، أما الطبقة الرابعة فالساسانيون ولكن الدارانيون لم تنقرض ذريتهم لأن النبى ﷺ دعى لهم بالدوام إلى يوم القيامة.

أولاً: دولة كسرى

من الدارانيين وجمعهم الأكاسرة، كان تحت حكمهم بغداد والكوفة ومصر والحسة والعجم وخراسان وإيران وتوران، وقد ولد النبى ﷺ فى عهد نوشروان العادل، ودعى له، وقد استولى الجنكيزيون على دولته، واستوطنوا جورجيا، والآن[1] فيها.

آل دَاديَان

فى جورجيا يدينون بالطاعة للعثمانيين، وعلى سبيل الهدية يقدمون مطبخ السلطان مائة ألف عنزة وصقر وفتيات حسان وفتيان، وهؤلاء الداديانيون كثرت ذريتهم للطف جوهم، وهؤلاء فى أرض جبلية كثيرة الغابات ينقسمون خمس طبقات:

الطبقة الأولى من آل الجورجيين

وهم يدينون بالطاعة لآل عثمان منذ حملة سفر باشا.

الطبقة الثانية آل آجق باش

وكانوا يطيعون حينًا ويتمردون حينًا آخر، وتعين أرض روم ولاتهم، وهم يسرقون الفتيات الحسان والشبان والأوانى الفضية الثمينة، ثم يتصالحون وهم قوم شجعان بواسل.

---

(١) يعنى زمن المؤلف.

الطبقة الثالثة آل كوريل

وهم أيضًا أربعون ألفًا ومطيعون.

الطبقة الرابعة آل شَوْشَاد

وكان لأنوشروان ولد يسمى شَوْشَاد. إنهم جند كثيرون إلا أنهم مطيعون.

الطبقة الخامسة آل مَكْرِل

تعوذهم الشجاعة ولا اعتبار لهم عند غيرهم من الشعوب، وهم رعية لا ملك لهم، وهم يسكنون المنطقة من قلعة قونية بالقرب من طرابزون إلى ساحل نهر جورروغ وساحل البحر الأسود، وهم جميعًا على الدين المسيحى، وانجيليون، ولهم أقطار ذات قلاع ومدن، وإن شاء الله سوف أكتب عنهم تفصيلاً من خلال سياحتى فى بلادهم عام ٥٦، ومنهم ابن لأنوشروان هو هورمز سكن سفح جبل البُرْز مع دادنيى العراق بعد استيلاء طوخطمش خان.

الطبقة السادسة: آل تاجدار. يعنى قوم المجر.

بالقرب من أكره التى انتصر بجانبها السلطان محمد صحراء خرشتوش قلعة تسمى (تورك اوردى) بمعنى جيش الترك وفيها سكنوا، وعندما سألتهم قالوا إننا منجار، أى أربعة أشخاص، ومنجار هو ما يسمى به ملوك تلك الديار، هذا ما يخبرون به، ويقولون إن منجار خطأ والصواب مجار. بعد ذلك انتقل تاجهم إلى قيصر النمسا، وقد فتح السلطان سليمان خان بلادهم وقلعتهم فوجد التاج هناك واحتفظ به فى خزانته، وبعد ذلك أهدى آل عثمان التاج إلى الملك فردينار وهو يشاهد الآن فى ديوان قيصر النمسا.

وسياحتى فى بلاد الألمان فى عام ٧٤ (أربعة وسبعين) سلف ذكرها، وليُعْلم أن أصل المجر جورجيون وجاءوا من بلاد العجم وأصبحوا المجر.

الطبقة السابعة ملك موسكو

وهم كذلك من أبناء أنو شيروان إلا أنهم أصبحوا يملكون دولة عظيمة إضافة إلى ما ملكوا فى العالم المحصول.

وقد حكموا فى إقلـيمين، إنهم إنجيليون، والآن إذا مات منهـم ملك يحضرون من جورجيا من الدادانيين ولى العهد ويجعلونه ملكًا عليهم ويلقبوه بالملك.

هذا ما قلناه عن ملوك التتـار عندما سافرنا إلى بلادهم عام ( )[1] وذكرناه فى موضعه، وفى ديار موسكو ثمانية وأربعون بان وثمانية عشر وزارة.

دولة بولندا

والبولـنديون كذلك مـن ذرية الدادياني ين وهم ستـة أجناس وهم جمـيعًا إنجيـليون ويسمون ملوكهم بان.

دولة جه

يسمون ملكهم جهدام، ولهم سكة وهم قوم أشداء.

دولة مجار أردل

ينحدر نسبهم من مـنوجهر، يسمون ملكهم يورام، كما يسمـونه (بتلان غُور) بمعنى الملك الأعـظم، ولكن عـوام الناس يسـمونه قرال وهـم يدينون بـالطاعة لآل عـثمان، ومملكتهم أربعة أقسام: قسم يسمى حايد أوشاخ، ومنهم أردل، منهم قوم صاز، ومنهم سيكل، ورعاياهم الأفلاق ولهم سكة، ويسكـون عملتهم فى قلعة (ازدر) ولهم ولايات معمورة وقد غزوت هذه البلاد مراراً وكتبت عنهم.

دولة المجر الوسطى

ينحدر نسبهم كذلك من منوجهر، إذ إن فى لـغتهم ألفاظ فارسية كثيرة، ولهم قلاع هى فُلَكْ وسضمَـنْدِرَه وكَرْمَات وسِجَان، أقطارهم قلـيلة، لكنهم أبطال كفـار وسكتهم تسمى زُولَطَة. إنهم يتبعون النمسا ويسمون ملكهم بِلَطْنُوش.

دولة إسفاح

قطر عـظيم على سـاحل البحـر المحيط، أهله كـفرة، ورعاياهم مـليون من التتار المهاجرين، ولم يعترفوا بجند سوى جنـدهم، ولقب ملكهم (انْبراسفَان) و (انبرردال)،

---

(١) بياض بالأصل.

لهم سكة وهم كفار شداد، ولا طاقة لقيصر النمسا بهم، وفى حقبة من الزمن هى مائة وعشرون عامًا حكمهم كثير من الملوك، وهم إلى الآن يخوضون الحروب.

بمعنى دولة هولندا العتيقة

يسمونها فلمنك العتيقة وفيامنك، وتقع فى الجانب الشرقى من نهاية خليج متشعب من البحر المحيط، وعليهم ملك مملكته بلا نهاية، ولقب ملوكهم (مستردام) بمعنى أعلى الناس قدرًا، ولهم ثلاثة آلاف سفينة ولا وجود فى بلادهم لأشجار كبيرة، ولذلك بنى الإنجليز لهم سفنهم ولهم سكة وعملتهم الذهب والريال الامبراطورى وحاضرة ملكهم امستردام وقد بلغناها عام (   )[1] وكتبنا عنها.

دولة الدانيمارك

يسمون ملكهم (انكور) وبلادهم كذلك على ساحل البحر المحيط، وجزيرة الإنجليز قبالتهم وأرضهم متراحبة الأرجاء، وهم سبع ممالك تبع النمسا. وسكتهم من الذهب والريال الألمانى الإمبراطورى، وحاضرة ملكهم (   )[2].

دولة دونقارقيز

لقب ملكهم (دونقارقه)، هذا اللقب خاص بالملوك وهو بمعنى سلطان، والإفكل ملك له اسمه وقد مضيت إليها فى شهر رمضان من عام أربعة وسبعين، وملكهم يشترك فى الحكم مع أختين، وحاضرة ملكهم مدينة لونجاط وهى بلد بها سبعة وزراء للملك لأن قبالتها جزيرة الإنجليز الكبرى، وميناء أمريكا والأمريكيون فيها كثير، ويستوردون الذهب وشجر أمريكا وعظم السمك الذى يشبه قوس قزح ويدفع عليه ضريبة، وينال كل من الملوك السبعة نصيبه. ولونجاط مدينة لها مساحة اسطنبول، وحولها حدائق ولذلك تبدو مدينة كبيرة ولكنها ليست كاسطنبول تمامًا. وما أطيب جوها وقد سلف أن وصفتها بالتفصيل، وعلى سكتها صورة بنتين إحداهما بجانب الأخرى، ولهم نوع من السفن تحوى سبعة طوابق من المخازن وثلاثة من مدافع من

(١ ، ٢) بياض بالأصل.

البرونز، وثلاثة آلاف رجل وألف بحار ماهر ويبحرون إلى الهند والصين وأمريكا.

ولدونقارقة سفن بها أسواق وطواحين تديرها الخيل، وحمامات، وفى مؤخرتها حديقة وهى تستحق المشاهدة.

دولة النمسا

ويسمونها ملك ألمانيا ولكن سائر ملوكها لهم ألقابهم الخاصة بهم ويسمونهم قيصر النمسا وإمبراطورها ومعنى ذلك ملك الملوك، وقد سلف ذكر ذلك، هم شعب كبير العدد ولهم جيش لا حد له وهم ملوك من ألف وسبعة أعوام ولهم ألف وسبعمائة قلعة لكل منها سد منيع.

وحاضرتهم (بج، وبراق) وعلى سكتهم صورة ملوكهم الخاصة، وهم من نسل الملك «هوشنك» وكان تاجهم على الدوام فى قلعة (بوجن) ومنذ أن فتح العثمانيون قلعة (أويوار) جاءوا بالتاج من قلعة يوجن إلى قلعة براق، وقد أوردت أوصافهم عندما زرت بلادهم عام سبعة وأربعين.

دولة الإنجليز

من ألقاب ملكهم أيرلانده، وهو ملك عظيم صاحب سكة، إلا أنى لم أبلغ ولاياتهم، ولم يقوموا بثورة طوال تاريخهم، وهم يعيشون على التجارة، وكل حكومتهم ثلاث جزر عظيمة وحاضرة ملكهم لونده وهى مدينة عظيمة على نهر لونده، وتقع فى جزيرة مساحتها ثمانية آلاف ميل، ليس للإنجليز حكم فى شواطئ ألمانيا.

دولة المجر الصغرى

تتبع قيصر النمسا، ثاروا غير مرة على النمسا، وتبعوا العثمانيين ومعظم مملكتهم فى حوزة آل عثمان، وهى بورغه وقنزه وأوسّك والبوا، واوبجوى وشكلوس. وقد بقوا الآن فى ولاية مصلوون ويسمون حاضرة ملكهم الفرادجق، وجقه طورنه، ويسمون ملوكهم هرسك. إنهم سبع طبقات كفار، ويذكر كل منهم باسمه، أولهم زرين أوغلى الذى سكن طورن وبكان أوغلى له ولاية (سلوون) و (نَيَاز أوغلى) وله

ولايات (صَمَّـاى)، و (شِوار أوغلى) وله ممـلكة (   )[1] وحدود نهر رابـه طريق شديدة الوعورة.

وفى عام أربعة وسبعـين انهزمت مع الوزير أحمد باشا كوبرلـى اوغلى وذلك بسبب سوء تدبير ودودوشقه اوغلى.

وسكتهم من البرونز وفى داخل ظادرَدَان وسـاحل خليج ونديك دودو شقستان أرض حجرية، أما فى عام (   )[2] كان أحمد باشا قائدًا علينا ولقد كتبتُ أنه أغار على تلك الولاية بجيش قـوامه ثمانون ألف مقاتل ولكن ثمة هرسـك آخر غير أن قدمى لم تطأ ولايته لذلك لم أكتب عنه.

دولة البندقية وهى البلاء الأكبر

يسـمون ملوكـهم بج برم وهـم أربعون عاهـلاً، ومن هؤلاء الأربعـين سبعـة أمراء (بكوات) واحد مـنهم سلطان يـحكم، وعاصمتهـم البندقية فمـعظم مدنهم مـع مدننا منغصات، ومصالحات، (. . . . .)[3] وإذا ما وقع أمر يتعارض مع الصلح جاءوا كأنهم الجرب الأفـرنجى وبقوا وتجولوا عشرين أو خـمسة وعشرين عامًا، إنـهم ملاعين وبقبول الصلح مع كوجيله يأتون بالطاعون الأكبر.

دولة دويره ونديك

ألقاب ملوكهم (جَارنًا) وهـم يستخدمون اللاتينية لغة، وعند ظهـور الدولة العثمانية تنبأوا بـأنهم سيفتحـون الدنيا، وقدموا إلـى السطان أورخان غازى فى بـروسه وعقدوا الصلح معه بناء علـى صلح من سبعين بندًا وجملة هذا العهـد مائة وأربعين بندًا، وهى تسجل كل ما فى الأرض وجميع ما فى السماء وما فى البحر فى دفاترهم.

وهم يبـرزون ما لديهم مـن أوامر سلطانـية وعهود مـلكية لسبعين ألف مـلك من القدماء. إلا أنهم لم ينكسوا عهدهم قط مع جميع الملوك فى جميع الأزمنة وقلعة دوبرة ونه ديك تقع بـالقرب من قلعة نووه فى إقلـيم الهرسك، وهى ولاية صغيرة وقـبالتهم خليج البندقية.

(١ : ٣) بياض بالأصل.

ولاية التفاحة الحمراء أو دولة البابا

ويسمون ملوكهم (بابا). وهم يتولون الفُتْيا نيابة عن عيسى ـ عليه السلام ـ فى بلاد المسيحيين ويسجد لهم كل ما فى البلاد المسيحية ويجلونهم، والعجيب أن رياضة الامتناع عن الطعام عندهم هى القديد المحض الذى يسد الرمق ويمسك الروح على الجسد، وبما أنهم على ذلك فإن الواحد منهم يُعمر مائتى عام، والبابا الذى كان على عهد مراد الرابع ثبت أنه مات وله من العمر ثلاثمائة عام، «يا اسفًا له فقد بقى عاجزًا فى حبالة الجهل». ولكن فى رأى ليس هذا مستبعدًا، فقد رأينا فى صحراء القبجاق من الناس من عاش مائتين ومائتين وخمسين وثلاثمائة عام وهم يركبون الخيل وينزلون عنها، ومن لا يعرف رياضة الامتناع عن الطعام يعيش طويلاً هكذا.

دولة فرنسا

يسمون ملوكهم (الملك العظيم) وملكهم عظيم وهو يمت بصلة القرابة إلى آل عثمان وهو يحكم على ساحل البحر الأبيض، وما على ساحل البحر المحيط. وحاضرة ملكهم مدينة باريس، إنهم يملكون آلاف القلاع والسفن.

دولة جنِوز

يسمون ملوكهم (جنوان) وولاياتهم قليلة، يعيشون على التجارة وهم كفار، والآن يعيشون فى سلام مع آل عثمان. وبينما كان فى اسطنبول سبعة سفراء للملوك أصبحوا به ثمانية.

دولة إغرا ندورقه

ملك آخر من الفرنجة لشعب مسيحى يسكن ساحر البحر الأبيض، وعاصمتهم مدينة الأغورنه، ولا تبلغ دولتهم مبلغ فرنسا، ويعيشون على التجارة فى البر والبحر، ويسمون ملوكهم (اغراندو) ولهم جيش وسفن.

دولة البرتغال

يسمون ملوكهم (. . . . . . .)[١] ولم يقبلوا الصلح مع أحد على طول الزمان، وهم متكبرون متـجبرون كفرة، إلا أنّهم مسيحيـون ومذهبهم لا كاثوليكى ولا بـروتستانتى، وحاضرة ملكهم هى مدينة (. . . .)[٢] بالقرب من مضيق سبـتة وساحل البحر المحيط كله فى حوزتهم، وقد ملكوا فى الهند سبعـمائة جزيرة ووصلوا الصين والصين الكبرى وختا وختنه، وقـد طاف البرتغال حول هذه الجزيرة آلاف المرات وأكثـرهم من الكفار. دانت لهم الهند.

مملكة الأفلاق

كان لهـــم دولـة عظيـمة فى سالــف الزمـان، وخضـعـوا لآل عثمـــان وهـم الآن يــؤدون الخـراج، وولاياتهـم على ساحل نهر الطونة ولهم حاضرتين وهما مدن بُوقْرَش وتَرْقُوِوش.

دولة بوغدان

كانت كذلك دولة عظيــمة وقد استولى السلطان با يزيد ولى عـلى آق كرمان وقلعة كلى مـنهم فى بدايـة حكمه؛ فأدوا الخـراج له وكم من ملـك فى روملى بلاد الـكفر، وانقرضت دولتهم بقيام الدولة العثمانـية وضُمَّتْ ولاياتهم إلى سائر الولايات الإسلامية مثل: اسلوون وقوروول وطوت وكروات والصرب والبلـغار واللاتين والهرسك، ووينيق واللاز وحيلاز، وقـزاق عاق وروس منحوس والبـانيا ونابود، ورروم والمورة ودوجـاقونا روم وررومانيا ولازرروم.

هذه الدول الحقيـرة من الدول الملكية اضمحلـت، وبقيت كل منهما فـى ظل حماية ملك، ولكن حـمداً لله فقد أصبحت الكـروا والبلغار والصرب ووويـنـوق والألبان من رعايا الدولة العثمانية.

(١ ، ٢) بياض بالأصل.

دولة بلاد الجركس

ليست دولة ملكية ولكن لهم أمراء فيما بينهم، ويقال لهم مرزه وكلهم رؤساء عشائر، أولاً الجركس فى جزيرة طمان: وهم يطيعون أميرهم وفى الطرف المقابل لنهر قوبان الجركس الشغا، وهم كذلك من الأتباع، بعدهم عصاة الشغا جركس الكبار، منهم كذلك جركس الزانا، ثم والية ماما لوقه حاتوقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس بولتقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس البوزدوق عصاة متمردون، وولاية جراكسة بَسْنِى عصاة، وهم جميعًا جنود شجعان، ثم ولاية جراكسة أدمى أعداء البشر، وولاية جراكسة تقــقو قوم شداد، وجراكسة ولاية قبارتى يسمون أميرهم طاوسطان، ويسمون بكواتهم مرزا ولهم أربعون ألف جندى، أما أنا ففى عام ألف وسبعة وسبعين مضيت مع محمد كراى خان أوغلى وسلطان كراى إلى مدينة (صُهومة)، والحمد لله أنه فى هذا العام المبارك شرف كل جراكسة قبارتى بالإسلام، وأهلكوا كل ما لهم من خنازير وطرحوها فى نهر جَنْجكه، ووسعوا المساجد وقد صَعّدت أنا الآذان وأنا أول من أمّ المصلين، ولكن غير الجراكسة ليسوا مقيدين بمذهب خاص، وإذا قلت إنهم كفرة قتلوك وإذا قلت إنهم مسلمون فلا طاعة ولا عبادة لهم، إنهم قوم أمرهم عجاب وسوف يشرفون باعتناق الإسلام إن شاء الله.

وجراكسة ولاية طاوسطان من رعايا الملك شامخال خان ملك داغستان وهؤلاء القوم يسكنون سفح جبل البُرْز ومن القرم إلى هذه المحلة سبع وتسعون قناق. وفى الجانب الشمالى من بلاد الجركس فى صحراء القبجاق أربعة ملوك (من القالمق).

ذكر الحكام الذين سكنوا صحراء القبجاق وغيرها

دولة طيسى شاه

فى الجانب الشرقى من صحراء هيهات بجانب قلعة الترك عبر مليون من القلمق نهر اديلى إلى القبجاق، وسكنوا هناك، وهم لا يعرفون الكفر والضلالة والحشر والنشر والآيات والأحاديث والجنة والنار ولا يكترثون بالدنيا، إنهم يأكلون لحم كل ذى روح فى هذا العالم، ويلبسون الجلود ولا يشربون الماء وما أكلوا الخبز، ولا يصيبهم الطاعون

وذات الجنب والحمى والأوجاع، ولا يعرفون الشيخوخة إنهم يشربون البوزة والقمز ولبن الفرس، ومنهم من يُعمر ثلاثمائة عام، ومائة ومائة وخمسون عامًا أدنى ما يعيشون. ولما عدت من داغستان كتبت عنها تفصيلاً.

دولة مونجاق شاه ابن طيسى شاه

إنهم كذلك مليون من القَلْمَق، وهم كذلك لا يعرفون ما الإسلام وما الإيمان وما الكفر، إلا أنهم شجعان أشداء.

دولة قوبا قلمق

إنهم مائة ألف أسرة من البدو يسكنون جانب نهر قوبان، وأتيحت الفرصة لأرسلان بك ونوروز بك اللذين يسكنان بلاد الجركس للإغارة على النوغايين وأسروا منهم، والآن فى قلمق خمسون ألف من مسلمى النوغاى فى الأسر.

دولة جاقار قالمق

إنها فى الطرف الآخر من نهر اديلى، وهم خمسمائة ألف، إلا أنى لم أعبر نهر اديلى إلى ناحيتهم ولم أر هذه الطائفة إلا أن القالمق يخافونهم كثيرًا.

دولة كوك دلن قالمق

كانوا خمسمائة ألف لعين وهم يسكنون المنطقة بين نهر اديلى ونهر جايق، كانوا أكثر سحرًا من القالمق الآخرين.

دولة اورومبت قالمق

كانوا كذلك خمسمائة ألف لعين وكانوا يسكنون ساحل نهر اديلى والنغايون فيهم لا يحصون كثرة ديو غيرى نوغاى نقل ايدرلر.

دولة صقار قالمق

ثمانمائة ألف لعين كانوا يسكنون القبجاق الكبرى، وهذه الطائفة جميعًا تسكن خيامًا على مركبات، وهذه الطائفة تسكن فى كل يوم أرضًا معشوشبة ذات ماء، ولهؤلاء الملاعين سبعة عشر ملكًا وهؤلاء يعبرون إلى الصين والماصين والختا وختنه وفغفور والبلغار إلى العالم المظلم من أرضهم المتجمدة، وفى الجانب الآخر فى زعمهم أنهم

يسكنون الدنيا البيضاء، وأن ماء الحياة فيها، ويقولون: نمضى إليها لنعيش أبداً، وجميع أوصافهم مذكورة من قبل، ومما لا ريب فيه أن بنى الأصفر منهم اللهم عافنا.

ذكر أحوال الأبخاز[1] الضالين

يسكنون ساحل البحر الأسود، جميعهم ( )[2]، إنهم عشائر متناحرة متحاربة، لا دين لهم ولا كتاب، ولا يعرفون ما الحشر ولا النشر وهم فى ذلك يشبهون الجراكسة ولهم منازعات فى الشمال مع الجركس، وفى الأحايين يحاربون الجركس والمكرل، والمكرل يسكنون شرقهم ويفصل بينهم نهر فاشه وأصل هؤلاء الانجاز والجراكسة عرب، وقد ذكرناهم آنفًا، والجراكسة والانجاز فى مصر أصلهم من هذه الأرجاء الذين نذكرهم عشيرة عشيرة.

أولاً ولاية ابخاز الجاج المشاعة مع مكرلستان

يتكلمون اللغة المكرلية ويسمون أمراءهم جاجه، إنهم عشرة آلاف. ومنهم:

ولاية ابخاز ارلان

ميناؤهم لاجيفار، وهؤلاء عشرة آلاف شجاع. ومنهم:

ولاية ابخاز جندا

ميناؤهم قَاقِر، ولهم أمراء، وهم خمسة عشر ألفًا، ولا وجود لحسناء من النساء ولا وسيم من الرجال منهم، ويسمونهم (داغ جاندالرى) أى جاندالو الجبل، وهم على مسيرة ثلاثة قناق غربًا. ومنهم:

ولاية ابخاز جندا الكبار

إنهم خمس وعشرون قرية، وخمسة عشر ألف جندى، لهم ميناء وخلف جبال انجازيا منطقة يسكنها جراكسة المامشوخ، وكانوا يتحاربون مع الانجاز فى اتصال ودوام.

---

(١) الأبخاز هم: شعب الاباظة، أو الاباظية.

(٢) بياض بالأصل.

ولاية ابخاز كج

وهم قوم فى حدود الألفين، لهم عسكر كثير من الفرسان، وهم مشهورون لذلك بالفروسية.

ولاية ابخاز ارت

وهم ثلاثون ألفًا، ولرجالهم الشهرة باللصوصية، ويسمون ميناءهم كبوس ولهم ميناء لطيف، وكثيراً ما تشتو سفن اسطنبول هناك، وفى جبل ارتلر:

ولاية ابخاز صدشه

ليسوا جراكسة ولا من الانجار تمامًا، إنهم عشرة آلاف وسيدى أحمد باشا وصل إلى ولايتهم. وإذا ما سألتهم أهم من الأبخاز؟ أقسموا أنهم من رجال الصدشه، وهم على مسيرة ثلاثة (قوناق) على الجانب الغربى لبحيرة آبى.

ولاية ابخاز قامش

لهم أمراء، وهم عشرة آلاف شجاع، وميناؤهم لا يستخدم كثيرًا لأنهم عصاة عتاة، إلا أن المسلمين الذين يأتون من مصر وبلاد الترك كثيرون وديارهم غينمة وهى ثلاثة قوناق.

ولاية ابخاز سوجه

لهم أمراء. وعشرة آلاف جندى، وميناؤهم مستخدم كثيراً، وهى مواجهة لكفه على ٢ قوناق منها.

ولاية جراكسة البوزدوق

لهم أمراء وموانئ وهم عشرة آلاف، ولقد أخذ منكلى كِراى خان من هؤلاء القوم عشرة آلاف رجل لمحاربة ازدرخان، واستطونوا بلاد الجركس ومن ميناء البوزدوق حتى ساحل البحر الأسود ٢ قوناق.

ولاية عشيرة قوتاس الأبخاز

ولهم أمراء وموانئ وسبعة آلاف جندى، ومن ميناء أنابا بالقرب من طمان، قناق إلى الأبخاز، وهؤلاء القوم مشهورون بطاعتهم لأن فيهم على الدوام جند القرم وطمان، وفى هذا الموضع كذلك اثنا عشر قومًا من الأبخاز. حقًا إن نساؤهم حسان ورجالهم

مشهورون بالشجاعة، إنهم قوم شجعان وهم فى الأصل عرب، وفى عهد خلافة عمر بن الخطاب كانت هذه الديار لكفار الجنويز وقد أعلنوا العصيان على بلاد العرب، وقدموا إلى جنويز واتخذوها ملجأ، وسكنوا تلك الديار، وهم يتكلمون اللغة الأبخازية، لكن فى جبال الأبخار اثنتى عشرة عشيرة ولكن لم يكن لنا فى بلادهم سياحة، إلا أننا سمعنا بأسمائهم واختلطنا برجالهم.

أولاً: عشيرة بوسُوخُو بالقرب من جبال مكرل، وكذلك عشيرة آج جبسى وعشيرة بَسْلَبْ ومكله، وعشيرة آيبغا، وعشيرة والاقرِبْشْ وعشيرة جما قورش، وعشيرة ماجا، وعشيرة بانجارش، وحكامهم كذلك أمراء، ولكل قبيلة بين عشرة واثنى عشرة، وخمسة عشر ألفًا من الجند، وبما أن أرضهم وعرة وكثيفة الغابات فهم لصوص ولا طاقة للأبخار ولا الشركس بهم.

وبلاد الجركس هى التى تمد مصر بجنودها، إنهم من أهل الضلال وإن بدوا مسلمين، وإذا سألن الواحد منهم: مَن أنت؟ ألح على قوله إنه مسلم. وانتسب إلى الإسلام، ولذلك من شرف منهم بالإسلام يعد مسلمًا غالٍ، فإذا وجد فى الأبخاز والجركس كافر قتلوه، وهم على الدوام بغاة عتاة.

ذكر أحوال الروس المنحوسين
أى القزاق العققة

تحت حكم ملوك له وموسكو سبعون فرقة من الملاعين وهم قوم استولوا على العالم. وهم تارة يتبعون خان التتار وتارة أخرى من موسكو إلى بولندا وثالثة من بولندا إلى ملوك قرانلق.

وأحيانًا يشقون عصا الطاعة وهم بخمسمائة سفينة يغيرون على سواحل البحر الأسود الأربعة ناهبين سالبين، ثم يعودون بهذه السفن إلى بلادهم المنحوسة، أولاً فى جانب نهر اورزو قَطْمان قرداش قراق، ثم خطمان دور زنقه وخطمان سركه، وخطمان إخْمِل نج، وخَطْمَان بِرَابَاش وخطمان أَنْدرِيَا وخطمان شَرَه مَتْ، وخطمان زابور وسقه، وخطمان خَرنَسْتِيان، وخطمان أومان، وخطمان كورلو، وخطمان جَهْرِل، وكم من

خطَمَان فى تلك القبيلة الكفارة.

ولكن فى عام واحد وخمسين أغار عليها كيراى خان واستباحها وحررها من الكفار.

وهؤلاء يتبعون بولندا أما من يتبعون موسكو فهم سبعون خطمان وهم على ساحل نهر تَنْ الذى يجرى تحت قلعة اراق.

أولاً: تن خطمانى هو رئيس سبعون خطمان، ويسمون قلاعهم بأسماء غيرهم، وجميع قلاعهم على ضفة نهر تن من الخشب وجركس كرمن ومنجه كرمن وسَوَاكرْمَنْ وإسُوركرِمْن ومُورِق كِرمن وتوقاى كرِمن وبراص كِرْمَن والحاصل أنه من ساحل نهر تن إلى أرَاق بمسيرة ثلاثة أشهر سبعون خطمان، ويعرفون بالكِرمَنْلَر وهم القزاق العققة.

وقد انتهى ذكر هؤلاء الملاعين فى هذا الموضع.

أما كفار الروم واليهود والقبط فكل منهم رعية لمملكة، خاصة إن الروم والأرمن ليس لهم مستقر فى بلاد العثمانيين، إنهم من المسيحيين، وكان لهم مَلك فى دمشق وحلب وأنطاكية.

دولة آل قيصر الروم

وجمع قيصر قياصرة، والملك هرقل أطولهم عمرًا، وقد استولى على مصر كذلك، لقد كتبنا ما يختص بذلك فى تلك البلاد فالمسلمون والمسيحيون جميعًا يريدون القدس ومصر.

دولة القبط

كانت لهم ملك مصر ويسمون ملوكها قبابطة، دامت دولتهم أربعمائة عام، من طبقاتهم طبقة تتألف من سبع وأربعين، ثم دالت دولتهم وانضمت دولتهم إلى دولة العمالقة ثلاثمائة عام، ثم عادت دولة القبابطة ودامت دولتهم الثانية مائة وثمانية وثمانين عامًا وعددهم (   )[1].

أما فى عهد المسيح عيسى ويحيى وزكريا فكانت دولة:

(١) بياض بالأصل.

اليونان

اعتنقوا المسيحية ومنهم كذلك.

دولة البطالسة

ومنهم ثمانية من الحكماء، ويسمون الواحد منهم بطليموس الحكيم؛ ولذلك يُعرفون بالبطالسة وجملتهم أربعة عشر ملكًا إلا أنهم كانوا رجالاً لهم عقل أرسطو، حكموا مائتين وسبعة أعوام وأفلاطون وأبوقراط وسقراط وأرسطاليس وفيثاغورث وفيلقوس فيلسوف جميعهم من اليونانيين كما أن الإسكندر يونانى، ويسمون الملك فى عهده شهريار، وفى ذلك الزمان ملك اليونانيون الدنيا وحكموا من المشارق إلى المغارب، أما مَنْ حكموا الدنيا من أقصاها إلى أقصاها فأربعة، اثنان منهم مسلمان والآخران كافران، أما المسلمان فهما سليمان ـ عليه السلام ـ والإسكندر، ومن اليونانيين يانقو بن ماديان وبخت نصّر، وهذان ملكا الأرض من أقصاها إلى أقصاها. والآن من الكفار والمؤرخين من ذكروا أن الأرض على صورة ثور أسود، وقالوا إن عدد الكفار ممن يلبسون القبعات السود عددهم بعدد الشعرات السود.

ولله الحمد فإن أمة محمد بفضل معجزاته وبركاته قد شتتت شمل الكفار وأذهبت ريحهم، وقد ظهر بعد ذلك سلاطين آل عثمان، وبعدما ذكرنا من شعوب النصارى ولهم مائة وأربعون دولة ومن كان لهم الملك فيها وبعد دولة الخطمانيين ظهر آل عثمان، ونذكر كل من كان لهم الملك بعد هؤلاء الملوك.

* * *

الفصل الثالث عشر

ظهور دولة آل عثمان

ولقد ذكر المؤرخون الترك والجهابذة ما أسلفنا ذكره من دول وملوك سكنوا هذه الأرض، ووقع كثير من الخلاف بين الأمم، أما الترك ومن ملكوا أمرهم بأمر الله من ذرية عيص بن إسحاق ثم انتهوا إلى يافث ثم إلى نوح - عليه السلام - ومن أرومتهم الطاهرة ظهر السلاجقة أول من وطأت قدمهم بلاد الترك وفى عام ٤٤٧ أربعمائة وسبعة وأربعين اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبًا وقالبًا واستولوا على ديار ملاطيا وقيصرية وعلائية وأنطاكية وقونية وأصبحوا ملوكًا مستقلين وظهروا من بلاد ما وراء النهر واقتضت مشيئة الله أن يغادر سليمان شاه وأرطغرل وهم أجداد العثمانيين بلدهم ماهان خوفًا من بطش المغول وقدموا إلى مدينة أخلاط وسكنوها، وفى عام (   )[1] ولما كانوا فى اتجاههم غربًا إلى ساحل نهر مراد غرق رئيسهم سليمان شاه وهو يغتسل فى النهر عند قلعة جعبر، وهناك دفن. وانطلق أرطغرل مع جميع رجاله إلى علاء الدين السلجوقى، وإذ هو فى الطريق إليه صعد ربوة وبينما هو ينظر إلى سهل قونية وقعت عينه على جيشين كأنهما بحران يقتتلان، وكانت الغلبة لجيش التتار على جيش السلاجقة وعلى رءوس رجاله بيض العمائم فقال أرطغرل: لنبذل لهم العون فما نحن من التتار. فرفع لواءًا محمديًا أبيض وتعقبه التتار بجميع جنودهم وأعد لهم كمينًا فترددوا فيه، فكان فرارهم بديلاً من قرارهم فعادت الحياة إلى السلاجقة. فلم ينج أحد من التتار، وقدم علاء الدين مدينة قونية مظفرًا فخلع على أرطغرل خلعًا فاخرة ومنحه رتبة أمير الجناح الأيمن وولاه على بورسة، وقد غنم أرطغرل غنائم كثيرة من مناطق «بيله جك» و«ايلى باط» و«اينه كول» و«يلق ابادو» وغيرها من المناطق المجاورة لولاية بورسة، وقدم بهذه الغنائم إلى السلطان علاء الدين، كما غنم كثيرًا من الجند بمال الغزوات وأصبح علاء الدين على تعاقب الأيام ملكًا عظيمًا بعون من أرطغرل وكان السلاجقة يتلقبون بالسلاطين، ولما قدم الكفار إلى اوسكدار لم يستطيعوا رفع رأسهم

(١) بياض بالأصل.

لأنهم جميعًا تحت حكمه، وله سبعون من أصحاب الطبل والعلم و(   )[1] أمير لواء وجيشًا. أما أمراء اللواء الذين كانوا للسلطان علاء الدين فهم، آل ذو القادرية فى مرعش والرمضانية فى أدنه والملك الغازى الدانشمندى فى سيواس، وآل (   )[2] فى قسطمونى، وآل فرهاد فى أماسية وآل كرميان فى كوتاهية وآل سبحان فى أنقره وآل صادحان فى ولاية صارصان، وإمارة آل عماد فى يد العماد، وإمارة صونقور فى يد أمير صونقور وإمارة كسكن فى يد الكسكان، وآل تكه فى ولاية تكه والحميديين فى ولاية حميد وإمارة منتشة فى يد آل منتشه وآل قرمان فى ولاية ولارنده وإمارة آل أيدين فى حوزة آل أيدين والأمير أرطغرل فى يلق اباد وفى عام ٦٨١ فى مدينة قونية توفى سلطان العلماء بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى عهد السلطان علاء الدين، وخلفه ابنه مولانا جلال الدين الرومى، ولقد منح الأمراء السالف ذكرهم لقب سلطان العلماء وسوف يذكر كل منهم فى موضعه ومضى السلطان علاء الدين بجيش عظيم صوب أرض روم وفى موضع يسمى فناده أصبح حزينًا وبينما كان يرقد عليلاً دس السم له ابنه غياث الدين تهالكًا منه على طلب الدنيا، وفى هذا الموضع مزق الجند غياث الدين تمزيقًا، فحملوا نعشهما إلى قونية ودفنوهما داخل القلعة، ودالت دولة السلاجقة بعد ذلك بستة وعشرين عامًا وعدد سلاطينهم أربعة عشر، فاجتمع جميع علماء الروم وتشاوروا فى الأمر، فولوا الخلافة أرطغرل وبايعوه، ولما عاد من غزوة بورسة مات جريحًا ودفن فى قصبة تسمى سكوت. كما استشهد صاووجى بك ابن أورخان فى غزوة طومالج ودفن كذلك إلى جوار أرطغرل، وتشاور العلماء ثانية فجعلوا عثمان الصغير بن أرطغرل خليفة مستقلاً فى رأس شهر سبعة، وبايعه السلاجقة من أعماق قلوبهم، كانت ولادته سنة ٦٥٦هـ، وتولى الحكم سنة ٦٩٩، ودامت سلطنته ست وعشرين سنة وتوفى سنة ٧٢٦ وعمره ٦٩ عامًا. ثم أصبح أورخان بك خليفة بعده، ودامت له السلطنة خمسًا وثلاثين سنة.

(١، ٢) بياض بالأصل.

وسليمان باشا ابن أورخان، وقره مرُسل بك، واجه يعقوب بك مع أربعين من الأعيان بالقرب من قبو داغى فى البحر الأبيض من موضع يسمى بابسكى خرجوا على رمثهم مع خيلهم صوب الروملى، ولما بلغوا (غاليبولى) ركبوا خيولهم وأغاروا عليها، وتتقدم أفواج الجند يومًا بعد يوم ففتحت قلعة (غاليبولى) وضرب سليمان الغازى باب القلعة بيده، وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، فتحت فى عام سبعمائة وواحد وستين ٧٦١، وأصبحت القلعة فى يدهم ووزعت الغنائم على غزاة المسلمين وتزوجوا ما أسروا من نساء، وولدن لهم.

وكان فى المنطقة المعروفة بالروملى من الكفار اثنتا عشرة ملة مثل الروم والبلغار وأفلاق الصرب ونيق والكروات واللاتين والبوشناق واللاز، وقد تخربت ديارهم ولم يستطيعوا فتح أعينهم وجمعوا من الغنائم ما جمعوا إلى أن وصلوا إلى نهر الطونه فغنموا الأموال الطائلة وأسروا منهم فتيات وفتية وأعملوا السيف فى آبائهم الكفار، وضيقّوا عليهم الخناق فى ديارهم، وفتحوا آلافًا من قراهم وقصباتهم ومدنهم. وفى موضع يسمى (بولاير) سقط سليمان باشا عن فرسه وتدحرج على الأرض فرمحه الفرس فى رأسه؛ فمات. وهو مدفون فى قبر فى ذلك الموضع المسمى (بولاير)، وفى ذلك الموضع جامع وتكية ومبرة، وكانت وفاته عام (٧٦٠).

وأول من مضى إلى الروم هو سليمان باشا هذا وعاش أورخان ثلاثة وثمانين عامًا واعتلى العرش عام ٧٢٩ سبعمائة وتسعة وعشرين. أما مولده فكان فى عام ستمائة وثمانية وسبعين وتوفى عام سبعمائة وواحد وستين (٧٦١). وتلقب أخوه (خدا وندكار غازى) بالبك، وعاش خمسة وستين عامًا، وكان مولده عام ٧٢٧ وحكم واحدًا وثلاثين سنة، فتح أدرنة. وفى حرب قوسوفا قام من بين قتلى الكفار من طعنه بخنجر فاستشهد. كما قُتل قاتله فى الموضع نفسه، ثم نقل جثمان مراد خان إلى مدينة بروسة ودفن فى موضع يسمى (اسكى قبليجه)، ثم خلفه ابنه يلدريم خان الغازى فى عام (٧٩٢)، ومولده فى عام ٧٤٨ واعتلى العرش عام ٧٩٢، حكم ستة عشر عامًا. وكان شجاعًا مقدامًا وفى عام واحد غادر بلاد الترك لقتال كفار الأفلاق وبغدان، ولذلك

سموه يلدريم خان أى الصاعقة، وإن كان عظيمًا إلا أنه عاش ستين عامًا، وكانت له السلطنة ستة عشر عامًا. أما سبب موته فهو انهزامه فى حربه مع تيمور، وبينما كان فى سجن تيمور مات محمومًا، فحملوا جثمانه إلى جامعه فى بروسة حيث دفن.

وآلت الخلافة من بعده إلى ابنه محمد خان جلبى فملك عام ٨٠٤، وكان مولده عام ٧٤٦ ومدة خلافته ثلاثون عامًا، وعُمّر (   )[١] سنة.

وجاء بعده ابنه مراد بك، وكان ذلك عام ٨٢٣ وحكم واحدًا وثلاثين عامًا، وعاش تسعة وأربعين سنة وتوفى عام ٨٥٥.

آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبو الفتح سلطان محمد خان عام ٨٥٥، حكم واحدًا وثلاثين عامًا، وتوفى فى عام ٨٨٦.

وتولى ابنه با يزيد خان الخلافة من بعده وكان مولده عام ٨٣٥ ودام حكمه إحدى وثلاثين سنة، ووفاته فى عام ٩٢٨ وعُمّر إحدى وتسعين سنة.

وجاء من بعده ولده سليم الأول الذى ولد عام ٨٧٣ وكان فى الثالثة والأربعين حينما اعتلى العرش، ومات سنة (٩٢٦) وحكم ثمانية أعوام، وعاش إحدى وخمسين سنة.

وكانت الخلافة من بعده لولده سليمان خان الذى ولد عام ٩٠٠، وحكم ثمانية وأربعين عامًا، عُمّر (   )[٢]، ثم كان الملك من بعده لسليم الثانى الذى ولد عام ٩٢٩ وجلس على عرش الدولة عام ٩٧٣ وحكم ثمانية أعوام، عاش اثنتين وخمسين سنة، وكانت وفاته عام ٩٨٢، ثم أصبح ولده مراد الثالث سلطانًا وكان قد ولد عام ٩٥٣، واعتلى عرش الدولة عام ٩٨٢ ودام حكمه إحدى وعشرين سنة وتوفى عام (   )[٣]، ثم أصبح ابنه محمد خان الثالث ملكًا من بعده الذى ولد عام ٩٧٦ وكانت ولادته فى مغنيسا. واعتلى العرش عام ألف وثلاثة فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأولى، حكم تسع سنين، وتوفى عام ألف واثنى عشر ١٠١٢، ثم كانت الخلافة من بعده لابنه أحمد خان وذلك فى عام ١٠١٢، ومولده فى مغنيسا،

(١ : ٣) بياض بالأصل.

وجلس على العرش فى الرابعة من عمره، فحل محل جده العظيم، وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر رجب عام ألف وثلاثة عشر ١٠١٣ ، ووافاه الأجل عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ ، حكم أربعة عشر سنة، عُمِّر ( )[١] سنة.

وجاء بعده أخوه مصطفى خان عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ وعزل فى الثالث والعشرين من شهر ذى القعدة، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر، ثم خلفه السلطان عثمان عام ١٠٢٧ ، حكم خمس سنوات واستشهد فى الثامن من شهر رجب عام ١٠٣١ ، ثم أصبح مصطفى خان خليفة فى غرة ربيع الأول من عام ١٠٣١، ثم عزل.

ثم كانت الخلافة للسلطان مراد الرابع ابن أحمد خان سنة ١٠٣٢ ، ودام حكمه سبعة عشر عامًا، وعاش ( )[٢] عامًا، ثم آلت السلطنة إلى إبراهيم خان بن أحمد خان عام ١٠٤٩ ، ودامت له السلطنة ( )[٣] عامًا، واستشهد عام ( )[٤]، وأصبح ابنه محمد الرابع سلطان آل عثمان عام ١٠٥٨ ، وحكم ( )[٥] عامًا، وعاش ( )[٦] عامًا، أدام الله سلطانه آمين يا معين.

وقد خص الله ـ تعالى ـ الدولة العثمانية برعايته. واستولوا على سبعين مملكة، وكان سببًا فى تملك العثمانيين وكانت السبب فى تلقبهم بخادم الحرمين الشريفين ومولانا ملك ملوك العرب والعجم وعلى رأس جميع الملوك والسلاطين السلطان سليم الأول فاتح مصر ابن با يزيد خان ـ رحمة الله عليه.

سبب غزو سليم لمصر

لا يخفى على مؤرخى العالم أن أبا الفتح السلطان محمد الفاتح بعد أن ألحق الهزيمة بأوزون حسن فى صحراء «ترجان» عطف عنانه صوب طرابيزون على ساحل البحر الأسود وحاصرها برًا وبحرًا، واستولى عليها بعد قلة من الأيام، وولى عليها الأمير با يزيد، فأقام العدل فى الناس، ثم ولد سليم الأول وكان مسعود الطالع، وعلى تعاقب الأيام أصبح شمس الدنيا، ومن هذه البقعة خرج أبو الفتح ليحارب عُصاة القره مانييه، وفى موضع يسمى (مال تپه) على مقربة من اسكودار أدركته الوفاة، فانتقلت

(١ : ٦) بياض بالأصل.

السلطنة وتخت الخلافة إلى السلطان با يزيد ولى، وأصبح ابنه الأمير سليم واليًا على طرابيزون، وولاه عليها حاكمًا مستقلاً ومعه عشرون ألفًا من جند الإسلام ممن قالوا «نحن لها». وأكد با يزيد أنه سوف يفتح أكناف الأرض واستقر على العرش فى الأستانة وهو يرعى أمور المسلمين، أما الأمير سليم فقد أغار على جورجيا ومكرلستان ودادیان واتسع فى فتوحاته فى تلك البلاد، وبالتعاون مع ميراخان من أسرة أوزون حسن فتح سليم خان قلعة (جانخه) وجعل لها مفتاحًا من فضة. وأرسله مع ثلاثمائة قنطار من الأوانى الفضية إلى با يزيد، فأرسل با يزيد ولى إلى الأمير سليم خلعًا فاخرة، وجعل سليم خان (جانخة) حاضرة ملكه، وضم إليها آلاف من حملة البنادق الشجعان ويسمون الآن جانخه لأن فى سبعة مواضع منها مناجم للفضة تجرى كالأنهار، وشاء الله أن يظهر فى طالع الأمير سليم منجم للذهب. فصنع منه مائة ألف دينار ذهبًا وأرسلها إلى أبيه كتب عليها: (السلطان با يزيد بن محمد خان عَزّ نَصره ضرب جانخه سنة (   )[1]، فقال له با يزيد لفرط سروره منه: لتكن المملكة حلالاً لك، لقد وهبتك ما فتحت من ديار والغيرة والحمية لك.

وأرسل بذلك منشوراً إليه، ولما بلغ هذا المنشور الأمير سليم حتى أصبح كأنه تنين ذو سبعة رءوس وفى فترة قدرها سبع أو ثمانى سنوات أتم فتح خمس وأربعين مدينة وقرية وحصن حصين مثل: حصار، ونكسار، وبايبورط، وانسيز، وطوزطوم وأرزنجان، وحينما مضى نصره الله نصرًا عزيزًا، إلا أن السلطان با يزيد ولى كان مشغولاً بمحاربة البنادقة فى أوربا وفتح قلعتى متون وقرون من ولاية المورة، وقد تعاون علاء الدولة بن ذى القدر مع القزلباش، والآق باش فى مرعش على قلب واحد وهدف واحد فبلغ القزلباش طوقاد وسيواس وأماسيه وعثمانجيق واستولوا عليها واستأسد العجم يومًا بعد يوم. وكان الأمير سليم يغير على مؤخرتهم وينال منهم ولكن ما العمل ولعجم عدد لايُستهان به.

---

(١) بياض بالأصل.

وذات مرة قدم با يزيد على رأس جيش عظيم وتحارب مع العجم فى سهل طورحال وكانت الحرب حربًا ضـروسًا، ومن قبل علاء الدولة صاحب ذو القـدرية أرسل سلطان مصر الغورى اثـنى عشر ألف فارس دخلوا المعركـة واشتبكوا مع جند با يـزيد، فكانت سوقًا للسلاح لا قدرة للسان على وصفهـا، وفى وقت الغروب اتجه الأمير سليم بجنده إلى جبال جـانخه، وفى جهة أخـرى بقى العجم والتـركمان وجند الغـورى فى ميدان المعركة، أما الأمير سليم فكان يقول: تبًا لـكم أيها المصريون تبًا لكم، إذا ما وهبنى الله تعالى عرش آل عثمان، علىّ عهد الله أن أغزو العجم، ثم ابن ذو القدر، ثم مصر، إن هؤلاء ملوك مسلمون إلا أنهم يؤازرون العجم، أما القزلباش فقطعوا رءوسهم وأرسلوها مع الرسائل من اسكودار إلى حكام سيواص وبناء على ذلك بدأ آل عثمان يؤدون الخراج للعجم، وبذلك ذل العثمانيون وحقروا، فآثر با يزيد ولى حياة الخلوة والاعتكاف، وبدأ يقوم بالمجـاهدات والرياضات ونفـض يده من الدنيا، واسـتشار سليم أهـل المشورة من ساكنى طرابيزون إلى ساكنى الأستانة، وقالوا له: اظهر لنا فى شرزمة من الجند وسوف نسلمك الـعرش، قضى الأمرُ وحسبنـا هذا ولا شك، ولما شاع هذا الخبر كـان سليمان خان ابن سليم خان قد ولد فى مدينة طرابيزون وكذلك سليم خان، ولذلك كتب الشاه إسماعيل رسالة مفعمة بالفحش سماه فيها ابن اللاز، كما كان الأمير سليمان ابن سليم شابًا كُفئًا، كما رغب سليم إلى أبيه أن يسنـد ولاية (كفه) إلى سليمان، فتقبل منه هذا الرجاء، وقدم إليه خمسة آلاف جندى ممن قالوا (نحن لها) وبمائتى سفينة بلغ (كفه) من طرابيزون، واعتلى عرشها وبدأ يجمع الجـند حوله، وعلى إثر ذلك أركب الأمير سليم عشرة آلاف جندى فى خمسمائة سفينة وبلغ ميـناء كفه ودخل قلعتها والتقى بملك التتار منكلى كراى خان وأطلعه على السر فقـال خان التتار على بركة الله، ومضى فى أربعين ألف جندى وجمع سليم عشرين ألفًا كـذلك وقطعوا المنازل والمراحل وأقاموا فى موضع يُسمى «أوغراشى دره سى» فى منطقة تسمـى برادادى ووافق جند الديوان السلطانى من أتباع السـلطان با يزيد ولى عـلى ملاقاة سليم، وشـاور با يزيد أصحاب مشـورته فقال أحدهم: إنه شاب سعود طالما يعتلى العرش سوف يقضى علينا فالأجدر بنا أن نحاربه،

وبذلك بدأوا فى القتال. أما سليم فلم يتحرك. فأطلقوا على جند سليم البنادق والمدافع، وفى وادى «أوغراش» واجه الفريقان كل منهما الآخر واختلط المتحاربون ودارت الدائرة على عسكر سليم وفرّ صوب الطونة واتصل بعلماء الصوفية وانهزم على ساحل البحر الأسود، وفى موضع يسمى وارنه ركب فى سفينة ثم انطلق إلى حاضرته القديمة طرابيزون ولزم الصمت، أما نائبه (صارى قيابك) فكان الحاكم فى طرابيزون كما أن (على بك) قام بالحراسة وتولى الأمير سليمان شئون كفه.

سيرة السلطان سليم خان

إن سيرة السلطان سليم هذه أوردها فى أمانة من أبى، انتقل والدى الدرويش محمد ظللى - رحمة الله عليه - من دار الفناء إلى دار البقاء وله من العمر مائة وسبعة عشر عامًا، وعلى ما تجولت سائحًا لم يتشرف أحد مثلى بمصاحبة ثلاثين سلطانًا من آل عثمان، ما عدا السلطان سليمان خان الذى صاحبته فى غزوة سيّدوار وكنت حاضراً حارضة فتح قبرص مع القائد مصطفى باشا وأرسلت مفاتيح قلعة (ماغوسه) إلى السلطان سليم الثانى وبعد ما أحسن وأنعم علىّ منحنى رئاسة جوهرى الباب العالى، وأعطانى المنشورات الدائمة، وفى عهد السلطان أحمد صنع والدى الميزاب الذهبى للكعبة فى مكة، ووضع على سطح الكعبة ميزاب الرحمة مع خدمة أمانة الصرّة. والغرض من هذا تبيان أنه كان شيخًا مجربًا خبيرًا، وقزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان خان، مات وله مائة ثمانية وأربعون سنة.

واجتمع عبدى افندى صاحب منزل برنجى زاده ومحمد افندى قره فروعَرَب، وبمقدم هؤلاء الشيوخ سُررتُ بهم، وبينما كانوا يتحدثون مع أبى دخل رجل نحيف يتوكأ على خدم وما إن ظهر من الباب حتى نهض جميع الجالسين مع أبى فقدموا لاستقباله فى إجلال وإعظام وأجلسوه على أريكة عالية ورحبوا به.

وكان رحيق البرش والقهوة مما يشرب على نطاق واسع وتحدثوا وانتشوا؛ فأمالوا قلانسهم، وجعلوا يهزون؛ فقال قزوعلى أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان: يا عزيزى حليم جلبى افندى بحق روح سيدك السلطان سليم الأول وكرامة

للسلطان سليمان حل مشكلنا هذا؛ حين نحارب السلطان سليم ووالده السلطان با يزيد في وادى أوغراش بالقرب من سوق حاجى أوغلو، ولحقت الهزيمة بسليم؛ فانطلق إلى طرابيزون وبدّل ثيابه وقال: حدثنا عما رأيت فى سياحتك. وأمسك يد أبى من خلف، وقال: بينما كان سليم منزويًا فى طرابيزون دعانى أنا وقره نديم إلى حضرته، وقال لنا: ما قولكما أيها الفتيان؟ هل لى من سياحة معكما، (فقرأنا الفاتحة بعد البسملة، بدون أن نسأله عن وجهتنا فى هذه السياحة)، وأخرج سليم مصحفاً من جيبه واستحلفنا عليه بأن تبقى هذه الأسرار طى الكتمان، فأقسمنا على هذا عملاً بالقول : تطير رؤوسنا، ولا نفشى سرنا.

ودخلنا حجرة الخزانة فألبس كل واحد منا حزقه بكتاشيه وأعطى فى يده بلطة مسلمية، وفى خصره مقلاع داودى، وعلى رأسه عمامه واحديه وربطنا على حضورنا تنوة حمراء من الجلد اطمسك، واعطاه مجموعة عظيمة من التحف. ووضع على كتفنا فرواً وإحراماً؛ وأحضر لنا حماراً فحَمَّلْنا الكتب والهدايا، وفى الصباح غادرنا طرابيزون فى غفلة من العدو، وانطلقنا فى طرثنا، أما سليم ده ده فكان فتى قوياً مهيباً، وشاباً عالى الجبهة، ولما كنت أنا وحليمى وقره نديم شابين فى العشرين وكأننا اثنان من ملاعبى القرود وطوال الطريق لم تتلكم فى شئ من أمور الدولة وجعلنا نصيد فى تلك الديار فصدنا كثيراً واتسعنا فى الفتح، وقلنا لنمض إلى بلد آخر، وفى اليوم السابع صلّينا فى جوامع بديار قره بوداق خان بإقليم الملك شامخال ملك داغستان، ثم التقينا بقالقه شاشمخال خان، فقال: من أين جئتم أيها الدرويش، فقال إن سليم ده ده، إننا قادمون من بلاد الروم. فنزلنا ضيوفاً لديه أيام عدة، ثم مضينا من هناك إلى مدينة (طرخو) ثم إلى مدينة (قوون) ثم إلى (دميرقبو) على حدود العجم. وتسلمنا رسائل من خان العجم. إلى قلعة (باكو) ومنها إلى كيلان وكنجه وشيروان، وبلغنا مازندران على ساحل بحر الخزر. وهناك مكثنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم مضينا إلى (قم) ثم إلى (كاشان) ثم إلى جبل ذيلم وفى خراسان كان تجديد البيعة من مولانا الإمام (   )* وتجديد السكه. وخدمنا لديه مدة شهروحملنا الرسائل إلى أبناء (حاجى بكتاش ولى)

* بياض فى الأصل

فى بلاد الروم وأذن لـنا الشيخ بالمـغادرة. ولما بلغنـا أصبهان كناقـد طفنا بمائة وسـبعين مدينة، فى ذلك المكان بلغنا أصفهان الذى شيـدت فيه هذه المدينة المسماة بنصف الدنيا، وأقمنا فى خانقاه للقلندرية بأصفهـان، واتجه كل منا إلى صوب ومضينا لمشاهدة المدينة، وفى المقاهى اتسعـت الشهرة لـسليم ده ده، بمهارته فى لعب الـشطرنج حتى أن أحداً من أساتذة اللعـبة، لم يكن بمقدروه أن يرفع بيـدقاً أمامه، وقد تملكه العجـز أهل أصفهان وملأتهم الحيرة من لـعب سليم ده ده وقالوا إذا لعب هذا الدرويش الـشطرنج مع شاهنا الجميل فلن يسلم منه وسيغلبه وأقسموا بالله جهد أيمانهم. وقالوا للشاه عليك أن تلعب الشطرنج مع سليم ده ده هذا. فقال الشاه آتـوا لى بهذا الدرويش فوراً فرأينا رجلاً على حمار أشهب يخرج من خـانقاه القلندرية وسلم قائلاً السلام عـلى عباد الله العاشقين. فقالوا زادكم الله عشقاً بكـمال جمالك فلما قالوا تفضل الشاه يستدعـيكم عندما وصلنا نحن الأصدقاء والظرفاء الثلاثة بخرقتـا الفاخرة إلى حضرة الشاه أخرج سليم ده ده من خصره صُوَرًا وتلـى دعاء محمديًا ودعاءً لحيدر الـكرار وهى تتألف من اثنـى عشر بنداً ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر، وقال من أسـماء الله الحسنى: يا واحد الفرد الأحد القادر المؤخّر الأول الآخر الظـاهر الباطن الوالى، كمـا تلى اثنتى عشر زمـزمة وذكر الأسماء كذلك، وقال: ليس منى ركوع ولا منى قيام السـلام عليكم، عليكم السلام وترنم بهذه الأبيات داعيًا له:

إن الآفـاق أيـهـا الملـك نــور ونـــار

فكن للـدهر مصباحـًا مثـل الشمـس أنـار

الـصـحراء والـوادى لـنـا فجـة عــطـرِ

وكـــن للـــروض زيـنـة كـالـزهـر

لـم يـخـلـق الله الـدنـيـا إلا بـــك

وحيـثما كـنت كـن يا مـليكـى الـمـلك

فلما أنشد سليم هذا الدعاء، وقف الشاه إسماعيل من فرط سعادته، وقرّبه إليه وقال له أهلاً وسهلاً بك، ولمـا قال له: من أين تحمل السلام، قال لـه: يا مولاى، أنا غرس يد حاجى بكتاش ولـى فى أرض قيصر وزرت ديار القرم ثم مملكة شـمخال، ثم مشهد سلطان خراسان فى بـخارى وأخذت الرسائل من الشيخ، وجئت لرؤيـة جمال سلطانى لأسلمها إلى الشاه يدًا بيد، ومن فرط سرور الشاه قال: أهلاً بك فى دارك، فقال سليم

ده ده: هو كذلك يا مولاى، وكان يعنى أنها ستصبح داره، وقرأ الشاه رسالة الشيخ ودلنا على ركن فى قصره الشامخ، فمكث فى أصفهان مدة مديدة فجعل الشاه إسماعيل سليم ده ده نديمًا له وقاصًا يقص عليه الحكايات، وقد أنس به الشاه، وانعقدت بينهم أواصر الألفة. وذات يوم قال له الشاه: يقولون أنك بارع فى لعب الشطرنج، فقال له سليم: حقًا يا مولاى حقًا، فقال الشاه: هيا لنلعب سويًا من قبيل المحبة فإما العرش وإما الحظ، فقال له سليم ده ده: ومن يا مولاى بقادر على منازلة الشاه، إن منصب الشاهانية يمنع ذلك، فقال الشاه: دعك من هذا وافعل كل ما فى وسعك، وها هو الميدان لك وتدبر الأمر، فرأى سليم فى قول الشاه تواضعًا منه وقال: الله كريم، وعندما جعلا يلعبان تفاءل سليم وقال فى نفسه: يا رب إذا ما تغلبت على هذا الشاه فإن بلاده سوف تهزم بسيفى والفرصة لى، وجرى قضاء الله أن يدخل الشاه فى خانة (مات) أى أنه هُزم فأنشد سليم هذا البيت:

عندما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق

فاسحب الفيل من خانته فالملك قد مات

ولما غلب الشاه ،غضب غضبًا شديدًا ولطم وجه سليم، فقال له سليم: لقد أخلفت وعدك عندما قلت لى دعك من الشاهانية وافعل ما بوسعك، فأنا لم أفعل بقدر ما أعرف، ومات الملك لكنى يا مولاى لست ممن يخلف عهده، ثم رمز قائلاً سنلعب مرة أخرى ذات يوم، وسأقول مات الملك أيضًا، إلا أن الشاه لم يفقه قوله، وقال الشاه لنلعب فى يوم آخر، ولعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات، وغُلِب الشاه فى تلك المرات الثلاث أيضًا، فقال له الشاه أيها الديوث أتغلبنى فى كل مرة، ولكن سليم وحقق بغيته، ونال من الشاه عطاء جزيل، وأذن له أيضًا فى زيارة ضريح الترك الأتراك الشيخ أحمد اليسوى شيخ حاجى بكتاش، وغادر أصفهان وشاهد مدنًا كثيرة وزار كثيرًا من أولياء الله ودعوا له بالخير، وبلغ تبريز، وهمدان، وأردبيل، ودركزين، ودرتنك، ودرنه، وشهربان، وبغداد ،حيث مكث فى الأخيرة أربعين يومًا زار فيها ضريح الإمام الأعظم، وعبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان الفارسى، والإمام موسى الكاظم، ومعروف الكرخى والإمام الحسين والإمام علىّ كرم الله وجهه، وكل أولياء الله، وعفر جبينه على عتباتهم، وطلب المدد من روحانيتهم.

«ذكر مجيء الأمير سليم من بغداد إلى الكعبة في أول سياحة له

ثم مضى سليم مع حجاج بغداد إلى الكعبة فى سبعة عشر يومًا، وحج البيت الشريف، كما قبل يد كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة هناك، ودعوا الله له بالخير، ثم تابع زياراته فمضى إلى المدينة المنورة، فى معية حجاج مصر، ثم زار قبر الرسول ﷺ وتضرع لرسول الله متعلقًا بسياج قبره، وصاح صيحة عالية وهو يقول: لقد انشقت مرارتنا يا رسول الله، رفعنا من شأن شرف الإسلام ويا له من شرف ولكن شراكسة مصر الكفرة أضروا به، علىّ عهد الله إذا توليت ويسر لى أمرى وفُتحت لى مصر فسوف أوقفها عليك وأجعلها مخزنًا لأطعمة الحجاز، وسأرسل إلى أمتك منها فى كل عام الكسوة والصرة، وجعل سليم يردد هذا من قوله سبع مرات منتحبًا: وإذا ما دعانى معدم بجوار ضريحك مستغيثًا بى قائلاً: يا سليم. كنت كفيلاً به مغيثًا له. وأشار إلى أنه سوف يقيم العدل فى الرعية ويبسط رعايته على علماء مصر، ثم حمد الله وأثنى عليه. وقدم سليم مصر مع فوج من حجاجها وبلغها بعد أربعين يومًا، ونزل ضيفًا على تكية الميمندى فى القرافة الكبرى وفى هذا الوقت وصل أسبابه بأسباب الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى؛ فقرأ عليهم السلام فرّد الشيخ أبو السعود الجارحى قائلاً: وعليكم السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين، ويا حاكم مصر سلامتك سلامتك، عجّل بالرحيل إلى بلاد الترك.

وكان ذلك بالمكاشفة وعرف ذلك الشيخ مرزوق كفافى بالوسيلة نفسها، وكان يجيد اللغة التركية، وقال له: امض سريعًا إلى بلاد الترك واعتل عرش الدولة ثم انطلق إلى العجم وبعد ذلك حينما ندعوك تعال، ولكن لا تبق فى مصر. لقد أخرجونا مع كبار أولياء الله من مصر، ولكن ما رأيناه فى مصر من فسق وفجور وعصيان فى اثنى عشر يومًا لم نجده فى بلد آخر، ففى تلك الفترة من الزمن أقام السلطان الغورى قناطر مياه القاهرة وعسف الناس عسفًا شديدًا وأمر العلماء بحمل الأحجار، ولم تكن له سيطرة على جنوده، وقد رأينا من هؤلاء الجنود الظلم والعدوان.

فركب سليم على صهوة جواده بعد أن استأذن من المشايخ، وأرسل إلى خليل بن رمضان فى (أدنه) حتى يكون فى خدمته فى العودة، فمضى من مصر وبلغ (أدنه) بعد عشرين يومًا، وبلغ بلاد الترك، وبعد أربعة أيام بلغ طرابيزون، والتقى بأمه الرءوم ودعت له بالخير، وسأل عن أبيه با يزيد ولى فأخبرته أنه مضى إلى ملك أردل وأفلاق وبوغدان الكفار، وكانوا قد شقوا عصا الطاعة جميعًا واتحدوا جميعًا، ودعت سليم، وقالت له مرحبًا بمقدمك لقد فارقنا أميرًا عظيم ولا ذكر له منذ عامين، فهل استشهد فى هذه الحرب، واستدعوا الأمير سليمان بن سليم من «كَفَه»، وقالوا إذا أجلسناه على العرش لدبر الأمور يومًا بعد يوم، وفى التو وصلت رسائل الدرويش سليم إلى الأستانة؛ فقالت أمة محمد: إن الأمير سليم حى يرزق فى خير وعافية. ووصلت الرسائل من جميع الجهات والفرق العسكرية وكان القول فى الرسائل. . يا مولاى الأمير لا لزوم للعسكر حسبنا عهدنا ولتأت. ولما بلغت الرسائل الأمير سليم فى طرابيزون بعد سبعة أيام. وفى سبعمائة سفينة مضى سليم إلى «كفة» فعانق الأمير سليمان، ورأى فيه بطلاً شجاعًا فقبل عيناه النرجسيتين، وأصبح سمر محمد كراى خان، فقدم كذلك واقترب من ادرنه فى جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل، واقتضت مشيئة الله أن كفار المجر قاموا بتحركات عسكرية فأرسل سليم إلى بلغراد، ولما بلغ سليم (صوفيه) جاء عسكر الإسلام ببا يزيد خان إلى اسطنبول، فمر هذا الخبر بسمع سليم؛ فتراجع عن «صوفيه»، وفى سهل «چورلو» احتشد الجند وقالوا بحياة با يزيد وسقوط سليم. أما المنصِفُون فقالوا إن الدولة العثمانية ضاعت منا وتشاوروا فى الأمر، فقدم سليم فى جيش عظيم وخرج للقتال وبينما كان القتال يدور عزل السلطان با يزيد ولى وأصبح سليم سلطانًا فى سهل «چورلى»، فقال با يزيد ولى لسليم بعد أن عزله: لقد استوليت على سهل چورلى قهرًا قبل أن تكون خليفة، وسوف تتركه قهرًا جعلك الله قَصِير العمر وليكن سيفك حسامًا وليكتب على جندك الانكشارية ألا يخلعوا حذائهم ولا ثوبهم، ولتصب الواحد منهم ثلاثة أقچة، ولتكن رواتب الجند جزيلة ولكنها عديمة البركة، ولتعلوا هيبتهم ولينقطع وجود جثهم فى الميدان وتذهب حماستهم للحرب، أما أرباب

الزعامة والتيمار فلا كفوا عن نزاعهم وشجارهم وليبتلى الأبناء بما صنع الآباء. وبهذا من كلامه دعا الله على جند العثمانيين كافة. وبينما كان سليم يمضى به إلى «ديما دوقيا» أسلم با يزيد الروح فى مكان يسمى «هاوسه» ولا نعلم السن الذى مات فيها - رحمة الله عليه - وفى عام ٩١٨هـ استقل سليم بالسلطنة.

«استقلال الأمير سليم بالسلطنة عام ٩١٨هـ»

ولقد بويع سليم فى موضع يسمى «يكى باغچه»، فى استانبول وفى الوقت الشافعى فى يوم مبايعته بالسلطنة بناء على تقرير حليمى جلبى لبس ثوب الدرويش فى القصر ثم زار مسجد أبى أيوب الأنصارى ثم مسجد محمد الفاتح، ثم دخل حجرة تسمى «صولاقلر اوده سى» فى الحجرات القديمة، فقال كل من فى الغرفة من الأوده باشى مرحبًا بك، وسألهم عن أحوالهم وتناول الإفطار وأثناء الكلام قال لهم هل تريدوننى سلطانًا محاربًا أم معتكفًا متفرغًا للدعاء، فقال بهى ده ده ينبغى أن نقوم بحملة لكى يحلل الله العلوفة التى نأخذها. لقد أحاط بنا الكفار والعجم من جهاتنا الأربع، ولم تبق لنا ولاية وينبغى علينا القتال توًا. فقال سليم: إذا انثنيتم عن هذا القرار فقد انثنيتم عن الإيمان فأقسموا له وأقسم فمضى سليم ده ده ووصل أمام الباب السلطانى ونفخ فى النفير حسب القانون البكتاشى فأخذ صحاف النقود من البوابين وعند الباب الأوسط نفخ فى النفير مرة ثانية وحظى بإنعام من كتخدا البوابين، فلما بلغ باب الآق أغا نفخ فى النفير مرة ثالثة وتسلم منه منحة مالية، وأثناء وقوفه لاحت له الفرصة ليتقدم منها إلى خصيان الداخل بغير تكلف وذهب إلى أحدهم فلما رحب به تقدم سليم مباشرة نحو الغرفة الخاصة فالأسرة التى تربى فيها سليم أسرة عريقة وجلس على السلطنة وكأنه الشمس بين النجوم واستقر عليه كأنه سد الإسكندر، ورأى أحد أغوات الخاصة أن درويشًا تسلل إلى الداخل وجلس فوق العرش السامى، فقرع الناقوس الحديد فهرع أربعون من رجال الغرفة الخاصة يحملون البالطة وعندما هجموا عليه كشف سليم عن ذراعه. فلما شاهدوه عرفوا أنه الأمير سليم لأن كثيرًا من الناس لم يشاهدوا سليمًا قط، ولكن الخدم الذين يعرفونه شاهدوه، وقالوا: أيها الأمير سليم. وعفروا جبينهم على

قدمه، وبايعوه فى حجرة (قرق خاص اوداسى) أى حجرة الأربعين الخاصة. جلوس السلطان سليم عليه الرحمة والغفران:

يا من ماتت قلوبهم إن وصال مولانا سليم
لقلوبهم السقيمة دواء

وبايعه على هذا النحو أركان الدولة: شيخ الإسلام، وسبعة وزراء، والعلماء، وصلحاء وأعيان الدولة كافة، وعرف بالخبر من ينتظرون البيعة فى (يكى باغچه) مقدم الناس زرافات زرافات وأثناء مبايعة السلطان سليم جاء دور فرقة الإنكشارية فرأوا من فى الحجرات القديمة أن من أكل معهم فى حجراتهم وحل اليمين هو السلطان نفسه، فطاشت عقولهم، فقال لهم: أتوفون بعهدكم؟ فقالوا: نحن على عهدك يا مولانا. فلنمض توًا إلى اسكودار، ولنخرج من باب أدرنه فجددوا العهد.

وفى اليوم التالى تمنطق سليم بالسيف فى مسجد أبى أيوب الأنصارى، وعاد إلى القصر فى موكب عظيم، وقال إن لدى سبع حملات، وجعل المنادين يقولون بذلك، وكان الصدر الأعظم آنئذ بيرى باشا وأسس سرادقًا خارج أدرنه وآخر خارج نطاق أسكودار وأرسل الرسائل إلى جميع الملوك، وخشى الكفار وأهل الضلالة من سليم، فأرسلوا نفائس الهدايا مع السفراء وجددوا السلام.

كما كتب رسالة إلى الشاه إسماعيل قال له فيها: «لقد توفى أبى با يزيد (الصوفى) وأنا من غَلَبْتكُ فى أصفهان ثلاث مرات، ولقد عقدت العزم على أن أغِيرُ عليك انتقامًا لتلك اللطمة التى لطمتنى إياها».

ولما بلغت هذه الرسالة الشاه إسماعيل قال: «يالله فى العام الماضى لاعبنى الشطرنج سليم الدرويش وغلبنى. لقد كان سليم أمير آل عثمان. ومزّق الرسالة قائلاً: واويلاه.

هذا ما نقلته أنا الفقير كثير الذنوب بمحضر من الشيوخ عن قوجه حليمى جلبى فى سيرة سليم خان وهذا صحيح لأنه كان من أقران سليمان خان ومع والدى ـ رحمه الله ـ وقد وقف على تلك الأمور وقد استمعوا له ولم يعارضوه فى شىء مما نقله.

ذكر حرب السلطان سليم
مع الشاه إسماعيل الصفوى فى چالديران

فى عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس جيش عظيم لقتال الشاه فى إيران ووصل إلى صحراء چالدر، وهناك التقى الجيشان. وقبل بدء القتال أرسل ابن ذى القدر والسلطان الغورى مدداً من الجيش إلى الشاه إسماعيل، وقد فتح جند الشاه ثغرة فى جيش الإسلام، ودخلت السيوف ساقة[١] جيشنا. لأن العجم ملاعبو السيوف، ولهم البراعة فى استخدامها، وفى هذا الموضع كان الفريقان قد اتفقا على عدم إطلاق المدافع والبنادق فتذكر السلطان سليم، وقال: عندما كنت فى أصفهان لعبت الشطرنج مع الشاه بقطع النظر عن الملكية، ولما تغلبت عليه لم يف بالعهد، ولطم وجهى ناكثًا عهده، وهذا هو أوان نقض العهد وأمر بإطلاق المدافع وكان إياس باشا رئيسًا للإنكشارية وسرعان ما دمرت المدافع القزلباش عن آخرهم، ودارت الدائرة عليهم كافة، وفى سبع ساعات لم يبق فى أرض إيران من الجند أحد، وبينما كان الشاه فى فراره مع سبعة فرسان رأته امرأته وقالت له: جُعِلتُ فداك ياسليم لقد شتَّت شاهنا ودفعته للفرار فذلك بسبب من فرارك. لكن الشاه أحسن الشاه إليها، وعفى عنها ولا حاجة لنا إلى وصف معركة جلديران لأنها مشهورة، وقد وقعت فى الأسر زوجته «تاجلى هانم» مع أكثر من مائتى جارية من جواريه الملاح. وعاد سليم إلى الأستانة بمال قارون.

وبعد ذلك اتخذ من أماسيه مشتى له. إلا أنه لم يكن غافلاً عما أعده العجم من عُدَّة فخرج ابن ذو القدر علاء الدين من مرعش على رأس جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألفًا. ومضى به إلى مصيف كوكسن وعين السلطان سليم (   )[٢] باشا قائداً. وانتشب قتال عظيم وقتل علاء الدولة مع أبنائه وحمل من أسرته سبعين أسرى مكبلين بالحديد وبينهم شقيق جدنا أحمد بك سالى بك وأرسلوا إلى السلطان الغورى فى مصر، وعندما رأى السلطان الغورى الأسرى على هذه الصورة، ورأى رأس علاء الدولة ورءوس

---

(١) الساقة: المؤخرة.

(٢) بياض بالأصل.

أبنائه، أدرك أنه أمام عدو قدير وأن الدائرة ستدور عليه وأن العثمانيين يريدونه بالسوء. وأطلق سراح الأسرى كما أطلق سراح عمّنا، ومضى إلى القدس الشريف، وصرف نظره عن رفع العلم ودق الطبل، ووجد فى القدس قبر (طور زيتا) فرمه.

وبسبب ظلم الجراكسة النحس وطغيانهم فى مصر فإن أذاهم لم يقتصر على الرعايا والعامة بل امتد ليشمل من يقال لهم فلان بن فلان وعيالهم ووكالاتهم ونالهم من الجند ذوى الشقاوة ما نالهم، وقدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر، وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء، وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاداً بعيدةً، وإذا مضينا إلى العجم وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، كما إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ، وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض إليهم. فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة وهتف كل من الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى قائلاً: تعال يا سليم! تعال يا سليم! تعال يا سليم!

وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسيه مع وزرائه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا ويونس باشا: إننا سمعنا من قال تعال «يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة. فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفافى بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت ابوك.. وإذا ما دعوناك إلى مصر فأقدم» هذا ما قالاه. وهذا لصوت الذى وصل إلى مسامعكم هو كلامهم. هيا نعد العدة على وجه السرعة.

قتل السلطان سليم الأول لإخوته وأبناء أخوته

وبينما كانوا يعدون العدة لغزو مصر، جاء المستغيثون إلى سليم وقالوا: لقد شق أخوك قورقود من ناحية وأخوك أحمد عصا الطاعة من ناحية أخرى، وضاعت منك الولاية، فاتجه سليم نحوالسلطان أحمد وفى بورسه بجوار يكى شهر[1] حاربه، وفى

(١) تُقرأ ينى شهر.

هذه المعركة سقط الأمير أحمد عن فرسه وحُمِل إلى السلطان سليم أسيرًا. ولكنه لم يعف عنه، فأمر بقتله خنقًا فى حجرته، ودفن فى بورسه إلى جوار السلطان مراد الثانى، وفر الأمير مراد ابن الأمير أحمد من هذه المعركة إلى أردبيل، وطلب اللجوء إلى الشاه إسماعيل، ومات فى العام الثالث، وقبره فى أردبيل، ومضى الابن الأكبر للأمير أحمد، والابن الأكبر للأمير علاء الدين إلى السلطان سليم. فشملهم بعطفه وماتا الاثنان بالطاعون فى اسطنبول وبها دُفِنَا، ولقد اعتقل السلطان سليم كلا من ابن أخيه الأمير محمد والأمير محمود وأبنائهما الكبار: الأمير موسى، والأمير أورخان، وعثمان ابن السلطان على شاه. كل هؤلاء اعتقلهم السلطان سليم أثناء حربه مع أخيه الأمير أحمد، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم، ودفنوا جميعًا فى بورسه بجوار أورخان غازى، لأن هؤلاء فى عهد السلطان با يزيد ولى يعتبرون ملوك الطوائف، وكان لهم على مر الأيام أوضاع وأعمال شاذة، وكانوا يتحاربون ويتناحرون، وكان الرعايا والبرايا أشتاتًا وفى أسوأ حال، وضاق الناس بذلك ذرعًا فاتّجهوا إلى العجم وأصبحوا لهم أتباعًا.

ثم اتجه السلطان سليم لمحاربة الأمير قورقود؛ فقام قورقود وجمع حوله عدة آلاف من الرعاع والسفلة، إلا أنه انهزم آخر الأمر، فهرب مع نائبه ودخلا كهفًا فى مقاطعة تكه. ولكن الجوع أجهدهم، فأعطوا رجلاً تركيًا جوادًا ليبيعه ويشترى لهم خبزًا وشعيرًا، وخرج الرجل بالجواد ليبيعه إلا أنه قبض عليه وسألوه من أين جاء بهذا الجواد؟ فقال: فى هذا الجبل سيدان باعاه لى ودلهم على الغار، وفى هذا الوقت قبض على قورقود ونائبه وأُرسلوا مقيدين إلى سليم إلا أنه لم يعف عنهما وأمر بقتلهما.

وحُمِل جثمان الأمير قورقود كذلك إلى بورسه ودفن إلى جوار أورخان غازى، وبعد ذلك أصبحت الدولة خالصة له.

واستقدم سليم الأمير سليمان من كَفَه إلى أدرنه وأشركه فى الحكم، وقال له تدبر أمرك وأسند له تدبير أمور الدولة وولاه على أدرنه وفوّض إليه كل أمر، فقد كان الأمير سليمان رشيدًا عاقلاً، وقال أحد أولياء الله: يا سليم إن إخوتك لا خير فيهم ولا جدوى منهم، وينبغى أن يخلفك سليمان على عرش الدولة.

وحقيقة الحال أن سليمًا لم يعقب ولدًا سوى سليمان، ولقد ولد فى طرابيزون كما ولد أبوه. ووالدته مدفونة الآن فى جامع خنكار فى بوزديه.

ولقد ولد الأمير سليمان عام ٩٠٠ على رأس المائة، وبذلك أصبح مرموق المنزلة؛ فقد قال النبى ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة برأس كل مائة عام من يجدد لها دينها». ولذلك قتل سليم جميع أخوته لأنه رأى أن سليمان هو الأصلح للدولة. ومضى سليم إلى بورسه لزيارة «أمير سلطان» فقال: السلام عليكم يا آل القبور. فسمع صوتًا يقول: «وعليكم السلام يا صاحب السيف والقلم.. ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».. وتردد هذا الصوت من القبر الشريف. فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور، وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم: لقد بُشرت يا مولاى بفتح مصر.

ذكر حرب السلطان سليم الأول مع السلطان الغورى فى طريقه لفتح مصر

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان فى الأستانة، وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره، وهناك جمع جميع علماء الترك وأهل الفُتيا على المذاهب الأربعة وطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر وكان الطواشى سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك وبيّنوا ما جاء فيها؛ وقالوا: ما دام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

أما مضمون الفتوى التى أصدروها فهو:

ما الواجب فعله تجاه من يدّعى أنه من ملوك الإسلام، وأنه خادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة، ومع ذلك ينضم إلى القِزِلْباش الذين يسبُّون الخلفاء الراشدين، وحينما يحاربهم من يريد منع هذا السب عن الخلفاء الراشدين يؤازرهم صاحب مكة والمدينة ويرسل العون إلى القزلباش، وينبغى منع هذا السب واللعن، وأن يحمل بالسيف على مثل هذا السلطان الذى يمنع هذا السب فقتاله فرض ويجب أن يخلع لأن مثل تلك

الإمامات غير جائزة، ومن يتابع الروافض على ذلك ينبغى إهدار دمه والإغارة على مملكته، وينبغى قتله لا أسره، ويحرم الزواج من نسائه، ولا يجب اتخاذهن جوارى وينبغى محاربته كما ينبغى تقويض ملكه.

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى بمصر؛ فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذو القدر وسبعين من ابنائه، وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلىّ بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان وفيها يقول: ما دمت حيًا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلاً تعال إلى ميدانى.

وعندما تسلَّم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبًا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور، وإنما قُتِل سفراء المسلمين فقتل الغورى حلال. فانهض يا مولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

ووكل السلطان سليم تدبير أمور الدولة إلى قره بيرى باشا فى اسطنبول وأمر بأن تكون إمارة الجيش للأمير سليمان. ومضى بالجيش من بروسه يطوى المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفى قونية عفَّر جبينه على عتبة سلطان العلماء ومولانا جلال الدين الرومى، وطلب المدد من روحانيتهما، ثم بلغ دولة الرمضانية فى أدنه وهناك أقام، وبناء على رسالة من الشيخ أبى السعود الجارحى نزل ضيفًا على خليل بك الرمضانى، وقال له: «إن قدَّر الله أن تكون مصر لى أبقيت على دولتك»، وقد قدم سليم هذه المرة بجيش عظيم ومنح آل رمضان جميع أوقاف وكل ما يملكون ومالهم من أقاليم ما عدا إقليم طرسوس، وجعل ابن رمضان طليعة جيشه وجعل فى مقدمة جيشه عشرين ألف جندى من صفوة الجند، وإلى طرسوس وصل من اسطنبول أكثر من ثلاثمائة سفينة مما يعرف بـ «بدرغه» ومائتا سفينة مما يعرف بـ «شايقه» و«قره مُرْسَل»، و«غليون» مع قدر

عظيم من الجند والعدة والعتاد، وبلغ نبأ ذلك السلطان سليم فسر سرورًا ما بعده سرور؛ فدعا الله بالخير لبيرى باشا الذى فوض إليه النظر فى أمور الدولة بالأستانة ووصل الخبر من أحد رؤساء بوابى الباب العالى إلى الربان مصطفى بلاق باشا. ولما وصلت الأوامر إليه بألا يفارق ساحل البحر هذا فقام من طرسوس وبلغ ميناء الإسكندرونة، وهناك ألقى مرساة سفائنه. كما تحرك سليم من أدرنه على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف جندى من خيرة الجند، ودخل حدود مصر، ذلك أن أدنه كانت فى ذلك العصر حدود مصر، وغادرها إلى سهل مرج دابق بالقرب من موضع يسمى كلس وهناك أقام. فقدم عليه درويش وقال له: إذا شئت لنفسك أن تكون شجاعًا مظفرًا فاعلم أن داود بأمر الله حارب جالوت فى سهل مرج دابق هذا، وفى الموضع الذى انهزم فيه جالوت ضريح النبى داود ـ عليه السلام ـ، وقبل أن يقدم الغورى ولِّ هذا الضريح ظهرك حتى تشاهد صنع الله، ففى هذا الموضع تعلق نظر الله ـ تعالى ـ وأنزل الله على حبيبه قوله: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فانطلق لِتَوّك يا سليم لهذا الموضع وكن سد الإسكندر. وغاب الدرويش عن النظر، وسرعان ما قام سليم من هذا الموضع وعسكر عند مقام داود فى مرج دابق وأوقف الحراس فى الجهات الأربع ثم راح فى ثبات عظيم.

أول هزيمة لحقت بالغورى على يد السلطان سليم الأول

وفى صباح اليوم التالى قدم الغورى بجيش عظيم ووقف لملاقاة العثمانيين، وقام بترتيب سبع فرق من الجنود، وكان جيشه مؤلفًا من عشرين ألف جندى من حملة العصى وعشرين ألفًا من مقيمى الخيام وعشرين ألفَ سائسٍ وعشرين ألفَ فلاح من الحُرَّاس حاملى العصى، واثنى عشر ألفَ فارسٍ من خيرة الفرسان، وأربعين ألف فارس وثمانين ألفًا من أغوات الميرميران وأمراء الشراكسة، وعلى حد قول تواريخ الشهاب، وعلاوة على سائر الرعاع مائتين من حاملى السيوف. وواجه الغورى بهؤلاء الجند السلطان سليم فى مرج دابق. أما العثمانيون فكانت عدتهم سبعة وثمانين ألف جندى.

كـأن قمـر يوسـف صعـد إلى بـرج الميـزان
وقـد كشـفت زليخة فى السحر عن الكنز للعيان
ومـن السـحـر ظـهـرت الأنـوار الإلـهـيـة
ومـن القـبـة الـزمـرديـة قـلنسـوة ذهـبـيـة
وامـتـطـى جـمـيـع الملـوك صـهـوة فـرسـهـم
وامـتـطـى الشـجـعـان بَـبْـرَهـم[1] ونمـرهـم

وقد اصطفت الصفوف وأعد كل كمين والتحم الفريقان، ودام القتال سبع ساعات على نحو لم يكن فى هذا السهل قتال مثله لداود مع جالوت، ولا نُطيل فى القول فقد هَبَّ نسيم النصر صَوْب سليم، وقد كان جميع جند الغورى حصاد السيف، أما البقية الباقية منهم فتعلقوا بأذيال الفرار مع الغورى قائلين (عينك يا مصر) ويقول بعض المؤرخين: إن الغورى قتل فى هذه المعركة ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشًا. ومكث سليم الأول فى سهل مرج دابق عشرين يومًا وجمع الأموال والغنائم، وكان الجمالة والحمّارة يلحقون بخدمته ويتلقون أجرتهم؛ فأثروا من كثرة ما كانوا يتلقون من أموال من السلطان سليم. ودفن جنود الغورى وأرزاقهم فى الأرض قائلين أن الصباح أم المعارك، وجاء جند آل عثمان واستخرجوها بعد قتل أصحابها، وأصبح جميع المتسولين فى غنية عن التسول.

ثم توجه السلطان سليم إلى قلعة عزز وأقام فيها، وقال جند الإسلام إن لدى الجراكسة أموال كثيرة فبحث جند سليم على جند الغورى وقتلوهم، وأخذوا أموالهم، وعلى هذه الصورة فإن وزير الغورى السابق للشام سينال وكُرتباى وقوده باى ووزير الشام الحالى جان بردى مَلُّوا حياتهم وفروا هاربين، وفر خيرة بك الحاكم السابق لحلب، فر منها ومسح وجهه بالركاب السلطانى لسليم وأصبح عبدًا مطيعًا للسلطان

(١) البَبْرُ: النَّمِر.

سليم فأقسم له سليم كذلك أنه إن صدقت فـي خدمته وقدر الله لسليم فتح مصر جعله حاكمًا مستقلاً وأعطاه جندًا بقدر ما يطلب وسوف ينظر فى هذا الأمر وأغراه بذلك وأغراه وأغدق عليه العطاء وأنعم عليه بإقليم كُسْتَنْدِيل فى بلاد الترك وقدم خيرة بك عظيمًا من الخدمات إلى السلطان سليم أثناء توقفه فى حلب الشهباء فى طريقه لفتح مصر وأقنع علماء حلب وصلحاءها وأئمتها وخطباءها ومشايخها وجنودها قاطبة بأن يسلموا مفاتيحها إلى السلطان سليم، ونالوا جميعًا نوال السلطان، وفى عام ٩٣١ فُتِحت حلب صلحًا وإيالتها أُسْنِدت إلى قره جه باشا ومولويتها إلى جوملكجى زاده كمال جلبى.

ومكث السلطان سليم فى قصر الحاكم بحلب مع جيشه العظيم المظفر، وزار ضريح النبى زكريا فى الجامع الكبير وأضرحة باقى كبار أولياء الله والتمس المدد من روحانيتهم، وبعث برسائله إلى الولايات فى جميع الجهات لاستمالة الناس إلى جانبه فجيء له بمفاتيح القلاع وأعلن أهالى الولايات طاعتهم وولاءهم له وهذه الولايات هى:

مرعش، وعينتاب، وريحانية، والمعرة، وروحه، وبيره جيك، وحران، وكلس، وعزز، وحلب، وحماه، وحمص، ومَدَقْ وشَجَر، وأنتاكيّة، ولازقية وجبليّة ومارقاب وحَصين، وطرابلس، وبيروت وصيدا، وعكه، وصَفَد، والرَّملة، وزيدانيّة، وبعلبكه، شقف وطربية، وفلسطين، ولجون، وعجلون، ونابلس، والقدس، وغزت الهاشم. وقد فتحت هذه القلاع الحصينة - وهى قريب من مائة وأربعين - صلحًا، وانقاد أهلها وأطاعوا، كما خضع له بدو الصحراء مثل آل بنى سلامة، وآل رشيد، وآل وحيدات، وآل بنى عمورى، وآل بنى زهد، وآل بنى رباح، وآل بنى ترابى، وآل بنى سالم، وهم سبعون قبيلة. كما خضع له جميع الدروز والتيمانية واليزيدية والمروانية والهوبارية والمعروفية والأقلية والقزللية، والشهابية، والشهبارية، والنصيرية، والتاتكية وجميع القلاع الواقعة فى جبال بيروت وصيدا والتى كانت فى حوزة الفرق الضالة وهؤلاء جميعًا مسحوا جبينهم على حافر فرس السلطان سليم.

وبدأ سليم يتلـو قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، ثم غادر السلطـان سليم مدينة حلـب ومضى إلى خانتيمـان ثم أسند قلعة المعـرة إلى أمير اللواء الـغنى عطـا، واستقبـله أهل حمـاه ـ حماها الله ـ وقـدموا له فروض الـطاعة، وسلموه القلعة وعين عليها أمير اللواء طورخان بك، ثم استقبله أهل قلعة حمص قاطبة بالهدايا، وأنعم بها على أمير اللواء إختِـمَان زاده ومنحت طرابلس الشام إلى قاسم باشا وصدر الأمر لـلأسطول العثمـانى بالقدوم إلـى طرابلس فمـضى سليم إلى دمـشق ولما اقترب منـها قدم خيرة بك وجان بَرْدى وزيـر الغورى على دمشق وأهـل دمشق فروض الطاعة للسلطان سليم وأصدر عفوه عمـا فرط منهم، وأسند ولاية دمشق ثانية إلى جان بَرْدى وتصدق على شيخ المولوية على مُنلا ودخل سليم دمشق فى موكب عظيم وبسطوا الديباج والمزركش فى كل ما مر به من طرق.

فتح قلعة دمشق

فُتِحت قلعة دمشق فى عام ٩٣١ ونادى الدلالـون بذلك، وأصدر سليم فرمانًا بإقامة القلعة الداخلية لدمشق. وحينما كان سليم أميرًا ترك التاج والعرش فى طرابيزون وخرج للـسياحة واستخلف عليها مير اللواء صارى أرسلان، وأمره بإقامة قلعة حصينة لدمشق، وبعد أن فتح سليم مصر، غادرها إلى دمشق، ووجد أن القلعة تم بناؤها؛ سماها باسْم بانيهـا صارى أرسلان، والقلعة الداخـلية فى دمشق هى قـلعة سليم التى بـناها صارى أرسلان، أما القلعة الخارجية فهى لمعاوية بن أبى سفيان.

وجاء الحمام الزاجل مـن مصر إلى دمشق حاملاً الرسائل، وعـندما وصل إلى جان بردى أخذ ما يحمـله من رسائل وتوجه بها إلى الـسلطان سليم وبقراءتهـا جاء فيها أن السلطان الغورى لحقته الهزيمة فى مرج دابق وجـميع الفارين من المعركة نفقت جمالهم وخيولهم ظمأً فى صحراء قطيّة وأم الحسن، أما الـناجون منهم فقد قتلهم البدو، وتأتّى للغورى أن يعود إلى مصر فى ستين من جنده وأسند قيادة الجيش إلى طومان باى. ولما قـال جـان بـردى: أن الجنـد كتبوا هذه الرسـالة صباحًا ووصلت الشام وقـت العصـر

أخـذ العجـب ماأخـذه مـن السلطان سـليم، والآن يطير الحمام من ميـناء إلى آخر فى مصر حاملاً الرسائل. ثـم حشـد سليم جنده وعدته وعتاده وكان تفـقده لهم يومًا بعد يوم.

فى بيان قبر محيى الدين بن عربى

واقتضت حكمة الله أن كان الـسلطان سليم فى مشتاه فى دمشق وبيـنما كان يتصفح كتابًا مع كمال بـاشا زاده وجد فى رسائل محيى الدين بن عـربى عبارة (إذا جاء السين دخل الشين ظهـر بمرقد الميم) وهذه عبارة ألفاظـها من الدرر والمقصود بالسيـن السلطان سليم ودخول الـشين بمعنى دخوله الشام أى دمـشق، والمقصود بالظهور بمـرقد الميم هو ظهور قبر محيى الدين بن عربى، هذا ما استنتجاه من العبارة.

وأنكر سلـيم أن تكون هذه الرموز بحـساب الجَفْر[1]، ومضى فى الحـال إلى زيارة محيى الدين بن عربى، وقال لنكشف عن قـبره ليبدو للعيان فسأل ذوى السن من رجال دمشق إلا أنهم لم يقتدروا على أن يوردوا خبرًا فى ذلك. وقال بعضهم: يفهم من هذه الرموز أن قبره فى أطراف دمشق ولما كان قبره غيـر معلوم حزن السلطان سليم حزنًا لا مزيد عليه، وفى تلك الليلة رأى فى منامه أن محيى الدين بن عربى قدم عليه وقال له: كنت فى انتظار مجيـئك إلى الشام، مرحبًا بك لقد تيسر لـك فتح مصر وأنا أزف إليك البشرى بـذلك، فامتط صهـوة فرس أسود فى الصَّبـاح وابحث عنى وارفع عـنى تراب المذّلة وأقـم لى ضريحًا فى الـصالحية ومقامًـا وجامعًا ومبـرّةً ومدرسةً ومكتب صـبيان وحمامًا وتكية ومحـكمة وبيت للحاكم وأسواقًا صغيرة ونـبعًا، وأجلب الماء فى جداول وعمِّر الصالحية فامض فإن الله يسّر لك.

وهَبَّ سليم من نومه وطلب أن يُسرَج له فرسًا أسود سريع العدو ولكن قيلَ له ليس فى الحظيرة فرس أسـود، فقال: يجب أن تبحثوا وتجدوا هذا الفـرس، وألح فى طلبه، وأخيرًا وجدوا برزون جموح أجرب فالتف حوله الخدم وروضوه ليكّن ثم أسرجوه.

---

(١) الجَفْرُ: عِلْمٌ يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم.

وامتطى صهـوته سليم دون أن يكون له لجـام، وصهل واشتد عدوه وبلغ بـالسلطان الصالحية واعتلى كومـة من القمامة وجعل يصهل إلى حد لم يطق سـليم صهيله، فنزل عنه وظهر له نعش حجرى كبير فكَفَّ البرزون عن الصهيل كأنما أتم خدمته ومضى نحو سليـم وظل صامتًا ولـسان حاله يقـول هذا قبر محيـى الدين فنظـر سليم فى الـنعش الحجرى، فإذا به كتابة بالخط الكوفى هذا قبر محيى الدين.

وفى قديم الزمان لم يدرك المنكرون مزايا مؤلفات الصوفية فكفروه وكوموا على قبره مزبلـة من تراب المذلة، فظـل قبره مجهولاً، فـجمع السلـطان سليم فى الحـال كل ما استطاع سبيلاً إلى جمعه من المعماريين والبنائين ولكى يشرُف بخدمة الشيخ حمل بنفسه ما فى المزبلة من أحجار كما حملها جميع جنده، وفى طرفة عين طهروها وبناء على ما سلف ذكره ورآه سلـيم فى منامه أقام خانات مـغطاة بالرصاص وجامعًـا ومَبَرَّةً ومدرسة ومكتبًا للصبيان وضريحًا ومحكمة ودار ضيـافة ومستشفى على نحو ما ذكر تفصيلاً فى وصف دمشق. وبينما كان السلطان سليم فـى مشتاه فى دمشق اشتغل بعلم الجَفْرِ وأَنِس بمن لهم علم به، وفى حديث له معهم ذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسى قائلاً:

أيتيسر لى فتح مصر؟ فأجابه الشيخ الطرسوسى قائلاً: بشراك يا مولاى.. لقد شهد الإمام علـى ـ كرم الله وجهه ـ أنـك سوف تملك مـصر فقد قـال: لا بد من سلـيم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب.. وهو يقصد بجزيرة العرب جزيرة مصر بكلامـه الذى كالدر النفيس. ومصر تـسمى جزيرة لأن أحد ملوك القـبابطة وهو طوطيس أجرى مياه النيل إلى بحر السويس فأصبَحَتْ مصر جزيرة. ولذلك تسمى مصر الجزيرة، وإن شاء الله سوف تفتح مصر بناء على كلام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وستكون أول خادم للحرمين الشريفين من آل عثمان، وبهذا بشره ناصر الطرسوسى بفتح مصر، كـما أن عالمـًا قـال: إن القرآن أعلن أنك ستفتح مصر، وهذا ما استنتجه الإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ وبلغه للإمام الحسين فبلغه الإمام الحسين إلى زين العابدين، وبعد ذلك بلغه إلى السرى الـسقطى، ومنه إلى الجنيْد، وإن كلام القرآن الـكريم له الدوام إلى يوم القيامة.

ولمقدمك إشارات ورموز ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وأهل الذكر مأذونون بإعلان هذا وليست فيه رخصة، والآية الشريفة هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فلفظ «ولقد» يساوى مائة وأربعين وكذلك عدد لفظ سليم وهو إشارة إلى سليم.

ولفظ «ذكر» يساوى تسعمائة وعشرينًا و«من بعد الذكر» أى بعد تسعمائة سوف تكون فاتح مصر. «أن الأرض يرثها» ولفظ أرض بدون تعريفه باللام عندما يذكر يشير إلى أرض مصر، كما أن «أرض» بـ ال تفيد الإرادة: أى أن هذا المعنى يتقرر بناء على قاعدة علم الجَفْر.

«عبادى الصالحون» يعنى أن الله أعدك من عباده الصالحين، وسترث مصر وحسبك هذه البشرى، امض راشدًا إن مصر لك. ودعى الله أن يعينه وينصره. فقال سليم ثانية: إلى كم تدوم سلطنتى؟ فردّ قائلاً: لا أعرف سوى لفظ جداً. لا يعلم الغيب إلا الله. وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه.

ولو أن لفظ (جدا) يساوى ثمانية. فإن فتحه لمصر ووصوله إلى اسطنبول سلطنته قد دامت ثمانية أعوام، وهكذا علم الجفر علم خفى وصحة هذا الخبر: أن سليم أمضى الشتاء فى الشام بمشقة وبدأ ماء الرحمة فى الجريان، وترك جند قوجه بيدرمان فى الشام بجانب جان بردى وكوز لجة قاسم باشا وقطع المنازل وطوى المراجل حتى بلغ غزة بعسكر الإسلام، ومن الجنوب وصل سليم إلى نابلس ومنها إلى القدس، وزار الأنبياء وطلب المدد من روحانيتهم وغلب على جبل الخليل وزار جميع الأنبياء.

فتح قلعة غزّت الهاشم صلحًا

ثم استراح فيها سبعة أيام، وخضع جميع البدو له ودانوا له بالطاعة، وقبّل قدمه بنوزُهد وآل عمور وآل رشيد وآل رباح وآل معان وآل شهاب وآل تُرَابى وآل خرفوش وآل حَبَش وآل سعيد وبنو إبراهيم وبنو السوالم وبنى عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو جوران وبنو البُصْرى وبنو جعفر ومشايخ نابلس وصفد وعكة والرملة وفلسطين وغزة

والقدس والخليل والكرك والعقبة وصَقَر وأتباعهم ونال كل منهم نصيبًا من إحسانه، ودانت له بالطاعة جميع العشائر والقبائل، وتعهدوا جميعًا بأن تطيب نفسهم بخدمته، ولكى يجتاز صحراء أم الحسن وقطيّة أمدوه بأربعمائة ألف جمل يحمل ماء، ولما غادر غزة ووطأت قدمه صحراء مصر والعظمة لله، فقد هطلت غيث الرحمة، وإن من تخوفوا من الظمأ فى الصحراء ساءهم أن يهطل المطر كأنه سيل فأصبحت أرض الصحراء من طين.

ولما وصل سليم خان يونس قتل يونس باشا وبنى بماله قلعة خان يونس، وطوى الجند الأرض طيًا ووصل العريش وفى ذلك الموضع تقدم الصدر الأعظم سنان باشا وخليل الرمضانى بك وخيرة بك الشركسى وعبروا صحراء قطيّة وأم الحسن وبلغوا الصالحية فظهر رعاع الشراكسة فى حدائق النخيل إلا أن السيوف حصدتهم حصدًا وأحضر البدو أكثر من ألف شركسى وأعملوا فيهم السيف بعد أن سلموا أسلحتهم لبدو الصحراء، ثم مضوا إلى أم القرين وأرسلوا دليل الجراكسة إلى حضرة السلطان سليم فقال: هل لسلطاننا الغورى طاقة لكم فى صحراء بلبيس، لا تغفل عن هذا.. فأطلق سراح الأدلاء.

حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى

والتقى الجمعان فى القرين بالقرب من بلبيس ولم يستطع الجيش أن يرى الجيش الآخر الذى يقاتله من دوى المدافع والبنادق. واتفق أن هب نسيم فأثار غبارًا كان حجابًا بين الجيشين، ورأوا أن جنود الغورى صاروا فلولاً متفرقة وأصبحوا من قبيلة «موتوا بأمر الله» فتحين الجنود العثمانيون الفرصة وشدوا عليهم وانقض عليهم طومان باى من جانب كما ينقض الذئب الجائع على الغنم، ودارت رحى الحرب من وقت الزوال إلى وقت الغروب، وما أشبهت هذه الحربَ حربٌ، وقرع الطبول، والتحم جندِ الفريقين فى معركة حامية الوطيس، والتفت الساق بالساق وانحلت الدروع. وفى هذه الليلة دفن من العثمانيين سبعة آلاف. وقد استبسل فى القتال خيرة بك والذى جاء مددًا للجيش العثمانى فى هذه المعركة، وهذا وارد فى تواريخ مصر، وعرفوا أن خيرة بك حليف العثمانيين، وفى صباح اليوم التالى دقت طبول الحرب وكأنها تقول: أين من يحتسى

كأس الحمام فى هذه الحرب، واتفق أن حمل جميع جنـد الغورى على العثمانيين كأنهم بلاء أسود وكأنـهم قضاء مبرم، ودخـل بينهم جند الـعثمانييـن بكل أسلحتـهم وأطلق الإنكشارية البـنادق من ناحيتهم وبقوا فى نـار النمرود، فألقت المدافع ثلاثـمائة وستين قذيفـة فاسودّت الســماء والأرض بالبارود، ورأوا أن جـند الغورى تقـهقروا وقيـل إنها خدعة منهم.

ورأوا أن قرار الجراكسة تبدّل فراراً، وأصبح سهل بلـبيس كحديقة للزهر الأحمر مما جرى فيه من دمـاء، وإلى وقت الغروب كانوا كقصّـاب يعود إلى كبشه وجعـلوا يتلون آيات الذكر الحكيم ويدهم وسيفهم ملـطخ بالدماء وهم عراة الأجسام، ومضوا إلى مقر سليم ونالـوا منه العطاء، وظل غزاة المـسلمين فى مواضعهـم مطمئنين وقالـوا لسليم: لنحاصر مصر ولنغادر هذا المكان، إلا أن خيرة بك لم يقبل منهم ذلك وقال:

يا مولاى السلطان إن الجند الآن متعبون، لقد ألحقوا الهزيمة بالعدو مرتين، لا شك أن فتنة تثور فى قلوبهم، وبذلك ثنى سليمًا عن عزم الحملة على مصر؛ واستراح عـسكر الإسلام فى بلبيس ثلاثة أيام وشاء الله أن فى هذا اليوم من أيام الحرب مات الغورى فى جانب من ذلك الـسهل عـلى سجادة وهو متوجه إلى القبلة. وقطـع عنقه أحد الجراكسة كى لا يكون ذلـك بيد عثمانى ولـف جثته فى سجادة ومضـى بها إلى السلطـان سليم واستقدم خيـرة بك الجراكسة فقالوا: إنها جـثة الغورى، ولم يتعرف عليـه بعضهم لأن الجثة كانت بلا رأس؛ فقالوا: إنها ليست جثته.

ولكن بعد مرور سبعة عشر عامًا أوصى معلم مكتب فى بلبيس بأن يكتب على قبره «أنا الغورى»، وأدركه الموت والخاتم الذى فى إصبعه وجرح السيف فى ذراعه يثبتان أنه الغورى. وجملة القول أن الغورى فقد فى معركة بلبيس هذه. وقال خيرة بك فى الجند إنه بلا رأس ولا عنق وآخر الأمر ولوّ العرش ابنه الســلطان محمد إلا أن البعض لم يُقر ذلك، وقالوا: إذا وليـنا فتًى غريراً ناقص التجـربة مثله فماذا تكون عـاقبة الأمر؟ وماذا يستطيع أن يفعلـه تجاه العثمانيين يجدر بنا أن نختار طومان بـاى خليفة. هذا ما قالوه. ودارت الحرب بينهم شهراً فى مصر وكان النـصر لأنصار طومان باى واستخلف طومان

باى دويدار ولقب بالملـك الأشرف وفى ذلك اليوم خرج الناس جميعًـا للصلاة ونشبت معركة ضارية مع السلطان سليم بالقرب من الخانكة.

إلا أن الجراكسة لحقت بهـم الهزيمة ثانية، وتجدد القتال فى صبـاح الغد فى الخانكة ودام إلى العصر وأرسلوا إلى السلطان سليم قائـلين: نحن لا نحاربكم بالمدافع والبنادق فإن هذه الحرب بإطـلاق النار خاصة بالكفـار، وذلك لأن الجراكسة لم تكن لـهم طاقة بالمدفع والبندقية أما إذا كان السيف يستخدم فى القتال فلا يمكن مواجهة المصريين لأنهم حقًا كالعجم فرسان يـحسنون القتال بالسيف وبالرمح. والحاصل أنـه منذ مجىء سليم إلى مصر خاض مع الجراكسة أحد عشر معركة من بلبيس إلى أقصى مصر.

وفى نهاية الأمر نشب القتال فى وادى الريدانية أى فى سهل سبيل علام وكانت حربًا لا يشبـهها حتـى حرب علىّ ـ كـرم الله وجهه ـ وقالـوا: لقد تحاربـنا طويلاً مـع هذا العثمـانى ودارت الدائرة علينـا، فلنقتـل سليم وعاهدوا الله عـلى ذلك، وبينمـا كانت الحرب دائرة الرحى فى سبيل علام بلغ طومان باى وكُرتَباى و (   )[1] باى معسكر الإسلام وظن طومان باى أن الصدر الأعظم خادم سنان بـاشا هو السلطان سليم ورشقه برمح فسقط عـن جواده فقد كان سنان باشا بلا لحـية كالسلطان سليم، وكـان السلطان سليم يركب فرسه وعليه ثياب كثياب سنان باشا.

وظن كرتباى أنه وزير آخر للسلطان فأسقطه عن فرسه، وظن الثلاثة أنهم أسقطوا الوزير عن فرسه، فسلك ثلاثة وزراء الطريق إلى سليم وأصبح (   )[2] باشا صدر أعظم.

وقامت معركـة فى وقت الغروب ومكث العثـمانيون فى العادليـة، ودخل المصريون جميعًا مصر وتحصّنوا فيها، وضرب العثمانـيون عليهم الحصار ودان لهم بالطاعة جميع رؤساء قبائـل العرب ولم يحضـروا حبة من غلال وأحاط جـند من العرب بالمـدينة من جوانبها الأربعة وفى ذلك اليوم قدم ابن خـبير وابن بنى سيف وابن عوار وابن ايد وابن حمادة وهم من شيوخ العرب المقيمين قبالـة شاطئ النيل ومسحوا وجوههم بحافر فرس سليم، وقـد طيّب خاطرهم بما لا مزيـد عليه ورجع كل منهـم إلى قبيلته وعلـيه خلع

(١، ٢) بياض بالأصل.

فاخرة وجمعوا جميع جنودهم على الشاطئ الغربى للنيل، وقاموا بالحراسة إلى حد أن الطير لم يكن يطير من هذا الجانب، وفى البداية حاصر جند الإسلام القلعة الداخلية وبدأ كوزلجه قاسم باشا قَصْف القلعة باثنى عشر مدفعًا واقتحمها من جبل الجوشى، ودخل عسكر الترك جامع السلطان حسن وتحصَّنوا بالحواجز، ويسمون ذلك باب الوزير، وتحصن الوزير الأعظم (   )[1] باشا وراء الحواجز عند جامع النظامية ودارت رحى المعارك ليل نهار. وبينما كان كل طوائف الجند تنحدر من القلعة اتفق أن أخبر بوابو القلعة الداخلية الذين يسمون أبناء الألواح أخبروا السلطان سليم، وفتحوا باب المطبخ وبينما كان السلطان سليم يدخل القلعة الداخلية وفى معيّته أغوات الداخل وحراس الباب وسبعة من وزراء القبة، كان رجل أعمى ينتظرهم عند الباب منذ أربعين عامًا، وكان يقول «شوى شوى سلطان سليم»، وبينما كان سليم يدخل القلعة التصق هذا الأعمى بركاب فرس سليم ورقد وأسلم الروح وهو يقول: «شوى شوى يا سليم»، وتحسب بحساب الجُمل، وهذا الأعمى مدفون فى نهاية باب المطبخ، والآن أحفاده لهم معاش دائم، وبينما كان السلطان سليم تحت سُلّم ديوان قيتباى انطلقت قذيفة مدفع من القلعة وأصابت طرف قمة رأس سليم ثم قام السلطان سليم ومكث فى بناء حصين أسفل حجرات العيارين، وبيّضوا قصر القلعة وزينوه بالأعلام ومن هذا الموضع رأى أهل المدينة أن القلعة الداخلية للقاهرة قد فُتحت؛ فرحب أهل القاهرة جميعًا بجند العثمانيين، وقامت كذلك حرب شعواء رهيبة، وكان للغورى فى الميدان الأسود اثنا عشر ألف جندى زنجى من العرب.

ولذلك يسمون الميدان قره ميدان أى الميدان الأسود، ودخل جند الروملى هذا الميدان واشتبكوا معهم وقاتلوهم ونصبوا جثثهم السود فى الميدان، ولذلك سُمى قره ميدان أى الميدان الأسود.

(١) بياض بالأصل.

فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة

وقال كمال باشا زاده فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ وقال الشيخ نصر الله سلطان سليم شوى شوى ٩٢٢ وفاتح ممالك العرب سنة ٩٢٣.

فتح سليم القلعة الداخلية وخلع على كل من دخل القلعة من وزراء ووكلاء وأعيان خلعًا على حسب رتبة كل منهم وبمضمون (الكريم إذا عهد وفا) ولى مصر ووزارتها خيرة بك، ومُنح كمال باشا زاده أحمد أفندى قاضى عسكر الروملى مولويتها، وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة - أدى جند الإسلام صلاة الجمعة فى جامع قلاوون وتلى الخطبة كمال باشا زاده، وذكر فيها خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان با يزيد خان، فسجد سليم سجدة الشكر وسمع كل الجراكسة تحت القلعة بأن خيرة بك عُين وزيرًا لمصر فأوصدوا جميع بواباتهم وجعلوا أسلحتهم وماءهم فى بيوتهم ودامت الحرب ثانية بينهم وبين جند الإسلام سبعين يومًا فى الأسطح والسراديب وفى المنارات ليل نهار.

وهتف جميع أهل القاهرة قائلين: «الله ينصر السلطان طومان باى» وكانت الخطبة فى الصعيد تتلى باسم السلطان طومان باى سبعين يومًا.

وبناء على ذلك قدّم طومان باى وكرتباى و (   )[1] باى المدد إلى مدن الصعيد ثمانى وسبعين مرة، ونشبت المعارك وسُدَّ كل بيت بباب من حديد، وقذفت النساء من أسطحهن وكُوّاتهن غزاة الإسلام بالحجارة والماء الحار والقاذورات.

وآخر الأمر أمر السلطان سليم لنساء مصر بعلوفة - أى رواتب - وفتح الصعيد، وبقيت رواتب الجوارى فى مصر منذ عهد السلطان سليم، وآخر الأمر استوجب سليم من خيرة بك القضاء على طومان باى ووعد خيرة بك ابن خبير خيرًا، والتزم بذلك، وجاءه الخبر بأن طومان باى فى قلعة حصينة فى الفيّوم، فأخبر سليم هذا الخبر، فأرسل سليم مصطفى باشا رئيس بكوات الروملى، ومضى مع خبير أوغلى إلى مكمن طومان باى وكان طومان باى نائمًا، ورأى فى منامه النبى ﷺ فقال له: يا طومان باى لا بد أن

(١) بياض بالأصل.

تغار على عرضك. لقد أديت ما يستوجبه الشرف، أمض إلى سليم سوف أجعله يأتينى بك. وليأتنى سليم الغازى كذلك قريبًا»؛ فلفظ سليم الغازى يساوى العدد (١٤٦٣) وحقًا بلغ سليم اسطنبول وبعد ألف وأربعمائة وثلاثة وستين يومًا وافاه الأجل بمقتضى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] رحمة الله عليه.

وهب طومان باى من نومه وتوضأ فى التو، وصلى ركعتين ثم سَلمَ، وامتطى صهوة فرسه وبينما كان فى سيره ظهر أمامه مصطفى باشا فحمله إلى سليم مقيدًا، كما أن سليم رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ جاءه، وقال له: «ابعث إلىّ طومان باى واسْعَ فى جنازته وأعاهدك أن أجعل مصر لك، وإذا ما بلغت اسطنبول فجئنى أنت الآخر. فقال سليم: يا رسول الله لمن أترك مصر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن مصر فى حمى الله يا سليم، وستبقى فى حوزة المسلمين إلى آخر الزمان فلا تحزن وفى تاريخها أنها ستكون للملك كعب الرابع ابن إبراهيم، من ذريتك»، ولفظ (غم يمه) أى لا تحزن يساوى العدد ١٠٠٣ وفى هذا العام سوف تقوم ثورة فى مصر.

ولفظ كعب من ذريتك يساوى ٩٢ ومحمد كذلك يساوى ٩٢ أى أن محمد الرابع ابن إبراهيم فى هذا التاريخ ستكون مصر فى حوزته.

فهبّ سليم من نومه مضطربًا، وبينما كان يصلى قيل له يا مولاى قَدِمِ طومان باى.

الحوار الذى دار بين طومان باى والسلطان سليم وقتل طومان باى

وبمجرد أن فرغ سليم من صلاته خرج وقال:

مرحبًا بك يا أخى طومان باى، فقال طومان باى توًا: لقد قبلت الأخوة وطبق الفُتْوة الأولى وقد أخذت ما فى يدنا من أموال وجعلت منا نحن الجراكسة كفار ملاعين، والآن تقول يا أخى، وإذا كنتُ أخاك الكافر فمن تكون؟ عليك أن تختار أحسنهما، فقال سليم: هذا يكون فى سبيل الملك.

فقال طومان باى هـل الملك الذى ورثه عن والدك أن تقتل هـذا القدر من عباد الله بسبب طمع الدنيا، من سيجيب عن سؤالهم يوم الحساب.

فقال السـلطان سليم: لقد سـاعدت العجم لذا فأنـت تستحق القتل، فـقال طومان باى: حاشـا لله، ما كان منـا عون. إن عَلِىٌّ الدولـةِ أَلْبَسَ فرقـةً من أشراف التـركمان سراويل حمراً وسمـاهم بأسماء مصرية، وقال: إن هذا هو المـدد من مصر، وحاشا أن تكون قطعت عنق عَلِىٍّ الدولة وأرسلت رأسـه إلى الغورى فانتقمت أنت، وماذا تطلب غير ذلـك. فقال سليم: إنـك قتلت رسلنـا. فقال طومان باى: إنــهم بسطوا لسـانهم بالفحش فى حضرة الغـورى ولذا قتل منهم عشرة، أما الاثنان الباقيان فـلم ينطقا ببنت شفة فأطلق سراحهما.

قال سليم: لماذا حاربتنى كل هذه الحروب؟

قال طومان باى: ما دمت قد أغرت على أهلى وعيالـى وجئتِ لتقاتلنى فأنا مقاتلك إلى يوم الدين.

قال سليم: لماذا مثلت فى حضرتنا؟

رد طومان باى: إن الرسول ﷺ هو الذى أرسلنى، وهذا ما أقدمنى عليك.

وفى النهاية ألفى سليم أن كل كلامه هو الحق.

فقال سـليم: ولماذا قالوا: «الله يـنصر السلـطان طومان باى. .؟» قال: إنـى أقمت العدل فى الفقراء، ولم أنسـهم وهم الآن يحاربون فى الصعيد فاعدل أنت كذلك، وكف عن الحرب، وهم يتـبعونك وعندما قال ذلك أمـر سليم خيرة بك بصـلب طومان باى على باب زويلة ويظل سبع ساعات ثم ينزل. وسـار السلطان سليم فى جنازته من باب النصر حتى بـلغت العادلية كما حمل نـعشه على كتفه، لأن السلـطان طومان باى كان يحفظ القرآن ومن أهل العدل والعلم، حتى إن بناء العادلية منسوب إليه وهو مدفون فيه وقد كُتِب حول ضريحه تـاريخ (تسعمائة)[1] وأقيم على ضـريحه قبة عالية وأقيم كذلـك جامع، وكان الضيوف يجيئون ويروحون فى جـوانبه الأربعة، ولهم منازل ينـزلون فيها، كما أقيـم قصر شامخ يستـريح فيه وزراء مصر أول مقدمـهم وبعد

(١) بياض بالأصل.

ثلاثة أيام وثلاث ليال يدخلون القاهرة فى موكب عظيم. وجميع موالى مصر ووزرائها المعزولين يمكثون فى قبر طومان باى طالبين المدد من روحه الشريفة، ويمضون إلى هذا القبر قبل خروجهم إلى أى مكان، إن هذا القبر مزار عام، ويُسمونه العادلية، إنه حديقة كحديقة إرم.

أمر السلطان سليم بصلب طومان باى ودفنه، إلا أن الناس لم يهدأ لهم بال فى القاهرة، فكانت مناوشات تقع لأن دولة طومان باى والغورى كانت دولة عظيمة، وقد حزن خيرة بك على الغورى وهو الذى كان دليل العثمانيين إلى مصر.

ولما تولى الحكم نكث الشراكسة جميعًا عهدهم وتحصنوا فى المدينة، وقاتلوا، وأمر خيرة بك العرب بأن تقول «الله ينصر السلطان طومان باى»، وأسمع ذلك السلطان سليم، وكان خيرة بك هو السبب فى قتل طومان باى، وهذا ما أغضب المصريين منه.

وأجبر العرب أن يتعاهدوا وجنّد الأروام، كما أن جنود العثمانيين فتحوا مصر فى سبعة أشهر بعد إلحاق الهزيمة بجنودها، واستقل خيرة بك بالوزارة فى مصر، فاطمأن السلطان سليم وتلقى الأسطول العثمانى هذا الخبر وقدم إلى الإسكندرية سبعمائة سفينة ونزل الجند بلا خشية ووصلت بشرى فتح الإسكندرية إلى سليم وقد أقيمت الاحتفالات ودامت سبعة أيام لفتح القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد وآل الملك فى مكة والمدينة لآل عثمان، وأرسل السلطان سليم إلى أشراف مكة وتبابعة اليمن ونجاشىّ الحبشة وقفان فونجستان وملوك الفور ودنقله وأفنو بورنو وسلاطين السودان، وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، والبيت العباسى فى بغداد وملك الهند والشاه إسماعيل شاه العجم وحكام البصرة ولحسه وعُمَان أى جميع السلاطين والملوك رسائل المحبة يقول فيها: «أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين».

واستقل السلطان سليم بملك مصر وشغل نفسه بألزم ما يلزم مصر وقام شَغْبٌ فى قصر قيتباى فى الصباح ولم يبد شىء ولكن وجِد فى جانب من القصر أوهاق طول الواحد منها خمسين باعًا، ورآها سليم فسخط على القاهرة. فانتقل إلى قصر عين القبة وهى الآن تكية للبكتاشية وبما أنه درويش نزل عدة ليال ضيفًا عليهم ومقصورتهم باقية هناك فغادرها، وحقًا إن الروضة روضة من رياض الجنة.

خبر السلطان سليم الأول مع الفدائى كرتباى
فى قصر «أم القياس»

نزل السلطان سليم ضيفًا على جوسق المأمون فى جزيرة أم القياس خمس أو عشر ليال، وكان ينعم بالإقامة فيه، وكان يقوم بحراسته خدام حجرته إلا أنهم ظلوا عاجزين عن حراسته، وطرأ على السلطان سليم وهم طارئ بحيث عزّ عليه المنام.

وحكى حليمى چلبى الذى كان مرافقًا له يقول: كان السلطان سليم فى أم القياس فى تلك الليلة إلى منتصفها على خير ما يرام، وعندما حان وقت النوم وارتدينا ملابسه لم يكن أحد من الأغيار يعلم أن عدوًا تسلل إلى القصر وعندما صاح السلطان سليم على أحد الغلمان، خرج أمامه رجلاً عاريًا فى يده سيف خرج بجانب السلطان وعلى بعد ستين ذراعًا من القصر طرح نفسه فى النيل واختفى عن النظر، ورأينا سفينة ترسو بالقرب من القصر ولعل هذا الفدائى قد هبط منها ولكن قصر أم القياس شامخ فى النيل يرتفع مائه ذراع، فاشتد غضب السلطان سليم على جميع خدامه وأمر بحراس حجرته تلك الليلة أن يركعوا لقتلهم.

وكان برويز أغا فى ذلك الوقت وهو من صلحاء الأمة يلزم ركاب السلطان، فقال للسلطان: يا مولاى عليك فى البداية أن تستجوبنا ولك بعد ذلك أن تأمر بقتلنا. لقد عجزنا عن حراستك منذ أن فتحت مصر، ولما قلنا لننتظر سلطاننا تلك الليلة لحراسته ظهر لنا النبى ﷺ من الباب ولم نكن نعرفه ورفع عن وجهه نقابًا أصفر، فكشف عما لوجهه من جمال، وكان عليه خِلعة من ليف النخيل، وفى قدميه نعلان صفراوان وعلى رأسه الشريف عمامة كأنها حِمل بعير، وعلى جانبى العمامة طيلسانان فسلَّم ورددنا عليه السلام.

وأراد رفاقنا أن يطردوه ولكنى قلت لهم لنتحدث معه، فسألناه من أين جئت إلى هنا؟ فقال: أنا رسول الله ولدىّ عهد مع سليم إلى يوم الدين على أن يخدمنى وأنا فى خدمته وذريته فى حمايتى إلى يوم الدين، لتطمئن نفوسكم وإذا وقع شىء فأنا أوقظ سليمًا من نومه فلا تقلقوا، ونزل من السلم وما كان من وجود لأحد. إن هذه حكمة

عجيبة وهذا ما أوقعه فى الحيرة والعجب وبينما كنا نتشاور فى هذا مع رفيقنا نمنا كما نام أصحاب الكهف وبعد مدة من الزمن رأينا سلطاننا يحمل السيف ويصيح ورأينا من يطرح نفسه فى اليَمّ ويغيب عن النظر. هو ذا ما قد وقع. وإن الأمر لمولانا السلطان، وعندئذ قال سليم: هذا ما رأيته فى المنام مع الرسول ﷺ، وقال لىّ: لقد نبهتُ خدامك إلى أن يستريحوا فى طمأنينة فلا تغضب منهم، وخذ حذرك ولكن لا تخف لن يلحق بك من ذلك ضرر، وقال لى: انهض، فاستيقظت فرأيت رجلاً أمامى وقد طرح سيفه بالقرب من قمة رأسى. فأخبرت الناس بذلك وكان الجميع نيامًا.

وقال: إن رؤياكم هى الواقع ولقد أطلقت سراحكم وعفوت عن الخدام الملحقين بحجرتى. وأجزل سليم لهم العطاء وجعلهم أمراء على مصر، ومنح كلاً منهم قصرًا شامخًا وكثرة من الجوارى.

ثم مضى سليم إلى القصر ثانية وجعل المنادين ينادون قائلين: فليأتِ من قدم تلك الليلة لقتلى فى قصر أم القياس له منى أمان وعهد آل عثمان، فليحضُر دون أن يخاف وله منى الأمان.

وعندما كان المنادون ينادون بذلك قدم بطل شركسى صنديد يُسمى كرتباى وقال: السلام عليك يا سليم، وكان رابط الجأش، فقال سليم: أأنت من قدم تلك الليلة ليقتلنى؟ فقال: نعم أنا هو. فقال سليم: لماذا فعلت هذا؟ فقال كرتباى لماذا لا أفعل ذلك لقد جئت غازيًا بلادنا، واستوليت على أهلى وعيالى، وأهلكت ما أهلكت من عباد الله، واستشهد فى الحروب معك سبعة من أبنائى واستوليت على كل ما أملك وفرقت بينى وبين أقرانى الشجعان وأولياء نعمتى مثل طومان باى حافظ كلام الله المجيد التقى الشجاع. فقُلتُ ينبغى أن أقتل سليمًا هذا وطلبت الإذن من رسول الله ﷺ فإن متاع الدنيا متاع الغرور، ورضاء الله خير وأبقى، لقد نزع الملك من الشراكسة وآل الملك إلى آل عثمان فلا تؤذه..

وفى هذه الليلة قلت يا رسول الله لم يقر لى قرار فلأنتقم من سليم ولذلك مضيت إليك فى تلك الليلة لأقتلك. فقال ﷺ : «إذا ما ذهبت فسوف أوقظ سليمًا».

وفى النهاية لم أطق فراق أبنائى وأحبائى، فجئت لأضع راسى فى رمسى. فاستيقظت ولست أدرى ما الذى أفزعنى فطرحتُ نفسى فى اليم، إلا ما استطعت أن أرتد عن خمسين رجلاً فى محاولتى تلك، ولكن ماذا كان حالى فى تلك الليلة، لقد مررت فى سَبْحِى بجزيرة وبلغت قاربًا فنجوت. وبما أنك أعطيتنى الأمان قَدِمتُ، وهذا أمر الله.

فَسُرَّ السلطان سليم وضحك قائلاً: جندًا أنت من عدو جميل الوجه صادق القول. من الآن فصاعدًا لا تبق فى مصرى، امض إلى الجحيم، وقال كرتباى فورًا: وما شأنك بمصر إن هذه الدنيا متاع الغرور ليست ملكًا لأحد إن كنت عاقلاً فغادر مصر وامْضِ إلى الجحيم أنا لم أستطع قتلك ولكن فى مصر كم ممن يسخط عليك وسوف يقتلك واحد منهم فى يوم من الأيام وتسوء سمعتك. فسُرّ سليم من كلامه وأجزل له العطاء حتى إنه صحب غازى كرتباى إلى اسطنبول، ثم فوّض السلطان سليم كل الأمور إلى خيرة بك.

* * *

الفصل الرابع عشر

ذهاب السلطان سليم إلى دمياط ورشيد والإسكندرية

بلغت مائتا سفينة من الأسطول العثمانى بولاق بمصر، وكان الاحتفال بذلك عظيمًا وزينت كل السفن، واستقل سليم السفن فى عشرة آلاف جندى فأطلقوا المدافع والبنادق ابتهاجًا. وبينما كانوا فى نزهتهم يشاهدون مائتى مدينة على شاطئ النيل جهة دمياط بلغوا ميناء دمياط، وهو على بعد خمسمائة ميل. وهناك وبالقرب من الشيخ أبى الفتح نزل السلطان سليم، وأهدى الأعيان عشر خزائن إلى السلطان سليم فوزعها صدقات على الناس جميعًا، وأطلقت المدافع طلقة من قلعة دمياط، وبلغ سليم مَرَج البحرين؛ فتوضأ وصلى فى الموضع الذى التقى فيه موسى ـ عليه السلام ـ بالخضر، ثم مضى إلى دمياط ثانية، وزار جميع أولياء الله، وطلب المدد من بركاتهم. وفى اليوم الذى وصل فيه رشيد بطريق البحر المالح أطلقت المدافع تحية وابتهاجًا من قلعة التينة، وأقام سليم فى مدينة رشيد؛ فتقدم إليه جميع الأعيان بالهدايا، وسلموه مفاتيح القلعة، وقام بزيارة كوم أفراح، وزار جميع كبار أولياء الله، ودخل حمّام عباد الله، واغتسل فيه، وخلوته الخالية موصدة وإذا ما فتحت لمريض شفاه الله. ومن هناك ركب هو ومن معه الزوارق وشرب من مرج البحرين فى رشيد، ولما دخل ميناء الإسكندرية وهى على بعد ستين ميلاً (العظمة لله) أطلقت المدافع من خمس قلاع، ومن سبعمائة سفينة من الأسطول العثمانى، وبقيت قلعة الإسكندرية كأنها نار النمرود.

وبين الميناءين اتخذ سليم لنفسه مقرًا، وقدّم له جميع الأعيان مفاتيح خمس قلاع وهدايا لا تدخل تحت حصر. ونال كل منهم منح سلطانية.

ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع الغورى بظهور أمر السلطان سليم سأل المنجمين فى مصر أن يحسبوا له طالعه وطالع السلطان سليم.

فقال كل المنجمين والرّمّالين وقارئى الكف وعلماء الجفر: إن ما فكرت فيه يريدك بالسوء وإلحاق المضرة بك.

هذا ما قاله جميع المنجمين وعلماء الجفر للسلطان الغورى، فهيأ الغورى نفسه لمواجهة هذا الأمر؛ فوضع كل خزائنه ونفائسه فى خزائن قلعة الإسكندرية، وكان فى ميناء الإسكندرية على الدوام خمسون سفينة حربية، وتآخى الغورى مع السلطان يعقوب فى بلاد المغرب؛ فاستقر الرأى على أن الغورى إذا ما هزمه سليم فرّ إلى المغرب بهذه السفن ومعه كل أمواله وبعد ذلك يعود لغزو مصر، وبناء على ذلك كانت كل خزائنه ونفائسه فى الإسكندرية ولكن العبد يدبر والله يقدر.

وقبل أن يمضى سليم إلى مصر جعل وزيره پيرى باشا واليًا على اسطنبول وأمره أن يضرب الحصار على الإسكندرية بسبعمائة سفينة شراعية وبعد أن قطع سليم المراحل مرحلة تلو الأخرى اشتبك مع الغورى فى القتال بالقرب من مصر، وغاب الغورى عن حومة الوغى، وبقيت كل أمواله فى الإسكندرية، ومضى سليم إلى الإسكندرية وفتح أبواب الخزائن وفى أول معركة أخرج سبعة وخمسين ألف كيس من مال مصر، واستولى على اثنى عشر كيسًا من الذهب الخالص، وفى البداية هزم الغورى فى سهل مرج دابق بالقرب من حلب، وبينما كان يتعلق بأذيال الفرار وقع علم النبى ﷺ فى يد السلطان سليم؛ فتفاءل بذلك وحمل العلم على بعير سبعة أيام. وتسلمه جندى يُسمى الحاج على، وبذلك أصبح حمل علم الرسول ﷺ تقليدًا مرعيًا؛ كما أُخِذ من قلعة الإسكندرية علم أحمر عليه صورة أسد وعبارة «نصر من الله»؛ كما استولى السلطان سليم على صندوق مرصع بالجواهر به السِنّة الشريفة التى سقطت من أسنانه ﷺ فى غزوة أحد، وشعرات من شاربه ولحيته الشريفة، ومكحلته ومروده، وقطعة من حصير وأبريق وضوئه، وسبحته، وقطعة من نعله، وعصاة من الخيزران وخفه، وخرقتان شريفتان له من ليف النخيل يقترب لونها إلى الصفرة، والأخرى من القطن الأبيض، وسرج، وسيف، وغطاء حمل جمل، وعمامته الشريفة، وقلنسوة بيضاء، وكلها طبقة فوق طبقة فى ذهب على ذهب، وذلك كله فى صرّة مزركشة، وقد كتب عليها هذه مخلفات رسول الله ﷺ ، فمسح سليم بكل هذه المخلفات وجهه تبركًا وقال: شفاعة يا رسول الله. كما أنه وضع عمامة يوسف الصدّيق على رأسه التماسًا للبركة ثم حفظها

فى الصندوق المرصع بالجواهر، كما رأى مدية كان يوسف الصديق يخط بها على الجدار فى سجنه ليتعرف بها مواقيت الصلاة، والبساط الذى كان يصلى عليه.

وأيام خلافته كان يلبس عمامة يوسف، ثم ابتكر العمامة التى تُسمى سليمى، وسميت باسمه، لأن السلطان أبو الفتح وولده با يزيد ولى كانا يلبسان العمامة العُرفى، أما هو فكان يلبس عمامة يوسف والسليمى، إلا أنهم وجدوا فى خزانة الإسكندرية عمامة قلاوى ولعل اسمها مستمد من السلطان قلاوون لأنها بقيت من عهده، ووجد كذلك سيوف الخلفاء الراشدين وثياب ملوك السلف وأسلحتهم وخمسين ألف بندقية مرصعة وعشرون ألف سيف مصرى، وعشرة آلاف درع، وعشرين ألف قوس، وسهام لا تدخل تحت حصر، وكنائن ودروع الفرس وأربعون ألف ترس حلبى ومثل عددها من التروس الدمشقية وعشرة آلاف نيزك، وعدد لا يحصى من الطبر الدمشقى وعشرون ألف درع وثلاثون ألف خوذة وعشرة آلاف طبق من الخزف المرتبانى من صنع الغورى نفسه، وما كان هذا النوع من الخزف فى أى بلد سوى مصر، وكان كلما نظر إلى ولى من أولياء الله يصنع هذه الأطباق المرتبانى وكان يقدم هذه الأطباق الخزفية هدية إلى الأعيان، وكان هؤلاء الأعيان يردون على ذلك بإهداء الذهب إليه على قدر ما يهدى إليهم من هذه الأطباق، وكان الغورى يصنعها طمعًا فى الحصول منهم على هذا الذهب، كما أخرج سليم من خزينة الإسكندرية أشياء شتى لا يتسع المقام لذكرها، وقد ملأت بها السفن العثمانية وأرسلت إلى الأستانة، وكان السلطان سليم فى الإسكندرية يزور من الأولياء مَنْ بقوا على وجه الحياة ويدعون له بالخير، وكان يطلب المدد من أرواح الموتى منهم، كما قدم مصر هو وسفنه من العقبة واحتفل بهذا القدوم، وفى ذلك الأسبوع كان الاحتفال بوفاء النيل فى قصر أم القياس، وهذا الاحتفال مذكور فى تواريخ مصر، وقد شاهد هذا الاحتفال السلطان سليم. أراد سليم أن يتخذ من مصر حاضرة له، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يؤيدوه فى هذا.

* * *

الفصل الخامس عشر

قوانين مصر فى دولة السلطان سليم بن با يزيد

ـ نوّر الله مضجعهما بأنوار الغفران ـ

قدم سليم من الإسكندرية وبإذن من علمـاء مصر جميعًا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصـر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن فى ذلك الـيوم كان حضـور الشيخ أبو الـسعود الجارحى والـشيخ مرزوق كـفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سليم خان بن با يزيد خان أيّد الله سلطنته إلى آخر الزمان.

وبـإذنـهـمـا الــشـريف سُكَّت العملة وكتب عليها «صـاحب النصر ضارب النصر عز والنصر فى البر والبحر السلطان بن السلطان سليم خان بن با يزيد خان ـ عز نصره ـ مصر سنة ٩٢٢».

وبعد ذلك جـمع سليم ذات يوم الـديوان السلطانى، وحـضره جميع أعضـائه على تفاوتهم فى الـسن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خيرة بك، وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسلـيمى وريشة نفيسة، وعلى ظهره خلعة فاخرة من الـسمّور، وحول خصره منطقة مرصـعة تعلق فيها خنجـر مرصع، وحـرص سليـم علـى أن يلبسه كل ذلك بنفســه، ورفع يده بالدعاء، وقال: لقد جعـلتك يا خير بك وزيرًا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيـف تخدم الإسلام فأنا لا رغبة لى فى شىء من مصـر، لـقـد ظفرتُ بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى، ووقفت جميع محاصيل مصر علـى النبى ﷺ فاشهـد ومن الآن فصاعدًا يا خـير بك أنت مولى هـذا الوقف؛ فأحسن خدمتَه.

ومنح من يتبـعون موكبه اثنى عشر ألف ديـنار ذهبًا كما منح خدام القـصر ثلاثمائة منطقة مرصعة، كما مـنح اثنى عشر سرجًا مزينًا بالجواهر واثنتى عشـرة جعبة للقائمين على سياسـة الخيل وسبع قِسِىٍّ خسروانيـة، كما منح خيامًا ذات ثلاثة أعـمدة ومظلة، وجعل لأربعـين من خدام القصر طوغـين لكل منهم، كـما جعلهم أمراء عـلى مصر.

وجعل مائة من الأغوات بكوات من الشراكسة، وأمر بأن يُعطل الديوان ثلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العطلة هى الجمعة والسبت والأربعاء ويحضر قاضى العسكر الديوان خمسة أيام ويقدم للديوان فى كل يوم كيسان من دنانير (   )[1]، ويُقدم ثلاثة آلاف صحف من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد (. . . . . .)[2]، وجعل سليم ذلك قانونًا لجاوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الأئمة والمؤذنين راتبًا، ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافًا، وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء، وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سماطهم يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع، وجعل ذلك قانونًا، ودامت هذه النعمة وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى، ويقدم من قِبَل السلطان لخاصته اثنا عشر حملاً وسبع وأربعون ألف أقچه وكان ولاة مصر وبغداد والحبشة واليمن والعراق يضعون ريشة على عمائهم المعروفة بسليمى، وكان هناك خان التتار يحكم فى بلاده ويأتى بعده فى الترتيب والى مصر، ثم ولاة العراق فتابعة اليمن، وأخيرًا بُودُمْ وهؤلاء الوزراء الخمسة يَنُوبُونَ عن السلطان فى الحكم ولهم صفته.

وبما أنهم كانوا يضعون الريشة على رءوسهم كانت لهم الدرجة على من سواهم من الوزراء. ووزير مصر طبقًا للخاصة السلطانية إذا ما عين قائدًا على الحبشة أو اليمن أو العراق فإنه يلزم عليه أن يمضى به هو وجنوده و(   )[3] إلى هذه المناطق، وبهذا صدر قانون سليمى. أما فى الوقت الحاضر بما أن الغلبة لجند مصر فإن جميع الأقاليم يسرى عليها قانون سليم ولا يبقى شىء تابعًا للوالى إلا أنه يسكن القلعة الداخلية مع ألف من جنوده، وأغواته جميعًا يعيشون على ما يصرف لهم من مرتبات طبق القانون، كما يوجد أربعة وعشرون رئيسًا للموانى وهم يعيشون على الكفاف. وللباشا ثلاثمائة

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

من الأغوات وخيامهم، وفى كل عام تُوزَع عليهم الأقمشة والثياب والقمصان والنعال كما يتم كساء كعبة الله بالكسوة السوداء من وقف السيدة شجرة الدر قانونًا مرعيًا. لأن شجرة الدر وهى من ملوك السلف كانت تدفع مرتبًا سنويًا لأغوات الخارج وأغوات الداخل التابعين لها؛ وقد أحصى السلطان سليم أوقاف شجرة الدر هذه وقال: إن شجرة الدر وهى امرأة كست الكعبة بالحرير الأسود، وقد أصبحت الآن سلطان مكة والمدينة وعليّ أن أكسو الكعبة الشريفة من أعلاها إلى أسفلها بالديباج والقماش المزركش وبالذهب واللؤلؤ إلا أن علماء مصر جميعًا وشيوخ المذاهب الأربعة والشيخ أبو السعود الجارحى لم يقروه على ذلك فيما سلف ذكره، وقالوا إن كسوة شجرة الدر لم يتيسر لأحد غيرها، إلا أن الله قدّرها على ذلك، والآن هذا الوقف وقفها، وشرط الواقف كنص الشارع». فغبطها سليم على ذلك وقال: مضت المرأة، فما أعظم ما عملت من خير لم يتيسر لغيرها من الملوك.

وماذا يمكننا أن نصنع نحن فى مكة والمدينة، فقام بعمل كسوة باب الكعبة الشريفة بالحرير الأخضر. ومزركشة بالذهب، وجَدّدَ بناء مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجعل الصندوق الشريف مكسوًا بالذهب وستارة باب منبر الحرم الشريف مزركشة بالذهب وعَمَّر ورمَم الحرم الشريف. أما البيت الذى ولدته فيه السيدة أمينه ـ رضى الله عنها ـ فقد جُددَت قبته وكُسيت بالرصاص. وبنى فى مكة مائة أثر للسلطان وتُلِيَت الخطبة لسليم أول ما تليت لآل عثمان فيها، وجعل على قبره الشريف ﷺ من الجواهر ما يبهر العيون ووَزّع الصدقات فى المدينة بلا حساب وجعل كمال باشا زاده قاضى مصر يقوم بمسح ألف قرية وقصبة وبلدة فى مصر. والحاصل أنه أمره بأن يسجل كل ما يطير فى الجو من طائر وما يدب على الأرض من دابة وما يسبح فى البحر من سمكة، ووزع المقاطعات على الملتزمين والأمناء. ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. ودُونت جميع قرى ولاية مصر وعددها (   )[1] قرية، وهى منقسمة أربعة أقسام. **والقسم الأول** (   )[2] قرية وهى جميعًا من أوقاف ملوك السلف، وقدر الوقف

(١، ٢) بياض فى الأصل.

بعدد أفدنته ووكـل به ناظر يدير شئونه ويحـصل إيراده فيعطى منه رواتب جـملة الأئمة والمشايخ والمسّاحين والمعرّفين، أما ما يتبـقى من ذلك فيرد إلى المال الأميرى وسُنَّ بذلك قانون خاص.

أما **القسم الثانى** فهو قرى الكشوفية، وهم (   )[1] قرية على كل منها كاشف وهى خاصة بـالباشا ويعاونه فى جـميع تحركاته مائـة أو مائتا جندى، ويُحصّـل الباشا أموال الكشوفية وقدرها مائتا كيس فى العـام، أما فى زماننا إذا أصبح البلد عاطلاً عجز الملتزم عن دفع ما علـيه من أموال ويغادر القرية وتؤول إلى الباشا وتصـبح قرية كشوفية ويجمع الباشا الرعايا ويخطرهم بذلـك، ويزرعها ويحصل منها المال، وإذا كان لها من يطلبها أعطاه الباشا إياها لأنه عمرها بنفسه.

وقسم ثالث هو أراض خاصة بالسلطان فيها كشـافون لهم رتبة البك، وعددها سبع عشرة وجملتها (   )[2] ألف قرية تحت إدارة الكاشف، وكل كاشف يقدم له مائة رجل من السبـع فرق، ويُطعِم الكاشف كذلك خـمسمائة أو ستمائة مـن السكبان[3]، ويحصِّلَ المال الـسلطانى من ولايته والثلـث الأول والثلث الثانى والثلـث الثالث والمال الصيفى والشـتوى وما إلى ذلك من أموال يجمعـها بمعاونة العسكر ويدفـع منها رواتب الجند ونصيب خزانة الـسلطان، وثمة ضريبة من خمسمائة أو سـتمائة أو ألف كيس من القروش تدفع مـن كيس السلطان لمن يطـوف الولايات من أفراد الفرق السبـع ولـم يقنع الجورباجية[4] بخمسة أكياس فأطلقوا بعض المجرمين من سلاسل الكاشف.

والقسم الرابع إذا كان الملـتزم فى شدة آلت قريـته للدولة ويبـيعها الباشـا فى المزاد بأربعين كيسًا أو خمسين إلى مائة كيس وكل رعاياه وتركاته تصبح مزادًا سلطانيًا.

ومن قانون سليم أن يأخذ الباشا ثمن ما يبيـع ويلتزم من اشترى للبلد حين التسجيل إذا أخذ (   )[5] عليه تـسديد كل عام المرتبـات وصرّة مكة والمدينـة وكل ما فاض سواء كان كيسًـا أو مائة كيس كان مالاً له، ويُعـمِّر القرية ويكون له حـق التصرف فى

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) السكبان: نوع من المشاه.

(٤) الجورباجيه: قسم من الضباط فى فرقة الانكشارية.

(٥) بياض فى الأصل.

تلك القرية مدى حياته، ولا تؤول إلى أبنائه بعد وفاته بل تصبح ملكًا للدولة، وسُنّ بذلك قانون.

وقد أقام سليم فى مصر عام، ثم اتجه إلى رشيد والإسكندرية سنة، ووصل إلى إستانبول عام ٩٢٣هـ وتوفى عام ٩٢٦هـ وخلفه ابنه سليمان المُلقب بسليمان الأصفر.

القسم الخامس: ما يدفعه كل ما فى مصر من الكفرة واليهود والقبط والأرمن والفرنجة بناء على شريعة النبى ﷺ وحاصل الكلام أن أمين الجوالى حاكم آخر ويسلم مائة ( )[١] إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى، ويرسل الصرة إلى مكة والمدينة كل عام مع أمير الحاج.

والقسم السادس كل معمور من القرى فى مصر يرسل ريعه إلى أغا دار السعادة* باسطنبول، وإذا مات الأغوات يسجل الباشا جميع قراهم ومخلفاتهم وهذا طبق قانون سليم وفى عهد ( )[٢] وإبراهيم باشا صدر فرمان يقضى بتعيين أغا أمينًا لبيت المال من قبل أغوات القرى، وبناء على أمر ( )[٣] حفظ كل جزئى وكل كلى، ويعين الباشا كذلك أغا مباشرًا ويوقع جميع ( )[٤] عليها؛ ويعرض الباشا على السلطان ويأتى من الأستانة رئيس البوابين أو ( )[٥] والأموال والقرى المذكورة تمنح لعبدٍ أو تُباع ( )[٦] وعلى ذلك فإن الأغوات السود يؤدون مال قراهم إلى السلطان، ومهما كان قدر ما يتبقى فإنهم يتصرفون فيه على أنه خاص بهم.

أما القسم السابع فبموجب قانون سليم يُسَجل الباشا ما يتقاضاه الانكشارية والعزب والمتفرقة، والمتطوعة، والجند حملة البنادق، والأيتام، والجوالين وجميع طوائف الجند، ولكن منذ عام ١٠٧٠ تغلبت فرقة المستحفظان أو الانكشارية وفرقة العزب واستولوا على بيت المال لأنفسهم، وهُم عدة آلاف من الفلاحين من المواطنين استولوا على بيت المال وإذا ما أُمروا بالحرب فإنهم يحصلون على نفقاتهم من بيت المال. وإذا ما اعتنق كافر الإسلام واتفق له أن وصل إلى بابهم يكسوه، كما يقدمون للغريب الغذاء والكساء

(١ : ٦) بياض فى الأصل.

* أغادار السعادة: رئيس الأغوات العاملين فى القسم الداخلى من القصر العثمانى الذى يعيش فيه السلطان مع نسائه وهو المسئول الأول عن تنظيم العلاقة بين هذا القسم والعالم الخارجى. ويتمتع بدرجة رفيعة من البروتوكول العثمانى، كما أنه المسئول عن أوقاف الحرمين الشريفين.

وإذا ما وقع أحد مواطنيهم أو زملاؤهم فى أسر الكفار يدفعون له فدية قدرها عشرة آلاف قرش ويخلصونه من أسره.

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الباشا أن يسيطر على بيت المال ولكنه يسيطر على بيت مال الغير من العامة والخاصة، ويكلفون جاويشية الفرق السبع وقاضى العسكر يكلفون القسَّامين بتدوين المال، وبإذن أغا الباشا يودعون المال فى خزانة الباشا، لأن على الباشا التزامًا يرعاه، وتوزع الرواتب من المال المحصل، وإذا ما ظهر وارث لمتوفى واستطاع إثبات ذلك فإنه يطلب مال قريبه المتوفى من الباشا بموجب دفاتر جاويشية الفرق السبع ودفتر القسّام؛ وينال الوارث حقه.

القسم الثامن: القرى الموقوفة على مكة والمدينة فى أقاليم مصر «يرسل منها مصروفات قدرها اثنان وستون ألف كيس مع خمسة وستين ألف دينار من ذهب فى الصرّه وتسلم الصرّة إلى أحد أغوات الباشا وسبعمائة جندى من السبع فرق، ويسلمونها أمين الصرّة فى الشام الشريف، وعليه إحضارها إلى المدينة ولذلك قانون مرعى، ومن قبل كان السلطان سليم يرسلها من اسطنبول وكان قانونًا سليميًا، كذلك يُرسل من مصر ستمائة كيس من ستة آلاف وقف وكان يمضى بها أمير الحج المصرى لتسليمها إلى جميع الأشراف والمشايخ والمجاورين فى مكة والمدينة.

أما القسم التاسع: فهو أن ما يُتحصل من أقاليم مصر وقراها وعددها سبعمائة قرية وقصبة مثل مطوبس طاروط الشريف وصنبو وجملته (   )[1] أردب من الغلال تشحن فى سفن تسمى السفن المحمدية إلى مكة والمدينة وسوف تذكر القوانين الأخرى فى موضعها.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل السادس عشر

ذكر كل من فى إيالة مصر من خليفة وأمير لواء وأمير سنجق وكاشف ومرتباتهم طبق قانون السلطان سليم

يكون سلطان البرين أمير الحج فى مصر وهو أحد بكواتها ويقال: لبعضهم متصرف، ولبعضهم طوغان، ومقره فى السويس بناء على القانون، وجميع العرب المقيمين على طريق الكعبة يسمون أمير الحج سلطان البر، وله الرياسة على أربعين ألف حاج فى كل عام.

والنيابة الثانية فى مصر: لأمير السويس ومهمته إرسال اثنى عشر سفينة كل عام محملة بالغلال وما لا يحصى كثرة من الحجاج إلى جده وينبع عن طريق بحر السويس، وهو يتقاضى فى العام اثنى عشر كيسًا وله من مخزن يوسف فى كل عام (   )[1] أردب من القمح، ويطعم جنوده وربانيه والذين يقومون بالتجديف فى سفنه وهو يبحر، وفى سفنه التى تحمل الفوانيس، والعلم الذهبى الأصفر ويسمونه سلطان البحر.

والنيابة الثالثة: هى حكومة ميناء جده وفيها باشا مستقل، وأحيانًا يُمنح طوغين لأن له الحق فى السيطرة على الأشراف، ويسميه العرب وكيل السلطان، وسلطنته عظيمة لأن جميع ملوك الهند والسند واليمن والحبشة وسواكن يرجعون إليه، ولأنهم يعدونه وكيل السلطان ودائمًا تأتيه الرسائل من ملك الهند مصحوبة بالهدايا.

والنيابة الرابعة فى مصر: هى منصب شريف مكة المكرمة ويسمون القائم عليها سلطان الأشراف، ويذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر آل عثمان وله الحكم النافذ حتى بغداد والبصرة ولحسة* واليمن وإذا شاء جمع أربعين أو خمسين ألفًا من الفرسان.

أما النيابة الخامسة فى مصر: فهى على اليمن وكانت حكومة اليمن تحت حكم مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع أى إلى عام ١٠٣٣هـ وفى هذا العام استولى الأئمة الزيدية على اليمن وحكموها.

---

(١) بياض فى الأصل.

* تعرف الآن باسم الإحساء.

والنيابة السادسة فى مصر: هى الحبشة وهى الآن تحت تصرف وزراء آل عثمان، وهى سلطنة عظيمة. ـ مصراع: «سلطان الحبش كأنه طفل أسود» .

والنيابة السابعة: هى بلاد الفونج* وملوكهم الآن يدينون بالطاعة إلى وزراء مصر.

والنيابة الثامنة: هى طرابلس.

والتاسعة: تونس.

والعاشرة: الجزائر. وهذه الحكومات الثلاث تابعة لمصر الآن وما زالت لكل منها سكتها (عُملتها) وفى كل عام يذهب أحد الأغوات من قبل وزراء مصر لكل من ولاة هذه النيابات العشرة لاستمالتهم ويصلهم منها هدايا تصل إلى وزراء مصر، وفى مصر مير لواءات ممن لهم طوغان وطبل وأربعون علمًا، أما فى زماننا فيقرع الطبل فى اثنين وعشرين موضعًا ويمد السماط المحمدى ويوجد الأمراء ولكل منهم وظيفته، فهناك أمير مسئول عن إيصال الخزانة إلى اسطنبول مع خمسمائة رجل، وأمير آخر يحمل خاتم السلطان حتى إذا ما توجه قائد من قبل السلطان للحرب أمر بالحرب بخاتم أمير الخاتم هذا، ومنهم أمير بولاق وله خمسمائة فارس، ومنهم أمير على مصر القديمة وله أيضًا خمسمائة فارس ومنهم أمير الإمام الشافعى وله خمسمائة فارس وآخر لسبيل علام وله خمسمائة فارس وهم يستقدمون ويرحلون المسافرين والزائرين.

وثمة أمير آخر وظيفته نقل الحجاج وقوافلهم إلى ميناء السويس وذلك بمعاونة خمسمائة رجل. أما الآن فرائد القافلة بدلاً من الأغا. وكذلك أمير ومعه خمسمائة رجل يبعث ويأتى بالتجّار والحجاج، وكذلك بك أو أمير معه خمسمائة رجل على أهبة الاستعداد حتى إذا ما وقع على مصر عدوان كانت مهمة هذا البك المضى لمواجهة هؤلاء المجرمين بأمر من الوزير.

وثمة أمير آخر معه خمسمائة رجل يقومون على الكلار العامرة لآل عثمان وكل عام يقوم بتحصيل (   )[1] و ٣٣ كيسًا، كما يقوم بتحصيل (   )[2] أردب

(١، ٢) بياض فى الأصل.

* أى بلاد النوبة حالياً.

من الأرز و(   )[1] قنطاراً من السكر و(   )[2] وسبعين رزمة من البن و(   )[3] أردب من العدس، وذلك من مدن دمياط وفراسكور ورشيد، وينزلون هذا إلى ميناء رشيد وتحمل في زوارق وتوضع في المخازن بمدينة الإسكندرية، وعلى ذلك الأمير إرسال هذا كله إلى الأستانة في أيام مناسبة.

وأمير «أوبك» كذلك هو دفتردار البلد، وهو يرأس غيره من البكوات وكلهم في حاجة إليه، وطبقًا لقانون السلطان سليم كان يوجد أربعون من بكوات الشراكسة، أما الآن فهم عشرون، ولكل مائة منهم رجل، والبكوات الآخرين (   )[4] يحضرون من شَهْرٍ إلى شهر وهم مُتأهبون على الدوام مع فرقة الموسيقى العسكرية وجميع هؤلاء البكوات لقاء خدمتهم، يتقاضون (   )[5] سنويًا عشرة أو اثنى عشر كيسًا و (   )[6] أردب من الغلال و (   )[7] من اللحوم.

في ذكر من هم على منصب أمير الأمراء في مصر

أولاً أنعم السلطان على (   )[8] بطوغين، ويتقاضى في العام ستة أكياس من ديوان مصر، وله كذلك ستة أكياس من دمياط، وله من المدينة ستة أكياس أخرى تأتيه بلا وجه ظاهر ونظير هذه الأكياس الثمانية عشر التي يتقاضاها لقاء عمله، وكان يبحر بسفينيتين من نوع القادرغة مرتين مع قبودان باشا لمدة ستة أشهر، وفي شهر نوفمبر ترسو سفنه على ميناء دمياط منصورة ومظفرة . ورشيد إقليم إدارى كذلك وجميع سلياناته مثل أمير دمياط والواحد منهم يسافر في البحر الأبيض بسفينين من نوع القادرغة. وكذلك سنجق الإسكندرية وهو مثل دمياط ورشيد يتقاضى مرتبات سنوية (سليانه) من ديوان مصر وسنجق الإسكندرية عظيم، وأميرها يرأس أمير سنجق رشيد، وأمير سنجق دمياط، فيكون بسفتهم الست من نوع القادرغة مكلفين مع الأسطول السلطاني بمرافقة سفن التجار ذهاباً وإياباً. والسنجق الرابع في مصر هو سنجق الشرقية، والخامس الغربية، والسادس المنوفية، والسابع الجيزة.

(١ : ٨) بياض في الأصل. ويفهم من النص أنه «أمير دمياط».

ومنذ فتح السلطان سليم لمصر ظهر فى بلاد المغرب تبر الذهب الذى سُمى «أوجيله» وصارت «أوجيلة» كشوفية عظيمة، وعلى عهد السلطان إبراهيم، وفى أيام مقصود باشا وزير مصر استولى مقصود باشا هذا على طرابلس وبها كشوفية أوجيله الموجود بها المعدن النفيس، وهى إلى الآن فى حوزته ويستمد منها الذهب. أما السنجق الثامن فهو المنصورة والتاسع القليوبية والعاشر جيزة يوسف، والحادى عشر بنى سويف، والثانى عشر فيوم يوسف، والثالث عشر المنيا، والرابع عشر منفلوط، والخامس عشر جرجا، والسادس عشر الواحات، والسابع عشر ابريم، وكل هذه السناجق والأقاليم وأمرائها تجرى حساباتها بالحساب القبطى من عام إلى عام وما تبقى فى الذمة يقدم إلى دفتردار السلطان، وهذا ما يودع خزانة السلطان، وفى كل سنجق ثلاثمائة أو أربعمائة قرية وبلدة معمورة وأعظم هؤلاء البكوات بك جرجا فهو يحكم بلاد الفونج وبلاد البربر والسودان وأوجيله والمغرب، وله خمسة آلاف من الجند ويمنح بعض البكوات طوغان[٢]، ويتحصل من مصر القديمة فى كل عام مائة ألف أردب من الغلال، ويقدم إلى جند مصر العلف والخبز. كما تعطى من المال السلطانى مائتا كيس ويقدم إلى إدارة الباشا ثمانون كيسًا ولجند جرجا راتب قدره مائة كيس وهى محسوبة عليه، ومن إقليم الصعيد يرسل بك جرجا أربعمائة ألف أردب من الغلال ويتبقى له فى العام مائتا كيس وبعد المصاريف يُسمى الصعيد العالى، وهو صعيد مصر، وهذا ما خص به الله الصعيد وهذا ما سوف يذكر فى موضعه بإذن الله.

وديوان باشا جرجا هذه يشبه ديوان باشا مصر تمامًا حيث يجتمع فيه أعضاء الديوان ويكثر فيه الأخذ والرد والتسليم والتوقيع والعقد والحل. وهو ديوان يعجز اللسان عن وصفه. وتحت إدارة حاكم جرجا أربعة وعشرون كشوفية وهو يخلع على هؤلاء الكشافين الخِلَع. وهؤلاء الكشافين هم من نتحدث عنهم حسب ما جاء فى القانون.

---

(٢) الطوغ: ذؤابه، أو خصلة تصنع من شعر الخيول تستخدم شعارًا مميزًا. لمزيد من التفصيل انظر: معجم الدولة العثمانية ص٨٦ – ٨٧.

أولاً الداخلــون فى هذا القانون كـاشف منفلوط، ثـم كاشف المنيا، وكـاشف شرق إدفو، وكاشــف شرق أخميم وأبو تـيج، وكاشف وكشـافو تخته والواحــات، وكاشف المنشية وكشافو بــلابش وفوه العليا، وكشوفية قنا وقوص، وكشوفــية القصرين وهم فى غرب النيل بالقرب من كشوفية جرجا وكشوفية نما فى الجهة الغربية وكشوفية أسيوط فى الغرب. وابن ريان العابد كانت تسمى كشوفية شيخ العرب، وكشوفية سليم فى الشرق وكاشف المريج وبهجور وفرشوط والقصاص وكشوفـية إسنا فى الغرب وكشوفية سنهود غرب النيل، وكشوفيــة قصير بهانس فى الغرب، وكشوفية برديس بــعد جرجا وكشوفية الجزيرة فى الغرب.

وطبقــا لقانون الكاشــفية كانت ولاية إبــريم تحتوى على أربــعة وعشرين كاشــفًا من أصحاب الطبل[1] وعلاوة على ذلك كان بها ستة كشافين ملحقين على كشوفياتها. كما ينضم إليهم بعض مشايخ العرب ممن لا طبل لهــم فتصبح جملتهم أربعة وأربعين كاشفًا ومهمتهم إرسال الغلال إلى جند مصر.

* * *

(١) أصحاب الطبل: أمراء الطبلخاناه، رتبة فى الجيش كانت تسمح لحاملها بحيازة أربعين فارسًا.

الفصل السابع عشر
قوانين ديوان مصر فى عهد السلطان سليم
فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر هو دار السلطان الغورى الواسعة التى تسع خمسة آلاف شخص وعلى جانبيه قمريات ويجلس فيه كتبة الأقلام والمحاسبون مع الخليفة يفحصون الدفاتر. وفى وسط حجرة الديوان موضع مرصوف بالرخام يجتمع فيه أصحاب الحاجات خمس مرات فى الأسبوع ويخرج عليهم الباشا وعلى يمنته الدفتردار والبكوات، وقد اختلفت هيئة عمائمهم، وعلى يسرته يجلس رؤساء الباهية والمطوعة والانكشارية والطوبجية وكذلك رئيس فرقة العزب، ويطعمون ثلاثة آلاف صحف، إلا أن كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس الجبه جيه ورئيس المعماريين والصوباشى وجاويشية العزب والانكشارية لا يجلسون على تلك المائدة ويتناول أعضاء الديوان الطعام على حسب الأصول المرعية، وترفع الصحون ويأتى الخدام بالأباريق والقدور ويغسل الجميع أيديهم ويدعو القائم على الدعاء فى الديوان، وحينما يذكر رسول الله ﷺ يقفون مرتين إجلالاً وتعظيمًا، كما يقفون مرة إذا ذكر السلطان العثمانى، ثم يتفرق الناس بعد الدعاء ويبقى أصحاب الحاجات ويسأل كتخدا الجاويشية فى صوت مرتفع: هل من شاك؟

فإذا وجد شاك بُتَ فى أمره وفصل فى خصومته، ويمضى الباشا إلى حجرة الكرسى ويبقى كتخدا الباشا والدفتردار ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية. وإذا ما وُجدت قرى آلت إلى المال الأميرى وهى خالية نادى الدلالون عليها بالمزاد وتباع، وبعد ذلك يتسلم الدفتردار والروزنامجى بقية المال الأميرى، ويمضى الجاويشية هنا وهناك لتحصيل هذا المال. أما العاجزون عن تحصيل المال من الملتزمين فيحضره الجاويشية إلى وسط الديوان حيث يوجد مكان لشنقهم، وفى هذا الموضع حبال غلاظ والملتزم المقصر تُربط ذراعه فى بكرة ويقوم أربعون أو خمسون جلادًا قساة بتجريده من ثيابه ويضربونه بالسياط بعد أن يرفعوه على عود بين الأعيان، ويرتفع صراخ المسكين إلى عنان السماء ولا يستطيع أحد أن يشفع له؛ لأن من يقومون بالشفاعة يطلبون على ذلك رواتب أول كل شهر أو كل

ثلاثة أشهـر، ويقولون له: حصّـل المال وسلمه لنا ونـحن نرى ذلك عيانًـا، ولا يشفع الأب لابنه ولا الابن لأبيه. وهذا ما يعرفه أعيان مصر ولهذا لا يشفعون لأحد وإن كان لهذا المسكين مال قـدمه وينام على حصير وإذا لم يك ذا مال زجـوا به فى سجن ضيق جهنم إزائه أعـراف. وإذا عاش فيه الإنسان ليلة مـات. ثم تباع قريته وممتلـكاته وبذلك يكون خـلاصه. وفى هذا المـقام يكون الحـكم للدفـتردار الباشـا لأن جراديتنـا تحصل مرتباتهم من الدفتردار وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة، والدفتردار أعظم بكوات مصر كفاءة ويوليه السلطان منصبه بمنحة طوغين وهو يحصل كل عام من أقاليم مصر أربعمائة آلاف وخمسمائة كيس و ( )[1] بارة، وفى كل كيس خمـس وعشرون أوقية وكل كيس فيه النقود المصرية، كل قرش فيه يـعدل ثلاثين باره وبذلك يكون ما فى كل كيس مصرى ٨٣٣ قرشًا، وهـذه المبالغ فى يد الدفتـردار وفى العام تبلغ ستـة وعشرين ألف كيس وتحت يد ( )[2] ثلاثة آلاف من الخدم، وخزائن هـذه الأموال عليها خاتم الديوان وهى اثنتـا عشرة خزينة ( )[3] ويضاف إلى ذلك خزينتـان وبذلك يجتمع لمصر أربع وعشرون خزانة وفى كل خزانة ألف ومـائتى كيس. وسوف نتحدث عنها فى موضعه بإذن الله، ولهذا الدفتردار مكان فى ديوان مصر، وليس لغيره من البكوات.

وفى ولاية مصـر لكل ( )[4] باب لـلكتخـدا وصرافين، ويـقوم الصيـارفة بإحصاء المال الوارد إلى الخـزانة وإذا ما نقص أكمله «كتخدا قبـوسى» أى نائب الباب. وتحت يد هـذا الدفتردار رئـيس للصـيارفة يهـودى وتحت يده كذلـك ثلاثمائـة صراف يهودى، ولكل ملتـزم صراف يهودى، وهم يخدمون فى الأقاليم. وفـى جميع الأزمنة كان اليهود شياطين ملاعين إلا أنهم فى مصر أحـسن سيرة منهم فى غيرها وإذا ما تلقى أحد عملة نحاسية زائفة فى مرتبه وقابل صرافًا قدمها إليه فأبدله غيرها.

دار سك العملة فى مصر

ودار سك العملة هى عرض السلطان ويتولى شئونها الدفتردار، وعدد خدام دار سك

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

العملة خمسمائة رجل وكلهم يتبعون الدفتردار، أما أمين دار سك العملة فهو أغا الباشا. أما صاحب الكلمة فصاحب العيار، والدفتردار يتبعه. ولأن صاحب العيار مسئول عن السكة وعن العيار إذا وُجِدت عملة مزيفة قُطِعت يد صاحب العيار، وجميع خدام دار سك العملة تحت رياسته، وله خمسون سمسارًا يهودى وخمسون نحّاسًا وخمسون صائغًا وعشرة (هدفكار) وعشرة وزانين وخمسون (كهله دار) وعشرون دقاقًا وعشرون سكاكًا وعشرة من الدولابجية وعشرة حلائين ووزّان وسكاك وعشرون حارسًا وليس لهؤلاء عمل آخر غير ذلك وكل من جاء من بيته خلع ما عليه من ثياب ولا يلبس إلا الثياب الرسمية الخاصة بدار سك العملة والحراس يفتشون الخدام القائمين على العمل فى هذه الدار، ربما كان فى ملابسهم شىء مزيف وإذا ما وجد فى ثيابهم شىء فإن الحراس يرقبونه. وكل شىء يقدم ويأخذ بالوزن وبعد سك العملة تترك ثانية على النار وإذا ما خرجت الأقجة من النار سوداء جىء بصاحب العيار فى دار الضرب وتقطع يداه بقطع النظر عن كونه بك أو باشا، ولرئيس دار سك العملة مرتب يومى وهو محجوز فى حجرته على الدوام ويسلم ما سُكَ من عُملة لصاحب العيار ويختم عليه فى الخزانة وللخزانة خمسون حارسًا وهذا عمل شاق. ومن رأى دار سك العملة فى مصر كان فى غنى عن رؤيتها فى غيرها لأن الذهب جميعه يأتى من خزانة مصر وفى دار سك العملة هذه يصهر الذهب ليلاً ونهارًا، ويذاب خامه ويحول إلى أسلاك تقطع، ثم تدق، ثم يسك بمحله، ويصقل، وعندما يخرج من دار السكة وتداولته مائة وسبعون يدًا أصبح بلاء عظيمًا ولكنه بلاء حلو كالجماع، ولكنه حلو كذلك لأهله أما لغير أهله سم أقتل من سم الأفعى وحينما كان الذهب يتكوم فى مصر كالجبال ضاع كأنه طيف خيال كما أنه وهم خيال كذلك لمن يصدون عن دنياهم، وغرضنا من هذا التفصيل هو التحقيق وإلا فلله الحمد على قناعتنا.

أوصاف حكام مصر وسادة ديوانها

وفى مصر تيك كتخدا الجاويشية دفتردار الباشا، وهو بك بمقتضى القانون وله علاوة

على أتابعه مائتا جاويش وجميع جاويشية الديوان يضعون على رءوسهم العمامة المعروفة بالمجوّزة، ويحصل بواقى المال السلطانى بفرمان من الدفتردار، ويتلوه فى الحكومة رئيس المتفرقة وهو مسئول عن أموال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى، وله من الأتباع مائتان، ويليه فى الحكومة ترجمان باشى أى رئيس المترجمين يتلقى شكاوى الشاكين ويمضى بها إلى مجلس الباشا. وإذا ما استدعى المدعى والمدَّعى عليه قام بالترجمة. وبمقتضى القانون يتلوه رئيس المتفرقة وله خمسون من الأتباع.

ورؤساء الجاويشية من فرقة الانكشارية ورؤساء الجاويشية من فرقة العزب يحضرون الدواوين الخمسة وإذا كان لأحد من زملائه فى فرقته شكوى ينظر فيها بمعرفة هؤلاء الرؤساء ومصيرهم إلى إمارة الحج أو رئاسة الخزانة، ثم يصبح «قول كتخداسى» أى وكيل، وبعده سنجق بك أى أمير الإقليم.

والروزنامجى حاكم عظيم كذلك فى مصر وهو ركن مصر الأعظم وكل ما يطير فى السماء وما يسبح فى البحر وما يمشى على الأرض مقيّد فى دفتر الروزنامجى وإذا ما شاء جعل الباشا مفلسًا حين عزله، وإذا ما شاء جعله ثريًا مستورًا، ومقامه يعادل مقام الدفتردار. وتحت الروزنامجى الكبير روزنامجى صغير، وتتبعه بعض الإدارات وأنبار يوسف ومن أجل مراقبة الروزنامجى الكبير فإن وزراء مصر يعينون روزنامجى صغيرًا ممن يتوسمون فيه الكفاءة والنجابة ويجب أن يكون كذلك لأنه شرف الباشا حين عزله وعلى الجوانب الأربعة للروزنامجى خمسون يخلفونه ويمسكون دفاتر الروزنامه، وكل منهم مكلف بدفتر ولاية من الولايات، وكل منهم مأمور بالنظر فى دفتر إقليمه، وكانوا يتواجدون فى أقاليمهم الخاصة بهم، ويتلوهم رئيس الديوان المعروف بـ مقابله جى أفندى وهو يقيد رواتب الفرق السبع وترقياتهم والمنضمين إليهم والمسرحين منهم. وهذا الرجل موضع ثقة وزير مصر الذى يعتمد عليه. إنه ليس مصرى ويتقاضى فى العام أربعين كيسًا وتحت إدارته خمسون، وإذا أهمل أحد النظر فى القائمة التى بين يديه منهم وأحيلت هذه القائمة على غيره قدر له مرتب شهر ويأخذ المقابله جى نصف هذا المرتب وما عدا ذلك يُمنح لدراويش القلندرية.. وثمة إيرادات كثيرة أخرى. إلا أن هؤلاء

المقابلجية يسكنون مع خلفائهم ولكن جان بولاد زاده حسين باشا أصدر فرمانًا بإقامة المقابلجي الخاص به في الديوان. كما كان يسكن مع سائر خلفائه ويجلس في ديوان الباشا بمصر وله دخل سنوى قدره اثنان وعشرون كيسًا من الكشوفية إضافة إلى الهدايا التي يتلقاها.

وثمة موظف آخر في الديوان له الوقوف على جميع الأمور وهو يضطلع بوكالة الديوان، وهذا الموظف يقيد ـ وفق القانون ـ كل الأوامر الصادرة من مصر. وينال شيئًا من كل ضريبة ويتقاضى هذا الموظف كيسين.

وفي أحد أركان الديوان كذلك أمين الدفتر، وهو من قبل الباشا. وكاتب الشواغر الخارجية و(طشره محلول كاتبى)، وأمين الرسائل الخارجية وأمين الخزانة والمقابله جى أفندى، والمحاسبه جى أفندى، وكاتب الأيتام أفندى، وكاتب الانكشارية، وكاتب العزب، وهؤلاء بعد الديوان يبقون في إداراتهم الحكومية. كما أن كتبة الفرق السبع يبقون في إداراتهم الحكومية، وهؤلاء يرتدون أحسن الخلع ويجلسون مع معاونيهم.

ذكر الموظفين الذين يبقون في الديوان بلا خِلعة، وأتباع الباشا ووظائف المتقاعدين منهم

أولاً إدارة المشاه وهي إدارتان وتعني إدارة المقابلة والإدارة الثالثة منظمة والرابعة إدارة المتقاعدين والخامسة إدارة الشراكسة والسادسة أقلام السباهية والسابعة إدارات الأيتام والثامنة إدارات الخصيان والتاسعة إدارات ( )[1] والعاشرة إدارات الجواليان والحادى عشر إدارات الأمناء، وثاني عشر إدارات الملتزمين، ثالث عشر إدارات ( )[2] رابع عشر إدارات الخزانة العامرة، وخامس عشر إدارات صرّة مكة والمدينة، وثامن عشر إدارات انبار سيدنا يوسف الصديق أي أكلة الخبز، تاسع عشر إدارات المتفرقة، وعشرون إدارات الجاويشية، وحادى وعشرون إدارات المطوعة، ثاني وعشرون إدارات التفكجيه أي حملة البنادق، وثالث وعشرون إدارات البحرين، ورابع

(١، ٢) بياض في الأصل.

وعشـرون إدارات جماعة المـشاة و (   )[1] الســويس. وعددهم خـمسة وعـشرون وخامس وعشرون إدارات رجال المدفعية والجبه جيان والعربه جيان وصانعو الذخائر وكل هؤلاء نقـلوا إلى مشـاة المستحفـظات. وإدارات الروزنامجـه الكبرى، وفـلاحو المدن، ومقاطعـة جى الإدارات الشرقية، والغـربية ومقاطعـة جى المدينة، ومقاطـعة جى إيراد الغـلال ومقاطعـه جى مصرف الـغلال، وإدارات دشيـشة صغرى، وإدارات المحـمدى وإدارات المرادية وإدارات الخاصكية، وإدارات كاتب محلول.

ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين

وعدد خزائن مصر نادرة العصر

والمستخلص مما ذكر أعلاه أن هذه الإدارات سبعون إدارة، وهؤلاء السادة طبقًا لقانون سليم يـعملون فى ديوان مـصر حسب درجاتهـم. ولا وجود فى ديوان مصر لـدفتردار الزعامة أو التيمار وأمين الدفتر كالشأن فى غـيرها من الولايات. وبناء على قانون سليم فلا وجود فى مصر لشىء يتعلق بالتيمار ولا الزعامة لأن جميع أقاليم مصر عند تدوينها دُوِنت على أنها قرى ملك للدولة وما سمع بأرباب التيمار والزعماء ورئيس الجند وأمير اللواء.

ومما سـلف ذكره عـن الكتّـاب إدارات تعـرف بـ خورده أقـلام وهى إدارات غريـبة وعجيبة وقد ذكرنا قبل غيرها.

أولا: كل مـا فى مصر مـن الحواه ولاعبى الـصراخى، والمـصارعين، واللاعـبين، بالـكؤوس، ومُربى الـطيور، والـلاعبين علـى الحبال، والـلاعبين بـالنار، واللاعـبين بالكـيزان، واللاعـبين بالأطباق، والـلاعبين بالصـوانى، واللاعـبين بالكرة الحـديدية، ومحركـى العرائس، والـلاعبين بالـصاجات، ولاعبى الـقمار، واللاعـبين بالقـصعة، واللاعبين بالـورق، واللاعبين بالمرايا، والريـاضيين، واللاعبين على الحـبال، واللاعبين بالطيور، واللاعبين بالخرز، والحمّارة ومروضى الثعابين، واللاعبين بالقضبان، واللاعبين بالمطـارق، والقُرداتيَّة، وعـارضى خيال الظل، ومـصارعة الديكـة وأصحاب السيـميا،

---

(١) بياض فى الأصل.

واللاعبين بالفئران ومروضى الدببة، والقاصين وقَشْمَرَان، ومربى النحل، والحاصل كل هؤلاء من أصحاب الحرف المضحكة والنحالين وبائعى الأشياء العتيقة، هؤلاء جميعًا تحت حكم أمين الخورده ولهؤلاء كثير من الأمثال، ويرد على الخزانة الأميرية فى كل عام (   )[1] كيس وتوضع فى خزينة مصر، وفى ولاية مصر ثمانون خزانة ويقدم فى ولاية مصر إلى الجند كل عام ملء تسعة خزائن والخزانة العاشرة لأشراف مكة والمدينة وخزانة للباشا وأخرى لأغواته. أما الخزانة الثالثة عشر فلأمير الحج المصرى والخزانة الرابعة عشر فتذهب إلى مصاريف أهالى العقبه وأزلم أثناء عودة الحجاج.

والخزانة الخامسة عشر ينفق منها على تعمير وترميم مكة والمدينة وزينتها وشراء الشمع الكافورى وعودها وعنبرها وما يجرى هذا المجرى. ومن الخزانة السادسة عشر تمضى من مصر الصُّرة إلى دمشق ومنها إلى مكة والمدينة، والسابعة عشر ينفق منها على المطبخ السلطانى ويشترى بها الأرز والسكر والأشربة العطرة والقهوة والفطائر المختلفة.

أما الخزانة الثامنة عشر فهى لفقهاء مصر ومقسمى التركات ولقضاة مصر. والتاسعة عشر حسب ما جاء فى دفتر الغزالى كان لمصر سبعة وسبعون ألف وقف طبقًا لما سجّله كمال باشا زاده فى بداية حديثه عن مصر، والآن اثنا عشر ألف منها معمور وموجود، وكل قادم إلى مصر يأخذ منه فقهاؤها دينارًا ذهبيًا للأوقاف وثمة أوقاف تنال أربعين أو خمسين أو مائة دينار ذهبى ويحصل لهذه الأوقاف، ومن العقارات والأفدنة خزينتان، تُقدم إلى المرتزقة والضيوف.

والخزانة العشرون تكون من نصيب كشافى مصر ويحصّل الخزانة الحادية والعشرين أمناء مصر وملتزموها وهم ينفقونها. والخزانة الثانية والعشرون يحصّلها مشايخ قرى مصر، والثالثة والعشرون يحصّلها الرعايا والفلاحون، والرابعة والعشرون يُتصدق بها على من يقدم مصر من تجار الأقاليم السبعة، أما الخزانة الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون تُحصى هذه الخزائن الثلاث.

---

(١) بياض فى الأصل.

وكل عام تمتلئ انبار يوسف بالغلال ويقـدم منها الخبز والعلف إلى الجند، والحاصل أنه ـ على حـد قول رجال الأعمال فى مصر، وهـو صحيح ـ أنه فى كل عام يـتحصل لمصر ثلاثون خزانة وفـى كل خزانة منها ألف ومائتا كيس وسوف نـكتب عن كل خزانة فى موضعها ولكن أشير إلى هذه المواضع طـبق الفهرس، ولكن يا عزيزى هذه الخزائن يصيب منها كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء فمن إذن الفقير.

ذكر مقياس النيل المبارك وكثرة الناس
وأنواع الحيوانات ووفرة الحمّارين

لقد أفاض الله على مصر البركات بالنيل، فيجمع المال السلطانى، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقيـاس بمقدار ثمانية عشـر ذراعًا يتحصل المال الســلطانى، فإذا ارتفع ماء الـنيل فى المقيـاس عشرين ذراعـًا يكون للـباشا وللأمنـاء والملتزمـين والكاشفـين والرعايا نـصيب ويحتفظون بـالمال، وما لم يرتفع إلى ثمانيـة عشر ذراعًا اللهم عافنا يسـتحيل رى البلاد ويقع القحط والغلاء ويفلس جميع الأمنـاء والملتزمين ولا يتحصل خراج للسلطان. وإذا لم تكتمل الخزانة اضطر الباشا إلى تكميلها من ماله ويدفع رواتب الجند من صلب ماله، ويطلب ثلاثمائة ألف وخمسون إمام يحملون البراءة والخطباء والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات وجمـيع سكان البلاد يطـلبون من متولى ونـاظرى أوقافهم الطعـام والمرتبات، ولمصر خزانتان للمال وإذا لم تدفع الرواتـب ثارت الخواطر ولكن إذا ما عم مصر الرخاء نالوا طعامهم ورواتبهم ويدعون للباشا والسلطان وأصحاب الخير.

ولكن بـناء على ما كتـب محى الدين بن عـربى من جفر: «إذا استـوى الماء وتجاوز الخشبة من الجبل إلى الجبل وزاد على ثلاثة أذرع فلا شك فى غرق القاهرة، حقًا إن هذا كذلك.

ولما كان إبراهيم باشا كـتخدا واليًا على مصر فاضت مياه النيل مـن عتبة دميرقبو أى باب الحديد وأمام تكية إبراهيم الكُلْشنى بدا النيل وكأنه سهل كفى أهل مصر.

وجملـة القول أنـه ليس تحت قُبةِ السمـاء وليـس فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا غيرها بلاد مزدحمة بالسكان، خصبة وافرة المحاصيل مثل مصر أم الدنيا.

أما سبب تسمية مصر أم الدنيا فهو أنه إذا وقع القحط فى جميع بلاد الدنيا فإن مصر قادرة على إطعام هذه الدنيا. لقد منحها الله هذه الخيرات والبركات؛ ولكن إذا أقْحَطَتْ مصر يومًا ـ لا قدر الله ـ فمحصول ألف بلد بل محاصيل الدنيا بأسرها لا تكفيها يومًا ولا تحقق الرخاء فيها لأن مصر بحر من الناس. فقد قدمت عام ١٠٨٢ وبينما كنت أتجول فى مدينة مصر مات فيها ثمانمائة ألف إنسان بالطاعون وهذا مقيد فى سجلات المذاهب الأربعة حتى إن إبراهيم باشا باع قرية خالية فى شهرين لتسعة رجال كل قرية بعشرين كيسًا ومع ذلك أصبحت خالية مرة أخرى وبينما كانت كذلك كان يستحيل المرور فى أسواقها لشدة ازدحامها. وما كان فى مصر من دواب مثل الحصان والبغل والجمل والعجل والجاموس والشاة والعنزة كانت تمر قطعانًا قطعانًا فى الأسواق، وقد كثرت الحمير فى القاهرة ولا ينقطع نهيقها فى جميع جنبات شوارعها ويقول الحمّارة «طريق يا سيدى طريق» ويسمون الْبَلَهْ من الترك بالحمار، وفى مصر أول ابتهال فى مقام السيكا نهيق الحمار فإذا ما نهق الحمار مرة. «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وفى منتصف الليل إذا ما نهق الحمار فى حظيرته ساعتين متعاقبتين والعظمة لله اضطرب الناس وانزعجوا ظنًا منهم أن الوقت حان لخروج الدجال وهو من علامات الساعة، فجميع أعيان وأشراف ونساء مصر يركبون الحمير وهم فرسان الحمير فإذا ما وصل النساء إلى الأوزبكية والصليبية ومصر القديمة وبولاق وقايتباى لعبن الجريد وهن على حمير سروجها منفضة ومزركشة قائلين «هُسَك» وتتنزهن على ظهور الحمير وليس هذا ما يعيب الناس فى مصر لأن كل تنقلاتهم بها. وكان لعلى بك الجرجاوى أربعين ألف حمار، فكان يشترى لها غلالاً بعشرات البارات، وهذا عنه فى مصر مشهور.

كما أن لأمير الحاج رضوان بك أربعين ألف جمل، والآن لا يمر فى مصر جمال ولا حمير تحمل الماء، وفى مصر اثنا عشر عيدًا فى العام وسوف نتحدث عنها فى موضعها، وفى هذه الأيام لا يمكن المرور فى الأسواق لازدحامها بالناس والحَمَّارة والجَمَّالة.

الفصل الثامن عشر
بيان قوانين السلطان سليم
فيما يتعلق بجند الفرق السبع ورواتبهم

عندما فتح سليم مصر تشرف ثلاثة آلاف وثلاثمائة جندى من جنود العزب بتعفير وجوههم بتراب فيرسه وصاروا عبيداً له، ودعى سليم الله لهؤلاء الجند بالخير، وجعل لهم ما كان لهم فى السابق من رواتب ومأكولات ومشروبات. لأنهم أول جيش إسلامى يأتى إلى مصر مع عمرو ابن العاص من قِبَل الخليفة عمر، وكانوا مطيعين على مر الزمان.

أما متفرقة مصر فيبلغ عددهم ألفين وسبعمائة وخمسة وأربعين جندى يأتى بعد ذلك جاويشية مصر، وهم ألف وأربعمائة وتسعة وأربعون، أما عدد الجنود المعروفين بالتوفنكجيان بمعنى حملة البنادق ألف وثمانية وثمانون ثم الكوكليان أى المطوعة وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون ثم عسكر المستحفظات وعددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وأربعون، وهم ينقسمون إلى مائة وثمانٍ وثلاثين فرقة أخرى. على حين أن جند المتفرقة والمستحفظات يشكلون فرقة واحدة من هذه الفرق السبع، وهم مائة رجل.

ثم من بعدهم فرقة الطوبجية أى المدفعية وهم عشر رجال (   )[1] وللجند العزب فرق يتألف كل منها مائة رجل ثم فرقة خزانة القلعة وهم مائة، ثم فرقة جند الملازمين وعدد أفرادها (   )[2] أما فرقة متقاعدى القلعة فعدد هذه الفرقة مائتان. أما فرقة جبه جيان مصر فعددهم (   )[3]، ثم فرقة الفشنكيان وهم (   )[4] أما فرقة المهتر أى الموسيقات العسكرية فهم خمسون ويتقاضون المرتبات كالانكشارية وهم مقيدون فى دفاترهم. أما جند الجراكسة فى مصر فعددهم ألف وتسعمائة وفى ميناء السويس عدد جند العزب مائة وخمسة وستون. وبناء على قانون السلطان سليم يكون قد تشكل فى مصر جيشًا قوامه عشرون أو خمسة وعشرون ألف جندى ونحن

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

نسجل ذلك بناء على ما نشاهده فى يومنا. أما السلطان سليم فقد أمر وزيره إبراهيم باشا أن يجعل كتخدا الجند فى مصر والسنجق بك رئيسًا للانكشارية، وأقام أربع وأربعين حجرة للانكشارية، وهذه الحجرات لا زالت إلى اليوم فى القلعة التى شيدها يوسف صلاح الدين بجوار سيدى الشيخ سارى بالقلعة. إلا أن بعضها مهجور وبنى أغواتها إدارة أخرى. وهى غاية فى الأهمية والجمال.

إنها رئاسة عظيمة لها الآن مائة من الأتباع. وفى الديوان السلطانى يرتدى جميع البكوات وكل رؤساء الفرق العسكرية السبع الخلع الفاخرة ولهم مكانهم فى الديوان، ويجلس جميع الأغوات على الأرض، ولكن لهم منزلة ووقار، ويتلو رئيس الانكشارية الكتخدا ولا مكان له فى الديوان أصلاً، وهم فى إدارتهم يعملون، وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وفى قدمهم خُفٌ أحمر، وعليهم فرو السّمور وعباءات من الحرير وهم يلبسون هذا قانونًا والحكم من بعد لرؤساء جاويشيتهم. وكذلك قد يلبسون عباءة وقفطانًا من الحرير وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وحذاء أحمر وخف أحمر وكأنهم من قبل الباشا أغا المحضر وهم تحت رياسة موظف بيت المال، وهو يلبس القفطان والعمامة المسماه قلاوى، ولكن جاويشية الوسط والجاويشية الصغار وجاويشية الموكب والصره وأمين الصره جميعًا يَتمنْطَقُون بالمناطق وعمامة مثل القلاوى وخف أحمر. إلا أنهم لا يحملون سكينًا وإذا أصبح موظفًا فى بيت المال خلع ثوبه الأسود ولبس قفطانًا من الجوخ. وإذا ما دخل وزير مصر مصر أو عزل عنها وغادرها معززًا أو خرج مع أمير الحج والمحل فإن الانكشارية وجميع جند مصر على السواء يشكلون موكبًا منقطع النظير تعظيمًا للباشا وحُجَّاجه عند سفرهم.

* * *

الفصل التاسع عشر[1]

ذكر موكب عسكر مصر

عند قدوم الباشا للمرة الأولى إلى مصر يخرج أهلها لاستقباله تعظيمًا له وترحيبًا به، ويصطفون أمام إدارة العادلية، وفى البداية يرسل الباشا جنوده إلى المدينة ويلزم كلٌ بيته ويلبسون أحسن ثيابهم ويواجهون الموكب، ويقوم الصوباشى مع ثلاثمائة من الحراس وخمسون جلادًا بتمهيد الطريق من باب النَّصر وهم يفسحون الطريق وينظفونه حتى يعبروا.

ويمر الفرسان مع رجال بريد الباشا وفرسانه ثم يمر موكب الولاة والمطوعة حاملين أنواع الأعلام وعليهم ثياب من جلد النمر والفرو وتاج من فرو السمّور، ويمر بعد ذلك موكب الجاشنكير[2] والكلاجيان أى المسئولين عن المخازن معًا ويسيران جنبًا إلى جنب وبعد ذلك يمر موسيقو الخيمة و (السراجين) ثم جنود المتفرقة حاملين أسلحتهم وعلى رءوسهم الخاص من عمائمهم وكل موكب يمر يحمل ما لديه من أسلحة، وبعد ذلك يتوقف مرور جند الباشا وبعد ذلك يمر موكب جاويشية مصر. والجميع يلبسون فرو السمّور وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالمجوّزة وفى أيديهم عمد من الفضة الخالصة وعلى خيولهم المطهمة والسروج الفضية والغدارّة ويمرون وعلى رءوس جيادهم الزينة ثم بعد ذلك يمر جنود المطوعة بعمائمهم المزركشة وفى أيديهم الأعلام الحمر ومعهم صبيانهم من حملة الصاجات ويقرعون الطبول أمام أغواتهم، ثم بعد ذلك حملة البنادق ويمرون، ثم موكب (   )[3] وأفراده جميعًا يحملون كل أسلحتهم ويرتدون أفضل ثيابهم. وفى أيديهم أعلامهم يرفعونها. وحملة الصاجات على جيادهم وهم يقرعون طبولهم، ويأتى الدور على موكب جنود المتفرقة وهم فى فاخر ثيابهم ويتقدمهم عشرون أو ثلاثون ممن يلبسون الجبة ذات الفرو والجوشن[4] قارعين الطبول. ثم يمر أغوات الفرق متحازين. ثم يمر أغا الانكشارية مع رئيس العزب ثم يمر مرتدى الثياب الصوف

---

(١) هكذا فى الأصل.

(٢) الجاشنكير: فرقة من الجنود مكلفون بمهمة مراقبة جودة الطعام.

(٣) بياض فى الأصل.

(٤) الجوشن: الدرع.

السوداء متحازين ثم يمر موكب بكوات الشراكسة متحازين مثنى مثنى وقد لبسوا ثيابهم الفاخرة وعليهم فرو السمور وخلع المخمل. غير أنهم لا طبول لهم. ويمر موكب بكوات أمراء اللواء وهؤلاء كذلك يلبسون فاخر ثيابهم وأمامهم فرقة الموسيقى العسكرية وخلفهم أغوات الداخل عارفين الموسيقى العسكرية ويمرون مثنى مثنى.

وبعد ذلك موكب مشاة العزب ويمرون رافعين أعلامهم وهم غزاة مسلحون بالبنادق يلبسون جلد النمر وعلى قلانسهم طُرّةٌ مزدانة بالجوهر. ورؤسائهم القدامى يلبسون حول طرابيشهم عمامة. ثم يمضى موكب الجاويشية وسطهم ويتمنطقون بالأحزمة وسود الثياب. ورؤساء هؤلاء الأفراد من السباهية. ويمر أغا الانكشارية أو كتخدا الجاويشية ورؤساء كتبتهم ورؤساء جاويشيتهم متحازين. ومن عهد عمر وهم اثنتان وسبعون فرقة. وكلهم ثمانية عشر من الجورباجية يسمونهم الرؤساء وهم اثنتان وسبعون إدارة فى السكنات ولكل إدارة رئيس على حدة. إلا أنهم ليسوا عزابًا ويحاربون وإدارتهم بالأقدمية وكلهم متزوجون ورؤساء الجاويشية وجاويشية الموكب والجاويشية المتوسطون وصغار الجاويشية والذين يسيرون بجانب طبول الأغا والكتخدا جميعهم كجاويشية الانكشارية يلبسون (جبة سوداء) وعمامة تسمى (بريشانى) ولا يركبون فى مرورهم. ثم يمر جميع الجورباجية يمتطون صهوة الجياد ويلبسون فراجة مثل المسئول عن بيت المال ولا يلبسون (جبة سوداء). ولكن ليس لديهم طبول ولا فرقة موسيقى عسكرية. لكن مائة رجل يذكرون عمر ويرفعون الابتهالات المحمدية قائلين: الله الله، لأنهم جند (طيبون) وعددهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر جندى من حَمَلَةِ البنادق ومقامهم داخل إدارة العزب وهو مقام عمر الفاروق. وهو عبارة عن اثنين وسبعين بيتاً غرفها تطل على قره ميدان. وهم يرعون أصول الأدب فى مرورهم ويظهرون أعلام الانكشارية. ويأتى الدور على موكب مشاة المستحفظان ويمضون مثنى مثنى ومعهم البنادق ثم ثم حملة الطبول و(ثم الدلاه) ثم يمر رؤساؤهم وكلهم يحملون السلاح ويلبسون (جبه من الجوخ الأحمر) ويمضون أربعين أربعين أو خمسين خمسين ويمضون ببنادقهم وعلى رؤسهم اللباد ويلبسون جلد النمر وفى أقدامهم الخف اليمنى الأحمر. وفى وسط موكبهم ستة من الجاويشية على رؤسهم عُرفية من اللباد ويرتدون (جبة سوداء) ومن يمهد طريقهم ثم شيوخ بلحاهم التى نالها الشيب ويمضون مرتدين جلد النمر وعلى رؤسهم عرفية من

اللبـاد. ويمر رؤساء مائة وثمـان وثلاثين فرقة وغـيرهم من شيـوخهم ثم جميـع المشاة لابسين جلد النمر والفان تروسهم مذهبة.

يقولون إنهم مائة وثمانية وثلاثون جورباجيا. وهم أكثر من مائتين. ويمرون عشرة أو خمسة عشر يـحملون أسلحتهم ويركبـون صهوة جيادهم متحازين. كـما يمر سبعون أو ثمانون من جند الكـتخدا ورؤساء الجاويشية والمتقاعدين من رؤسـاء الفرق على جيادهم وخلفهـم أربعون أو خمسون من خدامـهم. إلا أن هؤلاء لا يرتدون السراويـل المصرية الخاصة بالـسپاهية والمتـفرقة والجاويشية وهـذه الطائفة من الانـكشارية تمر بلا مـوسيقى عسكرية ولا طبول. ويمضون وهم يبتهلون ويـلوحون. ويمر الكتخدا ورئيس الانكشارية وإمام الفرقة وسائر كتبتهم متحازين.

وهذه طائفة عسكرية عظيمة العدد. عدد أفرادها سبعة آلاف ومائتان وثمانية وثلاثون. وليس فى جيش آل عثمـان طائفة تشبههم فى الزينة. كما أن رؤساء فـرقهم ليسوا عزابا، وجميـعهم مترفـون ومن شارك منهـم فى كثيـر من المعارك وتقـدم به العمر وكـان لديه الاستعداد فينضـم إلى لابسى الـ (الجبة السوداء) ويصبح كتـخدا وإذا ما مر عام وهو فى هذا المنصب يـتحصل له ألف كيس من المـال وبمجرد أن يفرغوا من موكبـهم يأتى الدور على موكب ملازمى الانكشارية وهم من الانكشارية إلا أنهم يلبسون على رءوسهـم عُرفية من اللباد ويجعلـون (الطوغ) فى وسطهم. وعندما يمر موكبهـم كموكب الصولاق الذين يـسيرون بجـانب فرس السلطان ويتقدمـهم اطواغ الباشا وبوابوه ورئيس فـرقهم وستون أو سبعون من طائفة اللوند* المسلحين ويـسيرون جنبًا إلى جنب إلى جانب (رئيس المنازل)** ورئيس المؤذنين، ثم يمر رؤساء البوابين مثنى مثنـى مع خمسة عشر أو عشرين من الغلمان فى أبهى ثيابهم. ثم كتخدا البوابين الأمير آخور[1] مع تسعة ممن يسوقون الجياد وهم فى أبهى زينة وكـل منهم على فرس وعلى رأسـه العمامة المجوزة. ويمر ملازمـو الانكشارية على الجانبين ثم رئيس الـتراجمة ورئيس المتفرقة متحازين. ويمر بعـدهم كتخدا الجاويشية والروزنامجى، ثم يمر حراس الباشا فى ثيابهم المـزركشة، ثم يمضى الباشا وعلى قبائه فرو السمور وله السراويل المخملـية وعلى وسطه المنطقة الذهبية التى يتدلـى منها سيفه المكفت

* اللوند : عساكر البحرية العثمانية. ** قناقجى باشي: المسئول عن تهيئة المنازل أثناء السفر.

(١) امير آخور: مسئول الحظيرة السلطانية.

بالذهب، وعلى رأسه ريشتان متشعبتان وهو على فرس فاره وعلى جانبيه من يحملون البنادق ومن يسقون القافلة، وخلفه من يحملون على رؤسهم حمر القلانس من المسلحين والخدم. وبعدهم يمر كتخدا الباشا والخزينة دار وعشرون من صفوة أغوات الداخل ومائتان أو ثلاثمائة من أغوات الداخل وهم يحملون السلاح ومائة ممن يحملون البنادق وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية. وبعد ذلك يمر أمام الباشا ورئيس الديوان مع أتباعه. ثم يمر من يحملون علم النبى ﷺ الأخضر ومن يحملون الأعلام الحمر ورجال فرق الموسيقى العسكرية بطبقاتهم التسع، وكذلك فراشو وسقاؤو وأغوات الداخل. وجميع هؤلاء الجند مع موكب الباشا يطلقون مائتى طلقة من مدافعهم، وتعزف الموسيقى العسكرية ويعم السرور. ثم ينال الجند منحة الموكب من الباشا وقدرها خمسة أكياس. ثم يمد سماط عظيم وبعد تناول الطعام يرفع من الطاعمين الدعاء ويعقد الديوان السلطانى طبقًا لقانون السلطان سليم خان. ويتلى الأمر السلطانى وتنفذ أوامره فى هذا الديوان. وإذا ما كان فى مصر حاكم له إدارة خاصة فيأتى من الأستانة جاويش الانكشارية ويصبح أغا. وجميع موظفى الباب العالى لهم المراكز فى بيت المال، ووفقوا فى الأخذ على يد المجرمين. وحضورهم إلى الموكب أو الديوان ليس قانون، وإذا مست الحاجة استحضروا إلى الديوان. أما إذا رغب وزير مصر وقال ينبغى للموكب أن يخرج. ويجب عليه أن يحضر الديوان وبذلك اشتهر (قبو قولى) فى مصر. وثمة حاكم آخر هو الصوباشى أى رئيس الشرطة وهو يستطيع أن يأمر بالقتل إذا حصل على أمر مطلق من السلطان. وبذلك يستتب النظام. وفى إحدى إدارات هذا الصوباشى رئيس عسس انكشارية مصر ينوب عنه فى أداء مهمته.

وفضلاً عما ذكر من الشراكسة وحاملى البنادق والجند المطوعة والجاويشية وكل من يرتدون السراويل الحمر عبيد. ويستطيعون إنجاز مهامهم الصعبة. وفضلاً عن هؤلاء فهناك انكشارية أهل مصر وعزب (   )[1] وهم يلبسون ثيابًا من الجوخ وقباء يسمى حورانى وعلى رؤسهم عمامة ويتمنطقون بمنطقة مختومة، ويحملون مدية كردية،

(١) بياض بالأصل.

ويعلقون فـى خواصرهم بسكين كبيرة. ولـهؤلاء الانكشارية والعزب منزلـة مرموقة فى مصر. وكثيرٌ من أغوات السـباهية والمتفرقة ينضمون إليهم ويصـبحون انكشارية وعزب على نحو ما رأيت.

أما محافظ القلعة فى مصر وجند الأبراج وأفـراد فرق الموسيقى العسكرية والمتقاعدون لا يستطـيعون أن يبرحوا أماكـنهم ويخرجون إلى الموكـب. ففى القلعة آلاف مـؤلفة من أكياس المال الـسلطانية، وهم علـى الدوام يقومون بحراسـتها. أما رئيس البارودجـيه فله مصنع كذلك فـى ميدان القصر ويحرسون خزانة الـبارود التى نصفها فى القلـعة الداخلية ونصفها الآخر فى القصر. ولأنهم محبوسون على الدوام لهم رواتب سخية.

وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية لا يستطيعون الخروج إلى جهة أخرى. فبعد العشاء تعزف فرقـة الموسيقى العـسكرية مقطـوعة لا يستطيـع أحد أن يعزف مثلـها. ولأن كل رئيس من رؤساء فرق الموسيقى العسكرية ملحق بخدمة وزير فإنه يبقى عنده ولكل منهم مرتب جزيل. وهم على الدوام صيفًا وشتاء حتى طلوع الفجر بساعتين يعزفون دون أن يشعر بهم مـن حولهم. وهم بنغمة العـشاق يجرحون قلوب العشاق. إلا أنـها حكمة عجيبة فهم يتفقون مع مؤذنى مصر ولهم معهم ساعات. فبعد أن يرفع آلاف من مؤذنى الجوامـع فى مصر الأذان ويـكون الفراغ مـن أداء صلاة الصـبح تبدأ جـوقة الموسيـقى العسكرية فى العزف. وكان ذلك دأب لهم على الدوام وهو ظاهرة عجيبة.

بيان بجملة رواتب ما سلف ذكرهم من طوائف الجند
وما يتقاضونه كل شهر أو كل ثلاثة أشهر

يقضى قـانون السلطان سـليم بأن يكون فـى كل شهر مرتب يـتقاضاه فرق المتـفرقة والجاويشية وحملة البنادق والجند المطوعة والشراكسة والأيتام والجوالى. ورواتب فى كل ثلاثة أشهر لطوائف الانكشارية والعزب والقائمين على مخازن السلاح وسائقى المركبات وفرق الموسيقى العسكرية.

وعلى النحو التالى نبين مقدار ما يتقاضونه بالأقجة أو أكياس المال فى كل عام:

أولاً: فرقة المتفرقة وعدد أفرادها ٢٧٤٥ وراتبهم اليومى ٤٤٦٢٦ باره يخرجون منها ٧٨٩٨٠٧٦ باره، ومعنى هذه الإخراجات أن بعضهم يخرج لحراسة الكشافين والقلاع ويتقاضون راتبًا على ذلك وإخراجاتهم وبقيتها ٧٧٠٥٤٤١ وما يستحقونه سنويًا يختلف الفارق بينه فقط ٣٠٨ كيسًا وكسورها ٥٤٤١ والفارق ١٩٢٥٣٥ باره وهذا الفارق هو أنه حين إعطاء المرتب تخصم باره واحدة على كل أربعين باره، ويضاف هذا إلى المقيد فى الخزانة. والمقيدون فى دفتر الجاويشية عددهم ١٤٤٩ وراتبهم اليومى ٢٥٠٥٥ وإخراجاتهم ٤٤٢٤٧٢٠ والباقى لهم ٤٢٢٦٥٥٨ و ١٧٣ كيسًا والكسور ١٥٥٧ والتفاوت ١٠٨١٦٢.

وجند التوفنكجيان أى حملة البنادق عددهم ١٠٨٧ ويتقاضون فى اليوم ٩٧٠٩ وإخراجاتهم ١٧١٨٤٨٨ وبقيتهم ١٦٧٦٦٦٥، و ٢٧ كيسًا والكسور ١٦٦٥ والتفاوت ٤١٨٣٣.

وجند الكَوكليان أى المطوعة عددهم ١٣٦٥ ويتقاضون فى اليوم ١٢٥٧٥ معها إخراجات قدرها ٢٢٢٥٧٧٢ والبقية ٢١٧١٤٨٧ و ٨٦ كيسًا والتفاوت ٥٤٢٨٥.

أما دفتر جند الشراكسة فالأفراد عددهم ١٠٩٠ يتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ وفى السنة ١٧٥٩٤٦٤ والبقية ١٧١٦٥٥١ و ٢٨ كيسًا والكسور ١٦٥٥١ والتفاوت ٤٢٩١٣.

دفتر العزب القدماء وعددهم ٣٢١٢ ويتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ معه إخراجات قدرها ٣٤٥٠٨٣٦ والبقية ٢٣٩١٠٦١ و ٩٥ كيسًا والكسور ١٦٠٦١ والتفاوت ( )[1].

أما دفتر عزب السويس فعددهم ١٢٥ ويتقاضون فى اليوم ٢٦٧ وفى السنة ٤٧٤٢٦ والبقية ٤٦٢٨٠ كيسًا والكسور ٢١٢٨٠ والتفاوت ١١٥٦.

---

(١) بياض فى الأصل.

ثم دفتر المستحفظان وعددهم ٧٣٣٨ ويوميتهم ٦٣٧١٦ ويتقاضون فى اليوم ١١٢٧٨ والبقية ١١٠٠٢٧٩٠ و ٤٤٠ كيسًا والكسور ٢٧٩٠ والتفاوت ٢٧٥٠٦٩ باره. ومجموع طوائف المستحفظان ١٣٨. كما أن لهم فرقة من المتفرقة خاصة بهم تتكون من ٧ بلوكات وعدد أفرادها مائة وعدد أفراد فرقة مدفعية القلعة ٥٠٠ وطائفة جند المركبات الفرقة الواحدة منها ١٠٠٠ وفرقة جند خزانة القلعة ٢٠٠ وفرقة متقاعدى القلعة ٢٥، ورجال فرقة الموسيقى بالقلعة الداخلية ٦٠، أفراد فرقة جبه جيان ( )[1]. ومرتبات هؤلاء المستحفظان ومن يتبعهم يحصلون عليها.

وإجمالى المرتبات السنوية السالف ذكرها والتى يتقاضاها جند الإسلام من الفرق السبع ١٢٤٠ وكسورها ٢٢١٦٧ باره والسلام.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل العشرون

ذكر قاضى مصر وحكم حكومته وعوائد الفوائد وجميع محاكمه والقضاة فى أقاليم مصر

عندما فتح السلطان سليم الأول مصر كان كمال باشا أحمد افندى يشغل منصب قاضى عسكر الروملى، فأنعم عليه بمولوية[1] مصر، وأمر بأن تكون إمارة مصر للغزالى جان بردى وكمال باشا زاده وأصدر بذلك مرسومًا، وجاء فيه أن قاضى مصر يتقاضى مائتى كيس عدلاً وإنصافًا. وكان يكفيه مائة من الخدم. وتولى مهام الحكم.

وكان فى الديوان أربعة فقهاء للمذاهب الأربعة، وكان لهم مسجلون ومقيدون وشهود ومحضرون، كما كان لهم مائة من الخدام وكانت إحدى فرق الانكشارية مع الجورباجية يعينون للقيام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه الفرقة من الانكشارية تسمى (الملازم)، وكانوا جميعًا يلبسون قباء وقلنسوة مزركشة.

وكان هناك رئيس المترجمين وأمين السجلات. وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخليفة عمر - رضى الله عنه -، وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا الذى كان يد الرشوة.

كما كان يوجد نائب الإدارة ونائب المدينة. وكذلك رجل محنك من رؤساء بوابى الباب العالى يشغل منصب رئيس المحضرين وتحت رياسته ثلاثمائة محضر، ويتقاضى فى العام خمسة أكياس. وفى حالة انعقاد الديوان السلطانى خمسة أيام فى الأسبوع يرتدى هذا المحضر الرئيس قلنسوة مزركشة، ويرتدى الكتخدا افندى على رأسه قلنسوة البريشان وأمامهم المحضرون وجميعهم من حملة العصى. ويمر الانكشارية مثنى مثنى وعلى رءوسهم القلانس المزركشة. ويمر القاضى وعلى رأسه كذلك العمامة التى تعرف (بالعُرفى) وعلى جانبيه خدم الانكشارية والذى يعرف الواحد منهم باسم المسئول عن التسوق، وعشرون أو ثلاثون من صرَّاجى المشاة، وأحيانًا يمرون ومعهم أكياس الديوان الحمر. وعلى هذا النظام يصلون إلى الديوان وعلى هذا النسق ينتفى عن

---

(١) مولوية: واحدة من الرتب الخاصة بالعلماء.

القاضى اختصاصه بإقليم دون الآخر - ويطلقون على القاضى فى مصر لقب قاضى عسكر افندى، لأن فى بداية فتح مصر كان كمال باشا زاده يشغل منصب قاضى العسكر، ولذلك فمنذ ذلك الوقت يسمون القاضى قاضى العسكر، وهو يقيم فى قصر شامخ وهو القصر الذى أقامه السلطان معز الدين القاهر المغربى الفاطمى قديمًا. وفى ديوان القاضى يوجد قسّام عسكر القاضى وهو معين من قبل قاضى عسكر الأناضول فى الأستانة وتحرر جميع تركات جنده بإذن منه. ويأخذ منها (   )[1] ويسجل الباشا هذه التركات. ويحضر إلى جانب الباشا فى ديوان مصر على الدوام نائب القاضى وشهوده ومحضروه فى كل يوم وليلة لربما ظهر شىء بعد العشاء يكون الحكم فيه للشريعة ولذلك يحضر نائب الديوان.

وللقاضى فى مصر أربع وعشرون محكمة، فى كل واحدة منها نائب للترك وقضاة المذاهب الأربعة، وهذه المحاكم هى: محكمة باب النصر، ومحكمة باب الخرق[2]، ومحكمة المشهد الحسينى، ومحكمة باب (   )[3]، والمحكمة القيسونية ومحكمة ميدان الروملى الجديدة، والمحكمة الطولونية ومحكمة باب الشعرية، ومحكمة درب الجماميز، ومحكمة سويقة الدلالين القديمة، ومحكمة باب الحديد ومحكمة مصر العتيقة، ومحكمة جامع الصالحية ومحكمة باب الحديد، ومحكمة خارج السور، ومحكمة بولاق، ومحكمة قضاء شرق اتفيه وجملة القول إنها أربع وعشرون محكمة وتصل محصولاتها إلى الموظفين أسبوعًا بأسبوع.

وهناك نائب آخر يتجول مع المحتسب فى الأسواق. إلا أنه تحت الرقابة. وهم لا يستطيعون تطبيق التسعيرة السلطانية؛ لأنهم جميعًا تحت الحماية وفى أقاليم مصر يوجد كذلك نواب النواحى ويوجد نيابات مثل بلدة شبرا والبساتين وقايتباى.

ذكر الأقضية التابعة للقاضى فى مصر

أولاً قضاء الغربية: أى المحكمة العليا وهى أولى المحاكم الست. وتحصل هذه المحكمة على أربعين كيسًا فى العام، وهو قضاء معمور وأكثر من مرة تأتيهم منحة من

(١) بياض فى الأصل.

(٢) وهى ما يعرف الآن باسم باب الخلق.

(٣) بياض فى الأصل.

المولوية قدرها خمسمائة أقچه.

وبعد ذلك قضاء دمياط ويحصِّل ثلاثين كيسًا. ثم قضاء مزاحمتين.

ثم قضاء رشيد ويحصِّل ثلاثين كيسًا، وهو قضاء شريف.

وبعدها قضاء الإسكندرية: ولها أربعون كيسًا.

ثم قضاء المنصورة ولها عشرون أو ثلاثون كيسًا.

ثم قضاء منية التين: ولها كذلك خمسة وعشرون كيسًا.

وهذه الأقضية تسمى الستة الأول وهى أعلى من غيرها، ثم يليها:

قضاء المنوفية، ثم قضاء البحرية، فقضاء البرلس، وبعدها قضاء فُوّة، وبعدها قضاء سنديون، ثم قضاء محلة أبى على، ثم قضاء ابيار، ثم قضاء النهارية، ثم قضاء محلة المرحوم، وقضاء بلبيس، وقضاء ميت غمر، ثم قضاء زفته، وقضاء الشرقية، وقضاء الشيخ سلمون، وقضاء الخانكة، وقضاء الجيزة التى تولى القضاء فيها شيخ الإسلام بُولَوى مصطفى افندى، وقضاء الفيوم، وقضاء بنى سيف، وقضاء تزمين، وقضاء بهنسا، وقضاء فيشنا، وقضاء ملوى، وقضاء منفلوط، وقضاء أسيوط، وقضاء أبى تيج، وقضاء تحته، وقضاء أقطعه، وقضاء أشمونين، وقضاء صنبوط التى كان يرأس القضاء فيها شيوخ الساداتية، وقضاء الجزيرة، وقضاء سوهاج، وقضاء المنشية، وقضاء الواحات، وقضاء جرجا، وقضاء فرشوط، وقضاء شرق بويت، وقضاء إسنا. ولا وجود لأقضية أخرى على الجانب الغربى للنيل وكلها قرى الأقاليم، وهى تمتد إلى بلاد السودان.

وعلى الجانب الشرقى للنيل أقضية أسُمَانى صاى وتقع على حدود مصر، وقضاء إبريم، وقضاء أسوان، وقضاء قوص، وقضاء قنا، وقضاء فو، وقضاء شرق اخميم، وقضاء السويس.

وبذا يكون عدد الأقضية فى أقاليم مصر ستة وسبعين قضاء. وثمة بضعة أقضية، إلا أنهم ليسوا بالمشاهير ويسمونهم «المضافات» وهؤلاء القضاة جميعًا يعينهم قاضى عسكر الأناضول من قبل السلطان فى الأستانة، وقضاة إدارات مصر قضاة آخرون، وليس

لأقضية الأناضول سيطرة عليهم. إلا أن قضاة مصر ممن تولوا القضاء فى المحاكم الست العليا مثل الغربية ودمياط ورشيد واسكندرية والمنصورة يمنحون منصب المولوية فى الأناضول والروملى وذلك بناء على قانون السلطان سليم. وتنتهى مناصبهم فى مصر إلا أنهم شبكة عظيمة. وفى قانون مصر القديم كان يوجد شيوخ للإسلام على المذاهب الأربعة. وفى زماننا بما أن بولوى مصطفى افندى لم يصدر الفتوى بقتل قائد جزيرة كريت غازى دلى حسين باشا ويقدمها إلى كوپرلى محمد باشا نفى إلى مصر فمنح قضاء الجيزة على أن ذلك معاش يتقاضاه، وكان شيخ الإسلام الحنفى. ولكن لم يكن أحد فى حاجة إلى فتواه، لأن أصحاب الحاجة كانوا يمضون إلى الأزهر. وإذا ما أعطى أحد العلماء «منقرين» أو ثلاثة استصدر منه الفتوى حسبما يريد، ثم يأتى خصمه ويستصدر هو الآخر لنفسه فتوى بقول ضعيف ويكون الحكم لإثنين، ثم يتم الصلح والصلح سيد الأحكام ولا يحكم بأن الحق لأحد الطرفين، ويضطر الطرفان إلى الصلح.

وخلاصة القول أن فى مصر إحقاق الحق ليس له من وجود، لأن أحد الطرفين يلح طويلاً أو يكون محميًا فيكون الحكم له بغير حق وفى مصر علماء لهم عشرون ألف فتوى، وفيها كثير من المسائل والمشاكل.

ومن فى حاجة لمعرفة مصر وهى من البلاد العجيبة والغريبة فليرجع إلى علماء مصر وفضلائها الذين يعرفون شتى العجائب والغرائب. وحكماؤها منقطعو النظير وهم أذكياء ألباء بطبعهم. وصبيانهم لهم فكر وقاد، ومنهم سبع وخمسون ألفًا يحفظون القرآن الكريم وجميعهم يتلون القرآن الكريم فى الحوانيت وعلى مفترق الطرق وعلى أبواب معظم الحمامات وميدان الروملى. ومنهم عميان يحفظون القرآن الكريم وكلهم مائة وأربعة وسبعون ألفًا من العلماء والقضاة والمعلمين.

وعلم التفسير والحديث خاص بمصر، وفيها أكثر من عشرة آلاف إمام وخطيب وعشرة آلاف من كبار المشايخ. وفى أروقة الجامع الأزهر اثنا عشر ألفًا من كبار العلماء.

ذكر ما يدرس فى مدينة مصر من علوم

جاء فى الحديث الشريف أن: «العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان» فالعلوم هى علم الطب وعلم الفرائض وعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم التوحيد، والعلم اللدنى، وعلم البيان، وعلم الكلام، وعلم الكمال، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المنطق واللغة، والعروض، والخط، والنجوم، والجفر، والكاف، والكف، وعلم القاف، وعلم السيما والكيمياء، والهيئة، والحكمة، والزيج، وعلم دانيال، وعلم الفول والفال، وجر الأثقال، وعلم الرمل، والوفق، وعلم الأسماء، وعلم التسخير، والدعوة، والفلسفة، وعلم الأدوار، وعلم الزيرجه، وعلم الاصطرلاب، وعلم الحروف، والنارنجات، وعلم طى المكان، وعلم الإخفاء، وعلم التعبير، وعلم الفراسة، ولكن لا وجود لعلم الأدب.

بيان توزيع الخزائن السابق ذكرها التى تصرف على جميع جنود مصر وغيرهم من العلماء والدعاة الصالحين، وكذا خزائن مصر الأخرى التى تبذل على غير ذلك من المصروفات، وجميع الإيرادات التى يجمعها الكتخدا إبراهيم باشا للخزينة بموجب الخط الشريف، وصورة الدفتر الهمايونى المجمل الذى يودع خزنة القلعة

كان سبب تحرير هذا الكتاب، والتسطير صحيح النصاب، هو تحرير وبيان تلك المسائل جليلة الشأن، وهى أنه فى الحضور العالى لحضرة مدبر أمور الجمهور، باعث الوقار بسند لطفه، ومجلى كل قانون خفى، مشيد بنيان العدل، هادم أساس الظلم والفساد، حافظ معالم الإسلام، ناصر ضعاف الأيام، معين الرعايا، باسط العدالة، حامى حجاب الدين والدولة، ماحى آثار الظلم والبدعة، الوزير المكرم والدستور المحترم صاحب السعادة والدولة إبراهيم باشا، وفقه الله تعالى لما يرضاه ويشاء، عقد فى حضوره مجلس الشرع الشريف، شامخ العماد المحمدى، وطرح المحفل المنيف، رايح الأوباد الأحمدى، ملجأ ظلال الرايات السلطانية، ومرتقى أرائك الإمارات الخاقانية،

ومن الأمراء المصريين، أوزبك بك أمير الحاج ومقدم ركب الحجيج والبيت العتيق، ومحمد بك النوه لى مقدم جيش الأمراء، وحسن بك وقانصوه بك ومصطفى بك ويوسف بك هم من شغلوا منصب الدفتر دارية سابقا، ومن حكام إيالة جرجا السابقين؛ محمد بك وعلى بك ومحمد بك الجندى وعبد الله بك وعمر بك، ومن أغوات الفرق السبع محمد أغا رئيس الكوكلليه، ومصطفى أغا رئيس الجراكسة، ومصطفى أغا.

رئيس المستحفظان، وجعفر أغا رئيس العزب، وسليمان أغا كتخدا الجاويشية خدام الديوان المصرى المحصلين، ومصطفى أغا ترجمان الديوان العالى، ومحمد أغا رئيس المتفرقة،وجعفر أغا رئيس الجبجية وكتخداوات البلوكات السبعة ورؤساء جاويشياتها، ومن أرباب الأقلام المصرية إيواز بك دفتردار الخزينة المصرية، وعبد الرحمن أفندى الرونامجى، وأحمد أفندى نائبه الأول، وعلى أفندى نائبه الثانى، والمحاسب يوسف أفندى، ومن نوابه مصطفى أفندى وصالح أفندى، ومحمد أفندى المسئول عن مقاطعة الشرقية، ونوابه على أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة الغربية حسن أفندى ونائباه أحمد أفندى وابراهيم أفندى، وعن مقاطة المدينة محمد أفندى، ونائباه شعبان أفندى ومحمد أفندى، والمسئول عن مقاطعة إيراد الغلال مرتضى أفندى ونائباه مصطفى أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة مصرف الغلال رضوان أفندى، ونائباه فضلى أفندى وعثمان أفندى، وكاتب الجاويشية (   ) أفندى، وكاتب المتفرقة (   ) أفندى، وكاتب الحواله (   ) أفندى، وكاتب الانكشارية (   ) أفندى، وكاتب العزب (   ) أفندى، وكاتب الكوكلليه (   ) أفندى، وكاتب التفنكجية (   ) أفندى، وكاتب سباهية اليمين واليسار (   ) أفندى، وكاتب الجبجية رجب أفندى، وكات الأيتام ابراهيم أفندى، وعثمان أفندى الملقب كاتب الأرزاق، وكاتب الإنكشارية سليمان أفندى الصغير، خلاصة القول إنه فى حضور جميع أرباب الديوان صغارا وكبارا، وسائر الأعيان، عندما عرض على هذا الوزير المكرم بتولى أمر إيالة مصر نادرة العصر من قبل السلطان وظل الله فى أرضه إجمال المدون والمصون والمصحح من الإيراد والمصروف

السنوى على الوجه المضبوط والمحفوظ بمفرداته فى الدفاتر والتى هى عبارة عن الحصيلة الداخلية رلى الخزينة من قلم الروزنامة والمحاسبة وسائر المقاطعات ومن خراج الزراضى وسائر الأقلام المتفرقة، عندما أشرق على ديوان مصر العالى فى أسعد الساعات والأوقات، تبين أن عدم كفاية الأموال المحصلة لنفقات الإدارة المصرية، ناشئ عن الاضطرايات فى زمن الوزراء السابقين، إلى تاريخ تصدر ديوان مصر العالى، لذا كانت النفقات السنوية تزيد على الإيرادات، مما أدى إلى نقص الأموال المقرر إرسالها إلى الآستانة، بمقدار أربعمائة وأربعين كيسا وسبعة عشر ألفا ومائة وثلاثون بارة فى كل عام، عن المبلغ المقرر ومقداره ألفا ومائتى كيس مصرى. كذلك نقص الذخائر السلطانية وغيرها من اللوازم الضرورية المعتاد إرسالها إلى خزائن القصور العامرة فى الآستانة، مقدار واحد وأربعين كيسا وثلاثة وعشرين ألفا ومائة وخمسا وثلاثين باره، بحيث لزم لإتمام الخزينة كل سنة مبلغ أربعمائة وأربعة وثمانين كيسا مصريا وخمسة آلاف ومائتين وثمان وثمانين بارة.

لذا عمد الوزير المذكور (اسبغ الله تعالى نعمه عليه) إلى إعمال صائب الفكر وضبط الأراضى المحلولة والتى خلت من أربابها فى زمانه الآمن، وجمع الأموال الضائعة، فلما غطت الأموال المتحصلة بالمصاريف اللازمة فى زمنه السعيد، أرسل الباقى بموجب الدفاتر التى تم تحريرها مجددا فى الأقلام بالتفاصيل إلى الآستانة السعيدة، مشفوعا بتخليص عن أحوال البلد فصارت موضع نظر القبول السلطانى والالتفات الهمايونى لحضرة السلطان ظل الله، كما أن الدفتر والتى رفعت إلى العتبة السنية، جاءت مفرونة بالخط الشريف الهمايونى، وجاء مضمونها المقرون بالسعادة على النحو التالى «فليكن معلوما لديك ياوزيرنا أبو الخير إبراهيم باشا فى محافظة مصر نادرة العصر التى هى باب الحرمين الشريفين حينما يبلغك خطنا الشريف أنه قد ورد إلى عتبتنا السنية دفتر خزينة مصر وكتابها الخاص، فألفينا الإيرادات والمصروفات قد نظمت وفقا لصلاح الدين والدولة ونظام أحوال المملكة بشكل لائق ومناسب، إذ تم تصحيح ماكان يبدو فيها حتى تلك اللحظة من خلل، وقد ألقينا نظرنا الهمايونى على الكشوف الإجمالية

والتخليصات، وقد حازت قبولنا المملوكى، أطال الله فى عمرك ومتعك بسعادة الدارين، وحلال عليك نعمنا السلطانية، وإذا قد عرضت على عتبتنا السنية، فإن الأمر يتطلب تنبيهاتنا الهمايونية فى بعض المواد، التى ضمناها رسالة التنبيه السلطانية التى ذكرها، وتنص على أنه اعتبارا من اليوم، لايجوز البدء بمنح مخصصات سنوية ومواجب أو بدل عليق أو فدادين محلولة من خزينة مصر المحروسة، مهما كانت قليلة، وإذا ورد أمر صادر من بابنا الهمايوني بمنحها، فينبغى عدم قيده فى السجل المخصص لذلك ويعرض على أعتابنا مع توضيح مخالفته للقانون.

وعند عزل وال من ولاة مصر، فيجب على أمير اللواء المعين فى منصب قائمقام من قبل الوالى الجديد، ودفتردار المال والروزنامجى والمقاطعة جى وسائر الكتاب الذين لهم صلة بشئون الخزينة وخدماتها أن يبادروا بمحاسبة ذلك الوالى المعزول بموجب السجلات على وجه الحق والعدل وألا يتدخل فى ذلك من لادخل لهم فى هذه القضية ولا علاقة لهم بشئون الخزينة.

ولايجوز إعطاء المحلولات التى تحدث فى أثناء تولى القائمقام نيابة عن الوالى، لأحد من الطالبين، ويجب حفظ الطلبات المقدمة من قبل إدارة الأيتام بإشغال تلك المحلولات وتوقيعها حتى يحضر الوالى الجديد. ولايؤجل مال الإيراد السنوى بالترك والإهمال بل يعجل بتحصيله بدون تأخير أو إمهال. إن كان هناك ما يقتضى التنزيل من الإيراد من مقاطعة أو قرية عاطلة - سواء أكانت قرية مال أو قرية غلال، فإن الباقى بعد التنزيل يبقى فى الخزانة ولاتنقص بعد ذلك من الإيرادات حبة ولا أقجه، ما لم يوجد مايقتضى ذلك أو يوجبه.

يجب على والى مصر ومعه الدفتردار والروزنامجى ومدير الحسابات، فتح دفاتر حسابات الخزينة وأنبار يوسف فى شهر توت من كل عام إخراج ما يخص الخزينة من الاجمالات الواردة بأمرى الهمايونى، والقيام بمراجعة إيرادات الخزينة ومصاريفها وإعادتها إلى أماكنها إن وجدت الإيرادات متعادلة مع النفقات، وإكمال الوالى ما فى الإيرادات من النقص بما يحصّل من المال من المحلولات، ثم قيده بمعرفة الدفتردار فى

السجلات كى يعلم ما بالخزانة من نقص وزيادة، ثم تسليم ذلك الإجمال إلى البك، أمين إرسالية مصر لتوصيله الآستانة وتسليمه إلينا مع الخزانة.

ينبغى أن تنفذ المواد المبنية على وجهه المشروح، وأن يعمل حكام الإيالة المصرية ومحكوموها بما فى أمرنا الصادر فى هذا الباب من الأحكام.

وأنت أيها الوزير، عليك أن تقوم بتنفيذ المواد المذكورة على هذا المنوال فى عهد حكومتك، وأن تتجنب العمل على خلاف ذلك مباشرة أو بالواسطة، ولأجل أن يكون هذا الفرمان دستور العمل مدى الدهر عليك بحفظه فى حصن خزينة مصر وإبقائه فيه. وذلك إخراجه كل سنة فى أول توت وإمعان النظر فيه عند عمل الإجمال من الحسابات، وفحص الإيرادات والمصاريف، حتى يمكن رفع الخلافات التى تكون قد ارتكبت فى أثناء السنة، حسب النصائع والتشبيهات الهمايونية الواردة فى فرماننا الهمايونى هذا. وحيث أنه قد صار فرماتنا الشريف الجارى بقضائنا السلطانى وأمرنا العالى الواجب الاتباع بتنفيذ كل ذلك بالدقة والاهتمام حسب ما سبق شرحه، حتى إذا طبق ما يحصله أرباب الأقلام من الأموال إلى ما دون من المفردات فى دفاتر الخزينة التى وضعت حديثا تبين أن بالأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الشرقية ١٠٨٤ كيسا مصريا و١٢٣٩٤ بارة ومن الزراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الغربية ١٠٥٧ كيسا و٧٠٥٧ بارة. ومن الأراضي والقرى الخراجية التابعة لقلم الروزنامية ١٦٧ كيسا و ٩٥٣١ بارة، ومن الأراضى والقرى الخراجية التابعة لقلم مقاطعة إيراد الغلال ٢٦ كيسا و ١٧٧٢٠ بارة.

وخلاصة الكلام أن حاصلات أقلام مصر السبعة والسبعين الناتجة من الرسوم المفروضة على كل ما يطير فى السماء أو يسبح فى الماء أو يمشى على الأرض كلها أمانة، حيث تنطق دفاتر الروزنامجى بأن النفقات تبلغ ٢٦٥٢ كيسا مصريا و٥٠٤٣ باره، ومن هذا المبلغ ٥٦٤ كيسا و١٠٠٠٠ بارة من الكشوفية الكبيرة، و٥٤٧ كيسا و٩٠٦٥ باره من مقطوعية الثغر، و١٠٠ كيس و٥٥٤٨ بارة من أموال متفرقة متحصلة من قلم المحاسبة، و٤٠ كيسا من المال يقدمه والى مصر مقطوعا كل عام لتكملة الخزينة المطلوبة عن قرى الحلوان المحلولة، و٢٢ كيسا و١٥٠٧٠ بارة أموال متحصلة من القرى التى

أوقفتها الملكة شجرة الدر على كسوة الكعبة الشريفة، و٥٥ كيسا و١٢٥٠٠ بارة سنويا من المال الناتج عن خصم بارة من كل ٤١ بارة، المعتاد خصمها منذ القدم من عموم مصاريف ديوان مصر باسم التفاوت. وعندما بلغ مجموع الأموال التى يجرى تحصيلها فى زمانكم الشريف أيها الوزير المكرم اعتبارا من أول توت إلى آخره، من أراضى الخراج والكشوفيات وقرى الحلوان وعدد سبع من الموانئ وسائر المقاطعات والأموال المتفرقة وغيرها من الأقلام المذكورة ٣٩٨١ كيسه و٢٤٨٤٤ بارة، كانت المصاريف عن سنة كاملة اعتبارا من توت إلى آخره وهى المصاريف السنوية للأمراء المصرية ومواجب العساكر المنصورة وغيرها ٢١٤٢ كيسة و ٧٩٤ بارة، وبلغت المواجبات وأموال الحرمين الشريفين ٣٤٧ كيسة و ١٧٩٢٥ بارة. ومخرجات الإرسالية إلى العتبة العلية ٩٧ كيسة مال و ١٠٥٦٥ بارة، والمصروف السنوى فى ديوان مصر المحروسة المسمى باسم مخرجات المقاطعات الساير ١٧ كيسة و ٢٣٧٤ بارة سنويا، وعدد ٦٣ كيسة و ٥٧٢٨ بارة تسلم إلى كشاف الولايات لصيانة الجسور السلطانية ومهماتها وتجريف الترع فى ولاية مصر، والفدادين التى تصرف التى تصرف حسب ما كان معتادا قديما على الزوايا والأضرحة فى مصر، وعلى العلماء العظام والمشايخ الكرام، وعلماء ثغر الإسكندرية، وكذا مال مراعى الأمراء المصريين والجنود المنصورين وأموال جميع العلماء مبلغا قدره ١٨١ كيسا و ٥٠٠ بارة فى العام.

وبما أن أثمان ما يلزم شراؤه من الأشياء للجنود القائمين على خدمة الحجاج والكسوة وغيرهم ممن يرأسون الأعمال ويقومون بعا حسب الوارد فى دفاتر الروزنامة، هو مبلغ٣٣ كيسا و ٢٤٢٤ بارة، حيث يكون ذلك مع مجموع رواتب العلماء والأمراء وأثمان الخلع، مبلغا قدره ٢٧٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة. ولما كان ما يرسل إلى الخزينة العامرة حسب المعتاد منذ عهد السلطان يبلغ ١٢٠٠ كيسا مصريا، فيكون المجموع الكلى ٣٩٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة سنويا حسبما هو مقيد فى الدفاتر وبذلك صار الإيراد السنوى مساويا للمصروف السنوى.

ثم أن دفاتر الروزنامة والمقاطعات وأقلام المتفرقة تدل على أن الباشا الوزير حصَّل بفضل عنايته وسعيه من يوم توليه حتى تاريخ الكتاب، مبلغا للخزينة العامرة قدره ٣٣ كيسا و ٢٠٠٠٠ بارة زيادة على المبلغ الذى أرسله إلى الآستانة.

وحينما عرض الباشا الوالى هذا الأمر علـى الحاضرين فى المجلس طالبا آراءهم فيه، أفادوا بما يأتى: إنـه حسبما هو مقيد فى الـسجلات، يبيلغ مجمـوع ما ورد إلى الديوان المصـرى من المال مبـلغا قدره ٣٩٨١ كـيسا و ٢٤٨٤٤ بارة فـى العام، وأن المصـاريف السنويـة حسب ما ورد فى دفاتر الروزنـامة وسائر الأقاليم، ومع ١٢٠٠ كـيس من المال المعتاد إراسـله إلى الآستانة يبلـغ ٣٩٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة، وعلى هذا يـصير الإيراد السنوى معادلات للمصاريف السنوية.

وبعد اعتراف المذكوريـن وإقرارهم واقترانه بالأمر الهمايونى الـكريم، واتخاذ الدفاتر المذكورة دستورا للعمل، بادر الدفتردار وسائر الموظفين إلى التعهد بأداء ما وقع من العجز والنقص من أموال الخزيـنة العامرة، وسائر الإيرادات والمصروفات في عهد الـقائمقامية، وقام الوزير المكرم الذى صار مظهرا لنص الآية الكريمة (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) بامتثال الأمر السلطانى وإطاعة ظل الله فى أرضه حسب قوله تعالى (يا أيها الذين آمـنوا أطيعوا الله وأطيعوا الـرسول وأولى الأمر منكم). وبما أنـك أيها الوزير عليم بأن طاعة أولى الأمر وامتثال أوامر من يتولى أمور الدين والدولة، فرض وواجب، وأن مخالفـة ذلك مخالفة لـلشرع، فعليك مـن الآن فصاعدا اجتنـاب التغيير والـتبديل والتحريـف والتأويل فى الأمور المذكورة، وإياك وعدم الانصياع لقبول فحوى الآية الكريم (فمن بدلـه بعد ما سمعه فإنمـا إثمه على الذين يـبدلونه إن الله سميع علـيم)، فى شأن صرف المرتـبات والإنعامات المـمنوحة من الأعـتاب السلـطانية السـامية لفقـراء الحرمين الشريفين والمـشايخ الكبار... أموال مصـر المحروسة التى هى مطبـخ زراق الألم ومنبع معايش بنى آدم مدى الدهور والأمان، فإن تلك الرواتب والمخصصات صدقة لاتنقطع.

وبموجب الفـرمان العالى والأمر السلـطانى واتفاق آراء الوزير المكـرم والأمراء الذين ورت أسماؤهم فى هذا الكتاب وسائر أمراء مصر المشهورين وأعيان الديوان وأغواته، قد أودعت دفتر إيرادات الأقلام المصرية ومصروفاتها مع هذا الكتاب برج الخزينة لكى تكون دستورا صالحا للعمل، يرجع رليه لدى الحاجة... (إلى أن قال باللغة العربية).

تحريرا فى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ١٠٨٢ اثنين وثمانين وألف بعد الهجرة الأحمدية ﷺ.

صورة إمضاء مولى مصر أعنى حضرة أبو المال اسحق زادة أفندى الشهير. مافيه من تكميل خزانة المال وختمها بخاتم التصديق من عدول الرجال. وقع عنه العبد المنكسر البال، الفقير إلى ربه ذى الجلال، أبو الفلاح محمد الصالح بن اسحق القاضى بمصر المحروسة دامت دار الأمالى والأمان، عفى عنهما ربهما يوم الحساب والسؤال. تم هذا المكتوب فى شهر شوال.

فى بيان لهجة المصريين الخاصة

من المعلوم أن لأعيان وأشراف مصر اصطلاحات وعبارات مختلفة. ولكن أغلب أهل مصر من الشراكسة الهاشميين والأبخاز القرشيين، وقوم الصدشة والجورجيين والمكرل وواديان، والاجقباش والروس، وأقوام أخرى لممالك مختلفة.

وشاء الله أن يأتى إلى مصر هؤلاء الذين سلف ذكرهم وتوافدوا عليها بعضهم إثر بعض. وقد بيعوا فى مصر كما بيع يوسف الصديق. وكل منهم آل إلى أسرة حاكمة. وتعلموا، ومنهم من تبوأ منزلة رفيعة وأصبح عزيز مصر. وبما أن مصر بلاد العرب ترك كل منهم لهجته الخاصة وتكلم العربية. ولكن بما أن لغة الأبخاز والشراكسة لغة صعبة كانت لهم اصطلاحات وعبارات تمتزج فيها العربية والتركية، ولكن عباراتهم واصطلاحاتهم هذه لا تستخدم فى ديار أخرى ولكنها تستخدم بين أهل مصر، لا يستخدمها سواهم من أهل البلاد الأخرى. إنها اصطلاحات خاصة بأهل مصر وهذا بيانها:

أولاً: (رغيف) بمعنى الخبز، و(حَدَ الله) يعنى الله الواحد، و (الله ستر ايده) بمعنى حفظ الله، (فطور ايده لم) بمعنى لنتناول طعام الفطور، و(بيورك غدوه ايده لم) بمعنى لنتناول طعام الغذاء. و(عشوه ايده لم) بمعنى لنتناول طعام العشاء، و(أبرار اولدى)

بمعنى صعد الآذان فى أول لـيلة من ليالى رمضان. و(سلام اولدى) بمعـنى أذّن للفجر. و(نيل وفا ايـتدى) بمعنى فاض الـنيل على ما يرام. و(نـيل وفا اتمدى) بمعـنى لم يفض الـنيـل. (غشيم) بمـعنى ناقـص التجربة. و(دويـدار) بمعنى نـائب أحد رؤساء الـشرطة و(وجندى) بمعنى سيـد. و(سجان) بمعنى السجّان، (موقع ديوان كاتـبى عرفات) بمعنى عالم بقواعد الديـوان، و(فرّاش) بمعنى كناس البيوت، و(ربّال) بمعـنى كناس الشوارع، و(حمّار)، و(جمّال) بمـعناهما فى العربـية وكذلك (طباخ)، و(كاشف) بمـعنى حاكم، و(والى) بمعنى رئيـس الشرطة، و(حاجب) بمعنى بواب، و(قوّاس) بمعـنى خادم يحمل القوس، و(مقدم) من يتـقدم الحاكم فى سيره، و(نايب غيبه) مـن يرعى أمور الوافدين من الخارج، و(قلجدار) بمعنى من يحمل السـيف ويمشى أمام الحكام، و(رُوشنبًا) بمعنى رئيس النـواب. وهى صحيحة لـغة. و(ركابدار) بمعـنى يركب جواد الحاكم ويـسير فى ركابه ويخدم فـى سماطه، (استَدَار) بمعـنى من يذوق طعام السلطـان. (حاصِل باشى) بمعنى رئـيس الطهاة، (حاصل) بمـعنى مخزن الأطعمـة. (مرشد) بمعنى حاكـم القرية، (شيخ البلـد) هو حاكم فلاحى القريـة. (فلاح) بمعنى مزارع، (غفيـر) بمعنى حارس، (تَخْطِير) بمعنى نـشر البذور، (عاطل) بمعنى قرية لا محصول لهـا. (شراقى) بمعنى قرية أرضها يابسة لا تـروى، (راى اولمش) بمعنى قرية مروية. (كَفِردن فائـض كَلدى) بمعنى ورد مال من القـرية. (شومنَه) بمعـنى مخزن القمـح (جرافا) هو الصنـدوق الذى تجره الثيـران لجرف التراب. (نُـورَج) هو نصال المحراث الـتى يدك بها الـقمح فى الـبيدر. (جُورُون) بمعـنى بيدر القمح، (غِلال) بمـعنى القمح والشـعير والفول. (حِنطـة) بمعنى القمح. (رِزْقه يَرى) الموضع الذى تلقى فيه البذور أى الحقل. (قمح) بمعناه فى العربية. (عَليق) الوجبة من الشعير. (جرايه) بمعنى وجبة القمح. (فدّان يرَى) بمعنى الأرض ذات الكلأ. (مُحْتكِر) بمعنى خازن السلع للغـلاء يعنى القحط. (مُسبب) بمعنى مربح. (فُودْ ايتدى) بمعنى اتم وأنجز. (غَـلْق ايتدى) بمعنى أغلق. (ارقِ خانه) بمعـنى سجن المدنيين. (ديَلَم) الـسجن الخاص بقاضـى العسكر (والـى ديلمى) بمعـنى سجن رئيس الـشرطة. (شيال) بمعـنى الحمال. (نشّال يان) بمـعنى من يقطع الجـيوب للنشل. (نصّـاب) بمعنى

محتال. (مَمْـلوك) بمعنى عبد. (مماليك) بمعنى حرس الحدود. (طواشـى) بمعنى خادم القصر، (وكالة) بمعنى مكان مبيت الغرباء. (راَب) بمعنى حجرات المتزوجين، (سُطوح) بمعنى سطح المنازل. (مواليس) بمعنى المنافق. (خورده) بمعنى إدارة الرسومات أى الجمرك. (غيَالـه) بمعنى القيلولة أى النوم فى وقت الظهيرة. (كحك) تعنى الكعك. (بُقصماط) بمعنى البقسماط. (قَراقيش) بمعنى غريبة تصنع بالسمن. (مُطَبَّق) نوع من الرقاق يصنع بالسمن (بنى بهتيل ايتدى) بمعنى ضربنى ضربًا مبرحًا. (بنى وتَاه ايتدى) بمعنى جرحنى. (بن أوُوزْميم) بمعنى: أحتاج إليه. (يا حضرى) بمعنى يا مولاى السلطان. (يا نظرى) بمعنى يا عينى. (توت) بمعنى رأس السنة القبطية. (خماسين) بمعنى أيام القيظ الشديد فى مصر. (مُلاقه) ما بين قرية وأخرى. (لَمْلوم) بمعنى العاصى الذى كون له أتباعًا. (بُوغ ايتدى) بمعنى سلخ جلد أحد، وحشاه تبنًا وأرسله إلى ديوان (شرانى اتدر) بمعنى جواد جموح. (بَطْران اتدّر) بمعنى جواد كسلان أو بطىء (طرعه جرف ايتدى) بمعنى جرف الترعة. (قمين) بمعنى هطول البرد. (عمال) بمعنى عمال. (بنا) بمعنى بناء. (غَرامه) بمعنى ما يدفع تغريمًا أى غرامة، (شَرْمُوط) قطعة من شىء قديم. (ماى بالى) بمعنى هكذا الأمر فلا تحزن. (ما له أوطور دى) بمعنى تعهد أن يسد دينه، (   )[1] من رجل إلى رجل. (بَرْطيل) بمعنى رشوة، (باشمزه شبكه اولدى) بمعنى بلاء لحق بنا. (استحالدر) بمعنى كوفئ. (كلفه وردى) بمعنى عين النفقة.

أوصاف العلماء السادات الكرام نقباء الأشراف

إن السيد برهان الدين الرومى هو سيد نقباء الأشراف. إنه من العرق الطاهر لسيد برهان الدين فى مدينة «اكردر» بإقليم حميد. وكم لأجداده الكرام من معجزات وكرامات ظاهرة وباطنة. وقد سكن مصر سبعين عامًا وهو صاحب أسرة غاية فى الكرم. ورحالة العرب والفرس والترك، والذين قدموا من الهند والسند وسمرقند وبخارى كانوا ينزلون ضيوفًا على داره أو شرفوا بصحبته والتحدث إليه. وأصابوا من

(١) بياض فى الأصل.

نعمه، ونالوا من الإحسان والإنعام. وقرر لهم أنواعًا من الخرقة يلبسونها. وكان منهم من يقيمون فى ضيافته العام والعامين دون أن يستثقل منهم ضيافته. وكان على الدوام يردد هذا المصراع من الشعر: «تعال إلى دار أملك دون كلفة».

وكان فى مجالسه على الدوام يبحث المسائل الشرعية والحقائق العلمية وكان له نواب عنه فى سبعين جهة. أما إيراده الذى كان يصله من شهر إلى شهر فكان ينفقه صدقة على أنه مرتبات عدا قضاء الخانقاه فكان له. وكان له مدرستان وسبع نظارات. كما كان له قرى تدر محصولاً وفيراً. وكان تحت رياسته فى مصر ستة وأربعون ألف من ذوى الحسب والنسب. وفى أيام الموكب كان يخرج لاستقبال الباشا هو وأتباعه ويرفعون علم رسول الله ﷺ وتحته عمائمهم الخضر وبذلك الطريق أشبه شىء بأرض مخضوضرة. ومن شعشعة النور المحمدى كان هذا العلم يتموج. وكان جميع السادات يمتطون جيادهم متحازين مراعين الأحكام المحمدية.

ولقد ذكرنا على وجه الإجمال طوائف جند مصر وعلماءها وأمناءها وإدارات الملتزمين والكشافين. ولكن سوف نتحدث عنهم فى موضعه على وجه أفضل.

سكن السلطان سليم عليه الرحمة والغفران مدينة مصر ودمياط ورشيد والإسكندرية تسعة أشهر بتمامها. وقد ذكرنا هذا آنفًا على ما ينبغى أن يكون. وتحدثنا عن الجند والعلماء والصلحاء وذلك طبق قانون السلطان سليم فى كل تفاصيله. وقد ضيف العلماء وكبار أولياء الله وأحسن إليهم، وشرف بدعائهم له وسمح لهم بالسفر إلى بلاد الترك، كما زار أضرحة الأولياء. وأمر بختم القرآن الكريم مائة مرة فى مشهد الإمام الحسين فى يوم واحد. وكان يطلب المدد من أرواح جميع الأنبياء والأولياء.

بعد تسعة أشهر خرج السلطان سليم من مدينة مصر إلى العادلية فى موكب عظيم وأولم وليمة عظيمة لجملة أعيان مصر فى الديوان، وجعل كمال باشا زاده على يمنته والوزير المكرم خيرة بك باشا على يسرته وأمر أن يقبل كل منهم الآخر، ثم قال: «لقد جعلتكما أخوين فى الدنيا والآخرة، وجعلتكما حاكمين على مصر وفوضت أمرها إلى الله. وملكتكما أنتما وأعيان مصر أمانة الله». وسلم كمال باشا زاده لأشراف وعلماء

مصر، وسلم خيرة بك لأعضاء الديوان وقرأ الفاتحة وفوض كل الأمور إلى خيرة بك.

وفى شهر المحرم من عام ٩٣٣ غادر مصر إلى الأستانة. وكان خيرة بك على نية الخروج معه إلى غزة فقال له السلطان سليم: يا وزيرى خيرة بك إذا كنت ترى فى مصر خيرًا فعد من العادلية. لمن تترك الديار المصرية التى فتحت حديثًا؟ افتح عينك ولطمه!. فعاد خيرة بك. وفى الطريق الذى سلكه السلطان سليم إلى الشام فرش خيرة بك الحرير تحت قدميه مرحلة بعد مرحلة وبذل المطعوم والمشروب وقدم الهدايا. وفى الوقت الذى وصل فيه سليم خان إلى الأستانة أصبح خيرة بك يتولى الحكم.

ولقد فرق خيرة بك ما عين السلطان من محافظين وكذلك كل ما فى مدينة مصر من جند الروملى والأناضول. وحتى لا تقع الفتنة ومن صالح مصر حشد جند الإسلام فى قلعة قره ميدان وطوابق القلعة الداخلية السبعة. فعم الاستقرار والطمأنينة مصر. ولم يستطع أى شخص أن يتجاوز حده. وقد أقام خيرة بك العدل فى مصر وحكم بالحكمة والرأى الصواب. وتوثقت الألفة بينه وبين المصريين، وكانوا جميعًا يقولون: «الله ينصر السلطان خيرة بك». وحقيقة الأمر أنهم إذا سموا وزير مصر سلطانًا فلهذا وجهه وسببه ولكن شريطة أن يكون فعله عين قوله. وإذا ما عزل وزير مصر فى النهاية وخرج سالمًا فهذا هو الملك بتمام معناه. وسوف نذكر شروط مغادرة العمل بسلام فى موضعه بإذن الله.

وأقام خيرة بك جامعًا عظيمًا على الطريق العام عند باب الوزير. ولا يزال الآن قائمًا يسترعى النظر بجماله. ولقد وُزِّر خمس سنين وشهرين، وأدركته الوفاة فى عهد السلطان سليمان. وهو مدفون أمام محراب جامعه. وطبقًا للقانون نظارة الجامع لوزير مصر. وفى مصر الآن يبنى جميع وزراء آل عثمان جوامعًا تحت نظارتهم. وسوف نتحدث عن جميع مبراتهم ومؤسساتهم الخيرية فى موضعه بإذن الله.

* * *

الفصل الحادى والعشرون
ذكر أول من بنى قلعة مصر المحروسة
وجميع من أقام المبرات وكل الأبنية العظيمة فيها

إن أوصاف مصر ـ عمرها الله ـ مدونة فى الآلاف من كتب التاريخ ولكنى أنا أوليا الرحالة قليل البضاعة وكثير السياحة دونتها فى اختصار. ففى هذه الدنيا الفانية كم من دول بقيت، ومصر قدر ضئيل منها. وأول من بناها هو نقراوش بن غرباب بن شيث بن آدم وبعد الطوفان أعاد بناءها سيدنا حام بن نوح وابنه بيطر. وما بنى فى ذلك العصر هو مصر القديمة. وإن كانت مصر اسم جميع البلاد إلا أن اسم مصر أصبح علمًا لأن أحد بناتها نقراوش وقد سماه سيدنا آدم مصرايم ولذلك سميت مصر. أما اسمها الأول فى اللغة العبرية «مقدونيا»، وفى اللغة السريانية «افسوس»، وفى اليونانية «الفسطاط»، وفى اللغة القبطية تسمى «مصرايم»، واسمها بين الناس «أم الدنيا»، وفى اللغة العربية تسمى «القاهرة المعزية» لأن المعز لدين الله القاهر خرج من بلاد المغرب واستولى عليها عنوة قهرًا من أيدى الإخشيديين عام ٣٥٨. وكانت هذه المدينة فى الزمان الخالى عامرة وكان عمارها على شاطئ النيل بقدر مسيرة ثلاثة أيام. وقد اغتر فرعون بامتلاكه مصر وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] حاشا وكلا. وقد حارب سيدنا موسى عند موضع من بحر السويس يسمى مضيق «قولوندر» وقد غرق هناك وقد عصفت ريح قهر ببلاده وعرشه فى مدينة منوف ولهذا سميت القاهرة. وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين وعقدوا العزم على تعميرها وأعادوا بناء عرش فرعون فى منوف وهى مدينة صغيرة فى حجم القصبة.

وقد عمر الملك «طوطيس» وهو من أجداد الملك المقوقس مصر القديمة أى مدينة الفسطاط. ولما كانت فى حوزة القبط تحالف اليونان والفرنجة فى عام ٢١ وأثناء فيضان النيل المبارك استطاعوا دخول مصر فى ألفى سفينة شراعية من مضيق رشيد ودمياط وأغاروا على مدينة المنصورة حتى وصلوا إلى مصر القديمة ناهبين سالبين واستولوا على

عدة مئات من خزائن مصر، وساقوا القبط جماعات جماعات من الأسرى وكأنهم بحر وبسطوا سيطرتهم على مصر القديمة، وجعلوا مصر وقفًا على كنيسة آيا صوفيا، وأدى القبط الجزية للروم.

وفى الجانب الشرقى لمصر القديمة على بعد ساعة من جبل المقطم جبل الجوشى[1] وجبل بجايم وجبل تَقاطع والجبل الشرقى وجبل المقطب[2] أى جبل قطب الأقطاب وجبل لوقان وجبل حِجان. أما الناحية الأخرى من النيل فجبال الجبل الغربى وجبل جُزام وجبال الهرمين. وبين هذه الجبال المذكورة إلى بلاد الفونج والبربر والنوبة فطرفا النيل ضيقان. وبعض أراضى النيل فى صعيد مصر واسعة وفيها تجرى مياهه التى تأتى من جبال القمر فى الجنوب.

وعندما يصب النيل فى البحر الأبيض عند الجهة الشمالية فى فرع رشيد وفرع دمياط توجد كثير من الصحارى الواسعة وبها جبال لا تحصى كثرة.

ولكن الجبال الواقعة فى شرق مصر ومنها جبل المقطم وجبال الجوشى يصدان عن مصر ريح الصبا. وهذا الجبل حينما تكون الشمس فى الأفق يصد نورها عن مصر وبذلك تصبح مصر كأنها سرداب مظلم بعد طلوع الشمس بساعتين ولذلك أقام القبط فى هذين الجبلين مغارات سكنوها ثم بدأوا بعد ذلك فى تشييد مصر الحديثة ثم جاء إلى مصر ملوك الإسلام. وبعد عمرو بن العاص جاء بنو أمية وبنو العباس والفاطميون. وجملة القول أنه جاء إليها الملوك السالف ذكرهم ولم يرغبوا فى الإقامة فى مصر القديمة وقد عمروا جميعًا مصر.

أما أنا فقد أقمت اثنين وثلاثين عامًا فى بلاد سبعة عشر من الملوك وطوفت فى جبالها وتلالها، وكانت المملكة الثامنة عشرة والتى قدمتها هى بلاد الكعبة الشريفة وهى مقصد الناس كافة، ولله الحمد فى عام ١٠٨٢ حججت وطوفت. ثم قدمت مصر وكانت الدولة التاسعة عشرة ولله الحمد فقد أصاب سهم رغبتى غرضه، ودخلت القاهرة وذات يوم أردت أن أغير الجو وأستروح فأمسكت على عنان اختيارى وامتطيت

(١) وهو ما يُعرف باسم جبل الجيوشى. (٢) أى: جبل المقطم.

المطايا وشاهدت مصر القديمة التى تسمى الفسطاط ومقدونيا ومصرايم وأم الدنيا والقاهرة المعزية وهى شوق الملوك وكانت قصتها فى الزمان الغابر حديث الأصدقاء وطبقت شهرة آثارها الآفاق.

حكاية مناسبة

وفى ذلك العصر سأل رحالة شخصًا قائلاً: يا أخى من أى بلد أنت؟ فقال الرجل خفيف الظل له: أنا مصرى، فقال: من أى حى فى مصر؟ فرد قائلاً: أنا من حى بغداد، فقال السائل: أيها الظريف إن بين مصر وبغداد صحراء تمتد مسيرة ثلاثة أشهر. فقال الرجل إن ما ذكرتُه هو الدنيا بل إن مصر أم الدنيا. وإن ولايات بغداد والبصرة واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان كل منها حى على أطراف مصر. حقًا إن ما قاله الرجل هراء.

فمما يروى أن خليفة بغداد كان يستمع إلى تاريخ مصر وعندما علم أن فرعون مصر ادعى الربوبية فقال: إن فرعون الذى يحكم مصر وهى فى حجم البليدة ادعى الألوهية ترى ماذا كان سيدعى لو أنه ملك بغداد التى هى جنة فى الأرض وقال إن مصر تعد حيًا من أحياء بغداد.

وبناء على تواريخ اليونان فإن مصر أول بلد على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين. وهذه المدن الأربعة تشكل السواد الأعظم من العالم ولكن مصر لوقوعها فى وسط الدنيا كانت عظيمة العمران. والآن ليس لها من نظير على وجه الأرض. إلا أنه فى عام ٩١٢ فى عهد الشراكسة بسبب عصيان جنودهم وطغيانهم وتمردهم سمحوا لهم أن يتجاوزوا الحد فى ظلمهم وأن يخربوا عمائرها وأسواقها فأصبحت مصر خرائب وتراب ورمال هنا وهناك. وأصبحت مصر القديمة مأوى للبوم والوطاويط. وبمرور الأيام والقرون أصبحت المدينة كأنها شيخ فى السبعين. ولسان حالها يتحدث عنها وكانت على نقيض ذلك من قبل فى غابر الأزمنة. وعلى شاطئ النيل وعلى مجرى السيل مدينة الفسطاط المسماة بمصر القديمة وكانت هناك قلعة عظيمة. وكانت مدينة هى نادرة الدهر وكم كان بها من خانات وحمامات تخربت

وانتقلت من يد إلى يد. وهى مدينة قديمة لـها أخبار وحكايات لا تنتهى. وأراضيها فى خارجها وداخلها مكتظة بالغرائب والعـجائب والطلاسم والكنوز والرموز وهـى أحسـن إقليم، وهـى كـثيرة الخيرات والقـرى وحدودهـا الجـنوبيـة تنتهى عند قـلعة صاى بعد أسوان على مسيرة عشـرين مرحلة وهى مشاع مع سلطان بلاد الفـونج وتنتهى حدودها الشمالية بقـلعة الإسكندرية على ساحل البـحر. وتنتهى حدودها من ناحية الـقبلة عند الكعبة. ويحدها من الغرب اوجله وهكذا هى بلاد تقع فى إقليمين.

وفى أرض مصـر هذه كنوز ودفـائن عظيـمة وخبايـا كثيرة. ولـقد جاء فى بـعض الروايات أن موضـع فيها لا يخلو من كـنز خفى. ولأن مذهب أهل مصـر أرضى فهم يدفنـون كل أموالهـم فى الأرض. وبما أنى مواطـن والى مصر كتـخدا إبراهيـم باشا، سكنتُ مع أغوات البـاشا فى برج واقع فى مكان يسمى «مرتع المـفلسين» وخرجت من مسكنـى فى السحر ووقعت فـتنة وشغب أمام مبنـى الجاويشية جرح فيـها عدة خدام. وسألت عن سبب ذلـك فقيل لى ربما عثروا هذه اللـيلة فى هذا المكان على كـنز وبينما كانوا يحـملون الكنز سـقط منه ذهب كثيـر على الأرض. وتصادف مرور خـدام التتار (ناقلوا البريد)، والحمّارة ولم ينالوا نصيبهم من الكنز فكان ذلك سبب العراك الذى وقع بينهم. وبمجرد أن وصلت فمماليكى كالذئـاب الجائعة جعلوا يبحثون بين الناس فوجدوا مائة وسبعين ديناراً من ذهب. وعدنا إلى مسكننا. ورأينا الكنز فى الصباح فوجدنا حفرة الكنز تتسـع لخمسة رجال وكان الكنز كنـزاً عظيمًا. ومن الحق قولنا أن لـيس فى مصر موضع يخلـو من كنز. وهذا الكنز كـان من الذهب الخالص. وكان كل ديـنار منه يزن ثلاثة مثاقيل وكتـب فى طرف الدينار الصلاة الـشريفة وكلمة الشهادة. وفى أحد جوانبه كتب اسم الخليفة المأمون ـ عز نصره ـ ضرب فى مصر.

وفى الجانب الغربى لمصر بعد النيل جبال جالوت وفيها المنارات التى تقاتل فيها داود مع جالوت، وتـسمى هذه الجـبال كذلك جبل التقاطع وكذلك يسمـونها جبل الجُوشى. لأن الشيخ الجوشـى مدفون فى مسجد فى ذروة ذلك الجـبل. أما سبب تسميتـها بجبل التقـاطع أن هذه الجبال تقـطع القلعـة الداخلية لمـصر من داخلها ولـهذا سميت بـجبل

التقاطع. وتسمى كـذلك جبل بجاميم وكان يسكنه فى الزمان الخـالى قوم بجميم وهذا الجبل يمتد من مصر إلى طرفها الجنوبى علـى بعد مسيرة أربعين مرحلة من أسوان وتمتد سلسلة من الجبال بين جبال الأهرام وجبل المقطم ويمر من بين هذه الجبال نهر النيل.

إقامة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شادى الكردى قلعة مصر

فى عام ٥٧٢ كان يوسف صلاح الدين وزيرًا للخليفة نور الدين الشهيد فى دمشق. ودخل الأسبان المـلاعين مصر من مضيـق دمياط فى وقت فيـضان النيل بألف سـفينة، واستولوا على المنصورة وبدأوا فى نهب وسلب جوانبها الأربعة. فتظلم خلفاء العباسيين من مصر نور الدين الشهيد فأمَّر نور الدين صلاح الدين يوسف على ثمانين ألف جندى ليدخل مصر ولما بلغ مـصر أباد الكفار جميعًا. ولأنه انتصر فى المنـصورة سميت المدينة بالمنصورة وكان اسمها قبل ذلك «ريحان» ثم خلـص دمياط وقلعة «التينة» من المغيرين. ولما قدموا مدينة مصر سالمين غانمين كانت الثورة تعم مصر ولما كان صلاح الدين رجلاً مسعودًا مدبرًا جعلوه خليفة عليهم. وسمع بذلك نور الدين فاستعدى صلاح الدين إلى دمشق فاختلق صلاح الـدين مختلف المعازير فلم يمض إلى دمشـق. ولم يضرب السكة ولم يـذكر اسمه ولا اسـم سيده فى دمـشق فى الخطـبة بل جـعل الخطـبة تتلى بـاسم العباسيين. وفى تلك المرة اشتد استياء نور الدين من صلاح الدين وهذا ما عرفه صلاح الدين ولشـدة مخافته منه أقام قـلعته الداخليـة حول القاهرة فوق جبل المـقطم، أحاط جوانب المدينـة الأربعة بسور طوله تسعـة وعشرون ألفًا وثلاثمائـة ذراع. وأنشأ مدرسة بالقرب من ضريح الإمام الـشافعى. وحارب كفار الفرنجة ثانية في مـرج العيون وانتصر عليهم. وفى ذلك الوقت توفى نور الدين الشهيد فى دمشق فأغار عليها من مرج العيون واستولى على جميع خزائنها وكنوزها وضم دمشـق إلى ملكه واستقل بمصر ملكًا عليها وانصرفت همته إلى تعمير مصر. حتى أصبحت مصر أم الدنيا كأنها عروس. وجاء بعد صلاح الدين سبعون ملكًا كذلك وكل منهم عَمّر مصر وهى الآن شوق الملوك.

وأنا أجرى على مصر أوصافها بناء على علمى بها والله المستعان.

أولاً: وصف قلعة مصر الداخلية

تقع القلعة الداخلية لمصر فى الجهة الشمالية من أنف جبل المقطم وهى قلعة جميلة على ربوة منتصبة. ومن جبل الجوشى إلى القلعة موضع للمدافع وما بينهما واد من مائتى ذراع فيه حفر وأحجار. وجميع من ينحتون فى الولايات ينحتونها مثل فرهاد ويحفرون الخنادق. وبين القلعة وجبل الجوشى أرض كثيرة الحجارة وعند حصارها لا يمكن اختراق حواجزها. وهذه القلعة الداخلية قلعة شامخة تبعد عن الجانب الشرقى للنيل ألف وخمسمائة قدمًا. (وجوانبها الأربعة شديدة الانحدار ذات صخور بيضاء) وباب جدارها ثقيل وبناؤها يرتفع ثمانين ذراعًا. وهذه القلعة التى أقامها صلاح الدين هى حصنه الحصين وسده المتين تسمى «زَرْ ابَاد» أى منجم الذهب. ويرجع السبب فى تسميتها بهذا الاسم إلى أنه حينما شرع صلاح الدين فى حفر أساسها رغّب إليه المنجمون أن ينثر الذهب فى أساسها وأن ينثر الذهب كذلك فى برجها.

وهذا ما ظهر لهم فى الطالع الميمون ولما نثروا الذهب فى أساسها عند بنائها سموها قلعة «زر اباد» بمعنى «منجم الذهب» وهذا ما ذكره جميع المؤرخين. لأن مصر منجم الذهب. ولقد بنيت القلعة على شكل مخمس بناء على ما أشار به علماء الفلك. ولأن الشكل المثلث لايخلو من الفتنة والفساد لأنه يجلب النحس. لذلك بنيت القلعة على شكل مخمس ولكن العبد يدبر والله يقدر، وشاء الله أن يكون بناؤها على شكل مخمس ولكن طالعها كان نحسًا. فما سكنت فيها الحروب والفتن فى كل عام. ومن باب مطبخها إلى برج أغا الانكشارية (يوجد خندق كأنه بئر). وأساسها بتمامه قائم على الصخر. ويحيط بالقلعة اثنا عشر برجًا وهذه الأبراج هى البرج الشرقى والبرج الغربى وبرج الأغا وبرج الباب والبرج المسطح وبرج الفرنجة وبرج صلاح الدين وبرج المعمار، وهذه الأبراج بديعة الزينة والزخرفة وكل منها يتألف من ثلاثة طوابق ويتسع كل منها لألف رجل. وكل برج من هذه الأبراج حصن قائم بذاته يتألف من ثلاثة طوابق، وفى أحد هذه الطوابق حجرات الانكشارية عند باب الشيخ سارى. وعددها

أربع وأربعون حجرة ولا وجود لشىء آخر ولها باب يطل على الغرب. وحجم هذه القلعة ستمائة قدم وعدد أسوارها ألفان وستون ويتصل بها قلعة داخلية أخرى. ويتوسط هذه القلعة جامع الشيخ سارى ومسجد الشيخ وزاوية الجاوش وزاوية الكتخدا وإدارة الأغا ومخزن البارود خانه ودار الضرب والطوبخانه ومصنع المركبات وحمام القلعة وثمانمائة بيت صغير قديم وسبعون دكانًا. ولهذه القلعة ثلاثة أبواب إحداها فى الجانب الغربى. وهناك بابان من طبقتين من حديد بين برجى القلعة، وفى الوجه الداخلى لهذه الأبواب مدافع من حديد طول الواحد منها ثلاثون شبرًا. وفى نهاية مصنع المركبات مدفع آخر. ويتصل بدار الضرب جدولان للماء وكل من فى القلعة فى حاجة إليهما. ولهذه القلعة باب يفضى إلى ميدان أغا الانكشارية ويطل على الناحية الغربية. وديوان جميع الانكشارية أمام هذا الباب، وله عتبة من القيشانى الصينى. وثمة باب آخر هو باب صلاح الدين وبينما كان يفتح فى الصباح كان يحضر جميع نوابه وبيت «المالجى» أى القائم على أمر بيت المال وجاويشيته الستة وجميع بوابيه وبعد دعائهم له يفتحون الباب، إنه يتألف من ثلاث طبقات من الحديد. وعند دخول القلعة بين هذين البابين على الجدار فى الجانب الأيمن، تواريخ الملوك السابقين على أربعة ألواح من الرخام والتاريخ فى أعلاها هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا السلطان مالك الملك العادل صاحب الدنيا المصرية والبلاد النامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والسد والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عزّ نصره سنة ست وتسعمائة).

وعلى لوحة رخامية أخرى تاريخ قايتباى. وعلى لوحة أخرى من الرخام تاريخ برقوق الذى دون سنة خمسمائة وستين. إن هذه القلاع الثلاثة المنفصلة قلاع صلاح الدين.

ولكن فى عهد السلطان سليم وزّر أول ما وزّر خيره بك وكان ذلك عام ٩٢٣ وقد دام حكم خيره بك خمس سنون وشهرين واثنين وعشرين يومًا وتوفى فى عهد السلطان سليمان وأسندت الوزارة إلى «بلاق مصطفى باشا» ثم أسندت إلى أحمد باشا الخائن. ولما شغل السلطان سليمان بحرب المجر اغتنم أحمد باشا الفرصة وفكر فى الاستقلال بحكم مصر وحشد حوله جميع الشراكسة الذين نجوا من حرب السلطان سليم وشق عصى الطاعة وأعلن التمرد والعصيان. ولما نمى الخبر إلى السلطان سليمان بعث إليه بجيش فى البر والبحر كما أرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا «المقتول» فى ثلاثمائة من سفن الأسطول العثمانى. ولكن جرى قضاء الله بألا يكون الحظ مواتيًا فاشتد عصف الرياح فاضطر الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الناحية البرية وحشد عتاده من جديد وعندما قدم مصر فى جيش عظيم أقام العدل فى الناس وأخذ على يد الظالمين. وعمت الثورة أعيان الديوان فى مصر وكذلك الأشراف وكبار الأعيان وقالوا: يكفينا ما أصابنا من بلاء فى حرب السلطان سليم ولا يجب أن نحارب من أجل خيانة أحمد باشا هذا. نحن لا نريده. وقبضوا على أحمد باشا الخائن وصلبوه على باب زويلة وعاد الاستقرار والطمأنينة إلى مصر.

أوصاف قلعة نارن والقلاع الأخرى

قدم إبراهيم باشا مصر وقد قال جلالى مصطفى چلبى تاريخًا: هو وزير عادل عمّر مصر، لكنه حكم سنة واحدة عام ٩٣١، وأقام قلعة إضافة إلى القلعة الداخلية. وهى الآن تسمى قلعة السلطان سليمان. والقلعة التى أقامها إبراهيم باشا تتوسط قلعة صلاح الدين وهى قلعة فخمة جميلة على شكل مربع، تزدان بها المدينة وهى تضيف للقلعة المناعة ومحيطها ثمانمائة قدم. وهناك برجان يطلان على الناحية الغربية وبينهما باب حديدى من طبقتين وفى ركن منها بنى برج شامخ من عشرة طوابق يشبه برج «غَلَطَه» ولا يستطيع مهندس آخر أن يبنيه، وهذا البرج كثير الزخارف وفى أركانه مزاغل، وقبته عظيمة الارتفاع مكسوة بالرصاص الأزرق ولا وجود فى هذا البرج إلا لمال السلطان وكله تحت الأرض. وما يحصله الدفتردار من مال يضعه فى هذا البرج.

وخارج القلعة لا وجود إلا لمقر محافظ القلعة والكتخدا والإمام والمؤذن وزاوية ومخزن وصهاريج الماء ومقر محافظ القلعة من طائفة الانكشارية وهو فيها ليل نهار. وخارج خزانة البرج هذه بنى سور ركين للقلعة من طابق أمام جامع قلاوون. كما أقام على جانبيه برجين شامخين، وثمة برج عظيم هو برج المِهْتَرخَانَه، وهو من عشرة طوابق، ويقيم بداخله جميع أفراد المهترخانه، وثمة برج آخر يطل على قصر إبراهيم باشا، وهو يسمى باسمه وهو برج متين ركين وطوله ألفا قدم. وثمة برج آخر هو برج المخزن وهو كذلك مواجه للقصر. وبرج آخر مسدس الشكل فوق بئر يوسف، وهو كذلك مواجه لقصر الباشا.

وجملة القول أنها سبعة أبراج قبابها مكسوة بالرصاص ولكل منها أربعون أو خمسون مدفعًا وكلها تطل على قصر الباشا حتى إذا أعلن أحد العصيان عليه أوردته مدافع القصر موارد الهلاك.

وبناء على هذا الإحصاء ينتهى الحديث عن القلاع المنفصلة ذات الثلاثة طوابق فى مصر.

ولقد حشد إبراهيم باشا فى هذه القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى انكشارى ورمم وأصلح حجراتها ودبر أمور مكة والمدينة وأحصى جميع أوقاف الله وأنفق المال السلطانى فى وجوهه وأسند وزارة مصر إلى «كَورلْجَه قاسم باشا» ومضى إلى الأستانة. وكان بين باب الوزير والقلعتين مسافة أقام فيها «كوزلجه قاسم باشا» سورًا وأنشأ باب قلعة ولذلك يسمون هذا الموضع «باب الوزير» وصنع بابًا حديديًا يصعد ويهبط بمائة قدم ويسمى «دَمِر قَپُو» أى الباب الحديدى. وعلى اليمين باب قلعة منفصلة من طابق واحد، والصعود والنزول يكون من بين أسوار القلعتين. . وثمة باب قلعة من طابقين من الحديد. يفضى هذا الباب إلى ميدان سوق القلعة. إنه ميدان وسيع وتقف فى هذا الميدان خيول أعضاء الديوان. وفى جوانبه الأربعة دكاكين وفى هذا الموضع سور قلعة من طابق واحد. إنه سور مزين مزخرف وله باب حديدى متين من طبقتين ويسمونه «طوب اتان باشا قبوسى» أى باب الباشا الذى يطلق المدفع. وهناك سور قلعة متين يقع بين برج «المِهتَرخَانَه» وجامع قلاوون ومنه تطل جميع المدافع السلطانية على الميدان.

وثمة قلعة من طابق واحد بها مقر أغوات الباشا ولا يسكنه أحد سواهم ولهذه القلعة طريقان رئيسيان أحدهما فى ناحية «كسوه قبوسى» أى باب الكسوه والآخر عند ديوان قلاوون ولا طريق سواهما.

والقلعة ذات الطابقين لها أبواب حديدية كل منها من طبقتين عند عتبة العزب منها باب كبير يطل على «ميدان الروملى»* وجميع البوابين يقومون بالحراسة عليه. وما بين البابين مزين بالأسلحة والدروع.

ذكر قصر قره ميدان وطول وعرض قره ميدان

عندما كان خيره بك وزيراً لمصر أحاط «قره ميدان» من جوانبه الأربعة بسور.. وأنشأ فيه حديقة خاصة بالباشوات ولكن فى قديم الأيام كان قصر «قره ميدان» خاصًا بالسلطان قايتباى وهو الآن بستان من الأزهار والأشجار والنخيل. وكان الباشوات فى كل مرة ينزلون به ويلعبون الجريد وهو ميدان طوله ثمانمائة قدم وفى نهايته حجرات مرشدى الباشا. ولهذه القلعة كذلك من جوانبها الأربعة أبواب حديدية، والسلام.

وبذلك ينتهى الكلام جملة وتفصيلاً عن القلعة الداخلية. وعلى نحو ما أسلفت يكون للقلعة الداخلية بمصر ثلاث عشرة قلعة منفصلة. وعدد أبواب هذه القلاع المنفصلة تسعة عشر بابًا والسلام.

ذكر طلاسم القلعة الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية سامقة ذروتها فى الأفلاك وفيها مكان مرتفع يسمى «مرتع المفلسين» وفيه برج عال يطل على مقر العزب. وقد سكنت هذه القلعة سبعة أعوام وكانت لى حجرة أعتزل فيها وأرى منها الدنيا. وتحت كوتى كانت توجد سجادة عليها كتابة وفى وسط هذه الكتابة صورة لطائر بقدر قدمين، وقد بسط جناحيه وله رأسان. وفيما كانت حجرتى ترمم ذات مرة خرجت من النافذة وجلست على ألواح الخشب (السقالة) ورأيت تمثالا من الرخام لطائر لا يستطيع مثال غير صانع التمثال أن يصنعه، وقيل إن تاريخ هذا التمثال يرجع إلى ألف عام. ومع ذلك فحجر التمثال ما زال أبيض اللون وقد لونه المثال فأضفى عليه جمالاً وكأن التمثال ذو روح وله رأسان يلتفت

---

* يقصد ميدان الرُميلة.

أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وصورة هذا الطائر على عملة فضية بولندية. ولا فرق بين الصورتين إلا أن الصنعة هى السحر المبين، وللطائر لسانان، فإذا عصفت ريح الشمال، خرج صوت حزين من لسانه فى رأسه الملتفت إلى الشرق وهذا صوت مخيف وهو صوت نسر. وإذا ما اشتد عصفها خرج من لسان الطائر الملتفت إلى الغرب صوت يثير الرعب وهو صوت اللقلق. أما اللسانان فى هذين الرأسين فأحدهما من النحاس والآخر من الصلب وقد نظرت فيهما وأمعنت النظر فوجدت أن طرف هذين اللسانين من الداخل يشبه السكين، فإذا عصفت الريح حركت اللسانين وكلا اللسانين يطلقان الصوت على هذا النحو فى الريح وفى غير ذلك من الرياح فصوته كصوت العقعق والعقاب. وتحت كل جناح من جناحيه ثقب وإذا ما أدخل الإصبع فيه خرج صوت مخيف وبطن الطائر كبطن رجل بدين وكأن تحت ريشه ثقبًا يتسع لليد. وفيه ورق يحمل خاتمًا يحمل صورة لجندب البحر. وإذا هبت رياح الشمال صدر منه صوت مهلك.

وبعض الأصدقاء سموا هذا الطائر «أوليا جلبى الطائر الذى حط». إنه على الدوام طائر مطلسم عجيب يستحق المشاهدة وهو ظاهر للغادى والرائح من باب العزب وهو معروف لدى أهل مصر جميعًا. وعلى رأس هذا الطائر كتابة من ثلاثة أسطر ولم أر مثل هذا الخط فى بلد من البلاد إلا فى بلغراد عند نهر الطونه على حافة حوض متروك فى خندق قلعتها ويقرر علماء مصر أن مثل هذا الطائر له صفير خاص لا عهد لهم به فى طيور مصر. إنه ليس طائر اللقلق فى مصر ما فى ذلك شك وليس البومة ولا الصقصغان ولا غيرها.. ويا لها من حكمة عجيبة.

طلسم العقرب

وفى القلعة التى سلف ذكرها عقرب إلا أنها إذا لدغت أحدًا لم يصبه أذى وبعد عدة ساعات يشفى من ألمه وهى طلسم ديوان السلطان قلاوون العتيق ويقع فى نهاية أربعة وأربعين عمودًا ولعلها كانت فى أسوان فى الربع المسكون وهذا الطلسم طلسم هذه الأعمدة.

وهو فى عـمود على طرف مـقر التتار وفـى نهايتـه طوق حديدى وفى هـذا الطوق الحديدى صورة عقرب من النحاس وهى معلقة من ذيلها وواقفة وهى الآن ظاهرة.

طلسم الثعبان

وأمام هذا العمود الذى يحمل طلسم العقرب عمود آخر عليه صورة ثعبان وعلى هذا العمود كذلك سطران من طلسم. إنه طلسم ثعبان ولا وجود لطلسم الثعبان الموجود فى القلعة الداخلية الخربة فى مصر فى قلعة شاه ماران. لكنه لا يصيب أحدًا بأذى بإذن الله - إنه حيوان مخيف.

طلسم الحية

وثمة عمـود آخر فيه طلسم حـية. وعليه كتـابة مطلسمة مـن سطرين والآن لا أذى يصيب الإنسـان من تلك الحية.

طلسم الحمى

حمدًا لله فـما كان فى تـلك القلـعة الداخلـية فى أى زمان حـمى الربع أو الحـمى المحرقة. وإذا ما سـكن هذه القلعة محـموم من بلاد أخرى ثلاثة أيـام شفى بإذن الله. وفى نهاية باب «وفقى حلواجى محمد أغا» عمود عليه كتابة مطلسمة من ثلاثة أسطر.

طلسم القولنج

وهو مكتوب على عمود.

طلسم الطاعون

ينسبونه إلى ابن سيـنا. إنه رحمة داخل القلعة الداخلية لمصر وهـو ليس خاصًا ببلد معـين. فلا إصابة بـالأمراض المختـلفة مثـل الإسهال وذات الجـنب واللقـوة والخرّاج. والطلاسم الموجودة الآن مستمرة المفعول ولله الحمـد. . والأعمدة سالفة الذكر لكل منها عالم مطلع على أسرارها. ففى العمود الأصفر لـلقلعة طلسم للعبد الآبق. وآخر للص الهارب وطلسـم آخر يشل يد العبد الذى يغـدر بسيده. وثمة طلسم فـى عمود لكى لا تزنى المـرأة. وطلسم يحمـى مدينة مصـر من الحريق ولله الحمـد فهذا الطلسـم الأخير مستمر المفعول.

وطلسم على عمود به يهطل المطر أربع مرات فى الشهر، وطلسم لتسلم عيون الصبيان من الرمد.

وجملة القول أن لهذه الطلاسم طلاسم أخرى كثيرة تشبهها على كل عمود ولكى يتعرف بعض الملاعين من المغاربة والهنود والمجوس الباحثين عن الكنوز على موضعها من تلك الطلاسم التى على الأعمدة يبحثون عنها ويجذبون بعض الأعمدة بالوهق ويطرحونها على الأرض ويحكون هذه الخطوط أو الطلاسم بملح البارود والزئبق ويبطلون مفعولها فلا تظهر الكنوز ولا مال الدفائن وينسحبون خاسرين وقد نزلت بهم المحن والشدائد.

والآن منذ ذلك الزمان والبراغيث والقمل والبق يشوى أهل مصر اللهم عافنا ولا وجود فى بلد قمّل إلا فى مصر، وأهلها يكتبون رسائل استغاثة من القمل من بلاد إلى بلاد حتى أنا نفسى كتبت إحدى هذه الرسائل.

طلسم الكَلْبَيْن الكَلِبين

وفى مدينة مصر بين قنطرة الحسين وقنطرة الموسكى على الطريق الرئيسى حمام صغير يسمى «حمام الكلب». وفى أساس هذا الحمام قبة صغيرة بها تمثال لكلبين من النحاس وهما ليل نهار يعض أحدهما الآخر. ولا يسمع فى مدينة مصر أن فيها كَلْبًا كَلِبًا رآه أحد. ولذلك يعرف هذا الحمام بحمام الكلب وذلك مدون فى تواريخ القبط.

أوصاف قصر وزراء مصر

هذه القلعة كذلك متصلة بالقلعة الداخلية إلا أن أبوابها تختلف ومفاتيحها فى يد الباشا. ولقد أقام هذه القلعة والقصر يوسف صلاح الدين وكم من ملوك أضافوا إليها ملحقات فصارت قصرًا عاليًا كأنها قصر آل عثمان.

وأول أبواب الديوان باب «عَرْضحالجيلر» أى متلقو الشكاوى ويدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد دكاكين الخياطين على الجانبين، وبعد باب السبيل يدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد بابين وعلى الجانب الأيمن فى الطريق الخاص بمحافظ المدينة باب صغير وعلى جانبه الأيسر الباب الكبير للديوان. وبعد خمسين قدمًا فى ارتفاع

وانخفاض باب من طبقة واحدة بعده بعشرة أقدام باب آخر من طبقة واحدة وبعبور باب ذى طبقتين يكون الخروج إلى ميدان القصر وهو سهل واسع وهو ميدان محيطه ألف قدم وفى جوانب هذا الميدان الأربعة حجرات أغوات الباشا وجامع «دُهَيْشَة» فى هذا الميدان. وقصر رئيس الديوان وقصر «رئيس الذواقة» و«رئيس الخَزَنة» كل هذه القصور جميعًا تطل على هذا الميدان. كما أن ديوان قايتباى وديوان الغورى وقصر «المُقابَلَه جى افندى»* و«البارودخَانَه» وقصر كَتْخدا البوابين والشطّار وحملة البنادق تطل على ميدان القصر هذا.. ويطل على هذا الميدان كذلك باب المطبخ المكشوف وبالدخول منه نواجه بقلعة من طابق واحد هى مطبخ «كِيكَاوسْ» وبالمرور من الباب الكائن فى ميدان على قنطرة وتحته منارة يتم الوصول إلى قصر المُطوّعة وهذا الموضع قلعة أخرى قائمة بذاتها. أما المطبخ فهو قلعة حصينة ولها ثلاثة أبواب وقد فتح البوابون هذا المطبخ للسلطان سليم. وبما أن السلطان سليم ورجاله دخلوا من هذا الباب سمى «باب السليمية».

ومنذ أربعين عامًا دفن أعرابى أعمى تحت هذا المطبخ وكان يقول: «سلطان سليم شُوىْ شُوىْ» وكان ذلك عام ٩٢٣ ولأبنائه راتب من الدولة وطعام دائم من مطبخ القصر، حقًا إن هذا لتاريخ عجب ويقول البعض إن هذا التاريخ جَفْر.

ولكن باب سليم هذا لا يستعمل إلا إذا مر الباشا إلى هذا الجانب أو أن يموت أحد الأغوات أو إذا جد أمر سرى فإنه يفتح.. إنه باب عظيم متين من الحديد، وفى قلعة هذا المطبخ مائة وخمسون مقرًا للطهاة وحمامات صغيرة خاصة وفى زواياهم أئمة مؤذنون. وما فى مطبخ الخليل هذا من النعم ما لم يشاهده بلد آخر. وجريًا على العادة يطبخ فى ثلاث قدور عظيمة ليل نهار الحساء وهو حساء العدس والأرز والقمح وتوزع على جميع الفقراء عدة آلاف علبة وقصعة من هذه النعم صباح مساء، إلا أن ذلك خاص بالفقراء وحدهم. وفى المطبخ مائتا موقد ويطهى عليها فى الأسبوع خمسة عشر ألف صحن. وهذه نعمة عظيمة تمنح فى ديوان الغورى للخواص والعوام ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ

* الموظف المسئول عن مطابقة المسودات والمبيضات فى المحررات أى المراجع.

﴿ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] وكأنـها مصنـع عظيـم به مائة طـاهى. وإذا شاهدها الإنسـان أخذ منـه العجب كل مأخذ. ويتصل بهذا المطبـخ خارج ميدان القصر مدافع البارودخانه التى تجرها الجياد وعددهـا أربعون من مدافع الهاون. وهى تعمل ليل نهار. والبارود المصرى أشد من البارود الإنجليزى. وفـى الركن القبلى من ميدان القصر مخبز عظيم وله خمسـون خادمًا ويصرف كل يوم عشرة آلاف رغيف تعيينًا.

وثمة قلعة منفـصلة أخرى ناحية محافظ المدينة فى ميدان الـقصر، ولها ثلاثة أبواب وهذه الأبواب الثلاثة تحت السـواقى. وثمة باب تحت مقر «الشُطّار» وباب آخر تحت مقر محافـظ المدينة. وهذه الأبواب الخـمسة أبواب حديديـة متينة ذات سلاسـل. وبين هذه الأبواب مـقر وكـيل الخرج وكـاتب المصـروفات وعـدة دكاكين لـلخيـاطين والخـلالين والسراجين. وناحيـة مقر الكتخدا منازل متـصلة ببعضها البعـض إلا أن ليس بها أسوار كأسوار القلعة إلا أنها تقع على سور قلعـة قصر الباشا وهى قصر شامخ ولها حمامات وأحواض وشاذروانات وحـجرات من القيشانى وحـجرات للحريم. ويطل عـلى ميدان القصر القاعة ذات الخزف الخاصة بإسماعـيل أغا كَتْخُدا جَانْ بُولاَدْ زاده حسين باشا ولا نظير لنافورتها وحوضها.

أوصاف قصر وزير مصر

إنها دار للـضيافة بقيـت من عدة دول وهى مسكـن لكل وزير بقدر مـا يقدر له الله وكأنما هى عش للحمام. والـقصر يقع على صخور منتصبة وهى أبنـية مشيدة على سد عال متين يرتفع عن الأرض، وكل حجر فى بنائها فى حجم الفيل، وهذه الصخور أَمَر السلـطان صلاح الديـن يوسف بن أيوب وزيـره قَرَاقُوشْ بإحـضارها من جـبل الأهرام بالجيزة وقـد بنى بهذه الأحجـار قصر القلعـة وقناطر الجيزة وكـان ذلك عام (   )[١] وبدلاً من أسوار قلعة الـقصر تقع طُنُفٌ وكَوَّات ومقصورات وقاعـات وكل خاناته تطل على الإمام الشـافعى وجبل الجوشى وهذا المـوضع الذى يسمى «القرافـة الكبرى» وهى مقبرة عظيمة.

---

(١) بياض فى الأصل.

ويتألف القصر من ثلاثمائة وستين حجرة متعددة مزخرفة وكل منها أثر لوزير أو ملك أو سلطان. وإذا ما وصفنا كُلا منها طال بنا الكلام. ويتوسط القصر ساحة وسيعة وفيها يتدرب أغوات الداخل على التحطيب والفروسية والطعن بالحراب والمبارزة والرمى بالسهام وإطلاق البنادق واستخدام التروس والحراب. وعلى الجوانب الأربعة لهذه الساحة تقع حجرات أغوات الداخل وهى تتألف من طابقين أو ثلاثة. وكل كواتها تطل على الفناء. وتحت هذه الحجرات حظيرة خيل خاصة بالباشا ويقيم فى هذه الحظيرة أغوات الداخل من القائمين على رعاية خيل الباشا وعددهم عشرون من أصحاب المراتب. ويقيم فى هذه الحجرات كذلك الخَزِينه دار والمُهُرِدار، وفى الداخل كذلك حجرة عرض الباشا وهى بناء قديم. أما البناء الذى هو ذهب فى ذهب فلقايتباى ونوافذه تطل على الإمام الشافعى وحجرة الخزانة متصلة بحجرة العرض هذه وبالقرب منها قصران للكتخدا إبراهيم باشا وهما يطلان على ميدان أغوات الداخل وهذان القصران يعجز عنهما الوصف أركانهما الأربعة من البللور والزجاج المعروف بالمورانو وهما يشبهان قصر الخورنق، وقد أرخ هو الحقير لهذا القصر الصغير، بهذا التاريخ: «قال أوليا تأريخه لهذا القصر، بلغ القصر المنيف تمامه سنة ١٠٨٣».

كما أرّخ رسمى داعى قائلاً: عندما رآه رسمى داعى لقصرجها منها قال: «إن تاريخ الانتهاء من قصر إبراهيم باشا عام ١٠٨٣»، وكان رسمى داعى من أغوات الداخل وهو شخصية عظيمة غزير العلم صائب الرأى متبحرًا فى العلوم والفنون.

ولما أنشأ سيدنا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة خاصة به لكى يتلو فيها الدوس، أرخت أن الحقير لهذا قائلا: «لقد أرح أوليا لهذا القصر، أن ثم بناء. هذا القصر العالى سنة ١٠٨١. وفوق هذا القصر قصر غازى باشا المعروف باسم جهان غا وهو مطل على جميع بلاد مصر «أى ضواحى القاهرة».

وبالدخول فى حجرة العرض نواجه بقاعة عظيمة يتناول فيها أغوات الداخل طعامهم والجوانب الأربعة لهذه القاعة مزينة الجدران من أعلى إلى أسفل بالقيشانى. وفى أعلى عتبة الباب لوحة رخامية مكتوبة بخط جلى مذهب تحمل تاريخًا هو:

(قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والأمثال سلطان سلاطين جهان حضرت سليمان خان عن سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والأقطار

الحجازية محـمد باشا بن أحمد باشا أدام الله إجـلاله إلى وقع التاريخ البنـيان هو خير المكان سنة ٩٢٢).

وداخل هذه القاعـة أمر سيدى جان پولاد زاده حسين بـاشا بإنشاء قاعة مزيـنة على الطراز الرومى تطل على الحديقة الداخلية. ولا نـظير لهذه القاعة فى مصر. ولقد كتب الشيخ أحـمد المالكى لها طلـسمًا فلا يدخلها ذبـابة ولا بعوضة، ويتوسط هـذه القاعة حوض لطيف بداخله شادروان. حقًا إنها موئل فى قصر مصر.

وخارجها قاعة بيرام باشا وهى قاعة عجيبة فى تـصميمها وكتب تاريخها على بابها بخط التعليق وهو:

إن حضـــرة بيـرام باشــا هـــذا .·. زينـــة قصــــر الملـك والديـــن

وفى مدة قصيرة صاحب الكرم هذا .·. أقام هذا القصر اللطيف منقطع النظير

اقــــرأ الفاتحـــة لإتمـــامـــــه .·. ادخلـــوها بســـلام آمنـــين ١٠٣٧

وفى ظهر الباب الذى كتب عليه هذا التاريخ تاريخ هو:

قال أحد عبيده تاريخ جميل تعالى الله حبذا هذا الطاق المفرح سنة (١٠٣٧).

وتحت حجرة بـيرام باشا، ميدان واسع وفيـه يتدرب أغوات الداخل على اسـتعمال السلاح، وبـالدخول من هذا المـيدان نواجه بقـاعة السلطـان قايتباى. إنـها قبة عظـيمة الارتفاع وكل كَوَّاتها تطل على الإمام الشافـعى، وداخلها حرم بداخله حجرات وحمام وشادروانات داخل هذا القصر حمامان علويان أحدهما خاص بالباشا وبه حوض جميل والآخر خاص بأغوات الداخل، ودكانا حلاق، ولأغوات الداخل رئيس للحلاقين.

وفى الجهة الداخـلية من ميدان أغوات الداخل حـديقة تمتلئ بالأزهار وفـيها أشجار السرو والـنبق والليـمون والنارنج والسفـرجل وأغصان عديـدة من العنب عـلى عروش وداخل هذه الحديقة الرائعة حوض عظيم للسلطان قايتباى يبلغ فى الطول مائة وخمسين قدمًا وعـرضه ثمانون قـدمًا. إنه حوض عظيـم كأنه البحـر الخضم. وعلى حـافة هذا الحوض مقصورة صغيرة أنشأها إبراهيم باشـا ليستريح فيها. وكان يضع فى الحوض من يودهم وينثر عليهم الدنانير.

وثمة حديقة أخرى تحت حجرة بيرام باشا وأصلها كان مزبلة فى ارتفاع المنارة ثم حوله الإبراهيم باشا إلى حديقة كأنها بستان فى بلاد العجم أو إرم ذات العماد. ويبلغ طولها خمسمائة قدم وعرضها مائتا قدم وفى داخل هذه الحديقة مجلس تحت قمرية يتوسطها حوض عظيم. ومن هذا الحوض يتدفق الماء فى قناتين إلى حوض آخر وخرير ماء الحوض يصيب الإنسان بالرهبة. ومن الفوارة يتصاعد الماء إلى ارتفاع منارة. وعنب هذه الحديقة ليس كمثله عنب فى مصر.

وكان تحت قصر آخر بناه إبراهيم باشا حديثًا موضع للقمامة تحول إلى حديقة، وكى لا يبقى أثر لهذه القمامة جمع كل من فى مصر من زبالين وحمَّارة وحمَّالة وعمال أجراء فحملوا منها مرتين فى أسبوع مائة ألف حِمْل جمل وحمار، وأقيم أمام هذا الموضع سد عظيم ومُهِّد سَهْلٌ وأمر سبعة آلاف وستمائة بستانى فى مصر بأن يزرع كل منهم شجرة، وفى ثلاثة أيام أُنشِئت روضة كأنها روضة مدينة أصفهان نصف الدنيا وإليها تدفقت المياه من الأحواض فأصبحت حديقة إرم ذات العماد تحيط بقصر مصر من جهاته الأربع. وتحت مخدع بيرام باشا سلم يخترق سور القلعة ويهبط إلى الحديقة ويبلغ طول هذا السلم مائة وخمسين قدمًا وهو من الحجر. وكان بيرام باشا فى شهر رمضان يتناول طعام الإفطار فى تلك الحديقة. ثم شُقّ منها طريق وأنشأت مقصورة فى ركن من أركان الحديقة تطل على ميدان «قواق» وكان جميع الجنود يسيرون فى هذا الطريق. وكان يكافئ من يطلق الرصاص أو يرمى السهام القرع. وميدان قواق هذا يبلغ فى الطول سبعمائة قدم وهو مفروش بالرمال. وقد ركز فى وسطه صارى سفينة وهو عال ضارب فى السماء وفى قمته كرة مذهبة وكان جميع الجنود يصوبون إلى هذه الكرة.

إنه موضع للفرجة ويطل على هذا الميدان قصر لمقصود باشا. والآن أقام «جان بولاد زاده حسين باشا» فى هذا الموضع عدة حجرات منقوشة وحمامًا لطيفًا، وجعلها دارًا للضيافة للقادمين والذاهبين إلى «الأستانة» وبيت الضيافة هذا مذهب.

أوصاف قاعة ديوان السلطان الغورى

إنها قاعة علوية للديوان تتسع لعشرة آلاف شخص. وقد كان بين السلطان الغورى والعجم مودة وألفة، وقد أرسل الشاه الخبيث النيّة إلى الغورى رسولاً واستمع إليه الغورى، لإكرامه جميع كل علماء مصر وتم بناء هذا الديوان فى ثلاثة أيام بلياليها، وحقًا إن هذا ليس فى قدرة البشر.

وجميع أبواب هذه القاعة وجدرانها مكسوة بالرخام. كما أن سقوفها تحوى رسومًا ونقوشًا وهى ذات ألوان مختلفة، وأرضها مفروشة بالرخام، وطولها مائة وخمسة وثمانون قدمًا وعرضها خمسة وخمسون قدمًا. وفى جوانبها الأربعة ثلاثة وثلاثون شباكًا من النحاس وست وعشرون بلورة من الزجاج وثلاثون صاريًا تصنع روافد عليها سقف من الخشب وليس قبة من الحجر. إنه سقف كثير النقوش الذهبية يبهر النظر. وللقاعة ثلاثة أبواب، وباب يفضى إلى الباشا، والثانى يهبط إلى الفناء بسلم حجرى من عشرين درجة، أما الباب الثالث فيفضى إلى قاعة الضيافة. ومنها يهبط بسلم حجرى ومن أحد جوانبها دهليز يطل على ميدان القصر وجميع (أقلام خليفه لرى) أى خلفاء الأقلام يجلسون فيه أيام انعقاد الديوان، ولفتح هذا الديوان أربع كوات وفى كل منها حبل غليظ فى بكرة. والجلادون يعلقون المدينين للدولة من الأمناء والملتزمين من أذرعهم ويضربونهم بالسياط حتى يردوا ما عليهم. إن هذا مكان مخيف للعقاب اللهم عافنا.

ونصف هذا الديوان مفروش بالبسط الحريرية وعلى البسط فرش الجلد الروسى ويتكوم على هذه البسط الدنانير الذهبية فى أيام انعقاد الديوان ويحصيها الصيارفة من اليهود. وفى نهاية هذا البساط على يسرة موضع السلطان سليم مجلس الوزير وفوق هذه الصفة بارتفاع قدمين لوحة تتضمن طغراء السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وهى مكتوبة بخط جلى مذهب وهو توقيعه المبارك وتسعة من تروس صنعت من خشب شجرة التين مع مدرة وهذه ما تتعلق بها هذه اللوحة. وعلى طرف رأس الباشا كتب

بخط غليظ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. وهناك عدة خطوط علوية وسفلية متنوعة على رخام الجدران التى على يمنة ويسرة قاعة ديوان الغورى هذه.

وعلى لوح رخامى فى الأركان على يمنة ويسرة صفة الباشا خط كوفى بعلم الجفر لإخفائه عن السلطان الغورى ويشير هذا الخط إلى أن السلطان سليم سوف يقدم إلى هذا الديوان. وكأن ذلك سحر مبين وقد أطلعت على هذا الخط عدة مئات من أهل العلم فما استطاع أحد منهم أن يقرأ منه شيئًا لأن هذا الخط إنما يقرأ بالرموز. وفى المربع الذى على يسرة الباشا كتب على الرخام: «عزّ لمولانا السلطان» وعلى المربع الذى على يمنته كتب على الرخام: «سليم شاه خلّد ملكه» وهذا من العجائب.

وخارج هذه القاعة حجرة العرش، والباشا يسكنها أيام انعقاد الديوان ويلقى السمع إلى الشكاوى المرفوعة إليه. ولهذه الحجرة كوتان تطلان على ميدان القصر كما تطل كوتان أخريان لهذه الحجرة على قاعة ديوان الغورى.

مدح قاعة ديوان السلطان قايتباى

وخارج حجرة العرش هذه قاعة ديوان قديمة أقامها السلطان قايتباى وأرضها مرصوفة بالرخام الخالص ولها سقف ذو نقوش ذهبية يقوم على خمسة أعمدة من الرخام ودخول هذه القاعة من ميدان القصر يتم من خلال سلم حجرى من خمس وعشرين درجة. وفى هذه القاعة أكثر السلطان سليم من عقد الديوان وفى موضعه الآن لوح رخامى أخضر اللون على الجدار. وعلى الجدار كتب بخط غاية فى الغلظ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وعلى الجدار المواجه لهذا الخط كتب قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. إلا أن هذه القاعة أصغر من قاعة ديوان الغورى فطولها ثلاثون قدمًا وعرضها خمسة عشر قدمًا. وعلى نوافذها الثلاث وبابها تاريخ مكتوب هو:

(تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة). وجملة القول أنها قصر سلطانى عظيم

يعجز اللسان عن مدح صفاتها. ولديوان السلطان قايتباى مخزن للأطعمة يمتلئ بالمؤن ويصرف منه الوجبات لجميع الأغوات. وباب هذا المخزن كان مدخل باب الديوان فى عهد السلطان قايتباى.

ويدخل إلى هذا الديوان بسلم حجرى من (   )[1] درجة إلاأن طريقه مظلم إنه الباب القديم ويسمونه الآن باب الكلار أى باب مخزن الأطعمة. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب تواريخ مكتوبة هى:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك للعبد فضل من الله تعالى وعزته عطايا بدوام مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين على العدل فى العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلّد ملكه بتاريخ شهر المحرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة).

وعلى يسرة هذا الباب مقصورة خضراء داخلها مجلس السلطان سليم وعندما دخل السلطان سليم من باب المطبخ وبينما كان يجلس فى ذلك الموضع أطلقوا ثلاث قذائف من مدافع القلعة الداخلية نحو السلطان سليم وكادت تصيب رأسه ومكانها ظاهر إلى الآن. وبالقرب من مواضع علامات هذه القذائف كتب فى دوائر ثلاث (لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى عزّ نصره). وبعد أن خاف السلطان سليم من قصف المدافع جلس تحت أعمدة مقر «الشطار» ـ أى من يتبعون ركاب السلطان ـ أسفل الباب الكبير لميدان القصر حتى ينجو من قصف المدافع وصلى ركعتين حمداً لله. ومنذ ذلك الوقت والديوان يفتتح فى ذلك الموضع. وجميع وزراء مصر قبل الذهاب لأداء صلاة العيدين يعقدون الديوان فى هذا الموضع طبقًا لما جاء فى قانون السلطان سليم. وكل وزير لمصر قبل أى شىء يأتى إلى هذا القصر، وبعد أن يترجل يجلس فى الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم حينما سقطت عليه القذائف ويدعو الله. وكذلك يدعو الله فى أيام انعقاد الديوان فى الأعياد. ثم يهبط سلمًا من خمسة وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى وهناك يدعو الله كذلك وعند انعقاد الديوان يبدأ وزير مصر بمعاينة

(١) بياض فى الأصل.

دفاتر ما يرسل إلى الحرمين من صرة وغلال لأنه خادم الحرمين الشريفين والسلام.

وفي ديوان الغورى سبع وستون أو سبع وسبعون إدارة لها دفاترها المفصلة والموجزة وهى محفوظة فى الخزائن. ومن بين هذه الدفاتر دفتر «الرُوزنَامجَه» وكذلك أكياس المرتبات التى يوزعها الدفتردار. وعندما يغادر الباشا القلعة أو القصر ينزل جاويش موكب الانكشارية إلى تلك الخزانة لحراستها ليل نهار ويتناوب على تلك الحراسة خمسمائة أو ستمائة رجل كما يحرسون كذلك جميع حجرات الباشا وأغواته ولذا يسمى انكشارية مصر «المُستَحْفظَان». وفى الجوانب الأربعة لميدان القصر هذا خمسة أبواب، واحداً للمطبخ والثانى للديوان الكبير وهما أبواب من الحديد المتين ذو الطبقتين. وأمراء هذه الأبواب هم «آل ألواح» الذين سلموا مفاتيحها للسلطان سليم، والثالث باب محافظ المدينة. وكذلك باب «الكتخدا» وهو باب ذو سلاسل ويقع هذا الباب تجاه سجن «ارق خانه» وباب آخر بالقرب منه يهبط منه إلى الميدان وهو من الحديد. وباب آخر يفضى إلى «قره ميدان» وهو طريق حجرى فى ارتفاع وانخفاض وعلاوة على تلك الباب باب يسمى «باب الطلسم» وقد وادعى «دلى حسين باشا» أن تحته كنزاً وأطلق عليه المدافع وتركت فيه آثارها إلا أنها لم تلحق به ضرراً.

وثمة باب حديدى آخر يدخل منه وعلى بعد مائة قدم فى طريق يرتفع ثم مائة قدم أخرى فى طريق ينخفض يصل إلى «باب السرّاج خانه» وجميع سرّاجى الباشا وأغواته وقائدى الجنائب يسكنون داخل هذا الباب فى ثمانين حجرة للعمال. ويتوسط هذه الحجرات ميدان واسع. وبعد باب السَّراج خانه بمقدار مائة قدم فى أسفل باب الاسطبل «حجرة الهندى» بها نخلة سامقة وبعدها بخمسين قدم باب الاسطبل الكبير وفى هذا الاسطبل خيل الباشا وأغوات الداخل. وبعده بمائة قدم قلعة منفصلة يسكنها رؤساء الاسطبل والصراجون. وخارج هذه القلعة قلعة الميدان. أما قلعة الانكشارية الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة قره ميدان فمحيطها ثمانية آلاف وخمسمائة قدم ولا وجود لخندق يحيط بها ولكن ثمة خندق محفور فى الصخر طوله سبعمائة قدم بجانب «باب المطبخ». وفوق هذه القلعة الداخلية وقصر الباشا سبعون برجًا، ولكن قلعة «قره ميدان»

ليس لها أبراج ولكن لها أربعة أبواب. ويفضى إلى ميدان الروملى باب كبير مكشوف يدخل كل مرة بسلسلة وهذا الباب متجه إلى النجم وبجانبه باب صغير، الفارس يجتازه بصعوبة وثمة باب آخر أسفل باب القصر هو «باب الإسطبل» وهو باب حديدى متجه إلى الغرب، وباب حديدى آخر فى أسفل مقر المرشدين هو «باب الزاوية» وهو متجه إلى القبلة، وعلى بعد عشرين قدمًا من هذا الباب يقع باب «القرافة» وهو باب حديدى مكشوف متجه إلى الشرق وفى هذا الموضع أكون قد أكملت الحديث عن القلعة الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة «قره ميدان» ويكون عدد القلاع التى أحصيتها ثمانى عشرة قلعة قائمة بذاتها وعدد الأبواب طبق ما ذكرت سبعون بابًا من كبير وصغير، وهى موصدة فى كل ليلة ولا يمر منها الطير فى طيرانه. ومفاتيح القلعة الداخلية للانكشارية تظل مع رئيسهم، ومفاتيح أبواب العزب مع رئيسهم كذلك، وجميع مفاتيح قصر الباشا تبقى مع بوابى وكتخدا الباشا، وقد ذكرت جميع قلاع مصر الداخلية وسوف أتحدث عن مياه عباد الله والدواب فى القلعة الواقعة على الجبل المنتصب.

أوصاف سواقى بئر يوسف وغيرها من الآبار الأخرى

عندما بدأ يوسف صلاح الدين فى بناء هذه القلعة كانت الحاجة ماسة إلى المياه ولذلك جمع جميع المهندسين وحفارى الجبال وقال لهم: ينبغى أن نجد منبعًا للماء فى هذا الجبل. وتشاوروا فى الأمر وأجمعوا على رأى وهو لا مناص من بئر لهذه القلعة، وجاء الخبر بظهور ماء على عمق مائتى باع. وألح صلاح الدين عليهم إذا لم يستخرج الماء إلى هذه القلعة على أية حال فسوف يقتلهم كما يقتل من أجرموا فاجتمعوا وحفروا بئرًا لا نظير لمثلها على وجه الأرض. وبدأوا بحفر بئر مربعة وتم حفرها فى سبعة أعوام ومساحتها مائة وخمسون ذراعًا مكيًا، وليس لها حبل ولا من يقدر على جذب الماء منها.. وحفر جميع الحفارين الأرض وجعلوا ما حول البئر أشبه شىء بالقبور، وجوانبها الأربعة طريق وفى كل طرف فتحوا نافذة ويدخل النور من هذه النوافذ إلى البئر وهذا الطريق يشبه الطريق الذى يصعد منه إلى طوابق جامع آيا صوفيا باسطنبول حيث يستطيع ستة أشخاص أن يصعدوها وينزلوها فى سهولة ويسر. وينزل إلى هذه

البئر ثلاثة آلاف قدم حتى يكون الوصول إلى مقر الشياطين. والجزء الأدنى مكان مظلم مخيف ولا ينبغى أن يبلغ هذا المكان الرجل الوهّام. ثم جعل صانع ماهر هذه البئر ثلاثة طوابق وجعل الطبقة السفلى منها ستين باعًا وشق مغارات فى أحد جوانب البئر، وفيها أقام دواليب، وزوجان من الثيران يسحبان الماء من القاع بالدواليب فتنصب مياه كمياه البحر عند هذا الموضع فى حوض كبير من الصخر. كما حفرت مغارات فى جانب آخر من البئر فى الطبقة الوسطى والعلوية. وتقوم أزواج من الثيران بسحب الماء من الحوض السفلى بالدواليب وتصب المياه فى الطبقة الوسطى، وفى أعلى أربعة أزواج من الثيران تقوم بسحب الماء من الطبقة الثانية من انخفاض ثمانين باعًا بالدواليب وتصب الماء فى حوض الطبقة العليا فيتوزع على المدينة ويصل الماء إلى معسكر الانكشارية، وحمام الطواشى سليمان باشا، والأحواض وبعض البيوت، إنها بئر تثير تذكر العبرة يسمونها بئر يوسف الصديق ولكن هذا خطأ لأنها منسوبة إلى السلطان صلاح الدين يوسف وليست منسوبة إلى يوسف الصديق، إن من يمضون لمشاهدتها يحملون الفوانيس والشموع وينزلون إلى نهايتها فى ساعة من الزمن. ولها مائة ثور، ولكل طبقة مغارات للثيران، والثيران التى فى نهايتها تعودت على البقاء فى الظلام وغيرها لا يتحمل ذلك لأنها لا تستطيع أن تتنسم الهواء فى كل وقت. أما الثيران التى فى الطبقة العليا فيسهل عليها أن تتنفس.

ويسكن الفلاحون الذين يديرون هذه السواقى فى طبقات هذه البئر الثلاث ويتسلمون رواتبهم من أمين الساقية. ومرتب الذين يعملون فى الطبقة السفلى أكثر من مرتب بقية الذين يعملون فى الطبقتين الأخريين، وثيرانهم كثيرة. وهذه الدواليب تدور ليل نهار ومن ينظر من أسفل البئر إلى أعلى فوهتها يرى أن الدواليب تدور كأنها الفلك.

وخلاصة القول أن من يسيح فى هذه الدنيا ولا يشاهد بئر يوسف لا يعرف ما فى الدنيا من صنعة ولا يعرف كيف أن الإنسان هو أشرف مخلوقات الله وكيف يستطيع عمل ما يشبه المعجزات، وعندما يشاهدها العارف بالله يقول: «إن همة الرجال تقلع الجبال». إن هذا الأثر يسمو إلى مرتبة الكرامة وهذا فى الحق ليس فى قدرة البشر. إن

ماءها أميل إلى الملوحة وأثناء محاصرة الغورى كان جميع منفى القلعة الداخلية يشربون منها. والآن بعض الناس يشربون من بئر يوسف ولكن لا حاجة إلى ذلك. ففى أسفل القلعة الوسطى سبيل ويستقى منه اثنى عشر ألف سقاء. كما يوجد سبيل على باب الأغا ومنه يستقى الماء أربعون ألف سقاء. وفى الشيخ «سارى» كذلك فى سوق القلعة الداخلية صهريج «اكوز محمد باشا» ويغترف منه الماء بمقدار عشرين ألف حمل جمل. إنه وقف عظيم وفى كل عام تحمل هذه المياه على ظهور الجمال وتمتلئ الصهاريج والحمام وصهريج فى وسط القلعة يقوم على مائة عمود وهو صهريج عظيم كأنه البحر. وعند الحصار يأتى من بئر يوسف والنيل مائة ألف حمل من الماء محملة على الجمال عدة مرات.

قناطر السلطان الغورى فى مصر القديمة وأعدادها

لم يكتف السلطان الغورى - رحمه الله - ببئر يوسف. وفى عام ٩٠٠ بذل همته فى توفير الماء لأهل القلعة الداخلية والقاهرة. ورصد من صُلب ماله ألف كيس من الدنانير حسبة لله، وأقام ساقية أمام جزيرة الروضة كأنها القلعة ويبلغ طولها ثمانين ذراعًا، ويسحبون الماء من الأرض إلى قمتها بالخيول، وتقوم الثيران بإدارة دواليبها من خمس جهات لتستمد الماء من النيل، ويصل الماء إلى الأحواض خلال القناطر ويبلغ سواقى القلعة الداخلية وتمر فى ثلاثمائة وثلاث عشر قنطرة ومن هذه القناطر ما تنخفض بمقدار ثمانين باعًا، ومنها قناطر يبلغ طولها خمسين باعًا فى بعض أجزائها. وفى أراضى منخفضة حوالى مائة قنطرة مسدودة الفوهات.

عدد دواليب ساقية قلعة قصر الباشا

يتدفق ماء النيل أسفل القلعة الداخلية من خلال هذه القناطر ويملأ الآبار العظيمة ثم تسحب السواقى الماء فى الآبار الكائنة أسفل قصر الباشا. ولقصر الباشا عدة سواق أخرى، وهى كذلك تسحب الماء. ويتدفق الماء من ساقية الباشا إلى الينابيع وحديقة أغوات الداخل والأحواض وينابيع الأسواق وعيون القلعة الداخلية. ولقصر الباشا ثلاث سواق تجلب الماء له من النيل. وفى قلعة القصر ساقيتين للنيل. إحداهما ساقية تحت

جوسق إبراهيم باشا والأخرى تجاه مقر محافظ المدينة. أما هذه الساقية ذات العيون الأربع فتجرها ثمانية ثيران، أما الماء الذى تسحبه سواقى الطبقة الوسطى فيتدفق إلى إدارة العزب والاسطبلات وبعض الينابيع. أما السواقى السفلية فماؤها أجاج وماؤها يمضى إلى بعض الجهات وتوجد ساقية خلف مقر مرشدى الباشا فى قره ميدان أى الميدان الأسود وفى حى رؤساء الإسطبل وعند جامع عمرو بن العاص، لكنها أعمق من السواقى الأخرى، هى ملك للحكومة. كما أن بئر يوسف، وجميع السواقى الكبرى ذات العيون الخمس، وسواقى مقر العزب، والطبقة الوسطى، وساقية قصر العزب التى يصل ماؤها إلى أساس جامع السلطان حسن ملك للحكومة كذلك. والحاصل أن عدد دواليب جميع السواقى ستة وثلاثون دولابًا وجميعها فى إحدى عشرة محلة. ولكن أكبرها فى مصر القديمة وقلعة الباشا.

وكل هذه الخيرات للسلطان الغورى وينفق عليها فى العام مائتا كيس ولها مائتان وخمسون ثوراً، ومائتا خادم وأمين ساقية وموظف جورباجى من فرقة الانكشارية، إنها خيرات عظيمة فليس فى مصر أعز من الماء لأن النيل يبعد عن القاهرة بمسيرة ساعة. ولكن لا نفع لمصر السفلى من مياه قناطر الغورى فجميع مياهها تذهب إلى القلعة الداخلية ولكن لا حاجة بمصر السفلى إلى مياه تلك القناطر لأن مصر السفلى تقع فى أرض منخفضة فتكثر الآبار فى كل منزل وسوق وقصر عالٍ.

بيان بجميع الآبار فى مصر السفلى

بينما كان بيرام باشا واليًا على مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع عام ١٠٣٧ أرسل السلطان فرمانًا إلى بيرام باشا وعلى بك الجرجاوى ورضوان بك أمير الحج أمرهم فيه على عمل إحصائية عن مصر. وبناء على إحصاء كمال باشا زاده ودفتر الغزالى قاموا بإحصاء كل ما فى مصر من عمائر وجوامع ومساجد ومدارس، وبعد أن عرضوا هذا الإحصاء أشاروا إلى قلة الماء وأفادوا أن فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ٢١٧٤٠٠٠ بئر و﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وماؤها جميعًا مالح وماء جميع

حماماتنا مالح ـ ولكن بئر الحمام القيسونى أسفل المدينة وسبعة آبار أخرى ماؤها هو ماء الحياة. هذا ما ذكروه فى تقريرهم وإحصائهم.

وحقيقة الحال أن مدينة مصر تقع على شاطئ النيل ذى الماء العذب، وأن يكون ماء جميع الآبار ملحًا أمر عجب وله حكمة غريبة «يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته».

والجو فى القلعة الداخلية يهب الروح والحياة لأنها مصيف وفيها تعصف الريح. ومياهها فى وقت الخماسين غاية فى البرودة. وإذا ما أراد بعض المرضى البُرْءَ من مرضهم غيروا مكانهم فجاءوا بهم إلى القلعة العليا فَتَصِحٌ أجسامهم بإذن الله فى عدة أيام. وللطف الجو تصبح عيون أولادهم مكحلة كعيون الغزلان، أما عيون أهل مصر السفلى فتشبه عيون الغول. تلك حكمة لله عجيبة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون[1]

بيان بمحيط قلعة مصر السفلى وجميع أبوابها وأبراجها

تسلحت أنا الحقير وغلامان لى ولبسنا أحذيتنا وخرجنا فى وقت السحر من باب الوزير وهو أحد أبواب القلعة الداخلية. وصعدنا أكمة فى الجانب الشرقى وهبطنا خمسمائة قدم وهناك «باب النظامية» وهو باب خشبى يتجه ناحية الشرق. وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الشمال وهناك «باب چقور قرافة» ـ أى باب القرافة ـ وهو من الخشب ويتجه إلى جهة الجنوب. ومشينا ألف قدم فى رملة جانب سور القلعة فواجهنا «باب الدرب الأحمر» وهو باب خشبى من طبقتين متجه إلى الشرق. وفى هذا الموضع تغطى الرمال أسوار القلعة إلا أن داود باشا أقام سورًا من طبقة واحدة للقلعة، وعبرنا هذا الموضع وتقدمنا خمسمائة قدم فواجهنا «باب خوه المغرب» الذى كان قرافة للمغاربة فى عهد المعز لدين الله. وهو باب خشبى صغير يتجه إلى الناحية القبلية. وقد جددت أسواره حديثًا ومقبرته كلها داخل أسوار القلعة القديمة. وخارج هذا الباب مشينا إلى نهاية سور القلعة القديمة فواجهنا على بعد ألف قدم «قله كوم» أى برج الرمال وهذا البرج زاوية من قلعة مصر تطل على الناحية الشرقية. ومضينا فى اتجاه النجم ألف قدم أخرى من ركن جدار القلعة فواجهنا «باب الناصر» وهو باب حديدى من طبقتين يبلغ حجمه عشرين ذراعًا وفى عتبته العالية كتب بخط الجفر تاريخ صلاح الدين، وموكب جميع الحجاج والوزراء يدخل ويخرج من هذا الباب، وهو باب الطريق الرئيسى المتجه إلى الشرق. ومن أسفل سور القلعة باتجاه النجم والريح مشينا خمسمائة قدم فوصلنا إلى «باب الفتوح» وهو باب حديدى مكشوف من طبقتين ويبلغ طوله عشرين ذراعًا. وهو باب يزدحم الداخلون والخارجون فيه. وتقدمنا ألف قدم من أسفل سور القلعة صوب الغرب فواجهنا «باب البحر» وهو كذلك باب حديدى من طبقتين متجه إلى الغرب وارتفاعه عشرة أذرع. وفى هذا الموضع تختفى المنازل والحدائق وراء أسوار القلعة. وخطونا نحو حافة المدينة ولكن وجدنا أبوابًا كذلك فى محلة أطراف المدينة

---

(١) هكذا فى الأصل.

وعليها أسوار قلعة ومزاغل وبوابون ومفاتيحها مع أئمة الحارة، ومضينا ألف قدم من «باب البحر» على جانب الحدائق فواجهنا «باب اللوق» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأمامه بيوت الدعارة والمواخير والمقاهى. ومن خارج باب اللوق مضينا جنوبًا مائتا قدم فواجهنا «باب عبادة» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأسفله جامع ولد عبادة وهو جامع مقام على أربعين عمودًا وله منارة ويقع بالقرب من بركة النيل على جسر الليمون وهو جامع يستحق المشاهدة، فى فنائه شجرة نبق عظيمة لا نظير لها فى مصر، ومضينا مائتى قدم صوب الجنوب على ضفة البركة وعبرنا حديقة العجم وبلغنا «باب قنطرة الدكة» وهو على بعد سبعمائة قدم منها وأسفل هذه القنطرة جامع سيدى الشيخ حسن الشاذلى وهو مدفون فيه. وتحت هذه القنطرة تتدفق مياه بركة الأوزبكية وإلى الجنوب منها مضينا مائتا قدم فبلغنا «باب سكينة» وهناك جامع سكينة وهو جميل، ثم مضينا عبر الحدائق واتجهنا نحو الجنوب ألف قدم فبلغنا «باب الدباغين» وهو باب خشبى متجه نحو الغرب وعليه أسوار القلعة، وأمام الباب جسر، ومشينا فى البساتين صوب الجنوب خمسمائة قدم فواجهنا «باب الصقائية» وهو باب خشبى يتجه نحو الغرب ودخلنا هذا الباب وعبرنا من الحارة مائتا قدم حتى بلغنا جامع الجبيّة وفى طريق بولاق مررنا سبعمائة قدم فبلغنا «باب الأصمعى» وسوق النصرية فى هذه الحارة وكذلك جامع «أميرا خور» وهو جامع بديع. ثم مضينا جنوبًا ستمائة قدم ومررنا «بقنطرة السبوع» فواجهنا «الباب الجديد» وهو على الطريق الرئيسى وعلى عتبته العالية أسوار ومزاغل. ثم عبرنا من أمام ضريح السيدة رقية بنت الإمام على، وتقدمنا نحو الجنوب أربعمائة قدم فواجهنا «باب عز الدين»، وهناك جامع جمال الدين وهو باب خشبى متجه إلى الغرب، ثم اتجهنا جنوبًا خمسمائة قدم فى الرملة فبلغنا «باب حارة النصارى» وهو باب من الخشب متجه إلى الغرب. وعليه أسوار ومزاغل وراء هذا الباب جميع الحانات والبغايا والصبيان. وتقدمنا ثمانمائة قدم أسفل سور القلعة فواجهنا «باب ست نفيسة» وهناك جامع السلطان خير الأم وهو باب خشبى مكشوف يطل على ضريح السيدة نفيسة. ثم تجولنا خارج حى السيدة نفيسة وتقدمنا مائتى قدم صوب الشمال

فبلغنا «باب القرافة الوسطى» ومضينا أمام قبر الطويل وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الجنوب فبلغنا «باب القرافة الكبرى» وهو باب خشبى كبير متجه إلى الشرق ومنه يكون المضى إلى الإمام الشافعى وعمرو بن العاص، ثم مضينا خمسمائة قدم أسفل أسوار القلعة المسماة قره ميدان فبلغنا «باب الفارض» وهو كذلك باب خشبى يتجه إلى الشرق، ثم مضينا خمسمائة قدم صوب الشرق فبلغنا «باب الجمالين» وهو باب خشبى يتجه نحو الشرق وهو أسفل قصر الباشا بالقرب من ميدان قواق، وبهذا الباب يكون قد تم عدد الأبواب الموجودة فى جهات القاهرة الأربع.

وقد أدركنا التعب ومع ذلك مضينا من أسفل أسوار قلعة قره ميدان وصعدنا الأكمة من «باب المطبخ» وخطونا من خندق القلعة وتجولنا داخل القلعة الداخلية وهى حجرات الانكشارية. حتى إذا بلغنا «باب النظامية» نكون قد خطونا ألفىّ قدم. وعندما اقترب وقت الغروب دخلنا باب النظامية وعُدْنا إلى مسكننا وقد خارت قوانا.

وعلى هذا يكون طول أسوار ضواحى القلعة لمصر السفلى خمسة عشر ألفًا وخمسمائة قدم. وواحد وعشرون باب قلعة، وعدد أبراجها ثلاثمائة وأربعون برجًا وسبعة آلاف متراس. أما أبواب القلعة التى بلا أسوار فعددها سبعون بابًا من الخشب عليها أسوار ومزاغل.

وفى الصباح تسلحنا وبلغنا «باب الناصر» على صهوة جيادنا وهناك ترجلنا ثم خرجنا من باب الناصر وباب الفتوح حتى وصلنا إلى جانب قيون ومنها بلغنا جامع الظاهر بيبرس وبعد ذلك بلغنا قنطرة الأوزبكية ثم قنطرة الليمون. وبذلك نكون قد قطعنا ضاحية عظيمة يبلغ طولها عشرة آلاف قدم.

وجملة القول أن مناطق القلعة ذات الأسوار وأبواب ضواحى القلعة التى بلا أسوار وابتعادنا عن القلعة بعشرة آلاف قدم يكون محيط عمائر مدينة القاهرة ٤٣٠٠٠ قدم وانتهينا من ذلك فى يوم واحد بعد الظهر. واستغرق سيرنا سبع عشرة ساعة. أما ما ذكر سلفًا عن القلاع الداخلية وقلعة الباشا فمما يدخل فى هذا الإحصاء. ويخرج من هذا الإحصاء مدينة بولاق ومصر عتيقة ومصيف السلطان قايتباى وحى الإمام الشافعى

والإمام الليث وعمرو بن الفارض وأبو السعود الجارحى لأنها أحياء متباعدة عن مصر. كما أن باب الخرق وباب الشعرية وهما من الأبواب العالية من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى وبذلك يكون محيط مصر المحروسة ٤٣٠٠٠ ألف قدم والسلام.

أما ضواحى مصر الجنوبية والشرقية والشمالية فقد أصبحت أسوار القلعة فيها خندقًا لتراكم القمامة. لقد كانت قلعة معمورة فى عهد صلاح الدين لكن فى بعض مواضعها بدلاً من الخنادق فى أطراف المدينة كانت البرك تجرى فيها مياهها مثل بركة الأوزبكية والناصرية، وكانت البرك بمثابة الخنادق. وعلى حافة هذه البرك كانت هناك الأبواب سالفة الذكر، وفى كل ليلة كان يتجول فيها الحراس والبوابون والصوباشية ومحافظو القلعة والقواسون وهم يوصدون جميع الأبواب. ففى مصر من الفلاحين واللصوص وأتباعهم والمجرمين ما لا وجود لمثلهم فى بلد آخر.

بيان البوابات فى مدينة مصر السفلى

ومن شرور هؤلاء اللصوص أقيمت أبواب من طبقة أو طبقتين فى أركان مدينة مصر وأقام أعيان مصر الطُّنُفُ [1] على الأبواب وكانت كواتها مطلة على الطريق ومن هذه النوافذ يطلقون السهام والرصاص على اللصوص. وفى كل زاوية باب مقام وبوابو هذه الأبواب جميعًا يخضعون للصوباشى وبموجب دفتره فإن عدد الأبواب التى يقفون حراسًا عليها ستة وعشرون ألف باب. ويدخل فى هذا الإحصاء أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة. وهذه الأبواب كلها توصد بعد العشاء ولا يستطيع أحد أن يخرج منها. ومفتاح هذه الأبواب يبقى أمانة عند شيوخ الحارات. والبوابون يستندون إلى عصيهم الطوال الغلاظ خلف هذه الأبواب ويتناوبون على حراستها ذلك أنه إذا ضاع شىء من هذه الحارة يسأل عنه البواب ويوقع عليه العقاب ونظير هذه الحراسة يتقاضى البواب راتبًا من أهالى الحارة.

* * *

(١) السَّقيفَةُ تشرع وتبنى فوق باب الدار ونحوها للوقاية من المطر. والجمع: أطْنَافٌ، وطُنُوفٌ.

الفصل الرابع والعشرون

أوصاف الأحياء والقصور العالية وغير ذلك من البيوت

بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيًا للمسلمين، وفيها ٧٨ قصرًا لسلاطين السلف، وإن اللسان ليعجز عن وصف كل منها؛ فعلى شط بركة الفيل قصر السلطان قايتباى، وفى قلعة الكبش قصر السلطان جاولى. وأسفله قصر محمد بك، وقبالته قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج، وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات، وقصر بيقلى محمد بك، وقصور نوالى محمد بك، وعباس أغا وبلتاجى محمد أغا، ورمضان أغا، وشعبان باشا رئيس المتفرقة، وبكر افندى قائد الانكشارية، وكنعان بك، والشيخ البكرى، وحاجى باشا، واوزبك بك، ومسعود أغا، وعلاوة على هذه القصور ٣٢٠٠٠ بيت للمسلمين. أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين.

واثنتان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة، وشوارع اليهود ضيقة مما يجعل من المتعذر مرور جمل منها أو فرس، وهم يهود معتزلون وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق، وعلى بعد خمسين قدمًا من حارة اليهود أبواب عليها حراسة وجملة أسواق اليهود فى حارتهم ولا حاجة بهم إلى مكان آخر، وتقوم فرقة من الانكشارية بمراقبة اليهود فى حارتهم على الدوام. وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج.

وهناك أربع حارات للأروام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج. والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ نسمة، ولا وجود لغجر الأروام. أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا، وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا ولا يؤدى واحد منهم حبة قمح من الخراج.

وجملة القول أن هناك اثنتان وسبعون ملة، ومائة وأربعون لغة تدور على الألسنة وإضافة إلى وجود عشرين ملة للنصارى فى مدينة مصر فإن هناك أجناس أخر كثيرة مثل المغرب، والأندلس، وافنو، ودونقلا، والبربر، والفونج، وقرمانقة، وبغه نسكى،

والحبشة وماى بورن، والنوبة ولغات هذه الأجناس منطوقة وليست مكتوبة. وسوف أكتب بإذن الله عن جميع أجناس الناس وأحوالهم فى مصر فى حينه.

باب زويلة

فى عام ٤٨١ عندما وَزَّر حسين القائد مجدد عمائر مصر ابن المعز لدين الله الفاطمى بعد أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى، انهدم الجانب الجنوبى للقلعة التى أقامها جوهر القائد؛ فألحق بها قلعة ركينة، وبقيت تلك الأسوار مطمورة فى الرمال ناحية قايتباى. وباب زويلة من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى سالف الذكر فى ذلك العصر وإلى كتابتى هذا التاريخ كان قد مر عليه إحدى وخمسون سنة، ولم أر فى سياحاتى بابًا متقن الصنع مثله.

وعندما كان أمير الجيوش يبنى هذا الباب كتب طلسمًا عظيمًا فلم يصنع له مصاريع قط، وكان يبقى على الدوام مفتوحًا. ومن الحجر الأسود الموجود فى عتبته إذا ما دخل مدينة مصر أحد ماشيًا أو راكبًا للسرقة أو القتل أو الثورة بحكم هذا الطلسم ذلت حوافر فرسه وسقط على عرفه وهلك وإلا خرج جواده من الباب وهو حرن ولذلك لم يحتمل دخول لص أو باغ ولا ثائر وعلاوة على ذلك الطلسم فإن موسى - عليه السلام - التقى بالخضر فى هذا الموضع المطلسم. والآن هو مزار يسمى «قرقلر مقامى» أى مزار الأربعين. وحتى عهد خلافة الملك الكامل ناصر الدين محمد كان طلسم باب زويلة نافذ الأثر، وذات يوم أراد الملك الكامل أن يقهر المجرمين فى الجامع الأزهر داخل القاهرة وبينما كان يدخل من باب زويلة حرن فرسه ولما حثه سقط على عرفه وسقط فى الرمال فدخله شديد الغضب، فأمر بإراقة دماء مائة كبش على عتبة باب زويلة، وبذلك أفسد الطلسم ونزع الحجر الأسود من عتبته وجعل للباب مصراعين وأصبح يفتح ويغلق مثل سائر الأبواب، وهو الآن ذو مصراعين من حديد.

وفى المرة الثالثة عام ٥٦٦ بنى السلطان يوسف صلاح الدين القلعة الداخلية والقلعة العليا، وفى عام ٥٦٦ كان بهاء الدين قره مونلى الأسدى أميرًا طواشيًا عظيمًا وخشى سلاطين دمشق فوسع للمرة الرابعة بناء القلعة حتى بلغت ٣٩٣٠٠٠ ذراعًا هاشميًا.

* * *

الفصل الخامس والعشرون
جوامع مصر المحروسة التى شيدها السلاطين
وغيرها من الجوامع الكبرى التى يستجاب فيها الدعاء

فى القاهرة مائة وستة وخمسون مسجداً لسلاطين السلف من الترك والعرب والعجم ولا وجود لمثل هذا فى جميع الممالك الإسلامية. وإن ما أقيم من هذه الجوامع ليست جوامع ولكنها جنات وسوف أكتب عن هذه الجوامع بالترتيب على حسب ما زرتها وأقدم هذه الجوامع وأعرقها:

جامع عمرو بن العاص

وهو فى مصر العتيقة مسجد عتيق عظيم يستجاب فيه دعاء الفقراء، وهو كعبة الضعفاء، وبنى هذا الجامع عمرو بن العاص فاتح مصر. أما سبب بناء هذا الجامع أنه عندما حاصر عمرو بن العاص مصر القديمة أى مدينة الفسطاط ضرب جند الإسلام خيامهم فى موضع هذا الجامع وحفروا خندقًا حولهم وقامت الحرب ودامت أيامًا وكان المسلمون يدفنون شهداءهم فى هذا الموضع وقضى الله أن تفتح القلعة فخلعوا خيامهم ولما اقتضى الأمر أن ينتقلوا إلى المدينة رأوا أن حمامة اعتشت على رأس خيمة عمرو ورآها عمرو، وقال: لا تخلعوا هذه الخيمة إن هذه الحمامة فى بيتنا وإكرامها واجب علينا وإذا ما أفرخت وطار صغارها فلتطر إلى مقرنا وهى وصغارها فى حمانا من الوحوش والناس.

وأفرخت هذه الحمامة وطارت من عشها وكانت فى كل مرة تأتى أمامه وتحط عليه وأنست به وألفته. لكن عمرو فيما بعد خلع الخيمة وكان ديران كبيران فى هذا الموضع أحدهما للقبط والآخر للروم فهدمهما وأقام جامعًا، ولكن هذه الحمامة اعتشت ثانية فى ذلك الجامع ولذلك سمى هذا الجامع «فطاس».

وقد أنجز بناء هذا الجامع أربعون ألف من جند الإسلام، وكانوا يصلون فيه على الدوام؛ ولذلك فهو أقدم جامع فى القاهرة، وله كثير من المحامد والمحاسن ولكن لنوجز القول فى وصفه:

الجامع الآن مربع الشكل أسواره كأسوار القلعة، ومساحته مائة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا، ومن ناحية بابه إلى القبلة مائتا عمود من الرخام الأبيض، وعلى يمنة ويسرة حرمه كذلك مائتان وأربعون عمودًا أبيض. وعند بدء البناء فيه لم يكن حوله جدران وبنى كله على أعمدة والآن رءوس بعض أعمدته ظاهرة فى بعض المواضع، وفيه كذلك ثلاثمائة عمود. ومكان المؤذن على ثمانية أعمدة. وبناء على هذا الإحصاء فيه ثمانمائة وعشرون عمودًا تنتهى بطاقات كأنها قوس.

وبعد ذلك قال لهم عمرو: ينبغى أن يكون الجامع متينًا رصينًا وينبغى بناء جدران حوله كأسوار القلعة. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم، ومنبره من الخشب المنقوش. ومن يصلى ركعتين فى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى هذا الجامع يتحقق له كل ما يتمناه فى دنياه وأخراه. وقد رصفت مساحته بالحجر فكأنها سهل منبسط. ومن محرابه إلى وسطه حجرات علوية، وقد سكن فيها سيدى الشيخ علاء الدين الطائى، والآن يسكنها صاحب السلوك الشيخ يوسف الشناوى، وحول هذا الجامع مئات من الأركان المظلمة وفى كل ركن يسكن عارف من العارفين، وهم يفطرون فى الأسبوع مرة، ومنهم الشيخ على الفارضى، والشيخ رمضان خليفة القيصرى وهما من أصحاب الكرامات. وإذا ما قرأوا علم الموسيقى على الشيخ على الفارضى رغبهم فيه. إنهما سلطانان عظيمان، وفى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان يحتشد فى هذا الجامع عدة آلاف من الناس ويصبح داخل الجامع وخارجه بحر من الناس وهم يصلون. ولا شك أن أرواح الأنبياء والأولياء تحضر فى هذا الوقت على ما يقال.

ولهذا الجامع سبعة أبواب وأربع منائر وفى كل ركن من أركانه منارة إلا أنها منارات صغار قديمة الطراز. وفى الركن الأيمن لهذا الجامع قفص وهو مصلى الوزراء وثمة كلام مكتوب بخط سيدنا عمر وعثمان على رق الغزال، وهو خط كوفى. وبالقرب منه مقام

الشهداء وقد دفن فيه سبعة آلاف صحابى، وهذا ثابت. وفى الجانب الأيسر من هذا الجامع موضع زيارة مربع يسمى «مقام الأوتاد» وله محراب آخر وبالقرب من المحراب على لوح من الرخام الأبيض المربع مساحته ثلاثة أشبار تاريخ مكتوب بخط جلى وهو:

أتما بنى التمام المكان الشريف سنة ثلاثة وثمانين عمّر العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عمر المجلى لتاج أكابر تاج الحوض الشريعة عفى الله عنه الجامع عمرو بن العاص - رضى الله عنه - البروق سبع بوابل بيع لوجه الله غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين صلى الله عليه وعلى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين).

وقد رمم هذا الجامع بيرام باشا حينما كان واليًا على مصر. وكتب على لوحة نحاسية على يمنة المنبر تاريخ يتألف من خمسة وأربعين بيتًا. والمصراع الذى يحمل تاريخ ذلك هو: بينما كان اثنان يسيران قالا إحياء أثر الأصحاب الراشدين سنة ١٠٣٢.

عجائب جامع عمرو بن العاص

وفى داخل هذا الجامع عجائب وغرائب. ففى داخل باب القبلة أمام المنبر عمودان من رخام ويزعم الناس أن العاصى النجس إذا شاء أن يمر بين هذين العمودين لم يمر. أما إذا كان تقيًا مر. وبعض ضخام الجسم يمرون من بين هذين العمودين كالصاعقة وبعض من نحلت أجسامهم لا يمرون.

ويحكى حاجب الجامع أنه ذات يوم أراد خادم لأحد بكوات القاهرة أن يمر إلا أنه انحشر بين العمودين ولم يمر وحينئذ أمسك جميع الحاضرين بذراعه وهم يصيحون وعندما أخرجوه ثانية عجبوا لحاله ولا يعلم أحد ماذا حدث وخرج الرجل خارج الجامع وغسّلوه فى طرقة عين داخل الجامع وبعد صلاة الجمعة صلى عليه صلاة الجنازة مئات آلاف من المصلين. يا لها من حكمة عجيبة.

إن هذا الجامع ليس مزخرفًا كالجوامع الأخرى وله أكثر من مائتى خادم وفى جوانبه الأربعة ثمانية وسبعون رواقًا للفقراء. وحوله أرض خربة.

جامع أزهر القائد - أى الجامع الأزهر

بناه السلطان المعز لدين الله المغربى الفاطمى عام ٣٥٨ وذلك بيد المملوك المسمى

أزهر الذى جاء من بلاد المغرب بآلاف الأكياس من المال واستأذن من الخليفة الإخشيدى فى طرح أساس هذا الجامع، وكان جملة خدامه يزيدون على عشرة آلاف وكلهم من المغاربة. ولما اقترب بناء الجامع من التمام قدم المعز لدين الله من المغرب غازيًا ودخل مصر بغتة وتسلح كذلك المغاربة الذين قدموا بحجة بناء الجامع الأزهر. وانتزع المعز لدين الله الفاطمى مصر من يد الإخشيديين وأصبح ملكًا مستقلاً عليها.

وعمّر المعز لدين الله الفاطمى الجامع الأزهر بحيث جمع فيه علماء الدنيا بأسرها وكان يقدم فيه الطعام لبنًا وتمرًا وسكرًا. وإلى هذا الوقت لم يكن فى القاهرة وقف عظيم كهذا. ولقد سمى الجامع الأزهر باسْم مَنْ بَنَاهُ وهو هذا المملوك أزهر. إلا أنه بنى من صلب مال المعز لدين الله ولهذا السبب ملك مصر. وليس فى القاهرة جامع يؤمه كثرة من المصلين كالجامع الأزهر ويرجع السبب فى ذلك إلى وقوع الجامع فى قلب القاهرة حيث لا يخلو موضع فيه ليل نهار من ساجد ففيه ليل نهار اثنا عشر ألف طالب علم، ولهم دوى كدوى خلية النحل يبعث فى النفوس الرهبة، وكلهم مشغولون بمدارسة العلم، ولا يحرم من معرفة أصول الدين أحد يقف موقف التلميذ أمام أستاذه فيه. إنه جامع مبارك وبين الباب والباب مائة وسبعون قدمًا. ويدخل من باب المجلدين ويمر من الحرم الصغير ومنه الدخول إلى الحرم الكبير، وحتى بلوغ المحراب تبلغ المسافة مائة وخمسين قدمًا وداخل الجامع مائة وعشرون عمودًا من الرخام وعشرون عمودًا منها لها قواعد مزخرفة وتقع هذه الأعمدة بين الجامع والحرم. إلا أن هذه الأعمدة صغار وكلها على أربعمائة رافد وكلها تحمل سقفًا خشبيًا أخضر اللون وليس للسقف قبة. وهو بنيان شاهق ليس من نوع بنيان سائر الجوامع الأخرى. ومن دخل هذا الجامع وجد روحانية لا يريد معها أن يخرج منها. وللجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، وعلى المحراب الحنفى كتب قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]. ومنبره من خشب كتب عليه بخط أبيض الآية القرآنية الشريفة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وفى هذا الجامع ألفا دولاب، وعرض الدولاب منها قدمان

وارتفاعه ستة وسبعة أقدام. وبناء على هذا الإحصاء يكون الدواليب تسعة آلاف دولاب وهى مكتظة بالكتب وفيها حاجيات طلاب العلم من مأكول ومشروب وغير ذلك. ولا يخلو هذا الجامع من اثنين أو ثلاثة آلاف ضرير من حفظة القرآن الكريم، ولهم فى مباحثهم فى العلم أصوات تلقى فى القلب الخشوع.

وخارج الحرم ساحة مرصوفة بالبلاط الأبيض ومساحتها طولاً وعرضاً مائة وخمسون قدمًا والحرم مرصوف بالرخام الأبيض المصقول والحجر المجلو. وإذا ما هطل غيث الرحمة فإنه يملئ الصهاريج الموجودة أسفل هذا الحرم وتمتلئ هذه الصهاريج من ماء النيل بما يُحمل أربعون ألف جمل، وذلك ضمن أوقاف الجامع. وداخل الحرم فى ثلاثة مواضع فوهات آبار وكأن هذا الصهريج بحر من الماء الزلال.

وعلى جوانب الجامع أربعة وخمسون رواقًا أى مقر لخمسين قومًا من بلاد مختلفة وحقيقة الأمر أن فى كل رواق من أروقتها جمع من العلماء المسلمين من بلد إسلامى ولا علم لسكان أى رواق بلغة أهل الأروقة الأخرى ولا أحوالهم فكل منهم مشغول بالخاص من شأنه. أما فى وقت الصلاة فكأن اليوم يوم الحشر والعظمة لله. وهم يحملون حاجياتهم ويجددون وضوءهم ويؤدون الصلاة ثم يعودون إلى الاشتغال بالعلم وحتى الآن لم أسمع فى الأزهر كلامًا بذيئًا. وكلما وجدت فى الأزهر نسيت علائق الدنيا ودخلت فى حال آخر وطابت نفسى. والأزهر ممتلئ بعلماء مصر وفى مائة وسبعين موضعًا يلقى العلماء دروسهم.

ورواق الأتراك نظيف ويسكنه جميع الأتراك وجميع من يسكنون الأروقة يميلون إلى رواق الأتراك وله أوقاف عظيمة، ورواق العراقيين ورواق المغاربة غير نظيف. وفى أروقة الأندلس والفونجستان والكردستان وأروقة التتار وداغستان والعجم وغيرها من الأروقة الخمسين طلاب العلم. وهم يدرسون جميع العلوم الغريبة والعجيبة كل يوم. وما يسمى بالأروقة فى الجوانب الأربعة من الجامع مائتان وخمسون عمودًا من الرخام الأبيض. وبناء على هذا الإحصاء فهذه الأعمدة أربعمائة عمود. وفى داخل الجامع وخارجه اثنا عشر ألف قنديل تنار كل ليلة ولا تمس حاجة الطلبة إلى الشمع. وعندما

كان أزهر القائد يبنى هذا الجامع كتب طلسمًا وبذلك لا يدخل الجامع من الطيور اللقلق والعصفور والحمامة ولا تعتش فيه وهذا طلسم عجيب.

وخلف باب المحراب تقوم منارتان وكل منهما من خمس طبقات وللجامع سبعة أبواب وهى جميلة الصنع من النحاس الأصفر. وعلى الجانب الأيسر للحرم حوض شافعى ومساحته عشرة أقدام فى مثلها. وفى الجوانب الأربعة للجامع فى سبعة مواضع متصلة مدارس ودور للحديث ودور للقراء وكلها فى أطراف الحرم الكبير للجامع وكلها مكتظة بالمدرسين والطلاب وفضلاً عن هذه الأروقة يتصل بالجامع ربوع إذا دخل الإنسان حجرات واحد منها تَوَّهَتْهُ وهذه الحجرات غاصة بالأعيان والعلماء والصلحاء.

وخلاصة القول أن فى الأزهر اثنى عشر ألف إنسان. وإذا أعلن علماء الأزهر ثورتهم خرج من الجامع منهم سبعمائة رافعين العلم اللهم عافنا إن ثورتهم غاية فى شدتها. وإذا ما دخل الجامع الأزهر مجرم أو لص وتاب وأناب لم يستطع الحاكم أن يأخذه بالعقاب. وفى كل يوم يختم القرآن أكثر من ألف مرة. وإذا أراد أحد أن يختم القرآن على روح أبيه أو ولى نعمته دفع لمن يتلو القرآن ثلاثين باره ولو دفع أكثر أخذوها مع كيسه غصبًا. ويختم القرآن من يتلوه فى سبع ساعات والحفاظ كثيرون. وفى الصباح والمساء يوزع على الفقراء من مطبخ نعمة الله حساء الأرز والعدس مع رغيف. وفى ليالى الجمعة يوزع أرز الزردة واليخنى ويبدو الجامع ليل نهار كأن فيه صاعقة لشدة ارتفاع أصوات من فيه من الناس. وللمذاهب الأربعة فيه من لهم الرياسة عليها. فلمصطفى أفندى الرياسة على رواق الأتراك وكم من مجرم أصبح عبرة لمن يعتبر.

ولرسوخ الاعتقاد فى الجامع الأزهر تبذل له الصدقات والنذور والصُّرر والعطايا وذلك من أهل القاهرة وغيرها من البلاد. إن له أوقافًا عظيمة وإن اللسان عن مدحه لعاجز.

جامع السلطان أحمد بن طولون

فى عام (   )[1] قدم السلطان أحمد بن طولون الإخشيدى من بلاد المغرب ورأى

(١) بياض فى الأصل.

النبى ﷺ فى المنام. فكان ذلك سببًا فى إقامته لهذا الجامع. ومن يشاهد هذا الجامع يظن أنه قلعة لأن جدران أركانه الأربعة وجدرانه ومتانتها ليست لقلعة من القلاع. إنه جامع عظيم مربع الشكل يرتفع جداره أربعين ذراعًا وكأنما فى حجم الكعبة الشريفة. ومحرابه طبق ما أمر به الرسول ﷺ ولذلك أصبح قبلة، وهى قبلة مساوية لكل المواقيت، وبما أنه موضع نظر الرسول ﷺ فله روحانية خاصة. وهو كعبة الفقراء لأنه معبد قديم. وقد جاءت أوصافه فى تواريخ القبط. ويسمون أرضه فى التواريخ القديمة «الأرض الحمراء القصوى» ويسمون جبله «جبل الكبش» ولكن حينما ضرب عمرو بن العاص - رضى الله عنه - الحصار على مدينة الفسطاط وأقام بنو يشكر خيامهم فى هذا الموضع المسمى بالفسطاط فسمى هذاالجبل «جبل يشكر» وكان اسمه من قبل «جبل الكبش» ولما شيد أحمد بن طولون قلعته عليه عرفت بقلعة الكبش. ذلك أنه فى أيام القبابطة كان ثمة طلسم من نحاس لكبش وكان وجه هذا الكبش متجهًا نحو جبل الأهرام بالجيزة. ولما كانت سوق الغنم فى هذا الموضع سمى الجبل «جبل الكبش» وهذه السوق باقية إلى اليوم فى ذلك الموضع. ولما كان موسى عليه السلام راعيًا كان يرعى غنمه فى ذلك الموضع وفى الموضع الذى كان يصلى فيه محراب هذا الجامع. كما كان فيه كذلك مقام موسى عليه السلام والخضر.

وقد رأى أحمد بن طولون النبى ﷺ فى المنام وهو يقول له:

«يا أحمد أقم جامعًا فى موضع مقام أخى موسى»، ونزولاً على أمره ﷺ فى الموضع الذى كان موسى يناجى فيه ربه فوق جبل يشكر وهى أثر قدم موسى عليه السلام بنى أحمد بن طولون جامعه. إنه معبد قديم وفى محرابه وقت الصلاة يستجاب دعاء الدنيا والآخرة. ومن باب قبلة هذا الجامع حتى بابه الغربى مائة وعشرون قدمًا أما عرضه فمائتا قدم. وداخل الجامع من ناحية القبلة تسعون عمودًا عليها قباب حجرية ذات روافد منأعلاها إلى أسفلها. وفى الجوانب الأربعة للحرم العظيم عقود حولها مائة عمود وبين الروافد مائة وستون لوحًا زجاجيًا. وللجامع ستة أبواب ومن باب القبلة الكبير يصعد بسلم له ثمانى عشرة درجة. وكانت مياه بركة الفيل تنصب فى أصل هذا

السلم وكانوا يتوضئون بمائها، وآثارها ظاهرة الآن للعيان ومن الحرم العظيم إلى القبة التى تتوسطه تشبه الكعبة وتحت تلك القبة حوض شافعي وعلى يسرة هذا الحوض نخلة عظيمة لا نظير لها في أرض مصر. وبأمر رسول الله ﷺ حينما جني تمر المدينة لوحظ أن تمرها من هذا التمر.

وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وللحرم كذلك مقصورتان وله منارة عجيبة بديعة لا وجود لها في بلاد الإسلام وهى مربعة الشكل ومن ثلاث طبقات وهى فى الجهة الشمالية للجامع تطل على الطريق. والصعود في جميع المنارات من داخلها أما هذه المنارة فتصعد من الخارج وذلك بفضل براعة المعمارى الذى بناها. والمؤذنون يصعدون إليها من الخارج وهى من ثلاث طبقات وارتفاعها مائتا قدم. حتى إن فارسًا من فرسان رضوان بك أمير الحج صعدها على جواده وهى ليست غليظة إلى هذا الحد ولكنها من عمل معمارى ماهر.

كيف يكون السماع كالمشاهدة ؟

إن الوصف يعجز عنها وينبغى مشاهدتها، وهى أعلى من كل المنارات وفى ذروتها بدل العلم علم من النحاس على هيئة القارب يقولون إنه طلسم ويقول بعض أهل العلم إن النيل طغى ماؤه حتى بلغ هذه المنارة، وهذا أمارة على غرق مصر على ما يزعمون. إنها الآن عجيبة تشاهد.

وعلى يسرة جدار الحرم كتبت البسملة وطولها أربعون قدمًا وخطها بديع وكل ألف فيها بطول ثمانية أذرع وذيل حروف تلك البسملة مرتفع وهو سحر مبين وهى على الجدار مصقولة مجلوة وتبدو كأنها كتبت لتوها وقد كتبها (الفقير أحمد القره حصارى) عام ٩٣١. وجامع ابن طولون وبسملته التى كتبها «قره حصارى» لهما الشهرة بين الرحالة من العرب والترك والعجم.

وفي الجدار المجاور لهذه البسملة كتبت (و) كلمة (والله) بقلم غليظ اتساع ثلاثة أشبار وهي (و) مستديرة طولها عشرة أذرع وهذا قلم له إعجاز السحر. وعلي يمنة باب قبلة الحرم بسملة أخري وهى كذلك مثل البسملة الأولي إلا أنها مكتوبة بخط أبيض

وهى كذلك طولها أربعون قدمًا ولكنها بخط «حسن چلبى القره حصارى» وفى جدار قبلة هذا الجامع بابان يفتحان على سوق المغاربة، وفى ركن الباب الأيمن منارة من طبقتين، وفى ركن الباب الواقع على الناحية اليسرى منارة من طبقتين. وخلاصة القول أنها ثلاث منارات بديعة الصنع. كما أن للجامع منبر خشبى وقد نجر فكان كالسحر الحلال يحار عقل من يشاهدهُ. ومحرابه كذلك من الرخام المُحَلَّى بالصدف وهو سحر إعجاز.

جامع الحاكم بأمر الله

كان أميرًا من بنى العباس وبعد غارة هولاكو على بغداد فر منها إلى مصر، وكان ساكنًا فى قلعة الكبش. وظل خليفة إحدى وأربعين سنة وأقام هذا الجامع، إنه جامع عظيم كأنه القلعة يقع بين باب الناصر وباب الفتوح. مساحته طولاً وعرضًا مائتا قدم. وللجامع سقف كثير النقوش يقوم على مائة وخمسين عمودًا أبيض وليست له قباب حجرية، وله حرم واسع كأنه سهل، وفى منتصف هذا الحرم جدار مربع، وبداخله حديقة، وفيها الورد والريحان والنبق، وفيها نخيل. ومنبره خشبى مزخرف، ومحرابه من الطراز القديم، ولكنه متقن الصنع وله ثلاثة أبواب: أولها باب القبلة وهو متجه إلى باب الناصر. والآخر يتجه إلى باب الفتوح، أما الثالث فيتجه إلى اليمين. وله ثلاث منارات، أما المنارة التى تتوسط المحراب ضيقة بحيث لا يستطيع رجل أن يصعدها ويمكن أن يصعدها طفل، ومنارتان كأنهما برجان ركينان، طبقاتها السفلى تتسع لخمسمائة رجل يعلوها (شريفة) بديعة الصنع وفوقها طبقة أخرى أصغر وهى كذلك مزخرفة، وهذه المنارات تشبه عمامة البكتاشية طبقة طبقة.

جملة القول أنها منارات رائعة. ولقد بنى الحاكم بأمر الله هذا الجامع ورتب للقائمين عليه اللبن والتمر والسكر. ومع ذلك لم يكن الناس يأتون إلى جامعه وفى النهاية ملأ الجامع الأزهر بالقمامة وبذلك ملأ جامعه بالناس ونسى جميع العلماء أنهم لا يجدون فيه الملائكة التى يجدونها فى الأزهر. وفى النهاية فروا من جامعه الواحد تلو الآخر. وكانوا يتلون القرآن فى الأزهر على الزبيل وكانوا يحملون القمامة من الأزهر على

ظهورهم ويخرجونها منه. ودامت الحال على ذلك مدة من الزمن وذات يوم من عام ٧١٧ قتل الحاكم بأمر الله ووجد الناس الخلاص من شروره. لقد تحدثوا كثيراً عن سفاهة الحاكم بأمر الله وقالوا إنه فى مذهبه متأثر بالمعتزلة وعند بعض المؤرخين أنه لم يكن على أى مذهب كان. لذلك لا يصلى فى هذا الجامع كثير من الناس. ولقد أصبحت ساحته محكمة ولذلك كان فى وسطه طريق يقطعونه من باب النصر إلى باب الفتوح.

جامع الظاهر بيبرس

مملوك للعباسيين وأحد خلفائهم، وجامعه فى الجهة الشمالية للقاهرة على أطراف المدينة وهو كذلك جامع كأنه القلعة وفى عهد الظاهر بيبرس أعمل السيف فى الصليبيين فى بيت المقدس، وبعد أن فتحه بنى هذا الجامع من مال الغنائم. وليس فى القاهرة جامع مثله فى زخرفته وإتقان بنائه. ومساحته مائة وخمسة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا. وناحية محرابه مائة وسبعون عمودًا من الحجر الصماقى الأحمر واليرقانى والزنبورى والرخام الأبيض. وكل عمود منها يعدل ما يؤديه الروم من خراج. ويتوسط المحراب قبة عالية يحملها اثنا عشر عمودًا رخاميًا غليظًا وهى ترتفع إلى الأفلاك التسعة. وهى مزينة بالزجاج مختلف الألوان. والجدران فى طرف هذه القبة مكسوة من أسفلها إلى أعلاها بالرخام، وأعلى هذا الرخام صورة لشجرة طوبى وگلستان على صفحة من الميناء، وتحار العيون بمشاهدتها. وفى حرمه عدة أشجار نبق. وله ثلاث منارات صغيرة يبدو أنها ناقصة البناء، والله أعلم. ولهذا الجامع ثلاثة أبواب. والمصلون فى هذا الجامع قلال. وقبة المحراب مكسوة بالرصاص. وفى القاهرة ثلاث قباب مثله مكسوة بالرصاص ولا وجود لسواهم. ويخترق هذا الجامع طريق أصبح طريقًا عامًا. وعلى الأعمدة سقف منقوش بالسيلو واللازورد. وليس له قبة حجرية. وفى جوانبه الأربعة زجاج منقوش. ودقة الصنع فى منبره ومحرابه ومكان مؤذنه لا وجود لها فى جامع آخر. والصنعة المعمارية فى باب قبلة حرمه لا مثيل لها فى ديار أخرى. إنه حقًا جامع جدير بالمشاهدة.

جامع خاى أتابك

من وزراء السلطان حسن. وهو جامع يقع بالقرب من جامع السلطان حسن وعلى صف حمام الدفتردار وأمام دار عوض بك. يصعد إليه بسلم من ثمان درجات. وجميع جدرانه من الأحجار الحمر والبيض المنقرشة. ولا وجود لأعمدة داخل الجامع وله سقف مذهب قائم على روافد. ومنبر محرابه بديع الصنع. وله بابان أحدهما باب الميضأة وهو على الجهة اليمنى. ولوقوع الجامع على الطريق العام الرئيسى فليس له حرم. وباب قبلته مفتوح على الطريق العام، وقد كتب على يمنة ويسرة هذا الباب بخط جلى (بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وبعد هذه الآية الشريفة كتب على يسرة الباب (أمر بإنشاء هذا الجامع المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى أمير النعى الخاى أتابك العساكر المنصورة الملك الأشرف أعز الله نصره بتاريخ سنة أربع وسبعين وسبعمائة). وعند باب الحديد يقع:

جامع السلطان المؤيد

وهو سلطان (　　)[1] رفيع النسب، وهو الذى بنى هذا الجامع منقطع النظير. إنه جامع معلق، أسفله طوابق أرضية ودكاكين وله ثلاثة أبواب ويُصْعَدُ إليه بسلم حجرى من خمس عشرة درجة. وعلى جانبيه سبعون نافذة كلها تطل على السوق السلطانية. ولازدحام الناس فيه فهو أكثر المساجد ازدحامًا بعد الجامع الأزهر. إنه جامع يسرى فيه النسيم ويشرح الصدر. مساحته مائة وستون قدمًا فى مثلها. وناحية محرابه أربعة وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا منقوشًا. ولا وجود فيه للقباب. والعقود التى حول حرمه يحيط بها خمسة وتسعون عمودًا.

وبناء على هذا الإحصاء يكون له مائة وثلاثون عمودًا من الرخام تحمل سقفًا. وطرف جدار محرابه مكسو بالرخام وحرمه الواسع الذى يشبه السهل مرصوف بالرخام الأبيض المصقول ولا وجود لنظيره فى أم الدنيا. وهو مجلو على الدوام ولأن هذا

(١) بياض فى الأصل.

الجامع معلق فإن أرضه يابسة وجدرانه الأربعة من الرخام المجلو، وفيه يبدو وجوه الساجدين فى ركوعهم وسجودهم. وبما أن أوقافه كثيرة فخدامه كثير، وهم على الدوام ينظفون الجامع. ويتوسط حرمه حوض عظيم تعلوه قبة عالية مرفوعة على ثمانية أعمدة بديعة من الرخام، وشادرواناتها دائمة الجريان ومنها يجدد المصلون وضوءهم.

وللجامع منارتان وعلى جانبى بابه الحديدى منارتان عاليتان ذات ثلاث طبقات ولكن كل منهما قريبة من الأخرى وغاية فى دقة البناء، وثمة منارة أخرى فى الركن الواقع على يسرة المحراب. والمحراب غاية فى الجمال ومنبره من الخشب المزخرف. كما توجد مقصورة هى مقر المؤذنين مبنية على ثمانية أعمدة رقيقة بديعة. وله سبعون نافذة لها قفص نحاسى ولها مائة وعشرون لوحًا من زجاج.

وخلاصة القول أنه جامع يشرح قلب من يشاهده، وفيه من الثريات ما لا وجود لمثلها فى جامع سواء. وفى محرابه فانوس من النحاس الأصفر. وللجامع ألفا قنديل وكأنه مصباح منير. وهذا الجامع ركين البنيان كالقلعة.

وفى عام ١٠٧٢ حينما كان عمر باشا واليًا على مصر أعلن مماليكه العصيان فتحصنوا فى هذا الجامع، ودام القتال بينه وبينهم ثلاثة أيام بلياليها. وقد حاول استمالتهم فأصدر عفوه عنهم وأمّنهم. إلا أنهم استمروا فى تمردهم عليه واستأنفوا القتال وأغاروا على أرجاء المدينة هنا وهناك؛ فأخرج عمر باشا العلم النبوى المبارك وجعل المنادين ينادون فى المدينة يرددون أنه ليأت من يدينون للسلطان تحت هذا العلم، وأن قتل هؤلاء العصاة حلال، وأموالهم كذلك غنيمة للسلطان. ثم تمنطق عمر باشا بسيف الفاروق عمر وأحضر ما يقرب من خمسة مدافع من طراز «بال يمز» وأقام الحواجز عند حمام الصوباشى ونشب القتال من نوافذ وأسطح المنازل، وأطلق عمر باشا عدة قذائف فأصابت بعضها جامع المؤيد؛ فألقت الرعب فى صدور العصاة فتبدلوا من قرارهم بفرارهم، وتتبعوهم من شارع إلى شارع وأعملوا فيهم السَّيف. وبحسن تدبير عمر باشا دخل القلعة مظفرًا منصورًا ووجد فلولهم فقتلهم.

وبذلك استتب الأمن فى القاهرة. حقًا إن له شجاعة وعدل عمر. ولا تزال آثار قذائف المدافع ماثلة إلى الآن فى بعض مواضع الجامع.

جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون

كان سلطانًا من عظماء الأتراك وفى النهاية ثار عليه مماليكه واغتاله من يسمى يلبغا الذى قتله الملك الأشرف من أبناء السلطان قلاوون ومزق جسده إربًا إربًا، ونال يلبغا جزاءه. وكان ليلبغا مملوك شركسى يسمى برقوق ويسمونه كذلك برقوق العثمانى لأنه لحق بخدمة السلطان الغازى «خدا وندكار» العثمانى. ولكى يثأر برقوق وجميع الأبخاز والشراكسة من مصر، وبلغوا السلطان طاهر سيف الدين أبا سعيد فى دمشق ووزّر له برقوق. ومن أجل روح سيده يلبغا وعمارة مسجد السلطان حسن أرسل خزانة من الدنانير الذهبية، وبذلك جعل من جامع السلطان حسن فى ميدان الروملى جامعًا عظيمًا وحوله إلى قلعة حصينة. وليس فى بنيانه خشب قط ولا يتصل بالجامع أى بناء آخر. وعلى الجوانب الأربعة للجامع طريق عام، وأساس جدرانه حجارة ضخمة فى حجم الفيل. ومحيطه من الخارج ألفا قدم حتى إنه قيل إن السلطان سليم فاتح مصر عند مقدمه من العادلية رأى هذا الجامع فقال: ما هذه القلعة التى لها منارتان؟!

ويسمونه جامع السلطان حسن، ويقال إن السلطان الغورى قد تحصن فيه وهو يقاتل وذلك وإن دل على شىء فإنما يدل على أنه إلى هذا الحد فى متانة القلعة الحصينة، وهو أكثر متانة من قلعة مصر. حتى إنه فى عام (   )[1] ثار المماليك وتحصنوا بهذا الجامع، وأطلقت المدافع من برج العزب على الجامع إلا أنهم لم يلحقوا به الدمار. والصُدوع إلى الآن ظاهرة فيه.

وجدران هذا الجامع الأربعة عليها نوافذ المدرسة ذات الطبقات العشر. وهى حجرات طوابق المدرسة. وارتفاع جدرانها الأربعة مائة ذراع وهى جدران عظيمة الارتفاع.

---

(١) بياض فى الأصل.

وللجامع بابان أحدهما فى الناحية الشرقية يفتح على سوق السباهية، وهذا الجامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من كلا البابين. وعلى الباب روافد على هيئة المحراب وقد صنعها معمارى ماهر فأحسن أيما إحسان وكأنما صنع السحر.

وارتفاع روافد الباب ثمانون ذراعًا. ومصراعا الباب من النحاس الأصفر دقيق الصنع. ويبلغ طول المصراع عشرين ذراعًا. وعلى جانبى هذا الباب كتب بخط كوفى على لوحة سميكة طولها ثلاثة أقدام الشهادة وقد كتبت بالرخام الأبيض والأسود ولم يظهر فيها أثر للبلى منذ ذلك الزمان. وداخل هذا الباب طريق ضيق وهو مرصوف كذلك بالرخام الخالص. ويكون الوصول إلى باب الحرم بالتقدم مائة قدم فى هذا الطريق. وللحرم كذلك بابان أحدهما ينفتح على ميدان الروملى فى طريق يمتد مائة قدم مرصوف بالرخام. وباب آخر ينفتح على سوق السباهية وهو باب مرتفع متقن الصنع. وداخله باب للحرم كتب عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن ابن مولانا الشهيد المرحوم الناصر محمد بن قلاوون ذلك فى شهور سنة ٧٦٤).

وتبلغ مساحة هذا الجامع مائة وثمانين قدمًا طولا وعرضًا. وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم العظيم عقود وكل منها كأنها جامع. وليس فى هذا الجامع أعمدة كغيره من الجوامع ولكنه مبنى على روافد. وفوقه وعلى جوانبه الأربعة سبعمائة حجرة للدرس. والآن يقوم على خدمة هذا الجامع خدام متزوجون وفى وسط هذا الحرم العظيم حوض جميل مثمن الشكل، وعلى جوانبه الثمانية أعمدة تقوم عليها قبة عالية. إلا أن مياه هذاالحوض جيرية وقبته دقيقة الصنع.

وجاء فى تاريخ فضائل مصر أنه حينما أرسل يزيد بن معاوية رأس الحسين إلى مصر سنة إحدى وستين للهجرة رغمًا عن أهلها تركت فى موضع جامع السلطان حسن. وكم من يزيدى ركل رأس الحسين وكم من أرجل لهم تورمت وأصبحت كالقربة ومن ذريتهم الآن آلاف لهم أرجل كالقرب. ولكى يحفظ الله هذا الرأس الشريف أظهر بحيرة حوله فلم يستطع اليزيديون ركله، وبعد ذلك أقدمت امرأة من محبى أهل بيت الرسول ﷺ

على ذبـح ولدها ليـلاً وأخذت رأس الحسين ووضعـت مكانه رأس ولـدها. وإلى الآن رأسه محفوظ فى مشهده. وفى عهد الخلفاء العباسيين عمر هذا المشهد.

وبعد عـام ٧٦٤ أقام السلطـان حسن هذا الجامـع وأنشأ حوضًا عـظيمًا علـى حافة البحيـرة التى ظهرت حول رأس الحسـين تبركًا. ولقد ثار مماليـك السلطان حسـن عليه وضربوا عـنقه عند حافـة الحوض الذى فيه رأس الحسـين وسال دم السلطان حسـن فى الموضع الذى كان فيه رأس الحسين.

وفى ذلك الوقت جف ماء الحوض فأنشأ أولاد السلطان حسن فى هذا الموضع ساقية والآن يمتلـئ حوض الجامع من مـاء الساقية. والآن حوض الـسلطان حسـن مقام رأس الإمام الحسين، ولذا فـإن الناس يتوضئُون من مـاء هذا الحوض ويدعون بالخير لـلحسن والحسين ومـوضع المؤذنين فـى ذلك الجامع مـقام على ثـمانية أعـمدة رفيعـة فى رافد المحراب ولا وجود لمثله فى مصر.

وزخرفة المحراب محلاة بالـصدف وطرزها فوق طاقة البشر. والمنبـر جدير بالمشاهدة وهو منبر ينتهى بالرخام ولذلك فهو منقطـع النظير وزخارفه بديعة وكأنه منبر معلق لأن الناس يمرون تحـته ذاهبين عائدين. والأطراف الـثلاثة لجدار رافد هذا المنبـر رخام طوله ثلاثة أقدام، وهـذا الرخام مكسو بألواح الحـجر الصماقى الأحمر والـرخام. وأمام هذا المحراب دفن السلطان حسـن تحت قبة بيضاء عالية. لقد اغتالـه مماليكه والله أعلم. ولا وجود فى الدنيا لمثل هذا القبر فعلاوة على النقوش مختلفة الألوان فيه كتب قيمة وبسط منسوجـة بخيوط الذهب ومصـاحف وثريات نفيـة وعـدة مئات من القناديـل المرصعة بالجواهر وشمعدانات ومباخر وأوعية لمـاء الورد. وكأن هذا الضريح ضريح النبى ﷺ. وعلى يمنة المحراب ويـسرته نافذتان تطلان على قـبر السلطان حسن ولهمـا قضيبان من النحاس إحداهما تبـدو وكأنها باب يدخل منه إلى الضريح. ولهاتـين النافذتين مصاريع يبلـغ طول الواحد مـنها ثلاثة أقـدام، وعرضه باعـان. إنها مصاريـع مكسوة بـالذهب والفضة، ومرصعة بالسيلو واللازورد. وكل مصراع منها يقدر بقيمة خزانة مصرية وهذا حق ولا يستطيع صائغ أن يكسرها بمطرقة ولا أن يبردها بمبرد.

رأينـــــا جـوامـــع الـدنـيـا جـمـيـعـــًا
ولـكـن مـا رأيـنـا مـثــــل هـــــذا الجـامـــع

وفوق جدران المحراب منارتان عاليتان، وقد انهدمت المنارة اليسرى فى عهد الدفتردار إبراهيم باشا فأقاموا منارة أخرى على أساسها، إلا أنها منارة قصيرة من طبقتين. أما المنارة اليمنى فهى عالية من خمس طبقات تضاء بالقناديل. ولا وجود فى مصر لمنارة أعلى من هذه المنارة. وعند الصعود من داخل الجامع إلى سطحه عبر باب المنارة يكون الارتفاع تسعون قدمًا ومن داخل المنارة إلى أعلاها يكون الارتفاع تسعون قدمًا كذلك. وبذلك يكون الارتفاع بتمامه مائة وثمانون قدمًا. ولقد صعدتها فتعبت ركبتاى ثلاثة أيام. إنها منارة عالية وطبقتها الوسطى تتساوى فى الارتفاع مع باب القلعة الداخلية مع عتبته. وبناء على هذا القياس يبدو كيف أن القلعة الداخلية بناء عالٍ طيب النسيم.

وتحت هذا الجامع طريق على جانبيه خمسون دكانًا وميضأة وأحواض شافعية ودار للضيافة وسواق. إنه بناء ركين له أوقاف عظيمة ونظارة هذه الأوقاف لرؤساء خزانة وزير مصر، ويتقاضى الواحد منهم ثلاثة أكياس فى العام.

وأمام محراب جامع السلطان حسن طريق يؤدى إلى:

جامع محمود باشا

من وزراء السلطان سليمان. وقد شيد هذا الجامع عندما كان واليًا على مصر وفى ليلة أول جمعة أدى صلاتها فيه رأى فيما يرى النائم أن السلطان تربع على العرش وعقد الديوان وجمع علماء مصر قاطبة وقال لهم: لى مع محمود باشا نزاع شرعى لماذا أقام جامعًا فى حدودى لقد سرق المصلين من مسجدى. وما الذى يتخذ تجاه هذا التصرف منه؟ وعندئذ قال العلماء جميعًا: ينبغى أن تخلع عليه خلعة لأنه أقام جامعًا أملاً فى رحمة الله به وسرق هذه الرحمة. فغضب السلطان حسن وقال: ينبغى أن أقتل محمود هذا وأستدعى الجلادين، وطلب إلى أن أجثو وضرب عنقى. وقص محمود باشا هذه الرؤيا على إمامه وطلب منه أن يفسرها له. فقال الإمام: خيرًا. وفى اليوم التالى بينما كان محمود باشا فى موكبه يمر أمام جامع السلطان حسن أطلق أحد الجنود الرصاص

عليه وفر القاتل. إلا أن رجال محمود باشا أسقطوا القاتل عن جواده ودفعوا به على جثة محمود باشا وبينما كانوا يضربون عنقه أصاب السيف جثة محمود باشا ففصل رأسه عن جسده وقتلوا القاتل كذلك بجانب جثة محمود باشا. وهو الآن مدفون في قبر مرتفع أمام محراب جامعه.

وسبب استشهاده هذا المصراع الذى أصبح تاريخًا لوفاته: كانت خاتمة محمود سنة ٩٧٥.

وهذا الجامع جامع لطيف معلق على الطراز التركى ويصعد إليه بسلم حجرى من اثنتى عشرة درجة. إنه جامع صغير لطيف وله منارة على الطراز الاسطنبولى. وعلى يسرة جامع محمود باشا طريق يفضى إلى:

جامع ميرآخور الكبير

إنه كذلك جامع معلق صغير جميل، كل جدرانه مزخرفة. وعلى يمنته باب يصعد إليه بسلم حجرى من ست عشرة درجة. وعلى رافد بابه كتب بالمرمر الأبيض بخط جلى هذه الآية الشريفة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب كتب على الرخام بخط جلى: (إنشاء أيام هذه المدرسة المباركة من فضل الله المعز الأشرف العالى المولى الوالى لسنغى فانالى أمير اخور الكبير أعزه الله تعالى).

ويعلو بابه منارة رشيقة مربعة من أربع طبقات.

إن هذان الجامعان ليسا من جوامع السلاطين ولكنهما ملتصقان بجامع السلطان حسن ولذا ذكرتهما.

جامع السلطان الغورى

إنه قريب العهد لأنه بنى عام ٩١٦. وبما أنه بنى بعد كل الجوامع الأخرى فقد سرق مهندسهُ تصميمهُ من تلك الجوامع. ومن يتعرف إلى جامع الغورى يدرك أن مهندسه له اليد الطولى. إنه أقام جداره من رخام وسماق ملون ومزج الرخام بالصماق بحيث لم يكن بين هذا وذاك موضع لرجل بعوضة. كما مزج رخام أرضيته بحيث يظن من يراها أن الأرضية من حجر واحد. والرخام الذى فيه كالذى فى قصر الغورى. ولوجود هذا الجامع فى سوق الغورى يؤمه كثير من المصلين.

وبعد أداء الصلوات توصد أبوابه لأن خلاص الجامع من الفلاحين فى مصر غير ممكن لأن هذا الجامع طيب النسيم وكأنه قصر. فإذا فتح على الدوام أعدوه داراً للضيافة والاستراحة. إنه جامع معلق يصعد إليه من السوق السلطانية بسلم حجرى من تسع درجات وذلك من ناحيتين. وله باب خلف باب القبلة (تاقيه جيلر ايجنه مكشوفدر) ويصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات. وله محراب بديع الصنع يعجز صناع الهند عن صنعه. إلا أن منبره صغير وهو منبر خال من الزخارف لأنه مصنوع من خشب العود. وجوانب هذا الجامع الأربعة لها قباب ذات روافد ولا وجود لأعمدة فيه وهو يزدان بثريات نفيسة مختلفة، ونوافذه تطل على السوق السلطانية وفيها زجاج بديع ينفذ نور الشمس فيجعل الجامع نوراً على نور. وفى جامع السليمانية فى اسطنبول زجاج مثل هذا. ولأن الجامع مبنى فى مكان ضيق ليس له حرم وكأنه قصر عالٍ. وعلى محرابه قبة زرقاء عالية مكسوة من أسفلها إلى أعلاها بالقيشانى اللازوردى. وللجامع منارة من أربع طبقات متشعبة من أسفلها إلى أعلاها وأمام هذا الجامع طريق يفضى إلى:

ضريح السلطان الغورى

ضريح مرتفع إلى عنان السماء وهو مكسو باللازورد بدلاً من الرصاص. إنه الآن زاوية يؤمها المصلون. ولها خدام. وهذا الضريح علوى كذلك يصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات وكأنه قصر ملكى. وفى جوانبه الأربعة كوات تطل على السوق

السلطانية. وهذا الضريح عليه نقوش ذهبية مختلفة الألوان وكأنما بنى بقدرة إلهية وكأنه قصر من قصور إرم ذات العماد. إن اللسان ليعجز عن وصفه ولقد شاء السلطان الغورى ـ رحمه الله ـ أن يجعل هذا الضريح له فأمر بتذهيبه وزخرفته، ولكن «العبد يدبر والله يقدر» وفقد الغورى فى حربه مع السلطان سليم فأصبح هذا الضريح زاوية. وفى هذه الزاوية منشفة وضوء النبى ﷺ ومكحلته ومروده وشعرات من لحيته الشريفة، وهى محفوظة فى صندوق مرصع بالجواهر وهذا الدولاب مغلق. وبعض الأعيان يأتون لمشاهدته تبركًا. وعندما قدمت من بلاد الفرنجة عشيت عيناى من شدة الحر، وجرأت على أن أكحل عينى من مكحلة النبى ﷺ فقوى بصرى ووجدت الفائدة من اكتحالى.

وفى هذا الضريح والجامع المقابل له طلسم له خاصية عجيبة فليس بهما بعوض ولا ذباب ولا بق. وإذا ما داوم على المجىء إليه رجل مقمل لم يبق قمل فى رأسه. إنه طلسم عجيب غريب. ولقد عرفت عدم وجود البعوض والذباب فيه وكنت أداوم على المضى إليه وداومت على أن أنام كأصحاب الكهف لأنه مكان طيب النسيم ولا وجود فيه لعذاب البعوض. وطالما اجتمع فيه ظرفاء القاهرة. إنه جامع يستحق المشاهدة والسلام. ولقد أعيد بناؤه عام ٧٧٧.

جامع السلطان برقوق

مجاهد فى سبيل الله من صفوة الشراكسة. وكان فى أول أمره مملوكًا لمن يسمى يلبغا الذى قتل السلطان حسن صاحب الجامع. وكان برقوق فتًى شركسيًا شجاعًا من قبيلة بسنى الشركسية. وحينما هم الملك الأشرف بالثأر من يلبغا لقتله السلطان حسن وتمكن من قتله ألف برقوق جيشًا من أربعين أو خمسين ألفًا من الشراكسة والأبخاز وثاروا مطالبين بالثأر لسيدهم يلبغا إلا أنهم انهزموا فى النهاية وأبعد برقوق وجميع من معه من الشراكسة والأبخاز إلى الشام. وهناك أصبح سلطانًا عظيم الشأن وفتح عكا وصيدا وبيروت وطرابلس الشام، ثم عاد إلى مصر سلطانًا عظيمًا على رأس جيش جرار. وكان اسمه يذكر فى الخطبة على أنه «الملك الطاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق العثمانى».

وفى عام ٨٠٠ أصبح برقـوق هذا أول سلطان من الشراكسة. وقـد أقام هذا الجامع من أموال الغزو فى السـوق السلطانية. ويؤم هذا الجامع كثير مـن المصلين. وهو جامع معلق يصعد إليـه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه بناء عظـيم على الطراز القديم. ومساحتـه مائة وسبعون قدمًـا فى مثلها. وفـى جوانب حرمه الأربعة أربـعة عقود ذات روافد. ويتوسط حرمه حوض عظيم ومنبر محـرابه من الطراز القديم وله مئذنتان وهما لا تتشابهان، بناهمـا معمارى بارع بذل قصاراه فى بنائهما فصنع مـئذنتين بديعتين وكل منهما من ثلاث طبقات. وليس للجامع بـاب يطل على السوق. وطاقاته ومصاريع بابه النحاسـية يعجز عنهـا الوصف. وهو مشهور بين جـميع الرحالة بباب «الـبرقوقية». وكتب علـى محراب هذا الجامع قولـه ـ تعالى ـ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾[1]. وتحت هذه الآيـة تاريخ هو: (أمر بـعمارت فى أيام مـولانا السلـطان برقوق سنـة سبع وسبعين وسبعمائه. ولا وجود لأعمدة داخـل هذا الجامع، وكله بناء ذو روافد والرخام الذى فيه لا وجود له فى سواه ويتصل بهذا الجامع:

جامع الملك الكامل محمد

كان السلطان الكامل سلطانًا شجاعًا مشهورًا تقيًا من صفوة سلاطين الأيوبيين، وهو الذى بنى هـذا الجامع وطرازه هو عين طـراز جامع السلطـان برقوق، ولا فرق بينـهما البتـة. وإن كان بينهمـا فـرق فـهـو فـى المنارة التى تختلف فى طرازها عن منارة جامع برقوق. كما أن قبةهذا الجامع أكثر ارتفاعًا من قبة جامع برقوق إلا أنها قبة مستديرة من الخشب. وله قبـة أخرى مكسوة بالرصاص، فالفـرق بينهما فى المنارة والـقبة ليس إلا. والسلام.

وعلى جانب جامع البرقوقية:

(١) الآية الكريمة ٥٠ من سورة الروم.

جامع السلطان ناصر الدين

سلطان غازى حسيب النسب من سلاطين الأيوبيين، وهذا ما يبدو من آثاره. وله جامع عظيم يشبه جامع السلطان حسن. وداخله مصمم على نفس الغرار. وله أربعة عقود. وهو بناء ذو روافد ولا أعمدة بداخله. ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. ومنارته كأنها برج مزخرف يعجز عنها الوصف. ويتوسطه حوض شافعى مساحته عشرة أقدام فى مثلها. وعلى باب الحرم تاريخ مكتوب هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة السلطان العادل ناصر الدين بن محمد بن السلطان سيف الدين بن السلطان قلاوون الصالحى) ومقابل هذا الجامع:

جامع السلطان الطاهر

إنه جامع معلق كذلك يصعد إليه بسلم حجرى من بضع درجات. وهو جامع عتيق ومساحته مائة وسبعون قدمًا فى مثلها. وعلى جوانب حرمه الأربعة أربعة عقود عليها روافد. وفى حرمه حوض ومنبره قديم الطراز. ومنارته من ثلاث طبقات ورخام حرمه ليس متقن الصنع إلى حد بعيد. ولكن فى هذا الجامع روحانية. وتجاه هذا الجامع طريق يفضى إلى:

جامع السلطان قلاوون الصالحى

سلطان عظيم الشأن من آل (   )[1]. إنه جامع معلق فى السوق. ويصعد إليه بسلم حجرى من خمس درجات. وله باب مزخرف عليه تاريخ مكتوب هو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى، وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٨٣). وفى أطراف حرمه العظيم أربعة صفوف من العقود. ثلاثة منها روافد أما فى العقد الذى فى جهة المحراب سقف منقوش مقام على ثمانية أعمدة من الرخام ومحرابه مزين بالصدف بديع الصنع. أما منبره فمزخرف بالرسوم النباتية. ويتوسط حرمه أربعة عشر

(١) بياض فى الأصل.

عمودًا دقيقًا من الرخام، عليها قبة عالية ذات سقف وتحتها حوض شافعى مساحته عشرة أقدام فى مثلها. ونافورته تتدفق كأنها السلسبيل. وعلى الطريق بعيدًا عن الجامع منارة من ثلاث طبقات كأنها برج قلعة وهى مرتفعة للغاية. ويؤم الجامع كثير من المصلين لأن به مستشفى قلاوون والمبرات السلطانية. ولهم مؤسسات خيرية وأوقاف كثيرة. ويتصدق على خمسة أو عشرة آلاف غريب فى كل يوم على الدوام. وسوف أتحدث عن مستشفاه ومبراته فى موضعهما بمشيئة الله.

جامع السلطان الصالح

أحد سلاطين الأكراد. دبّر الأمور فى مصر، وألحق الهزيمة بالصليبيين فى المنصورة ورشيد. ولقد أقام هذا الجامع من مال الغزو. إنه يوسف صلاح الدين بن أيوب الكردى. وهذا الجامع على الطراز القديم إلا أن فيه روحانية وجهة المحراب وخلفه باب، على جوانبه روافد وعقود. وعلى جانبى الحرم ثمانية أعمدة من الرخام. فوقها حجرات المدرسة. ونوافذها تطل على حرم الجامع ومحرابه ومنبره على الطراز القديم. ويتوسط حرمه حوض شافعى. وله منارة وباب، وعلى يسرة الحرم «سبيل خانه» وخلفه قبر عالٍ دفن فيه السلطان الصالح. إنه ملك غاية فى عظمته. ومن أبنائه سبعة سلاطين. كما أن سبعة من أحفاده خلفاء. وأوقافه معمورة إلى الآن.

وعلى محرابه تاريخ تعمير هذا الجامع وترميمه وهو:

أتحف الله مصرنا بوزير قد تسمى باسمه الجليل الكريم، ثم تجديده سعد تاريخ نجم أشراف أحمد المرحومى سنة ١٠٦٣ . وكان هذا الجامع بناء قديمًا ثم أصبح بناء جديدًا، وأصبح جامعًا هو نور على نور. إنه جامع عتيق. وعلى الطريق العام قبالة هذا الجامع يقع:

جامع السلطان الأشرف

آخر سلاطين الأيوبيين. وهذا الجامع معلق. يصعد إليه بسلم حجرى من ست درجات إنه جامع بديع وكأنما بناه معمارى لتوه. وهو جامع تنشرح له الصدور وهو يشبه جامع السلطان الصالح فى وجود عقود ذات روافد ناحية محرابه، ولا وجود

لعقـود فى جوانبـه. ولكن له جدران. ووسـطه مكشـوف ولا حرم له ـ وكل جـوانبه الأربعة مكسوة بالرخام بسمك قدم. ولوقوع هذا الجـامع فى السوق السلطانية يؤمه كثير من المصلين. وله منارة من ثلاث طبقات.

وهذه الجوامـع السلطانـية السبعـة سالفة الذكر تـقاربت جدرانهـا ومناراتها ومـعظم الجوامع فى القاهرة على هذه الصفة.

جامع السلطان جان بولاد زاده

إنه جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات. وسلم هذا الجامع خارج القلعة. ولقـد أقيم هذا الجامع على أسوار القـلعة وهو متصل بباب النـاصر. إنه جامع صغير لا حرم له وهو منقطع النظير ليس فى القاهرة وحدها بل فى جميع بلاد المسلمين التى زرتها. وله قبتان عـاليتان وهما مربعتان مدببتان، وقد بنـيتا على حجر طوله ذراع وليس لـهما من نظـير فى بلـد آخر. وهما ليـستا مكسـوتان بالجص ولا بـالرصاص. ولكنهما من حـجر وهذا الحجر معروف فى مصر وحدها وفى مـناطق أخرى قباب من الحجر مثـل هذه القباب إلا أنها عـلى غرار هاتين القـبتين. وكان للبنـاء قواعد وأصول روعيت منذ الزمان الغابر فى مصر وكان بناء كل قبة على نسق خاص، ولذلك لم يكن بين هذه القباب تشابه.

كما أن المنارات فى القاهرة كان زخارف كل منها تختلف عن زخارف الأخرى، وكل منها أقيـم على طار خاص. مما أضفى عـلى المدينة زينة. ولجامـع جان بولاد زاده هذا منارة رشـيقة من ثلاث طـبقات وهى منارة غـاية فى جمالـها. وعند عودة أمـير الحج المصرى مـن مكة إلى مصـر فى اليوم السـادس من شهر صفـر الخير يأتى مـع المحمل الشريف إلى هذا الجـامع ويحتشد فيه العلـماء والصلحاء ويقضون ليـلة فى تلاوة المولد وذكر الله وتوحيده. وفى صباح اليوم التالى يمضـى أمير الحج بالمحمل فى موكب عظيم إلى الباشا لتسليمه إليه. فجامع جان بولاد زاده جامع مبارك.

وبالدخول من باب الناصر وبالقرب من وكالة جعفر يواجه:

جامع السلطان بيبرس

أحد مماليك بنى العباس. وليس هذا الجامع كبيرًا. ولكنه بنى بمال الغزو ولذا له روحانية. ولا وجود لأعمدة بداخله. وعلى جوانبه الأربعة صفات عقود. والجدران التى حوله مكسوة بأحجار مختلفة وحجارته الأخرى رخام وكل حجر منها فى حجم السجادة. ومحرابه ومنبره من الطراز القديم ومنارته من ثلاث طبقات وهى من طراز آخر. وعند باب الصوباشى وأمام الباب الحديدى يقع:

جامع السلطان صالح حاجى

آخر سلاطين البحرية ويحتمل أن يكون هذا الجامع للسلطان يوسف صلاح الدين والله أعلم؛ لأنه جامع عتيق ولكنه ليس كبيرًا. إنه مقام على أربعين عمودًا ومحرابه ومنبره لا دقة فى صنعهما. وفى حرمه شجرة نبق عظيمة ولهذا الجامع ثلاثة أبواب من حديد. والباب الذى من ناحية قصر الصوباشى موصد. إنه جامع معلق والجزء السفلى منه تحت الأرض وفى المكان الذى يسمى ديلم سجن للصوباشى وكأنه الجحيم ويسجن فيه المجرمون والمستحقون القتل. ولهذا الجامع منارة عتيقة من طبقتين وعند الباب القبلى لهذا الجامع محكمة «مبين شرع الرسول».

وبالقرب من جامع النظامية:

جامع السلطان قان باى الچركسى

عزل سبعة سلاطين من التركمان فى يوم واحد وثمل عين بعضهم. وهؤلاء السبعة مدفونون أمام محراب هذا الجامع. والسلطان «چيقماق» مدفون بين هؤلاء السلاطين السبعة. ولهذا الجامع باب مفتوح على الناحية القبلية وعلى طرفى هذا الباب تاريخ مكتوب بخط جلى على الرخام وهو قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٨]. ثم (بتاريخ شهر ربيع سنة ٨٨٤).

إنه جامع معلق صغير جدًا. له منارة منخفضة منطبقتين. وقباب هذا الجامع من الحجر ويؤمه قليل من المصلين وهو واقع فى موضع طيب النسيم. وبعد باب الوزير يواجه جامع «أم الحسن» وداخله قرافة المجاورين وبداخلها باب متروك أمامه:

جامع أرسلان قاى

له سلم يتألف من ست درجات. وهو جامع معلق بديع ولكنه صغير. وليس له حرم وله منارة من طبقتين. وفى الميدان الذى يطل عليه باب قبلته سوق الغلال وهذا الجامع متصل بأسوار القلعة. ولكن الرمال غطت أسوار القلعة وأهالى هذا الجامع يخشون عادية اللصوص. وفى القلعة الداخلية يقع:

جامع السلطان قلاوون

أحد سلاطين آل أيوب. إنه جامع من طابق واحد عظيم كأنه القلعة ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. وناحية محرابة ثمانية وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا. وعلى محرابه قبة عالية مغطاة بالجص الأبيض. إلا أنها قبة من نور، وداخلها محلى بنقوش ذهبية «لبهزاد» وقد أقيمت هذه القبة على عشرة أعمدة عالية من الحجر الصماقى الأحمر. والمحراب من الحجر. ومنبره منبر صغير منخفض من الرخام الأبيض. وكتب على باب منبره الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعلى يمنة المنبر قفص حديدي مربع وداخله مصلى خاص بالباشاوات. وهو قفص مشبك متقن الصنع بديع الشكل وكأنما صنع حديده داود ـ عليه السلام ـ. ومثل هذا القفص فى المدينة المنورة وهو شبكة رسول الله ﷺ. وفى أطراف هذا الجامع صفّات عليها ستة وثلاثون عمودًا من الرخام الأبيض عليها عقود وفوقها سقف منقوش مزين بالسيلو واللازورد وحمر الألوان، والسقف من أوله إلى آخره ثقوب ثُمَانية الزوايا وهذه الثقوب على هيئة الأطباق ذلك أن السلطان قلاوون فى سماطه المحمدى على الدوام كان يقدم الطعام فى ثلاثة آلاف طبق من الخزف المرتبانى الأخضر ورمزًا إلى هذه الأطباق زين السقف بثلاثة آلاف وحدة زخرفية على هيئتها. ومساحة كل وحدة زخرفية تتسع لإنسان. وجدران هذا الجامع محلاة من أعلاها إلى

أسفلها بالصدف كما أن بعض المواضع فى جدرانه من الرخام. وليس فى القاهرة جامع كل جدرانه مكسوة بالرخام المزخرف.

وللجامع بابان. ولقد أوصد «طوب اتان باشا» الباب القبلى. أما أبوابه الجانبية فمصنوعة من النحاس. وموضع مؤذنه فوق ستة عشر عمودًا رقيقًا من الرخام الأبيض فكأنه مقصورة «إرم ذات العماد». وللجامع باب آخر هو باب الميضأة ويقع هذا الباب فى الركن الأيسر للمحراب. وفى طرف حوض هذه الميضأة منارة رشيقة من طبقتين مكسوة بالقيشانى الأخضر كذلك. وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. ولهذا الجامع أوقاف عظيمة. وهو يطل على مقر رياسة جاويشية معسكر الانكشارية. ولا وجود لمؤذنين فى الجوامع الأخرى لهم حسن صوت مؤذنى هذا الجامع. والباشا يستمع إلى تواشيحهم وابتهالاتهم فى كل ليلة. ويؤدى الباشاوات صلاة الجمعة غالبًا فى ذلك الجامع. وقد صنع صانع ماهر ساعة شمسية لمعرفة مواقيت الصلاة الثلاثة فى حرم الجامع وكأنها ساعة على قوشجى. وثمة جامع آخر فى ميدان قصر الباشا وهو:

جامع السلطان الملك الناصر فرج

يسمى جامع دهيشة وسبب تسميته بذلك الاسم أنه كان ديرًا فى عصر القبط لفتاة قبطية تسمى «دهيشة» ولكن السلطان فرج هو الذى بناه. ويصعد إليه بسلم من ست درجات وهو جامع علوى وله بابان جانبيان وليس له باب للقبلة. وأعمدة هذا الجامع أعمدة مربعة ذات قواعد يبلغ عددها (   )[1] عمودًا عليها سقف خشبى أخضر وعلى يمنة ويسرة بابه الكبير تاريخ السلطان فرج. وكواته تطل على ميدان القصر. إنه جامع صغير لا حرم له. له منارة منخفضة من طبقة واحدة. وقد مال محرابه نحو أحد الأركان والحقيقة أنه كان ديرًا فى ماضى الزمان. وله مؤذنان رخيم صوتهما وخطيب من صلحاء الأمة. وبالقرب من بركة الأوزبكية يقع:

(١) بياض فى الأصل.

جامع السلطان أوزيك

من سلاطين آل (   )[1]. وهو جامع علوى يرتفع ستة أقدام. ومساحته مائة قدم طولاً وعرضًا. وله سقف أزرق اللون مرفوع على ثمانية وثلاثين عمودًا من الرخام. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم. وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة رشيقة جميلة من ثلاث طبقات.

وفى الدرب الأحمر يقع:

جامع أم السلطان حسن

جامع معلق يصعد إليه من باب مطل على الطريق بسلم حجرى من ثمانى درجات وله منارة رشيقة من أربع طبقات. إنه جامع غاية فى الجمال إلا أنه بلا حرم وكواته تطل على الطريق العام. ولا أعمدة بداخله. وسقفه منقوش مقام على عقود ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. وعلى نفس الطريق يقع:

جامع السلطان مردان

من تجار الأكراد. وكان قصابًا فيما مضى. وكانت تأتى إليه امرأة على الدوام وتشترى من مردان هذا خروفًا. واتفق ذات يوم أن تعقبها مردان هذا ليعلم إلى أى مكان تمضى بهذا الخروف فتابع السير فى أثرها. فرأى أنها دخلت جوف مغارة فى جبل الجوشى بهذا الخروف. وكان فى هذه المغارة دب مخيف فوضعت الخروف أمام الدب. وبعد أن التهم الدب الخروف باشر هذه المرأة. فرأى مردان القصاب هذا من أمر المرأة فبلغ منه العجب مبلغه. فظن أن فى الغار كنز أو مقبرة للمجوس. وعاد مردان القصاب إلى دكانه. وفى صباح اليوم التالى اشترت المرأة خروفًا ومضت إلى المغارة فتمنطق مردان بالساطور فى شجاعة ومضى إلى المغارة. ورأى المرأة مع الدب فصاح قائلاً: الله وقتل الدب. واستجوب المرأة فقالت: والله إن هذا الدب كان موكلاً بهذا الكنز. وكلفنى والدى بهذا الأمر فكنت آخذ من هذا المال وأشترى خروفًا فى كل يوم وأطعم الدب الذى يجامعنى. وهنا أنت خلصتنى من ذلك الأمر. لذا أصبح ذلك المال الجزيل

(١) بياض فى الأصل.

من حقك. وإذا ما شئت فالأمر كذلك. فأخذ مردان هذا المال الجزيل ومضى بالمرأة إلى السلطان وقص كل منهما الخبر عليه. فقال السلطان: يا مردان أعطنا عشر هذا المال. وتصرف كيفما شئت فيه.

فكره مردان أن يحمل المال ووزعه على فقراء القاهرة. ومن هذا الكنز أقام مسجداً، ومات السلطان فنصّبوا مرداناً سلطاناً مستقلاً.

إنه جامع معلق مزخرف جميل له سقف منقوش يقوم على ستين عموداً من الرخام. وله حرم واسع. وله بابان جانبيان وباب للقبلة. ومنارته من ثلاث طبقات ومنبره من الخشب المنقوش وهو غاية فى جماله. ومحرابه محلى بالصدف. والجامع مزين بالثريات النفيسة، وله فوانيس نحاسية داخلها آلاف من القناديل. كما أن بسطه الحريرية لا وجود لها فى جامع آخر. وأغلب المصلين فيه من الترك. وله خدام كثيرون. كما أن أوقافه عظيمة.

وبالقرب من السيدة نفيسة:

جامع السلطان خير الأم

إنه جامع عتيق. ولكن المصلين فيه قليل. وفنونه الزخرفية قديمة الطراز يعجز اللسان والقلم عن وصفها. وقد بليت منارته وضاعت أوقافه.

وبالقرب من هذا الجامع يقع:

جامع السلطان عبد العزيز

من سلاطين العباسيين. إنه جامع صغير. له سقف يحمله اثنا عشر عموداً من الرخام. ومحرابه خال من النقوش. ومنبره من الخشب المزخرف. وله منارة رشيقة جميلة. ولأن السيدة نفيسة مدفونة أمام محراب هذا الجامع سمى بجامع السيدة نفيسة.

وفى أسفل المدينة فى حارة صانعى العمائم يقع:

جامع پيك خانه

إنه جامع أرضى يؤمه كثير من المصلين.

وفى حارة الوزانين يقع:

جامع عصام الدين

إنه جامع غاية فى صغره.

وتجاه قصر رضوان بك طريق يفضى إلى:

جامع محمود بك

وهو على رأس حارة صانعى الخفاف. إنه جامع صغير لا حرم له ولكنه جامع نظيف بديع. ومحرابه مزين بالأحجار. وعلى جانبيه أعمدة فى غلظ الذراع وكأنما ينثر الجوهر. والمصابون باليرقان إذا داوموا ثلاثة أسابيع على لعق أعمدته شفوا من هذا المرض بإذن الله. ولهذا الجامع منارة جميلة.

وفى هذه السوق تقع «الصراج خانه» وبها:

جامع جانم بهلوان

جامع معلق يصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه غاية فى الجمال. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع (   )[1]

جامع معلق كذلك وهو يكتظ بالمصلين. وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات وعلى رأس حى «الخيامة»:

جامع جان بكيه

كتب على بابه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، كما كتب بعد هذه الآية تاريخ هو (سنة اثنين وثمانمائة). إنه جامع معلق يصعد إليه من طرفه بسلم من خمس درجات. وهو جامع منير. إلا أنه صغير وبالقرب من سوق الصليبة:

جامع أمير الماس حاجب سلطانى

إنه جامع صغير أرضى. ولكنه نظيف للغاية، وفيه روحانية، ولا ينقطع عنه المصلون، وقد بنى من مال الزكاة، لذلك يسكن فيه الصوفية. وإذا ما وجد أحد فى

(١) بياض فى الأصل.

نفسه ألمًا وصلى فيه زال عنه ألمه وطاب نفسًا. وله ثمانية وعشرون عمودًا تحمل سقفًا مذهبًا. وفى حرمه شجرة نبق وثمارها فى حجم الجوزة. وعلى أربعة أعمدة صغيرة من الرخام يرتفع عليها قبة صغيرة تحتها صنابير. ومحرابه من الطراز القديم. ومنبره من الرخام الأبيض. وعلى بابه تاريخ مكتوب هو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك الفقير أمير الماس حاجب فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة وكماله سنة ثلاثين من الهجرة النبوية المحمدية) وهو جامع ذو منارة.

وفى سوق الصليبة:

جامع الشيخونية

من وزراء السلطان حسن. ولأنه كردى الأصل فهو شجاع مقدام. وله سيرة عمر كما أن اسمه عمر. وله عمائر شيدها منها مبرتان متشابهتان. إلا أن الجامع الذى شيده على الجانب الأيسر من الطريق العام جامع مرتفع منير. وكل منهما يرتفع بمقدار سبعة أقدام. ومساحته مائة وستون قدمًا فى مثلها. وجملة أعمدته خمسة وأربعون عمودًا من رخام عليها سقف منقوش. وله باب وحرمه مرصوف بالرخام من أوله إلى آخره. ولأن له أوقافًا عظيمةً خدامه كثير، وهم يعنون بتنظيفه إلى أبعد حد. وله منبر خشبى مزخرف. ومحرابه مزين بحجارة ذات ألوان. وعلى الجدار الواقع على يسرة المحراب لوحة عظيمة، رسم عليها رسام بارع صورة للكعبة كتلك الكعبة التى فى مكة المكرمة تمامًا. والتكية الشيخونية الواقعة قبالة هذا الجامع مثله تمامًا. وهى تكية للقادرية وسوف توصف هذه التكايا فى موضعه.

وبعد الشيخونية أثناء الذهاب إلى ميدان الروملى يقع على الجانب الأيمن:

الجامع المحمدى

جامع صغير معلق وله منارة شاهقة. إلا أنى لم أدخله ولم أُصَلِّ فيه.

جامع أَلْتِى برماق افندى

يصعد إليه بسلم حجرى من ست درجات. إنه جامع جميل. وواعظه الناصح وجميع المصلين فيه من الترك. وله باب وسقف خال من النقوش يقوم على أعمدة. ولكن ليس له حرم. ولأنه جامع علوى تحته ستة دكاكين. وله منارة منخفضة.

وأمام محرابه دفن «أَلْتِى بارمق افندى» صاحب السيرة النبوية.

وقبالة هذا الجامع أسفل السهل يقع:

جامع المرزبانية

إنه جامع جميل ينشرح له صدر من يشاهده. له سقف منقوش يقوم على عشرين عمودًا جميلاً. ومحرابه ومنبره غاية فى جمال الصنع. وفى حرمه نخلة عظيمة.

جامع الداودية

من وزراء السلطان سليمان. كانت له الولاية على مصر بعد سليمان باشا الطواشى، وهو الذى بنى هذا الجامع. حقًا إنه صنيع الوزراء. فأقام هذا الجامع الذى لا يشبهه جامع أقامه وزير. ويصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من ثلاثة أبواب. إنه مرتفع البنيان. وقد أقيم على ستين عمودًا. وفى جهة محرابه وحرمه ستون قبة مستديرة من الحجر، وهى مكسوة بالجص الأبيض. وعلى كل قبة علم من الرخام. وحرمه واسع مرصوف بالرخام. ومحرابه ومنبره ومنارته ذات الطبقة الواحدة على الطراز التركى. وعلاوة على حرمه العلوى له حرم سفلى. والجامع فى جدرانه يشبه قلعة صغيرة. ولا يتصل بأى بناء آخر. والجامع يؤمه عدد غفير من المصلين.

جامع اسكندر باشا

كانت له ولاية مصر بعد «دوقه كين محمد باشا». وهو كذلك من وزراء السلطان سليمان. ومن الحق قولنا إنه جامع منقطع النظير. وهو يشبه جامع رستم باشا فى اسطنبول الذى يؤمه المصلون ليل نهار. إنه جامع منّور. وبداخله ثمانية أعمدة وكواته تطل على الطريق الرئيسى. ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. إلا أنهما جميلان.

وليس له حرم لأنه واقع فى حارة ضيقة. وتجرى بركة مصر خلفه ومنارته كالمنارة التركية من طبقة واحدة لها ستة أبواب.

جامع منجك اليوسفى

من وزراء السلطان حسن، وهو صاحب جوسق منجك الواقع فى ميدان «كوك» فى دمشق. إنه جامع عتيق مقام على صخرة واطئة تحت جامع النظامية. وله منارة.

جامع الشيخ نظامى الأصفهانى

إنه جامع يقع خارج باب الوزير. وهو جامع جميل يقوم على ربوة. إنه أكمل الجوامع فى مدينة القاهرة. ولا وجود لأعمدة بداخله. وله سقف لطيف منقوش وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات. إنه تكية عظيمة للخلوتية، وسوف تذكر عند حديثنا عن التكايا. وقد بنى هذا الجامع سيدى نظامى الأصفهانى فى خلافة السلطان محمد بن السلطان قلاوون الصالحى بماله الحلال. وتم بناؤه عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة. وسيدى الشيخ الأصفهانى مدفون فى هذا الجامع قدّس سره العزيز. وداخل باب العزب يقع:

جامع العزب

إنه جامع صغير. ولوقوعه أمام عتبة العزب يؤمه كثير من المصلين. لكن ليس للجامع حرم. وقد شيد إبراهيم كتخدا له منارة رشيقة جميلة على الطراز التركى.

وبعد هذا الجامع سور القلعة وعليه عطفة بداخلها يقع:

جامع السلطان المؤيد

يقع هذا الجامع فى نهاية باب الوزير. وهو الآن مغلق وموضعه ظاهر، إنه جامع مرتفع. وله نوافذ تطل على سور القلعة على طريق الوزير. ولا أعمدة بداخله. إنه صغير ولا حرم له. وله منارة قصيرة تفى بالغرض. وبعد جامع المؤيد فى القلعة الداخلية:

جامع سليمان باشا

كان يدعى «طواشى سليمان باشا الأبيض». وقد وزّر فى مصر مرتين. مضى إلى الهند من السويس بمائتى سفينة. وفتح مدن «بندرديوى» و «شهربندر صورتى» وسبع

مدن أخرى وقضى على البرتغاليين هناك. وقد فتح اليمن كذلك بأموال الغنائم وجعل «أوردمير بك» قائداً للحبشة وفتحها. وقد بنى هذا الجامع بأموال الغزو. وليس فى الجامع أخشاب وكله أبنية من الحجر. وله قبة مستديرة زرقاء أسفلها مكو بالرخام. ومحرابه من الحجر بديع الصنعة. وعلى جانبى الحرم شمعدانات مذهبة يبلغ طول الواحد منها قدمًا. ويوضع فيها فى كل ليلة شمع العسل بطول قدمين. وهذه الشمعدانات ليست خاصة بجامع فى القاهرة. والمنبر من الرخام بديع الصنع. وفى الجامع عدة آلاف من الثريات المعلقة. وأمام محرابه أربعون آية من آيات الذكر الحكيم. وكل منها كنز، وبسطه رائعة. وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة. وهو جامع صغير مساحته مائة وعشرون قدمًا فى مثلها ولكنه درّ يتيم. وحرمه الخارجى تبلغ مساحته مائة قدم فى مثلها. وعلى صفاته الجانبية عشرة أعمدة من الرخام تحمل قبابًا صغيرة مستديرة. والقباب الكبيرة والصغيرة مكسوة بالقيشانى اللازوردى. وباب المحراب محلى بالزخارف وكأنه السحر المبين. وجدران صُفَّات هذا الحرم مكسوة بالرخام والحجر الصماقى بسمك قدم.

وعلى الرخام كتب خطاط بارع بالخط الكوفى آية الكرسى ولا يشبهه خط كوفى ويأتى الرحالة لمشاهدته. والحرم مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وهو نظيف مجلو بحيث يبدو فيه وجه الإنسان ولونه كأنه مرآة. ولهذا الحرم ثلاثة أبواب وله بابان جانبيان أحدهما باب القبلة. وسيدى الشيخ «سارية» وهو من الصحابة الكرام مدفون فى قبر بداخله.

إنه سارية الذى أمَّرَهُ الفاروق عمر على مدينة نهاوند فى بلاد العجم. وبينما كان يحارب فى بلاد العجم وبينما كان عمر يخطب المسلمين خطبة الجمعة فى المدينة المنورة رأى بعين قلبه أنّ سارية ينهزم فى بلاد العجم، فصاح قائلاً: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل». فأخذ العجب من الناس كل مأخذ فسمع سارية ـ وعدد من جنوده فى نهاوند ـ صيحة عمر فولوا ظهرهم الجبل. فكان لهم النصر على العجم بإذن الله. وعندما رجع سارية إلى المدينة مظفراً سمع أن عمر صاح قائلاً: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل»

فى يوم جمعة. وبذلك زاد المؤرخون محبة لعمر. وها هو الصحابى الجليل يدفن فى غار وعلى هذا الغار أقيمت تكية وضريح. وعلى باب قبلة هذا الجامع تاريخ مكتوب هو:

(قد بنى عمر السلطان الجناب العالى مملوك السلطان سليمان خان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو أمير الأمراء لمصر القاهرة سليمان باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدًا لوجه الله الملك المعين وطلبًا رضاء رب العالمين ليعبد فيه عباد الله الصالحين وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين سنة ٩٣٥).

وعلى المصراع الأيمن لباب القبلة هذا كتب بخط مذهب (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣]).

وكتب على المصراع الأيسر من هذا الباب قوله ـ تعالى ـ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ صدق الله العظيم [الزمر: ٧٣].

إنه باب عالى. ولهذا الجامع حرم آخر شرق قبلته. وفيه حوض وشادروان جار. وللحوض صنابير كثيرة يتوضأ منها كثير من المصلين. وقبة هذا الجامع ليست مكسوة بالجص كغيرها من قباب الجوامع الأخرى فى مدينة القاهرة. وهى من أعلاها إلى أسفلها مكسوة بالقيشانى اللازوردى. ومن شاهدها من بعيد خالها مكسوة بالرصاص. ولهذا الجامع منارة تتألف من طبقتين. وهى أعلى من كل ما فى القاهرة من منائر. وقد بنيت على طراز منائر اسطنبول. ومحراب هذا الجامع يقع تحت نصف قبة. وتطل نوافذ هذا المحراب على بستان. وبذلك يتنسم المصلون فى هذا الجامع أزهار ذلك البستان. وناظر وقف هذا الجامع من أغاوات الانكشارية. ولذلك أوقافه عظيمة. وبما أن رئيس الانكشارية يداوم على أداء الصلوات الخمس فيه فهو نظيف على الدوام.

وفى داخل باب اللوق يقع:

أوصاف جامع البَرْمَشِى

إنه جامع معمور مزين يؤمه كثير من المصلين. ومنارته رشيقة مزخرفة عالية من ثلاث طبقات. وفى الدرب الأحمر على رأس شارعين:

أوصاف جامع القَشْماس

أى جامع القَاچمازية. إنه جامع معلق وتحتـه دكاكين. ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه صغير ولكنه لطيف مزين. يؤمه كثير من المصلين. ولكن لا حرم له. ومن جوانبه الأربعة طريق يمر. وهو واقع فى أرض ضيقة.

وبعد هذا الجامع فى نهاية وكالة محمد الحبشى كتخدا:

أوصاف مسجد المِهمَاندارية

يصـعد إليـه بسلـم من خمـس درجات. وهو عـلى الطـراز القديم. ولـيس كثـير الزخارف. ولكن لـوقوعه فى السوق السلطانـية يكثر فيه المصلـون. وكوات هذا الجامع تطل على الطريق العام وله منارة من طبقتين. وفى الدرب الأحمر كذلك:

جامع إبراهيم أغا

ولقرب عهد مـشيد هذا الجامع برئاسة الانـكشارية كان هذا الجامع جـديدًا كأنما كان الفراغ مـن بنائه فى التـو. وهو جامع معـلق. وإذا حاولنا وصـفًا لمحرابه ومنبـره عجز اللسـان ومنارته جميلة عالية تتألف من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع خَيْرَة بك المحمدى

كان وزيرًا للسـلطان الغورى. ولقد أشاح عـن الغورى وانضم إلى السلـطان سليم. وبناء عـلى رأيه وتدبـيره فتح سلـيم مصر. وأسـندت أول وزارة لـ «خيـرة بك» هذا، وكانت له ولاية مصر خمسة أعوام ونصفًا بنى فيها هذا الجامع. وبعد خيرة بك أسندت وزارة مصر إلى «لاله مصطفى باشا» وبعـد عام أصبح الوزير الأعظم فى الدولة، وحل محله «قاسم باشا» ثم أحمد باشا الخائن الذى صلب.

وهذا الجامـع نور محض. وكل أبوابـه وجدرانه مكسوة بـالرخام واليشم الحـرقانى والصماقى. ومنـبره ومحرابه سحر مبين. ولكـنه ليس مبنيًا على عـقود. وكله سقف. وفى حرمه مواسـير للماء وعدة نخلات. وخيـرة بك مدفون فى قبر عال عـلى الطريق العام. وله منارة منقوشة عالية من ثلاث طبقات.

وعند مرور الشراكسةمن أمام هذا الجامع لا ينظرون إليه ولا إلى الضريح. لأنهم حاقدون على خيرة بك هذا لأنه كان عميلاً للعثمانيين. وهو الذى جاء بهم إلى مصر وأخرجها من حوزة الشراكسة. وليس فى القاهرة جامع له ما لهذا الجامع من خدام وأوقاف ونظافة. وعلى طريق باب النصر:

جامع مرزوق كفافى

إنه جامع صغير معلق مقام على أربعة أعمدة تحمل سقفًا. إنه تكية سيدى الشيخ مرزوق كفافى. وله منارة جميلة. وعلى طريق باب الناصر وبالقرب من هذا الجامع:

جامع جمال الدين

إنه جامع معلق صغير ذو منارة. ولكن ليس له حرم.

وبالقرب من هذا الجامع عند خان ذى الفقار كتخدا طريق يفضى إلى:

جامع السلطان سونقور

إنه جامع علوى من الطراز القديم. وله منارة مربعة. وحرمه مرصوف بالرخام المصقول وفى تجاهه طريق يفضى إلى:

جامع الخانقاه

إنه جامع أرضى عتيق له سقف منقوش يقوم على أربعة أعمدة. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم. وله حرم واسع. ومنارته من طبقة واحدة خالية من الزخارف. إنه جامع جد وسيع.

وداخل باب اللوق:

جامع ولد عبادة

وهو جامع علوى على ضفة الخليج. وفى حرمه شجرة نبق عظيمة. وبالقرب منه:

جامع (   )[1]

إنه جامع أرضى عظيم الاتساع يقوم على عشرين عمودًا من الرخام. وله منارة منخفضة من طبقة واحدة. وفى حرمه شجرة نبق عتيقة. إلا أنها كثيرة الثمر.

وبالقرب من هذا الجامع:

---

(١) بياض فى الأصل.

جامع الأصمعى

إنه جامع عتيق كثير الزخارف، وفى حرمه أشجار جميز ضخمة. ولكن المصلين فيه قليل وبابه مغلق على الدوام. وبالقرب منه:

جامع مير اخور

وهو معلق تحته دكاكين.

وداخل قنطرة البكرى:

جامع الأبيض

جامع معلـق على ضفة الخليج. له سقـف منقوش على عشرين عـمودًا من الرخام الأبيض. وله حرم ومنـارة. وحوله حدائق كأنها حدائق إرم. ولوقـوع هذا الجامع على ضفة الخليج فهو موضع يستحق الزيارة للمشاهدة.

جامع خان باى

جامع جميل ذو منارة صغيرة. يؤمه كثـير من المصلين كلهم من الحضر. وفى أركان هذا الجامع كثير من المعتكفين.

جامع عبدِ القادر الطشطوشى

إنه جامع واسع الوسط، لا حرم له، ومنارته مـن ثلاث طبقات. له أربعة محاريب للمذاهب الأربعة. ومنبره من الخشب.

وداخل الباب الجديد:

جامع المغارب

إنه جامع يقوم علـى عشرين عمودًا. وهو مكشوف الوسط. مساحـته خمسون قدمًا فى مثلها.

وداخل باب الشعرية فى السوق السلطانية:

جامع العمرى

له سقف منقوش يقوم على واحد وثلاثين عمودًا. ليس له حرم. ومنارته من ثلاث طبقات.

جامع عابدين بك

جامع معلق يُصعد إليه بسلم من عشرين درجة. وتحته دكاكين. وله سقف يقوم على أربعة وعشرين عمودًا من الرخام الأبيض. وله منارة عالية من طابق واحد على الطراز الاسطنبولى. ولا وجود لمنارة رشيقة مزخرفة مثلها ليس فى القاهرة وحدها بل فى جميع ديار المسلمين.

وأسفل الباب الجديد:

جامع مَرْدَه بك إينالى

إنه جامع معلق على ضفة الخليج له سقف منقوش على أعمدة عالية. ولكن ليس له حرم. ونوافذه تطل على الطريق الرئيسى وعلى الخليج. وفى الجامع محكمة. وله منارة من ثلاث طبقات. وبينما كان القاضى منصور افندى صهر الشيخ على الشمرلى ناظرًا لهذا الجامع عمَّره ورمَّمه وجعله نورًا محضًا. حقًا إنه جامع بديع. ولهذا الجامع بابان. وبابه الأيسر له قنطرة خشبية على الخليج.

وتجاه هذا الجامع سوق الدلالين. وفى هذه السوق:

جامع الجُندى

إنه جامع صغير ومنارته منخفضة.

وكذلك فى السوق:

جامع الداودية الكبير

وهو معلق يُصعد إليه بسلم حجرى من تسع درجات. إنه مزخرف. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. ومحرابه محلى بالصدف.

وعلى باب منبره الرخامى الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعلى باب الجامع كتب بخط جلى أبيات هى تاريخ:

بناء علـى اسام داود صديق، وفى سبيل الهدى قد جد سيرا، حمد ثناه فور خنا بناه، هو حمدا جزا الله خيرا سنة ٩٥٤.

وخارج باب الفتوح:

جامع المطهَّر

إنه جامع على الطراز القديم وبنيانه عظيم ويؤمه كثير من المصلين، وله منارة ولكن لم يتيسر لى دخوله، وهو جامع معلق.

جامع البندقانى

جامع معلق جميل، لم يتيسر لى دخوله. وله باب مزين ومنارة منقوشة من ثلاث طبقات.

وبالقرب منه على طريق البندقانى:

جامع حبشلى محمد كتخدا

يصعد إليه بسلم من خمس درجات. إنه جامع جديد. وله سقف يقوم على أربعين عموداً. وهو سقف غاية فى روعة نقوشه. وله باب يطل على الناحية القبلية ومنارة تركية الطراز.

جامع القيسونى

وهو بالقرب من جامع الداودية الكبير، أمام منزل المرحوم مصطفى افندى أغا الانكشارية:

جامع الشيخ كريم الدين الدبوشرى وجامع الهندى

وجامع الهندى جامع معلق صغير على طريق باب الخَرْق على ضفة الخليج، وله باب على الطريق العام يصعد إليه من ثمانى درجات. وتحته دكاكين. وله منارة مزخرفة ونوافذه تطل على السوق. وسقفه منقوش. ويؤم الجامع كثير من المصلين. إنه جامع بالقرب من بركة الفيل. ومساحة الجامع بحرمه مائة وستون قدمًا فى مثلها. وداخل الجامع وخارجه وتحت موضع المؤذن عشرة أعمدة من الرخام الأبيض. وعلى هذا يكون للجامع مائة عمود يقوم عليها سقف منقوش ومحراب من الرخام والحجر.

ومنبره من الخشب المكسو بالجص ولكنه جميل الصنع. وله أبواب ثلاثة. وفى أسفل عتبته تصاوير متنوعة على الحجر الزنبورى. ويتوسط حرم هذا الجامع الذى يشبه السهل جدار مربع منخفض داخله حديقة يُنْفَحُ منها عبير مسكى. وبها نخلات عظيمة وبجانب

باب القبلة منارة مكسوة بالقيشانى الأخضر كأنها زمردة. إنها منارة عظيمة الارتفاع. وعلى يمنة باب القبلة كتب قوله ـ تعالى ـ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، وعلى يسرته كتب:

(أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله ـ تعالى ـ قوصون الباقى).

ويصلى فى هذا الجامع أعيان وأشراف الترك ولذلك يهتم خدامه اهتمامًا عظيمًا بتنظيفه. وله خطيب مكرم عندما يتلو آيات الله البينات تنشرح قلوب من يلقون السمع إليه. إنه رجل من صلحاء الأمة. ولأنه من تلامذة أستاذنا الشيخ على شمرلسى فهو زميل لى. ولا وجود فى مصر لمن له رخامة صوته الحزين.

ولذلك يأتى حشد كبير من الناس يوم الجمعة لسماع خطبته. ولا يبقى فى الجامع موضع لأحد قبل الخطبة بساعة.

وعلى ضفة بركة الفيل بالقرب من قنطرة السنقور على شاطئ الخليج:

جامع كاتب السر الشيخ إبراهيم

يقع هذا الجامع على الطريق العام، ويصعد إليه بسلم واحد من ست درجات. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب كتب على لوح من الرخام قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، ولكن لا تاريخ له. إنه جامع بديع صغير له منارة من ثلاث طبقات ونوافذه القبلية تطل على الطريق الرئيسى. أما نوافذه البحرية فتطل على الخليج. إنه تحفة معمارية.

جامع الحبانية

جامع مقام على عشرين عمودًا. ويصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه صغير إلا أنه متين ركين. وعلى بابه منارة من ثلاث طبقات. وناظر هذا الجامع سليم جاوش، ولذلك أبدع فى بنائه.

وفى باب الشعرية:

جامع الشيخ الشعراوى

يُصعد إليه بسلم من إحدى عشرة درجة. إنه جامع معلق وتحته دكاكين. وليس متسعًا. ولا حرم له لأن الخليج عند طرفه فى المدينة. وله سقف يقوم على اثنى عشر عمودًا. ومحرابه ومنبره صغيران. وله منارة جميلة من ثلاث طبقات. وسيدى الشيخ الشعراوى مدفون فى هذا الجامع. وله مؤلفات فى ثلاثمائة مجلد.

وعلى الضفة المقابلة للخليج وعلى الساحل مباشرة:

جامع الشيخ الخلوتى

جامع له عشرون عمودًا تحمل سقفًا منقوشًا. وليست له قبة من حجر. ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. ونوافذه تطل على الخليج. وفى حرمه حديقة صغيرة بها شجرة نبق عظيمة، ونبقها لذيذ للغاية. وفى زاوية الشيخ محراب من الصماقى الأخضر، ولا وجود لمثله فى مصر؛ ولكن يوجد مثله فى القدس الشريف. وله منارة من ثلاث طبقات. وفى الجوانب الأربعة للتكية الخلوتية ثمان وسبعون حجرة للمتصوفة. وسوف نتحدث عنها فى حينه.

وبالقرب من درب الجماميز:

جامع بَشَك

وهو من الجراكسة، وفى عام ٨١٣ لجأ إلى تيمورلنك بدمشق. إنه جامع جميل ومزين ومجموع أعمدته ستة عشر عمودًا تحمل سقفًا. وفى حرمه نخلات وهو جامع جميل. وله منارة رشيقة من ثلاث طبقات.

جامع نقيب الجيش

يقع بالقرب من جامع قَرَهْ قُوجَه. إنه جميل أو عتيق.

وعند قنطرة الجماميز:

جامع قَرَه قوجَه

إنه جامع صغير ولكن يؤمه كثير من المصلين.

وفى درب الجماميز تجاه قنطرة العمر:

جامع كتكوت

جامع صغير علـى الطريق، ومنارته رائعة، وهو كذلك من الجـوامع كثيرة الزخارف وفى طريق الباب الجديد أسفل قلعة الكبش:

جامع الأمير لاجين

إنه جامـع جميل يـصعد إليـه بسلم مـن خمس درجات. ومـنارته نحـيلة مرتـفعة ومزخرفة وكواته تطل على الطريق العام. ولـه أربعة عشر عموداً من الرخام تحمل سقفًا منقوشًا إنه وزير السـلطان الطاهر.

وعلى أسوار قلعة الكبش:

جامع السلطان الجولى

تمكنت من دخوله. له زاوية تشبه الجامع. وله منارة مربعة من ثلاث طبقات.

وفى الحارة التى بعد جامع طيلون:

جامع الأمير يوسف أوزبك

إنه جامـع جميل عـلى مفرق الـطريق. وله سقـف مزين يقـوم على أربعـة عقود. ومحرابـه مرصع. ومنبـره خشبى مُقَـرنَصٌ. وموضع مؤذنـه جميل. وجدرانـه الأربعة مكسوة بالأحجار الملونة. وله منارة من ثـلاث طبقات. إنه جامع يشرح الصدر. ولكن لا حرم له.

وإذا ما تصديت لذكر ما فى القاهرة من جوامع لاقتضى ذلك كتابة مجلد قائم بذاته أما أسماء الجوامع الأخرى فمنها:

جامع الإمام الحسين، وجامع مسيح باشا فى طريق الإمام الشافعى. وعلى مقربة منه جامع القيسونى، وإلى جواره جامع أم السـلطان حسن. وبالقرب من القبر الطويل جامع السيد بدر الدين. وبالـقرب منه جامع الخاتونية. ويتصل به جامـع الأشرفية. وبالقرب منـه فى حارة الخلالـين جامع شجرة الدر. وهى شجرة الدر التى كست الـكعبة بالحرير الأسود، وجامع الزينيـة بالقرب من قنطرة الموسكى. وهو جامـع صغير ذو منارة. وفى آخر باب الوزير على الطريق العام جامع ايتـموس وزير الظاهر بيبرس. وهو جامع متين

ركين له قبة ومنارة. وجامع الشيخ شمس الدين الحنفى وهو جامع معمور وخانقاه قديمة للعبادة. ويؤمه كثير من المصلين. وفى حرمه شجرة نبق مثمرة. وله منارة.

وعلاوة على هـذه الجوامع آلاف الأوقاف فى مصر المحـروسة، وجميعها مـقيدة فى دفتر قاضى عسكر أفـندى؛ لأنه ينال من كل منها على الأقل دينـاراً ذهبيّا أو خمسة أو عشرة أو خـمسين أو مائة. إنـها أوقاف جِدُّ عظيـمة. والقاضى عـسكر هو ناظـر نظار الأوقاف وهو القائم على التفتيش عليهم وجميع الأوقاف مقيدة فى دفتره.

* * *

الفصل السادس والعشرون

المساجد الكبرى المشهورة فى مصر المحروسة

نزل فى شأنها آية كريمة: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ [الجن: ١٨]، كما أن ثمة آية أخرى نزلت فى شأن المسلمين الذين يعمرون مساجد الله. يقول - عز من قائل -: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]، إلى آخره.

وليعلم أولو الألباب أنَّ مصر على عهد الأيوبيين والتركمان كان بها مائة وسبعة وسبعون ألف محراب. والآن فى قايتباى والقرافات عدة آلاف من المساجد متلاصقة الجدران متجاورة المنارات وهى قديمة مهجورة. أما الآن فهناك ستة وأربعون ألف مسجد معمور. لبعضها منارات وبعضها الآخر خال منها.

ذكر المساجد على حد علمنا:

فى القلعة الداخلية مسجد آشْجى باشى ومسجد قلاوون ومسجد السوق ومسجد جاوش أغا ومسجد الباب ومسجد ناران ومسجد حجرات العَزَب ومسجد صراج خانه ومسجد قره ميدان ومسجد بائع الخفاف ومسجد الكَلْشَنى ومسجد الخراطين ومسجد إبراهيم أغا ومسجد قنطرة الليمون ومسجد حسن الشاذلى ومسجد باب الخَرَق ومسجد الجماميز ومسجد ريحان أفندى ومسجد سيد على ومسجد الشيخ العبّارى ومسجد مِهْمَانْدار بالقرب من جامع قَجمَازية.

وطبقا لما ورد فى كتب الغزالى فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر. وهذا ما فيه الحاجة إلي مجلد خاص بذلك.

* * *

الفصل السابع والعشرون

المدارس فى مدينة القاهرة

منذ فتح مصر فى عهد خلافة عمر - رضى الله عنه - إلى الفتح العثمانى لها حكم مصر من الأمويين والإخشيديين والفاطميين والأكراد والتركمان والشراكسة حتى العثمانيين سبع عشرة دولة. ملوكها ثلاثمائة وأربعون. وقد بنى كل منهم مدرسة. وكان لهؤلاء مئات الوزراء والوكلاء وكبار الأعيان الذين عمروا القاهرة، وكان فى القاهرة ثلاث آلاف وستمائة مدرسة. إلا أن أوقافها تخربت على مر الأيام فتخربت هذه المدارس ولم يبق منها إلا جوامع السلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الصالح والسلطان برقوق والسلطان فرج والسلطان قايتباى والسلطان جيقمق والسلطان إينال والسلطان الأشرف والسلطان سيف الدين والسلطان ايْبك التركمانى، والحاصل أنَّ كل ما فى مدينة القاهرة من جوامع السلاطين وأبناء السلاطين وكل من هذه الجوامع به مدرسة عامرة. وكان لها منائر هى الأخرى من شاهدها ظنها جوامع إلا أنها ليست جوامع. إنها جميعًا مدارس.

وبالقرب من باب الخَرْق «مدرسة اسكندر باشا» وحجراتها على الطراز الروحى. وفى حرمها حوض وشادروان جارٍ. وتلقى فى هذه المدرسة الدروس العامة. ومدرسة الداودية ومدرسة السلطان صِرغِتِمش ولها منارة كمنارة الجامع من ثلاث طبقات، ولها ناظر وحجرات كثيرة. وفى حرمها حوض عظيم ولها محراب. وبالقرب من جامع الشيخ مرزوق مدرسة القرافية وهى مدرسة قديمة علوية. ومدرسة سليمان باشا وتقع فى السراج خانه وجميع حجراتها على الطراز التركى. ولها قبة من حجر. وفى حرمها ميضأة عظيمة. إنها مدرسة معمورة مزينة وقد بناها سليمان باشا الطواشى صاحب الجامع الكائن بالشيخ سارية بالقلعة الداخلية. وناظر هذه المدرسة من رؤساء الانكشارية.

و«المدرسة الباسطية» وهى تتالف من ثلاث مدارس ملكية. وهناك المدرسة القيسونية فى الطريق إلى عمر بن الفارض. إنها مدرسة عظيمة البناء. لها منارة من ثلاث

طبقات ومن شاهدها ظنها جامعًا عظيمًا. وقد كتب على جانب بابها قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، وتحت هذه الآية تاريخ هو: (سنة أربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية).

ومدرسة الحسابية وهى مدرسة معمورة. ومدرسة الملك الكامل فى مدينة القاهرة، وقد بنيت هذه المدرسة فى أول الأمر على أنها دار للحديث. ومدرسة الملك الكامل فى الإمام الشافعى. وأمام باب ضريح الإمام الشافعى كذلك حوض شافعى وسبيل عظيم يستمد ماء النيل عن طريق قنطرة مياه من بركة الحبش عند قرية البساتين. والملك الأفضل هو صاحب هذا الخير العظيم. كما له فى مدينة دمياط خيرات لا تحصى. وبعد أن انتهت دولته خلفه ابنه الملك العادل عام ٦٣٥.

ومدرسة السلطان صلاح الدين التى بناها عام ٥٧٥ بالقرب من الإمام الشافعى. وبنى كذلك القلعة الداخلية للقاهرة عام ٥٧٦.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

دور الحديث التى بناها سلاطين السلف فى القاهرة

فى القاهرة ثمانمائة وستون داراً للحديث. ولا يدرس فيها إلا علوم الحديث وفى نواحى الجامع الأزهر أربعون داراً للحديث. ويتلى صحيح مسلم والبخارى فى جامع المؤيد ويقرأ صحيح البخارى فى دار الحديث الأجهرية.

وإذا ما ذكرنا جميع دور الحديث لاقتضى ذلك كتاباً خاصاً بها.

وخلاصة القول أن القاهرة هى منبع علم الحديث وبها أكثر من خمسين ألف محدث وهم يحفظون أكثر من عشرين ألف حديث بسلاسلها. ولهم شهرة حفاظ القرآن الكريم، ولهم ملفاتهم وجمعوا أربعين ألف حديث. وهم يتلون صحيح مسلم والبخارى. وقد سجلوا الأحاديث الموضوعة وغير الموضوعة. ولا يقتدر أحد من العلماء أن يقول شيئاً بجانبهم.

وعلماء الحديث فى مصر أعظم من سائر العلماء فى أى بلد آخر. وهم يلقون كل احترام وتقدير. ولكن أى حكمة فى أن كل من اشتغل بعلم الحديث أشرق وجهه بالنور. وفى جميع دور الحديث هذه محاريب وحجرات للفقراء ومدرسون. إنهم يجتمعون ثلاث مرات فى الأسبوع ويمضى المحدثون إلى دروس الحديث زرافات زرافات.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

دور القــراء فــى القاهـــرة

فى القاهرة سبعـون وثلاثمائة دار للقُرّاء. وفى معظم الجوامـع كان سلاطين السلف يعينون أئمة وخطـباء ومؤذنين لقراءة أجزاء من القرآن الكريم كما كـانوا يعينون فى كل جامع شيخًـا للقراء. كما أن كبار الأعيـان فى مناطق أخرى أقاموا أضرحـة خاصة بهم إلى جانب دار القراء.

ويوصى جميع مشايخ القرآن تلاميذهم بقراءة هذه الأبيات من كتاب الجزرى:

والأخذ بالتجويد حتم لازم　　　　من لـم يجـود القرآن آثـم

وبعد أن يعرفوا أصول نطق حروف التجويد يختمون قولهم بهذا البيت:

إذا واجـب عليهـم محتم　　　　قبل الشروع أولا أن يعلم

وبعد أن ينتهوا من حـفظ اجلزرى وابن كثير يسجلون جميـع المآخذ طبقًا لما ورد فى كتاب الجزرية والـشاطبية، ثم يكمـلون علمهم بقراءة ابـن كثير ثم القراءات الـسبعة ثم القراءات العشرة وأخيرًا القراءات التقريبية.

وبعض الأئمة فى القاهرة يقرأون القرآن فى المساجد على سبع عشرة رواية حسب ما يقتضيه الناس. وغالبًا ما يقبل الناس القراءة على رواية قالون وأبى عمرو.

أما الترك فيقـبلون رواية حفص. وهذه القراءات منعت فـى خلافة عمر - رضى الله عنه - وبعده قامت ابنته حفصة بجمع القرآن هى وعثمان. ولأن هذه القراءة مأخوذة عن رواية حفصة سميت باسمها. وعلاوة على قراءة حفصة فى بلاد الترك هناك قراءات ابن كثير والقراءات السبع، ولكنها لم تشتهر. إلا أن شيخنا أوليا افندى مضى إلى اسطنبول وفى معيته سيدى الشيخ أحمد وعكف جميـع علماء الترك على علوم الحفظ فشاع علم القراءة. وتوفى الـشيخ أحمد وأصبح أوليـا افندى شيخ القراء، واشتـهرت قراءات ابن كثير والقراءات السبع والقراءات العشر والقراءات التقريبية.

أما فى ســائر البلاد لا يستـطيعون نطـق الحروف كما ينـطقها الترك، إن الـترك قوم راشدون نجباء وهـم يعنون عناية خاصة بمخارج الحروف بمقتضى هذين البيتين:

وهـو أيضـا حلـيـة التلاوة   وزيـنـــة الأداء والـقــراءة
وهو إعطاء الحروف حقها   مـن صفـة لها ومستحقهـا

أما فى مصر فيكثرون من اللحن الجـلى والخفى، وهـم فى الأعـم الأغلب يميلون إلى ترقيق الحروف وتسهيلها. ولكن فيهم من يحفظ القرآن بسرعة وهم كثرة، خصوصًا من فى عصرنـا مثل الشيخ سلامـة والشيخ عبد الحق والـشيخ الغمزاوى والشـيخ حمد الله الســيوطى ولهـم فصاحة الـلسان وبديـع البيـان، وهم من أصحـاب القراءات العـشر والتقريبية، وأمثالـهم سبعمائة من شيوخ القراء، وعندما كنت أتـلو القرآن أقسموا على أنى من قراء دمشق، وجميع حفاظ القرآن فى مصر موضع إجلال وتقدير.

* * *

الفصل الثلاثون

ذكر ما فى مصر أم الدنيا من مكاتب الصبيان لتعليم القراءة

فى القاهرة ألفان وخمسة عشر مكتب للصبيان أوقافها دائمة، بالإضافة إلى ألفا مكتب لتعليم الحساب إلا أن أوقافها معطلة، وقد أقام مائة وستة وخمسون سلطانًا على أسبلة جوامعهم مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولسائر الوزراء والوكلاء والأثرياء وأصحاب الخيرات أربعة آلاف سبيل، وفوق كل سبيل مكتب منقوش ذو كوات وكأنه قصر يوسف. وهذا دأب أهل مصر، فكل مكاتبها مقامة فوق الأسبلة، وكلها مكسوة بقماش زنبورى، وفى هذه المكاتب يتلو جميع الصبيان آيات الذكر الحكيم.

وطبق هذا الإحصاء يوجد فى مصر كلها ستة آلاف ومائة وستة وسبعون مكتبًا، وأغلبها تابعة لجوامع السلاطين.

وفى النصف من شهر رمضان يجتمع مدرسو مكاتب السلطان الغورى والسلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الأشرف والسلطان المؤيد وغيرها من مكاتب السلاطين والوزراء وحولهم الصبيان من الفقراء والمعوزين وينقسمون طائفتين: طائفة تقول: (يا حنّان)، وطائفة أخرى تقول: (يا مَنّان)؟ وقد تشابكت أيديهم وتعالت أصواتهم ومروا فى وسط السوق وقد تبعهم شيوخهم وانطلق الجميع إلى مكتب الناظر. وينال جميع الصبيان من الوقف قماشًا من حرير مصر والخلع والقلانس الحريرية ويلبسونها، ويتقاضون مرتباتهم وهى من أربعين أو خمسين باره مصرية، ثم يمضون فى طريقهم فرحين قائلين: «يا حَنان يا مَنان» وتدوم الحال على ذلك فى القاهرة من منتصف رمضان حتى يوم عرفة، وتموج مكاتب الصبيان بهم ويمضون زرافات زرافات إلى نظارهم.

حقًا إنها لأوقاف عظيمة، وفى وقت الظهر والعصر يصعد المؤذنون الأذان من منائر جميع جوامع السلاطين وبذلك تغمر عظمة الله تعالى كل أرجاء القاهرة.

وفى المكاتب التى على الأسبلة يترنم أربعون أو خمسون صبيًا رخيم الصوت بمنظومة المحمدية، ويدوم الأذان فى القاهرة مدة ساعة بنغمات حجاز وسيكاه وحسينى، ومثل هذا الأذان فى مكاتب الصبيان لا وجود له فى بلاد أخرى.

وبعد الصلاة يجتمع الصبيان جميعًا فى مكان ويتلون على العموم سورة المُلك، ثم يصلون صلوات طويلة، ويدعون بخير لصاحب الثواب. وهذه العادة غير معروفة كذلك فى بلد آخر.

وفى هذه المكاتب يتنافس الصبيان فى تصعيد الآذان بأصوات رخيمة، وأنفاس طويلة، وهذا ما تُشَنَّفُ به الأسماع وتنشرح به الصدور. وإذا ما مر موكب بعض الأعيان أو الوزراء وشربوا من الأسبلة التى تعلوها مكاتب الصبيان رفع الصبيان جميعًا أصواتهم بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فيكرمهم بعض أهل الكرم. وهذا هو النظام المرعى فى مكاتب الصبيان فى مصر.

أما مكاتب صبيان الترك فسبعون، ولكنها ليست مكاتب مقامة فوق الأسبلة، وكأنها القصور، ففى الحارات وبالقرب من تكية سيدى الكُلْشَنى يتولى التدريس معلمون وخطاطون فى دكاكينهم لسبعين أو ثمانين طفلا تركيًا، ويدرسون علم الحساب وعلم الكتاب وعلم القراءة، وليس بينهم أبناء الفلاحين ولا أبناء الحضر، وجميع معلمى هذه المكاتب من الترك الذين يسكنون فى هذه الحارات.

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

ذكر ما فى قاهرة المعز من تكايا الدراويش

فى القاهـرة ثلاثمائة وستون طـريقة صوفية وعلـى رأس هذه الطرق طريقة الـعلماء والصلحاء وأهل الشريـعة وأهل المعرفة وأهل الحقيقة المحمدية، وثـمة طريقة أخرى هى الطريقة «النَقْشَـبَندية» وهى طريقة أبى بكر الصديق رضـى الله عنه أول رفيق فى الغار، ويـسمونهـا طريقة «خُوجَه كان» وقد بلـغت هذه الطريقة بلخ وبـخارى وخراسان وبلاد الترك وكردستان، وقد انشعبت عن هذه الطريقة اثنتا عشر طريقة وكلها تنتهى بنقشبند، والطريـقة الثانية هـى طريقة الإمام علـىّ كرم الله وجهه، وأصبحـت الطريقة الخُلـوتية وانشعبـت هذه الطريقة إلى ثـلاثمائة طريقة مـثل الطريقة الجُلـوتية، وكلها تنـتهى إلى الطريقة الخلوتية.

ثم طريقة الإمام الأعظم والتى أصبحت سراجًا مـنيرًا إلى جميع الطرق، ثم الطريقة الشافعية فالمـالكية فالحنبلية، فالقادريـة والسعدية والبدوية والرفاعية والـراعية والدسوقية والبرهـانية والواحديـة واليسّوية والـكميليـة والعباسـية والأدهمية والـبكرية والسـاداتية والويسـية والعلـوية والحيدريـة والمولوية والعـشاقية والـفنائية والـبكتاشـية والقلـندرية والصموديـة والبَيرامية والحـمزاوية والإدريسية والعُـمَرُ روشَنِيَّة والإبراهـيمية والكلـشنية والـسنانية والزينية والنعمة اللهية والنوربَخْشية والمطوعية والشناوية والفارضية.

وفضلاً عن هذه الطرق الـثلاثمائة والستين ثمة عدة آلاف من شـيوخ الطرق. ولكن ليس يـخفى على أولى الأبـصار الذين ينظـرون فى الكتب أن سـلسلة المشايـخ الكرام انشعبت طرقهم حسب مشاربهم إلى عـدة طرق أخرى وكل منها اتخذت لها موطنًا فى بقعة من البقاع.

تكايا سيد أحمد البدوى

مائتا تكية، وطبق ما فى دفتر الخلفاء فى ولاية مصر أن بها ألفين وستين تكية بدوية، وفى كل عام يأتـى خلفاؤه إلى مولده الكـبير لتجديد البـيعة، وأهل مصر جميـعًا لهم عقيدة راسخة فى الـسيد البدوى، فإذا تعقد أمر من الأمور قالـوا: «يا لله يا سيد أحمد

البدوى» وفى المحكمة إذا وجب الحل كان الحلف برأس البدوى أو رأس أبى اليتامى، وللبدوى فى مصر تكايا وأوقاف عظيمة، وله ثلاثمائة ألف درويش مكحل العين أحمر الخِرْقَة، والتكية الرئيسية تقع فى شمال القاهرة على بعد مرحلتين فى إقليم الغربية بوسط طنطا.

تكية الشيخ مرزوق كفافى

ولكن أعظم تكية للبدوى فى القاهرة تقع بالقرب من قصر قاضى العسكر افندى على الطريق العام وهى تكة الشيخ مرزوق كفافى خليفة البدوى.

وكان كشافى هذا مع الشيخ الجارحى حين قال للسلطان سليم: «تعال واجلس المصر»، وتكيته داخل الجامع وبها خمس وأربعون حجرة للدراويش توزع عليهم الصدقات والأطعمة، وشيخهم أحمد الخليفة.

تكية الشيخ الرفاعى

إنها تكية كبيرة فى نهاية جامع السلطان حسن، وهى للطريقة البرهانية وفيها مائة ألف درويش، وأتباع هذه الطريقة فى مصر كثير، وفى أيام موكب المحمل الشريف يزينون الطرق بخمسمائة علم أبيض، ونشأتهم من الشيخ إبراهيم الدسوقى البرهانى، وكان معاصراً للسيد أحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى ابن أخى السيد البدوى، وكثير من أهل مصر لهم فيه معتقد راسخ هو الآخر؛ فهم لو حلفوا فيما بينهم حلفوا برأس المولى النحاس أى إبراهيم الدسوقى الذى يعيد العلم النحاس، وإذا ما كانت ستظهر علامة عظيمة عاد العلم النحاس فوق قبر الدسوقى قبلها بعدة أيام ويبدأ فى الحركة فيعلمون أن علامة تظهر.

ولإبراهيم الدسوقى البرهانى مائتا ألف درويش، وله تكية بالقرب من رشيد على شاطئ النيل وستُذكر فى موضعها بإذن الله.

تكية الإمام الشافعى

تكية عظيمة للغاية، ويجتمع فيها كل ليلة سبت خمسة أو ستة آلاف من الدراويش ويسهرون حتى مطلع الفجر ويختمون القرآن مائتين أو ثلاثمائة مرة، وتوزع الأطعمة

علـى دراويش هذه التـكية من الـوقف، وفى مولـد الشافعـى يأتى عشـرة آلاف رجل بأطعمتهم لإحياء هذا المولد، ويقال إن روح المصطفى ﷺ تحضر فى تلك الليلة.

تكية الإمام أبى الليث

وهى تكية عـظيمة كذلك، وهى فى حى آخر، ويـسكنها جميع دراويشـها ويعرفون بالليثيين، وتوزع عليهم الأطعمة من أوقافها.

تكية أبى السعود الجارحى

فى محلة أخرى، وهى موضع للنظر فى جنوب القاهرة خارج المدينة، وعاش كذلك فى عهد الـسلطان سليم وهو الـذى قال له: «تعال واملك مصـر». وله عدة آلاف من الحكرامـات الظاهرة والبـاهرة، ودراويش هذه التكـية يعرفون بـالـسعوديين، إنـهم أهل استقامة وورع وتكيتهم تكية عظيمة.

تكية السادات

وقف عليـه نصف أوقاف القاهـرة، وعندما جاء من المـغرب لم يفض النـيل ثلاثة أعوام، وعم القحط والغلاء، وتقدم أهل مصر إليـه أن يأمر النيل بالفيضان، فأمره وفى التـو فاض. وقال المصـريون عن بـكرة أبيهـم: «يالله يا سادات»، إنـها تكـية عظيـمة ودراويشها كثرة.

تكية عمر بن الفارض

تقع فى سفح جبل الجـوشى، وفيها يجتمع خمـسة أو ستة آلاف كـل يوم جمعة بعد الصلاة ويتـلون سورة الكهف، وبـعد قراءة الأوراد والأذكار يوحدون الله ويـبدأون فى تلاوة العشر الشريـف، ومن يتلونه ذوو صوت رخيم، وهم من حفظـة القرآن مما يشيع البهجة فـى نفوس الحضور، ثم يقومون بتـلاوة «تائية الفارض» بصوت حزيـن بنغمات الحجاز والعشاف فيغيب الجميع فى نشوة الجذب فاقدين الوعى، ففى هذا اليوم فى هذا الجمع الحاشد عشاق صادقون وبدلاء وأمناء ونجبـاء ونقباء ومجاذبون وملاميون، وفيهم عشاق لهم قـدر ومنزلة تأتى لهم رؤية الـرسول ﷺ مرارًا فى تلك الغيـبوبة، ويقال إن روح الرسول ﷺ تحضـر فى كل يوم جمعـة ولذلك تغص التـكية بالناس حـتى إذا ما

جلس أحد على كتف من يجاوره لم يغضب منه، فهم جميعًا فى نشوة السرور. يا لها من حكمة عجيبة، وليس فى هذه التكية أميرًا ولا شحاذًا، إنهم جميعًا ركوع ولهذه التكية ستمائة درويش، وطعامهم حساء العدس، وتبسط الموائد لجميع الحضور.

تكية الشيخ شاهين

حقًا إنها تكية تشبه صخرة الشاهين، فهى تقع فوق صخرة بحيث تبدو مدينة القاهرة تحت القدم، ولهذه التكية منارة وفيها يجتمع كذلك المتصوفة لعقد حلقات الذكر، ولهذه التكية مائتا درويش.

تكية الشيخ الجوشى

إنها تكية عظيمة على جبل المقطم مطلة على القلعة الداخلية لمصر، وتبدو القاهرة تحتها وهى تكية طيبة النسيم بها جامع وأربعون أو خمسون درويشًا، والماء العذب يأتيها من جنوب القاهرة على ظهور الجمال بأمر من كتخدا الباشا.

وجنوب هذه التكية فى القرافة:

تكية الشيخ عقبة بن عامر الجُهَنِى

من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وفى عام ١٠٦٣ جدد خاصكى محمد باشا جامعه وتكيته، وأصلح منارته فأصبحت هذه التكية وكأنها القلعة يعجز عنها الوصف، ولهذه التكية سبعون أو ثمانون درويشًا.

تكية البساتين

إنها تكية إرم ذات العماد، لها حوض وشادروان، تقع فى بلدة بالقرب من النيل، وهى تحت إدارة نقيب الأشراف، ودراويشها شرفاء، وبها عدة مقاصير ومطابخ.

تكية رماة السهام

تكية متصلة بأثر النبى، يأتى إليها جميع حاملى القسى والرماة بالسهام لينعموا بنسيمها الطيب، ولها مطابخ وبيوت وأسواق، ولكل بطل أهداف من الحجارة ويتصل بها أثر النبى ﷺ. وكل هذه الخيرات لإبراهيم باشا الدفتردار، وسوف نتحدث عن هذا الأثر عند حديثنا عن المتنزهات بمشيئة الله تعالى.

تكية السيدة نفيسة

تكية عظيمة على أطراف المدينة، ودراويشها يزيدون على مائتين، ولها ناظر وقائم عليها، وأطعمتها مبذولة للفادى والرائح.

تكية الشيخ نور الله البدوى

تقع بالقرب من القبر الطويل، لها مائتا درويش.

تكية سيدى زين العابدين

توجد بالقرب من قناطر الغورى، إنها تكية كالقلعة، بها أربعون أو خمسون درويشًا، ولكن ليس لها أطعمة توزعها، وكان لها من قبل أوقاف عظيمة.

تكية الشيخ (   )[1]

لها جامع ذو منارة على الطراز القديم، وفى ساحتها يبيع فقراء المسلمين الغلال، وتقع هذه التكية داخل القاهرة بالقرب من حارة السقائين.

تكية الشيخ الخلوتى

توجد فى القاهرة بالقرب من قنسطرة السنقور على ضفة الخليج، إنها تكية عظيمة وفيها عدة صوامع للدراويش، وفيها محراب من الحجر الصماقى الأخضر يعجز اللسان عن وصفه، وقد لف سيدى عزيز عبد الرحمن افندى عِمَامَةَ علىٌّ السَّوداء حول رأسه، ووحد الله وسبح له مع عدة آلاف من الدراويش فى هذا المحراب الأخضر، وتؤدى صلاة الجمعة فى هذه التكية، ولهذه التكية جامع وقد اشتهرت المدينة بأنها مدينة جامع الخلوتى إنه جامع أرضى وفى حرمه حديقة تتصل بها بئر طَيِّبٌ ماؤها، ومن مطبخها توزع الأطعمة على الدراويش.

تكية الشيخ الشعراوى

وهو اليوم حى يرزق، ويعكف چلبى افندى مع عدة مئات من الدراويش على إقامة حلقات الذكر والتوحيد فى هذه التكية ليل نهار، ويوزع الطعام من مطبخها على الدراويش.

---

(١) بياض فى الأصل.

تكية شمس الدين الحنفى

تكية عظيمة بالقرب من الخليج، وبها جامع ودراويشها مائة وخمسون يوحدون الله ويسبحون له، وبها عدة حجرات. ويصيب من طعامها الغادى والرائح.

تكية الشيخونية

تقع فى سوق الصلبية، وهو وزير السلطان حسن، وهى تكية للشيخ عبد القادر الجيلانى، ولها سقف منقوش مقام على ستة عشر عمودًا، يتوسط حرمها حوض عظيم تعلوه قبة بيضاء على ثمانية أعمدة، والحرم من أوله إلى آخره مرصوف بالرخام الأبيض، وفى الركن الأيمن لهذه التكية باب يفضى إلى ساحة مسقوفة الوسط وفى أطرافها حجرات للقادرية، وفى هذه الساحة ينعم الدراويش بإلقاء السمع إلى التوحيد. وعددهم يربو على مائتين، وهم أصحاب الفقر والمجاهدات، والنور يبدو فى وجوههم. وهذه التكية مجمع لدراويش وعلماء القادرية، ولها أوقاف عظيمة، وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح وناظرها إمام ولاة مصر، ويتقاضى إمام الخلوتية تسعة آلاف باره فى السنة، وعلى باب هذه التكية المطل على الطريق الرئيسى منارة عالية من ثلاث طبقات، وفى مواجهة هذه التكية جامع الشيخونية وقد بنيت التكية والجامع على طراز واحد، ونوافذها مطلة على الطريق الرئيسى، وشيخ هذه التكية أمير چلبى، إنه سيد كريم حميد السجايا، وفى القاهرة أربع تكايا للقادرية فى أربع جهات متفرقة إلا أنها جميعًا تابعة لهذه التكية.

تكية الشيخ العبارى

توجد تكيته بالقرب من تكية الشيخونية فى سوق الصلبية، وهو الآن على قيد الحياة وهو صاحب كرامات، إنه لا يغادر داره قط ويعتكف فيها صائمًا قائمًا، وفطوره على رغيف من خبز الشعير يزن عشرين درهمًا وكوب من اللبن وغَدَاؤه كذلك، إنه عالم عامل فاضل مستجاب الدعوة تقى ورع صاحب رياضات ومجاهدات.

• مناقبــــه :

كنت فى حضرة الشـيخ العبارى قبل أن أذهب إلى نُزُل أحمد باشـا الدفتردار بثلاثة أيام، وأثناء الكلام سألنى الشيخ : ماذا يعمل الباشا؟

فقلت : إنه يقوم على خدمة مكة والمدينة ويدعو لك بالخير.

فقال الشيخ مكاشفًا : ربما مر بعد ثلاثة أيام بزاويتنا ويسأل عنها.

فأخذ حضار المجلـس بإشارات الشيخ، وقال بعض الدراويـش : إن الباشا لا يحب الدراويش، وبسطوا ألسنتهم فى مذمته.

فقال الشيخ : كل أمر من الله، وبأمر الله لا بقاء لـلجراد فى مصر ولا بقاء للمسىء بين الناس ولن يعمر كذلك من يعيث فى الأرض سادًا ليل نهار.

وهذا من كلام الشـيخ فيه ما فيه من إشـارات واقتضت حكمة الله أن يجـتمع الجند بعد ثـلاثة أيام فى ميـدان الروملى مدججـين بالسـلاح وأعلـنوا ثورتهم، وسـاد الهرج والمرج. وأمام بـاب العزب أسقطـوا من يسمى عـبد الفتـاح كاتب مخازن يـوسف عن جواده ومزقوه إربًا إربًا ونادوا بإسقاط الباشا وعزلوه فى النهاية بلا سبب.

ومر الباشـا مع أتباعه من سوق الصـليبة ووقف خدام الشـيخ العبارى لتحيـة الباشا وسأل الباشا الشيخ عن حاله ثم ذهب إلى قصر حاجى باشا فى موكب حيث نزل ضيفًا وتذكرت ما تنبأ به الـشيخ للباشا من أنه سوف يمر بعد ثلاثـة أيام فى موكب وقد تحقق ذلك، إن هذا من الكرامات.

ولـم يدخل يد الشيخ ولا يد آله قط درهم حرام ولا حلال، إلا أنه كان يقبل الهدايا من أرز وعسل وسـمن وقمح وما أشبه، وثيابه من الهدايا كذلك. إنه سلطان المتصوفة، وجملة الدراويش فى تكيته يقنعون بلقمة الكفاف والسـلام.

تكية خوجكان

تقع هذه التـكية فى نهاية الجهة الشـرقية من ميدان الروملى، إنهـا معدن الدراويش ويسكنها جميـع دراويش الأوزبك وبخارى وبلخ. ولأن أوقافها قليلة فإنـها تعتمد على النذور. وعندما غادر السلطان سليم اسطنبـول متجهًا إلى مصر حمل درويش نقشبندى

عموداً ثقيلاً من الحجر السماقى يزن أربعمائة أوقية فوق كتفه ومضى به إلى مصر مع السلطان سليم وبعد الفتح أقام له السلطان سليم هذه التكية وهو الآن مدفون إلى جوارها. والعمود المذكور معلق بالسلاسل على باب التكية ويراه الغادى والرائح وهو من حجر سماقى كأنه حمل جمل، حقًا إنها لكرامة.

تكية الأوزبك

تقع على مقربة من تكية خوجكان فى مستشفى السلطان المؤيد، إنها تكية صغيرة لا أوقاف لها ومن فيها يعيشون على لقمة الكفاف وهم جماعة من الدراويش الأوزبك والهنود والبلخيين والبنكاليين والسليمانيين والمغول، ولهم زاوية ولأن شيخهم صاحب كرامات يلتف حوله جميع الدراويش كما تلتف الفراشة حول الشمعة.

التكية النظامية

فى عام ٧٣٣ أصبح سيدى الشيخ نظام الدين قطبًا صوفيًا عظيمًا للطريقة الخلوتية وبما أنه أقام تكيته من صلب ماله لكى تصبح مقرًا للدراويش أذن له السلطان محمد بن قلاوون فى إقامة تكية خارج باب الوزير ليس لها فى مصر من نظير وبها جامع لطيف ونحو مائتى حجرة للدراويش وحجرات للمتزوجين منهم وحجرات أخرى لغير المتزوجين. وهم يعقدون حلقات الذكر فى ساحة علوية مرصوفة بالرخام الأبيض، ومطبخ هذه التكية ينال منه الغادى والرائح، وكنت ناظرًا لهذه التكية مدة عام على عهد سيدى جان بولاد زاده حسين باشا. وينفق على الجامع وتكيته كيس من فائض الوقف، والطعام فيها يقدم فى وقتين، ودخلها فى العام سبعة أكياس ونفقتها أربعة أكياس ولها أوقاف عظيمة.

حتى إن المرحوم عمر افندى المصرى الذى توفى فى اسطنبول سكن هذه التكية أربعين عامًا، وكان متضلعًا من شتى العلوم والفنون، إنها تكية روحانية وقد دفن فيها سيدى الشيخ نظام الدين الأصفهانى.

تكية الواحدى

تقع فى نهاية جامع السلطان حسن، يسكنها جميع الهنود ولها ساحات صيفية وأخرى شتوية وعدة حجرات، لم تكن لها أوقاف، وقد رصد إبراهيم چلبى القائم على

خزانة جان بولاد زاده حسين باشا مبلغين، وأقام على سطحها عشرة دكاكين، وفيها من الهنود من لم يتكلموا منذ أربعين سنة كأنهم صم بكم عاكفون على العبادة ليل نهار وبعضهم يظل واقفًا ثلاثة أشهر متعبدًا.

تكية الإمام الحسين

أقامها (   )[1] العباسى عام (   )[2]، إنها جامع كبير والأعمدة التى بهذا الجامع فى حجم الكعبة ولذلك يحضرون كسوة الكعبة إلى هذا الجامع بعد أن يعاينها الباشا وتلف حول هذه الأعمدة وفى كل عام تعلق عليها كسوة الكعبة، ولهذه التكية دراويش وخدام للأضرحة ونفقاتهم تكفيهم وحدهم، ولأنها تكية كبيرة تأتيها النذور وصنوف الأطعمة والأشربة من كل جهة.

تكية الشيخ إبراهيم الكُلْشَنِى

تقع بالقرب من الباب الحديد وقد بناها سيدى الشيخ الكُلْشَنِى من صلب ماله فى عام ٩٤٠ على عهد السلطان سليمان، إنها تكية عظيمة على الطريق المحمدى العام، ويصعد إليها من باب حرمها بسلم حجرى من عشرين درجة، وبداخلها ثلاثة أبواب منفصلة، وعلى يمنة الباب الكبير منها والمطل على الطريق العام كتب قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

وبين هذا الباب والباب الأوسط كتب أبيات من الشعر على لوح بخط جلى وهى:

تكية الكُلْشَنِى المفعمة بالذوق والصفا
تقام فيها شعائر المصطفى
أيها الزاهد عن تكية الكُلْشنى لا تبتعد
إنما يهدى الخلق كل من فيها زَهَد

وعند مدخل هذا الباب يوجد سبيل الدراويش، والقائم على هذا السبيل يبخره بالعود والعنبر ويوزع منه الماء العذب، وبعد تجاوزه يصعد إلى الحرم الشريف بسلم ذى

(١، ٢) بياض فى الأصل.

سبع درجات، وهى ساحة بيضاء مرصوفة بالرخام الأبيض المصقول، وفى هذه الساحة محراب جميل كتب عليه بخط جلى على الرخام قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم حجرات الدراويش وتحت كل حجرة فسقية، وعندما يموت صاحب الحجرة يدفن تحت أرض الفسقية وتباع مخلفاته إن وجدت ويوقف ماله على المصاحف ويتلو كل الدراويش القرآن على روحه وينطق الداعى باسم المرحوم، ولا وجود لتكية فيها من الخيرات ما فى تلك التكية، كما لا وجود لتكية مثلها تحت كل حجرة من حجراتها قبر. إنها تكية عجيبة الطراز والآن بها أكثر من ثلاثمائة من دراويش الكُلْشَنِيَّة وقد صفت أرواحهم وكل منهم فى زاوية يتعبد وهم عاكفون على الرياضات والمجاهدات.

وفى كل ليلة جمعة تبسط السجاجيد النفيسة فى هذا الحرم وتؤدى صلاة العشاء وبعد تلاوة سورة الملك يحضر جميع المصتوفة، وبعد إتمام الأذكار والأوراد يشرعون فى التوحيد السلطانى وتتماسك أيديهم وأذرعهم جميعًا ويدورون ويؤدون السماع ويوحدون الله فتصبح التكية الكُلْشَنِيَّة كأنها حديقة إرم ذات العماد ويتغنون بأصوات كأصوات العندليب، وبنغمات العشاف يروح هؤلاء المتصوفة فى نشوة الجذب ويتفننون فى النغمات، ومنهم من يحرقون البخور وينثرون ماء الورد على وجوه الزوار ويقدمون لهم الشراب، وأثناء تلاوة التوحيد سبع أو ثمانى ساعات يترنم الذاكرون الشاكرون بصوت رخيم بألحان من مقامين وأربع وعشرين شعبة، ويقرأون الأدوار والتقاسيم بصوت حزين وبذلك يدخل الدراويش فيما يعرف بحال السكر، وبعد أن يكمل أحد الذاكرين الترنم يقرأ بصوت داودى بيتين أو خمسة لفضولى أو روحى أو عَرفى أو الخَيام، وذلك للترويح عن الدراويش ويغيب الدراويش جميعًا عن وعيهم ويترنمون بالألحان ويداومون على التوحيد بهذه الكيفية إلى ما شاء الله أن يداوموا.

وجميع المترددين على هذه التكية من علماء وأعيان الترك ولا يمكن أن يدخل هذه التكية أحد من أبناء العرب.

ويتوسط حرم هذه التكية قبر ذو قبة عالية هو مثوى لسيدى الشيخ إبراهيم الكُلْشَنى وأولاده وأحفاده.

وفى الجانب الشمالى لهذه التكية باب متقن الصنع مزخرف بالكتابات، ومكسو بالفضة، وعلى عتبته العالية كتب قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣]، وفوق هذه الكتابة كتابة أخرى بخط جلى لم تتأثر بشدة الحر ولا الأمطار وخطها بديع وتاريخها هو: مات قطب الزمان إبراهيم الكُلْشَنى سنة ٩٤٠.

وعندما يدخل الزوار من هذا الباب تنعقد ألسنتهم ويقعون فى الحيرة، وفى هذا القبر ما فيه من زينات بديعة وثريات نَفيسَة، مَن أمعن النظر فيها أخذته الدهشة، فهو مزين بأكثر من ألف قنديل فضى، وقناديل بللورية، وثريات، وحول النعش الشريف شمعدانات ومباخر وأوانٍ لماء الورد.

ولقد أرسل السلطان تقى الدين سلطان خراسان مصباحين وشمعدانين ومَن شاهدهم ظنهم من ذهب، إلا أنها من النحاس الأصفر ولا يستطيع مهرة الصناع فى يومنا هذا أن يصنعوا مثلها وكل منها بقدر قامة الإنسان وقضاء كل ليلة بشمع الكافور.

وهذه التكية مفروشة ببسط مخيطة بخيوط الذهب وسيدى الكُلْشَنى مدفون تحت تلك القبة، وفى جوانبها الأربعة آيات الذكر الحكيم بخط ياقوت المستعصمى والقره حصارى ومحمد الدرويش وعبد الله القرمى، وهؤلاء من خدام السلطان سليم وابنه سليمان، وكل منهم يعدل خزانة مصرية. وكم من مئات الكتب والمجلدات وكتب التصوف والدواوين التى نظمها الشيخ وكتبها بخطه الشريف موجودة كذلك. وهو مدفون بعمامته الخضراء عند جدار قبلة القبة، ولقبره غاية المهابة.

وإلى جوار الشيخ إبراهيم الكُلْشَنى دفن كذلك أبناؤه وهم الشيخ إبراهيم افندى ابن الشيخ على صفوتى بن أحمد خيالى بن حسن خيالى ابن سيدى إبراهيم الكُلْشَنى قدس سره العزيز، وإلى جواره الشيخ أحمد الخيالى الذى توفى عام ٩٧٧، وإلى جواره الشيخ على الصفوتى ابن الشيخ أحمد الخيالى حفيد الكُلْشَنى الذى توفى عام ١٠٠٥ وإلى جانبه كذلك الشيخ حسن بن سيد الخيالى المتوفى عام ١٠١٢ وخلفه صهره الشيخ محمد افندى المتوفى عام ١٠١٤ ولا وجود لنعش داخل هذا الضريح إلا أنه مدفون فيه، وأسفل هذا الضريح ذى القبة (سماع خانه) ذات حرم تتوسطه فوارة تحت الأرض دفن فيها جميع مشايخ وأعيان الكُلْشَنية والرُّوشَنِيّة.

وإبراهيم الكُلْشَنى هذا قدم بلخ وخراسان وبايع سيد عمر الرُّوشَنى، كما أن عمر كذلك نال الإذن من سيد يحيى الشّرْوانى وتنتهى سلسلة نسبه إلى على الكرار.

إنها تكية وطريقة عظيمة ولا وجود لتكية لدى الترك ولا العرب والعجم لها مثل أوقافها، وتوزع منها الصدقات وأشهى الأطعمة على المترددين عليها، ولا وجود فى مصر لتكية لها ما لهذه التكية من روحانية، ودراويش هذه التكية عارفون بالله متضلعون من شتى العلوم، وكل منهم عالم نظير عبد الله الفارابى وغلام الناصرى وغلام الشادى وفيثاغورث التوحيدى.

وإذا ما تحدثنا عن هذه التكية على قدر وقوفنا على أسرارها لطال بنا الحديث.

تكية القصر العينى

وهى تكية حاجى بكتاش ولى قدس سره العزيز، وقصر العينى مكان نزه فى الجهة الغربية من القاهرة على ساحل النيل فى حديقة كأنها حديقة إرم، وكان هذا القصر موضع عناية كثير من سلاطين السلف، أما أول من بناه فهو السلطان الطاهر، وأضاف إليه كل فاعل خير قاعات ومقاصير وحجرات عديدة وأحواض وشادروانات، ويأتى إليه جميع أعيان مصر ويقيمون فى حجراته للمتعة والاستجمام.

ويتوسط هذه الحديقة التى تشبه حديقة إرم قبة عظيمة مكسوة بالجص الأبيض، وهى قبة تكية البكتاشية، وهى تتسع لألف إنسان، ولها ساحة عظيمة مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام الأبيض، والجوانب الأربعة لهذه التكية مفروشة بفراء الأضاحى.

وفى أسفل المحراب الشيخ محمد دده، وإلى جواره الخليفة الرئيس، ثم الإمام، فالمؤذن، والداعى، وصاحب الشريعة، وصاحب الطريقة، وصاحب العصا، وصاحب العلم، والمضيف، ورئيس الطهاة ورئيس الخبازين. وجملة القول أن جميع الدراويش جالسون على الفراء، وكل منهم فى عمله منهمك فيه، ومنهم من يدرس ومنهم من يتلو القرآن، ومنهم من يتلقى أصول وتعاليم التصوف.

إنهم طائفة من أهل السنة والجماعة يقومون على خدمة المترددين عليهم، ويرحبون بهم، وهم على أهبة الاستعداد لأن يكونوا فداء لضيوفهم. وفى الجوانب الأربعة لهذه القبة نوافذ قضبانها من النحاس تطل على حديقة كأنها إرم ذات العماد. وقد دفن فيها بعض شيوخ البكتاشية.

وأطراف المحراب مزينة بالأعلام والشمعدانات المذهبة والقناديل والمصابيح المختلفة والنفيسَة. وعندما قَدِم سليم مصر سائحًا نزل ضيفًا عدة ليالٍ على هذه التكية، وبعد الفتح وَفَّى بوعده وجاء إلى هذا القصر وفى معيته خدامه، وحل ضيفًا فيها سبع ليال وسماه القصر العينى:

سمى القصر العينى كما قال سليم

وإن كان هذا التشبيه مجازًا فهو الحقيقة

حقًا إنه مكان نزهة للسلاطين. وقد أقيمت مقصورة فى الركن الأيمن الذى نام فيه السلطان سليم، ولا يجلس أحد فى تلك المقصورة، وفيها تحفظ دفاتر وقف التكية.

وفى المطبخ الحيدرى لهذه التكية أناس تركوا التجريد، ونفضوا يديهم من كل شىء سوى الله وملكوا خزائن السر فى ركن العزلة. فكل منهم مأمور بإنجاز عمل، والخبازون فى فرنهم وقد صفت أرواحهم وخبزوا الخبز الأبيض ليقدمونه للدراويش. وفى المطبخ الخليلى تبسط الموائد فى الصباح والمساء للغادين والرائحين والمتصوفة، وفى بعض الأحايين يتوافد على هذه التكية بعض الأعيان ويبسطون الرجاء إلى الدده افندى بأن يامر دراويشه بإنشاد بعض أشعارهم، فينظر الدده افندى إلى سر چشمه دده وشيدا دده وطاهر دده وعاشق دده وقربان دده وطلبكار دده ورجعى دده وغواص دده وجوان مست دده ومدهوش دده ويقول لهم: إن ضيوفكم يطلبون سماع أشعاركم فتكرموا بإنشاد الأشعار فيردون عليه: سمعًا وطاعة. ويمضون إلى ساحة المنافسة الشريفة مثنى مثنى وقد حمل كل منهم قضيبًا فى يده وصفحات ربطها على خصره ودخل ميدان الشعر وعند البدء يخرج شيخ من أحد الأركان ويصلى على جمال وكمال المصطفى ﷺ ويقول الشعراء كذلك:

أيها الحبيب إن هذا العالم ليس له من أساس

إن الشعر من ذؤابة النبى صلوات الله عليه

وينشد المتبارون فنون الشعر من المثنى والمثلث والمربع والمخمس والمسدس والمسبع والمثمن والمعشر، والقصائد، والترجيع بند، والمراثى، والرباعيات ورد العجز على الصدر، والغزليات، وما قيل فى بحر الطويل، وغير ذلك من مشكلات، وكأن كل واحد منهم حسان وامرؤ القيس.

ثم تظهر مجموعة من صغار الدراويش الذين اتسموا بالوسامة والبدانة وقد حفيت أرجلهم وانكشفت رءوسهم يمسكون بما لديهم من الطبر والقضبان الحديدية ويكشفون عن رقابهم وأذرعهم البيض وهى كشمع العسل ويدخلون حومة المحبة ويذكرون ما قاله المتصوفة من اللطائف والأمثال الشيقة المستطرفة، ويمزحون وكل منهم له مقدرته، ويدخلون السرور على نفوس الحضور، كما يذكرون النوادر الخاصة بمن يتعاطون المخدرات، ويغيب الحضور عن وعيهم من الضحك كمن تعاطوا المخدرات.

وكل من يزور هذه التكية من العلماء يقرض الشعر عنها. حتى إنه فى عام ١٠٨١ عندما أقام إبراهيم باشا والى مصر قصرًا شامخًا فى أحد أركان القصر العينى يطل على ميدان الجريد نظمت هذه الأبيات وهى تاريخ القصر العينى:

تعالى الله حبذا هذا من قصر عظيم

أقيم عرشا على شاطئ النيل

إنه خاص بطريقة حاجى بكتاش وفى تكيته

وكأنما هو جنة المأوى

لقد طوفت فى الأقاليم السبعة ولم أجد له نظيرا

وكأنما صمم بنائه أستاذ الأزل

وبقى هذا القصر اسمًا لقصر إرم وقصر يوسف

ولقد أقام قصر الخورنق هذا إبراهيم باشا

أنا سائح العالـم طوفت فى الدنيا من أقصاهـا إلى أقصاها
إنْ لـم يـكن فـى الأرض مثـله فـهـو قـصـر الـسـعـادة
وبمـا يـــوزع فـيـــه مـن طــعـام هـــو أبُ أم الـدنـيـا
لــقــد رأي الـــنـــجـــم دارتـــه لاســـكـــنـــدر دارا
الـلـهم احـفـظ مـقـام الكُـلْـشَـنـى هـذا من كـل سـوء
ولـيـسـلـــم بـدعـائـى لـه وخـتـمـــى لآيـات الـقـرآن
ولـيـكـــن لـهـذا الـقـصـــر الـبـقـاء كـبـقـاء الأرض
سـنــــة ١٠٨٢

وأصبح هذا القصـر قصرًا سلطانيًا يضفـى الرواء والبهاء على القصر الـعينى، وثمة تكية بكتاشية أخرى فى وسط حجرات العزب وهى:

تكية حسن بابا البكتاشية

وهو حامل لواء الرسول ﷺ إلا أنه بنى قبة صغيرة أصبحت تكية للبكتاشية وفيها ما يقرب من عشرين درويشًا من أهل الحال، ولهم طعام يصرف لهم من حجرات العزب.

تكية قيغيسر بابا البكتاشية

إنها تكية صـغيرة مظلمة بالقرب مـن باب قاضى العسكر فى حارة بـالقرب من بين القصرين، إنـها ليست واسعة ولا أوقاف لها، ولـها عشرون درويشًا مسنًا يـعيشون فى زهد ولها ساحـة صغيرة وتربة منورة. وفى كـل يوم جمعة بعد أداء الصـلاة يعين لكل قادم صحن من الأرز المخلوط بالماست وقد اشتهـرت التكية بذلك. لقد وهبهم الله هذا من خزائن الغيب.

تكية عبد الله الأنصارى

توجد فى القصر المواجه للقلعة الداخلية، وهو من الصحابة الكرام إلا أن هذه التكية خاصة ببعض دراويش البكتاشية ولها أوقاف كثيرة.

وبالقرب من قصر الكتخدا أسفل زاوية الملك الطاهر تكية هى:

تكية سيدى عبد القادر الجيلانى

وقد دفن فيها أخ لأبى أيوب الأنصارى وسيدى الشيخ سارية، إنها تكية صغيرة يسكنها عشرة من الدراويش. والباشا يقدم إليهم الخبز واللحم. وفى كل ليلة جمعة يأتى إليها دراويش الشيخونية وفيها يقيمون حلقات الذكر والتوحيد، ولقرب هذه التكية من مسكنى كنت أذهب إليها ليلة الجمعة وهناك أنعم بالذكر.

تكية قره قيا باشا فى قره ميدان

إنها تكية ضيقة للشيخ عبد القادر وفيها ما لا يقل عن ستة أو ثمانية دراويش وطعامهم يأتيهم من مبرة الشيخونية.

تكية مصلى سبيل المؤمنين فى ميدان الروملى

بناها السلطان الغورى عام تسعمائة واثنى عشر، ويصعد إليها بسلم من اثنتى عشرة درجة، وعلى عقود القبة كتب على الرخام الأبيض تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام أبى النصر عبد الله قانصوه الغورى شهر جمادى الأولى فى سنة اثنا عشرة وتسعمائة من الهجرة النبوية).

وكل من يقتل شرعًا فى ميدان الروملى ومن يتوفى من الأعيان فى القاهرة تقام عليهم فى هذه التكية ويشترك فيها آلاف المصلين، إن هذه التكية مصلى للمسلمين، وفى جوانبها حجرات وسبيل، ولكن لا مطبخ لها، وقبة هذه التكية تقوم على أربعة أعمدة، ويجتمع فيها دراويش الطريقة المطاوعية فى كل يوم جمعة، وبعد صلاة الجمعة يعقدون مجالس التوحيد، ولا تستطيع واحدة من الطرق الثلاثمائة والستين أن تؤدى التوحيد مثلهم فهم حينما يتنفسون يسمع صدى كلمة اللهم.

ولكن حينما يدخلون فى حالالوجد يحمل بعضهم على بعض كمن امتطوا الخيل وحملوا السيف فى يدهم أو من حملوا القسى ورموا بالسهام، ويضرب بعضهم البعض فيبدو الزبد فى أفواههم ويتهاوون على الأرض، ويبدو بعضهم كمن يرشقون العدو بسهامهم فتمتلئ عيونهم بالدم كمن تصيد، ويسيل اللعاب من فمهم كأنه الصمغ الهندى وهم يصرخون، ويحمل بعضهم على بعضهم الآخر ويتفق أن يحجز الشيوخ

بين اثنين منهم وبذلك ينجوان. ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر وكأنهم الأسود الضوارى فيخاف بعضهم وتنحى بعيدًا وبعضهم يبدو وهو يصيح كالقط والكلب، ويبدأ فى التمرغ على الأرض، وبعضهم يبدو كالتنين له سبعة رءوس يهاجم من يهاجمه، ويرفعون أصواتهم بالصياح إلى حد تنشق مرارة من يسمعونه فيتوارى الخائف خلف الشيوخ والدراويش ويلزم الصمت.

وقسمًا بالقرآن الكريم أن هذه التكية فيها أحوال وأسرار إلهية من يقف عليها يغيب عن وعيه مندهشًا، وتمس حاجته إلى الانخراط فى الطريقة المطاوعية، ومن لم يكن له علم اليقين وعين اليقين لا يقتدر على أن يبلغها لأن من رأى ليس كمن قرأ أو سمع. وفى جامع الحاكم بأمر الله كذلك يقام التوحيد على الطريقة المطاوعية فى عشرة مواضع يوم الجمعة، وهذا ما يعجز عن وصفه اللسان والقلم جميعًا.

تكية الكُلْشَنى

فى بولاق، إنها تكية سلطانية على ساحل النيل، إلا أنها ليست واسعة وفيها ما يقرب من ثلاثين درويشًا من العلماء والأطهار أصحاب السلوك، ولهذه التكية أوقاف عظيمة ولذلك تقدم فيها الأطعمة لكل متردد عليها. وفى الأيام التى تبحر فيها سفن السيد البدوى يقدم إلى هذه التكية كل من فى القاهرة من أهل العلم والصلاح لإقامة مولد عظيم مرة فى العام.

تكية الشيخ فرج الله

فى بولاق كذلك، وهى تكية صغيرة على ساحل النيل وشيخها رجل عظيم صاحب كرامة. وتأتيها النذور من كل الجهات ويعيش عليها خمسة وأربعون درويشًا، وطريقتهم يمنية، وكل أبنيتها تحت ظلال أشجار الجميز والنبق، ولذلك لا تؤثر فيها الشمس، وكل من يتردد عليها يقدم له فنجان من القهوة اليمنية، أما هذه القهوة فكأنها ماء الورد ولا يحتمل أن تصنع مثل هذه القهوة فى قصر أحد الأعيان، ولا يحتمل أن تقدم فى قصور الأثرياء، إنها بركة شاذلية عجيبة.

ودفن سيدى الشيخ فرج فى هذه التكية وهى من روحانياته، وإن له بركات الخليل وكم من تكية فى مدينة بولاق، ولكننا اكتفينا بذكر هذه التكايا، وعدد التكايا فى مدينة بولاق خمس وأربعون تكية.

تكية الملك الأشرف

فى مصيف السلطان قايتباى، لها قبة عالية مكسوة بالجص الأبيض وكأنها تكية القصر العينى، إنها قبة سلطانية تتسع لألف إنسان، وقد أقيمت للطريقة الخلوتية، ولأن لها أوقاف عظيمة يربو عدد دراويشها على المائة ولكل منهم حجرة مستقلة وما يكفيهم من طعام.

تكية السلطان قايتباى

إنها تكية عظيمة للطريقة البدوية وتقع قبالة جامع قايتباى، ويقام فيها المولد مرة فى كل عام. وفى هذه التكية ثلاثمائة من الدراويش المتزوجين، وطعامهم من مبرة قايتباى، وفى قايتباى عشر تكايا.

تكية السلطان طومانباى

فى العادلية وبها ما يقرب من عشرين درويشًا خلوتيًا.

تكية مولوى خانه

إنها تكية كبيرة فى القاهرة بالقرب من سوق الصليبة، بها ساحة عظيمة للسماع ودراويش يقرأون المثنوى. حتى إن حسن افندى ترك منصب قاضى قضاة القاهرة وقنع بالفقر واعتكف فى خلوته فيها، كما أن آدم افندى شيخ البيت المولوى فى باب البرج باسطنبول قدم من مكة إلى مصر، ودفن فى هذه التكية، وتاريخ وفاته هو: «مضى شيخنا آدم إلى الجنان سنة (   )[1]» ويطلقون على المكان الذى بنيت فيه تكية جامع الطيلونية قلعة الكبش وجبل الشكر، وفى هذا الموضع وجه موسى عليه السلام إلى الله كلمات وكلمات، ولهذا لم تتحمل الصخور جمال التجلى فتفتت قطعة قطعة. والآن الدعاء فى هذا الموضع يستجاب. ودراويش هذه التكية معظمهم من المغاربة وشيخهم عزيز نصر الله، وهو شيخ مستجاب الدعاء، وهو على الدوام يصوم صيام داود سلمه الله.

(١) بياض فى الأصل.

وهذه التكية من خيرات السلطان قايتباى. وقبتها منقوشة بألوان مختلفة ويصعد إليها بسلم من خمس عشرة درجة. وما فيها من نقوش لا وجود لها فى بلد آخر، والقبة مطلية من الداخل باللازورد والسليو وفيها رسومات نباتية تبهر عين من يشاهدها إنها قبة ذات سحر معجز. إنها مكسوة من الخارج بالجص الأبيض وليست مكسوة بالرصاص الأزرق. وأشغال الصدف فى محرابها، وأشغال الجص فى جدرانها الأربعة المبنية بحجر اليشم الحرقانى لا وجود لها فى مبنى آخر فى مصر.

وقد أقيمت هذه التكية للطريقة الأحمدية ودراويشها يربو عددهم على ثلاثمائة درويش ويكفيهم ما يجرى عليهم من الأوقاف.

إنها تكية كأنها القلعة وجميع الدراويش يسكنونها، ويقام فيها مولد عظيم مرة كل عام ويدوم ثلاثة أيام بلياليها. وفى الطرف القبلى لهذه التكية نخلات وحديقة ذات أزهار.

تكية الطوبخانه

تقع فى الجانب الشرقى خارج مدينة القاهرة على بعد ربع ساعة منها.

تكية تيمور طاش

بالقرب من تكية الطوبخانة أقيمت لدراويش الخلوتية. إنها تكية ذات قبة عظيمة، وفى كل ليلة جمعة يتوافد عليها آلاف المتصوفة وتقام المراسم الحيدرية وهى تكية ذات حدائق وحجرات للدراويش وساحة للسماع. وهذه التكية خاصة بالدراويش ذوى الشأن والمنزلة.

تكية السلطان الغورى

إنها على بعد ساعة من القاهرة فى الجانب الشرقى منها. وقد أقيمت للطريقة البدوية وأرضها مرصوفة بالرخام يعجز عنها الوصف. وفى هذه التكية محراب ومنبر وتقام فيها صلاة الجمعة [الغورية حى لأسواق الغورى الصغير][1] وفى هذه التكية ما يقرب من ألف درويش على الطريقة البدوية. وأوقافها قليلة لذا يعيش من فيها على الكفاف. وشيخ طريقتها من صلحاء الأمة، ويقام فيها المولد مرة كل عام ويتلى التوحيد السلطانى.

(١) هذه العبارة مقحمة فى هذا الموضع؛ وربما ذكرها تمييزاً ليُعْرَف أن تكية الغورى شىء، والغورية شىء آخر.

تكية قدم النبى عليه السلام

فى عام ١٠٧٤ أقام إبراهيم باشا الدفتردار من فرط محبته للرسول ﷺ قبة شامخة تناطح الجوزاء أنفق عليها خمسين كيسًا من صلب ماله لقدم النبى ﷺ كما أقام بجوارها جامعًا عظيمًا يعجز اللسان عن وصفه. كما أقام قصرًا عاليًا يطل على ميدان الجريد. إنها تكية عظيمة مزينة بالصُّفَّات وجامعها الجميل له سقف منقوش مربع يقوم على ستة أعمدة من الرخام الأبيض، ومحرابه جميل خال من الزخرفة ومنبره من الخشب الأحمر المنقوش. وأرض الجامع مفروشة بالبُسُطِ الحريرية النفيسة، كما يزدان الجامع بالثُّريَّات الفاخرة الجميلة. وأمام المحراب حديقة ذات أزهار أما مساحته فمائة قدم فى مثلها. وعلى باب قبلته لوح ذهبى عليه تاريخ بخط التعليق باللون الأزرق وهو:

(أصبح الجامع كالجنة، تم بناؤه عام ١٠٧٧ وأصبح جامع إبراهيم باشا دار سلام).

وفى الجانب الأيمن داخل الجامع باب يفضى إلى قبة قدم النبى ﷺ فى صيوان وداخله ماء الورد وجميع الزوار يمرغون وجوههم على أثر قدمه ﷺ على الحجر:

تعال إن روضة النبوة أثر هذه القدم

مرغ وجهك على قدمه

والقبة من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشانى وفيها خطوط مختلفة لمهرة الخطاطين ولى أنا كذلك خط كتبته وقد نقش إبراهيم باشا كذلك طفراء على لوح مذهب وكأنها سحر مبين، وفى الصواوين نفائس عظيمة وعلى باب القبة تاريخ هو:

فى هذا المقام الرائع أثر قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم

وغبارها كحل لعيون الكائنات

كل من مرغ وجهه على تلك القدم مخلصًا

كان النور منه فى ظاهره وباطنه

ولقد أرضى هاتف الغيب وبذلك أصبح تاريخه

حقًا إن أثر قدم المصطفى يشرح الصدور

سنة ١٠٧٧

وعلى يسرة المحراب لوحة تحمل تاريخًا مكتوبًا بخط النسخ وهو:

لـقد أرخ إبـراهيـم باشـا لأثـر قدم الـنبـى
سنـــة ١٠٧٤

وثمة تاريخ آخر مسطور على باب القبة بخط التعليق وهو:

لما شارف الـتـمام ذكـر الـهاتـف تـاريخـه
أصـــبـح إرم الـفـــردوس ســـنـــة ١٠٧٤

وكذلك عـلى الباب الخـارجى للقـبلة كتـب تاريخ آخر بـخط التعـليق علـى لوحة باللازورد وهو:

مـولانـا الـسـلـطـان مـحـمـــد الـغـازى
غـمـــر الله بـالخـيـر جـــسـده الـطـــاهـر
دعـــا الله قـائـــلاً تـاريـــخـه الـطـهـــور
أرسـى أسـاس هـذا الجـامـع سـنـة ١٠٧٤

وعلى الصواوين تاريخ مسطور هو:

أقـام هـذا البـنـاء عـلـى أثـر قدم الـنـبـى
إبـراهـــيـم بـاشـــا أمـد الله فـى عـــمـره

وضمن الكتابات الموجـودة فى القصر العالى على شاطئ النيـل تاريخ مكتوب بخط التعليق هو:

قـال إن تـاريـــــخ هـــــذا الـقـصـر
هـــو عـــام ١٠٧٧

ولهذا الجامع منارة رشـيقة من طبقة واحدة على الطراز التركـى وكأنها شجرة سرو، ولهذه التكية مطبخ عظيم وكأنه مطبخ كيكاوس. وشيخها هو محمد چلبى الخلوتى وهو من أهل التقوى والصلاح.

ويبعد عن هذه التكـية حديقة غَنّاء تزدان بصنوف الليمـون والنارنج وسبعة أنواع من العنب. وفـى هذا الموضع ساقية وحـوض وشادروان تجرى مياههـا وزاوية ذات محراب عليه تاريخ على اللازورد مكتوب بخط جلى بطراز قره حصارى وهو:

سميت الساقية باسم السلطان محمد
كما أنشئ سبيل بجانب الساقية
ولما قارب التمام ذكر الهاتف تاريخه
كان هذا مثوبة جارية لروح السلطان محمد
سنة ١٠٧٧

وحاصل الكلام أن هذا المزار تكية مشهورة لدى عوام الناس وخواصهم.

وفى القاهرة مئات التكايا إلا أن أكبرها وأشهرها هى التى سلف ذكرها وبما أن فى كل هذه التكايا جوامع وزوايا فقد صنفت طبق ما فيها من مساجد وجوامع ومدارس ودور للحديث والقراء ومكاتب صبيان.

وفى ماضى الزمان كان بالقرافة الكبرى ٣٦٦ تكية عامرة ذات أوقاف جارية. وإذا ما قدم القاهرة درويش زائر وأراد أن يحل ضيفًا حل فى كل ليلة ضيفًا بإحدى التكايا، وتحكرم وفادة هذا الضيف مصداقًا لقولهم: «أكرموا الضيف»، وكان شيخ التكية يدفع له كل صباح أجرة الحمام باره مصرية. وإذا ما طلب هذا الضيف الإقامة سنة فى التكية أجيب إلى طلبه، ويجرى عليه راتب فى كل يوم من الوقف. وفى رأس كل سنة كان يقدم لكل ضيف خرقة.

وبعض الدراويش يحلون ضيوفًا كل ليلة على التكية ويرصد لكل منهم مبلغ من المال وعلى هذه الكيفية كان بالقرافة الكبرى ثلاثمائة وست وستون تكية.

وداخل مدينة القاهرة ما لا يقع تحت حصر من التكايا والزوايا أدام الله ما فيها من نعم.

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

ذكر ما فى القاهرة من مَبَرَّات توزع طعامها على الغنى والفقير

فضلا عما فى مصر ـ أم الدنيا ـ من مبرات ملحقة بالتكايا ففى كل جامع من جوامع سلاطين السلف وعددها سبعمائة جامع مبرة وعلى مر الأيام تخربت أوقافها وضمت أفدنتها وأرزاقها إلى المال الأميرى فخربت الكثرة الكاثرة منها. وتبقى من عهد الجراكسة مائة وخمسون جامعًا ذات مصابخ ولكن لا يقدم فيها الطعام مرتين فى اليوم على الدوام كما هو الشأن فى مبرات اسطنبول.

وفى ليالى الجمعة وأيام المواسم تقدم آلاف الصحون. وفى القاهرة مبرات جارية النعم وأكبر هذه المبرات مبرة قصر الباشا وهى ذات مطبخ سلطانى عظيم ويقدم فيها ثلاثة قدور من الحساء صباحًا ومثلها بعد العصر ويصيب منها جميع الناس شبابًا وشيوخًا أغنياء وفقراء.

مبرة السلطان قلاوون

تمد فيها الموائد للعوام والخواص والمعوزين فى اتصال ودوام: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وبعد أن تقدم آلاف الصحون إلى جميع المرتزقة تقدم عدة آلاف من قصاع العدس والحنطة إلى جميع الفقراء.

وفى ليالى الجمعة يوزع اللحم والأرز على الفقراء. ومع أن طعام الأئمة والخطباء والمشايخ يختلف عن طعام الفقراء إلا أن طعام الفقراء دائم، فعلى باب المطبخ كتبت آية كريمة هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وفى هذا المطبخ أربعون طاهيًا وأربعون عاملاً فى مخزن الأطعمة. وإذا ما توافد بعض الأعيان على هذه المبرة لمشاهدتها أحضر الطهاة الصحون القلاوونية والصينيات المنقوشة والأباريق لإكرام هؤلاء الضيوف. إنها خيرات عظيمة رحم الله صاحبها. وغيره من السلاطين ليست لهم مثل هذه النعم الجارية.

وعندما خرب الظالمون أوقاف المبرات أصبح المولد يقام مرة واحدة فى العام فى كل جوامع السلاطين، ويوزع فيه الأطعمة، إلا أن نظارها كانوا يعينون لخدام الجوامع أثمان اللحم والخبز والشمع ويحسبونها من صدقات الأوقاف.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

ذكر الحَمَّامَات فى مصر نادرة العصر

إن ما سلف ذكره من آلاف الأوقاف كانت خاصة بالجوامع والمساجد والحمامات الأولى فى مدينة القاهرة ذو الماء الجارى يقع فى القلعة الداخلية وهو:

حَمّام سليمان باشا الطواشى

إنه حمام صغير به ثلاث خلوات وحوض شافعى وهو حمام بديعى التصميم وماؤه من بئر يوسف وهو أميل إلى الملوحة، ولأن رواده من جميع طوائف العسكر فجميع أثوابه وعماله ودلاكوه فى غاية النظافة، ولكن بعد الظهر يتردد على الحمام جميع الأمهات والأخوات. وفى منتصف الليل يقوم عمال الحَمّام بتطهير أحواضه وملئها بالماء الصافى.

وفى سوق السباهية وبالقرب من جامع السلطان حسن:

حمام مصطفى باشا

إنه حَمّام كبير، ولا حَمّام فى القاهرة يشبهه فى كبره، ومائه الساخن وجريان ماء حوضه وشادروانه. وفى كل خلوة من خلواته الخمس صنبور. وأرضيته مرصوفة كلها بالرخام الملون ويزدان هذا الحمام بزجاج وثريات وبللورات مختلفة الألوان.

وحَمّام «قنطرة الموسكى»

للسيدات والرجال.

وحَمّام «جى جى على بك»

بما أنه قريب من حارة اليهود يتردد عليه اليهود جميعًا وهو للسيدات والرجال.

وحَمّام «الكلب»

فى مكان منخفض وهو قذر ويدخله الرجال والنساء مجانًا. وعند بنائه قديمًا ظهر فى أساسه تمثالان من النحاس لكلبين يتهارشان ولم يفطن بانى الحمام إلى أن هذين الكلبين مسعران وإلا لحفر له أساسًا فى موضع آخر. ولوجود هذين التمثالين لا وجود فى القاهرة لكلب مسعر يصيب أحدًا بأذى ولذلك يسمون هذا الحَمّام «حَمّام الكلب».

وحَمّام «الخرونفيس»

فى حارة الخرونفيس، وهو حَمّام غير مزدوج ولكنه طيب النسيم.

وحَمّام «البندقانى»

غير مزدوج وهو شديد الزحام.

وحَمّام «مهدية سلطان»

وهو للرجال والسيدات.

وحَمّام «باب الخرق»

وهو حمام غير مزدوج.

وحَمّام «الشيخ البكرى»

فى الأوزبكية

وحَمّام «القبودان»

وهو للسيدات والرجال، وجَوّه لطيف إلى أبعد حد وزجاجه صاف لامع.

وحَمّام «تحت الربع»

غير مزدوج.

وحَمّام «عابدين بك»

فى حارة عابدين وهو للسيدات والرجال.

وحَمّام «قنطرة السنقور»

غير مزدوج.

وحَمّام «سوق الدلال»

وزجاجه ينفذ منه النور وشادروانه يدفق الماء الحار الذى يبلغ قبته. وفى هذا الحمام حوض يسبح فيه السمك أما فوارته فتدفق الماء إلى قبته. أما دلاكوه فهم ولدان صِباح الوجوه عيونهم كعيون الظباء وكلامهم عذب مستملح وهم يخدمون من يستحمون فى الحمام وقد لفوا حول خصورهم مناشف زرقا، وكل ثيابهم من الحرير، ومناشفهم فضفاضة. إنه حمام طيب النسيم نظيف وهو للسيدات والرجال. وثمة حمام آخر هو:

حَمّام «بشتك»

وهو للسيدات والرجال، وهو نظيف إلى أبعد حد.

وحَمّام «قيسريه لى إبراهيم كتخدا»

بالقرب من جامع ألتِى برْمَاق.

وحَمّام «الدرب الأحمر»

وهو للسيدات والرجال إلا أنه صغير.

وحَمّام «الصوباشى»

وهو حَمام لطيف للرجال والسيدات.

وحَمّام «بائعى السكر»

وهو أنظف من جميع الحمامات، إذ لا يدخلـه القبط واليهود. وهذا ما اشترطه من أنشاه، ولذا يتردد عليه أهل التقوى والصلاح، وجَوّه لطيف.

وثمة حَمّام آخر هو:

«حَمّام الخرابة»

وهو لضيقه شديد الزحام، وهو خاص بالرجال.

وحَمّام «بقرجى باشا»

وماؤه حار، وجوّهُ لطيف.

وحَمّام «السقا»

وهو خاص بالرجال.

وحَمّام «قاضى العسكر»

وهو للسيدات والرجال.

وحَمّام «مرزوق»

داخل الباب الجديد، وهو غير مزدوج.

وحَمّام «النساء»

بالقرب من سيدى الهندى.

وحَمّام (   )(١)

بالقرب من سوق الخضار.

وحَمّام «طيلون»

وهذه الحمامات الثلاثة متقاربة وجوها لطيف إلى حد بعيد، وجميع المغاربة يترددون عليها.

وحَمّام «الصليبة»

وهو حَمّام قديم للسيدات والرجال، وجَوّه لا يسبب الصداع.

وحَمّام «الدود»

وحَمّام «القيسونية»

وهو للسيدات والرجال، وقد بناه الحكيم القيسونى وهو طيب الماء والهواء.

وحَمّام «باب الوزير»

وهو غير مزدوج.

وحَمّام «محكمة الصالحية»

على مقربة من ضريح الحسين، وهو حَمّام قديم.

وحَمّام «قنطرة الليمون»

غير مزدوج.

وهذه الحَمّامات المذكورة واحد وأربعون حمامًا دخلتها وهناك أربعة عشر حَمّامًا أخرى لم أدخلها. وبناء على هذا الإحصاء فإن فى القاهرة خمسة وخمسين حَمّامًا خاصًا وعامًا، إضافة إلى ما فى قصور السلاطين والأمراء والأعيان والشيوخ والعلماء. وفى بعض هذه القصور حَمّامان ولكن قصور رضوان بك أمير الحج وقيطاس بك وعلى بك الجرجاوى وذو الفقار بك وأبى الشوارب بك وغيرها من القصور تضم أربعة حمامات أو أكثر فى القصر الواحد.

(١) بياض فى الأصل.

وبناء على هذا الإحصاء فإن حَمّامات القصور سالفة الذكر تقدر بستين ألف حَمّام فى القاهرة. وهذا ما عرض على السلطان مراد. ولكن مياه هذه الحَمّامات إلى الملوحة أميل وذلك لحكمة يعلمها الله. ولكن إذا ما فاض النيل وجرت مياه الخلجان فى المدينة أصبحت مياه الحَمّامات القريبة من هذه الخلجان مياه عذبة، فماء حَمّام «القيسونى» مثلاً ماء عذب.

ويقول الأطباء إن الماء الملح ماء مفيد وبه تصح الأبدان، ولكل حَمّام فسقية وحوض ولأن أهل القاهرة جميعًا - عدا النصارى - على المذهب الشافعى. وإذا لم ينزلوا إلى الحوض الشافعى لم ينظفوا. ولها جوٌ يناسب جو مصر ولا وجود لمواقد تحت حمامات القاهرة، كما أن ما وراء جدرانها الأربعة ليس خاليًا، إنها جدران صلبة وبما أن سخانات الحمامات تجعل المياه شديدة الحرارة فإن ماء الشادروانات تشتد حرارته كذلك. وقدور الماء الساخن فى أركان الحَمّام تتجمع مياهها على رخام الحمام وليس للحَمّام بالوعة ولشدة حرارة هذه المياه تشتد حرارة الحَمّام بحيث لا يستطيع أحد أن يضع قدمه على أرضيته وماء الحَمّام لا يبرد قط وهو حار على الدوام ليل نهار، وذلك لوجود أربعة أو خمسة خزانات للماء فوق كل حَمّام وماء هذه الخزانات يفيض ويتدفق إلى الحَمّام ولذا فالماء حار على الدوام. وخزان تسخين الماء فى بلاد الترك وخزان الماء البارد بخلاف ذلك فالخزانات فى مصر من الرصاص وليست من النحاس كما فى بلاد الترك، وهذا ما لا وجود له إلا فى مصر، إنها صناعة عجيبة محيرة للعقل جديرة بالمشاهدة.

وفى القاهرة لا يشعلون الحطب فى الحمامات قط وإنما يحرقون فضلات الماشية التى تسمى عندهم «بالجِلّة»، وللحَمَّامِيَّة أربعة أو خمسة كناسين بالأجرة وهؤلاء الكناسون يتجولون فى الشوارع الرئيسية ويكنسونها بحيث لا يبقوا ذرّة من تراب أو قش ويحضرون هذا القش إلى أتون الحمامات ويكومونه أكوامًا أكوامًا كالجبال، ويضرمون فيه النار. والزنبيل هو رأس مال الحَمّامى، والحَمّاميَّة يحملون ما فى الزنابيل

ويحرقونـها. ولجميع حمّامـات القاهرة من يديرونهـا وهم يخضعون لمن يـسمى «جادر مهتر باشى» لوالي مصر. وإذا ما تشاجر الحَمّـاميون والدلاكون وصبيانهم وآذى بعضهم البعض الآخر فإن من يصلح ذات بينهم هو المهترباشى، وريع هذه الحَمّامات يذهب إلى الأوقاف.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

ذكر وكالات (أى خانات) سلاطين السلف ووزرائهم ووكلائهم

فى القاهرة (   )[١] وكالة أعظمها «خان الخليل» وهو خان عظيم مساحته مائة قدم فى مثلها وفى أركانه الأربعة مائتا دكان، وجامعه من الخشب، وليس مبنيًا بالأحجار وجميع من يؤمون هذا الجامع من تجار الترك. وفى هذا الخان من أثرياء التجار من يملكون عدة آلاف من الأكياس، ومثلهم فى بولاق. إن كل أموال مصر فى خان الخليل هذا. وله أبواب حديدية من طبقتين وكأنها أبواب القلاع. وعلى الجوانب الأربعة الخارجية للخان دكاكين مبنية بالحجارة. إنه سوق مصر ولذلك يكثر فيه ما فى الأقاليم السبعة من نفائس لا تقوم بمال ويتصل بهذا الخان:

خان الحناء

وتصدر الحنة من هذا الخان إلى بلاد الترك والعجم وبلاد العرب، وقد تراكمت حوله مئات التلال من الحناء. إنه خان واسع كذلك، وفيه ثلاثمائة حجرة بعضها فوق بعض. وجميع الأسرى والرقيق يباعون فيه. وبالقرب منه:

«خان دويدار الكبير»

وهو حقًا خان كبير.

وخان «دويدار الصغير»

وهو خان معمور.

وخان (   )[٢]

فى سوق حافظ.

وخان (   )[٣]

وهما خانان عظيمان.

ثم خان «قاسم كتخذا وخان جوالى، وخان البندقانى، وخان أحمد أغا القبرصى، وخان آق قاش، وخان مرتضى، وخان محمد أغا، وخان أبى طاقية، وخان جعفر، وخان الأسير، وخان جلابه، وخان حسين، وخان رجب أغا.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

وخان «ذى الفقار كتخدا»

وهو مبنى جديد كأنه القلعة وعلى جوانبه الأربعة دكاكين ومخازن وفوقه بيوت من ثلاثة طوابق وقد بنيت لـيسكنها عليّة القوم، ويبلغ طول هذا الخـان مائة وخمسين قدمًا وعرضه ثمـانون قدمًا. ويتوسط هذا الخـان زاوية. ولما وصلت إليها وجـدت أن تاريخا سنة (١٠٨٣).

وبالقرب من هذا الخان:

خان «الكتخدا محمد الحبشى»

وهو كذلك خان جديد جميل.

وخان «الناصرية»

داخل باب النـاصر. وقبالته «وكـالة الزيت»، ويأتى إليـها الزيتون وزيتـه من دمشق والقدسو غـزة. إنه خان لتجارة الزيـت. وملابس من يسكنـونها رثة ملطخـة بالزيت. وبالقـرب منـهـا: «خان البكاريـة»، وبالقـــرب منـه خـان «الصابونـيـة»، وإلى جواره «خـان الكردية»، وعلى مـقربة منه «خان جعفر» ووكالة «البهار» وسـميت وكالة البهار لأن الباشـا يحصل المكوس مـن المدينة على الـتوابل الآتية من الـهند واليمن والحـبشة وعدن. والباشا ملتزم بتسديد (   )[1] من هذه المكوس. والربح والخسارة تحسب له أو عليه.

وخان «الكتخدا الحبشى» بالقرب من جامع الحبشى، وبالقرب من جامع الشاهمردانية «خان الحبشى» الجديد وهو من طوابق.

وخان «مسـعود أغا» بالـقرب من جامـع الداودية، وبعـد باب الوزير «خـان حافظ باشا»، ووكالة (   )[2].

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

وفضلا عن هذه الوكالات وكالات أخرى كثيرة ولكن كل منها فى عطفة وليست من الخانات المتعددة، أما الخانات سالفة الذكر فكلها تتألف من ثلاثمائة حجرة أو أكثر وكأنها القلاع. وعلى كل باب من أبوابها خمسة أو عشرة بوابين يقومون بالحراسة، وعلاوة على هذه الوكالات فى مصر ثمانمائة وخمسون رَبْعًا، أى خانات المتزوجين فليس فيها رجل غير متزوج، والنساء والرجال والأطفال فى موضع واحد ولا وجود فيها لمحرم ولا غير محرم. ويسكنها الفلاحون الحضر ولا يسكنها غيرهم.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر ما فى فسطاط مصر من البيمارستانات والمستشفيات

كان فى مصر قديمًا ١٤٠ بيمارستانًا ومستشفى، وآثارها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا ولأن أوقافها ضمت إلى المال الأميرى لحق بها الخراب. وفى وقت سياحتى كان بها أربعة بيمارستانات، أحدها بالقرب من بين القصرين وهو:

بيمارستان مقام موسى

إنه بيمارستان بلا وقف والخدمة فيه ابتغاء مرضاة الله، ولذا يرسل إليه أهل الخير الطعام لكل من فيه فى كل وقت. كما أن بعض الدراويش يخدمون فيه لوجه الله وكل أحد يتصدق عليه من مال الزكاة.

بيمارستان الجامع الأزهر

الخدمة فيه كذلك مجانية ابتغاء لوجه الله، إلا أن له أوقافًا عظيمة علاوة على ما يأتيه من النُّذور والصدقات والأطعمة حتى صار خدّامه من المترفين إلا أن هذه الأوقاف غير تابعة للجامع الأزهر. ويقع هذا البيمارستان داخل زاوية الشيخ محمد المطوبسى.

بيمارستان السلطان المؤيد

يقع بعد باب الوزير عند التكية الأوزبكية. إنه بناء عال فى موضع طيب النسيم وهو بناء سلطانى من الحجر وفيه حجرات وقاعات متعددة، وله باب شاهق داخل التكية الأوزبكية، ولكى يتنسم المرضى فيه طيب النسيم له مقصورات مختلفة، إنه بناء جميل ولكنه بلا أوقاف ولذلك فخدامه من دراويش التكية الأوزبكية.

أوصاف مستشفى السلطان قلاوون العامر

إنه مستشفى عظيم يقع فى ركن حرم جامع قلاوون الذى سبق الحديث عنه وعن ميرته، ولا وجود لمبنى يشبهه فى بلاد العرب والترك والعجم. وطراز تصميمه يخلب الألباب، والأطباء يعالجون فيه المختلون عقليًا فيعقلون.

وفى بدايته كان مرصوفًا بالرخام طولا وعرضًا، وله حرم عظيم، مساحته مائة وخمسون قدمًا، ويتوسط هذا الحرم حوض عظيم، ونافورته تدفع الماء إلى أعلى بقدر قامة

رجلين، وعلى حافة هذا الحوض مصلى، وفوق هذا الحوض قبة سقفها منقوش يحملها اثنا عشر عموداً، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم قاعة عظيمة تتسع لألف إنسان، وعلى جانبي هذه القاعة صُفَّات، ويعلو العقود الحجرية سقف منقوش، وهذه القاعات مرصوفة من أولها إلى آخرها بمختلف أنواع الرخام وكأنها رسول «ارزنك» وتمتد أحواض الماء الجارى حتى نهاية هذه القاعات، ويجرى الماء بين هذه الصُفَّات وتصب فى الحوض الذى يتوسط الحرم، ولقد أنشأت أربع قاعات أخرى على نفس الطراز.

وعلى هذه الصُفَّات يرقد المرضى فى ثياب النوم وتحت اللحف الحريرية، ويستريح بعض الناقهين من هؤلاء المرضى على حافة تلك الأحواض الجارية، ويخدمهم الخدام وكأنهم فراشات. إلا أن بعض الأخوة المجانين يستقرون فى الأركان المظلمة، وبعضهم فى حجرات واسعة ذات أحواض وشادروانات وهم مقيدو الأعناق بالسلاسل كالأسود وبعضهم يصيحون وكأن صوتهم هزيم الرعد، وبعضهم يلزمون الصمت والهدوء.

وبما أن جو مصر جاف فجميع أهلها سودويون، ولكثرة مكر النساء فيها فالكثرة الكاثرة من أهلها مسحورون ممكورون. وإذا أخبر أهل حى من الأحياء الباشا عن حالة أحد ممن اختلت قوتهم العقلية أمر الباشا بإدخاله البيمارستان للعلاج، وإذا لم يأمر الباشا بذلك لا يدخلونه البيمارستان إلا بناء على هذا الأمر.

ولأن له نفقة تصرف له فى كل يوم على الدوام لذلك يوجد فى بيمارستان قلاوون ٣٦٠ مريض ومجنون فى يومنا هذا. وفى الموضع الذى يصرف منه طعام المبرة يصرف للأطباء مع تلاميذهم الأطعمة ومعاجين الأدوية على حسب حالة كل المرضى.

وللأطباء خُدّام من ذوى الجرأة ولهم طبع الجلادين. وهؤلاء الخدام يطعمون بعض الأخوة المجانين الخوشاف المسمى «قزلجق».

وإذا ما قدم هذه العتبة مريض كان قد لزم الفراش ثلاثة أعوام أو مجنون شُفِيَ من مرضه بعد أربعين يومًا بإذن الله وتوردت وجنتاه ففى هذا المستشفى من الأطباء أمثال بقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث التوحيدى وأبى على ابن سينا، وهم يحيون الموتى كأنهم المسيح. ولكن هؤلاء الأباء ليسوا من أهل المدينة فهم جميعًا من الغرباء، إنهم

كذلك من العرب لأن العرب لقنوا علم الطب، وكان هذا العلم عندهم من ألزم اللوازم، فعنه ﷺ قال: (العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان). وبناء على هذا الحديث شاع علم الطب فى العرب ولقد وجد علم الطب فى عهد آدم الثانى وهو نوح النجىّ عليه السلام، والإسكندر الأكبر، وفى عهد الفلاسفة فيلقوس وجالينوس، وبعد عهد الرسالة لما كان من كرامات باهرة لكبار أولياء الله اشتهر الحكماء بالطب. وقد وقف اليونان والفرنجة على دقائق علم الطب واشتهروا بها ولكن مست حاجتهم إلى العرب لأن هؤلاء العرب بتقواهم وزهدهم وقوة علمهم إذا نزل بأحدهم مرض وعالجوه شفى بإذن الله.

وفى مستشفى قلاوون إذا ما جس مهرة الأطباء نبض أحد المرضى عالجوه بما يتفق مع حالته وكان له الشفاء بإذن الله، لأن فى بلاد مصر فى الإقليم الأول بالصعيد والواحات والحبشة وبلاد الفونج وجبل القمر نباتات وأعشاب مختلفة، وقد لا توجد هذه النباتات حتى فى بلاد الهند، وتجلب هذه الأدوية إلى القاهرة ويصفها الأطباء للمرضى فيتم شفاؤهم، ولذا كان لمستشفى قلاوون مستفيض الشهرة فى بلاد العرب والترك والعجم.

وفى أحد جوانب هذا المستشفى بيمارستان النساء، وقد أنفق على إنشائه مال وفير، وكل القائمين على الخدمة فيه من النسوة والأطباء يدخلونه بلا خوف ولا حرجة، ويصفون لكل داء دواء. وقد يتفق لبعض نزيلات هذا البيمارستان من النساء الذاهبات العقول أن يلدن فيه، ففى عهد إبراهيم باشا اتفق أن ولد لامرأة ولد فى هذا المستشفى فسموه شفائى.

وخلاصة القول أننى لم أشهد مبنى بهذه العظمة أثناء تطوافى فى البلاد.

أوصاف صنع مستحضرات الترياق الفاروقى العظيم

ليعلم الرحالة من أهل العلم بقدر ما على وجه الأرض من أطباء يصنع الترياق الفاروقى ولكن لا يحتمل أن يكون كالترياق الفاروقى الذى يحضر فى مصر لأن أقراص الترياق الفاروقى خاصة بمصر ولا وجود لها إلا فيها. وكلمة قرص تدل على عدة أشياء

وهى: أن هذا القرص يستخلص من جسم الثعبان. وهناك أربعون شخصًا تجرى عليهم رواتب من أوقاف قلاوون، وهم يعملون مرة فى العام وهم يسكنون فى قرى ابن خبير فى الجيزة وهم طائفة يصيدون ثعبان الترياق الفاروقى مرة فى شهر يوليو من كل عام.

وهم عندما يحلون فى موضع صيده يجتمعون فى موضع واحد ويكسون جسمهم من أعلاه إلى أسفله باللباد الغليظ بحيث يسترونه ولا يبدو منهم إلا عينهم التى ترى وهم يسترون كذلك وجوههم، وعلى عمائمهم الطويلة قطع من اللباد الأبيض ويمضون صوب نواحى بهنسيا والفيوم والجبل الأخضر، ويصلون إلى الموضع الذى فيه ثعابين الفاروقى فى برد الصباح لأن الثعابين تخمل دون شدة الحر، ومع ذلك فإن الثعابين الفاروقى تهاجمهم بضراوة ويصطادون منها آلافًا فيضعونها فى الزنابيل فتثور فيخيطون أفواه الزنابيل ويتفق فى بعض الأحايين أثناء صيدهم للثعابين أن تثب إلى وجوههم، فإذا ما أصابت عيونهم فلا نجاة للصياد من الموت لأن سم هذه الثعابين سم زعاف، والقطرة من سمها تقتل فى التو، إنها ثعابين فتاكة، وهؤلاء الرجال المذكورين يختصون بصيدها. ولا طاقة لغيرهم من الناس بعملهم هذا، ولهم موكب خاص بفرقتهم وهم من أهل التقوى والصلاح وهم على الطريقة السعدية.

واتفق أن اصطادت هذه الطائفة كثير من الثعابين وضعوها فى زنابيل وحملوها على الحُمُر وفى طريقهم إلى القاهرة عندما وصلوا إلى حديقة جميلة وكأنها حديقة إرم انطلق ثعبان من الزنابيل ولدغ الحمار الذى يحمل الزنابيل فسقطت عن الحمار وفى طرفة العين تورم جسم الحمار إلى أن أصبح كجسم الفيل وتيبست قوائمه وكأنها أعمدة من حجر وأبعد الصيادون الناس عنه محذرين إياهم من الرائحة المنبعثة من جثة الحمار التى تؤذيهم، وأخذوا الزنابيل الممتلئة بالثعابين التى كانت محملة على الحمار ووضعوها على حمار آخر، وقد تفتقت جثة الحمار المسموم وذابت كل عظامه، وحمدًا لله أن أحدًا لم يصب بأذى، وأهل من كانوا فى هذا الموضع التراب على جثة الحمار وستروها ودفنوها، أما الحُمُر الأخرى فمضوا بها إلى مستشفى قلاوون وسلموها لرئيس الأطباء ورئيس المستشفى.

وكنت قد استأذنت كبير الأطباء لمشاهدة المستشفى فأخبرونى بأنه أذن لى، وفى التو ركبت جوادى وعندما بلغت مستشفى قلاوون فتحوا باب الفاروق وأدخلونى ثم أوصدوا الباب، وحتى لا تنكشف أسرار علمهم ولأن المكان مفعم بآلاف الثعابين الفتاكة لا يدخلون شخصًا غريبًا.

وبيت الفاروق هذا مدرسة عظيمة، وكل جدرانها وأرضيتها مكسوة بالرخام، وهى مدرسة قاصرة على علم الطب فقط، ولهذه المدرسة حرم تحيط به صُفَّات وفى ذلك اليوم انهارت هذه الصُفَّات وكنا ثلاثين شخصًا من كبير الأطباء والناظر أغا وكاتب الأوقاف ومرشد الأوقاف وعشرة من نواب كبير الأطباء وداع واثنى عشر صيادًا وطهاة وقصابين، وكان عدد من دقوا الباب وأرادوا الدخول من خارج الباب لا يدخل تحت حصر، وكان الباب محكم السد فقالوا لى لا تخف وأشعلوا قنديلاً، واعتليت مرتفعًا وتهيأت لمشاهدة المستشفى.

وقام هؤلاء الثلاثين وتوضأوا وصلوا ركعتين قضاء وأحضروا مائة عصى طول كل منها ثلاثة أشبار ومائة من سواطير القصابين وهى سواطير حادة مصنوعة من الصلب الإفرنجى ومائة ماجور من الفخار المبطن بالزجاج وكل منها يتسع لإنسان وهى مملوة بالماء الصافى وبعضها فارغ، وعدة صينيات من القصدير التى تعود إلى عهد قلاوون، وأردب من الملح المسحوق المنخول، وخمسون وعاء كبيرًا مثل أوعية الماء مبطنة بالزجاج من الداخل والخارج، وهذه الأوعية واسعة القاع وفوهتها تتسع لرأس إنسان، وجهزوا كل الأوعية النحاسية والفخارية. ولما هَمّ الداعى بالقيام نهض الحضور جميعًا، وبعد البسملة وحمد الله والطرزية والتصلية قرأ الداعى الفاتحة على أرواح آل عثمان والسلطان قلاوون صاحب هذه الخيرات والحسنات، ولقمان الحكيم وفيثاغورث التوحيدى وسلطان الأطباء ابن سينا وسائر الحكماء والأطباء، ودعا الله بالخير للطبيب الرئيس والناظر أغا وكاتب رئيس الطهاة ومساعديه وسائر الخدم، ثم كبّر وقرأ الفاتحة الشريفة وبعد أن مسح وجهه بيده فتح كبير الصيادين وثلاثة من قصابى الثعابين فوهة أحد الزنابيل فى وسط حرم المستشفى فانطلقت آلاف الثعابين السامة الفتاكة فطاش صوابى واعتليت موضعًا

مرتفعًا واندفعت الثعابين يمينًا ويسارًا وهاجت وفحت واصطدمت بالجدران وانتشرت حول الحاضرين فجمعها خدام كبير الأطباء والصيادون فى مكان واحد وكانت لهم زنابيل من الصوف الأصفر، وعندما وضعوا الثعابين فيها هدأت ولم تعد تحرك ساكنًا، وجلس كبير الصيادين مع ثلاثة من رجاله إلى جانب أورمة وحملوا سواطيرهم وأخرجوا الثعابين من الزنابيل الواحد تلو الآخر وضموا نوعًا من الثعابين البيض إلى غنمهم وقد انتشيت من شذا مسك هذه الثعابين، فسألت كبير الأباء عنها فردّ علىّ قائلاً: إنها ثعابين المسك وليست ثعابين الفاروق ونحن نصنع منها أدوية أخرى وسوف ترى الآن.

ورأيت أنهم جمعوا ثعابين بِيض كثيرة فى مكان واحد وصفقوا أفواه الثعابين بخيوط حريرية حمراء طويلة فى ركن ظليل وامتد هذا الخيط من جدار إلى جدار وقد علقوا فيه ثعابين المسك هذه ثم استخدموا قطعة من القطن فى وضع قطرات من زيت زيتون صوصه فى أفواه الثعابين فنفقت جميعًا، وبدأ كل منها فى الانتفاخ وبقيت هذه الثعابين معلقة على هذا الوضع أربعين يومًا وليلة، وبذلك تتكون داخل جلد هذه الثعابين حبات من المِسك وقوة رائحة هذا المسك تدمى أنف من يشمها، إنها رائحة حادة إلى هذا الحد البعيد.

وثمة ثعابين قصيرة منقوشة الجلد ورءوسها مستديرة كالجوزة وعندما وضعوها سألت عنها فقيل لى إنها «حيات الصفى» وهى من نسل الأفاعى التى أخرجت من الجنة مع آدم عليه السلام، وهى كذلك ليست من نوع أفاعى الفاروق وثعابين الصفى لا تخرج صغارها من البيض مثل ثعابين الفاروق، وإنما تولد كسائر الحيوانات وهى تختلف عن خلق الحية وتلك حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وجملة أفاعى الفاروق التى صادوها ٨٣٠٠ سلّمها الصيادون للمتولى وقيد الكتبة والمرشدون فى الدفاتر أن سعر كل ثعبان ٨٠٠ قرش، وبعد ذلك جلس كبير الصيادين وقصابو الثعابين الثلاثة إلى جانب أورمة وقالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله بِنيّة الشفاء وأخرجوا ثعبانًا كبيرًا من الزنبيل ووضعوا وسط الثعبان على الأورمة وأمسك أحد

القصابين رأس الثعبان وذيله بيده اليسرى وهوى بالساطور عليه مرة واحدة بيده اليمنى، فتلوى الثعبان على الرخام بلا رأس ولا ذيل وبقى رأس الثعبان وذيله فى يد كبير الصيادين وبظهر الساطور أخذ يسحق رأس الثعبان وتركها على الرخام وردد الحضور فى المجلس «لا إله إلا الله» وقبض كبير القصابين على الثعبان الذبيح ونحى ذيله ورأسه جانبًا بثلاثة أصابع وقطعه ثم جاء قصاب آخر وحمل الثعبان المقطع وشق بطنه بسكين من ذهب وأخرج أحشاءه وبيضه وألقى به إلى قصاب آخر فقام بنزع جلد الثعبان بأظافره وسلخه من رأسه إلى ذيله فأخرج قطعة من لحم أبيض، وظل الثعبان يتلوى وبعد ذلك أمسك به أحد الأطباء وتنتهى مهمة القصابين عند هذا الحد، ويأخذ مساعدو كبير الأباء الثعابين المسلوخة ويغسلونها جيدًا فى ماء تلك المواجير سالفة الذكر ويملحونها ويضعونها فى الأوانى المبطنة بالزجاج حتى تمتلئ ثم يضعونها على النار وعندئذ أمسك كبير الأطباء الساعة وأحرق خشب السنط تحت الأوانى والجميع يوحدون الله وهم خاشعون، وعندما أخرجوا بعض الثعابين من الزنابيل بصقوا فى أفواهها ووضعوها على الأورمة فتلوت الثعابين حتى ذبحوها.

والحاصل أن اثنى عشر صيادًا وقصابًا ذبحوا ثعابين الزنابيل العشرة جميعًا واحتفظوا بأذيالها ورءوسها ليصنعوا منها دواء آخر ولهم زجاجات كبيرة للقطرة يملؤنها بها. ولكنى ألححت فى السؤال إلا أنهم لم يجيبونى إجابة شافية ولست أدرى إن كنت على صواب فى قولى إنهم يستخرجون ما فى رءوس الثعابين من سم لتصديره إلى بلاد الفرنجة، فقد أرسلوا إلى ملك «دونقاقيز» ما يقرب من ألف رأس ثعبان سلكت فى خيط على سبيل الهدية، فَسُرّ الملك بذلك وأرسلها لأحد ولاته.

عبرة عظيمة عند تحضير الترياق الفاروقى

عندما كان القصابون يذبحون هذه الثعابين ولم تكن ضربة الساطور فى موضعها وأصابت جزءًا من الرأس أو الجذع أو الذيل سرعان ما يثب إليهم كبير الأطباء قائلا لهم: «ارموا الحية ارموا الحية!» ولم يرموها مع أحشاء وبيض الثعابين الأخرى وتركوها فى مكان آخر، وفى هذه الحالة أصبح الثعبان فى غلظ الذراع وانتفخ وكان من قبل

الرأس فى غلظ الأصبع، ولعدم ذبحه على الطريقة الصحيحة أثر ما فى رأسه من سم فى جسمه فانتفخ. ولذلك صاح كبير الأطباء وأمرهم أن يلقوه من يدهم وألقوا كذلك الأورمة والساطور وجاءوا بأورمة أخرى وساطور آخر.

واقتضت حكمة الله أن خمسة وستين ثعبانا مما كان فى العشر سلال لم تذبح جيدا فى ذلك اليوم ورميت مع آلاتها، ولكن هذه الثعابين التى ألقيت لا تحسب على الوقف ولكنها تحسب على الصيادين والقصابين وتحسب تحت حساب وظيفتهم وتلك ظاهرة عجيبة.

عبرة أخرى

كوم القصابون بيض وجلد وأحشاء تلك الثعابين كالجبال وذروا عليها الملح الناعم لتمليحها وعندئذ صرخ أحد القصابين وجذب يده وجعل يتأوه ويصيح قائلا: وا ولداه وفى التو أحضر كبير الصيادين ثلاثة ثعابين من التى غسلت فى المواجير وربطها على أصبع الرجل وفى الحال تورمت الثعابين الثلاثة وأصبحت فى غلظ الذراع، ثم رفعها وجاء بثلاثة ثعابين أخرى وربطها على جرح الرجل إلا أنها لم تتورم وتغير لونها فرفعها كذلك ثم وضع أصبع الرجل فى فمه وامتص موضع الجرح وبصق بصاقا أصفر على الأرض ومسح يد الرجل بمصل الفاروق الأعظم المخفف، وبذلك سكن ألم الرجل ونجى من التسمم ونفخت فيه روح جديدة، ولعلهم كانوا قد تركوا سهوا رأس وذيل أحد الثعابين التى لم تذبح على الطريقة الصحيحة بين أحشاء وبيض الثعابين الأخرى، بعد ذلك بينما كان القصابون يملحون أحشاء وبيض الثعابين بالملح، أصاب السم الذى فى الثعبان الذى لم يذبح بطريقة سليمة أصبع الرجل وعولج الرجل على نحو ما سلف ذكره وكتبت له النجاة.

وخلاصة القول أننى لم أصادف أحدا فى شجاعة وعنف وقسوة هؤلاء الصيادين والقصابين حاشا أن يكون هؤلاء من البشر. ولو أنى رأيت ما تستفاد منه العبرة ولكننى لم أكن فى وعيى فى أى دقيقة ولقد قدمت على مشاهدتى ذلك.

وسألت كبير الأطباء ثانية: ماذا أنتم صانعون بجلود وأحشاء وأكباد وبيض هذه الثعابين بعد تمليحها ووضعها فى أوعية بها ماء الملح!.

فقال كبير الأطباء: ماذا تقصد بسؤالك هذا؟ فكررت سؤالى.

فأجاب قائلا: إن سفراء الفرنجة هنا يشترونها منا ويبعثون بها إلى أطبائهم فى بلاد الفرنجة، وهم يستخدمونها فى علاج جميع الأمراض كل عضو على حده، ومفعول هذه الأدوية يسرى فى الحال.

وبعد أن طهروا الثعابين المملحة وضعوا كل اثنتى عشرة قطعة منها فى وعاء مبطن بالزجاج ثم وضعوا هذه الأوعية فوق مواقد المطبخ فى أحد أركان حرم المستشفى وأشعلوا تحتها حطب شجر السنط وأمسك كبير الأطباء فى إحدى يديه عصا وفى يده الأخرى ساعة ومعه الطهاة من معاونيه وكل منهم ممن تبحروا فى الطب من تلاميذه الكمل، ومهمة كبير الأطباء هى مجرد مراقبة الوقت. وغليت الثعابين داخل الأوعية ثلاث ساعات حتى ظهرت زيوت صفراء فوق هذه الأوعية فحمل كبير الأطباء ملعقة كبيرة فى يده وأخذ بعضا من هذا الزيت ثم ملأوا زجاجات للقطرة كانت لديهم بهذه الزيوت، وبعد أن أفرغوا كل ما فى هذه الأوعية داخل الزجاجات أوقدوا النار تحت أوعية الثعابين للمرة الثانية. وليكن فى معلومك أن الأوعية التى تطبخ فيها الأفاعى ليست من النحاس، إنها ـ كما سبق أن أشرنا ـ أوعية فخارية مبطنة من الداخل والخارج بالزجاج ثم حمل كبير الأطباء الزيت الناتج من الثعابين بملعقة كبيرة ومزج هذا الزيت بأجود أنواع زيت صوصة فى بلاد المغرب وهذا الزيت يشبه ماء الحياة وملأ زجاجة من خمس أوقيات من زيت الثعابين مع خمس أوقيات من الزيت الخالص لمدينة صوصة ووضع هذه الزجاجات على نار هادئة ثم زاد النار اشتعالا وبعد ثلاث ساعات رفعها فأصبح لهذا الزيت قوام السمن المصفى ورائحة ذكية وهى رائحة يتنسمها الحضور على لذة.

وبعد أن عيل صبرى سألت كبير الأطباء فقال: والله فى الهند تكثر أمراض الجذام والبهق والبرص وهذا الزيت مناسب جدا لجو الهند، وإذا دهنت أجسام المصابين بهذه الأمراض بهذا الزيت لم يبق فى أجسامهم أثر لهذه الأمراض وابيضت بشرتهم، إلا أن

هذا الزيت عديم النفع فى مصر ولو دهنوا أجسامهم به ألف مرة، أما المبتلون فى مصر بالجرب والخفقان إذا طعموا كل يوم بدرهم طيلة أربعين يوما تم لهم الشفاء بإذن الله.

وبعد أن تطهى الثعابين على النار فى الأوانى لمدة ثلاث ساعات أخرى حتى ينقص ماؤها بقدر شبر ترفع جميع الأوانى عن النار، ثم توضع الثعابين المطبوخة فى صينيات نحاسية ثم تبرد.

وعندما جاء أعيان مصر برسائل الشفاعة منذ شهر ومعهم الكاسات والأباريق والدلاء أخرجوا ما تبقى من الثعابين المطبوخة المحفوظة فى أوعية زجاجية من داخل الصواوين وكان يكتب اسم ومرض ووصف كل أحد على ورقة توضع فى إناء من نحاس، وملأت هذه الكاسات والأوانى بحساء الأفاعى وأضيف إليه بعض الأدوية حسب ما تقتضيه حالة المريض وسلمت الكاسات والأباريق لكل واحد وبذلك وزع حساء الأفاعى على مئات المناطق.

ثم ملأ الخدام الصحون بحساء الأفاعى وقطعوا الخبز ووضعوه فيها فطاش صوابى.

وبدأ كبير الأطباء والناظر أغا والكاتب وسائر الخدم فى احتساء فناجين حساء الأفاعى وأحضروا لى فنجانا فلم أقبله، فقال لى كبير الأطباء: إنه يا مولاى يقوى البصر ويقطع ريح الباسور. ونزولا على رغبتهم وإلحاحهم تجرأت على شرب فنجان معهم وأنا مغمض العينين وضغطت على أسنانى وقلت: بسم الله وبنية الشفاء ولكنى شممت منه رائحة المسك، فأتونى بفنجان آخر وقد وضعوا فيه بطرف السكين مقداراً من زيت الأفعى مع مقدار من الزيت فشربته كذلك وأشهد الله أن رائحة المسك لم تفارق أنفى طيلة أسبوع.

فوائد مسلوق الأفاعى

عندما غادرنا مكة وقدمنا بدرا وحُنَيْنا بحمد الله، هاجمنا بعض البدو فى تلك الليلة ونشب القتال بيننا وبينهم، وفى تلك المناطق أصابتنى الحمى وظهر طفح على جلدى فاحتسيت فنجانين من حساء الأفاعى، وبعد أسبوع لم يبق فى جسمى أثر للمرض وابيضت بشرتى وأصبحت كالفضة الخالصة وامتلأت عافية ولمست فوائدا عدة لهذا الحساء.

حادثـــة

وأعظم فوائده كذلك أنه فى عام ١٠٥٦ حاصر: تكلى مصطفى باشا قلعة «مشاشبه» إحدى قلاع البندقية عـلى حدود البوسنة وأمطر القلعة بوابل من طـلقات المدافع أربعين يوما وليلـة، إلا أنه ما استطاع إلى فتحهـا سبيلا وعاد دون أن يحقق بغيـته ومضى إلى موضع يسمى «دانيال اوو» أى سهل دانيال، وعسكر فيه، وعندئذ حاصرنا مائتا ألف من نصارى الأوسقو والدوشقة والفرنجة والكـروات من جميع الجهات، وبعد قتال ضار دام سبع ساعات انهزمت القوات العثمانية وبدأ النـصارى يسخنون القتل فى المسلمين وكنت فى ذلك الوقت منخـرطا فى سلك الانكشارية ووكيلا للخرج، وشـاهدت بعينى هؤلاء النصارى وهـم يعملون السيف فـى سبعة من عبيـدى وثلاثمائة من رفاقى فـتركت كل أموالى وأرزاقى وكـان لى جواد وهبنى إيـاه الصدر الأعظم قره مـصطفى باشا فـتركته جانبا، وفى هذا السهل الوسيع جعل النصارى الضالون يقتفون أثرى إلا أنهم لم يعثروا على فقـد أخفانى الله عن أبصـارهم، وفى آخر الأمر عنـدما مال ميزان النـهار ضاقت الدنيا فـى عينى فتركت جوادى ودخـلت غابة ومعى سيـفى وكنانتى وعايشـت الطيور والوحوش فيها سبعة أيام وست ليال كنت أتقوت فيها بجذور بعض النباتات والثمار.

ولأنى كنت أمضى سيرا على الأقدام كان سيفى وجعبتى ومنطقتى وما فيها من نقود قد أنهكتنى بثقـلها وما عدت أطيق لها حملا، فأخرجت السهام مـن كنانتى وأمسكت بالقـوس ووضعت كنانتـى ومسدسين وبنـدقيتى وسيفـى وما معى من نقـود فى قراب ورفعت أحجارا تحت صخرة ودفنت فيها السيف والبندقية ومنطقتى واستودعت كل هذه الأشياء الله أمانة فطابت نفسى بذلك، ومضـيت بعد ذلك إلى غدير وتوضأت وصليت ركعتين واستمددت العون من أرواح الأنبياء والأولياء قاطبة، وبينما كنت مندهشا حائرا سمعت صوتا باللغـة البوسنويه هو صوت شيخ مجود وسمعت صوتـا من الجهة المقابلة يقول: أين أنت؟ فـرد الآخر باللغة البوسنويـه: تعال يا ولدى العزيز ولما اسـتمعت إلى هذا الكـلام ارتدت إلى روحى وتنفـست الصعداء ولـكن الشيطان وسـوس فى صدرى وتساءلت هل كل من يسكنون هذه الجبال مـن الكروات والأصقو وهم يتبعون النصارى

وقد أعملوا سيفهم فى العثمانيين فهل هذا الصوت آت من قبلهم. وبينما كنت أفكر فى ذلك قدم صاحب الصوت الذى سمعته فإذا به رجل مع ابنه قدما إلى الجبل يحطبان إلى أن حل وقت الظهر ورُفع الآذان فعرفت أنهما من أمة محمد فتقدمت نحوهما وتعرفت بهما بعد أن ألقيت السلام. فقال لى هذا الرجل باللغة البوسنويه: أهلا بك، هل أنت من سكان هذه الجبال؟

فقلت: كلا إن لى بعض الرفاق خرجت معهم متصيدا فى تلك الجبال التى نعرفها. وسألته: هل أنت من انكشارية قلعة هلونه؟

فقال: أو ليس عندك خبر عن هؤلاء الجند الذين لحقت بهم الهزيمة ؟

قلت: لقد انهزم هؤلاء الجند منذ أسبوع ومضوا إلى قلعة هلونه وقلعة كنين.

فقال: لما استولى النصارى على قلعة «كلس»؟

أما أنا فمهمتى كانت المحافظة على نفسى وأنا أحتضر.

وجملة القول أن الصداقة انعقدت بيننا، وبينما كنا نمضى إلى قلعة «غلاموج» التقينا بحاكمها فى الطريق وبعد حديث طويل أنزل أحد خدامه عن حصانه وأركبنى فحمدت الله حمدا كثيرا وانخرطت فى البكاء. وبعد ساعتين دخلت قلعة «غلاموج» فى موكب وحللت ضيفا فى تلك الليلة على منزل حاكم القلعة، ويا لها من حكمة أن يكون حصن الإسلام على بعد ساعة منى إلا أن الخوف تملكنى فبقيت سبعة أيام وليال ولا يؤنسنى إلا الثعالب وبنات آوى والأرانب والظباء. وفى اليوم التالى طلبت من حاكم القلعة عشرة فرسان فقد تركت تحت صخور الجبل خلانا أوفياء وذهبت لأبحث عنهم مع عشرة من الرفاق وعندما وصلنا الموضع الذى دفنت فيه سيفى وكنانتى وقوسى ومنطقتى تركت جوادى لرفاقى وتقدمت وأزحت الأحجار وأخذت أسلحتى، وكانت الثعالب وبنات آوى أكلت جلد كنانتى وعلقتها فى خصرى على هذه الحالة وأخذت منطقتى كذلك وحملت بندقيتى وحمدت الله حمدا كثيرا، ومضيت نحو رفاقى وامتطيت صهوة جوادى ووصلنا قلعة «علاموج» بعد ساعة، ونزلت ضيفا فيها سبعة أيام.

واتفق لى أنى نمت ذات ليلة وحدث لى ما يشبه الاحتلام واستيقظت على ألم فى خصرى، وبينما كنت فى ثوب النوم أنزلت وتدفق المنى وكأنه دم أحمر مدة ساعة فمرضت سبعة أيام ثم تم لى الشفاء وأكرمنى محمد أغا حاكم القلعة بإهدائى جوادا وثيابا، كما أكرمنى سائر أعيان الدولة وطيبوا خاطرى ووهبونى خادما ووصلت فى كثير من الرجال إلى «تكلى باشا» فى سهل هلونه إلا أننى لم أجد أحدا من رفاقى فقد استشهدوا جميعا فى قتال النصارى واستولى النصارى على قلعة «كلس» وقضوا على من بها من جند، بيد أن تكلى باشا أعلن النفير العام وبدأ فى الدفاع عن الولاية مع أهلها فقدمت والتقيت به فأهدانى جوادا وثيابا وصلتى به كانت جد قديمة، فحما أحمد باشا كان قد تزوج والدة الأميرة «رقية».

وبما أن الشىء بالشىء يذكر فإن ما ذكرته من احتلامى فى تلك الليلة التى قضيتها فى قلعة «غلاموج» لم يكن احتلاما وإنما كان نتيجة انقطاع ذريتى فدب دبيب اليأس فى نفسى إلا أنه بعد مرور سبعة وعشرين عاما هبطت مصر وشربت فنجانين من حساء الأفاعى فى بيمارستان قلاوون وفى تلك الليلة احتلمت مرتين فتوجهت فى الصباح إلى هذا المستشفى وقصصت ما وقع لى من أوله إلى آخره على كبير الأطباء فأعطانى عشر أوقيات من مسلوق الثعابين وحقة من زيت الثعابين وتعاطيت مسلوق الثعابين خمسة أو ستة أيام فتمت عافيتى وصح بدنى حتى إنهم كانوا يكسرون البندق على شحم ولحم جسمى وهكذا أصبح جسمى وكأنه حجر ووجدت كذلك كثيرا من الفوائد .

فوائد تعاطى مستحضرات الترياق الفاروقى

جملة القول أن كبير الأطباء وزع مسلوق الثعابين هذا على الناس جميعا ووضعت يخنى الثعابين التى طبخوها فى صينيات وجلس كبير الأطباء وتلاميذه ومعاونوه على رأس الصينيات وقد غسلوا جميعا أيديهم وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يخنى الثعابين وتناولوه بأيديهم وأمسكوا بأيديهم كل ثعبان واستخرجوا نخاعه من ظهره وكأنه حبل شديد الفتل وهذا ما يسمونه (قرص الترياق الفاروقى) والترياق الأعظم هو هذا النخاع الذى يشبه الحبل. ويستخرج من كل ثعبان مقدار مثقال.

وكل هذا العناء والمشقة والخوف من أجل الحصول على مثقال من هذا الدواء، وكل أعضاء الثعبان المطبوخة ليست فاروقا وهم يلقونها أو يمنحونها للفقراء ليأكلونها والبعض يلقون بها فى الأراضى الخربة.

لطيفة مرغوبة من أجل طائفة الجماع

أتفق أن وزع يخنى الثعابين على أحد العاجزين جنسيا ولما تناوله هذا الرجل جامع زوجته خمس أو عشر مرات، ولما لم يكتف بذلك تأذت منه زوجته وشكته إلى المحكمة فى الصباح قائلة: إنى لا أحتمل هذا الألم والعياذ بالله، فقال آكل لحم الثعابين إنه جامعها عشر مرات، فأصلح قاضى العسكر ذات بينهما على عشرين مرة وكان معظم من استمعوا إلى هذه الشكوى يتعاطون حساء الأفاعى فدعوا الله قائلين: اللهم يسر.

وجملة القول أنهم يسحقون لحم ظهر الثعابين فى هواوين من الخشب حتى تصبح على هيئة معجون أبيض ويَزِنُونَ هذا المعجون، وعندئذ يسمونه قرص الأفعى، وهو معجون أبيض يصفونه بمناخل ضيقة ويخلط قرص الأفعى والعسل الصافى بأوزان معلومة.

وفى كل عام تطهى ثلاثة قدور كبيرة من الترياق الفاروقى فيهدون وعائين إلى السلطان ووعاء إلى الباشا وآخر للصدر الأعظم وشيخ الإسلام فى اسطنبول وكبير الأطباء وقاضى عسكر مصر، وما يتبقى يحفظه ناظر قلاوون على أنه وقف خيرى ويصرف منه إلى المرضى طريحى الفراش فى مستشفى قلاوون، وبذلك يصل هذا الترياق الفاروقى إلى بلاد الترك والعرب والعجم والفرنجة وجميع الأقاليم السبعة.

وبهذه الكيفية كان يطبخ هذا الترياق مرة واحدة فى مصر فى العام ولكن عندما زرتها أمر كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون وهو أستاذ جهبذ بطبخه ثلاث مرات فى العام.

ذكر ميزات حية الصفى

كانت أفاعى الصفى التى سلف الحديث عنها تربو على الألف وللمدرسة التى يصنع فيها الترياق الفاروقى باب يفضى إلى حجرة صغيرة من زجاج وقد مدوا حبالا غليظة من ركن إلى ركن فى هذه الحجرة ثم قام كبير الأطباء بربط ذيول الأفاعى البيض بخيوط من الحرير الأحمر وعلقها فى تلك الحبال فجعلت هذه الأفاعى تتلوى بعنف

وتلدغ بعضها البعض وانتفخت هذه الأفاعى إلى أن أصبحت الواحدة منها فى غلظ الذراع وغُلقت جميع أبواب ونوافذ الحجرة وخرج الأطباء منها، وبعد أربعين يوما أعادوا فتح الحجرة فإذا بالحيات وقد أصبحت كلها مثل حبال شديدة القتل وأصبح ما فى جوفها من عظام مثل البذور السود والرائحة المنبعثة منها أذهبت عقول الحضور.

ميزة أخرى للحية العجيبة

وهذه الأفاعى ذات الرءوس المستديرة كالجوز قطعها القصابون شطرين من نصفها وملحوا جلدها المختلف الألوان وعلقوها من رءوسها فى حبل ودفنوا أطراف ذيولها فى الأرض وتركوها على تلك الحالة أربعين يوما فاحمر لونها وتربست أجسامها فأخذوها مرة أخرى وحفظوها فى حقاق من رصاص بعيدا عن النمل الذى يتهافت عليها. فلحم الثعابين ولحم البشر غاية فى لذة طعمه.

لطيفة غريبة

رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالمون أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم وقد خنقوا بعض أسراهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لا تتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم. ويقولون إن ألذ اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير كما يقولون إن إلية الخنزير وإلية البشر ألذ ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق ويعرفون ذلك حق المعرفة، أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فذبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدركت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

خلاصة القول أننى عندما قدمت مصر لم أجد شيئا يشبه الترياق الفاروقى فى الدنيا بأسرها.

وإذا اتفق أن دخل ثعبان برج الحمام فى بيت أحد وهاجم صاحب الدار فإنه ينطلق إلى أحد صيادى الثعابين، وبالطبع يدفع إليه مبلغا من المال فيدخل البيت ويصيح صيحة وينفخ فى الصفارة المعلقة فى خصره وله صفير خاص فى فمه، وعندما يتردد هذا الصفير تبدأ الثعابين فى الظهور من جميع الأركان وترفع رءوسها وترتمى على الصياد

وتهاجمه فيجمعها كلها فى مخلاته، فتأمن هذه الدار شرها، إلا أن الترياق الفاروقى لا يستخرج من تلك الثعابين بل يستخرج من نوع معين من الثعابين يوجد فى البرية.

وبالحديث عن الثعابين يطول كذبنا ولكنى أشهد الله أن هذا ما وقع ففى عام ١٠٨٥ اتفق أن كان أحمد أفندى إماما لجان بولاد زاده حسين باشا وقد اجتمعت الثعابين فى حجرته فأرجعته عنها. وبينما كان جواد الإمام يعتلف دخل ثعبان منخره فنفق وانتفخت جثته وأصبحت كجثة الفيل وتعذر نقله أو تنحيته جانبا فحفروا حفرة فى هذا الموضع ودفنوه فيها، إلا أن الإمام لم يستطع العودة إلى داره وكنت قد التقيت ذات يوم بأحد صيادى الثعابين فمضيت به إلى حجرة الإمام وعندما وصلها أطلق صيحة عالية وشرع ينفخ فى صفارته وعندئذ خرجت خمسة أو عشرة ثعابين طويلة كل ثعبان فى غلظ الذراع وطول الباع ورفعت رءوسها وتجمعت حول الصياد فتعلق الناس أما أنا فهربت إلى مقر أفندى الديوان وأطللت من النافذة، وربما هاجمت الثعابين الصياد ساعة إلا أنه فى النهاية وضع أحد عشر ثعبانا منها فى مخلاة وقال الحمد لله ومضى إلى سبيله وأمن القصر من الثعابين وعاد الإمام إلى حجرته.

حكاية أغرب الغرائب العجيبة

وبعد أيام عدة وصلنا ميدان الروملى ولعل الصياد باع أحد عشر ثعبانا للحواة بمبلغ عشرة قروش للثعبان الواحد والله أعلم، وكل منها ضخم مخيف ولقد درب الحاوى هذه الثعابين عدة أيام فجعلها ترقص كالقردة فى ميدان الروملى، ويا عجبا لما لهؤلاء الصيادين من سحر، وربما كانت لهم كرامات كالأولياء والله أعلم. والعجيب فى ذلك أنها مسخرات يعجز عنها الوصف وبينما كان الحواة يرقصون ثعابين الإمام اندفع أحد هذه الثعابين ولدغ طفلا فى قدمه، واتفق أن كان فى هذا المكان وفى تلك اللحظة درويش سعدى فامتص السم من موضع لدغة الثعبان فى قدم الطفل وبصق السم وفى الحال تخلص قدم الطفل من السم، بيد أن هذا الدرويش لم يقر قراره فقال: يا حى يا قيوم وسلام على نوح فى العالمين وشوى الثعبان الذى لدغ الطفل لأكله وعلى

الجانب الآخر صاح الحاوى قائلا: وا ويلاه إن هذا ثعبان إمام الباشا وقد ابتعته بأحد عشر قرشا.

وفى نهاية الأمر جاء قوامى نقيب الحواة ومضى بالدرويش السعدى إلى الباشا وفى حضرة الباشا كان الدرويش لم يزل يأكل ما تبقى من الثعبان وقد أزيد فمه أما الحاوى فجعل يصيح كالتنين قائلا: ضاع ثعبانى واستشاط غضبا، وشهد حضور المجلس أن الدرويش أنقذ الطفل من فتكة الثعبان فسر الباشا لذلك فقدم للدرويش ثعبانين ليأكلهما أمامه وقدم إليه كذلك خمسين ديناراً من ذهب، ومنح الحاوى عشرة دنانير والطفل خمسة دنانير، وكان هذا مشهدا عجيبا إلى حد جد بعيد.

ونعود إلى استكمال حديثنا عن أوصاف الترياق الفاروقى ومستشفى قلاوون:

لا وجود فى مصر لمبنى له ما لأبنية مستشفى قلاوون من عظمة ومتانة أوقافه وله صيدلية منقطعة النظير يصرف الدواء منها للمرضى والمجانين وهى لا نظير لها فى الدنيا. إنها مؤسسة خيرية بكل ما تحمله الكلمة من معان.

مستحضرات الترياق الفاروقى المستخرج من قرص الأفعى

إن أطباء المشفى ولو أنهم صنعوا أدوية مختلفة إلا أن أهمها وأعظمها:

* **الترياق الأكبر:** إنه دواء لمائة وستة وسبعين داء وهو يحضر من ستة وسبعين دواء، وهو يطرد الريح من المعدة والأمعاء، كما يشفى أربعين مرضا كذلك.
* **ترياق الطين المختوم:** إذا تناول أحد السم أو لدغته أفعى أو بعض الحشرات وتناول منه مثقالا شفى ونجى من الهلاك بإذن الله.
* **ترياق الطين:** إنه ـ على حد قول الجرجانى ـ نافع من لدغ الثعابين.
* **ترياق اليانوش:** إذا أذيب نصف مثقال منه فى الماء أنقذ من لدغة الأفعى والحية.
* **ترياق الكبير:** أما هذا الترياق فهو نافع لجميع السموم.
* **ترياق الأمير باليوس:** مستحضر عجيب يضفى الجمال على الإنسان ويمنحه صفاء البشرة.

وجميع هذه العقاقير والمستحضرات في مستشفى قلاوون.

ترياق الحكيم هاليوشى الذى يصنع فى عصرنا الحالى

إنه ترياق يعدل الدنيا بأسرها، ومن ملكه ملك الدنيا وما فيها، إنه شفاء لكل داء. فمن تناول مثقالا منه شفى من الجذام والبرص وما شابههما من أمراض، وهو يخرج العرق من البدن فيخرج معه المرض، أما تركيبه فعلى النحو التالي:

قرص أفعى، والقرنفل، والزنجبيل، وجوز البوا، والجنطيانا، والقاقوله، والميع اليابس، والقصب المر، وأصل الكبره، والحناء، وعود القهر، وحب البيلسان، والسليحة، والقرفة والسنبل الهندى، والزراوند، وبذر الكرفس، وبذور الجزر، والفلفل الأسود، وحب القار، وثلاثة دراهم من القرد مانا، وتعجن فى مقدار كاف من العسل الخالص، وتحفظ ثلاثة أيام فى وعاء فخاري مبطن بالزجاج، ثم يسحق هذا الخليط مع ثلاثة دراهم من كل من الأفيون، واللادن والزعفران، ويضاف إلى ذلك الميعة السائلة، ومثقال من ماب الحمار يسحق كذلك مع هذا الخليط،ويضاف ذلك إلي المعجون الموجود فى الأوعية الفخارية المبطنة بالزجاج، ويوضع هذا مثل سائر المعاجين فى الشعير حتى يؤكل منه مثقال، وهو عظيم النفع ومن ملكه ملك الدنيا بأسرها.

وأول من اخترع الترياق الفاروقى، «انوش منافيوش» أحد ملوك القبط.

* * *

الفصل السادس والثلاثون
فى ذكرى ما يهب الحياة لأهل القاهرة
من أسبلة وخلجان وبرك وأحواض وآبار

بما أنه ليس من شىء أعز ولا ألذ من الماء عند جميع مخلوقات الله فقد أنزل فى ذلك آية كريمة على المصطفى ﷺ هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولحاجة مدينة القاهرة بصفة خاصة إلى الماء لم يكن هناك ما هو أعظم ثوابا من توفير الماء لخلق الله فيها. فمنذ أن قَدِمها عمرو بن العاص فاتحا إلى يومنا هذا حكمها مائة وسبعون ملكا، وأقام كل منهم جامعا يتصل به سبيل، كما أنشأوا آلاف الأسبلة فى جهات أخرى وفى كل من هذه الأسبلة حمل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جمل من الماء كما أن سائر الوزراء والوكلاء والأعيان والأشراف أقام كل منهم سبيلا على رأس كل جهة يصعد إليه بسلم حجرى من ثلاث درجات أو أكثر، وهى أسبلة مزخرفة لها نوافذ ذات قضبان من النحاس وقد زينت بالقيشانى الصينى واليشم اليرقانى والرخام والصماقى. علاوة على ما بجانب القصور العالية وأسفل بعض البيوت من أسبلة جميلة ذات زخارف.

وجملة القول أنه كان فى القاهرة - على حد قول الغزالى - ٦٠٠٠ سبيل، أما الآن فهى (   )[1] سبيل، إضافة إلى إلى أسبلة كثيرة على رأس كل جهة وبين بعض الحوانيت.

اشهر أسبلة مدينة القاهرة

* **سبيل السلطان الغورى:**

أعظم وأشهر أسبلة القاهرة، وبما أنه يقع فى مكان مزدحم من السوق السلطانية يزدحم الناس عليه، وهو يقدم الماء النقى من الصباح إلى المساء، وهو سبيل كأنه البحر الخضم فماؤه يقدر بحمل عشرين ألف جمل، وأوقافه عظيمة، وبنيانه متين، ومما يروى عنه أن صهاريجه الأربعة كلها من الرصاص ولذلك كان ماؤها عذب. كتب على شباكه بخط جلى قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

(١) بياض فى الأصل.

• سبيل محمد اوكوز باشا:

فى القلعة الداخلية:

- سبيل «باب القلعة» كذلك فيها من الماء حمل ١٠٠٠٠جمل.

- سبيل إبراهيم أغا رئيس الانكشارية:

يقع هذا السبيل أسفل مقر رئيس الانكشارية، وعلى نافذته تاريخ مسطور هو:

إبراهيم أغا الذى يتفكر فى عقباه

بذل همته فى مرضاة الله

فأقام مثل هذا السبيل الجميل

فقال كل من شرب من مائه الزلال تاريخه

إن هذا السبيل يمتلئ من ماء العين على الدوام

سنة ١٠٣٧

ويليه فى ازدحام الناس عليه:

- سبيل «السلطان الأشرف».

- سبيل «السلطان حسن».

وجملة القول أن كل أسبلة السوق السلطانية جارية الماء على الدوام، وإذا تعرضنا إلى وصف كل سبيل وتاريخه اقتضى ذلك إخراج مجلد ضخم خاص بها.

وفى عصرنا الحالى أنشأ عباس أغا المعزول من منصب أغا دار السعادة سبيلا جديدا فى مدينة القاهرة وهو سبيل ذو زخارف، وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، وكأنه متحف الصين، كما أقام فوقه مكتبا للصبيان.

- سبيل على أغا خازن السلطان محمد خان:

إنه سبيل مزخرف يهب الحياة لكل ظمآن وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، ومقام عليه كذلك مكتبا لصغار الصبيان.

- سبيل مصاحب أحمد أغا:

بالقرب من الداودية، إنه سبيل جميل عليه مكتب لصغار الصبيان وكأن فيه نقوش أرزنك وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

- سبيل عبد الباقى الجورباجى:

بناه بالقرب من دار القونداقجى، وفوقه مكتب لصبيان المسلمين.

- سبيل الكتخدا الحبشى:

أقام محمد كتخدا الحبشى هذا السبيل ووكالة، بيد أن الزمان تنكر له وبيعت الوكالة والسبيل فى المزاد، واشتراهما مصطفى أغا كتخدا آغا دار السعادة يوسف أغا فى اسطنبول، وأرسل إليه يوسف أغا البنات، الحُجج والإيصالات. وهذا السبيل أكثر إزدحاما من كل الأسبلة وماؤه بقدر ما يحمل ٦٠٠٠٠ جمل. وعليه مكتب صبيان ذو زخارف.

- سبيل ذى الفقار كتخدا:

فى باب النصر، ومكتبه جديد مزخرف، وبالقرب منه سبيل آخر للكتخدا الحبشى وهو كذلك سبيل عظيم وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

وجملة القول أنه فى خلال سبعة أعوام أقيم ٧٠ سبيلا جديدا، أما أسبلة سلاطين السلف فكلها مبطنة من الداخل بالرصاص، وفى شهر يوليو تكون مياهها باردة كالثلج وهذه الأسبلة يطهرها الوقف كل عام ويملأونها مرة أخرى من النيل فليس فى القاهرة نعمة أعظم من نسمة الماء، والنيل يبعد عن مدينة القاهرة بمقدار ساعة.

وفى حى سيدى الشيخ عقبة الجهينى أقام «خاصكى محمد باشا» تكية كأنها القلعة وضريحا ومبرة ومدرسة وسبيلا، وماء هذا السبيل حمل ١٥٠٠٠ جمل، وعلى نافذته تاريخ هو:

- لسبيل هذا السبيل هو ماء الكوثر سنة (   )[1]

وعلاوة على الأسبلة الأربعة آلآف فى القاهرة يجلب الماء من النيل عدة مئات الآلآف من الحمر والخيول والجمال إلى الشوارع الرئيسية، وتغص الشوارع بهؤلاء السقائين وهم يرددون «ظهرك، جنبك، هشك» بحيث يتعذر المرور فى هذه الشوارع. ومع ذلك فكل هذه المياه لا تكفى أهل القاهرة وهم فى كثرة مياه البحر.

(١) بياض فى الأصل.

وطبق ما جاء فى سجلات رئيس السقائين أن عدد السقائين النصارى ٢٦٠٠٠ سقاء وكل صاحب قصر له سقاء يجلب له الماء على ظهر الجمل والجواد.

إحدى عجائب مدينة القاهرة

فى مدينة القاهرة إذا هطل ماء الرحمة يشح الماء، أما إذا هطل فى بلاد أخرى يسر الناس جميعا ويستغرقون فى ماء الرحمة. أما إذا هطل المطر فى القاهرة أكل أهلها بعضهم بعضا من شح الماء لأن تراب القاهرة كأنه ملئ بالزيت فإذا ما هطل المطر ما استطاع أحد الخروج من داره، وتعذر سير الحمر والجياد والجمال فى الطرق لجلب الماء وبذلك يقع قحط الماء ويبيع السقاء قربة الماء بخمس بارات، أما الأسبلة فتفتح وتوزع منها المشروبات ويشح الماء، ولذلك يأمر الصوباشى ٥٠٠٠ زبال يحمل التراب اليابس على حمرهم وفرش الطريق العام به، ويبدأ الناس فى السير فى الطريق بسهولة، فليس فى القاهرة أرصفة لذلك توحل شوارعها وتصبح وكأنها شوارع مدينة «سلستره» والعياذ بالله. ولكون مصر بلد ساحلى يهطل المطر فيها مرة أو مرتين فى كل عام.

وإذا ما هطل المطر على الدوام كما هو الشأن فى بلاد الترك لخربت مصر.

ففى عام ٨٣ دام هطول المطر والثلج سبعة أيام بلياليها ولم يستطع الناس المضى إلى المصلى لأداء صلاة الاستسقاء وقد انهدمت بيوت اثنين وعشرين من بيوت الفلاحين والحضر وشح الماء ونزل الثلج على أسطح المنازل بلونه الأبيض الناصع فكان أبناء العرب يقولون: «اش هذا أنزل القطن من السماء» أما الترك حينما شاهدوا ذلك قالوا: «الحمد لله، انظروا إلى رحمة الله» وكانوا يأكلون الثلج المتساقط هذا. وكان أبناء العرب يجتمعون هنا وهناك ويضعون قطع الثلج فى أفواههم وعندئذ كانوا يقولون: «الحاد يا برد النار». أى أنه يحرقهم كالنار. ولكن ذاب الجليد واختفى ودام هطوله فى البحيرة خمس ساعات كاملة، وفى تلك السنة نزل البرد كل حبة فيه فى قدر الدرهم.

ولله الحمد فالنبات فى مصر ليس فى حاجة إلى المطر لأن النيل إذا ما فاضت مياهه غمر أقاليم مصر، وجعلها بحرا قانى الحمرة، ثم ينحسر الماء ويزرعون الأرض، وينضج

المحصول فى ستين يومـا، ويجمعونه فى مخازنهم، ولذلك لا تمـس حـاجتهم إلى المطر ويجرى هذا مجرى المعتاد بإذن الله . . . يا لها من حكمة عجيبة.

* * *

الفصل السابع والثلاثون

ذكر ينابيع مدينة القاهرة

في القلعة الداخلية واحد وعشرون ينبوعا يأتيها الماء من النيل المبارك عبر ٣٦٠ قنطرة من خيرات السلطان الغورى، وتصل المياه إلى أسفل القلعة فترفعها السواقى ليل نهار، وثمة خزان عظيم للماء له قباب يمتلئ هذا الخزان بالماء وفى الصباح يأتى سقاؤو القلعة وعددهم ٥٠٠ لحمل المياه فى قربهم، فيسقوا البيوت التى فى القلعة، وتباع أربع قرب بيارة، وأحد هذه الينابيع لها قبة عظيمة أسفل «الضرب خانه» بالقلعة الداخلية، ولها مواسير فى غلظ ذراعين وماؤها يأتى من السواقى المجاورة لقصر الباشا.

وثمة ينبوع آخر بالقرب من الشيخ سارية إلا أن ماءها من بئر يوسف لذلك فهو أميل إلى الملوحة وثمة سواق أخرى لينابيع وأحواض وشادروانات الشيخ سارية وماؤها أميل إلى الملوحة.

وفى شمال قلعة الانكشارية بالقرب من جامع «قان باى سلطان» نبع على صخرة قائمة تأتى مياهها من بئر كأنها حفرت فى جهنم.

وخارج القلعة فى مقر أتباع الباشا ينبوع ذات قبة عظيمة أسفل قاعة ديوان السلطان قلاوون ذات الأربعين عمودا وهى ينبوع لها ماسورتان فى غلظ الذراع وماؤها عذب زلال ويجلب السَّقاؤن الماء منها لأتباع الباشا، ومياهها كذلك من المياه التى تأتى عبر قناطر الغورى.

وينبوع آخر فى ميدان قصر الباشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة وماسورتان وماؤها صاف، ويأتيها الماء كذلك من قناطر الغورى.

وينبوع آخر بالقرب من مخبز رئيس الخبازين وله ست مواسير تتصل بصنابير يتوضأ منها المصلون وجميع أتباع الباشا يروون ظمأهم منها إنه شراب طهور، وماؤها يأتى كذلك من سواقى الغورى.

وفى مطبخ الباشا ينبوع كذلك ذات ماسورتين وماؤها صاف تشرب منه الجياد وهو منسوب كذلك للغورى.

وتتوسط حجرات العزب ينبوع لها قبة عالية تهب الحياة، ويصعد إلى قبتها بسلم من ست درجات، إنها عين الحياة، ولها ماسورتان متجاورتان فى غلظ الذراع، وهى كذلك منسوبة إلى السلطان الغورى.

وفى داخل باب العزب كذلك ينبوع يجرى فى اسطبل طائفة عسكر حجاج المسلمين، وتشرب كل الخيول من هذا الماء العذب وهذا النبع كذلك من خيرات السلطان الغورى. وليس فى القاهرة ينابيع سوى هذه وما فى القلعة الداخلية.

وإذا ما سئل عما إذا كانت هذه الينابيع تكفى أهل القاهرة وهم بحر من البشر فتذكر ما جاء فى فرمان السلطان مراد الرابع عن الآبار والينابيع والسواقى بيد أن سواقى البساتين والحدائق قليلة وهى خاصة بها وحدها.

بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق

فى عهد السلطان (مراد الرابع) وعندما كان بيرم باشا واليا على مصر- بناء على الفرمان السلطانى - أحصى جميع مبرات ودكاكين الأسواق السلطانية، وما تحتويها، وعرض ذلك على السلطان (مراد)، وجاء فى هذا الإحصاء أن فى القاهرة ٢٧٤٠٠٠ بئر ! ذلك لأن ما سلف ذكره من قصور السلف والوزراء والوكلاء والأعيان والأعراف يضم خمسة أو ستة آبار، أو على الأقل بئر واحدة لكل قصر من هذه القصور.

فضلا عن آلاف الجوامع والمساجد والخانات والمبرات والمدارس لكل منها بئر أو أكثر وعلى رأس كل طريق، وداخل بعض العطفات أحواض طويلة تسقى منها دواب المسافرين من خيل، وجمال، وثيران، وحمر. ولكل حوض منها سواق ذات سقف منقوش ذى زخارف، يقوم على أعمدة من حجر، وتستخرج هذه السواقى الماء من الآبار، ويتدفق الماء من ثلاثة مواضع على هيئة رؤوس أسود أو تنانين أو شياطين، فتملأ الأحواض وتشرب منها كل الدواب.

وفى مدينة القاهرة ٩٢٠٠ ساقية ذات حوض، وكل منها من خيرات سلطان، أو وزير، أو عين من الأعيان.

فى القاهرة ٨٩٠٠ طريق من طرق رئيسية ودروب، وأسواق سلطانية، و١٧ حارة منها ليس لها أبواب كالطريق الرئيسى، وفى كل ليلة يعس (الصوباشى) فى ٦٠٠ أو أكثر من رجاله مع (الديودار) للحفاظ على الأمن والحراسة.

وفى الصباح يقوم زبالو الحمامات بكنس الطريق العام، ثم يقوم كل صاحب دار أو دكان برش الماء فى الطريق من الآبار سالفة الذكر، وبذلك تنظف الأسواق السلطانية، وطرق المسلمين، والطرق الرئيسية خاصها وعامها ويطيب هواؤها، إلى حد لا تبقى فيها ذرة من تراب وبذلك يجد جميع أهل السوق الراحة. هذا هو النظام المرعى فى الكثرة الكاثرة من الطرق الرئيسية العظيمة.

وفى بعض العطفات كذلك، يرش سقاؤو ديارها الماء فى الطرق فيلطف هواؤها.

وفى القاهرة بعد (كسر النيل) يجرى ماء النيل المبارك داخل القاهرة وخارجها من أربعين جهة، ويحمل السقاءون المياه من الخلجان، ويباع حمل جمل من الماء بـ (باره)، وتباع قربة الماء بـ (منقرين). ويشرب أهل القاهرة الماء الصافى فترتد إليهم الروح.

ثمة خليج أسفل إحدى سواقى الغورى هو خليج (جسر المنجان)، ويسميه العوام (خليج قطع النيل)، وفى سفح جبل الجوشى بئر تسمى (بئر أفناى)، وأول من حفرها هما (هاروت وماروت) بعد هبوطهما إلى الأرض، وقد عرفا فيه علم الرصد وكانا يرقبان الكواكب، وعلموا أهل القاهرة علم النجوم والسحرة حتى أصبح كل أهلها من السحرة.

وبئر (أفناى) تلك موجودة إلى الآن إلا أنها خربة لعدم وجود ماء فيها. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر بتطهيرها فأصبحت كما كانت فى عهد هاروت.

***

الفصل الثامن والثلاثون

بيان جميع الخلجان التى يسقى منها كل ذى روح فى القاهرة وجميع الناس فيها

فى شهر يوليو من كل عام تغيض المياه فى كل أنحاء الدنيا، أما فى مصر فى اليوم ( )[1] من نفس هذا الشهر وهو رأس السنة القبطية الذى يسمونه (توت) يفيض ماء النيل ويموج وكأنه البحر الخضم، وبعد سبعين يوما من (توت) يرتفع منسوب النيل فى (أم القياس) بمقدار عشرين ذراعا وعندئذ يحتشد جميع أعيان القاهرة وأشرافها وعلماؤها وصلحاؤها ووزراؤها وأمراء جيشها على رأس الجسر المسمى (أبو المنجا) والواقع أسفل ساقية السلطان الغورى، ويرفعون أصواتهم بالدعاء والثناء، ويرفعون التراب الذى سد به الخليج الذى أنشأه المقوقس أثناء حكم ملوك القبط، وبذلك يفيض ماء النيل فيضانا وكأنه البحر، وينطلق ماؤه فكأنه سهم أطلق من قوس شديد.

ويمضون بقارب (الصوباشى) إلى داخل المدينة. وعلى ضفاف هذا الخليج الجارى بسيرة ثلاث ساعات من داخل المدينة وحتى جوسق الغورية قاعات وحجرات متعددة وقصور ذات أحواض وشادروانات، وعلى ساحل هذا الخليج كذلك مقاصير ذات حدائق غناء والناس فيها يمرحون ويبتهجون، ويطربون فى منازلهم ليل نهار، وتصبح مجالسهم أشبه بمجالس السلطان (حسين بيقرا)[2].

ويجرى ماء هذا الخليج ثلاثة أشهر بتمامها، تتوفر خلالها المياه لدى أهل القاهرة ولا يعانون أى نقص للمياه. ويمرحون على ضفاف هذا الخليج خمسة أشهر كاملة، وتصبح أيامهم أعيادا كعيد الأضحى، ويجالس كلٌ أحباءه ويسامرهم فى مجالس كثيرة الزينات وهم يصيدون السمك بشباكهم، وتأتى جميع الحسان إلى هذا الخليج وينزلن فى مائه

(١) بياض بالأصل.

(٢) أحد علماء السلاطين، غلب على مدينة هراة سنة ٨٧٢ الهجرية، وجعلها حاضرة ملكه ووزر له مير على شير نوائى، فالتقيا على حب العلم وإكرام العلماء فكان قصره فى هراة مثابة لأهل العلم والفضل بسط رعايته عليهم وغمرهم بنواله، وتوفى رحمه الله عام ٩١١هـ. انظر: المعجم الفارسى العربى الجامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص١٢٤.

وهن عاريات بلا إزار ويسبحن كأنهن سمـك من لجين، ويَغُصْنَ فى الماء ويصدن قلوب العشاق ويصعدن إلى الشاطئ.

وفى مواسم الخلـيج هذه فى القاهرة تلـتقى الحسناوات مع عشـاقهن بلا خوف ولا مبالاة وينزلون فى ماء الخليج ويعانق الحبيب حبيبته.

وتغدو وتـروح آلاف القوارب فى الخـليج، وقد زينـها أصحابهـا بالأعلام المختـلفة الألوان ويجلس شباب العرب فى مؤخرة القوارب مع محبوباتهم مرددين (مصراع):

«احمل كأس المدام فى يدك وتعال لترشفها»

يرددون هذا وهم يرشفـون الشراب فى كؤوس من زجاج ويعبرون الخـليج على هذه الصورة، وهم يتغنون بمختلف النغمات (مصراع): «بادروا إلى المتعة فما متعة مثلها».

ويتغنون بهذا فيستخف الطرب بمن يسمع صوتهم الرخيم.

ومنهم من يربط زورقا فى آخر، ويفرشـون عليهما آلات الطرب من صنح ورباب، وناى، وطبل، وقانون، ويعزفون عليها باثنى عشر مقاما وأربعة وعشرين أصلا ويعزفون بلا انقطاع، وكأن عزفهم هو عزف الفارابى وغلام الشادى. ويدوم الحال على ذلك ليل نهار وتزين القوارب بالقناديل وتستمـر الألحان مع صيحات العشاق، ولا يعد ذلك عيبا فى هذه الأيام، وفى هذا الوقت تستر مـساوئ القاهرة وتبرز محاسنها.

الخليج الثانى: (خليج السلطان أوزبك)

أسفل قصر العينى، إنه خليج واسع، يخترق فى جريانه الحدائق، وينصب فى (بركة الأوزبكية)، ومنها يجـرى إلى أسفل حديقة العجم حتى يصل إلـى جسر الليمون، وما أكثر ما يروى هذا الخليج من حقول وبساتين، ويمر أسفل جسر (الظاهر بيبرس) ويروى أراضى (قليوب) ويغيب ماؤه هناك.

أما الخليـج الذى يخترق مدينـة القاهرة يمر مـن تحت جسر (إبراهيم بـاشا) الجديد شمال المدينة ويمر بـساحل (جميز العبد)، ويقطع ثلاث مراحل حتـى يصل إلى بلبيس ويرويها إنه خليج عظيم.

أما الخليج الآتى إلى الأوزبكية هذه فتجرى مياهه مخترقة نفس الحدائق، وفيه كذلك مكان للمتعة والطرب، إلا أنه مكان للرعاع والأراذل، وهو كالخليج الذى يخترق المدينة ليس موضعا لقوم لهم أعراض.

الخليج الثالث: (خليج السلطان برقوق)

أسفل البارود خانه، بالقرب من مدينة بولاق، وهو كذلك يروى حدائق وحقول بولاق، ويمضى ماؤه إلى (قليوب)، وبه أماكن للنزهة والمتعة كذلك.

الخليج الرابع: (خليج السلطان قايتباى)

إنه خليج عظيم بين قصر السبتية وبولاق، يمضى ماؤه إلى قليوب، ويروى أراضى الشرقية.

الخليج الخامس: (خليج السلطان ناصر الدين)

يقع بين بولاق والبلدة الصغيرة المعروفة بشبرا، ويجرى حتى الشرقية ويروى أراضيها.

وقد شق هذه الخلجان مهندسو السلف لرى جميع الولايات فى مصر، ويركب الناس القوارب فى هذه الخلجان ستة أشهر، ويحملون الغلال من إقليم إلى إقليم.

أما الملوك الذين جاءوا من بعد فقد شقوا من هذه الخلجان الترع ووزعوا ماؤها على جهات القاهرة الثلاث، وتمضى فى هذه الترع كذلك القوارب خمسة أشهر.

إنها أربعون ترعة، شقت فى خمس وأربعين بقعة فى مدينة القاهرة. وفى موسم ترع هذه الخلجان تصبح القاهرة جنة وتغزر المياه، ويعهد إلى كتخدا والى مصر أن يطهر هذه الترع وكان لزاما على كل صاحب دار - مهما كانت منزلته - أن يطهر ماء ما أمام داره أما فيما عدا ذلك فيحضر حكام ورعايا الجيزة وقليوب والشرقية الثيران والجرافات لتطهيرها، وهذا ما يتكلف فى كل عام سبعة أكياس ويعين لذلك موظف برتبة (رئيس البوابين) وتطهير هذه الترع كل ثلاثة أشهر.

- جسر السبوع:

يقع هذا الجسر أمام (يكى قابو) أى الباب الجديد ، إنه جسر متين من ثلاثة فروع وقد أنشأه السلطان ( )[1] عام ( )[2]. والسبب فى تسميته باسم جسر السبوع أنه فى مرفأ الخليج فى ناحية بولاق كان أسدان مهيبان من الرخام فى حجم الحصان من شاهدهما ظن أن لهما روحًا وكانت كل القوارب تتهيأ للحركة من هذا المرفأ وتحمل الناس إلى أى مكان يريدون الوصول إليه.

- جسر السلطان إينال:

إنه جسر خشبى من سوارى القوارب ويعبروه سيرا على الأقدام، وقد أقيم هذا الجسر للعبور إلى جامع (الجماعة) فى الناحية المقابلة للخليج، أما الآن فقد أصبح هذا الجسر طريقا عاما.

- جسر العمرسى:

إنه جسر متين على الرغم من أنه من فرع واحد.

- جسر الجماميز:

إنه جسر عظيم واسع من فرع واحد، وعلى جانبى هذا الجسر مقاهى، ذات حجرات ومقاعد وفيرة، وعليه كذلك عشرون دكانا، ومن يجلسون فى هذه المقاهى يصيدون السمك بالشص.

- جسر السنقور:

من فرع واحد إلا أنه واسع، وعلى جانبيه أكثر من أربعين دكانا ومقاهى، ذات زخارف تطل جميع نوافذها على الخليج ويتردد على هذه المقاهى علماء مصر، إن هذا الجسر طريق رئيسى عظيم.

- جسر (باب الخرق):

شيده إسكندر باشا وزير السلطان سليمان، وثمة جامع سلطانى معلق فى حارة (صانعى القدور)، وكل من يصلى فى هذا الجامع يشاهد الخليج، إنه جامع طيب

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

النسيم، وهذا الجسر من فرع واحد إلا أنه أوسع وأمتن من جميع الجسور، ويعلوه دكانا سلطانيا، أما مقهاه ففى رأس الجسر الآخر ناحية بولاق. إنه أكثر جسور القاهرة ازدحاما.

- جسر الأمير الحسين:

إنه جسر واسع عليه مقاهٍ ذات مقاصير مطلة على النيل، ويعلوه ٣٠ دكانا للزياتين والعطارين، وكل كواتها مطلة على الخليج، إنه طريق رئيسى عظيم.

- جسر الموسكى:

إنه صراط طويل مرتفع من فرع واحد، وعلى جانبيه دكاكين ذات زخارف، ومقاهٍ ذات ثلاث مقاصير ولأن من شيد هذا الجسر هو من يسمى (مثقال شرف زاده) - من مهندسى الحاكم بأمر الله - سمى هذا الجسر (قنطرة الموسكى)، إنه فى الحقيقة جسر واسع، وكل من يرتاد مقاهيه من العلماء والموسيقيين ولهم لغط فيها صباح مساء ويتجاذبون أطراف الحديث بينهم.

- جسر البيت:

إنه ليس مجرد طريق عام بل هو بيت قديم يشبه قصرا شامخا مقاما على جسر.

- جسر البيون:

يقع بالقرب من الجسر السابق ذكره، إنه جسر بنى حديثًا، وهو كذلك ليس طريقا عاما بل طريق خاص، إنه مقر متعة ونزهة لأهل العشق، ومنه توزع صنوف الأطعمة على من يغدو ويروح.

- جسر باب الشعرية:

إنه جسر عظيم من فرع واحد، وهو أوسع الجسور، وهو طريق عام مزدحم يعبره جميع أرباب الحاجات، وعلى جانبيه دكاكين، أما مقهاه فهو بعيد.

- جسر الخروب:

جسر متين البناء من فرع واحد، وعليه مقهى علوى وآخر سفلى، والسفلى منه على ضفة النيل مكان نَزِهٌ جميل، وبعضهم يدلى قدميه فى الماء ويصيد السمك بصغير

الشباك وإذا ما شاءوا نزلـوا فى الماء وسبحوا. إنها مقهى جمـيل، ولا دكاكين فوق هذا الجسر.

- جسر الخشخاش:

جسر من فـرع واحد، لا دكاكين علـيه، إنه جسر قلـيل الزحام لأن الناس يـركبون القوارب للنزهة ويمرون من تحته.

- جسر أبى الخير إبراهيم باشا:

إنه جسر متين شيد عام ١٠٨٣ من أجل عبـور عتاد اليمن إلى السويس، وهو على مقربـة مـن جامـع الظاهــر بيبرس خـارج المديـنة، إنه جسر غاية فى دقة بنائه وجمال صنعه.

- جسر الور:

من فرع واحد، وهو خارج المدينة .

- جسر جميز العبد:

إنه جسر جمـيل خارج الطرف الشمالى لـلمدينة، وهو من خيرات المـلك الظاهر، ويقال لطرفى هـذا الجســر (جميز العبد)، وفـى هذيـن الطرفـيـن أشجار جميز ضخمة لا وجود لمثلها فى مصـر، زرعها عبد أسود ولما كان يصلى تحت ظلالهـا سميت جميز العبد، وإليها يمضى أعيان مدينة القاهرة فى الـقوارب ويجلسون فى ظلالها طلبا للمتعة والنزهة. إنه مكان نزهة على ضفة الخليج.

وهـنا نكـون قـد انتهينـا مـن الحديــث عـن جسـور الخلجان التى تجرى داخل مدينة القاهرة.

وصفوة القول أن الجسور المقامة على خلـجان مدينة القاهرة وترعها ٣٦ جسرا. لان النيل يجرى بين ما فى جوانب مصر الأربـعة من رياض وبساتين تعلوه جسور. وتجرى مياه الخلجان والترع هذه فتصبح خلجان مصر فى داخلها وخارجها مترعة بالماء.

***

الفصل الأربعون

ذكر البِرَك التى تشبه البحار داخل مدينة القاهرة

- بركة الأوزبكية:

مما لا ريب فيه أنها أعظم بِرَك مدينة القاهرة، محيطها أرض تُقطع فى ساعتين، وعندما يفيض النيل تمتلئ بالماء وتموج كأنها اليَمّ. وكم من مئات القوارب التى تحمل الناس من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر ويصيدون منها أنواع السمك، وكم فيها من قوارب تعرف (بقوارب أبى الخير) وهى قوارب كبيرة فى جوفها دكاكين بها كل ما يُشتهى من مطعوم ومشروب، وتمضى هذه القوارب من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر لبيع المطعوم من البقل إلى الفجل. وحول بركة الأوزبكية هذه حدائق ذات مقاصير وقاعات وممرات ومقاعد ومعروشات، وفى هذه الحدائق قصور كقصر (الخورنق)، ومنازل ذات نقوش وكأنها نقوش الصين.

إنها بِركة عظيمة على جوانبها الأربعة جوامع حولها مروج، وكل من هذه الجوامع من خيرات ملك من ملوك السلف، يقصر اللسان والبيان عن مدحه، إنها جوامع تُكسب البِركة بهاء.

- القصور الواقعة على ضفتى البِركة:

وعلى ضفة هذه البركة قصر (رمضان أغا) أمين الأنبار[1] وهو أعظم القصور العالية، وقصر باقلاجى محمد بك أمير جدة، وقصر مصطفى أغا، وقبالته على الجانب الشرقى قصر قاسم بك قبودان[2] السويس، وقصر حسام زاده ومئات من القصور الأخرى، أما أعظم هذه القصور قصر سيدى الشيخ البكرى زاده عزيز محمد أفندى، وقد ورثه عن أجداده العظام.

إنه قصر عظيم كائن فى الركن الجنوبى للبركة ويتألف من ٣٦٠ حجرة مزدانة بالمقاصير والأحواض والشادروانات والقاعات المختلفة، وفيه بيوت أخرى للضيوف

---

(١) الأنبار: مخازن الغلال. ومنها أنبار يوسف عليه السلام، وهى مشهورة بجنوب القاهرة.

(٢) قبودان: قائد أسطول بحرى.

والمجاورين، وفيها من سكنها عام أو أكثر يتناولون طعامهم من السماط المحمدى، وتخلع عليهم ثياب طوال أول كل عام، فيدعون بالخير لأهل الخير.

ولسيدى العزيز ولدان عزيزان عليه: أحدهما أبو المواهب وهو صاحب كرم، وخير منه زين العابدين خفيف الظل، مضياف، رحيم، غزير العلم.

وعلاوة على قصور عزيز چلبى هذا له بيوت لكل منها حرم وتكية ذات حمام.

وينتسب أجداد العزيز چلبى إلى عمرو بن العاص وأبى بكر الصديق - رضى الله عنهما- فى عهد عمر بن الخطاب، ونار مطابخهم لا تنطفئ، ويقدمون الطعام صباح مساء للغنى والفقير والخاص والعام، وهم يفخرون بدوام اشتعال النار فى مطابخهم، وكم لهم فى مصر من أوقاف وضياع وأفدنة وأرزاق.

وشيوخ البكرية من أعيان القاهرة كذلك، وفى كل عام ليلة الاثنين من اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول يحتفل بالمولد بشكل يقصر عنه الوصف.

وفى تلك الأثناء يشتد الحر فيجف ماء البركة ستة أشهر وتصبح مرجا مخضوضراً. وفى أيام الاحتفال بالمولد يأتى شيوخ مائة وأربعين طريقة إلى ساحة هذه البركة ومعهم خيامهم التى يقيمونها مع من يصحبهم، ويقيمون خمسمائة أو ستمائة خيمة، وفيها يقرع الشيوخ والعلماء وعدة آلاف من الدراويش الدفوف ويقيمون حلقات الذكر ثلاثة أيام بلياليها.

ويعلق أصحاب البيوت على حافة البركة القناديل وعلى نوافذهم وجدرانهم حسب مقدرتهم، ويزين نظار الجوامع على حافة البركة منائر وصفات الجوامع وكأن الرسول ﷺ ولد فى تلك الليلة، وفى تلك الليلة يعم النور القاهرة. يا لها من بركة عجيبة عظيمة.

- البركة الثانية: (بركة الفيل)

وهذه البركة أصغر فى الطول وأقل فى العمق من بركة الأوزبكية، بيد أن جوانبها الأربعة مزدحمة ولا موضع فيها لأرض خالية قدر ذراع وحولها منازل ذات نافورات وأحواض وحدائق، وجوها لطيف إلى حد جدٍ بعيد. إنها بركة عظيمة تمتد من الجنوب إلى الشمال، وتجرى فيها القوارب تغدو وتروح، وليس بها منفذ، ويأتيها ماء النيل

مترسبا تحت الأرض من ناحية الباب الجديد. ولأصحاب البيوت المطلة على هذه البركة سفنهم وقواربهم الخاصة بهم، وينتقلون بهذه القوارب بين قصورهم. إنها موضع عظيم للشرفاء بحكم وقوعها فى منطقة مزدحمة فى مدينة القاهرة.

ومن أعظم القصور الواقعة على أطراف هذه البركة هو قصر سيد برهان الدين نقيب الأشراف الذى يتصل نسبه بالحسين من أهل هاشم، وهو شيخ علته الكبر والوهن، وكان بيته منذ تسعين عاما يبذل منه الطعام للغادى والرائح.

كما أن على حافة تلك البركة قصر (الخزينة دار المصاحب شاهين أحمد أغا)، وقصر معتق عباس أغا البنات، ودار شعبان أغا رئيس المتفرقة، وأفضل ديار الشيخ السادات، وقصر بكر أفندى كاتب الانكشارية، وقصر قانصو بك الذى كان قصر السلطان ( )[1] وهو قصر يعجز عنه الوصف، وقصر المصاحب صالح أغا، وقصر البلتاجى محمد خليفة، وقصر الداماى، وقصر سليمان أغا، وقصر مصطفى أفندى الانكشارية، وقصر المصاحب خليل أغا وقصر قيطاس بك، وقصر نذير أغا، وقصر أمير الحج، وقصر أبى المواهب أفضل أبناء الشيخ السادات، وقصر بوشناق محمد أغا، وقصر مصطفى أغا رئيس التوفنكية (أى حملة البنادق)، وقصر أحمد أغا چاووش رئيس الإنكشارية، وقصر سليمان بك، وقصر سليمان چاووش . . .، وجملة القول أن على ضفة بركة الفيل سبعون قصرا لملوك السلف، ومائتا دار عظيمة.

وفى هذه البركة سفينة واحدة من النوع المعروف بـ (أبى الخير)، وهى تنتقل من قصر إلى قصر لبيع صنوف المأكولات والمشروبات.

سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل

أما سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل: أن أحد سحرة فرعون استعرض سحره فجعل هيئته على هيئة فيل، وأكل من عشب هذه البركة وشرب من مائها ولذلك سميت بركة الفيل، وفى رواية أخرى أنه عندما قدم الخليفة المأمون إلى مصر من بغداد، أحضر معه مائتى فيل وجعلها فى هذه البقعة لتبترد، ولذلك سميت بركة الفيل.

(١) بياض فى الأصل.

وبعض أصحاب القصور المطلة على هذه البركة حينما يحتفلون بمولود لهم، أو بمناسبة سعيدة يزينون قصورهم بالقناديل، ويزينون سفنهم وقواربهم بالأعلام، ويطلقون البنادق فتمتلئ السماء بما يشبه الشهب الهابط من السماء، وكم من قذائف (الفشنك) تسقط فى الماء وتغوص فى الماء وتطهى السمك.

وتبقى المياه فى هذه البركة عشرة أشهر بتمامها، وتحول الأراضى التى جفت منها إلى بساتين، ويزرعون فيها شماما، وبطيخا غاية فى لذة الطعم، إنها بركة وفيرة المحصول.

- البركة الثالثة: (بركة الرطل)

بركة مستديرة الشكل، يطاف حولها فى ساعة، ماؤها عذب فرات، وعلى الجانب الشمالى والغربى منها حدائق فقط، فى جانبها الجنوبى شوامخ القصور، منها قصر محمد چلبى الضريخانجى، وكأنه حديقة إرم، وله شادروانات عظيمة وسفينة، وقصر سيد أحمد الجيزى، وقصر حسن البكرى، وقصور أخرى، وجو هذه البركة لطيف إلى أبعد حد، وكثير من الناس يغدون ويرحون فيها بالقوارب، وهى على مقربة من بولاق.

البركة الرابعة: (بركة مصنع القرميد)

بركة على هيئة مربع، عذب ماؤها.

- البركة الخامسة: (بركة الغسال)

بركة عذبة الماء، يغسل فيها أمتعة المدينة، ولذلك تسمى بركة (الغسال)، وتمتد حتى الفيوم بمسيرة يوم وليلة، ويصاد السمك منها ويحمل فى زنابيل إلى القاهرة، ولا يستطيع إنسان أن يقترب من هذه الزنابيل لرائحتها الكريهة، وتحمل هذه الزنابيل على ظهور الحمير وتطرح على حافة البركة، وتغسل كل سمكة على حده فتنبعث من أذنها الدماء وكأنما عادت إلى الحياة.

وثمة سمكة لذة للآكلين، يتهافت عليها المصريون، ويسمونها سمكة يوسف، ومائدة يوسف، وحوت يوسف، إنها سمكة منقطة، وقد أكلت هذه السمكة فى الفيوم عملا بقولهم: «أكلت السمكة حتى رأسها»، ولكنها كانت قد غسلت فى بركة الغسال

وليس لها سهك (أى رائحة السمك الكريهة)، إنها سمكة لها رائحة السمك، ولأنها تغسل فى هذه البركة فهى كسمكة مائدة القدرة.

ولبركة الغسال هذه ميزة مشهورة فى الآفاق، فإذا نزلها مجذوم لأربعين يوما، وشرب من مائها أصبح جسمه كالدر السمين.

- البركة السادسة: (بركة الدباغين)

بركة مستديرة الشكل فى حى عابدين، يحيط بها منازل من ثلاثة طوابق أو أكثر، وعلى أحد جوانبها مدبغة عظيمة للدباغين، وماؤها عذب فرات ولذا فسمكها غاية فى لذة الطعم.

ويجرى فى هذه البركة قوارب خاصة مصنوعة من القرع، يركبها صيادو السمك لصيد السمك بشباكهم ثم يمنعونه فى سفافيد.

- ميزة:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا ما أصيب أحد باليرقان (أى الصفراء) وأصبحت عينه ووجهه وجسمه فى صفرة الكهرمان الصافى ونزل فى مياه هذه البركة ثلاثة أسابيع يوميا فى الصباح قبل الإفطار، وغاص فيها ثلاث مرات وخرج وشرب من مائها شفى وأصبح جسمه فى بياض الفضة الخالصة.

- البركة السابعة: (بركة قارون)

شقها قارون، وهى على شكل مخمس، وتحيط بها الحدائق من جميع الجهات.

- ميزتها:

ومن ميزاتها أنه إذا ما نزلها أحد المنحوسين أربعين يوما فارقه النحس، ودخل يده مال قارون. إنها بركة تجرى مياهها بالطلاسم، إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة. وتستمد هذه البركة مياهها من النيل، إلا أنه مع ذلك ماء ملح.

- البركة الثامنة: (بركة الشواربى)

نشأت فى قديم العصور، وتنسب إلى أبى الشوارب وكان أميرًا مصريا شيد قصرا عاليا على ضفة هذه البركة، ولذلك سميت باسمه.

- ميزتها:

وهذه البركة إذا ما نزلـها مصروع وقت الظهيرة حين يشتـد الحر واغتسل وشرب من مائها برئ من الصرع بإذن الله. إنها بركة ذات طلاسم.

- البركة التاسعة: (بركة الحبش)

بركة مربعة الشكل على هيئة بحيرة، ماؤها عذب.

- ميزتها:

إذا ما نزلت هذه البركة امرأة حائض، برأت من النـفاس، والكثرة الكاثرة من البغايا المقيدات فى سجل الصـوباشى ينزلن فيها، وتلك حكمة عجيـبة، وقد سألتُ عدةَ نساء عن ذلك فقلن لى تحقق من ذلك.

- البركة العاشرة: (بركة بيبرس)

بركة صغيرة شمال مدينة القاهرة بالقرب من جامع السلطان بيبرس.

- ميزتها:

وهذه البركة إذا ما غسلوا فيها الخضروات مثل: السبانخ والطماطم والملوخية والبامية والفجل، نضرت وأصبحت طازجة وكأنما قلـعت لتوها من الأرض، وتذبل بعد يومين أو أكثر. إن تأثيرها لعجيب.

- البركة الحادية عشرة: (بركة الكبش)

بركة مثلثة الشكل، أسفل قلعة الكبش.

- ميزتها:

فى عصر الكهنة كانت تجرى فى هذه الـبركة قوارب نحتت من صخر، وكانت هذه القوارب تتسع لركوب أربعة أشخاص فيهـا، وتغدو وتروح هذه القوارب إلى النيل عبر هذه البركة، وهذه القوارب الآن تحت أحد العقود بجانب قلعة الكبش.

- البركة الثانية عشرة: (بركة عين شمس)

ليس بها ضفدعة، ولا ثعبان، ولا حية.

- البركة الثالثة عشرة: (بركة الحج)

إنها بركة مطلسمة إلى الآن.

- ميزتها:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا حملت قربة ماء من هذه البركة إلى الحج لا يتغير طعم مائها حتى ولو احتفظوا به فى جرة مدة عام.

وهى من المطلسمات القديمة، وفى موضعها مسلة من حجر، وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة صور متنوعة غريبة ونقوش عجيبة، إلا أن على هذا العمود من أسفله إلى أعلاه خط إدريسى يقرأه القبط، ولا يقرأه أحد سواهم، ومعنى رموز هذا الخط هو: «انظر إلى وجهى واحفر قاعى، فحيث يكون العقل يكون المال !»، وقد هلك كثير ممن حاولوا سرقة هذه المسلة، وفى النهاية تفجر الماء من قاع هذه المسلة وتكونت بحيرة تبقى ستة أشهر فى العام، وتجف ستة أشهر أخرى، والباحثون عن الكنوز من المغاربة يحضرون إليها ويحفرون أرضها بحثا عن المال إلى الآن.

إجمالى عدد البرك فى مدينة القاهرة

إنها جميعا ١٧ بركة لكل منها ميزة تميزها عن الأخرى، وقد حفر كل منها، فى الزمان، مهندس بارع، وجعل فى كل منها طلسما. وتأثير هذه الطلاسم دائم إلى الآن.

وهذه البرك التى تقع داخل القاهرة لها عظيم أهميتها، لأن ماءها الطاهر يرد على المصريين أرواحهم، ويلطف من جو المدينة.

***

الفصل الحادى والأربعون

أوصاف مدينة ميناء بولاق المشهورة فى الآفاق

الوصول إليها بالاتجاه من مدينة القاهرة غربا خلال ساعة عبر الحدائق. إنها مدينة عظيمة على ضفة النيل، وبلاق فى اللغة العربية بمعنى (   )[1].

وهى مدينة يمتد عمرانها طولا من الجنوب إلى الغرب ألفين وخمسمائة قدم، وعرضها فى بعض المواضع سبعمائة قدم والبعض الآخر ثمانمائة قدم وبعض آخر ثلاثمائة قدم، وخمسمائة قدم. إنها مدينة متراحبة الأرجاء، ولوقوعها على ضفة النيل فهى مرفأ معمور، وبينها وبين مدينة القاهرة بساتين وحقوق وافرة المحصول.

ويحكمها من يعرف بـ (رسالة أغاسى) أى أغا الرسالة من قبل الوالى، ويعاونه مائة من رجاله، ويتعين عليه أن يرسل إلى الباشا سنويا عشرين كيسا، كما أنه يحصل لنفسه عشرين كيسا مصريا.

ومن هذا الميناء وحتى دمياط ورشيد وإسنا وأسوان ١٠٠٠٠ سفينة مختلفة الأحجام مسجلة فى دفتر أغا الرسالة، وجميع رؤساء هذه السفن تحت نفوذه، ويحملون الغلال الأميرية من الصعيد العالى ويخزنونها فى (أنبار يوسف) أى مخزن يوسف، وهذه هى مهمة حاكم مدينة بولاق.

أما معرف البحرين فهو صاحب السيطرة على جميع القوارب، وتمضى السفن إلى ولاية الصعيد بدفاتره وتأتى من هناك بالغلال وهو نائب قاضى عسكر مصر يعاونه ثلاثمائة من رجاله، ومن قبل دفتردار مصر يحصل أمين الجمرك المال السلطانى مع مائتين من رجاله وهو ملتزم بتوريد كيس عن كل يوم. وهو يباشر مهامه من تكية عظيمة للانكشارية مواجهة للجمرك، وفى معيته ضابط من أوجاق الانكشارية

(١) بياض فى الأصل.

هذه هى الخانات الضخمة التى تشبه القلاع، والخانات الأخرى يتألف الواحد منها من مائة حجرة أو مائة وخمسين، وفيها تجار كبار تقدر ثروة كل واحد منهم بخزانة مصرية، ولهم شركاء فى الهند، واليمن والسند، وعدن، وأوربا، وبلاد الترك.

وفضلا عن هذه الخانات فإنه يوجد مائتا مخزن للغلال على ضفة النيل، اثنا عشر مخزنا منها مخازن أميرية وفيها تحفظ غلال مكة والمدينة، فهناك الشونة الكبرى، والشونة الصغرى، وشونة الدشيشة الكبرى والصغرى، ومخزن المحمدية، وشونة المرادية، ومخزن الخاصكية، وقد أنشأت محظية السلطان محمد الرابع - فاتح قمانچه وقنديّه - مستشفى، ودار ضيافة، ومبرة لتوزيع الطعام، ولحفظ ما فيها من غلال بنى أمين الشعير مصطفى أفندى شونة عظيمة كالقلعة فى بولاق، وهو مخزن تجلب عشرة مدافع لحصاره شهرا، ومحيطه ستمائة قدم.

وفى مدينة بولاق ٦ حمامات، منها حمام سنان باشا على ضفة النيل، ويصعد إليه بسلم من ست درجات، وهو حمام جميل على الطراز التركى، وحمام (   )[١] الذى بنى حديثا، إنه حمام لطيف إلى أبعد حد ذو ماء حار، وحمام (   )[٢].

وفى بولاق كذلك ٦٠٠ دكان، ولكن ليس فيها سوق للأقمشة، وسوق سنان باشا لها بابان من الحديد، وتضم ٢٠٠ دكان، ويتوسطها طريق رئيسى، وبها من كل شئ ثمين، كما أن فيها ٢٠ مقهى سلطانيا جميلا، وفيها يستريح جميع التجار، وجميع أسواق بولاق مزدحمة إلى حد جد بعيد، فهى بحر من البشر يتزاحم فيه الناس بالمناكب، لأن تجار الأقاليم السبعة يتوافدون على هذا المرفأ، ويجلبون معهم سلع وبضائع بلادهم. وفى كل عام يأتى إلى هذا المرفأ ١٠٠٠٠ من السفن والقوارب تحمل السلع من بلاد الترك، وبلاد الفرنج والنيل. إنه مرفأ جميع الولايات، وكل سكان بولاق من التجار وصناعى السفن. وفى بولاق تتوفر جميع الغلال وصنوف المأكولات والمشروبات، والأخشاب. إنها مرفأ الربح والكسب.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

دار صناعة السفن السلطانية

تقع على رأس مرفأ بولاق، ويحيط بها سور كسور القلعة، ويبلغ محيطها ١٠٠٠ قدم، وهى مملوءة بأخشاب البناء، إنها مهمات أرسلها سلطان العثمانيين عتادا لليمن، وبها الأمين الذى يخضع لرياسة قبودان السويس وأربعون من الكتبة، وناظر، وعمال المخازن، والحراس، والبوابون. إنها بناء مستطيل الشكل مكشوف، وتضم ما لا يحصى كثرة من الآلات والأدوات والمهمات، كما أن فيها مخازن يقدر ما فيها بما فى خزائن مصر من مال. وتكتظ هذه الدار بآلات من النحاس والرصاص والقصدير والحديد والمسامير ومدافع وقذائف،ولها بابان مرتفعان أحدهما ينفتح على الجنوب حيث اليابسة، والآخر على ضفة النيل.

وعندما صدرت الأوامر إلى كتخدا إبراهيم باشا بغزو اليمن قدم إلى هذه الدار مرارا ليعاين هذه المهمات والمواد وأقام عند الباب المطل على النيل قصرا عظيما يستريح فيه، لا يشبهه فى بولاق إلا قصر السبتية، وأمر ببناء حجرات متعددة ومطابخ ومخازن للطعام فى ذلك القصر وكان له متعة الملوك، وأعد العدة للحرب.

قصر السبتية

يقع نهاية الطرف الشمالى من مدينة بولاق، إنه قصر عال يشبه قصر الخورنق، وفيه قاعات ذات أحواض وشادروانات، وهو قصر فخم له مطل على النيل، ويأتى إليه جميع الوزراء مرة فى كل أسبوع لتنسم النسيم العليل، لأن جو بولاق لطيف إلى حد بعيد، لذا فوجوه أهل بولاق وردية اللون، وذريتهم كثيرة، وهم يلدون التوائم بأمر الله. إنهم أهل شوق وذوق وتوحيد. وتنتشر الحدائق هنا وهناك، وسوف نذكر أولياء الله فيها وأضرحتهم.

* * *

الفصل الثانى والأربعون

أوصاف مصيف مدينة السلطان قايتباى

كان إنسانا ذواقة، ميالا للترف، ولوعا بالصيد والقنص والفروسية، ولذلك كان يطيب له جو هذه المدينة فعمرها. ففى مصر ما يعرف بأيام الخماسين وهى أيام تدوم خمسين يوما وتصيب الناس فى جنوب مصر. والعياذ بالله - بالنحس والقذارة والأمراض المختلفة.

ويقضى الناس خمسين يوما فى خمول وإعياء وعناء ويتفشى فيهم الطاعون وتسوء أحوالهم أيما سوء، وينفجر مخ الأجنة فى بطون أمهاتهم فى شهرهم الخامس ويتوفون، وتسقط أسنان الشيوخ وحواجبهم، ومنهم من يموت ومن تكتب له النجاة.

لقد دعا سيدنا موسى على قوم فرعون فنزل بهم البلاء خمسين يوما. إنها أيام خوفهم التى يعبرون عنها قائلين: «آه خناق هنم خماسين».

وفى هذه الأيام يسعد باشا مصر لأن كثيرا من القرى تصبح قرى محلولة[1] ويتحصل له منها مال كثير.

ولكن من حكمة الله أن هذه الأوقات العصيبة فى مصر وهى أيام الخماسين تصادف موسم الربيع فى بلاد الترك ويا لها من حكمة عجيبة.

وكان السلطان قايتباى يقيم فى ذلك المكان ستة أشهر لتلافى قذارة أيام الخماسين، ولذلك صرف همته فى تعمير هذا المصيف. ومصيف قايتباى الآن مكان نزه طيب النسيم وتشكل كل من القاهرة وبولاق ومصيف قايتباى مثلث، وبين كل منها مسيرة ساعة، وكلها حدائق عامرة ومن خارج باب الناصر- فى الجهة الشرقية للقاهرة- وحتى العادلية طريق اسطنبول وطريق الحج، ويقع مصيف قايتباى على هذا الطريق الرئيسى، وعلى جانبى هذا الطريق كان يوجد ١٠٠٠٠ قصر فخم، ومنذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين انقرض قوم الشراكسة وتخربت قصورهم فى قايتباى هذه،ولم يبق منها

(١) محلولة: بمعنى شاغرة حُلَّت إدارتها وخرجت من التزام ملتزمها.

إلا أحد عشر قصرا، وما يقرب من ١٠٠٠ دار من ديار الفقراء و٧٠ دكانا وحمام واحد، و٧٠ محرابا، و١٧ جامعا سلطانيا عظيم البناء، ونتحدث عنها الآن.

جامع السلطان قايتباى

أكثر الجوامع عمرانا وزينة، وهو جامع علوى يصدر إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات، ولا أعمدة فيه، وله سقف منقوش مزخرف يقوم على سرادقات، ونوافذه من زجاج، وجدرانه الأربعة من أسفلها إلى أعلاها مكسوة بأحجار البشم الحرقانى والرخام المتنوع، ومنبر هذا الجامع محلى بالصدف لم يصنع مثله صانع بارع قط، ومحرابه جميل هندى الطراز، ومقصورة المؤذن غاية فى مهارة صنعها، وأرضيته مرصوفة بأحجار عين الطير، كما يزدان الجامع بصنوف الثريات والقناديل الثمينة. ويتصل بهذا الجامع ضريح قبته عالية من الحجر وهو مثوى السلطان قايتباى وهو ضريح منور بسطت فيه بسط ثمينة متنوعة.

مناقب أثر قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى هذه التكية حجر عليه أثر قدم النبى ﷺ حتى إنه عندما بنى السلطان أحمد[1] من سلاطين آل عثمان جامعه الجديد، وشى واش قائلا له: إن فى ضريح قايتباى أثر قدم النبى ﷺ، وقد وجد عند العرب قبل ذلك، ويليق بجامع مولاى السلطان.

وكان لهذا من قوله وقعه فى نفس السلطان، فأرسل فى التو أمرا مع من يسمى (مراد الرئيس) إلى وزير مصر، وعندما حاولوا اقتلاع الأثر من ضريح قايتباى عصفت ريح عاتية وقصف الرعد ولمع البرق، فانصرفوا عنه دون أن يقتلعوه، وعرضوا ما حدث على السلطان، فأصدر أمرا خاصا أرسله مع أحد رؤساء بوابى الباب العالى، وتلوا سورة الأنعام ألف مرة فى ضريح قايتباى وحمل (مراد الرئيس) القدم الشريفة إلى الإسكندرية فى سفينة وكابد فى ذلك ألوانا من المشقة والعناء، وبعد سبعة أشهر بلغ الخبر السلطان أحمد بوصول القدم الشريفة فأرسلها إلى جامع أبى أيوب الأنصارى فى موكب عظيم من الجند.

---

(١) يقصد السلطان العثمانى أحمد الأول ١٦٠٣ : ١٦١٧ م = ١٠١٢ : ١٠٢٧ هـ

وفى الصباح خرج جميع أهل اسطنبول رجالا ونساء شيوخا وشبابا منتظرين وصول القدم الشريفة، وانطلق السلطان أحمد، بناء على القانون السلطانى، فى موكب عظيم إلى جامع أبى أيوب الأنصارى، ومسح بوجهه القدم الشريفة، ووضعها على رأسه وأنشد على البديهة هذه الأبيات وكأنها الدر:

ما ضر لو جعلت على رأسى كالتاج على الدوام
أثر قدم النبى خير الأنام
وردة روضة الأنبياء صاحب هذه القدم
أحمد قدم المصطفى لمسح وجهك بها تقدم

وتغنى السلطان أحمد بهذا الشعر، وقد لحن هذا الشعر الدرويش (عمر الكلشنى) فى مقام البنجكاه فى دار أستاذنا (باباى عالم سلطان)، وأضافها إلى التسبيح فى ليالى رمضان، لقد كانت شيئًا بديعا، ثم قام السلطان أحمد فى موكب كأنه البحر يحمل حجر قدم النبى فى حضنه وسلمه إلى نقيب الأشراف، ولما دخل به اسطنبول رفع الناس أصواتهم قائلين: شفاعة يارسول الله. وتجمع الناس مزدحمين حول نقيب الأشراف حتى ضاق بهم فأمر الجند فمنعتهم من الاقتراب من القدم الشريفة، ووصلت القدم الشريفة من مسجد أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول والناس على تلك الحال.

فى بيان الرؤيا التى رآها السلطان أحمد بخصوص قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى ليلة وصول أثر قدم النبى ﷺ من أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول رأى السلطان أحمد فيما يرى النائم أن ملوك الإسلام قاطبة اجتمعوا فى ديوان، وكان النبى ﷺ يرأس الديوان فوقف السلطان قايتباى وقال: يارسول الله استنادا إلى شرعك المبين أشكوا إليك السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، أقم عليه الدعوى استنادا إلى شرعك الشريف.

فقال رسول الله ﷺ فى الحال: إن أحمد من أمتى وقد خدمنى كما خدم البيت الشريف. ونادى عليه قائلا: تعال يا أحمد. فجاء السلطان أحمد قائلا: لبيك يا رسول

الله، ومثل بين يدى سيد الكونين وقال: السلام عليك يا رسول الله. فرد عليه ﷺ قائلا: وعليك السلام يا أحمد إن ثمة من يشكون منك، لتكن مرافعة شرعية مع خصمك، ووقف السلطان أحمد إلى جانب قايتباى الأسفل وقال ﷺ: أنت حى يا أحمد فقف إلى جانبه الأعلى، فوقف السلطان أحمد فوقه فقال ﷺ: أقم دعواك يا قايتباى، فقال قايتباى: يا رسول الله لقد كنت مجاهدا فى سبيل الله وبنيت بمال الغزو ثمانمائة جامع كما تعلم، كما بنيت جامعا آخر ليكون مثوى لى واشتريت رسم قدمك الشريفة من سيد على الأبطحى من العرق الطاهر بأربعين ألف دينار، وهيأته فى صندوق من الذهب ليوضع فى ضريحى حتى إذا جاء من يزوره زارنى، وبذلك أنال مثوبة الفاتحة آلاف المرات، فتغمرنى الرحمات، لكن منذ أن سرق هذا الظالم القدم الشريفة لم أر رحمة لى، والأمر أمرك يا رسول الله، وعندئذ قال ﷺ ردا عليه: يا أحمد ماذا تقول ؟ فقال السلطان أحمد: نعم يا رسول الله أنا اليوم موكل بالحرمين الشريفين، ولقد أقام عبدك وأخى قايتباى عدة جوامع له، تخرب جامعه على مر الأيام، وقد تنامى إلى علمى أن أثر القدم الشريفة بين الفلاحين الفسقة غير الأطهار، وقد تراكمت عليه الرمال، فبحكم توليتى ومحبتى لك أمرت بإرساله إلى بلاد الترك وسط مظاهر التعظيم والتكريم، ووضعته فى جامعى. والأمر الآن لك يا سيد الكونين ثم لزم السلطان أحمد الصمت. فقال قايتباى فى التو واللحظة: بما أنك كنت متوليا نزيها لماذا لم تعمر أوقافى حين عاينتها، لقد أودعت ريعها فى الخزانة، ولم يبق من أوقافى إلا عشر عامرة.

فقال جميع ملوك السلف: يا رسول الله منذ أن دخلت مصر فى حوزة آل عثمان، خربوا جميع أوقافنا وضموا أموالنا إلى المال الأميرى. وبسطوا إليه الرجاء أن يأخذ مصر من حوزة العثمانيين ويدخلها فى حوزة دولة أخرى.

فقال ﷺ: كلا إن هؤلاء - بعون الله - إلى أن يظهر المهدى ويقدر ما فى آية الكرسى من حروف «الله لا إله إلا هو ...، حتى إلى بإذنه - سيكون للعثمانيين سلاطين يملكون مصر وجميع بلاد الكفر، ولن يبق على وجه الأرض كافر، وسوف يمضون إلى أرض الدنيا الجديدة، وبعد ذلك تظهر أشراط الساعة.

ولكن يا أحمد إن فى ذلك حكمة، وإن لى عشاقا مساكين يعفرون وجوههم على الحجر الذى يحمل أثر قدمى، فينالون مرادهم، ولقد نلت أنت الثواب لأن الدال على الخير كفاعله، فبادر بإرسال أثر قدمى الذى اشتراه قايتباى بمال الغزو إلى ضريحه فى مصر، وإلا فأنت وما تشاء.

وانفض المجلس، فهب السلطان أحمد من نومه، فدعى إلى مجلسه شيخ الإسلام زكريا أفندى ونقيب الأشراف قدسى أفندى وقره سنبل أفندى وأستاذنا أوليا أفندى وأسكودارى محمد أفندى ووالدى الدرويش محمد ظللى، والدرويش عمر الكلشنى وقص عليهم جميعا رؤياه. فقالوا له: أرسل وقف الله إلى موضعه. وعندئذ أخرج السلطان قنطارا من الفضة الخالصة، وكان والدى فى ذلك الوقت رئيس صاغة الباب العالى، فقام بصنع صندوق هو تحفة فنية ووشاه بالمينا والذهب والفضة ليوضع فيه الأثر، وكتب عليه بخط ذهبى أبياتا من الشعر، وبعد أن فرغ من ذلك سلمه ثانية إلى (مراد الرئيس)، وكان ذلك فى وقت مناسب، إن أثر قدم النبى الذى لم يصل اسطنبول إلا بعد سبعة أشهر بعد مكابدة ألوان المشقة والعناء بلغ الإسكندرية فى سبعة أيام، وأحضر إلى القاهرة فى يوم واحد، وعندئذ حمله أعيان القاهرة فى موكب عظيم إلى ضريح قايتباى، ولله الحمد فقد مسحت أنا الضعيف وجهى بأثر قدم النبى ﷺ، ورأيت التحفة التى صنعها والدى وعلى هذا الصندوق خط أبى وهو تاريخ مسطور بالذهب والفضة وهو:

وهذه الأبيات كتبها أبى بالفضة الخالصة.

بشوق حضرة سلطان أحمد	زيارة موطئ القدم المكرم
فحركه بجاذبة اشتياق	على أقدام أقدام فقدم
وسيره إلى قسطنطينية	فقال له تقدم خير مقدم
وادخل داره باليمن حبا	وتعظيما لصاحبه المعظم
حبيب الله سيدنا محمد	عليه ربنا صلى وسلم
وراجعه بإعزاز عظيم	إلى تلقاء موضعه المقدم
إلهى عمر سلطان أحمد	وقدمه على من تقدم
بحرمة صاحب القدم المعلا	له الدرجات العلا فى الأفلاك سلم

وتجاه أثـر قدم النـبى صنـدوق بداخله أثـر قدم النـبى وهو كـذلك قدمـان وداخل الصندوق يمتلئ بـالكافور والمسك والعنبر الخالص، وفى هذا الضـريح سجادة مبسوطة على الجدار، نقش عليـها فنان بارع أبياتا من الشعر، كل من شـاهدها قال إنها كرامة، ويمسح جميع الزوار وجوههم وعيونهم على المسك والعنبر وماء الورد الموجود فى ذلك الصندوق ويترحمون على السلطان قايتباى.

إنه ضريح بديع وجامع عظيم منور، بيـد أن ليس لهذا الجامع حرم، وله منارة عالية من ثلاث طـبقات، كما أن له سـبيلا، ومكتـب صبيان، ومدرسة، ودار قـراء، ومبرة لإطعام الـعوام والخواص، وخان لاسـتضافة الـضيوف، وخان لـلمجاوريـن وهو خان كالقلعـة، يضم ٢٠٠ حجرة، إلا أن أحداً من الأغنـياء لم يستطع البـقاء فى هذا الخان خوفا من جماعات اللصوص، ويسكنه الـفقراء، وفيه ٠ دكانا. إنه وقف معمور، وكان الـسلطان قايتباى سلطانا عظيم الشأن، ولقد حاسبت ناظر أوقافه ذات مرة، ولهذا الجامع ميزانيـة قدرها عشرة أكياس تحـصل من القرى الموقـوفة عليه، وله ٣٠٠ يقـومون على خدمته.

وفى كل ولاية فـتحها السلطـان قايتباى أقام جامـعا أو أكثر، وإلى الآن تتلـى فيها الخطبة لـه، لقد أقام هذا السلطـان ٧٠٠ جامع، وكم له من آلاف المؤسســات الخيرية، كما أن له ٣٠٠ مؤسسة خيرية فى مكة المكرمة. رحمة الله عليه.

وعلى مقربة من هذا الجامع:

جامع السلطان فرج بن برقوق

يبلغ طوله ١٨٠ قدما، وعرضه ١٢٠، له سقف مذهب أزرق يقوم على ٣٨ عمودا، ويتوسط حرمه حديقة جميلة تزدان بالنخيل، وأشجار النبق، كما أن فى حرمه ميضأة.

إنه جامع عظـيم غاية فى الجمال، ولوقوعـه فى صحراء لا يؤمه كثيـر من المصلين، وله منارتان عاليتـان، لا يستطيع أى نحات فى يومنا هذا أن يضـرب بالفأس رخامهما، وكلتاهما فى شكل القلم، وتتكون من ثلاث طبقات.

وفى جنب هذ الجامع الأيسر باب عليه كتابة هى قوله ـ عز من قائل ـ: بسم الله الله الرحمن الرحيم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وتاريخ مرقوم هو: «أمر بإنشاء هذه التربة بفضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادة فرج بن السلطان برقوق الشهيد تغمده الله برحمته وأسكنه الجنة يا رب العالمين، وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى سنة ستمائة».

وعلى جانبى هذا الجامع قبتان متشابهتان منقوشتان من حجر، دفن تحتهما السلطان برقوق وأولاده، ولا وجود لجامع كتب فيه آيات قرآنية بخط بديع كما فى هذا الجامع، بل إن فيه أجزاء كبيرة من كتاب الله المبين، ويسمون هذه الكتابات (كتابات الفتاة)، فقد سطرتها فتاة فى الثانية عشرة من عمرها، وخطها بديع إلى حد جد بعيد، ولأنها كانت ابنة سلطان دفنت فى هذا الضريح. إنه جامع منور طاهر.

جامع السلطان الأشرف

جامع علوى يقع على مقربة من جامع السلطان فرج بن برقوق، وهذا الجامع بنى بأكمله بالحجر، وعلى بابه منارة صغيرة، إنه جامع منور صنعت جميع نوافذه من النحاس الأصفر وله سبيل وسواقٍ وتكية ومكتب صبيان، وما يقرب من مائة بيت، وعلى مقربة منه:

جامع الأمير الكبير

وهو كذلك جامع علوى، لا حرم له، وله منارة من ثلاث طبقات، وهذا الجامع يماثل فى تصميمه تصميم جامع السلطان قايتباى، وعلى أحد أبوابه تاريخه وهو: سنة ٩٢٠.

ويتصل بهذا الجامع ضريح ذو قبة عالية دفن فيها الأمير الكبير، والله أعلم.

وقد بنى هذا الجامع بالحجارة، وله قبة ذات زخارف فى داخلها وخارجها وهى مرتفعة ضاربة فى السماء لا تشبهها فى القاهرة قبة أخرى، وجدران الجامع مكسوة بأحجار جميلة ذات ألوان، وإلى جانبه سبيل يعلوه مكتب صبيان، وقبالته عشرون دكانا، وخان فيه ما يقرب من مائة حجرة، وكل المقيمين فى هذا الخان من المتزوجين، ولصق هذا الجامع:

جامع السلطان إينال

جامع علوى لا حرم له، ولا وجود فى داخله لأعمدة، له سقف مذهب ذو زخارف يقوم علـى عقود، ومحرابه مـن قطع صغيرة من الـرخام، ومنبره من خـشب، كما أن أرضيـته مرصـوفة بالرخـام، وعلى نـوافذه بلـور صاف. ولما رممه وأصـلحه المـرحوم قوانداقجى كتخدا بك أصبح وكأنه قصر من قصور الجنة، وجدرانه من الداخل والخارج مزخرفة من أولها إلـى آخرها وعلى بابه منارة رشيقة ذات زخـارف، كأنها شجرة سرو فى بستان. إلا أن هذا الجامع ليس كبيرا كسائـر الجوامع، بيد أنه يبلغ غاية الغايات فى الروعة والجمال.

وعلى بابـه الأيسر الواقع علـى الطريق العام لوح مـن رخام، حفرت فيه آيـة قرآنية كريمة هى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

كتب بعدهـا: «أمر بإنشاء هذه المدرسة المبـاركة سيدنا ومولانا السلطان الأشـرف أبو النصر إينال عز نصره تاريخ: ربيع الأول عام ثمانمائة وستين».

وقبالة هذا الجامع طريق رئيسى يقع عليه

جامع السلطان الغورى

كان مبنى عظيما، إلا أن الغورى دخل فى حرب مع السلطان سليم، وهلك واختفى أثره فى هذه الحـرب، ولذلك لم يكتـمل بناء هذا الجامـع، ولو كان قد قدر لبـنائه أن يكتمل لما كان فى أرض الإسلام جامعا يشبهه.

جامع السلطان چقماق

إنه كذلك جامع غاية فـى الجمال والروعة بنى بتمامه من الحجر، ومـنارته منخفضة من طبقتين، لكن المصلين فيه قليل.

جامع السلطان فرج

جامع سلطانى علوى يقع على الطريق الـرئيسى، ليس كبيرا إلا أنه غاية فى الجمال والروعة وكأنه قصـر فى إرم ذات العماد، وهو مزخرف فى داخلـه وخارجه، ومحرابه من الرخام المنـحوت ومنبره من الخشب، إنـه كذلك روعة، وقضبان جمـيع نوافذه من

النحاس الأصفر وهى مطلة على الطريق العام، كما أن له منارتان رشيقتان متشابهتان، ولهذا الجامع باب يتجه إلى الشرق، وهو باب مزخرف ذو عقود وبجواره (تابخانه) أى حجره يوقد فيها تنور أو مدفأة، يستريح فيها بعض أعيان القاهرة.

وقبالة هذا الجامع طريق قصور عالية وقاعات متعددة يأتى إليها أعيان مصر مرتين فى الأسبوع لينعموا بالراحة والمتعة، وهناك يمارسون الرماية بالسهام والبنادق، ويلعبون بالجريد وإضافة إلى حوض عظيم مساحته عشرة أقدام فى مثلها.

ويتصل بهذه المصطبة وكالة البهار أى التوابل، وكان يحصل فيها رسوم جمرك التوابل الواردة من الهند واليمن. وذلك فى عهد مقصود باشا. وهذه الوكالة تتألف من ٢٠٠ حجرة، ومن شاهدها من بعيد خالها قلعة.

جامع السلطان طومان باى (أى العادلية)

جامع معلق، يصعد إليه بسلم من عشرة درجات، ولا أعمدة فى داخله ولا خارجه، وله سقف ذو زخارف يقوم على أربعة عقود، وجميع جدران هذا الجامع مكسوة بأحجار مختلفة الألوان، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب الصنوبر، وللمؤذن مقصورة تقوم على عودين، وهى متقنة الصنع، وأرضية الجامع مرصوفة برخام مختلف الأنواع، وكل نوافذه من النحاس الأصفر، وله بابان مقرنصان: أحدهما فى جدار المحراب، والآخر باب القبلة.

ولا حرم لهذا الجامع، ومنارته جميلة من ثلاث طبقات. ولقد رممه ناظره فأصبح وكأنه قصر فى جنة الخلد.

وعلى يمنة هذا الجامع ضريح ذو قبة عالية، دفن تحتها السلطان طومان باى فى تابوت يحمل تاريخا هو: (سنة ست وتسعمائة).

وبعد الحرب التى نشبت بين السلطان سليم والغورى آلت السلطنة إلى طومانباى هذا، ونشب القتال بينه وبين سليم تسعة أشهر، وفى النهاية قبض عليه سليم، وصلبه على (باب زويلة)، وصلى عليه سليم صلاة الجنازة، ودفنه فى هذا الضريح.

ويعلو هذا الضريح قبة منقوشة داخلها وخارجها، وطول الحجر فيها ذراع، والقبة ليست مكسوة بالرصاص ولا الجص، ولهذا الضريح فناء يحيط به جدران كجدران القلعة، وتضم ما يربو على مائة حجرة، وقاعة ودار للضيافة، وزوايا، وقصور عالية لاستراحة الباشوات، ومخازن للأطعمة ومطبخ، ومقهى، وساقية، وحوض، وأسبلة ثلاثة، وخارج هذه الأسوار قصر عال لطومان باى يسمى قصر العادلية، وكان طومان باى يمضى إلى هذا القصر مرة فى الأسبوع، يعقد فيه ديوانا لإقامة العدل بين الناس، إنه مكان للعدالة، ومبرة.

جامع السلطان الطويل

جامع ذو منارة، ولكننى لم أدخله ولم أشاهد ما فيه، إلا أنى فيما بعد دخلته وصليت فيه ودونت معلومات عنه تيقنتها.

وكم فى مصيف قايتباى هذا من جوامع ومنارات ومساجد ومدارس وتكايا وخانات وحمامات وأسبلة وسواقٍ ومؤسسات خيرية كلها تخرب، وكانت قديما مدينة عظيمة تعادل مدينة القاهرة ليعمرها الله.

ومصيف قايتباى هذا وإن كان خربا، إلا أن جوه لطيف إلى حد جِد بعيد، والآن يسكنه الذواقة من الناس مع أبنائهم فى أيام الخماسين المشئومة، وتدوم لهم الإقامة فيه شهر أو أكثر، ويولد لهم التوائم، ويأتون بالمرضعات لأبنائهم فتصبح عيونهم كعيون الغزلان من تنسم نسيم هذا المصيف، أما من يولد لهم فى مدينة القاهرة فتصبح عيونهم مثل عيون أبناء العبيد وهذا الكلام فى مصر مثل يضرب أى أن أعينهم تصبح (جمروز).

وفى مصر أيام الخماسين إذا ما وقع الرجل على زوجته أولدها طفلا مصابا بصنوف الأمراض، والأجنة فى شهرهم الخامس أو السادس يتقرح أعلى أمخاخهم، ويخرج ما بداخلها مثل (البوزة)، وتفوح منها رائحة تشبه رائحة الخل، ويهلك الجنين.

أما الأطفال الذين يربون فى مصيف قايتباى هذا فبمنأى عن هذه الآفات.

إنه مصيف لطيف طيب الجو، ولذلك يشد إليه الرحال.

***

الفصل الثالث والأربعون
أوصاف مدينة (الفسطاط القديمة)
أى: مصر القديمة أم الدنيا العظيمة

كم من آلاف المجلدات، والكتب القيمة تتضمن أوصاف مصر القديمة، ووصف فيها استبحار عمرانها ولكنى أذكر ما شهدته بعين رأسى من مظاهر عمرانها. فبعد الطوفان عمر مدينة الفسطاط (البود بن قفط بن بيطار بن حام ابن سيدنا نوح النبى (عليه السلام) وكان أبو البود هذا أول من أجرى النيل أمام تلك المدينة، وفى تلك الحقبة من الزمن كان النيل يسمى (بلون)، وفى أيامنا هذه يسمى أهل النوبة النيل (جربلون)، وكانت الفسطاط مدينة عظيمة يمتد عمرانها من الغرب إلى الجنوب بقدر ثلاثة منازل، بيد أن (بخت نصر) خرب دمشق والقدس وبلبيس فى أرض حاسان وكذلك الفسطاط، ثم عمرت مرة أخرى، وفى عصر الرسول ﷺ تحالف (هرقل) قيصر الروم مع الأسبان والفرنجة، وفى فيضان النيل دخلوا مصر من دمياط ورشيد بألف سفينة، وانتزع اليونان مصر عنوة من يد المقوقس، وأوقفوها على كنيسة (آيا صوفيا) بالقسطنطينية.

أما أول من بنى مصر القديمة (نقراوش مصرايم) أحد أبناء سيدنا آدم عليه السلام.

وبعد طوفان نوح تزوج بيطار بن حام بن نوح عليه السلام بابنة (قليمون الكاهن)، وقدم العريش بإذن من نوح (عليه السلام)، ثم قدم بعد ذلك إلى بلبيس ومصر، وما عمروه مذكور آنفا، لكنى سوف أذكر ما هى عليه الآن.

إنها مدينة قديمة على بعد ساعة من القاهرة فى إتجاه الجنوب على ساحل النيل تمتد من ساقية الغورى إلى نقطة تحصيل الجمارك، وهى تمتد من الجنوب إلى الشمال بمقدار ألف وثمانمائة قدم، وفيها قصور عالية من خمسة طوابق أو أكثر.

وعرض هذه المدينة يبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة قدم، ويبلغ فى بعض الجهات ستمائة قدم، وتطل أماكن جميلة فيها على النيل.

ومن أجل أن يشاهد أعيان مصر (كسر النيل) أقاموا قصورا متعددة الطوابق والقاعات والمظلات، وحدائق، ونافورات وأحواضا، فكأن هذه القصور قصور فى إرم ذات العماد يعجز عنها الوصف. ومنازل الأثرياء والفقراء كبيرها وصغيرها ٤٦٠٠ منزل، ولوقوعها على النيل لها مرافئ، وتأتى إليها ١٠٠٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة من بلاد الفونج، وولايات صاى والنوبة والواحات وترسو هذه السفن على ساحل مصر القديمة، وتسلم إلى الحكام.

وفى عام ٢٥ كان بمصر القديمة هذه ٣٦٠٠٠ مسجد، و٨٠٠٠ شارع مزدحم، و١١٧٠ حماما خاصا وعاما، و١٠٠٠٠٠ حانوت.

وفى عام ٤٢٨ نشب القتال بين عبيد المستنصر بالله الفاطمى فى مصر، وهلك الجند قاطبة وفى هذا العام أصاب مصر قحط عظيم، وغلت الأسعار وتفشى الطاعون، فاقبل جميع أهل الفسطاط على المستنصر بالله أبى تميم سعد بن الظاهر الأعز لدين الله أبى الحسن على، وهو أحد صفوة الفاطميين، وتقدموا إليه بالشكوى. فوجه المستنصر بعشرة رجال من أهل الفسطاط إلى القسطنطينية لطلب المدد (أى الغلال) من الأمير أرطوغرول أمير أحد الثغور التابعة للسلاجقة، فمضوا إلى مدينة (آبا صولون)، بيد أن المستنصر توفى وسفن الغلال فى طريقها إلى مصر، فارتدت هذه السفن إلى بلاد الترك، وتخربت مصر وأصبحت خاوية على عروشها. ولكن وجه ببعض الرجال إلى أرطغول ليطلب من القيصر الغلال لمصر، كما بسط أرطوغرول رجاءه إلى القيصر بأن يسمح له بأداء صلاة الجمعة فى دير آيا صوفيا مع الرسول الذى قدم من مصر، والتقى هذا الرسول فى ثلاثمائة من رجاله بقسطنطين، وأجيب إلى رجائه، وأدى صلاة الجمعة هو ورجاله فى كنيسة آيا صوفيا، وقرؤا الخطبة باسم القائم بأمر الله الفاطمى.

إلا أنه قبل أن تصل الغلال إلى مصر، تحت وطأة المجاعة، فتح القائم بأمر الله (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس، وتنامى إلى سمع الملوك والقياصرة أنه غنم ما يعادل مائة خزانة مصرية، فأبحرت ألف سفينة من سفن الصليبيين من سلفاك وأغارت على قلاع الإسلام فى طرابلس الشام وبيروت وصيدا وعكا والرملة وأحكموا سيطرتهم عليها

واستعادوا ما اغتنمه القائم بأمر الله من كنيسة قمامة ببيت المقدس وكانت فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معان.

وفى عام ٤٥٤ استولى الروم والفرنجة على مصر، وتفشى فيها الطاعون أعواما عشرة بتمامها، وشهدت الفسطاط هذا الخطب، وكى لا يستولى الصليبيين على الفسطاط ثانية قدم (جوهر القائد) وزير المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى سفح جبل المقطم الذى يبعد عن النيل مسيرة ساعة عام ٣٥٧، وجوهر القائد هذا هو أول من بنى مصر الجديدة، وكان جوهر القائد مملوكا لأبى المعز ولقَّبه بأبى الحسن وأصله غلام رومى، ثم رباه الطواشى (   )[1].

وفى عام ٢٧ أصبح جوهر القائد وزيرا للمعز، وفتح مدينة فاس فى المغرب، وتلمسان ومراكش وطنجة والسودان وأسوان والحبشة واستولى على ممالك عشرين ملكا فى اليمن والعراق وفارس والهند والصين، وذلك فى ستة أعوام ثم قفل إلى المغرب، وبعد ذلك هبط مصر عام ٣٥٨ وبنى فيها مدينة القاهرة.

أما سبب تسمية مصر بالقاهرة فجاء فيه عدة روايات والصحيح أنه بينما كان جوهر القائد يرسى أساس مدينة القاهرة علق المنجمون ناقوسا فى حبل وذلك لرصد ساعة السعد حتى إذا رصدوها أرسى العمال ما فى أيديهم من أحجار فى أساسها، إلا أن «العبد يدبر والله يقدر» فجرى قضاء الله بأن يحط غراب على ناقوس المنجمين وحينما نَقَرَ الناقوس ألقى البناؤون أساس مدينة مصر وكان الوقت وقت نحس من أوقات النجم المعروف بالقاهرة أى ما يعرف فى اصطلاح المنجمين بكوكب المريخ، وهو جلاد الفلك، وبذلك لم ينقطع جريان الدماء والحروب والفتن فى القاهرة، وبما أن وضع الأساس لهذه المدينة كان فى طالع القاهرة سميت مدينة مصر بالقاهرة المعزية.

---

(١) بياض فى الأصل.

حكام مصر العتيقة

يحكم مصر القديمة سبعة حكام:

أولهم: بك عظيم من بكوات مصر

وله من الأتباع ثلاثمائة جندى مدججون بالسلاح، ويقيم هذا البك فى قصر عظيم يباشر منه مهام الحكم وله فرقة موسيقى عسكرية (مهتر) تعزف طيلة شهر بتمامه، ويقيم الولائم، وبعد شهر يتولى بك آخر منصبه، وهذا ما نص عليه القانون. وإذا ما سرق شىء من غاد أو رائح فى عهد محافظة بك من هؤلاء البكوات فالمسئولية واقعة عليه وكان لزاما عليه أن يقبض على اللص السارق على أى نحو كان، أو يدفع الغرامة ليعوض بها صاحب المال المسروق.

- و الثانى:

حاكم ينوب عن مولا مصر من قبل حاكم الشرع المبين، وراتبه ١٥٠ أقجه.

- و الثالث:

رئيس البوابين الذى يعين من قبل الباشا ويعاونه ١٠٠ رجل، ولأنه يشغل منصب الناظر أغا لأنبار يوسف يرهب جانبه جميع الكتبة والأمناء والحمالين وحاملى التروس إنه منصب رفيع يشغله من له علم بالكتاب ويعرف بالاستقامة، وإذا ما خامر الشك أحد فى نزاهته صودر ماله.

- و الرابع:

إنه أمين الأنبار وهو مركز مرموق لمماليك مصر، ويعاونه مائة من الأتباع، له الحكم على ألف من خدامه وجميع الفلاحين.

- و الخامس:

وهو جورجى من فرقة الانكشارية، ويحكم بمعاونة أربعين أو أكثر من الأتباع.

- و السادس:

إنه أمين الجمرك، ومهمته تحصيل الرسوم الجمركية على كل ما يطير فى الجو أو يدب على الأرض أو يسبح فى الماء.

وهو صوباشى مصر القديمة، ويقوم بمهام المحافظة على الأمن ليل نهار، ويصحبه ستون من القواسين.

- و الثامن:

وهو جوريجى من طائفة الانكشارية، يقوم بمهمة حفظ الأمن بمعاونة مائتى جندى مدجج بالسلاح. ولهذا الحاكم تكية جميلة على النيل يعجز الوصف عنها، والشمس لا تؤثر فيها فهى تكية فى ظلال أشجار عالية، ويجلب إليها السقاءون الماء من النيل ليل نهار، مما يجعل أرضها رطبة تحمى النفوس.

- و التاسع:

إنه أمين ساقية السلطان الغورى، وهو كذلك من جوريجى الانكشارية، ويقوم على صيانة الساقية مع سبعين أو ثمانين من رجاله، ويروى أرض مصر.

وصف قلعة مصر العتيقة

ذكر فتح المسلمين مصر من أيدى الكفار، وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار.

إن كل ما سجله جميع المؤرخين عن مصر مقصود به مصر القديمة، وبما أنها عمرت ثمانى مرات فإن لها ثمانية أسماء. كان اسمها فى البداية الفسطاط، والاسم الثانى (امسوس)، واسمها الثالث (قصر الشمع) حيث كان لها برج مرتفع به مصباح مطلسم، ومن عهد طوفان نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا موسى والشمع متقد على الدوام، لذا سميت مدينة (قصر الشمع) ولا يزال أساس برجها هذا ظاهر للعيان.

ثم أقيمت مدينة عظيمة خارج مدينة الفسطاط سميت (مقر العسكر)، ولقد عمر هذه المدينة السلطان أبو العون عام ١٣٢، وأبو العون هذا هو ابن عبد الملك. ثم قدم أحمد بن طولون من بغداد عام (   )[1] فزاد فى عمران مصر، وسكن القصر الذى شيده أبو العون، وبنى ابن طولون مدينة جميلة سماها (القطائع)، وكانت تضم مائة ألف دار عظيمة. وكانت هذه المدينة حاضرة ملك أحمد بن طولون، ثم دالت دولة أحمد بن طولون، وتخربت مدينة القطائع وعندئذ قدم جوهر القائد فى جيش عظيم من بلاد

(١) بياض فى الأصل.

المغرب، وعندما بنى مدينة القاهرة كان قد تعاقب على حكم مصر ستة عشر ملكا من مغاربة وعجم، ومنهم من كان يسكن مدينة (مقر العسكر)، ومنهم من كان يسكن أطلال (مدينة القطائع).

وكان أول خلفائهم (محمد بن سليمان)، وكان كاتبا لأحمد بن طولون وعبدا فى ذات الوقت . وكان يلقب بالورد لأنه كان كاتبا للورد. وله فى القاهرة الآن جامع.

وقد انتزع (جوهر القائد) الذى قدم من بلاد المغرب، الملك من محمد بن سليمان هذا والسلطان أحمد آخر سلاطين الإخشيديين، وعندما أحكم قبضته على مصر كان قد مضى على قيام الدولة العباسية مائتان وخمسة وعشرون عاما، تلى ذلك أربعة وثلاثون عاما وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما هى فترة حكم الإخشيديين التى انتهت بحكم أحمد بن على بن (   )[1] الإخشيدى، وكان ذلك عام ٣٥٨.

ويزعم البعض أن ملكا يسمى (إينى ارسلاوش) كان قد أقام قصرا عظيما فى موضع مدينة الفسطاط وكانت الشمس إذا ما انتقلت من برج إلى برج فى غرة كل شهر، أوقدوا النار تلك الليلة فوق هذا القصر، وبذلك كانوا يعرفون انتقال الشمس من برج إلى برج، ولذلك سميت هذه المدينة (أرسلاوش)، ومعناها فى العبرية بيت الشمس. ثم خرب (بخت النصر) هذه المدينة وظلت خمسمائة عام بتمامها خرابا يبابا، حتى ألحقت بمدينة أخرى سميت (مدينة يشكرقود) وهى سوق.

كما بنيت مدينة عظيمة على مقربة منها سموها (حمراى قصوى)، ثم قدم (جوهر القائد) مصر من بلاد المغرب عام ٣٥٨ وهو مملوك للمعز لدين الله الفاطمى وشيد جوهر القائد هذا مصر الجديدة التى سمت (القاهرة المعزية)، وكان أحمد بن طولون قد شيد مدينة جميلة على مقربة من مدينة (   )[2].

وعندما كانت الغلبة لملوك الروم على ملوك القبط حكم مصر (أرجالس بن مقراطيس)، وبنى مدينة فى موضع مدينة الفسطاط (فسطه أرجاليس).

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وعلى حد قول بعض المؤرخين أن من يدعى (حصنى كسرى جوش)، كان من ملوك الفرس المجوس، تولى على مصر بعد (بخت النصر)، بنى مدينة ضمها إلى مصر سميت (قبة الدخان) لأنه أقام فيها معبدا عظيما للنار، وآثار قباب معبد النار هذا ظاهرة خارج مدينة مصر القديمة إلى يومنا هذا، ويسكن حاكم مصر القديمة بالقرب من هذه القبة.

وبنى (اشمون بن قبطيم) مدينة فى سفح جبل المقطم سماها (أوطى طيس)، وفى نواحى الجيزة مدينة تسمى (أتريب) نسبة إلى الملك (أتريب) الذى شيدها.

وبالقرب من مدينة مصر بنى الوزير (جيرون) مدينة (قندومه) للملكة (خروبا)، غير أن حاكما من هؤلاء لم يستطع بسط سيطرته على قلعة مصر القديمة، لأنه منذ عهد عمر بن الخطاب للقبط الذين يسكنون هذه القلعة عهود أمان، لا يستطيع أحد أن يتعرض لها أو يدخلها، إذ إن جميع رهبان القبط يسكنونها وكانت لهم فيها أديرة قديمة ويسكنها ما يقرب من ألف قبطى يقولون إنها مسكننا القديم. وداخل أديرتها دفن قبطيم، وفلبطير، وميخائيل، وميكائيل وطوطيس. وقلعتهم قلعة عتيقة خربة إلا أنهم رمموها وأصلحوها خوفا من عادية اللصوص، صنعوا لها بابا صغيرا منخفضا ينفتح على الجهة الغربية لا يدخل منه الفرس، إنما يدخل منه الحمار والماشى. ومحيط هذه القلعة يبلغ ١٠٠٠ قدم، وهذا الدير دير مرتفع يشبه برجا عظيما ويحيط بهذه القلعة خندق عميق، وهم يطهرونه فى كل عام.

أما البوابون فهم من الرهبان، وليس بينهم أحد سواهم، وكانت هذه القلعة قلعة عظيمة فى الزمان الخالى، وجدرانها وأسوارها ومزاغل برجها ظاهرة إلى يومنا هذا. إلا أن ما يسكنه القبط الآن فهوالقلعة الداخلية وتقع فى الناحية القبلية من المدينة، وجوانبها الأربعة رملة وخرائب لكن ضواحيها فهى مدينة مصر القديمة المعمومة، وكان بها ٢٧٠ محرابا، و١٢ جامعا سلطانيا معمورا، وأعظم هذه الجوامع جامع عظيم كالقلعة يستجاب فيه الدعاء.

جامع عمروبن العاص

سبق وصفه تفصيلا عند وصفنا للجوامع، وليس فى مصر جامع يكبره له أربع منارات فالجوامع الأخرى منها ما له منارة، وما له اثنتان.

جامع السلطان محمد بن قلاوون

يقع بالقرب من ساقية الغورى، إنه جامع عجيب بالقرب من ضفة النيل، ومساحته ١١٠ قدم فى مثلها، بيد أن جانبه القبلى منهدم، وأعمدته ساقطة على الأرض.

وفى الجوانب الأربعة للحرم ٦٨ عمودا، تحمل سقفا عتيقا. وللجامع ثلاثة أبواب، ومنارتان وعلى جانبى باب القبلة تاريخ مسطور بخط تبلغ مساحته قامة إنسان وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر للدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أعز الله أنصاره بمحمد وآله، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة).

جامع الأمير عابدين

يقع هذا الجامع على مقربة من الجمرك، قبالة (أم القياس)، إنه جامع لطيف على ضفة النيل، له قبة حجرية مستديرة تقوم على أربعة أعمدة. وهو مكشوف الوسط وعليه شبكة. وجدران الجامع من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشانى، ومحرابه كذلك يحمل زخارفا من القاشانى، ومنبره من الخشب المزخرف، وعلى باب منبره تاريخ مسطور هو: (سنة ١٠٧٠). ولهذا الجامع منارة عالية تركية الطراز من طبقة واحدة. ونوافذه حديدية القضبان تطل على الطريق العام، إنها نوافذ لا نظير لها فيما جلب من نوافذ اسطنبول.

جامع محمد بن حسين الكوفى (ذو المنارة المائلة)

يقع داخل السوق، تخرب أحد جوانبه، وله منارة عالية مائلة، وقد بنيت هذه المنارة مائلة والله أعلم، إنها منارة غريبة وعجيبة، فهى لا تنهدم قط. وقد كتب على أبواب

جانبه الأيسر آية من آيات الذكر الحكيم هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [سورة التوبة ١٨]. وكتب بعد هذه الآية (محمد بن حسين الكوفى سنة ستين وسبعمائة).

جامع السلطان چقمق

يقع هذا الجامع داخل سوق أوزون الطويل، ويسمى جامع الحسنات، إنه جامع صغير له ثمانية وثلاثون عمودا منخفضة، تحمل سقفا ذا زخارف.

وعلى جانبى بابه، وداخله على لوح فى منبره تاريخ مسطور هو: (أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الطاهر محمد بن أبى سعيد جقمق عز نصره بمحمد وآله وصحبه أجمعين). ويعلو بابه منارة منخفضة.

جامع الملك الطاهر

يقع على مقربة من جامع السلطان جقمق، وله منارة، وبما أن المصلين فيه قليل بابه مغلق على الدوام، ولذلك لم أدخله.

وعلاوة على هذه الجوامع المذكورة توجد الزوايا.

جامع الشيخ حسن السويدى

حينما كان زاوية تردد عليه كثير من المصلين ولذلك تحول إلى جامع، إنه جامع جميل منور يقع داخل السوق.

وفى مدينة (مصر القديمة) ثلاث مدارس، و٢٠ مكتبًا للصبيان، وخمس تكايا، بيد أنه لا وجود لتكية عظيمة مثل تكية الشيخ (على ياحى) بالقرب من الجمرك، لها أشجار جميز ضخمة، ويزورها العوام والخواص، ولكن لا أوقاف لها.

وفى خمسة مواضع على ضفة النيل تكايا، إلا أنه ليس لهذه التكايا أبنية ولا أوقاف، يؤمها عابرو السبيل والمجاورين للصلاة فى ظلال الشجر، وكأنها رياض من رياض الجنة. وقد أقام بعض فاعلى الخير محاريب وصفات لهذه التكايا، ولها من يقوم على الخدمة فيها .

وفى إحدى هذه التكايا يجمع جورباجية الانكشارية الإتاوات من الغادى والرائح ممن يحملون السلع، إنها دار للمظالم، ليصرف الله شرها فلا نجاة لفقير دون أن يدفع نصف ما يحمله من سلع. وكان هذا المكان هو المكان الذى يحصل فيه فرعون الضرائب لتأمين التجارة فى مصر القديمة. وطالما كان الأقباط يخرجون عن حدود الأدب عند عبورهم من هذا المكان يمضون. إنه مكان له الشهرة فى الآفاق، وهو سيئة من سيئات فرعون التى أغرقت الدنيا بالظلم.

وكان قديما فى هذه المدينة ٧٠٠ حمام، والآن لايوجد إلا حمام واحد فى السوق، وبها الآن كذلك ١١ وكالة، و١٠ مقاه، أما فى مواسم (قطع النيل) فهم يزينون المقاهى المعطلة، ويعقدون فيها مجالس الأنس والغناء، كما أن بها ٣٨٠ حانوتا واسعا وكثير منها مغلق. ولا وجود فيها لسوق الأقمشة.

مخازن الغلال التى بناها يوسف الصديق - عليه السلام -
(انبار يوسف)

تقع عند منتصف المدينة على ضفة النيل، وقد بناها يوسف الصديق عليه السلام.

وقصة يوسف الصديق واردة فى كل كتب التاريخ، إلا أننا فى هذا المقام نجملها إجمالا لأن ذلك من ألزم اللوازم:

لما كان الملك (الريان) ملكا لمصر، وقع يوسف الصديق فى الأسر وبيع فى مصر، فاشتراه عزيز مصر، ولفرط عشق (زليخة) زوجة العزيز له افترت عليه كذبا، فزج به فى غياهب السجن، وطرح فى السجن معه كذلك فتيان، يقول عز من قائل: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ففسر يوسف رؤيا أحدهم قائلا: سوف يصلبونك وفى تلك اللحظة جاء السجانون وأخرجوا هذا الفتى من السجن وصلبوه.

وخلاصة القول أنه عندما كان يوسف الصديق حبيسا فى سجنه اشتهر بحسن تأويله للرؤى.

بعد ذلك اتفق أن رأى الملك الريان رؤيا، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. فأخرجوا يوسف من السجن، وفسر رؤيا الملك الريان قائلا: أيها الملك سيقع فى البلاد قحط عظيم يدوم سبعة أعوام فأطلق الملك سراح يوسف الصديق من سجنه. وبدأ الملك يبنى مخازن الغلال بناء على رأى يوسف إلا أن الملك وافاه الأجل، وجرى قضاء الله بأن تؤول الخلافة إلى يوسف على مر الأيام، فأنشأ هذه المخازن.

وقحطت مصر سبعة أعوام، وقحط مصر على عهد يوسف أمر مشهور، وكان ذلك هو السبب فى بناء مخازن يوسف. وقد تغيرت معالم هذه المخازن لأنها دخلت فى حوزة آلاف الملوك وخرجت منها أما أساس بنائها فى الأصل فكان الأرض، أما الآن فهى قلعتان مربعتان متقابلتان.

إنها مكان غريب وعجيب حقيق بالمشاهد وبتعبير العوام إنه أسطورة.

ويبلغ ارتفاع جدرانها أربعين ذراعا، إنها بناء من الآجر الأحمر كأنه سد الاسكندر، وغطيت بشبكة من الغاب، وإذا ما دخلها أحد أخذه شديد العجب. وبما أنها مكشوفة السطح فإن أسرابا من الحمام واليمام لا حد لها تحط عليها لتلتقط ما فيها من حب ثم تطير أسرابا، ومن عجب أن هذه الطير التى تبلغ مئات الآلاف تلتقط الحب منها ليل نهار إلا أن حبة منها لا تنقص، وذلك بفضل من الله.

حتى إنه قيل ذات مرة إن الغلال تنقص من أجل التقاط الطير تلك حباتها فأقاموا سقوفا لهذه المخازن لستر ما فيها، وفى تلك السنة أصاب مصر قحط شديد أشد كثيرا من القحط الذى أصاب مصر على عهد يوسف ففتحوا المخازن فما بقيت فيها حبة واحدة مما خزنوه، وأصبحت رمادا حالك السواد، وماتت على سقوفها مئات الآلاف من الطير، وكاد أهل مصر يأكل بعضهم بعضا من شدة الجوع فاجتمع العلماء والعارفون بالله وتشاوروا فى الأمر واستقر رأيهم على هدم الأسقف التى أقيمت فوق المخازن، وإلى يومنا هذا وهذه المخازن مكشوفة.

وفى أول العام مضى وزير مصر وفى معيته جميع الأمناء وأغوات الفرق السبع والدفتردار إلى أنبار يوسف (أى مخازن يوسف)، وذلك لمحاسبة أمين المخازن وعندئذ ظهر عجز قدره اثنا عشر ألف أردب كانت قد غرقت فى الماء والتقطتها الطيور فحسبت على المال السلطانى.

وداخل هذه المخازن(   )[١] مائة ألف أردب من القمح، و(   )[٢] مائة ألف أردب من البقول و(   )[٣] مائة ألف أردب من الشعير، وهذه الغلال ترد من صعيد مصر العالى (أى جرجا)، ولا ترد مصر حبة قمح واحدة من رشيد ودمياط لأن إنتاجها من القمح لا يكفيها لأن محاصيلهم هى القصب والحناء والقطن والكتان والأرز أما الغلال فهى قليلة.

وجملة القول أن مصر أم الدنيا هى ولاة الصعيد العالى، فهى أم مصر التى تطعمها. وهذه الغلال المذكورة محسوبة إلى خزانتين مصريتين لصالح السلطان.

ومخزن يوسف هو أحد مخازن مصر البالغ عددها (   )[٤]، وجميع مخازن غلال مكة والمدينة، الدشيشة والمحمدية والمرادية، والخاصكية فى مدينة بولاق، وكتبتها ونظارها وأمناؤها وكيالوها لهم إدارات خاصة بهم. وفى بادئ الأمر كانت إدارات الدشيشة فى يد الأغوات السود، وكانوا نظارها، وقد أخطر الكتخدا إبراهيم باشا السلطان أن أوقافهم تخربت، فصدر فرمان من السلطان بإسناد إدارتها إلى فرقة الانكشارية، وتولى رئيس الانكشارية نظارة هذه المخازن.

وغلال الحرمين اثنان وأربعون ألف أردب، ترد من قرى صعيد مصر العالى بعد أن يحصلها نظار الأوقاف من تلك القرى، ثم تخزن فى مخازن بولاق. ثم يقوم عرب الدشيشة بحملها على عشرة آلاف جمل إلى ميناء السويس حيث توجد سفن المحمدية والمرادية والخاصكية، ويسلمونها بدفتر إلى القباطنة الذين يحملونها إلى جدة وينبع حيث تسلم لمكة والمدينة، ولا تخزن أى حبة من غلال مكة والمدينة فى أنبار يوسف، فقد كانت فى عصر الشراكسة تخزن فى أنبار يوسف حتى فتح السلطان سليم مصر

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

وعندئذ قال جميع المماليك للسلطان سليم: يا مولانا السلطان لقد امتزجت جرايتنا وأعلافنا بغلال مكة والمدينة، وأصبحنا جزءًا من الوقف، فعدمت البركة أموالنا وأرزاقنا وطعامنا، فنرجو يا مولانا السلطان أن تمنع ذلك . فاستجاب السلطان لرجائهم وأنشأ المخازن سالفة الذكر فى بولاق، وكان هذا منه خيرا عظيما، وهذه المخازن كذلك مكشوفة بلا سقف.

وفى مصر القديمة هذه عدة مئات من مخازن الغلال، وهى شونات خاصة بأعيان وأشراف مصر، وكلها مسقوفة، بيد أنها عديمة البركة. وإذا ما وقع القحط فى مصر لحق الضرر- ولا شك بأصحاب هذه المخازن، وهذا الضرر يصيب أموالهم وأرواحهم وعيالهم.

ولكن الله وهب (أنبار يوسف) بركة الخليل، ففى مصر سبعون طائفة عسكرية، وهى: الانكشارية، والعزب، والمتفرقة، والجاويشية، والمطوعة، والسپاهية، والتوفنكجيان، والجبه جيان، والمدفعية، وطائفة المتقاعدين، والجواليه، والأيتام، والطواشية، والنساء، وطائفة الأئمة والخطباء، والمشايخ، والسادات، والحاصل أن هذه الطوائف السبعين سالفة الذكر تضم سبعة وأربعين ألف وثلاثمائة وسبعين من عبيد السلطان يصرف لهم الجراية والعلف كل عام وكل شهر صباح مساء من أنبار يوسف.

وعلاوة على هؤلاء ففى القاهرة مليون وستمائة ألف نسمة طبق ما سجل ببرام باشا، وهؤلاء كذلك تمس حاجتهم إلى مخازن يوسف، لأن حبة القمح هذه مبذولة للغنى والفقير والشاب والهرم والناس جميعا على اختلاف أجناسهم، وكل من له عقل أرسطو يعجز تمام العجز عن فهم تلك الأسرار وحاروا فيها إلى أن ماتوا. إن نعمة الله مبذولة للخلق، فمخازن يوسف هذه معجزته وهى ممتلئة من خزائن الغيب، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. إن هذا هو كلام رب العزة القديم، ورزق العالمين عليه عز شأنه، وهذا شاهد على أن الله يرزق جميع مخلوقاته.

يا من كرمك وهو من خزائن الغيب	طعم منه المجوسى والمسيحى
كيف تحرم الأحباء	وأنت من ترعى جانب الأعداء

وكم فى مصر من عجائب تستحق المشاهدة، ومخازن يوسف إحدى هذه العجائب.

ولقد طال تطوافى فى دولة آل عثمان، إلا أن أربعة أشياء كانت فوق مستوى تفكيرى: أولها الترسانة العامرة فى اسطنبول، ومطبخ آل عثمان، ومصروفات مكة والمدينة والحجيج، ومخازن يوسف الصديق فى مصر، تلك هى الأربعة التى حارت فيها عقول العقلاء.

ذكر سواقى مصر العتيقة

ومما يستحق المشاهدة فى مصر العتيقة ساقية السلطان الغورى الواقعة فى نهاية الجانب الشمالى من تلك المدينة، إنها قلعة حصينة مثمنة الشكل، يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا مكيا وتصعد الخيل والثيران حتى ذروتها فى ارتفاع وإنخفاض وهى ساقية تدور بدواليب فى ثمانى مواضع، وهى تسحب الماء من النيل، ويمضى الماء فى مجار إلى القلعة الداخلية لمصر، ولها أمين قائم على أمرها، وتحت إدارته ٣٦ دولابا ويتبعها ٣٠٠ ثور، و٢٠٠ خادم.

وينفق على هذه الساقية فى العام ١٥٠ كيسا من المال السلطانى. إنه خير عظيم وخدمة جليلة ويجرى ماء النيل إلى القلعة الداخلية من خلال ٣٦٠ قنطرة من هذه السواقى، وبذلك يروى عباد الله فى القلعة ظمأهم ويترحمون على السلطان الغورى ويدعون له بالخير.

ولقد شربت طيلة ثمانى أعوام من الماء العذب الفرات لهذه الساقية، الفاتحة لروحه.

وأتحدث الآن عن الخليج الذى شقه الملك المقوقس أى النيل المبارك الذى يخترق مدينة القاهرة عند قطع النيل أسفل جسر أبى المنجا.

***

الفصل الرابع والأربعين

ذكر قطع النيل الذى يهب مصر الحياة والثراء

إن ما يعرف بقطع النيل هو أنه لما كان ماء المطر لا يكفى أقاليم مصر حسبما جرى قضاء الله، ولذلك شق كهنة مصر قديما - بفضل من معجزة إدريس وسعة علمه بالهندسة - من النيل ترعا وخلجانا من المناطق المرتفعة من النيل المبارك، وبذلك أجروا ماءه من ولاية إلى ولاية، وبعد أن يروى أراضى مصر بتمامها يزرع الناس على الطمى الذى جلبه ماء النيل، ويحصدون المحاصيل بعد سبعين يوما من الزراعة ويقتاتون بها.

وتلك حكمة الله التى تجرى مجرى العادة، فالمياه تفيض فى كل أنحاء الدنيا فى شهر يوليو من كل عام أما هذا النيل المبارك فى يوم (   )[1] من شهر أغسطس الموافق يوم (   )[2] بالتقويم القبطى، ويسمونه غرة شهر توت، وهى أيام مراسم تقليدية سيئة حيث يتمنطقون بالزنانير ويلبسون ثيابهم المهملة، ويضرمون النار فيها، ويبتهجون باشتعالها.

وفى تلك الأيام يشاء الله أن ترتفع مياه فيضان النيل، وتسقط النقطة أى يحمر النيل حمرة قانية ويصبح وكأنه بحر من الحمأ، إلا أنه لا يفيض دفعة واحدة وإنما خلال سبعين يوما بتمامها، وبعد ذلك قطع النيل، ويسمون فيضانه قبل سبعين يوما (النقطة).

أوصاف نقطة النيل المبارك

قبل شهر توت القبطى بسبعين يوما ينوب كبير جاويشية الانكشارية عن المحضر أغا فى رعاية أمور الانكشارية، وعندما تقترب أيام النقطة المذكورة يأذن الباشا للجاويش المذكور فيمضون لتطهير حوض أم القياس، لأنهم مكلفون بتطهير هذا الحوض منذ صدور قانون السلطان سليم. وهم إن لم يطهروا حوض أم القياس لن يعلم مقدار ارتفاع النيل، وكل من فى القاهرة من السقائين الذين يحملون القرب على ظهورهم يجتمعون فى أم القياس ذلك اليوم لكسح حوض أم القياس. وإذا لم تبق فيه قطرة ماء يدعوا جاويشية الانكشارية كل يوم فرقة عسكرية من الفرق السبع بكل من فيها من شيوخ وشباب، وتبسط الولائم

(١، ٢) بياض فى الأصل.

العظيمة طوال سبعة أيام وسبع ليال، كما يولمون للباشا ولائم عظيمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام يخلع الباشا على أغوات الفرق السبع وكبير جاويشية الانكشارية صاحب الوليمة اثنتى عشرة خلعة فاخرة، كما يمنح الباشا خدام كبير الجاويشية مائة قرش، إلا أن جان بولاد زاده لم يكن يخلع على أحد خلعا سوى كبير الجاويشية، ويمنح رئيس الجاويشية كيسا من القروش، وهؤلاء لا يمنحون الباشا فرسا ولا غير ذلك.

ثم يركب الباشا سفينة العقبة، ويمضى بها فى النيل وهو يشاهد ما على ضفتيه إلى أن يصل إلى (القصر العينى)، ثم يأتى بعده جميع الأشراف والأعيان من الانشكارية وجاويشيتهم، ويولم الباشا وليمة عظيمة فى أم القياس، وتقام الولائم كذلك فى أربعين موضعا، وعلى كل وليمة مائتا صحن، وبعد الطعام والدعاء والثناء وإحراق البخور يشربون الأشربة وينصرفون.

وبعد العصر يقدم جميع علماء مصر وصلحائها وأئمتها وخطبائها ومشايخها العظام، وتقام لهم وليمة خاصة يعجز عنها الوصف، لأنه عندما يقدم العلماء يمتلئ جامع أم القياس بالعوام والانشكارية ويطلق عند مجىء كل منهم عيارا ناريا تحية للعلماء، وينال الانكشارية كيسين صدقة من كبير جاويشيتهم، ويمضى قرابة ألفين من الأوداباشية والبكوات إلى حال سبيلهم.

ولكن بما أنها ليلة الجمعة فالعلماء لا ينصرفون قط ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر فى قراءة المولد. وأثناء قراءة المولد يقوم كبير الجاويشية بتوزيع الحلوى وإحراق العود، وفى الصباح، وهو صباح يوم الجمعة يبسطون سماطا خفيفا لتناول الفطور، وبعد تناول طعام الفطور يمضى جميع العلماء إلى حافة حوض أم القياس، وهناك يرفع الدعاء الشيخ ابن الرداد شيخ أم القياس، ولأنهم جميعا من المسلمين فليس لأحد ما يشغله فى ذلك اليوم، وتدوم الولائم فى أم القياس وكسح حوضها ثمانية أيام بلياليها، أما كل من يكون فى منصب رئيس الجاويشية فإنه يفلس لأن له ميزانية قدرها عشرة أكياس مصرية، ويكون ذلك مصيبة عليه لأنه فى هذه الولائم طوال ثمانية أيام وثمانى ليال يقوم مائتا طاه بإعداد الطعام، ويقدم ألف خروف وخمسون ألف دجاجة، وخمسون ألف حمامة، وألف ألف رغيف، ومائة ألف كعكة، وهذه النفقات لا يعلم مقدارها إلا الله.

وعندما كان (سليم كتخدا) رئيسا للجاويشية أنفق مثل كل هذه النفقات، لأنه كان يقدم الطعام كل يوم فى مائتى صحن فى حدائق الروضة ومصر العتيقة وأم القياس إلى جماعة الأوداباشية.

وبعد الفراغ من هذه الولائم يرفع الدعاء والثناء، فيتدفق ماء النيل المبارك من جوانب الحوض الأربعة، وحيثما يجرى النيل فإن ماءه يأتى إلى حوض أم القياس. وبعد عشرين يوما من تطهير هذا الحوض مما كان فيه من مياه، يخطرون الباشا بأن النقطة سوف تسقط فى هذه الليلة فيبتهج ابتهاجا لا مزيد عليه فيأمر وكيل الخرج بأن يقيم ولائم عظيمة فى أم القياس يومين وليلتين، ولا يحضر هذه الولائم العلماء والصلحاء والسادات والمشايخ العظام ولا غيرهم من طوائف الجند، بل تقتصر هذه الولائم على ناظر أم القياس، وكتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة وأغوات الفرق السبع، والترجمان باشى. وبعد الفراغ من تناول الطعام يمضى الجميع، ولا يبقى إلا أغوات الباشا والترجمان باشى لأن الباشا هو صاحب الوليمة إلا أنه لا يحضر، وضيافة ما بعد العصر والصباح يقيمها الترجمان باشى، وفى تلك الليلة يتلى المولد النبوى الشريف وتزين أم القياس بما لا يحصى كثرة من القناديل، والشمع الكافورى، ويحيى العلماء هذه الليلة حتى مطلع الفجر، وفى تلك الليلة يشاء الله أن تسقط النقطة فى النيل، وسقوط النقطة هو أنه بعد تطهير حوض أم القياس يبقى فيه ماء قليل، ثم يظهر ماء كطمى فى حمرة الدم ويسقط، وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله، وتتلى آيات الذكر الحكيم طيلة يومين وليلتين ويتلى الختم الشريف مائتى مرة، وعندما تسقط النقطة يجلسون على الجوانب الأربعة للحوض ويفرغون من تلاوة الختم الشريف، ويدعو الشيخ السادات الله ويثنى عليه، ويصبح كمن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، ويقوم وكيل خرج الباشا بنحر مائة أضحية، يوزعها على العلماء، كما يخلع على بعض المشايخ والسادات وشيوخ البكرية ثيابا من الصوف، ويسجل القاضى لحظة سقوط النقطة ويقيدها فى سجل شريف، ويزف البشرى إلى الباشا أحد شيوخ منادى النيل فينال منه قباء من صوف أبيض، وسبعين أو ثمانين دينارا من ذهب.

وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله وشكر نعمته ويمضون جميعا إلى بيوتهم.

مناقب الشيخ السادات

هبط الشيخ السادات مصر قادما من بلاد المغرب عام (   )[1]، وبينما كان منزويا فى خلوته اتفق أن النيل لم يفض فى عام من الأعوام، فعم القحط والغلاء وانزعج أهل مصر أيما انزعاج وبسطوا رجاءهم إلى الشيخ السادات أن يدعو الله لهم، وما أن بسط الشيخ أكف الدعاء حتى فاض النيل الذى لم يفض منذ عام، وكان وفاء النيل ومنذ ذلك الحين يفيض النيل فى هذه الأيام ويفى النيل.

وفى ذلك الوقت دعى السلطان (   )[2] الشيخ السادات إلى وليمة، وملكه نصف مصر، ولذلك يأتى أبناء السادات إلى هذا المكان للدعاء وإقامة الولائم، حقا إنها ذرية عريقة.

ويسكن أم القياس شيوخها، وثلاثمائة من أبناء مناديها. وفى كل ليلة يفيض فيها النيل بأى مقدار يجتمع خدام أم القياس، وشيوخها ويسجلون على طبق من ورق بالزعفران مقدار ما ارتفع من مائه وما يسجلونه هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أدام الله نعمته على سيدنا ومولانا المقام العالى الأعظمى مولانا الوزير كفيل الممالك الشريفة الإسلامية، بالديار المصرية والأقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظفر أعز الله تعالى أنصاره بجاه محمد عليه السلام الفقير إلى الله تعالى أولاد أبى سادات الأمناء على قياس النيل المبارك، يبتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة، فى صحائف سيدنا ومولانا من يجيب الدعاء سرا وينهون أن الله تعالى زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأول سنة سبع وثمانين وألف الموافق الثالث عشر من مسره أربعة أصابع صار ثمانية عشر ذراعا وتسع أصابع أنهى ذلك كذلك اللهم أنعم لنا خيرا).

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

وهذا التقرير يذيل بخاتم شيخ أم القياس وتوقيعه ويرسل إلى الباشا ويدفع عنه القائم بخزانة الباشا دينارا من ذهب عن كل يوم.

وعلى هذا النحو عندما يفيض النيل يومًا بعد يوم عقب سقوط النقطة يعم السرور والبهجة مصر، ويوزع وزير مصر وجميع الأمناء والملتزمين والكاشفين الصدقات والنذور.

ولأن الكثرة الكاثرة من أهل القاهرة أمناء وملتزمون فهم ينتظرون فيضان النيل المبارك، وإذا لم يفض اللهم عافنا وقع القحط والغلاء.

وإذا ما سمع عن ارتفاع منسوب النيل، فلشيخ أم القياس فى الحوض عمود ارتفاعه ثلاثون ذراعا عليها علامات مدرجة بين كل منها نحو أصبع فينظر إليها الشيخ، ويكتب سندا فى كل صباح فيمضى به شيخ طاعن فى السن إلى الباشا، ويدخل حتى حرم الباشا ويدخل عليه فى أى مكان كان فيه قائلا: السلام عليك يا وكيل السلطان الوالى حفظك الله وسلمك زاد النيل المبارك هذه الليلة - بأمر الله بمقدار (   )[1] ذراع، و(   )[2] أصبعا، فينال دينارا من ذهب.

ويحاط الباشا علما على هذا النحو طيلة أربعة وثمانين يوما بالتمام.

وتحت إدارة المنادى الذى يأتى إلى الباشا ثلاثمائة وستون شخصا، وكل منهم يمضى إلى كل حى أو كل حارة وينتشر هؤلاء المنادون فى أرجاء مدينة القاهرة، ولكل منهم منطقة خاصة به لايتجاوزها لأن لكل واحد منهم من كل منزل عوائد يحصل عليها ولذلك لا يتجاوز أى من هؤلاء المنادين وإذا جاء مناد آخر وقع صاحب المنزل فى الحيرة، ولا يعرف لمن يسدد العوائد أو الفوائد، ولتلافى وقوع مثل ذلك يلتزم كل مناد بالمنطقة المحددة له.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين من صباح الوجوه مكحولى العيون يحملون عصيا، وإن لم يكونوا طاعنين فى السن إلا أنه يتعين عليهم حتما أن يحملوا عصيا.

ويعاون كل مناد ثلاثة أو أربعة من أبناء العرب صباح الوجوه يلفون الشال متعدد الألوان كالأصفر والأحمر والأخضر حول رقابهم، وعندما يمرون بأى باب يقولون:

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(السلام عليك يا أمير محمود، يا شريف أحمد، يا سيدى على، أو يا أمير الأمراء الكرام) وهكذا ينادون أصحاب البيوت بأسمائهم. وعلى هذا النحو يبلغون الناس بأن ماء النيل المبارك زاد بمقدار ذراع وستة أصابع أو بمقدار ذراعين وثلاثة أصابع أو بأى زيادة أيا كان مقدارها، ويجود عليهم كل شخص قدر مقدرته، وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين يتقاضون دينارا ذهبيا عن كل يوم لكل واحد منهم، يحصلون كذلك الأموال من الناس.

ولشيوخ أم القياس ومناديها الثلاثمائة وستين كشوفية مقدارها (   )[1] باره من المال الأميرى ويسددون الضرائب.

وفى إقليم مصر ٢٧٦ بلدة وميناء، وعندما يتوجه المنادون إلى جميع المدن فى مصر، يستأذن منادى مصر من الباشا ويسدد عوائد الكشوفية ويحمل أوراقه ويمضى من ولاية إلى أخرى، فلا يستطيع أن يخبر الناس بمقدار ما ارتفع من ماء النيل.

وفى مدينة القاهرة ٢٠٦٠ حديقة يبسط هؤلاء المنادون سيطرتهم عليها لأنهم يزفون البشرى كذلك إلى بستانيى النيل، لأن كل البساتين فى حاجة إلى النيل، ولذلك فإن جميع الحدائق والحقول تخضع لنفوذهم. وإذا ما احتاج الباشا وأعيان مصر إلى البنفسج والورد والسنبل والعنب، وما إلى ذلك من الثمار فذلك متوفر لديهم.

وعلى مدار أربعة وثمانين يوما ينادى المنادون عن منسوب النيل. وإذا ما بلغ منسوب النيل عشرين ذراعا يقولون: (استوى الماء والخشب): أى أن ماء النيل أصبح مستواه فى مستوى جسر الخشب الذى يعلو العمود المدرج الموجود فى حوض أم القياس.

وإذا ما بلغ أربعة وعشرين ذراعا نادوا قائلين: (من الجبل إلى الجبل)، والمقصود بذلك أن النيل زاد وأصبح فى مستوى سفح جبال الأهرام فى مدينة الجيزة بغرب القاهرة، وهما جبلان كبيران وجبل صغير من صنع بنى الإنسان، ويسميها الناس الأهرام أما العوام فيسمونها جبل فرعون، وإذا ما ارتفع ماء النيل إلى سفحها قالوا (من الجبل إلى الجبل). أما المصريون فيقولون الحمد لله يكفى يارب يكفى لأنه إذا ما ارتفع ماء النيل بمقدار أربعة وعشرين ذراعا إلى هذه الجبال وزاد عن ذلك بمقدار خمسة وعشرين ذراعا

(١) بياض فى الأصل.

(والعياذ بالله) بلغ ماء النيل إلى عتبة الباب الحديد، وهو باب القلعة، فغرقت القاهرة. وخوفا من ذلك حينما ينادى المنادون قائلين: (من الجبل إلى الجبل) يقول المصريون (يكفى يارب) أى أنهم يخافون الغرق. لأن الملك (سوريد) بنى هذه الأهرام بفضل معجزة إدريس عليه السلام، لأن إدريس عليه السلام عرف بوحى من الله أن النيل المبارك سوف يغرق مصر، ولذلك أشار على الملك سوريد ببناء هذه الأهرام، وجعل لها طلاسم، ولذا يبلغ ماء النيل سفح هذه الجبال فى بعض الأعوام.

أما إذا ما اقتربت أشراط الساعة يأتى ملك بنسف هذه الجبال بالبارود الأسود وعندما تنهدم يكون خراب التاسع أى خراب بخت نصر التاسع أما الخراب العاشر فهو حتما إذا زال أثر هذه الطلاسم وزوال الأهرام وبذلك يخرب النيل مصر لا مفر من ذلك، ويخرب نهرنا بالشام ونهر شط العرب ببغداد.

وإذا ما بلغ النيل ستة عشر ذراعا فإنه يتعين تحصيل الخراج السلطانى. إلا أن الأمناء والملتزمين والكاشفين يفلسون وإذا ما ارتفع عن ثمانية عشرة ذراعا اغتنى كل الملتزمين والكاشفين.

أما إذا ارتفع إلى عشرين ذراعا لا تبقى فى مصر أرض بور وتروى جميع الأراضى أى لا يبقى فى مصر أرض قاحلة.

أما إذا غمر النيل أرضها بأكثر من هذا المنسوب لحق بمصر الضرر.

أما إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعا والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء والكاشفين. وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشئوم ويحبس فى جوسق يوسف ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الأستانة ويظل الباشا حبيسا إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكوات بصفة مؤقتة. ويلقى بالملتزمين والأمناء والكاشفين فيما يسمى بالأرق خانه أى - السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم.

وإذا ما فاض النيل بادر جميع المحتكرين والأثرياء بإخراج ما فى مخازنهم من غلال عن طيب خاطـر، لذا يعم الرخاء مصر ويصبـح سعر أربعة أوقيات من الخبز الـعثمانى باره واحدة.

قصة فيضان النيل

إن فيضان النيل لحكمة عجيبة، لأنه قد يفيض سنة ولا يفيض أخرى. ولكن المشاهد أنه يفيض فى غرة شهـر توت القبطى، غير أن قلة مائه أو وفرته فـليس لها ثبات، إذ إن ذلك فى يد البارى عز شأنه. وهذه الكرامات العلية بقيت من سيدنا عمر رضى الله عنه كما يقال .

ففى خلافة الفاروق عـمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه فى الـعام الحادى والعشرين للهجرة الـنبوية الشريفة فـى العام الذى فتحت فيـه مصر على يد عمرو بـن العاص لم يفض النيل على ما هو معهود. فقال له أهل مصر:

كان لنا دأبا جرينا عـليه منذ القدم أنه قبل فيضان النيل بـيوم واحد فى كل عام نزين فتاة حسناء كأنها الـشمس فى حسنها ونحليها من ياقوت أحـمر ونفيس الجواهر، ونعد مئـات القنـاطير مـن رؤوس السكـر، وعدة آلاف أردب من الـغلال وآلاف الزعـفران والكعك ونطرح هذا كله فـى النيل مع الفتاة، فكانت النقطة تسـقط صباح اليوم التالى ويبدأ النيل يفيض.

فرد عليهم عمرو بن العاص قائلا:

حاشا لله هذا من طقـوس الكفرة، وليس فى ديننا أن نسفك الدمـاء بغير حق ونبدد نعمة الله على هذا النحو من أجل فيضان النيل.

ومضى على ذلـك أربعون يوما ولـم يفض النيـل وانتشر القيل والقال فـى البلاد التى فتحت لتوها، وتردد على ألسنة الناس أن مقدم العرب كان شؤما عظيما عليهم، واحتجز المحتكرون الغلال فى مخازنهم وأفضى ذلك إلى تفشى القحط والغلاء فى مصر.

وفى الـنهاية أرسل عمرو بـن العاص رسولا إلى عمـر بن الخطاب رضى اللـه عنه يخبره بأمر الفتاة التى تطرح فى النيل على وجه التفصيل. ولما بلغ هذا الرسول مكة بعد

عشرة أيام أبلغ عمر بما جاء فى رسالة عمرو بن العاص. وأدرك عمر ما جاء فى تلك الرسالة، وعندئذ كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بأن يبطل هذه العادة من عادات الكفرة. ويقول له إذا ما استطعت أن تمنع طرح الفتاة فى النيل فاطرح رسالتى تلك فيه وكان نص هذه الرسالة هو:

(من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر، يا نيل إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك. وإن كنت تجرى بأمر الله وبقدرته فاجر صاعدا).

وأعقب عمر كلامه هذا بقوله عز من قائل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وبلغت هذه الرقعة عمرو بن العاص بعد عشرة أيام. بيد أن الناس كان قد دب فيهم دبيب اليأس وحمل كثرة منهم عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن مصر. وما أن وصلت رسالة عمر بن الخطاب حتى تلاها عمرو بن العاص ومضى فى نفر من أعيان مصر إلى الموضع المسمى الآن بأم القياس، ونقلوا إلى النيل تحية عمر وألقوا رسالته فى مائه.

وعندما سقطت الرسالة فى النيل المبارك جاش ماؤه كأنه البحر الطامى. وفاض النيل الذى لم يفض منذ ستين يوما وزادت مياهه بمقدار الزيادة فى أربعين يوما وذلك ببركة رسالة عمر وما فيها من آيات الذكر الحكيم فابتهج أهل مصر واستبشروا.

ولله الحمد منذ ذلك اليوم لم يخلف النيل ميعادا وتسقط نقطته ما فى ذلك شك.

ونذكر الآن حوض سقوط النقطة وأم القياس وبانيها وأشكال مبانيها:

اوصاف جزيرة روضة أم القياس

تلك البقعة المواجهة لمصر العتيقة تسمى «الروضة». وفى الجهة الجنوبية لهذه الجزيرة قصور عالية وعدة قاعات وحجرات متنوعة ومخزن للأطعمة ومطبخ ومائتا منزل لمنادى شيخ أم القياس.

وفى أحد أركان هذه الجزيرة جامع السلطان قايتباى العلوى، القائم على أربعين عمودا من الرخام، وهو جامع له منارة منخفضة من طبقة واحدة وحرمه شديد الإتساع.

إنه قصر عـال تجرى عليه الأوصاف السـالـف ذكرها وحرمه الخارجى ساحـة وسيعة تحيط بها أشجار الجميز وافرة الظل. وهو موضع نزه.

أول من بنى أم القياس:

وأول من ابتنى أم القيـاس كاهن فى عهد القبط يسمى «قليـمون الحكيم» وكان ذلك بعد طوفان نوح علـيه السلام. وجاء بعد ذلك كاهن آخر يسمى «حـصليم» وكان فريد دهره فى علم الهندسـة وقد اخترع آلات مختلفة للمقياس، وهـو الذى جعل أم القياس على شكلها الحالى، وكان له فضل التجديـد. كما أنه شق جميع خلجان مصر وترعها بعلمه وحكمته. وبذلك أجرى ماء النيل من ولاية إلى ولاية.

وبمرور الأيام لحق الخراب بأم الـقياس. وفى عام ١٩٨ قدم مصر الخليـفة المأمون من بغداد وأخرج ما أخرجه من كنوز وكتب مـن جبال الأهرام، وبهذا المال الذى استخرجه رسم أم القياس وجددها.

وفى عام ٧٨٥ فى خلافة المتوكل على الله محمد بـن المعتضد بالله أبو بكر العباسى أمر نائبه السلطان برقوق بأن يضم إلى أم القياس بعض الأبنية.

ولم يدم البقاء للخليفة المأمون فى مصر، وتوجه لمحاربة قياصرة أنطاكية- بما أخرجه من جبال الأهرام من مال - وغلب على ديارهم، فـهجر الأديرة كل من فيها من كفار، وتبدلوا من القرار بالفرار، وضرب حصاره على قلعة طرسوس فملكها ولما بلغ المأمـون الثامنة والأربـعين من عمره قتله أخـوه، ودفن عام ١٩٩ فى ركن مظلم فـى نعش مـن الرخـام بالقرب مـن جامـع النور فى طرسوس وقد تأتى لى زيارته والتأكد من تاريخه.

وللمأمون فى مصر علاوة على أم القياس الكثير من المؤسسات الخيرية.

أوصاف حوض أم القياس

إن «أم القياس» خطأ صحته فى اللغة العربية «المقياس» أى مقياس الماء. والحوض هو التعبير الأصح. إلا أنهم يقولون «أم القياس» وهذا خطأ شائع.

وحوض المقياس يقع فى أحد أركان الحرم الموجود أسفل قصر الخليفة المأمون فى طرف جزيرة الروضة. وهو عبارة عن قبة ذات زخارف تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام وتحت هذه القبة حوض عظيم مربع الشكل من الرخام الأبيض الخالص، وعلى جوانبه الأربعة سلم من ثمانين درجة، ويبلغ عمق هذا الحوض ثلاثين ذراعا بالتمام.

ويطهره الإنكشارية مرة فى العام ويستغرق ذلك منهم أسبوعا على نحو ما سبق ذكره. ويتوسط هذا الحوض «شيتخانه» تقع فى نهاية عمود من الرخام يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين ذراعا، ولكى يبقى هذا العمود ثابتا لا يميل يمينا ولا يسارا ثبت على جسر من الخشب، وهذا الجشر الخشبى مقام بين طرفى الحوض وهذا الجسر الخشبى هو ما يقال عنه «استوى الماء والخشبة».

وبارتفاع خمسة وعشرين ذراعا من هذا العمود حتى «الشيخانة» فى ذروته علامات عشرية بحساب الأصابع. وهذا الحساب مضرب مثل فى مصر، فهم يقولون «حاسبنى بحساب الأصابع». وقد قرض بعد الشعراء أبيانا فى هذا الحساب فقال:

انتظر الأطفال الهلال انتظار جبريل فما أكثر ما تحسب أم القياس بالأصابع

ويعلم من حساب الأصابع هذا مقدار ما يفيض من ماء النيل فى اليوم، فكل علامة تساوى أصبعا، هكذا صنعها المهندس (   )[1].

وكى ما تحسب هذه العلامات أنشئ سلم من الرخام داخل الحوض وهذا السلم يهبط إلى قاعه بطول ثمانية وأربعين قدما. وكل صباح يهبط شيخ المقياس هذا السلم ويتبين من العلامات الموجودة على العمود الرخامى مقدار الماء الذى جاء به النيل البارحة. ويقوم بتسجيل مقدار ما بلغ النيل من زيادة بالزعفران على رقعة فى حجم الكف ويخطر الباشا بذلك.

وعلى حافة الحوض تاريخ بخط كوفى ذهبى على لوح من الرخام، وشاهد هذا التاريخ كثرة من الرحالة العرب إلا أن أحداً منهم لم يستطع قراءته، إنه تاريخ المأمون والله أعلم، فعلى حافة الجسر الخشبى الذى يثبت عليه العمود كتب آية الكرسى بخط

(١) بياض فى الأصل.

مذهب وفى نـهاية هذه الآية تاريخ هو: (وذلـك فى جمادى الآخر سنة سبـع وأربعين ومائتين)

وفى رأس عمود الرخام خلية مغطاة بالذهب، والتاريخ المنقوش بالذهب على الرخام عند حافة الحوض هو:

(لمولانا المـلك عز نصـره سلطان محـمد خان بن إبراهـيم خان دام منـصورا وعاش وللمقياس قد أرخت أحيا بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠).

وعلى حافة حوض أم القياس ثـمانية أعمدة من الرخام تعلوها قبة مُقـرنصة مختلفة الألوان غايـة فى الجمال والروعة، وعـلى إطارات هذه الأعمـدة المذكورة على خلـفية لازوردية كتب بخط جلى آيات قرآنية من سـورة الروم وهى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. إلى آخر الآية وبعد ذلك كتب:

(بتجديد ملوك سلاطين المصرية الملك الأشرف الظاهر بيبرس الصالحى).

ويعلو هذا النص على حافة القبة قوله عز من قائل:

بسم الـله الرحمن الـرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]. إلى آخر الآيات الكريمة وكتب بعد ذلك:

(مالك ممالك رقاب الأمم مولانا ملك ملوك العرب والعجم، سلطان سلاطين العرب والعجم صـاحب العراقـين وديار الديلم واليمن السلطان مراد خان خـلد الله ملكه وآله وصحبه وسلم بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبعمائة).

وفوقه وسط القبة كتب بخط جلى قوله تعالى:

بسم الـله الرحمن الـرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. إلى آخر الآية.

ووسط القبة كتب آية من سورة الإسراء وهى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ويحيط بهذا الحوض زاوية تقام فيها صلاة الجمعة، وفى أحد أركانها محراب، كتب عليه بخط جلى مذهب قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الحج: ٦٣] إلى آخر الآية. وبعد ذلك كتب: (إنشاء هذا الجامع المبارك فى زمان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو بناء أمير الأمراء المصرية داود باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدا سنة أربعة وخمسين وتسعمائة).

وعلى جدار قبلة هذا المحراب كتب على يسرة وجهة الداخلى على لوح مربع من الرخام بخط كوفى دقيق قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. وبعد هذه الآية كتب قوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، وبعد هذه الآية كتب: (بانشاء هذا الجامع قبلة المسلمين).

إنه موضع يستجاب فيه الدعاء. ولأن هذه القبة من الخشب المزخرف حولها شبكة من نحاس، وحول الحوض درابيزين من الخشب، ولا يجرؤ أى إنسان على النظر إلى قاعه. والسلام.

وخارج هذا الحوض قاعة واسعة، وفى جوانبها الأربعة كوات مطلة على النيل، ويصعد إلى قمة هذه القاعة بسلم حجرى من أربعين درجة.

وثمة قصر كأنه الخورنق، وكان موضع نزه لسلاطين مصر قاطبة، ويأتى إليه الآن وزراء مصر من وقت إلى آخر طلبا للراحة والاستجمام.

حادثة السلطان سليم الأول فى قصر ام القياس

اتفق ذات ليلة أن كان السلطان سليم فاتح مصر نائما فى ذلك القصر، وقدم فدائى من قبل الشراكسة بيّت النيّة على اغتياله، فاقترب من المقياس وتسلق سارية القارب إلى قبة القصر، ثم هبط إلى مخدع السلطان سليم، وفيما كان يسل هذا الفدائى سيفه أيقظ النبى ﷺ سليما من نومه، فطرح هذا الفدائى نفسه من أعلى القصر الشامخ وكأنه

المنارة فـى المـاء ونجى بنفسه. فألقى سليم باللائمة على الخواص من خدمه إلا أنه تجاوز عن خطاهم ونصبهم جميعا بكوات فى مصر، وأمر بإحضار هذا الفدائى وله منه الأمان واصطحبه معه إلى اسطنبول وأكرمه وأعزه كما سلف أن ذكرنا.

وقصر أم القياس قصر شامخ، وكواته فى جهاته الأربع، وقبة سوره مكسوة بالجص.

وصف جزيرة الروضة
أو جزيرة أم القياس

جزيرة تقع فى النيل، وهو يتبع من جهة الجـيزة ويضيق من جهة مصر العتيقة حول هذه الجزيرة، وكان النيل يـجف فى بعض الأحايين فيعبر الناس إلـى هذه الجزيرة مشيا بينما لا تـستطيع أن تنفذ إليها السفن المحملة بالغلال.

وفـى عام ١٠٨٦ أنفق جـان بولاد زاده حسين باشا مائتى ألـف كيس مصرى، وفى أشهـر ثلاثـة جمـع خمسين الف رجل، وعدة آلاف من ثيران الجرف، وطهروا الطريق أمام أنبـار يوسف وأجرى ماء الـنيل إلى تلـك الجهة فأصبـحت جزيرة الروضـة جزيرة عظيمة.

وقد شيـد الملك الصالـح نجم الدين قلـعة شامخة عـلى طول جوانب هـذه الجزيرة الأربعـة والآن يبدو بروجهـا بمزاغلهـا فـى الجهـة المطلة على الجيزة. إنها قلعة محكمـة وسـد ركـين، وحصن حصـين، وقـد بقـيت هذه القلعـة مئات السنـين فما نال مـنها الخراب.

والمسافة من ركن أم القـياس إلى بولاق والتى تبلغ مسيرة ساعة ونـصف كأنها الجنة وهى خاصـة بالسلاطيـن وجوها لطيف إلـى حد جد بعيـد. وهى خالية مـن الأفاعى والحيات والحشـرات، وإنها جزيرة مطلـسمة. ونفح أزهار لـيمونها ونارنجهـا يصل إلى مسيرة ساعة وشذاها فاغم.

وفى هذه الجـزيرة مائة وستـون بستانا وحـقلا خاصة بأعـيان مصر، ولهـم فى هذه البساتين عدة قصور عالية وعـرائش وقاعات وأحواض وشادروانات وحمامات. ومن لم

يجد له مسكنا وجد له فى هذه الجزيرة مسكنا. وبها الآن سبعة قصور، وثلاثة جوامع أحداها من أوقاف السلطان المؤيد.

ويجدر بها أن تسمى «روضة من رياض الجنة» وبساتينها ورياضها عامرة إلى الآن. ولم يرد فى كتب التاريخ أنها كانت عامرة.

وجملة القول أنها حديقة «إرم ذات العماد» فى مصر، وإذا قيل إنها روضة من رياض الجنة فحق يجدر بالذكر.

وإذا نزل بها عليل ضيفا ليلة واحدة برأ من علته وامتلأ عافية.

***

الفصل الخامس والأربعون

وصف الموكب الثانى لقطع النيل

عندما تسقط النقطة فى يوم (   )[1] توت من شهر يوليو يُذكِّرُ الباشا كتخدا جاويشيته ورئيس فرقة المتفرقة والترجمان أغا، وأغوات الفرق السبع وسائر رجال الأعمال قائلا: إننا بإذن الله سوف نقطع النيل بعد أربعة وثمانين يوما فلتعدوا العدة لذلك يا أعيان مصر حسب القانون القديم، وليكن احتفالا عظيما بهيجا.

وكان ذلك جديرا بأن يدخل السرور فى نفوس أهل مصر جميعا. وجرت العادة بأن يستأجروا المنازل فى مصر العتيقة بمائة قرش أو مائتين أو خمسمائة. كما يستأجرون مقدمًا عدة آلاف من السفن الضخمة من بولاق ورشيد وجرجا بمائة أو مائتى قرش.

ويشرع الناس جميعا يزينون سفنهم وبيوتهم بالقناديل، ويزخرفون مجالسهم وكواتهم، ويطلون جدرانهم وأبوابهم بالجص الأبيض، وبذلك يجعلون من مصر العتيقة أم الدنيا عروسا فى ليلة عرسها.

ويجهز الأمناء والملتزمون والكاشفون وأمراء اللواء وبكوات مصر وجميع الأعيان - طبق ما جرى من عادات - هداياهم التى سيقدمونها إلى الباشا.

ويعهد إلى أحد أغوات الباشا بتطهير موضع قطع النيل ويتسلم عشرة أكياس للإنفاق على خمسة أو عشرة آلاف أجير وثيرانهم طيلة خمسين يوما حتى يتم تطهير الخليج، ويدفعون للأغا الذى يقوم بهذه المهمة عشرة آلاف باره، كما يتحصل له كيسان من القرى وأصحاب البيوت جميعا، ويتحصل لكتخدا الباشا كيسان، وللباشا .

وفى عهد الملك «خصليم» أحد ملوك القبط كانت مياه هذا الخليج تجرى صيفا وشتاء، وكان المصريون جميعا يروون ظمأهم منها، وكانت أرضية هذا الخليج مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام، وعلى مر الأيام غطاها الطين والغبار، وأصبحت تجف ستة أشهر، ثم تجرى فيها المياه ستة أشهر أخرى بعد قطع النيل.

(١) بياض فى الأصل.

ويمنح الأغا القائم على تطهير هذا الخليج عشرة آلاف بارة، وعند إنجاز مهمته يقيد ذلك فى سجلات محكمة باب النصر، ويتسلم الأغا المذكور الحجة الشرعية فيحملها إلى الباشا.

ثم يلتفت إلى إعداد وتنظيم مواكب «قطع النيل». وفى تلك الأثناء يبلغ منسوب النيل ستة عشر ذراعا أو سبعة عشر ذراعا.

وفى الموضع الذى يقطع النيل فيه يقع جسر يسمى «جسر أبى المنجا»، ولكى لا يجرى النيل من تحت هذا الجسر يعهد إلى الأغا القائم على تطهير الخليج بإقامة سد من التراب أسفل هذا الجسر، ويجهز فوق هذا السد الترابى قارب عظيم مزين لموباشى المدينة، ويكوم الأغا المحتسب فى هذا المكان ألفى رأس من السكر، وألفى قطعة من الحلوى، وعدة آلاف الأرطال من الفاكهة، وسبعين أو ثمانين حمل جمل من الخبز الأبيض الفاخر وصنوف من المأكولات والمشروبات علمها عند ربى. ويجهز الأغا المحتسب كل ذلك من صلب مال الباشا.

ويقوم الصوباشى فى ستمائة أو أكثر من رجاله بحراسة هذه المأكولات والمشروبات. ومن موضع قطع النيل إلى بولاق مسيرة ساعة وتجاه هذه المسافة جزيرة الروضة تقطع فى ساعة كذلك، وعلى هذين الجانبين على ساحل النيل لا وجود لمكان متروك.

وتغص هاتان الضفتان بالخيام والسرادقات والمظلات والمطابخ ومخازن الطعام، وهاتان الضفتان كأنهما خضم من البشر، وهم يحجزون أماكنهم قبل قطع النيل بخمسة أو ستة أيام.

وفى سبتية مدينة بولاق تزين سفن كتخدا الباشا وسفن رئيس الديوان و(شهر حواله) وكتخدا البوابين وأغا الرسالة وأمين الجمرك، وأمين الأنبار وناظرها، وقوارب عشرين من أمراء مصر وقوارب أغوات الأوجاقات السبع، وقوارب أمراء الجراكسة، وقوارب قاضى العسكر ونقيب الأشراف والروزنامجى والدفتردار والقبودان. والحاصل أن آلافًا مؤلفة من سفن وقوارب أعيان مصر وأشرافها تزين بأجمل زينة من ذهب وحرير كما تزين بالأعلام المزركشة ذوات الألوان بحيث لا يخلو قارب من زينة فى هذه المناسبة،

كما تزين جميع هذه القوارب فى داخلها وخارجها بأنواع الأسلحة وكأنها هيأت للحرب، وتزدحم هذه السفن المزينة على صفحة ماء النيل من قصر السبتية حتى أثر قدم النبى مرورا ببولاق وقصر العينى ومصر القديمة بمسيرة ثلاث ساعات فتصبح صفحة ماء النيل وكأنها بستان سفن من حمر الأزهار، وتتقارب هذه السفن بحيث يمكن لأى شخص أن ينتقل من قاربه إلى القارب المواجه له، فالقوارب تزدحم إلى هذا الحد البعيد.

ويعلم الباشا أن أهل مصر جميعا على أهبة الاستعداد لقطع النيل، وتبدأ المواكب فى التحرك.

وصف موكب قطع النيل

ويدخل هذا الموكب مصر كدخول موكب الباشا الذى سبق الحديث عنه، غير أن هذا الموكب يضم العلماء والصلحاء والأشراف والطواشية.

وقبل تحرك الموكب بيومين تغلق الحوانيت ويصطف أصحابها من أعيان مصر وأشرافها ورجالها ونساؤها وشيوخها وشبابها على الطريق من القطعة الداخلية إلى بولاق بمسيرة ساعتين وكأنهم بحر من البشر فى انتظار مقدم الباشا.

ويتقدم الصوباشى الموكب فى مائتين من رجاله يحملون العصى، وعشرة من الجلادين لتمهيد الطريق، ويتجاوزون المزدحمين ويمر خلفهم أفواج وأفواج من الأئمة والخطباء يتلوهم شيوخ ثلاثمائة وستين طريقة، وهم يقرعون الطبول ويبتهلون.

وبعدهم يمر عدة آلاف من المشايخ الكرام ثم أفواج وأفواج من علماء المذاهب الأربعة وهم فى أبهى حلة.

ثم يعبر بعدهم رجال الدين الذين يعرف الواحد منهم «بالمولا» والبالغ عددهم مائتين وستين وهم يتقاضون خمسمائة أقجة لكل منهم إعانة من المولوية. وهم يمرون وعليهم ثياب من حرير متحارين، ثم يمر شيوخ الإفتاء من الشافعية والمالكية والحنبلية وشيخ الإسلام الإمام الأعظم «مصطفى أفندى البولوى» مع قاضى العسكر وبعدهم السادات الكرام وعددهم فى مصر ستة وأربعون ألفا، وهم على خيولهم المطهمة، وفى نهاية

صفوفهم يجئ نقيب الأشراف برهان الدين أفندى حاملا علم النبى ﷺ وهو يلوح بالسلام فى أدب ووقار.

ثم موكب الشاويشية وعلى رءوسهم المجوزات يمرون على جياد بيض متوازية وعليهم حمر السراويل، وعلى أيديهم شهب الصقور. وبعدهم موكب الكوكليان أى المطوعة يحملون أعلام فرقتهم بجيادهم المتحازية يقرعون الطبول، وعليهم حمر السراويل.

ثم موكب التوفنكجيان أى حملة البنادق، وهم كذلك يحملون أعلامهم وعليهم حمر السراويل، ويركبون خيولهم متحازين ويقرع رؤساؤهم الطبول وقد بسطوا أعلامهم ولبسوا قلانسهم.

ويتولهم موكب مشاة المتفرقة، وقد لبسوا فرو السمور ويمضون فى صحبة رؤسائهم فى جماعات تتألف من خمسة أو عشرة قارعين الطبول.

ثم موكب الجراكسة وهم كذلك يحملون أعلامهم الحمر وفى أثرهم صبيانهم مثنى مثنى يمرون من رؤسائهم قارعين الطبول. ثم يمر موكب بكوات الجراكسة وهم أربعون أو خمسون فى عظمة وأبهة وكأنهم أمراء مصر، ولا يحملون طبولا.

ثم موكب العزب، وهم خمسة آلاف من الجند المشاة أما فى موكب قطع النيل هذا يمر منهم عشرة آلاف من فتيان طائفة، «الداليان» مثنى مثنى وفى خصورهم السيوف. ثم يأتى بعدهم موكب الإنكشارية وهم ثمانية آلاف أما فى ذلك اليوم فيمر منهم عشرون ألفا يحملون البنادق، وعلى رءوسهم قلانس من جلد النمر، ثم موكب أغوات الباشا ويتقدم موكبهم مائتا شاب مثنى مثنى يمتطون صهوة جيادهم حاملين أسلحتهم ويتلوهم موكب جند الكوكليان أى المطوعة وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس من جلد النمر والتيجان، وخلفهم موكب الدلاة وهم يلبسون جلد النمر وعلى رءوسهم القلانس وتيجان فرو النمور المزدانة بريش الصقور، وبعد ذلك يمر موكب المتهرخانة وفى أيديهم الحراب، ثم موكب الجاشنكيران وهم يمرون على صهوة جيادهم حاملين أعلام السباهية، ثم موكب «طشره كلارجيان» أى القائمين على المخارن الخارجية للطعام

وهؤلاء كذلك يمرون رافعين أعلامهم، ثم موكب غلمان صراجى القصر، وهم كذلك مدججون بالسلاح يركبون جيادهم المطهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة، وبعد ذلك موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام، وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا وهم يمرون وعلى رءوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام، إنهم أغوات كمل، ثم موكب رئيس البوابين وعليهم كذلك قباء السمور، وفى أثرهم عشرون أو ثلاثون يحملون الحراب ورءوس النمور.

موكب أمراء مصر

وهؤلاء جميعا يلبسون قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم المسماة «بالبريشانى» وأمامهم، ويتقدمهم أربعة من شطارهم وعليهم بيض العمائم وحرير الخلع، وفى أيديهم الطير، وبجانب البكوات أربعون أو خمسون من قواسيهم، وخلفهم مائة أو مائة وخمسون من أغوات القصور فى ثيابهم المزركشة وكل منهم مدجج بالسلاح.

وصف قطع النيل

وفى هذا الموضع احتشد السادات والشيوخ وأصحاب الحاجات وبسطوا أكف الضراعة ودعوا الله ومسحو وجوههم بأيديهم. وفى (   )[1] من شهر يوليو أول توت ركب الصوباشى قاربه الذى أعد فوق السد الترابى الواقع أمام فم الخليج، وفى التو قام عدة آلاف من المصريين - وقد تجردوا من ثيابهم- بهدم السد الترابى، فانساب النيل الدفين كالبحر الخضم بعد أن وجد له طريقا، وعند مرور مائه من داخل الخليج صدر منه صوت كهزيم الرعد وعندئذ ارتفعت أصوات المشايخ بقراءة الفاتحة، ثم أعقب ذلك إطلاق البنادق والمدافع من جميع القوارب فارتفعت الضوضاء والضجيج، ومضى الصوباشى بقاربه، ودخل مصر وكأنه السهم المنطلق من قوسه، ونحر مائتى خروف وخمسين جملا هى التى أعدها المحتسب من قبل على ضفة النيل، فتخاطفها المصريون صائحين، وقام المحتسب ووكيل خرج الباشا بطرح ما سبق ذكره من ألفى رأس سكر

(١) بياض فى الأصل.

وألف صندوق من الحلوى وآلاف الأرطال من الفاكهة، وثمانين جمل بعير من الخبز وخمسين قنطارا من البقسماط فى مياه النيل.

إن هذا والعظمة لله مشهد من مشاهد يوم الحشر. وقام عدة آلاف من المصريين بطرح أنفسهم فى النيل وراء هذه المأكولات فارتطموا ببعضهم البعض بفعل أمواج النيل، ولم يضع شئ مما طرح فى النيل وأخرجوه كله ناحية ساحل النيل، ولله الحمد لم يلحق الأذى بأحد منهم.

وفى ذلك اليوم رأيت الكثير من العراة وخيّل إلىّ أن إسرافيل قد نفخ فى الصور، وخرجوا من قبورهم.

وإن إلقاء مثل هذه النعم والأطعمة فى النيل فى يوم قطع النيل هذا يذكرنا بطرح فتاة فى النيل فى عهد الجاهلية.

وقطع النيل وجرت مياهه من هذا الخليج حتى وصلت وسط القاهرة، وروت ولايات قليوب والمنصورة والشرقية، وزرع الرعايا والبرايا وعم الخير والسلام.

وما يسمى قطع النيل فى مصر يجرى على هذا النحو، وهذا ما لا وجود له فى أى بلد على وجه الأرض. إنه مشهد يشتاق إلى رؤيته الملوك إنه مذكور فى جميع التواريخ.

وفى هذا الاحتفال شاهد الباشا هذه العجائب والغرائب، وخلع خلعا فاخرة على الأغا الذى قام بتطهير الخليج، وأمين الساقية والصوباشى والمحتسب أغا، ووكيل خرجه وأمر برفع مرساة قاربه، وعبر عن امتنانه، وألقى السلم على جانبيه حتى رست سفينته عند قصر أم القياس، وخرج مع جميع الجند والأعيان وأمراء مصر خارج السفينة وأدوا صلاة الظهر وسجدوا سجدة الشكر لقطع النيل، وأكثر الجميع من الحمد والثناء، ثم ضيف الباشا جميع أعيان مصر ومد سماطا عظيما يعجز عنه الوصف وهنا دعى أغا الإنكشارية الباشا إلى وليمة عند أثر قدم النبى ﷺ، ولبى الباشا الدعوة ثم أذن الباشا بالإنصراف لجميع أعضاء الديوان والعلماء والأشراف بعد أن فرغوا من تناول الطعام وعاد كل إلى إدارته.

وفى تلك الليلة نعم الباشا بالراحة والاستجمام فى قصر أم القياس.

وازدانت ألف سفينة فى النيل عند مصر القديمة بما لا يحصى كثرة من القناديل التى بددت ظلمة الليل وأصبح نورا قائما فى الظهيرة، وقام وكيل خرج الباشا بتزيين قصر أم القياس بالقناديل فأصبح وكأنه كمصباح قصر الجنان.

ونفخ فى المزامير وقرعت الطبول فى كل الأرجاء إلى مطلع الفجر وعمت الضوضاء والضجيج جميع مناحى القاهرة. وفى كل ساعة كانت تطلق مئات الآلاف من طلقات المدافع والبنادق وغنت الأرض والسماء وتحولت جميع البيوت فى القاهرة وجميع القوارب والسرادقات والخيام إلى مجالس أنس يغنى فيها المطربون ويعزف فيها العازفون وكأنها مجالس السلطان حسين بيقرا. وعمت البهجة والمتعة والصفاء كل الأرجاء.

وصف القائمين بالألعاب النارية المهرة

وصلت طائفة اللاعبين بالقذائف النارية (الفشنك) أى أتباع ابن سينا بالقوارب إلى قصر أم القياس حيث مجلس الباشا، وقدموا فصلا من الألعاب النارية ووصلت قذائفهم إلى عنان السماء، وأثناء هبوط هذه القذائف من السماء كانت تنبثق منها عدة مئات القناديل وكأنها الشهب فتنير الأرض.

وثمة نوع من القذائف يسمى «صراخى» وهذا النوع يتكون من ثلاث أنابيب وينطلق إلى السماء على ثلاث دفعات، ففى البداية تنطلق قذيفة تحمل أوقيتين من البارود فتبدوا وكأنها نجم صغير ويتصل بهذه القذيفة قذيفة أخرى فتشتعل من نار القذيفة الأولى وتسقط القذيفة الأولى على الأرض بينما تتابع القذيفة الثانية انطلاقها إلى عنان السماء.

وعندما توشك على الإنتهاء تشتعل القذيفة الثالثة وتسقط القذيفة الثانية على الأرض وتظل القذيفة الثالثة مشتعلة وكأنها شجرة بلوط تتمزق قطعا قطعا، فتقول الملائكة جميعا اللهم اكفنا شر الإنس ويستعيذون بالله.

إنها صناعة عجيبة وغريبة. وثمة نوع آخر من القذائف النارية يصعد إلى عنان السماء وينبثق منها فى الجو أربعون قذيفة أو أكثر، وقد انطلقت قذائف من هذا النوع فى الجو وهبطت إلى الأرض منها أربعون أو خمسون كأنها غضب من الله، وأحرقت ما صادفته وشتت حشود الناس.

وأطلقت القذائف النارية من أنواع وألوان شتى فى حضور الباشا وبمرأى ومسمع من المزدحمين من الناس وكأنهم الخضم، واستمر ذلك حتى مطلع الفجر، وكانت بعض القذائف التى أطلقت تغوص فى جوف النيل سبع أو ثمان مرات ثم تخرج من موضع آخر، وتسبح فى ماء النيل كالغواصين ثم تظهر ثم تغوص ثانية، وأطلقوا قذائفا من قلاع من ورق وكأن حرب دائرة الرحى، وأظهروا صورا للقساوسة واليهود والفرنجة والقزلباش وكأنهم يتقاتلون، كما أظهروا أشكالا للخيول والحُمُر والخنازير والجن والشياطين، ثم جاءوا بحُمُر وكلاب وعلقوا فيها القذائف وأضرموا فى تلك القذائف النار فانطلقت هذه الحيوانات بين الناس الذين قدموا لمشاهدة العروض فاختلط حابلهم بنابلهم وأصبح مشهدا مثيرا للضحك.

وجميع أنواع الألعاب النارية الخاصة بالفرنجة صنعها مهرة الصناع المصريين وعرضوا عجائبها بمناسبة الاحتفال بقطع النيل.

وبإطلاق هذه القذائف أصبح الليل المظلم نهارا منيرا، وتحولت الليالى أيام عيد وابتهج أهل مصر كبارا وصغارا سبعة أيام بلياليها فى مصر القديمة، واستأجر بعض الناس جواسقا على ساحل النيل نظير مئات القروش فى اليوم الواحد وأطلق بعضهم القذائف عمدا على المنازل فشتتوا أهلها.

وجملة القول أن الفرنجة وإن كانوا اخترعوا الألعاب النارية فإن المصريين قد أتقنوها إتقانا يبعث على الإعجاب وهم لا نظير لهم فى هذا المجال فى أرجاء الأرض. ولم أشاهد فى بلد آخر غير مصر هذه الألعاب النارية وفى مصر يعرضونها ليل نهار، ونارها مثل نار النمرود وأطلقت قذائف بمائة ألف قرش.

وأطلقت آلاف القذائف من مئات السفن والقوارب الموجودة فى النيل، ويبلغ ثمن كل قذيفة خمسمائة قرش أو أكثر، ومن المؤكد أنه ينفق على هذه الألعاب النارية مئات الآلاف من القروش.

ومرت جميع السفن أمام الباشا وكأن حربا ضروسا بينها، وقد زين البكوات جوانب قواربهم بكل ما هو نفيس وأطلقوا المدافع والبنادق وعزفت موسيقاهم العسكرية وأدوا

التحيـة للباشا أثناء مـرورهم أمامه، وكانت السفـن تمضى فى إتجاه الجيزة وكـان الباشا يتأملـها ليتبين أيـهم أكثر زينة. وحتى مـطلع الفجر كانـت تطلق القذائف فـى ضجيج وصخب فعمت البهجة كبهجة الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى أرسل الباشا مئتين من أغواته يمضى كل واحد منهم إلى بك من البكوات وأغوات الأوجاقات السبعة وكبار رجال الـدولة لدعوتهم إلى وليمة يقيمها الباشا وكان يـوزع على كل أغا قادم عليه قماشا من صوف. وقدم أم القـياس القاضى عسكر ونقـيب الأشراف وشيوخ الإفتاء علـى المذاهب الأربعة والحاصل أن جمـيع كبار العلماء والصلحاء والمشايخ والأئمة والخطـباء وأغوات الأوجاقات السبعة وجميع أعضاء الديوان والمشاهير، أقيـمت لهم مأدبة عظيمة يقال إنها تكلـفت مائة كيس، ودامت هذه المأدبة ثلاث ساعات بالتمام.

وبعد الفراغ من تنـاول الطعام قدم الشراب وماء الورد والبخور، وخلـع الباشا خلعا على أصحاب المناصب حسب رتبهم وكان يتم لـهم التثبيت فى وظائفهم، وغيرهـم كان يسند إليه الكشوفيات.

ولأن قطع النـيل هو رأس السنة منح الـباشا جند الأوجاقات الـسبعة المشتركين فـى موكبه خمسة أكياس مـصرية. وقضى الباشا تلك الـليلة فى قصر أم القياس كـذلك. وبمناسبة رأس السنة أنعم الباشا بمنصب «بنشر أغا» على جميع الأغوات وخلع عليهم كذلك فاخر الخلع.

وفى هذا اليوم أقام كتـخدا الباشا المأدبة ودعى إليها رؤساء كـتاب السجلات، وما أن فرغوا مـن تناول الطعـام حتى خلع الـباشا على الـكتخدا خلـعة من فرو الســمور وقام الكتخدا بتحصيل مال الكشوفية للباشا، وفى تلك الليلة من ليالى أم القياس زينت جميع القوارب والمنازل بالقناديل وهزت أصوات المدافع والبنادق الأرض والسماء هزا.

وفى صباح اليوم التالى أقام الدفتردار مأدبة إكـراما لوزير مصر فى حديقة كنعان بك بجزيرة الروضـة وكانت هذه المأدبة مأدبة عظـيمة. وبعد الفراغ من تنـاول الطعام أهدى الدفتردار الباشـا عشرة أكياس وعشرة من الطواعـية وجوادا مطهما مزينا بـالجواهر كما أهدى جوادا وبعض الـهدايا لكل من أصحاب المنـاصب الرفيعة. وبعد أن خـلع الباشا

خلعة السمور على الدفتردار ركب الباشا جواده السريع وفى الطريق انضم إلى ركابه أمير الحج ودعى أمير الحج الباشا إلى مأدبة فى قصر على بك بحدائق الروضة، وكان بها كثرة من المغنيين والعازفين والحواة والمصارعين واللاعبين بالألعاب النارية واللاعبين بالعرائس واللاعبين بالطيور واللاعبين بالعمد، وجملة القول أن مائة وسبعين من هؤلاء اللاعبين قدموا عروضهم فى تلك الضيافة ونال كل منهم نصيبه من منحة الوزير.

ثم خلع الباشا خلعة من فرو السمور على أمير الحج وامتطى الباشا صهوة جواده.

وقبل وقت الغروب كان كل بك ينوب الباشا قد أقام وليمة للباشا كوليمة أمير الحج وأعطى كل واحد منهم الباشا مثلما منحه أمير الحج من هدايا، وهى خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجواد مطهم مزين بالجواهر وبعض التحف، كما منح كل بك منهم أحد عشر من أصحاب المراتب جوادا لكل منهم ثم تلقى هؤلاء البكوات النواب خلعة من فرو السمور لكل منهم من الباشا، ثم عاد الباشا إلى أم القياس ليلا.

وفى تلك الليلة أقيم حفل ساهر استمر حتى مطلع الفجر. وفى الصباح قدم البك قائد الأمراء الكرام ورئيس تجارهم، وأقام مأدبة عظيمة للباشا فى إحدى حدائق الروضة، وأهدى الباشا خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجوادا مطهما سرجه مرصع بالجواهر وما شابه ذلك من نفائس، وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة.

وطيلة هذه الأيام الثلاثة ولياليها أقام البكوات المآدب للباشا وقدموا إليه هداياهم ونالوا منه خلع السمور .

وفى ذلك اليوم عفر رئيس فرقة الانكشارية وجهه على حافر جواد الباشا ودعاه إلى مأدبة فى «أثر قدم النبى» ﷺ لأنه عند إدارتهم، ثم ركب الباشا سفينته وركب جميع الأمراء والأعيان وأعضاء الديوان وأصحاب الألقاب سفنهم تغمرهم البهجة والسرور وسبقوا سفينة الباشا وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ابتهاجا وأمر جميع البكوات موسيقييهم بالعزف وقرع الطبول حتى وصلوا بسفنهم إلى القياس فى ساعتين. وتناول الباشا الطعام فى مأدبة أغا الانكشارية وقدم إليه كيسا من الذهب وخمسة من الطواشية وخمس بنادق

مرصعة بالجواهر وجوادا مطهما فخلع عليه الباشا كذلك خلعة من فرو السمور. كما أهدى أغا الانكشارية لكل من كتخدا الباشا ومن فى معيته ورئيس الديوان والخزينة دار والمهردار جوادا مطهما ثم ركب الباشا سفينته وبسط شراعها وأطلقت المدافع والبنادق تعبيرا عن البهجة والسرور.

ثم تناول الباشا طعامه فى مأدبة «الشهر حواله» وتلقى الباشا منه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية، كما منح كتخدا الباشا جوادا ونال خلعة من الباشا وتم له التثبيت فى منصبه.

وجملة القول أنه فى اليوم السابع لكى لا يقعد الناس عن العمل ويرهقون بالإنفاق ركن بعض الوزراء إلى الراحة والمتعة كالملوك ثلاثة أيام بلياليها.

وفى اليوم الثالث ركب الوزراء سفنهم ومضت بهم بين التهليل والهتافات، ونزل أغا العزب بقاربه إلى قصر أم القياس ودعى الباشا والكتخدا إلى مأدبة عظيمة يعجز عنها الوصف، وبعد الفراغ من الطعام قدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، كما أهدى جوادا إلى كتخدا الباشا. وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

بعد ذلك ركب الباشا وموكبه السفن وتم إعلان مظاهر البهجة والسرور، كما أقام كتخدا الشاويشية مأدبة للباشا فى حديقة رمضان بك وقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، فخلع عليه الباشا خلعة مزركشة وثبته فى منصبه.

وأقام رئيس فرقة المتفرقة خياما وسرادقات فى جزيرة الروضة وأقام مأدبة للباشا فى ظلة فاخرة، وبعد الفراغ من الطعام قدم إلى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة من الجياد المطهمة. فطيب الباشا خاطره بخلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

ثم ركب الباشا زورقه وسط قرع الطبول وطلقات المدافع حتى بلغ قصر السبتية وعندما رسى زورقه أطلق جند الإسلام مدافعهم وبنادقهم من السفن ومن الخيام والسرادقات التى نصبت على جانبى النيل، وصدحت الموسيقى وعمهم البشر والبهجة وكأنهم شاهدوا خيال الظل. ثم تفرق الناس ومضى بعضهم مع موكب الباشا إلى قصر السبتية. وهناك حضر الباشا وليمة أعدها الروزنامجى أفندى، الذى أهدى الباشا ثلاثة من الطواشية

وثلاثة جياد ومحبرة من الفضة الخالصة وبعض الكتب القيمة. فخلع عليه فروا فاخرا وثبته فى منصبه. وبعد الفراغ من هذه الوليمة خرج الباشا فى الموكب على صهوة فرسه وفى معيته جند الإسلام جريا على العادة القديمة ومضى الجند زرافات زرافات موجة بعد موجة مثنى مثنى منحازين جريا على عادتهم فى مظاهر الأبهة والعظمة.

ومر الباشا وعليه قلنسوته السليمية المزينة وعليه قباء من فرو السمور حاملا كنانته المرصعة واصطف الناس جميعا كبارا وصغارا رجالا ونساء شيوخا وشبابا على جانبى الطريق العام فى مدينة القاهرة لاستقباله، وعندما لوح الباشا لهم بالسلام ارتفعت أصوات النساء بالزغاريد ودعا له الكبار والصغار والشيوخ والشباب قائلين: «حفظك الله وسلمك يا عزيز مصر يا والى مصر يا وكيل السلطان»، وما إلى ذلك من شتى الألقاب. ثم جاء رئيس سقائى قافلة الباشا ومساعدوه يحمل كل منهم كيسا من المال ونثروا ما بها من مال على الفقراء الذين اصطفوا يدعون للباشا بكل خير ونال كل منهم نصيبه. آية: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧، الأنعام: ٩١]. واصطف كذلك صبيان المدارس الابتدائية على الطريق العام أثناء مرور الباشا وهتفوا بقولهم: «الله ينصر السلطان» ونال كل منهم كذلك من عطاء الباشا.

وعلى هذا النحو السابق عندما دخل الباشا من باب العزب وزع عطاياه على البوابين وعندما وصل من القلعة إلى قصره أطلقت سبعون أو ثمانون طلقة من القلعة وأقيم سماط فى قاعة ديوان الغورى دعى إليه جند الإسلام جميعا.

ويبلغ عدد المآدب التى تقام طوال سبعة أيام وليال بمناسبة الاحتفال بقطع النيل سبعين مأدبة.

هذا هو قطع النيل بمآدبه ومواكبه واحتفالاته ذكرتها على حد وقوفى على أمورها.

وتكثر الهدايا المقدمة للباشا بمناسبة قطع النيل، وهذا ما سأذكره فى حديثى عن قوانين التشريفات فى مصر.

غير أنه فى عهد «جان بولاد زاده حسين باشا» تدهورت أوضاع مصر وساءت أحوالها إلى حد جد بعيد، ولم يحتفل بقطع النيل ومع ذلك قدموا له الهدايا وإن

قلت ذلك لأن مصر قد أفلست فى عهد الكتخدا إبراهيم باشا؛ ولذلك لم يحتفلوا بقطع النيل.

ومنذ القوانين القديمة لسلاطين السلف كان يحتفل باثنى عشر عيدا منها عيد «قطع النيل» وقد اشتهر هذا الاحتفال على لسان مؤرخى العالم من الترك والعرب والعجم. وكم من آلاف الشعراء والبلغاء قرضوا فيه الشعر. فما كان لهذا الاحتفال من نظير على وجه الأرض.

***

الفصل السادس والأربعون

أوصاف نهر النيل المبارك وهو ماء الرحمة

ليكن معلوما لدى الأخوة من السياح والرحالة أن الأقوال تضاربت كثيرا فيما يختص بالأنهار الجارية على وجه الأرض.

يقول عوفى عن ابن العباس رضى الله عنه: «إن على وجه الأرض عيون وجداول بقدر ما فى بدن الإنسان من شرايين».

وعلى حد قول بطليموس الحكيم على وجه الأرض مائتا نهر عظيم وأربع وأربعون ألف عين جارية. وهذه الأنهار لا يزيد الواحد منها على ألف فرسخ ولا يقل عن خمسين. ومن بين مائتى نهر عظيم أربعة عظيمة يمدحها الله والناس. أما أعظمها فالنيل المبارك وقد ذكره الله فى كتابه العزيز ست عشر مرة تصريحا وتنزيها. يقول تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]. وقد فسر المفسرون هذه الآية أن المقصود بها أرض مصر ونهر النيل.

وفى آية شريفة أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقيل إن المراد بذلك أرض مصر ونهر النيل. وكم من آيات جاءت بشأن النيل.

كما وردت أحاديث نبوية كثيرة خاصة بالنيل. يقول المصطفى ﷺ: «سيحون وجيحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجَنَّة» أخرجه مسلم منفردا بذلك[١].

وهناك أحاديث أخرى كثيرة إلا أننى اكتفيت بهذا القدر.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صفة الجنة والنار (١١) باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة حديث رقم (٧٠٢)، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». قال شارحه: سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس، وهما غير سيحون وجيحون. وخطأ من قال من الشراح أنهما سيحون وجيحون اللذان ببلاد خراسان. وذكر مسلم فى كتاب الإيمان فى حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة. وفى البخارى من أصل سدرة المنتهى.

أما نهر النيل فبتقدير العلى القدير وعلى حد قول بطليموس الحكيم فينبع من جبل القمر فى جنوب مصر من مسافة تقطع فى سبعة أشهر. ومنبعه اثنتا عشرة عيناً عظيمة، وهذه العيون الاثنتى عشرة تقع جنوب خط الاستواء، وتصب فى بحيرة عظيمة كأنها البحر الخضم، ويتفرع النيل من هذه البحيرة ويمر هذا الفرع فى شمال الإقليم الأول والإقليم الثانى حيث ولايات قرمانقه، وقفان، وبلاد الفونج، وبلاد البربر، والنوبة، وصاى فى أقصى حدود مصر الجنوبية حيث القلعة العظيمة التى يحرسها جند من الأوجاقات السبعة فى مصر وذلك بمسيرة شهرين يعبرها النيل ويخترق مدينة جرجا، وولاية إسنا وأسوان ثم يمر من مدن المنشية طهطا وأبى تيج وأسيوط ومنفلوط، وصنبو، والمنيا، والفشن، وبنى سويف، ويستغرق ذلك شهراً إلى أن يبلغ مصر أم الدنيا، وعلى بعد خمسة أميال من مدينة القاهرة وفى الموضع الذى يسمى «بطن البقر».

أهم المدن الواقعة على فرع دمياط

أولا مدينة ميت غمر فى كشوفية المنصورة، وقبالتها قصبة زفته فى أرض الغربية، ومدينة المنصورة شرق النيل، وقصبة سمنود فى الغربية، ومدينة فراسكور شرق مدينة المنصورة، ثم مدينة دمياط وهى ميناء عظيم فى الجهة الشرقية من ضفة النيل. ثم يبلغ النيل موضعا يسمى «مَرَج البحرين» حيث يصب فى البحر الأبيض وتختلط مياههما.

المدن التى يمر بها فرع دمياط بعد تفرعه من «بطن البقر»

أولها محلة طنوب، ومحلة بشير، ومحلة أبى على، وتقع هذه القرى فى أرض الغربية وكذلك محلة مالك، ومحلة مطوبس، ومحلة الأمير على، ومدينة رشيد التى تقع فى أرض البحيرة. ويعبر النيل رشيد وتختلط مياهه بالبحر الأبيض فى الموضع الذى يسمى «مرج البحرين».

وهذه المدن السالف ذكرها تقع على جانبى نهر النيل وعددها مائة وستون مدينة. وحتى قلعة صاى وبمسيرة ثلاثة أشهر تقع ألف وثمانمائة قرية معمورة جميلة، أما عدد القرى الواقعة على ضفتى النيل فالله أعلم بعددها الحقيقى.

وبحساب الفرسخ فإن طول النيل من منبعه حتى مصبه فى البحر الأبيض يبلغ ثلاثة آلاف فرسخ.

ويتفرع النيل تسعة أفرع، وكل فرع منه يتجه غربا حيث ممالك السودان وفاس ومراكش، بيد أننى لم أبلغ تلك الجهات. إلا أننى بلغت الأماكن الواقعة فى المنطقة الاستوائية جنوب النيل عند خط عرض ٢ درجة وخط طول ١، وسوف أكتب عنها تفصيلا عند الحديث عن سياحتى فى بلاد الفونج. ومن عجب أن تكون سياحتى هى سيرتى.

والأفرع التسعة للنيل التى تجرى غربا فى ممالك فاس ومراكش طولها جميعا ألف فرسخ وتصب فى المحيط، وسألت عن ذلك بعض الأشخاص الذين بلغوا بلاد الفونج، فقالوا إن التمساح لا يوجد فى تلك الجهات من نهر النيل.

وفى عهد خلافة السلطان المؤيد مضى بعض التجار إلى منبع النيل مرارا، وكانوا يصلون إلى هناك فى ثمانية أشهر واشتروا سلعا من هناك وعادوا. وأهل بلاد الفونج (فونجستان) يبلغونه فى أربعة أو خمسة أشهر، ويبيعون سلعهم للبرتغاليين والفرنجة ثم يعودون إلى فونجستان كذلك فى أربعة أو خمسة أشهر.

ولأن ملك فونسجتان هذه على مذهب الإمام مالك، فهو راسخ الاعتقاد فى الشيخ البكرى فى مصر، ويزوره رجاله على الدوام.

وبناء على هذه الأصرة يرسل ملك فونجستان إلى الباشا فى مصر سفراءه حاملين الهدايا من تروس من جلد الفيل وسن الفيل وقرون وحيد القرن وجلد الضب وخشب الأبانوس والزباد. وشعب الفونج يستوطن ساحل النيل، غير أن ساحل النيل فى تلك البلاد قليل العمران. لأنهم قوم كثيرو الترحال.

أما المناطق المستبحرة العمران فتمتد من قلعة الصاى ومدينة در وقلعة إبريم وولاية الشلال، وأسوان، وإسنا، ومدينة قوص، ومدينة قنا، وتوره، وجرجا وبقية المدن سالفة الذكر حتى مدينة القاهرة ومدن دمياط ورشيد. وهذه المدن جميعا واقعة على ضفتى نهر النيل.

وقد وردت أماكن العمران فى مصر وتضاريسها برا وبحراً فى كتب الهيئة لبابا مونطه وأطلس ومينور وفى تواريخ الخطط.

ذكر الميزات الحسنة لمصر

لقد قمت بسياحتى ولم أذكر إلا ما تأكدت منه اعتقادا جازما.

ويفيض النيل المبارك وتجرى مياهه فى ٧٠٠٠ خليج، و١١٠٠٠ ترعة فى مصر وسوف أذكر كلا منها فى حينه بمشيئة الله تعالى، وتجرى مياه النيل فى تلك الترع وتروى أراضى مصر الزراعية. والمطر لا يهطل فى إقليم مصر إلا مرة أو مرتين فى العام. وما لم يفض النيل والعياذ بالله وقع القحط وغلت الأسعار، ومن هنا كان سر الاحتفاء بقطع النيل وفرط السرور به. ولولا النيل لكانت مصر جزيرة قاحلة.

وإذا ما جاء النيل على ما يرام أصبحت جميع ولايات مصر بحرا. والقرى فى مصر سواء كانت أوقافا لمكة والمدينة أو كشوفية أو تابعة لملتزم أو أمين والقصبات والمجلات والكفور فعددها (   )[1] وجميعها تقع على أرض مرتفعة وكان كلا منها جزيرة داخل النيل الذى يشبه البحر وتبقى النخلات مرتفعة الرأس فى ماء النيل.

وقد أقيمت مملكة مصر وفق علم الهندسة لأن بين كل قرية وأخرى مسافة يسمونها «ملاقى»، وحيثما يطغى النيل على تلك الوديان أقاموا جسوراً من التراب للمضى من قرية إلى قرية. والسد منها يرتفع بمقدار خمس أو عشرة قامات، وحينما يفيض النيل يعبر الناس على هذه الجسور بخيلهم وحمرهم، وإذا ما بلغ النيل هذه السدود وامتلأت به روى الأرض عشرة أيام، بعد ذلك تفتح هذه السدود ويجرى النيل إلى واد آخر وتصبح مياهه وكأنها البحر ويروى أرض بلد آخر، وتلافيا لوقوع النزاع بين الناس على ماء النيل يرسل الحاكم طائفة من جنوده مدججين بالسلاح لإجراء ماء النيل من قرية إلى أخرى لريها، وما لم يوجد أحد من قِبَل الحاكم نشب القتال بين البدو والفلاحين.

وفى بعض الجهات قناطر أو جسور يجرى النيل من تحتها. ويسمون النيل إذا دخل قرية ترعة كذلك، ويجرى ماء النيل فى هذه الترع ويروى أراضى الولايات .

وأرض مصر كلها فروع من النيل وخلجان وترع وبرك شقها مهندسو الكهنة بفضل تعاليم النبى إدريس عليه السلام. وهذا كله ما يستحق المشاهدة.

(١) بياض فى الأصل.

وعند قطع النيل فى رأس العام الحالى وفى السنة الماضية تسلم جميع الكاشفين والأمناء والملتزمين المحاصيل من القرى بتمامها، وعندما سلموها زالت عنهم سلطتهم وصلاحيتهم وعين مكانهم نائب، ثم عين لكل كاشف أغا لدى الباشا. وعندما دعى جميع الكاشفين للحضور فى ديوان مصر أهدى كل أغا قدم على الكاشفين أربع آلاف پاره وجواداً مُطَهَمًا وإذا كانوا قد أعطوا أكثر من ذلك فهو كرم من الكاشفين.

وعزل الكاشفين فى رأس السنة القبطية، وبذلك اليوم يبدأ الاحتفال بمولد السيد البدوى الذى يدوم خمسة عشر يوما بلياليها وسط جو من الصخب والضجيج. إنه مولد جد عظيم، بالمشاهدة حقيق. .

وإذا ما أفلس أحد الكاشفين أو الأمناء أو الملتزمين فر من الأغا الذى جاء لاستدعائه بأمر الباشا ولجأ إلى تكية أحمد البدوى معتصما بها. ولو قدم الملك بنفسه للقبض عليه لما استطاع إلى ذلك سبيلا. وإذا ما حاول أحد إخراج هذا الرجل من التكية بالقوة شُلَّ ساعده. ومن فى هذه التكية من علماء وشيوخ ومتصوفة، لا يسلمون لصًا ولا مفلسًا ولا قاتلا، إلا أنهم يطيعون أولى الأمر من الحكام. أما الكاشف الشريف فيذهب إلى الديوان، ويحاسب ويدفع ما فى ذمته من مال السلطان ويحظى بخلعة.

ذكر الأفعال الشائنة فى مصر

أما من أفلس من الكاشفين طُرح فى سجن ديوان الغورى، وتعرض لعذاب مُهين يندى له جبين من غلب على طبعهم الحياء، ويهلكون خجلا من قبح ما يتعرض له الكاشف المفلس من عذاب. ويباع كل ما يملكه فى المزاد ويخلو وفاضه. وإذا ما أدركَت الوزير الرحمة له، خلع عليه خِلعة فى العام المقبل وأعاده إلى منصبه، فيطيب خاطره.

وتصبح الولاية كأنها بحر طيلة ستة أشهر بتمامها بسبب قطع النيل، ولا يستطيع الكاشفون مباشرة أعمالهم طيلة ستة أشهر بتمامها، ويرسلون من ينوب عنهم يعاونه خمسمائة أو ستمائة رجل بسفنهم.

وفى ذلك الوقت يكون الفلاحون وكأنهم تنين ذو سبعة رءوس ويقعدون عن العمل ولا مال لهم من الأرض التى زرعت. فيركب مجرموهم سفنهم وينتقلون من ولاية إلى

أخرى مُغِيرين سالبين ناهبين.

وبما أن الكاشف ليس له جند من الأوجاقات السبعة، لا يخشى الفلاحون من نائب وتثور ثائرتهم ويثأر بعضهم من بعض لعدم وجود من يخضعهم من الحكام.

وهؤلاء الفلاحون والبدو، منذ عهد قابيل وهابيل ابنى آدم - عليه السلام - طائفتان؛ طائفة «بنى الحرام» وهم شجعان وهم ذرية قابيل. وطائفة أخرى تسمى «بنى جذام» وهم ذرية هابيل وهذه الطائفة غاية فى الخبث ولصوص أشرار، وهم إذا تسلطوا على مكان أصابه منهم بلاء كأنه بلاء الجذام، ولكن منهم من لهم فى الحرب ضراوة وبسالة وهم ذرية هابيل.

وهناك قرية أهلها جميعا من بنى الحرام وأخرى أهلها من بنى جذام، وبين الفريقين اللدد فى العداء والخصومة. ومنهم من يجمع حوله عصابة يغير بها على القرى إما عبورا على الجسور أو بقواربهم. ويتقاتلون ولابد أن تكون الغَلَبة لأحدهم. أما المغلوبون فيعمل السيف فيهم شيوخا وشبابا، وتبقر بطون نسائهم ويخرجون منها الأجنة ويحرقونها ويقطعون ثدى النساء ويسألنهن عن مالهم المدفون ويعثرون عليه حتما ويستولون على كل أنعامهم ويضرمون النيران فى بلدة المنكسرين ويجعلون مُلكهم خرابا يبابا.

وبعد أن يغتنموا ما يغتنمون من أموال يتغنون بالمواويل ويمرحون فى صخب وضجيج ثم يعودون إلى بلادهم.

أما أصحاب البلدة التى نهبت فيفلسون ويخلو وفاضهم بعد أن أضرمت النيران فيها اللهم عافنا.

إن فلاحى مصر طائفة من قوم فرعون، فهم جبابرة فيهم عنف وفساق وحساد وهذا ما ينبغى أن يُعرف من طباعهم.

ولكن بعد ثلاثة أشهر من قطع النيل ينحسر ماؤه وينثر الفلاحون بذورهم فى الأرض غليظة الطين، ويبدأون فى زراعتها وينشغلون بذلك. وفى ذلك الوقت يطيب الكاشفون

والأمناء والملتزمون نفسا ويهدأون بالا.

وفى شهر بابه وهاتور من السنة القبطية يمضى الكاشفون فى جنودهم لتخضير الولاية أى بذر البذور وبعد شهرين يعودون إلى القاهرة.

ثم يصطحب كل كاشف فرقة من جند الأوجاقات السبعة طبق ما جاء فى قانون السلطان سليم، ويمضى كل كاشف إلى ولايات حاكم جرجا وفى معيته ألف أو ألف وخمسمائة فارس ليباشر مهام منصبه . وكل ملتزم يستعين بأربعين أو خمسين أو مائة من فتيان الترك الأشداء لإحكام سيطرتهم على القرى ومباشرة مهامهم، وعندئذ تبطل سلطات النواب والمسلمين المعينين من قبل الأوجاقات السبعة، ويؤول الأمر والنهى إلى الكاشفين.

وفى أيام فيضان النيل يقبضون على العصاة والمجرمين ممن يغيرون على القرى والقصبات، حتى إذا اختفوا فى حمرهم أو فى قرون ثيرانهم، ويأخذونهم بأشد العقوبة، وباستجوابهم يرشدون عمن سِواهم فيتم القبض عليهم ويسلخون جلودهم أحياء ويقطعون-أرجلهم وأيديهم ويستردون منهم كل ما سلبوه من أموال، ثم يقتلونهم جميعا وذلك لصلاح حال العالمين.

فى وصف جراة جبابرة مصر

ومن عجب أن قُبض ذات مرة على أحد اللصوص من فلاحى مصر بكيفيةٍ ما، وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة وبسط إليه الرجاء أن يُخرجه فى موكب وكأنه بك ويمضى به إلى ديوان مصر. وفى التو تسلم الكاشف الأكياس وقَبِل منه رجاءه، وساق الجلادون هذا اللص إلى ميدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصدر إلى الظهر، وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صلبه ومن قطع يده. وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألما، وبعد ذلك أتموا سلخ جلده وحشوه تبنا وأركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجب.

وعلى هذا النحو يُحَصَّل المال السلطانى من كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء ويسلمونه إلى الباشا ليضيفه إلى الخزانة السلطانية. وهكذا يحصل المال السلطانى من الرعايا الفلاحين.

وهؤلاء الفلاحين قوم حاسروا الرأس حفاة يلبسون القباء واللقاع[1]، غير أنهم ثراة وهم يكدون فى العمل كفرهاد[2].

ولقد نظر الله عز وجل إلى مصر بعين الرحمة ولذا يسمونها أرض الذهب وهم على الحق والصواب فى تسميتها بذلك الاسم، ولقد تكلم العظماء عن مصر فقالوا: «إن نيلها عجب وأرضها ذهب وهى لمن غلب».

وحقا إن من غلب عليها كان له الحكم فيها. وقد حُكمت غِلايا منذ عهد الصديق يوسف. ولم يكن سلاطينها من أهل الحسب والنسب. وأهلها ليسوا أهل المسكنة وجميع جنودها من العصاة الطغاة وهم يحكمون بقوتهم وجبروتهم.

وأصل مقولة أنها تُنبت ذهبا، هو أنهم إذا بذروا فى الأرض كيلة من البذور نبتت محصولا يقدر بعشرين كيلة، وبِيع بدينار من ذهب.

وثمة ميزة لماء نيلها وفولها هى:

أنه إذا شرب منه أحد ولو كان تركيا ثلاثة أعوام أصبح جبارا عتيا، أما نساؤهم فيصبحن غاية فى حسنهن ويذهب حياؤهن. وإذا شربت الخيل من ماء النيل أصبحت جامحة وخرجت إلى صحراء قطية وأم الحسن ولا تبلغ بلدا آخر. أما حُمرها فهى

---

(١) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه. ويقال له أيضًا: القفطان.
واللِّفَاعُ: ما يغطى به الجسد كله كِساءً كان أو غيره. والمِلْفَعَةُ اللِّفاعُ.

(٢) فرهاد هو اسم حفار ونقاش مشهور فى الأدب الفارسى، له قصة حب مأساوية مع من تدعى «شيرين» جارية أرمنية كانت للملك خسرو برويز أحد ملوك الفرس الساسانيين. انظر: حسين مجيب المصرى، فارسيات وتركيات ص٣٩.

سلسة القيـاد تهملج[1]. وثيرانهم التـى تطهر الترع والخلجان تشـبه جاموس «أدنه»[2] وهى غاية فى شراستها. وكان الكهنة فى ماضى الزمان يحفرون الخنادق والجداول بمئات الآلاف من هذه الثيـران، كما استخدموها كذلـك فى حفر الخلجان التـى مست الحاجة إلى حفرها.

أسماء الشهور باللغة القبطية

طبق علم الهـندسة، قَسّم حكماء الكهـنة فى سالف الزمان النيل إلـى أقسام . ففى العام تكتسى أرضه أربعة أثواب. وهذه الأقسام الأربـعة انقسمت بدورها إلى اثنى عشر شهرا وانقسم كل قسم إلى ثلاثة أشهر، وبذلك يصبح عدد الشهور اثنى عشر.

الفصل الأول:

وأسماء هذا الفصل فى اللغة القبطـية هى: أبيب ومسرى وتوت وهذه الأشهر تـسمى فى اللغة الـعربية شهر ذى القعدة وذى الحـجة والمحرم، واقتضت حكمـة الله أن يوافق شهر تـوت شهر يولـيو علي الـدوام في بلاد مصـر. ولا تدور هذه الشـهور كالشـهور العربية. وفى شهر توت يـصبح النيل المبارك كأنه البحر طيلة ثـلاثة أشهر وتغرق مياهه أراضى مصر وتكتسى حلة حمراء لأنه فى ذلـك الوقت يجرى الطين الأحمر القانى فى ماء النيل، وهذه الأشهر الثلاثة هى أشهر الكساد فى مصر.

الفصل الثانى:

أما هذا الفصل فهو الشهور المسماة «بابه وهـاتور وكهيك». وتـسمى فى اللغة العربية صفر وربيـع الأول وربيع الآخر، وفيهـا ينحسر ماء الـنيل عن كل الأراضى فـى مصر وتصبح هذه الأراضـى طينة فى سواد المسك والعـنبر الخالص، ويصبح ماء الـنيل كماء الورد المصـفى. ويشرع الفـلاحون يزرعون هذا الـطين المتخـمر بيد القـدرة. وفى هذا

---

(١) هملجت الدابة: سارت سيراً حسنًا فى سرعة.

(٢) أدنه أو أطنه، مدينة فى الأناضول.

الوقت تكتسى أراضى مصر حلة عباسية سوداء. وما أن يبذر الفلاحون بذور البرسيم إلا ونمت فى ليلة واحدة فى طول شبر فترعى الأنعام فيه وتسمن أجسامها.

ثم تخلع مصر بزروعها الحلة العباسية السوداء وتكتسى قباء أخضر من زمرد ويعود إليها شبابها وترتد إلى الناس أرواحهم.

وفى هذا الوقت يشتد الشتاء فى بلاد الترك، أما فى مصر فيكون الربيع فى أوله وتخرج الجياد إلى المراعى.

الفصل الثالث:

وهو «طوبة وامشير وبرمهات» وهذه الأشهر تسمى فى العربية جمادى الأول وجمادى الآخر ورجب، وتخلع أراضى مصر حلتها المخملية الخضراء وتلبس خلعة فاخرة كالزعفران الأصفر وتصبح وكأنها ذهب إبريز، وتصبح جميع الزروع وكأنها تنثر الجواهر وهذا الوقت وقت البيدر، ووقت تحصيل المال السلطانى وقدره اثنتى عشرة خزانة وتحصل كذلك خزائن الأوقاف. إنه موسم الحصاد.

الفصل الرابع:

وهو أشهر برموده وبشنس بؤونه أى أشهر شعبان ورمضان وشوال وفى هذه الأشهر الثلاثة يكون موسم الحصاد وتصبح الأرض صفراء كأنها الذهب، ويصدق القول بأن نيلها عجب وأرضها ذهب. وتسابق جميع الماشية والدواب إلى البيادر وتأكل الماشية كل الأعشاب، ثم تكتسى أرض مصر حلتها العباسية السوداء ثانية ويجرى النيل كما قدر الله له أن يجرى، وهو على تلك الحال إلى أبد الآبدين، ويالها من حكمة إلهية عجيبة والدهر يدور ويدور على هذا من حاله. وشهورنا هى التى تدور أما الشهور القبطية فلها الثبات. تلك أحوال الدنيا ولا وجود لجو مثل جو مصر.

ذكر مضار ماء النيل

كثر القيل والقال فيما يتعلق بالنيل، غير أن هناك حديث نبوى شريف مؤداه أن النيل نهر من أنهار الجنة.

حقا إنه ماء الجنة وله لذة جعلها الله لماء قلعة بلاد الترك أو لماء أربعين عينا فى اسطنبول. والنيل وإن لم يمتزج ماؤه من منبعه إلى مصبه بماء نهر آخر فإنه يتشعب إلى شعب، وهذا وارد فى جميع كتب التواريخ وكتب علم الهيئة، ولكن له طبيعة الامتصاص. وعندما تسقط النقطة ويبدأ النيل الفيضان تجرى مياهه مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، وعندئذ ينبغى على الذواقة التحرز من شرب مائه وإذا ما لزم شربه فينبغى أن يقطر ويغلى مع العلك[1] وبذلك يمكن شربه أو يمضى شرق مدينة القاهرة على مقربة من مدينة عين شمس، حيث البئر التى حفرتها السيدة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، ليشرب من مائها الطيب الذى يشبه ماء الحياة وذلك بفضل معجزة عيسى عليه السلام.

وسبب جريان مياه النيل مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، والسبب فى كونه مضرا كذلك، هو: أن هذه المياه ركدت فى الخلجان والترع منذ العام المنصرم وقد اختلطت بحشرات وحيوانات سامة مثل العقارب والأفاعى والحيات وذلك من شدة الحر، وعندما تدخل مياه الفيضان آلاف البحيرات تكتسح أمامها المياه المسمومة وتخرجها وبذلك يجرى ماء النيل فى القاهرة أخضر اللون. ومن شرب منه تورمت قدمه أو سائر جسده أو تورمت خصيته،وإذا ما حملت زوجته ولدت طفله مصابا بالجذام.

وينبغى شدة الاحتراز ويشرب الماء من الأسبلة طيلة شهر بتمامه.

وماء النيل عظيم النفع للحصان والمرأة. ولكن بما أن مصر مملكة الفراعنة فإن جوها يجعل الناس جبابرة عتاة متكبرين، وهم سريعو الغضب والملل، ولا يدوم لهم السرور لأن أرزاقهم تعتمد على أوقاف الله.

وكم من خواص وميزات للنيل إلا أننا اكتفينا بهذا القدر الذى ذكرناه.

***

(١) العلك : اللبان. وهو كل صمغ يعلك- يعنى يمضغ - فلا يسيل من لبان وغيره.

الفصل السابع والأربعون

حيوانات النيل وصفاتها وميزاتها

كم من آلاف الأنــواع من الحيوانـات المائية تعـيش فى مياه الـنيل، ولعـل أهم هذه الحيوانات هو التمساح.

إنه حيوان مخيف مؤذ. وهو موجود كذلك فى بلاد الترك، ويسمونه الضب والوزغة وهو من ثلاثة أنواع متشابهة، له أربعة قوائم وذيل.

ويسمى فى بلاد النوبة. «وولى»، وفى الولاية العلوية «شونشار».

إنه ملعون، يبـلغ طوله خمسة عشر ذراعا، وظهره أزرار أزرار، ولا تـؤثر فيه الأعيرة النارية. إلا أنه يطعــن تحت إبطه حيث إن جلده فى هذا الموضع من جســمه غاية فى الرقة والتأثر وكأنما هو شحمة أذن. وإذا أطلقت البندقية على رأسه أوردته مورد الهلاك ونفق.

ميزاتـه

وإذا أخذ الصيادون زيته ومسحوا به جســم شخص أصابته شدة الحر بآلام فى جلده زال عنه الألم بإذن الله.

وجميع الحيوانات تحرك فكها السفلى أما الـتمسـاح فإن فكه العلوى هو الذى يتحرك فينفتح وينغلق، وفكه السفلى لا يتحرك قط.

وفكه العلوى يحتوى عــلى ستين سنا، أما فكه السفلى فيحـتوى على أربعين سنا. وفى فكه السفلى سنان طويلان يبرزان من ثقبين بجانب منخريه فى فكه العلوى.

ولكنى أمعنت النظر فى صغار التماسيـح فلم أر أن لهم هاتين السنين الطويلين. أما كبارها فلها سنان طويلان كأنهما سيفان فى طرف الفك السفلى.

وإذا ما توقف إنسان أو حيوان على ضفة النيل يروى ظمأه اقترب منه التمساح خلسة وعاجله بضربة من ذيله ثم سحب فريسته إلى النيل وأجهز عليها وابتلعها.

وليس للتمساح دبر، فإذا أراد أن يقضى حاجته خرج إلى اليابسة.

وثمة نوع من الطـيور فى مصر يشبه البط، قـصير الرجلين له منقــار ومخالب، وهذا الطائر إذا ما شــاهد التمساح اقترب منه وتحـرك حركة أو حركتين بجانـبه. وإذا ما شاهد

التمساح هذا الطائر سُر. وإذا ما كان هذا الطائر جائعا ولم يكن التمساح قد قضى حاجته بعد. يرفع التمساح منخريه ويفتح فاه ليدخله هذا الطائر حتى يبلغ بطنه، ثم يشرع فى التقاط ما فى أحشائه من فضلات، ويرتاح التمساح بذلك راحة ما بعدها راحة، ويبحث هذا الطائر عما فى أحشاء التمساح من ديدان ويأكلها وبذلك يشبع من جوع. كما أن التمساح يتخفف من ثقل ما فى جوفه من فضلات. يا لها من حكمة عجيبة.

وهكذا يؤدى الطائر خدمة لهذا التمساح.

ومن الطيور من لا تجد ما تريده من بطن التمساح فتدخله ثانية وتخرج كثيرا من فضلاته. إلا أن التمساح حينما يبتلع يبتلع الطائر كذلك، وحينما يدخل الطائر فم التمساح يضربه بعظمة مدببة فى ظهره عدة ضربات فى منخريه فيفتح فاه من شدة ألمه وكأنه تنين ويخرج الطائر. ويا لها من حكمة غريبة عجيبة، فكل تمساح لا دبر له قيَّد الله له طائرا يخدمه، يفعل الله ما يشاء بقدرته.

ومن عجب أن هذا التمساح هو تنين النيل، وكل مخلوق يهابه. إنه يفترسها جميعا وليس فى النيل أسرع وأقوى منه. بيد أنه شديد البطء على اليابسة لأنه قصير الأطراف فهو يزحف كذلك على بطنه ولا قدرة له على تحريك جسمه فى سرعة، ولا يتجول كثيرا وليس فى مقدوره البقاء خارج الماء أكثر من ثلاثة أيام وإلا نفق.

العدو اللدود للتمساح

لقد خلق الله للتمساح من يسبب نفوقه، إنه ابن عرس وهو حيوان ذو أربع قوائم عدو الفأر إلا أنه يشبهه، وهو حيوان كثيف الشعر يعيش فى النيل، وهو كالتمساح يستوطن اليابسة ويخرج إليها ويزحف فى الرمال على الجزر ويبحث عن التمساح لأنه عدو لدود للتمساح ويقتنص كذلك الطائر الذى يستخرج فضلات التمساح.

ويخرج هذا الحيوان عندما يخرج التمساح لقضاء حاجته ويقترب منه والتمساح لا يراه لأن عينى التمساح فوق رأسه وليس له عنق فهو جسم من قطعة واحدة لا يلتفت يمينه ويساره على اليابسة. وحينما يأتى الطائر المذكور إلى التمساح ليشبع جوعته يفتح

التمســاح فاه وعندما يدخل الـطائر ينقض ابن عرس عــلى التمساح ويدخــل فاه كذلك فيتخبط التمساح ويضرب متأوها ثم يطرح نفسه فى النيل.

واتفق ذات مرة أن جئنا من مـدينة أسوان فى سفينة فرأيت تمساحا عـظيما فى النيل يتموج كأنه البحر الهادر ويميل يمنة ويسرة فى سرعة البرق الخاطف ويتحرك كأنه سهم منطلـق من قوس. ويرتفع ماء النـيل من فيه إلى ارتفـاع منارة، فسألت ملاح سفـينتى قائلا: يا حاج رشـيد لماذا يصنع التمســاح هكذا؟ فأجاب قائلا: يا سـيدى ربما كان فى عراك مع تمساح أكبر منه أو أنه يبحث عن أنثاه.

وعندئذ اقترب التمساح من سفينتنا فأمرت خدمى أن يطلقوا عليه النار، فأطلقوا عليه رصاصتيـن إلا أنهما لم تحدثا فيـه أثرا. وفى النهاية خرج الـتمساح إلى الضفة الـغربية للنيل وجعل يتململ مـتألما، ثم بلغنا الضفة بسفينتنا ونزلنا إلى الـشاطئ وبينما كنا ننظر حولنا رأينـا ابن عرس يخرج من فم التمســاح ويهرب إلى النيل ثم نفق الـتمساح وكان طوله اثنتين وثلاثين قدما.

ومن التـماسيح ما يـبلغ طول الـواحد منها أربـعين أو خمسـين قدما. ومـثل هذه التماسيح العملاقة لا وجود لها إلا فى ولايات إسنا وأسوان.

وثمة قلعة تسمـى «الحفير الكبير» وكانت لـ «كور حسين بـك» الذى كان بمثابة ملك فونجستـان، ولهذه القلعة بـاب حديدى سُمِّرَ على مصـراعيه جلد تمساح عـظيم، وهذا الجلد بلا رأس ولا ذيل، وقد قـست طول جلد جذعه بالذراع فوجـدت أن طوله أربعة عشر ذراعا، وعرضه سبعة أذرع، فأخذنى شديد العجب، فأخبرنى شيوخ فونجستان عن وجود تماسيح أضخم من هذا التمساح.

عدو لدود آخر للتمساح

وثمة عدو لدود آخر للتمساح هو «فرس النهر» ولكثرة وجود هذا الحيوان على حدود مدينة دنقلة وبلاد النوبه تندر التماسيح هنالك.

ويسمى التمساح فى بلاد النوبة (وولى)، وفى الولايات العلوية (شوشار).

عجيبة من العجائب

ومن عجب أن هذا التمساح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابوا لنفسهم الأمارة بالسوء، يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التمساح أنثاه وهى على ظهرها يخرج الرجل من كمينه ويطلق صيحة عالية، فيجفل التمساح الذكر ويطرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها لا تحرك ساكنا فهى لا تستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الإتصال بأنثى التمساح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولا حياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التمساح ألذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة ويقول إن الدم الأحمر يسيل فى كل جماع بكر وإذا ما جامع أنثى التمساح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

وفرج أنثى التمساح أبيض مثل فروج جوارى الحبشة وهذا حق. فلقد أرسل حاكم جرجا أنثى تمساح إلى أوزبك بك وكان ظهرها جميلا منقوشا.

حكاية غريبة عن تمساح النيل

أثناء سياحتى فى بلاد التلال، اتفق أن تطرق حديثنا إلى التمساح، وكان صاحب منزلنا «أبا جاد الله» وكان شيخا بلغ من الكبر عتيا، كريما من أهل التقوى والصلاح وقص علينا قصته فقال:

حينما كنت شابا كان لى تمساح فى النيل، وكان أنثى، وكنت أصطاد السمك بالشبكة وأقتات به، وكنت أصيد أنواعا خاصة من السمك. واتفق أن مر أمامى تمساح يسبح فى الماء إلا أنه كان غاية فى الجمال فقطعت رؤوس بعض الأسماك التى صدتها وألقيتها لأنثى التمساح وداومت على المجئ عدة أيام وكنت ألقى إليها السمك. وذات يوم خرجت أنثى التمساح إلى الشط ومشت ورفعت ذيلها واستلقت على ظهرها،

فتذكرت أن بعض البدو يجامعون التماسيح فطاش عقلى فأخذت عصا، ودستها بين الرمل وبين ظهر أنثى التمساح وقلبتها إلى جانبها ولاعبتها ومضت إلى النيل وهى تنظر إلى، وكان هذا حماقة منى، وداومت على فعل ذلك ثلاثة أعوام، وقد عرف عنى أهل عشيرتى فى الشلال ذلك، وكنت إذا تخلفت يوما جاءت أنثى التمساح تبحث عنى، إلا أننى كنت أخشى التماسيح الأخرى فما اقتربت من شاطئ النيل.

وفى كل مرة كانت تأتى أنثى التمساح إلى شاطئ النيل كانت تمح رائحة طيبة فكنت أملأ إصيصًا بهذا الزيت وأبيعه بعشرة قروش طيلة ثلاث سنوات.

واتفق ذات يوما أن وصلت إلى جزيرة من جزر النيل، فتبعتنى أنثى التمساح وخرجت إلى الجزيرة وتدحرجت ونفقت، ورأيتها وهبط الليل فرأيت تماسحى وله وجه فتاة تشبه الشمس حسنا إلا أن جسده وذيله جسد وذيل تمساح إلا أن فرجها وأطرافها فرج وأطراف تمساح فطاش صوابى، وربما كانت ابنة شيخ من شيوخ البدو فسحرت تماسحا ولكن لما نفقت بطل السحر، لأن كل مخلوق يموت على صورته الأولى التى ولد عليها. ودفنتها فى تلك الجزيرة.

وكان بعض أهالى تلك الولاية حاضرين وشهدوا على ما قصه الحاج أبو جاد الله ففى تلك البلاد لم يكن جماع التماسيح وقتلها وتسمير جلودها على الأبواب أعمالا شائنة بل يعد ذلك شجاعة ما بعدها شجاعة، ولا يعد شجاعا من لم يتعارك مع التمساح، وجعل الحاضرون يتكلمون فى شئون أخرى وقالوا إنهم يزوجون بناتهم من يستطيع قتل التمساح والفيل، فالتمساح تنين هذه البلاد، وهو يلحق الأذى بأهلها فهو يختطف الناس والدواب عندما يشربون من النيل، ويختطف كذلك الصبيان وهم يسبحون فيه.

سبب جماع الناس للتماسيح

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر خصورهم، ولكى يبرأوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء من هذا الداء، والبعض ممن لا يجامعون التماسيح يجامعون الجوارى

الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منى وغيره.

حكمة الله فى ميزة التمساح

إذا ما وقع السفاد [1] بين التمساح وأنثاه على اليابسة، باضت أنثاه بيضة فى حجم بيضة النعامة، إلا أن هذه البيضة ليست مستديرة وهى منقوشة، وتدفن أنثى التمساح بيضتها فى الرمال، ثم تمضى إلى النيل ثانية، وتأتى كل يوم لتشاهدها وبعض الإناث تبقى إلى جانب بيضتها. ومن شدة الحر ينضح بياض البيضة وفى اليوم الأربعين يخرج «الصقنقور» من المحة[2].

أما البيضة المدفونة فى الرمال فيخرج منها تمساح، ويصبح له غشاء فى أنفه فيستطيع أن يسبح فى النيل، أما الصقنقور فليس له هذا الغشاء فيبقى على اليابسة.

وتبيض أنثى التمساح اثنتى عشرة بيضة بعضها تماسيح وبعضها صقنقور إلا أن الصقنقور ينزل الماء ويخرج منه ثانية وليس فى مقدوره البقاء فى النيل. ويسميه العلماء «سمكة الصقنقور»، وما يتولد من هذا الصقنقور يسمى «الصقنقور البرى» وهو لا ينزل الماء ولا يشربه قط، وإنما يبقى فى الرملة والصحراء. وقال عنه العلماء إنه عظيم النفع.

صفات الصقنقور

وللذكر منه ذكران وللإناث فرجان، ويولد الصقنقور من فرجها الأيمن، ويولد الضب من فرجها الأيسر، ﴿ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨]. وبعض الناس يصطاده لأن أكله مقو للباه[3] ويقطعون رأسه وذيله مثل ثعبان الترياق الفاروقى، ويرمون الرأس، والذيل فى الصحراء، أما جذعه فيجففونه فى الظل ويسحقون مثقالا من لحمه مع مثقالين من العنب الأسود فى هاوون، وإذا ما أكل على معدة خاوية

---

(١) السفاد : الجماع للحيوانات.

(٢) المحة : والماح: المادة الصفراء فى البيضة. وأجزاء البيضة على الترتيب: القيض (القشرة)، والغرقئ، والآح، والماح.

(٣) البَاهُ: الجماع.

استطاع آكله أن يظهر رجولته مع عشر جوار فى ليلة واحدة واستطاع إرضاءهن جميعا وهو مقو إلى هذا الحد البعيد.

إذا ما عض الصقنقور إنسانا ونزل هذا الإنسان توا إلى الماء نجى ونفق الصقنقور، وإذا ما نزل الصقنقور ذلك الماء هلك الرجل الذى عضه الصقنقور ونجى الصقنقور. ولذا يستلزم على من عضه الصقنقور أن يبادر بالنزول إلى الماء.

طلاسم المقياس من أجل التمساح

تردد على ألسنة الناس عدة أقوال خاصة فى تسمية أم القياس بهذا الاسم. ففى قول أنه كان لأحد الملوك فى سالف الدهر ابنة رائعة الحسن، واتفق ذات مرة أن كانت هذه الفتاة تسبح فى النيل فاختطفها تمساح. ولما بلغ الخبر أباها الملك أخذه شديد الأسى لما حدث، وفى ذلك الزمان اتفق أن كان سيدى الشيخ أبو بكر البطرانى وهو من كبار أولياء الله الأعاظم، فدعا هذا الولى الله أن ينجى الفتاة، فاستجاب الله ورد التمساح الفتاة إلى ذلك المكان الذى اختطفها منه ولم يصبها أى أذى، فابتهج لذلك الملك ابتهاجا لا مزيد عليه، وأقام قصرا فى ذلك الموضع. وسماه باسم ابنته وهو «أم القياس» وكان هذا سببا للتسمية، ثم أمر الشيخ البطرانى بصنع تمثال من الرخام للتمساح ودفن هذا التمثال فى قاع حوض أم القياس، ومنذ ذلك الزمان إذا ما مر تمساح أسفل أم القياس انقلب على ظهره أو خرج إلى الشاطئ هاربًا.

ولذلك لا وجود للتماسيح فى الوجه البحرى من مصر. والسلام.

فرس النيل

يستوطن ولاية النوبة وما وراء الشلالات. أنه حيوان غاية فى الضخامة وكأنه حصان. إلا أن مَعْرَفَته[1] وذيله غزيرتا الشعر، وهو كثير التجوال على اليابسة، وإذا ما رأى أحدا هرب إلى النيل وهو يقتات من اليابسة، ويأكل بقدر ما تأكله عشرة جياد ويخرب الحقول، وبعضه يسفد الحجر فيولد منها الجحش ويبقى على اليابسة، وهذا

(١) المَعْرَفَةُ: موضعُ العُرْفِ من الطير والخيل.

الجحش جميل الشكل، إلا أنه لا يستطيع أن يحتمل المشقة مثل سائر الخيول، وهو مع ذلك يركب. حتى إن حاكم قوص على الكاشف كان له جحش فرس النيل، وعندما بلغ العام الثانى كنا نلعب الجريد مع الأغوات فى مصطبة على شاطئ النيل وكان هذا الجحش معنا، وعندئذ ظهر على ساحل النيل حصان «سهيلى» فالتفتت إليه جميع خيولنا وانتصبت آذانها، وفى عينه قصف الرعد، وعندما سمع الجحش ذلك جذب لجامه من يد القواس ووثب بإكافه فى الماء فتبعه جميع الفرسان الموجودين فى ساحة لعب الجريد، إلا أنهم فقدوا أثره فى الماء. وبعد مدة خرج الجحش ثانية منه وقد سال الدم من منخريه وخرج إلى الضفة المقابلة للنيل وخرج ورائه دابة الماء التى تشبه دابة الأرض وطاردت الجحش وهى تعضه حتى قفز الجحش فى الماء وتبعته إلى أن غاب الإثنان فى ماء النيل. ثم برز الجحش على صفحة الماء وجعل يسبح وعبر النيل إلى الشاطئ المقابل فطرح عدة قواسين أنفسهم فى النيل وهم عراة وتعقبوا الجحش وأخرجوه إلى الضفة التى نحن عليها وهو يختلج، ثم خرج فرس النهر من الماء فأطلقوا عليه النار حتى عاد وغاص فى النيل.

وفى اليوم الثالث رأوا جثته عند شاطئ النيل فى قنا، وما رأيت مثل هذا المشهد قط فى حياتى .

وفى تلك البلاد تكثر أفراس النهر.

بقية أوصاف فرس النيل

إنه غاية فى الجرأة ولذا فهو دائم العراك مع التمساح فى النيل ويتغلب عليه، وحيثما وجد فرس النيل لا يستطيع التمساح العيش. وعلى الرغم من أنه يشبه الخيول العادية فإنه رقيق الذيل طويل كذيل الثور. ولأن حافر رجليه الأماميتين متشعب يحل أكل لحمه. وفى جسده وبر متنوع. وفكه الأعلى يتحرك كالتمساح ويصهل كالخيل. ويصنعون من جلده تروسا لا تنفذ السهام ولا السيوف ولا المناخس ولكن ينفذ منها الرصاص، كما يصنعون من ذكره السياط، والجلادون فى مصر يجلدون الناس بذكره.

سمكة الرعـاد

وفى نهر النيل فى مصر نوع من السمك يسمى الرعاد، وكل من أمسك بسمكة منه ليأكلها شلت يداه فى تلك اللحظة، وإذا ما أطلقها من يده عادت يداه سليمة كما كانت من قبل. ولذلك يطلقها جميع الصيادين إذا خرجت فى شباكهم. تزن السمكة الواحدة منه أوقيتين. وهى سمكة صفراء، ولكن كان يوجد منها الأسود فيما مضى.

والبعض يصيدها ويحضرون رأسها لمريض اليرقان أو من يشكو من ألم شديد فإذا شمها حينا بعد حين شفى من اليرقان.

ميزة هـذه السمكة

إذا ما حنط رأس هذه السمكة واحتفظ بنصف منه رجل وبالنصف الآخر امرأة لم يفترقا أبدا، وهذا مجرب.

أما إذا أكل فقد يموت آكله، ويبلغ وزن هذه السمكة أوقيتين وهى مستديرة الرأس، سمينة لينة كالقربة، وإذا ما صيدت سمكة منها ونفقت نفق أليفها. يا لها من حكمة عجيبة.

ميزة أخـرى

وإذا ما علق المحموم هذه السمكة فى عنقه شفى بإذن الله. وإذا ما أصيب أحد بالصداع ووضعت هذه السمكة على رأسه شفى من صداعه بإذن الله.

ميزة أخـرى

وإذا ما احتفظ رجل وامرأة كل منهما بنصفها تحابا ولم يفترقا إلى أن يدركهما الموت. ولما لهذه السمكة من أثر فإن عدة آلاف من الرجال فى صعيد مصر العالى يظلون أوفياء لزوجاتهن الماكرات.

ويسمون هذه السمكة كذلك «حوت إدريس». إنها سمكة منقوشة كالسمكة التى تسمى «سمكة الله»، وهى دواء لما لا يحصى كثرة من أدواء.

وحينما بعث إدريس النبى إلى أهل هذه البلاد أنزل عليه البارى عز شأنه مائدة من السماء، وكانت سمكا مطبوخا وجرجيرا فأكلها، وبعد أن أشبع جوعته رمى شوكها فى

النيل فخلقت منه هذه السمكة، ثم حرم إدريس على أمته أكل هذه السمكة وأخبرهم بخواصها. وهم منذ ذلك الوقت وإلى الآن يستخدمونها للتداوى. إلا أنهم لا يجترأون على أكلها.

خاصية التمساح

إذا ما أصيب أحد بالصرع - اللهم عافنا - وأحرق كبد تمساح وبخر بها شفى هذا الرجل بإذن الله.

خاصية أخرى

يقضى التمساح حاجته من فمه، فليس له دبر. وإذا كُحِّلت عينٌ - ابيضت أو غامت - بفضلات التمساح شفيت بأمر الله.

خاصية أخرى

إذا ما نزعت عين التمساح وهو حى وعلقت فى عنق مجذوم وجد فى ذلك الشفاء بإذن الله. وكان ابن رئيس الباش بلوك عندما قدم إلى باب اللوق أصيب بالجذام، وتورمت عينه ووجهه وانتشر الجذام فى جسمه من أنفه إلى ركبته. فأكل عدة أوقيات من لحم التمساح ونزعت عين التمساح وعلقت فى عنقه، فأصبح جسد الطفل كالبيض المقشور. وقد شاهدت ذلك بنفسى، وسألت الغلام فقال: والله إن لحم التمساح له رائحة المسك.

عجيبة مضحكة

ثمة حيوان يسمى «كلب النيل» وهو يشبه الضب، له وبر ملون، يعيش فى النيل وعلى ضفافه، وهو عدو لدود للتمساح، إنه يفترس صغار التمساح، ولو لم يأكل صغارها لما كتبت له النجاة من كبارها، فهو إذا دخل مرة تحت إبط تمساح لم ينج منه، وينفق ما فى ذلك شك.

وهذا الحيوان يأكل كبد التمساح. إنه حيوان ماكر، وشيطان، ومضحك وهو قصير الأطراف. وهو إذا ما ملكه شديد الجوع أكل التمساح بحيلة يندهش لها الإنسان فهذا الحيوان يخرج إلى الأماكن التى يوجد بها التماسيح، ويطلى نفسه بالطين وينام على شط النيل فى الشمس، ويراه التمساح ويظنه فريسة له، فيضربه بذيله ويبتلعه، وفى التو يأكل

كلب النيل كبد التمساح فى بطنه، ويشقها ويخرج منها، وينفق التمساح، لذلك يحتفظ الفلاحون الذين يسكنون شاطئ النيل بأحد أفراد كلب الماء هذا ليأمنوا شر التماسيح.

حكمة عجيبة

ويا لها من حكمة عجيبة إنه حينما يصطاد صيادو السمك كلب النيل هذا يقطعون ذكره ويطرحون الكلب فى الماء ويطلقون سراحه. لأن المصابين بالحمة المحرقة أو الذين يعانون من آلام مبرحة إذا ما حملوه كان لهم نافعا. بعد ذلك يعيش كلب النيل بلا ذكر، فإذا وقع فى شباك الصيادين ثانية رقدوه على ظهره ورفعوا ذيله، فإذا وجدوه بلا ذكر عرفوا أنه قد وقع قبل ذلك فى يد صياد ويتعجبون متضاحكين ويطلقون سراحه. إنه كلب لطيف، مضحك. والسلام.

وإذا ما ذكرنا أوصاف جميع مخلوقات النيل كما شاهدتها لاقتضى ذلك منا تأليف كتاب لأن النيل نهر عظيم كأنه البحر الخضم.

وثمة مملكة تسمى «بلاد علوه» فى جنوب ولاية أسوان، إنها بلاد قليلة العمران وهناك منطقة تسمى «الأبواب» تقع فى الجانب الشرقى لتلك البلاد على ضفة النيل يتشعب النيل فيها سبع شعب، وتجرى مياهه إلى عدة ممالك فى الجهة الغربية ويروى أراضيها، ثم تعود مياهها إلى النيل ثانية وتختلط بها، ولكل فرع منها لون خاص، وتصب جميعها فى النيل. حتى إنه فى عام ١٠٨٣ فى عهد أبى الخير إبراهيم باشا جرى النيل شهرين بتمامهما ومياهه خضراء اللون، فخاف الذواقة من شربها، وكانوا يروون ظمأهم من بئر المطرية، وغيرها من السواقى العذبة الماء. وثمة بئر تسمى بئر هامان وزير فرعون فى قليوب على مسيرة ثمانى ساعات من القاهرة، وهى بئر عظيمة وفيها تدور دواليب اثنتى عشرة ساقية، وماؤها رقيق، وبعض العظماء والثراة يأمرون خدمهم بإحضار الماء من هذه البئر ويشربون منه، ولا يشرب أحد من ماء النيل وهو أخضر. والسلام.. وهنا نكون قد انتهينا من الحديث عن قطع النيل وأوصافه وخواصه وسفنه وحشراته وحيواناته ومواكبه، ولنذكر الآن المواكب الأخرى.

***

الفصل الثامن والأربعون

وصف الموكب الثالث

وهو موكب رؤية هلال رمضان المبارك (أى موكب المحتسب)

لمدينة القاهرة العظيمة اثنا عشر موكبا للعيد، منها الموكب العظيم لليلة المحتسب ويسميه الصوفية والعارفين بالله. «عيد النسوان» إذ إنه فى تلك الليلة لا يمكن التحكم فى النساء، فهن يخرجن لمشاهدة هذا الموكب، وشرط عقد الزواج هو الخروج فى هذا الموكب فى تلك الليلة. وهذا ما يقضى به قانون مصر.

وقبل هذا الموكب بأسبوع تستأجر الحوانيت فى الأسواق السلطانية بخمسة أو عشرة قروش أو قرش واحد أو يمضين إلى منازل معارفهن.

وخلاصة القول: من الرجال من لا يحق لهم سؤال أزواجهن أين كن فى هذه الليلة، إنها ظاهرة عجيبة.

ولأنها الليلة الشريفة لشهر رمضان المبارك فإن جميع أهل القاهرة يبتهجون ويسعدون وتظل جميع حوانيت الأسواق السلطانية مفتوحة فى تلك الليلة حتى الصباح، وتزدان القاهرة بعدة آلاف من القناديل، وكل أحد يزين واجهة حانوته بسِلَعِه، وينتظر كل أحد مع أحبابه وأصدقائه موكب المحتسب.

أصل الاحتفال بهذا الموكب:

وأصل الاحتفال بهذا الموكب هو أنه فى عهد (   )[1] وقع الشك فى معرفة غرة شهر رمضان المبارك، وعجز جميع العلماء والأعيان والبكوات وأعضاء الديوان عن معرفة ذلك اليوم. وفى آخر الأمر فى الليلة التاسعة والعشرين من شهر شعبان المعظم أرسل المحتسب بك إلى قاضى عسكر مصر يقول له: إنه ينبغى أن يكون لكم علم بيوم الشك.

وتلقى المحتسب مع موكبه خبرا أكيدا من قاضى العسكر أفندى، وبشر السلطان بذلك والآن ومنذ ذلك الزمان يمضى جميع الناس إلى باب الشريعة تعظيما واحتفاء

(١) بياض فى الأصل.

بحلول شهر رمضان المبارك لمعرفة غُرة الشهر الكريم. وهذا فى مصر قانون مرعى منذ عهد (   )[1] وهو الآن من الشعائر، إنه احتفال يعجز عنه الوصف.

والمحتسب بك، على الرغم من أنه مطلق الإرادة فى تلك الليلة وسائر الليالى الأخرى، إلا أنه لا يحق له قتل أحد فيها. وله الحق فى إصدار كافة الأحكام الأخرى، ويطبق القانون والعرف، وله الحق فى توقيع عقوبة الغرامة والسجن.

ليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك

وفى تلك الليلة مضى المحتسب أغا والصوباشى مع خمسمائة من رجالهما فى أبهة وجلال متحارين قارعين الطبول، ودخلوا من باب العزب، وصعدوا إلى الباشا بعد العصر فى ديوان الغورى وعند لقائهم به قبلوا الأرض تحت قدمه، فأصدر الباشا أوامره بأن تخلع على المحتسب خلعة فاخرة عبارة عن حزام من فرو السمور مخيط بخيوط الذهب والفضة، كما وضع الباشا عمامته السليمية بنفسه على رأس المحتسب، كما وضع على رأسه كذلك ريشتين سلطانيتين مزينتين بالجواهر، وقال له: بلغ سلامى إلى شيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة والقاضى عسكر، وتعرف صحة الخبر عما إذا كانت غرة شهر رمضان غدا، وإذا تلقيت الخبر السار أخبرنا إياه.

وما أن قبل المحتسب الأرض حتى قال كتخدا الباشا للباشا: يا مولاى لقد أنعمت على عبدك المحتسب بخلعة سلطانية وفق القانون القديم، ولى الآن رجاء أبسطه إليك وهو أن تجعل على نفقات الموكب من بسط ومنح لفرق التوفنكجيان والسقائين والشطار وفرق الموسيقى العسكرية. وقد بسط هذا الرجاء إلى الباشا وهو يقبل الأرض تحت قدمه، فقبل الباشا، وأمره بأن يذهب لإعداد العدة للموكب، فقبل المحتسب الأرض ثانية وخرج مع الكتخدا، وتولى كتخدا البوابين رئاسة أغوات الباشا نيابة عن المحتسب وكتخدا الباشا، وخلع الباشا عليه خلعة فاخرة، فقبل الأرض تحت قدمه ومضى.

---

(١) بياض فى الأصل.

بعد ذلك دخل المحتسب مع قادة الجند من الأوجاقات السبعة المكلفين بالإشتراك فى الموكب ونالوا خلعا من الباشا الذى شدد فى التنبيه عليهم بأن يملكوا زمام جندهم فى تلك الليلة، فقال قادة الجند: سمعا وطاعة وقبلوا الأرض، وخرجوا.

ثم قدم بعد ذلك الصوباشى مع الدويدار (أى محافظ القلعة) وخلع على كل منهما خلعة فاخرة، ثم شدد الباشا كذلك عليهما فى التنبيه، ثم خرجا.

ثم وقف جميع الجند فى ميدان القصر على أهبة الاستعداد، وفى البداية مهد الصوباشى الطريق مع جلاديه، ثم مرت مواكب التتار[1] والدلاة والكوكليان[2]، والجاشنكير[3] والكلارجيان[4] والموسيقى العسكرية والصرّاجين والمتفرقة وموكب واجب الرعايا وموكب رؤساء البوابين وجنائب الباشا التسع ذات السروج المرصعة بالجواهر، وشطار الباشا وفى يديهم البلطة الحادة، مع المحتسب أغا، وكتخدا البوابين متحاذين، وعزفت فرق الموسيقى العسكرية التسع الخاصة بالباشا ومروا من أمامه، ونزلوا من القلعة. ولم يكن هذا الموكب يضم أطواغا ولا أعلاما ولا علم رسول الله ﷺ وعلى هذا النحو نزلوا من القلعة، ولم يشترك فى هذا الموكب من جند الأوجاقات السبعة إلا مائتا جندى من كل أوجاق ولا يشترك أكثر من هذا العدد، لأنهم من طائفة الجند وينالون منحا بعد إنتهاء الموكب، وإذا جاء كثير من العسكر لا يصبح فى مقدور المحتسب أن يدفع لهم منحا. وقد اشترك فى هذا الموكب ألف وأربعمائة جندى من الأوجقات السبعة، وهم مدججين بالسلاح، وفى كامل زينتهم وقد تقدمهم جند الباشا، وخلف الصوباشى مائة من جاويشية الجند يحملون العمد، ومضى فى أثرهم مائتان من فرقة الكوكليان ثم مر موكب التوفنكجيان وبعدهم موكب الشراكسة ثم

(١) التتار: ناقلو البريد.

(٢) الكوكليان: فرقة من الجيش تعرف باسم المتطوعة.

(٣) الجاشنكير: فرقة عسكرية كانت تتولى مهمة ترتيب الموائد.

(٤) الكلارجيان: الفرقة المكلفة بحفظ الطعام والشراب فى مطبخ القصر العثمانى.

المتفرقة، ثم فرقة العزب ثم موكب ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم القلانس المزركشة. ثم شطر الباشا وبجانبهم المحتسب أغا مشاة وفرسانا متحازين.

ووصل الموكب وقت صلاة العشاء قبالة جامع محمود باشا فى ميدان الرملى وتوقف هناك وظلت فرقة الموسيقى العسكرية صامتة، وأدى المحتسب بك وبقية الأعيان صلاة المغرب قضاء فى جامع المحمودية وكانت الليلة قد أظلمت ولنكمل بقية مواكب أهل الحرف التى تحت إدارة المحتسب بك.

***

الفصل التاسع والأربعون
بيان ما فى القاهرة من دكاكين طوائف الحرف وأعداد العاملين بها

ولأن أرباب الحرف الآتى ذكرهم يخضعون لإدارة المحتسب فقد أقاموا موكبا عظيما وكأنه موكب السلطان. وبعد أن حَمَد المحتسب أغا اللهَ وأثنى عليه ما هو أهله من ثناء فى جامع المحمودية اعتلى صهوة جواده، فأطلق الجند بنادقهم تحية وتعظيما له، وعزفت الموسيقى العسكرية، ودوت أصداء كلمة الله فى جميع أرجاء مدينة القاهرة.

وفى بداية الموكب مرَّ الصوباشى فى سبعمائة قواس يحملون العصى وألف فارس من البدو وثلاثمائة من حملة المشاعل، مر كذلك فى معيته مئات الموسيقيين والمطربين، إذ إنهم تحت إدارته، واشتد الزحام وكأنما ظهر حمار الدجال وازدحم الناس حوله، وارتفعت الضجة كأنما حل يوم الحشر، وارتفعت أصوات جلادى الصوباشى قائلين: «هذا وكيل السلطان والى الولايات حفظه الله، الله ينصر السلطان».

وقد نبهوا الناس، الذين ازدحموا كموج البحر الخضم، بهذا من كلامهم، ثم قدم الصوباشى وعليه مظاهر العظمة والجلال وعلى جانبيه من يحملون عدة آلاف من القناديل وأربعون أو خمسون من الغلمان الصباح، ومر فى أثرهم أربع فرق من فرق الموسيقى العسكرية، إلا أنه فى ليلة المحتسب تلك لم يحضر الأعيان ولا الأشراف والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات والأئمة والخطباء والقضاة قط، فقد كانوا ينتظرون قدوم الموكب فى السوق السلطانية، وهم لم يكونوا مكلفين بالمشاركة فى الموكب.

وفى تلك الليلة ظلت المدينة مضاءة بالزينات حتى مطلع الفجر وكأنها ليلة القدر، وبأمر من الباشا اجتمع الغلمان والشباب والفتيات ويسمى الظرفاء فيما بينهم موكب المحتسب بـ «موكب الأحباء»، ففى تلك الليلة كل من فى مدينة القاهرة من الفتيات الحسان يلبسن حليهن الذهبية وثيابهن المزركشة ويشاهدن هذا الموكب بعد الاستئذان من أولياء أمورهم، وينبغى أن يكون لكل ابن من أرباب الحرف ثوب خاص وعلى رأسه

ريشة ويمر هؤلاء بينما الموسيقى العسكرية تعزف.

وبعض الصوفية يسمون هذا الموكب موكب المهرجين المضحكين، وواقع الأمر أن كل من فى مدينة القاهرة من مضحكين ومهرجين قد خرجوا من بيوتهم لتقديم عروضهم الفكاهية فى الأسواق.

وبعد موكب الصوباشى تمر:

- طائفة الفلاحين:

وهم فى الطليعة، إذ إن حرفتهم هى أقدم الحرف، وهم لا يحصون كثرة فى مصر تنتهى سلسلتهم بـ «آدم عليه السلام»، ومنهم طائفة الكيالين الذين يكيلون القمح وعددهم ٢٠٠٠.

وطوائف «المغربلين»: وهم ينخلون الشعير والقمح، فإذا ما اختلط القمح والشعير والعدس والأرز والفول والقمح وحب الخشخاش، ينخلون هذا كله فى طرفة العين.

ويكتبون على الغربال الذى ينخلون به القمح «لا إله إلا الله، وبسم الله، ويا الله، ويا شافى، ويا كافى» وغير ذلك من الأسماء. وهم لا دكاكين لهم وعددهم ١٠٠٠ رجل، خمسمائة منهم يعملون فى أنبار يوسف وخمسمائة يخدمون أعيان مصر.

ثم طائفة «صانعى الغرابيل»: وهم يصنعون المنخل والغربال، لهم ١٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠ عامل.

- طائفة البستانيين:

فى القاهرة ٣٠٦٠ حديقة وحقلا، تنتهى سلسلة هؤلاء بـ «إسماعيل عليه السلام»، وعددهم ٩٣٠٠ بستانى.

ويمر الزُرّاع والكيالون والمغربلون والبستانيون وفى أيديهم الطبر والفأس والمجرفة والمسحاة ويرددون على ألسنتهم قولهم «يا خالق، ويا رزاق، يا منعم، يا مغنى» وقد تزينوا من الرأس إلى القدم بالزهور والبراعم والريحان والسنبل والحناء والنسرين وفى أيديهم الليمون والنارنج، وفى معيتهم رئيس الكيالين ورئيس البستانيين، ويسيرون

متحازين، وتمر معهم نساؤهم والموسيقى تعزف ثم:

- طائفة سقائى الجمال:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، وطائفة «سقائى الحمر»، وهم كذلك لا دكاكين لهم، وعددهم ٨٠٠٠ سقاء حمار ويتعذر المرور فى شوارع القاهرة من شدة إزدحامهم، وطائفة «السقائين المتجولين» وهم ٨٠٠.

- طائفة بائعى الماء:

لهم أربعون دكانا، وهم يبيعون الماء المقطر، ويزينون دكاكينهم بالأكواب والطاسات المتنوعة، ومن يشربون عندهم يدفعون إليهم ما تجود به نفوسهم وأقل ذلك «نقرة». إنهم ١٠٠ شخص، منهم من يحمل القرب المعطرة بالمسك ويملأها من هذه الدكاكين ويوزعها على رجال الدولة. ولهم طاسات نظيفة مصقولة كأنها من الذهب الخالص، كما يقدمون الماء العذب فى كاسات وكيزان متنوعة.

- طائفة دكاكين العرقسوس:

أى من يغلون جذور العرقسوس لبيعها، وينمو العرقسوس بكثرة فى بلاد الترك فى منتشة وايدين وصارحان وجزيرة استانكوى وهو جذر حلو المذاق وعصيره عظيم النفع للمصريين. وجاء فى تذكرة داود أنه عظيم النفع للبلغم ومدر للبول.

والواقع أن البلغم يكثر بين المصريين وكل أهل مصر يكثر منهم السعال، وفى كل البلاد يتنحنح العرب وبعد شرب العرقسوس يسعلون فيصقون البلغم فى حجم السمكة فيتخلصون منه. إنه عصير جد نافع، وعدد الدكاكين التى تبيعه ١٥٠، يعمل بها ٣٠٠٠، ويبيعونه فى جرار وينادون عليه قائلين: «يا عرقسوس يا»، ويبيعون الكأس منه بمنقره، وهو شراب مرطب فمن شربه فى يوم شديد الحر أصبح جسمه قطعة من ثلج. وتنتسب هذه الطائفة إلى «عمر».

- طائفة بائعى الخشاف:

دكاكينهم (   )[1]، وهم ٧٠ ويبيعون خشاف الفاكهة، فكنت أحب شراب التمر هندى المسك اللذيذ وأشرب منه كل يوم كأسا.

- طائفة بائعى الصوبية:

لهم (   )[2] دكانا، يعمل بها ٧٠ بائعا، وما يطلقون عليه فى مصر اسم «الصوبية» بوزة كاللبن يصنعونها من أرز دمياط وفراسكور والمنزلة، ويوضع فيها القرفة والقرنفل والجوز وتحلى بالسكر. ومنها نشوة خفيفة ودفئ، وتبعث فى الجسم القوة والعافية، وتلطف حرارة الجسم.

- طائفة بائعى الشراب الجائلين:

وهم يبيعون عصير المشمش فى أكواب من القصدير، ويبيعون كذلك شراب الزبيب ويضعون فيه الأفاويه، ويشرب مثلجا. وهو مشروب حامض الطعم.

وشراب الثعلب ويسمونه فى العربية «خصية الثعلب»، وهو نبات أبيض مثل فصوص الثوم يجفف ويسحق فى هاون ويحلى بالعسل والسكر ويشرب مع الزنجبيل، ولكن شرط طهوه أن يقلب مثل الفالوذج حتى لا يصبح كرة كرة. ومن يشرب منه فنجانا شفى من آلام الصدر، كما أنه مقو للبصر والجسم.

- طائفة بائعى الفالوذج: لهم ٧ دكاكين، وهم ٦ بائعين.

- طائفة اللبانين:

لهم ٧٠ دكانا، وهم ٣٠٠ بائع ودكاكينهم تبيع الماست، وفى الصباح يبيعون اللبن الساخن وفيه الكعك، ويقدمونه للبعض فى فناجين.

- طائفة بائعى الشاى واليانسون:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠ بائعا يتجولون حاملين أباريق الشاى واليانسون الساخن.

- طائفة الخلالين:

توجد دكاكينهم فى حارة بأكملها بالقرب من شجرة الدر، وهم ١٠٠٠ بائع.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة بائعى المخلل: ٤٠ دكانا، و٦٠ بائعا.

- طائفة بائعى القهوة:

لهم ٦٣ مقهى فى بولاق ومصر العتيقة ومصيف قايتباى والقاهرة، وهى مقاه واسعة تستوعب الواحدة منها ألفا من الرواد، ولها مقاصير وشادروانات وأحواض للماء، وكان يتردد عليها المغنيون والشباب الصباح وبلغاء الشعراء.

ومن أشهر مقاهى القاهرة وأجملها هى مقهى الغورية والمقهى الجديد، ومقهى باب الفتوح ومقهى باب الشعرية ومقهى الكتخدا الحبشى ومقهى ميدان الروملى ومقهى السلطان حسن، ومقاه القلعة الثلاث ومقهى الجماميز ومقهى الصقنقورية وهى مقاه ذات أسبلة وفسقيات وأحواض، وفى كل منها مغن رخيم الصوت، وعازف بارع، ولا تخلو من الضوضاء والضجيج ليل نهار.

ومما تمتاز به أنه إذا قدمها رحالة من الترك أو الفرس أو العرب حل ضيفا فى ركن من أركانها، وهى ملتقى أهل العلم والعرفان. ومجموع من يعمل فى هذه المقاهى ويخدم فيها ٣٠٠٠ شخص.

- طائفة بائعى القهوة الجائلين:

لا دكاكين لهؤلاء، إنهم يبيعون القهوة المُمَسَّكة فى أباريق، ويطوفون فى الأسواق السلطانية، وبعضهم يربح ربحا عظيما. أما أكثرهم ربحا فهم من يقدمون القهوة فى مقهى الخرابة، ويغلون قنطارا من القهوة يوميا فى مقهى «الحبشى» ويتحصل لهم ربح عظيم، ويؤدون الضرائب لرئيس شطار الباشا وهم تحت حمايته.

- طائفة بائعى لوز النبى:

لا دكاكين لهم، وهم يبيعون بذور الشمام وعبد اللاوى، وعددهم ٣٠٠ بائع.

- طائفة بائعى الدخان:

وهم يقدمون الدخان فى ٦٣ مقهى إضافة إلى ألف وستين دكان تبيع التبغ فى القاهرة، وهم مقيدون فى سجلات الصوباشى، ومنادوهم وبائعوهم ٢٠٠٠، ويشتركون فى الركب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المداحين:

وعددهم ٧٠٠، وهم يشتركون فى الموكب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المقلدين والمهرجين:

عددهم ٣٠٠، ويقدمون عروضهم الفكاهية الضاحكة فى المقاهى والحانات.

- طائفة بائعى البوزة: إنهم مسلمون لهم ٧٥ حانة، يعمل بها ٦٠٠.

- طائفة الخمارين:

وهم جميعا من النصارى واليهود، لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠. وهذه مخالفة للشرع، لذا ليس لها موكب مستقل، ويمرون عقب رئيس أصحاب المقاهى. وهم مذمومون مكروهون.

وقد مر من سلف ذكرهم من الطوائف وهم السقاءون وبائعو الخشاف وكل بائعى المشروبات فى موكب أصحاب المقاهى وهم فى صخب عظيم، يحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، وعدة آلاف من القناديل مع الراقصين وهم يدقون الدفوف، فى معية رئيس الخلالين ورئيس أصحاب المقاهى، وفى أثرهم مرت فرقة الموسيقى العسكرية.

(الفصل الرابع)

طائفة الزياتين بائعى الزيت الحار

لهم ١٧٠ معملا، يعمل بها ١٨٠٠. إنهم تجار غاية فى الثراء إلا أنهم غاية فى قذارتهم.

- طائفة بائعى زيت السمسم:

لهم ٢٠٠ معمل، يعمل بها ٧٠٠. وهؤلاء يستخرجون زيت العصفور والسمسم واللوز. وهم قوم معرفون بقذارتهم. وفقراء مصر جميعا يتناولون الزيت الحار وزيت السمسم والطحينة.

وفى كل ليلة يقدح عدة آلاف الأرطال من الزيت الحار، خصوصا فى ليالى المولد وليالى رمضان وليلة المحتسب هذه. وتصدر مصر زيت البذور إلى جميع الولايات، ولذلك فهذه الطائفة طائفة ذات ثراء، ولا يتبع أحد طائفة هؤلاء فى الموكب، وقد ساروا فى الموكب حاملين المشاعل من زيوت مختلفة وقد لبسوا ملابس خشنة ملوثة

بالزيت وبعضهم مضوا عراة وملأوا قربهم بالزيت وحملوها على أكتافهم ولوثوا ملابس الناس المتزاحمين فى السوق السلطانية بما يحملون من قرب الزيت وسخر الناس منهم وأفسحوا لهم الطريق، وقد مر هؤلاء الزياتين وهم يدقون دفوفهم وفى معيتهم حصانهم وسط عزف الموسيقى.

وقد أوصد أهل القاهرة دكاكينهم قبل الموكب بخمسة أو عشرة أيام خوفا من أن تتلوث ثيابهم من هذه الطائفة.

(الفصل الخامس)

طائفة كبير المعماريين

ويتبع هذه الطائفة كثير من أهل الحرف، ومنهم:

- حرفة النجارين:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، ومنهم المسلم ومن هو على غير الإسلام.

- قاطعو الحجارة:

يقطعون الحجارة، مثل فرهاد، فى جبل الجوشى وبالقرب من أثر قدم النبى، فيؤتون على ما فى الجبل من أحجار. وعددهم ٢٠٠٠ شخص.

- قاطعوا الرخام:

أى من يرصفون الحمامات وأحواض الماء بالرخام. لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وخبرتهم ومهارتهم لا تتوفر لأحد فى بلد آخر. وإن عمائر القاهرة لها ذيوع الصيت فى الآفاق برخامها.

- حفارو الآبار: عددهم ٣٠٠.

- صناع دواليب السواقى والطواحين التى تديرها الخيول: عددهم ٢٦٠.

- عمال البناء:

الكثرة الكاثرة منهم من السود، والفلاحون فيهم قليل. وعددهم ٣٠٠٠ وأسماؤهم مقيدة فى الدفاتر، ولا يستطيع كل أحد مزاولة هذه الحرفة. إن مصر بلد العجائب، ولأنهم جميعا عمال حكوميون فهم مسجلون.

- **كاسحو المراحيض:**

وجميع مراحيض القاهرة ليست لها مجار بل هى آبار. وفى كل عام يكسحها القائم على كسحها ويسكبونها فى الرمال. وليست لهم دكاكين، وإنما ينتظرون كل صباح فى الصليبة وميدان الروملى أو فى أركان أخرى ومعهم مجارفهم وفؤوسهم وزنابيلهم، وعددهم ١٢٠٠ عامل.

- **صانعو اللِّبنْ والآجُرّ:**

لا دكاكين لهم، بل لهم قمائن فى الأماكن المطلة على شاطئ النيل، وهم ٦٠٠.

- **الفخاريون:**

لهم ١٠٠ دكان عند ساقية الغورى ومصر العتيقة وجهات أخرى، عددهم ١٠٠٠، وهم يصنعون حقاق الأدوية والمعاجين وكأنها من الصينى.

- **بناؤو الحمامات:** وهم ٣٥٠ من مهرة الصناع يختصون ببناء الحمامات.

- **صانعو الجص:**

لهم ٧٠٠ معمل بالقرب من السيدة نفيسة خارج مدينة القاهرة وفى مصر العتيقة وبعض الجهات الأخرى.

- **الجصاصون:** لهم ٢٠٠ دكان، وهم ١٣٠٠.

- **قاطعوا البلاط:**

أى من يقطعون بالمنشار حجرا أبيض أملسا يشبه الرخام، ويرصفون به الجوامع والمنازل بدلا من الرخام. وهم ٦٠٠ عامل.

- **صانعو الأخشاب:** لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٥٠٠.

- **صانعو النعوش:** لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٣٠.

- **صانعو المحفات:**

وهم يصنعون المحفات والتختروانات للحجاج لهم (   )[1] دكانا، يعمل بها ١٦٠.

---

(١) بياض فى الأصل.

- صانعو الأسِرّة:

وهم يصنعـون الأسِرّة من جريد النخل، ويصـنعون أقفاص السكر. دكـاكينهم ٥٠ يعمل بها ٨٠.

- الخراطون: لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠.

- النجارون:

لهم فـى الدرب الأحمر ٨ دكاكيـن، يعمل بها ٢٠ نجـارا. ويظهرون مهارتـهم فى الترصيع بالصدف الهندى.

- صانعو فتائل قذائف البنادق:

لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- الرسامون:

لا دكاكين لـهم، يعملون فى البـيوت والمنازل التى تحت الإنـشاء، وعددهم ٧٠٠، منهم نقاشون فـى براعة «مانى» و«بهزاد»[1]. ويعجز الرسامـون فى البلاد الأخرى عن بلوغ مستوى مهارتهم.

- صانعو الصناديق: لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٨٠.

- صانعو الطنابير: لهم ٩ دكاكين، يعمل بها ٢٠.

وهؤلاء الذين سـلف ذكرهم فى الفـصل الخامس ٢٤ طائفـة، وعددهم ١٥٤٦ من صفوة الجند، وكلهم يتبعون أغا المعمار.

وقد مروا جـميعا فى مجـموعات حسـب حرفـهم متمارحـين، عارضين سلـعهم، حاملين مئات الآلاف من الـشموع الكافورية، وقد ارتفعت أصواتهم بـالغناء كأنهم فى حفل عرس، ثم مرّ رئيس المعماريين وكبير الرسامـين جنبا إلى جنب وفى معيتهم فتيان يعزفون الموسيقى.

---

(١) بهزاد: من أهل مدينة هراة عاش فى القرن الخامـس عشر الميلادى (أعظم وأشهر مصور ورسام فى العصر الصـفوى)، وقد شبهه المؤرخون بمانى ـ رسـام فارسى ـ الذى جعل من التصـوير معجزة، ومانى أحد أنبيـاء الفرس المزعومين قبل الإسلام. انظـر: المعجم الفارسى العربى الجـامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص٦٢، ٣٩٠. وكذلك مادة «منو» من شرح القاموس للزبيدى.

(الفصل السادس)

طوائف نجارى السفن

لأن أباهم الروحى نوح عليه السلام لا يتبعون موكب المعماريين، ويشكلون موكبا يترأسه كتخدا[1] القبطان.

- **نجارو المراكب:**

لا دكاكين لهم، لهم تكايا تابعة للترسخانه (دار صناعة السفن)، وهم ٨٦٠.

- **القائمون على إصلاح السفن:** عددهم ٥٠٠.
- **صانعو المضخات:** لهم دكانان، يعمل بهما ١٠ صناع.
- **بائعو القار:** لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ١٥.
- **فتالو الكتان المقطرن:** لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ٠.
- **فتالو الحبال:**

لا دكاكين لهم، وهم ١٥٠، ويفتلون حبال أربع وسبعين ألف بذر من نبات الحلفا.

- **صانعو شراع السفينة:** لهم ٣ دكاكين، ويعمل بها ٣٠.

وهذه الطوائف كلها فى مدينة بولاق. وقد مضوا مدججين بالسلاح وزينوا قواربهم الصغيرة بالأعلام ووضعوها فوق مركبات وجروها داخل مدينة القاهرة صائحين «يا مولا يا مولا»، رافعين أعلامهم وعبر كبير صناع المراكب وفى معيته ثمانين فتى فى أبهى حلة وسط عزف الموسيقى العسكرية. وهم الطائفة الوحيدة التى حملت الأعلام.

(الفصل السابع)

طوائف الخبازين وتجار الغلال

فى مصر أم الدنيا ٧٠ دكانا للخبازين، وإذا قيل إنها تكفى أبناء النيل وهم بحر من البشر فذلك لأن فى كل قصر من قصور الأعيان والأثرياء فرن خاص، كما أنه فى كل

---

(١) الكتخدا: الوكيل أو النائب، كان من كبار رجال الدولة العثمانية، ولهم من ينوب عنهم فى أعمالهم ويعاونهم، ويطلق عليهم «كتخدا». انظر: معجم الدولة العثمانية ص١١٢.

بيت من بيوت الفقراء تنور صغير. وكل إنسان يخبز خبزه فى بيته ويبيع الصبية والفتيان والنساء الخبز على محفات فى كل ركن من أركان السوق السلطانية.

لذا فإن هذه الأفران السبعين تكفى أهل القاهرة، وجملة من يعملون بها ٦٠٠ خباز. وهم يستخدمون روث الخيل الجاف وقودا فى جميع هذه الأفران. وهذا فى المذهب الشافعى نجس حرام، إلا أنهم يضطرون إلى استخدامه لندرة الحطب.

وثمة طوائف أخرى للخبازين وهم صانعو الفطائر وغيرها من المخبوزات مثل السميط والقطائف والغرايبة والبقسماط والرقاق والشعرية وخبز البلح أى فطائر البلح. ويبلغ عدد هذه الحرف خمسة عشر حرفة، لهم ٢٥٠ دكانا. وهم لا يستخدمون روث الخيل فى خبز الفطائر، وإنما يستخدمون أعواد الفول الجافة وقشر الحمص ونشارة الخشب وما شابه. ويعمل فى هذه الأفران ما يقرب من ٢٠٠٠ خبار.

- **طائفة صانعى النشاء:** لهم ١١ معملا، يعمل بها ١٥٠.
- **صناع الملح:** لهم ١٢٠ مخزنا.
- **حرفة من يعملون فى ملح النطرون:**

لهم مخازن مكتظة بملح النطرون، ولا شئ فى مصر أكثر من الملح والبصل ويعمل بهذه الحرفة (   )[1]، وهم واسعو الثراء.

- **طوائف العاملين فى طواحين الخيل:**

لهم ٢١٦٠ طاحونه نصفها يتبع المحتسب وما سواها فى حماية الفرق والأغوات إلا أنهم يشتركون فى الموكب وعددهم ٣١٦٠ عاملا، ويشتغلون فى طواحين الخيل، إنها طواحين عجيبة يديرها جواد أو ثور. وفضلا عن هذه الطواحين يوجد طاحونة فى كل قصر. ولأنى لم أسأل عنها المحتسب فعلمها ليس عندى.

- **طوائف تجار الغلال:**

لهم ٣٠٠٠ مخزن فى بولاق ومصر العتيقة والقاهرة، وهم تجار أثرياء، وعددهم ٣٣٠٠ تاجر، وصورهم وأسماؤهم مقيدة فى سجلات أمين الأنبار، ونظارها حتى إذا مست الحاجة إلى الغلال طلبت منهم.

---

(١) بياض فى الأصل.

والأب الروحى لـلخبازيـن هو «عمر بـن عمران البـربرى»، الذى نال الإجـارة من سلمان الفارسى رضى الـله عنه فى مجلس الرسول ﷺ ، ومات فى السابـعة والثمانين من سنيه، ودفن فى البقيع إلى جوار العباس رضى الله عنه.

وقد مضى هؤلاء الخبازين مدججين بالسلاح، ووزعوا الحلوى والفطائر المختلفة على الناس، ونثروا علـيهم كذلك القطائف وسبـح البقسماط والرغفان الكـبيرة والمضفورة، وهم يتمـارحون ويتضاحكون، ومـر كبير الخبازين وبجـانبه كبير الأعيـان، وفى أثرهم غلمان صِباح مدججون بالسلاح، وعبروا على نغمات الموسيقى العسكرية.

(الفصل الثامن)

طوائـف القصابيـن

لهم ٦٠٠ دكـان، يعمل بهـا ١٨٠٠ قصاب. أبوهـم الروحى «جوهر الـقصاب»، وهذا هو اللقب الذى عرف به نصر القصاب، الذى كان يكنى بأبى عقيل، وهو مدفون فى بغداد.

ويذبح فى القاهرة يوميا ٢٢٠٠ من الغنم.

- طائفة العاملين «بالسلخانة» أى المذبح:

إنه مذبح حكومى يـقع خارج باب الفتوح، تذبح فيه كل مـا فى القاهرة من خراف وعجول وماعز وجِمـال وجاموس. ويرأسه أمين وانكشارى جـورباجى، وإذا ما ذبحت الأغنام فى مكان آخـر غرم ذابحها. ويعمل فى هذا المذبح ٢٠٠ جـزار انعدم النور من وجوههم، وكل ما فى هـذا المذبح من ذبائح فجلودها للدولة، وهـذا ما يلتزم به فلاح يسمى «على الجلاد».

- طائفة قصابى العجل:

لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠ قصاب، يبيعون كذلك لحم الجِمال.

- القصابون اليهود:

لهم عشرون دكانا، ويعـمل بها ٣٠ قصابا،ولا يشترى منهم أحد. ولحـمهم يبيعونه لذويهم من اليهود.

- **حرف اللبانين:** أى صانعى الماست[1]، لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- **حرف لبانى الماعز:**

وهم ٣٠٠، يسيرون فى الأسواق بقطعان الماعز، ويبيعون لبنها.

وإذا ما أراد أحد شراء أوقية من لبن الماعز حلبوا له الماعزة فى علبة، ويبيعون الأوقية بـ «سكة»[2]، وإذا ما زاد اللبن المحلوب عن أوقية صبوه مرة أخرى فى فم العنزة وهم يطوفون فى الأسواق والحارات بعنزاتهم وهم ينادون قائلين «يا صباح اللبن».

- **صانعو الجبن الحالوم:**

لهم ٢٨٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وأشهر هذه الدكاكين دكان فى بولاق يسمى «ميت أوغى»، يمتلكه ويديره رجل عربى يبيع صنوفا من الجبن لا وجود لها فى بلد آخر ومذاق جبنه اللذيذ لا وجود له فى «مريشة» دمشق الشريفة.

إنه جبن سريع الهضم. أما صانعو الجبن من اليهود فهم يختلفون، ولا أعرف لهم عددا.

- **طائفة بائعى الأكارع:**

لهم (   )[3] دكانا، يعمل بها ١٢٠، وهم زملاء للقصابين.

- **بائعو الكبد:**

يبيعونها مطبوخة أو نيئًا، لا دكاكين لهم، ويبيعونها فى زنابيل أو على محفة. وهم ٢٠٠ بائع.

- **بائعو الكرش:**

لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٢٠، وهم كذلك زملاء للقصابين، إلا أنهم لا يتبعون الطهاة.

- **طائفة بائعى الشمع:** لهم ٤٠ معملا، وهم ٣٠٠.

وهذه الطوائف العشر سالفة الذكر حملت كامل أسلحتها، وزين القصابون أغنامهم السمينة بحبل من الديباج المزركش، وعلقوا فى أحزمتهم الخناجر المرصعة بالجواهر وذهبوا قرون خمسة من خرافهم وسحبوها بسلاسل من فضة، ومروا قاصدين المذبح،

(١) الماست: اللبن الزبادى. (٢) السكة: عملة متداولة. (٣) بياض فى الأصل.

ومر كبير القصابين وسط فتيان مدججين بالسلاح وسط عزف الموسيقى العسكرية، وكان موكبهم غاية جمال الزينة.

(الفصل التاسع)

طوائف الطهاة

لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١١٠٠، وأبوهم الروحى «إبراهيم عليه السلام»، وهم فى حمى كبير طهاة قصر الباشا وهو حاكمهم، وفى يده تعيينهم وفصلهم وتدبير شئونهم. وليس للمحتسب أغا سلطان عليهم. وفى هذا الموكب مر نائب كبير طهاة قصر الباشا جنبا إلى جنب مع رئيس طهاة المدينة.

- **بائعو الكباب:** لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٢٥٠.
- **بائعو اليخنى:** لهم ١٠٠ دكان وهم ٣٠٠.
- **بائعو الأرز باللبن والفالوذج:** لهم (   )[1] دكانا، وهم ٧٠.
- **بائعو الخضر:**

وهم يبيعون السبانخ والملوخية والبامية والبقول والقلقاس والقرنبيط والزعتر والفجل والجرجير والعجور والقثاء والخيار. لهم ٢٠٠ دكان وهم ٢٥٠.

- **بائعو الحلو:** لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

وصنوف الحلوى والزلابيا التى تصنع فى مصر لا وجود لها فى بلدٍ آخر غيرها. والأب الروحى لهذه الطائفة هو «سيدنا عمر» رضى الله عنه.

- **بائعو السكر:**

لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٠٠، ولهم ٠ معملا للسكر، يعمل بها ٣٠٠ ويصنعون السكر فى الوقت الذى تعينه لهم الحكومة، ويرسله الباشا إلى الأستانة.

- **طهاة السمك:** لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٠٠.
- **طائفة صيادى السمك:** وهم ٦٠٠ صياد يتبعون الحكومة.

---

(١) بياض فى الأصل.

وقد مر هؤلاء من أصحاب الحرف، وهم يعرضون سلعهم، ويتبادلون الفكاهات ومر رئيس طهاة المدينة جنبا إلى جنب مع نائب كبير طهاة القصر، والموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل العاشر)

طوائف البقالين وبائعى الصابون وبائعى الحمص

أبوهم الروحى هو «عزى بن نباش»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وتوفى وله من العمر مائة وعشرون عاما، ودفن فى القدس على مقربة من «عين السلوان».

ولهؤلاء جميعًا ١٠٦٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠٠.

وقد ارتدوا الملابس الفاخرة ومضوا فى موكبهم يتبادلون الفكاهات، ومر كبير البقالين جنبا إلى جنب مع وكيل السوق، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الحادى عشر)

طائفة الجراحين

لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠ جراحا، وأبوهم الروحى هو أبو عبيدة القصاب الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، ودفن فى الإحساء.

- طائفة الحكماء (الأطباء):

لهم ١٩ دكانا، وهم ٤٠، وأبوهم الروحى هو «لقمان» عليه السلام، وفى العصر الإسلامى «ذو النون المصرى» الذى نال الإجازة من علّى كرم الله وجهه.

- طائفة صانعى المعاجين الطبية:

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٢٢٠ «هاشمى»، وهم يستخدمون معجون الحشيش على نطاق واسع.

- طائفة صانعى الأدوية:

وهم يستخرجون سائر الزعتر والنعناع ولسان الثور والهندباء وما إلى ذلك من الأعشاب، وهؤلاء جميعا لا دكاكين لهم، ولكنهم يعملون فى منازلهم، وهم ٧٠ شخصا.

والطوائف السالف ذكرها يبلغ عدد أفرادها ٣٦٠، وهم من العسكر، وقد مروا مدججين بالسلاح، ومعهم كبير الأطباء وكبير الجراحين، والموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الثانى عشر)

طائفة صانعى السيوف

لهم ١٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.

- **طائفة صانعى نصال الرماح:** لهم ٣٠ دكانا، ويعمل بها ٦٥.
- **طائفة صانعى السكاكين:** لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٢٦٠.
- **طائفة صانعى أربطة السروج:** لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.
- **طائفة صانعى البنادق:** لهم ١٠ دكاكين وهم ١٨.
- **طائفة صانعى البارود:**

دكاكينهم ١٠ تقع عند باب الحديد، يعمل بها ١٨. وأبوهم الروحى «جمشيد»، وهم يتبعون رئيس الأسلحة.

- **طائفة صانعى الفتائل:**

لهم ٦ دكاكين، ويعمل بها ١١، علاوة على ٢٠٠٠ من الزنوج يفتلون فتائل البنادق من الكتان.

وقد مضى هؤلاء كذلك كل منهم يحمل فى يده قنديلا أو أكثر، وعلى أكتافهم فتائل محترقة، وهم يتبادلون الفكاهات بلغتهم.

وهؤلاء المذكورون آنفا عددهم ٢٣٥٢، وقد مروا وهم يطلقون بنادقهم ويعرضون سلعهم، ثم مر بعد ذلك كبير صانعى السيوف وكبير صانعى البنادق جنبا إلى جنب وفرقة الموسيقى العسكرية تصدح.

(الفصل الثالث عشر)

طوائف الحدادين

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٨٠٠، وأبوهم الروحى «داود عليه السلام»، أما أبوهم الروحى فى العصر الإسلامى فهو «أبو زيد مسلم»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وقبره فى صنعاء.

- **طوائف صانعى النعال:** لهم (   )[1] دكانا، وعددهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى المسامير:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ١٢٠.
- **صانعو المبرد:** لهم ٦ دكاكين أسفل تكية الكلشنى، ويعمل بها ١٠ من الصناع.
- **طائفة صانعى الأزميل:** لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٢٠ صانعا.
- **طائفة صانعى المنشار:**

يصنعون نوعا خاصا من المنشار يختلف عن غيره، دكاكينهم ٦، يعمل بها ٢٠ .

- **طائفة الفحامين:**

دكاكينهم ٥٠ بالقرب من البندقانى والنظامية وبعض الجهات الأخرى، ويعمل بها ٦٠ .

- **طائفة صانعى الأقفال:** دكاكينهم ١٠، يعمل بها ١٥ .
- **طائفة صانعى الخطاف:** دكاكينهم ٥٠، وهم ١٨٠ .
- **طائفة صانعى الركاب:** دكاكينهم ٤٠، وهم ١٥٠ .
- **طائفة صانعى المقص:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى حدوة الأحذية:** دكاكينهم ١٠، وهم ١٥ .
- **طائفة بائعى الحديد:** لهم ١٥ مخزنا، وهم ٢٠ .
- **طائفة بائعى الأشياء القديمة:**

دكاكينهم ٦٠ عند الشيخونية، وميدان الروملى وجهات أخرى، وعددهم ٨٠ .

- **طوائف صانعى حدوة الخيل:** دكاكينهم ٨٠، وهم ٢٠٠.
- **طائفة صانعى حدوة الحُمُر:**

دكاكينهم ٢٠٠، وهم ٣٠٠، ولكثرة الحُمُر فى القاهرة فصناعو حدوتهم كثير.

وهذه الطوائف الخمس عشرة عدد أفرادها ٢٠٠٣، وقد حملوا كامل أسلحتهم وعرضوا سلعهم على بسط، وسار كبير الحدادين جنبا إلى جنب مع رئيس صناع الحدوة وسط جماعة من الفتيان الصِباح المدججين بالسلاح.

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الرابع عشر)

طوائف صانعى المراجل

أبوهم الروحى هو «أبو حبيب محيى الدين البخارى»، دكاكينهم ٦٥، وعددهم ٦٠٠ إلا أنه ليست لهم مهارة صناع الترك.

- طائفة من يطلون النحاس:

دكاكينهم ٣، وهم ٤٠، يطلون قدور النحاس القديمة والتى علاها الصدأ.

- طائفة التجار:

لهم ١١٥ حانوتا فى خان الخليل، والصالحية وبالقرب من قلاوون، وهم ٢١٥ من أثرياء التجار، وفى كل دكان للواحد منهم أوانٍ من النحاس يصل ثمنها خمسة أو عشرة آلاف قرش، ولديهم مراجل المبرات، وقدور الكاشف، وليس لديهم المقدرة على تصنيعها فى مصر، فتأتى من بلاد الترك فى السفن.

- طائفة ميضى النحاس: لهم ١٥٠ دكانا، وعددهم ٣٠٠.

- طائفة من يصهرون المعادن:

إنهم صناع مهرة من عجائب الزمان، ويصنعون قضبان النوافذ وأبواب جميع الجوامع والمبرات، والأسبلة، ولا وجود لنظرائهم فى أى بلد آخر. دكاكينهم ٧٠، وعددهم ٥٠٠.

وعدد أفراد هذه الطوائف الخمس ١٠٦٥، وقد حملوا كامل أسلحتهم، وحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، ومضى كبير صانعى المراجل وكبير من يصهرون المعادن جنبا إلى جنب مع فرقتهم الموسيقية.

(الفصل الخامس عشر)

طوائف الصاغة

أبوهم الروحى «نصر بن عبد الله الصائغ»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه. دكاكينهم ٥٠٠، وهم ٢٠٠٠ معظمهم من النصارى. ومنهم صناع بلغت مهارتهم غاية الغايات.

- **طائفة الجوهريين:** دكاكينهم ١٠، وهم ٢٠.
- **طائفة الساعاتية:** أبوهم الروحى يوسف الصديق، لهم ٥ دكاكين، وهم ١٢.
- **رئيس طائفة ضاربى العملة:**

يعمل فى دار الضرب، وتنحصر فيه رئاسة هذه الطائفة، وليس فى الإمكان أن يوجد غيره يشغل هذا المنصب وهو لا يقترب من أحد ولا يختلط بأحد.

- **رئاسة صانعى الدمغة:** وهى تنحصر فى شخص واحد.
- **طائفة كانسى البرادة:**

يكنسون دكاكين الصاغة والجوهريين، ويستخرجون دقائق الفضة من كناستها.

- **طائفة العاملين فى دار الضرب:**

وهم ٣٠٠، ولهم أمين أغا، وناظر أغا، وصاحب عيار أغا، وأغا للوزانين ورئيس للصيارفة.

- **طائفة صيارفة الأسواق:**

لهم ٢٠٠ دكان، وعددهم ٣٥٠، نصفهم موظفون فى ديوان مصر، وهم يحصون الأموال الواردة من الملتزمين فى الديوان.

- **طائفة صاهرى المعادن:** لهم ٣ دكاكين، وهم ٢٠.
- **طائفة الرسامين:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.
- **طائفة النحاتين:** لهم ٤٠ دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى الأختام:** دكاكينهم ٣، يعمل بها ٣ أشخاص.

- **طائفة نساجى الصيرْمة:**

دكاكينهم ٦، يعمل بها ١٢ نساجا، وهم ينسجون صرمة الكسوة الشريفة.

- **طائفة صانعى المحابر النحاسية:**

لهم دكان واحد يديره رجل بارع يسمى «أمير جلبى»، لا نظير له فى صنعته، وكان قد اشترى عدة أزواج من الغنم من الكعبة الشريفة، فكانت تلد له فى كل مرة زوجا من الغنم، لذا تنتشر غنم مكة فى القاهرة الآن.

- **طائفة صانعى أوعية القصدير:**

لهم ٨ دكاكين، يعمل بها ١٨، وهم جميعا من اليهود والنصارى، والمسلمين فيهم قليل.

(الفصل السادس عشر)

طائفة الحلاجين

أبوهم الروحى «منصور زاهد القطان»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، ومثواه فى مدينة «الرى»، وهو غير «منصور الحلاج» الذى صلب فى بغداد.

وللحلاجين ١٥٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- **طائفة صانعى أغطية الرأس:** دكاكينهم ٤٠، يعمل بها ٦٠.
- **طائفة صانعى أغطية رأس النساء:** لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ١٠٠.
- **طائفة صانعى الطراطير:** لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٣٠٠.
- **طائفة صانعى اللحف:** لهم ٥٠ دكانا، يعمل بها ١٦٠.
- **طائفة صانعى القمصان:** لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٦٠.
- **طائفة الرفائين:**

وهم يرفون الثياب التى عابها ثقب فيها فلا يظهر فيها أثر لرقعة، ولهذه الطائفة ١٢ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- **طائفة مرقعى الثياب:**

أبوهم الروحى «عمار بن ياسر»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، ودكاكين هذه الطائفة ٤٠، وعدد أفرادها ٣٠٠.

- **طائفة صانعى الخيوط:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- **طائفة الغزالين:**

أبوهم الروحى «عبد الله بن جعفر الطيار»، لهم ٣٠٠ دكان، وهم ١٦٠٠.

- **طائفة صانعى الأزرار:** لهم ٤٠دكانا، وهم ١٥٠ أغلبهم من اليهود.

- **طائفة صانعى الحرير:** لهم ١٠٠ دكان فى سوق الغورى، وهم ١٥٠.

وهذه الطوائف الأربعة عشر عدد أفرادها ٦٠٤٦، مر فتيانهم الصباح مدججين بالسلاح، ومر رئيس حاكة قصر الباشا مع «الشهر حواله» وهما يركبان جوادين ويسيران جنبا إلى جنب، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل السابع عشر)

طوائف الخيامية

أبوهم الروحى ناصر بن عبد الله المكى الحيان، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وقبره فى بغداد إلى جوار الإمام الحسين.

ولهذه الطائفة ١٠٠دكان، ويعمل بها ٦٠٠ عامل غاية فى المهارة. وإن كانت خيامهم لا تبلغ فى جودتها وروعتها جودة وروعة خيام حلب واسطنبول. وهم يصنعون خياما ومظلات جيدة لا بأس بها.

- **طائفة صانعى الأحزمة:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- **طائفة صانعى حبال الخيام:** ليست لهم دكاكين، وإنما يعملون فى العراء، وهم ٣٠٠.

- **طائفة صانعى الحبال الغلاظ:**

وهم كذلك يعملون فى العراء، وعددهم ١٥٠٠. إنهم فقراء.

- **طائفة رفائى حواشى الخيام:** لهم ٣ دكاكين، وهم ٦ أشخاص.

- **طائفة (مطافان):**

وهم مثل صانعى الأرائك الخاصة بالخيام، ولذا فهم زملاء للخيامية مثل صانعى أحزمة الخيام. ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٦٠٠.

- طائفة الغسالين:

دكاكينهم ٨٠، يعمل بها ٢٠٠ غسال، وهم يغسلون الثياب، ولأنهم يغسلون الخيام يشتركون فى موكب الخيامية.

وهذه الطوائف الست عدد أفرادها ٣٢٥٦، وقد مضوا مرتدين ملابسا عسكرية، متبادلين الفكاهات، ومر كبير صناعى الخيام والفرقة العسكرية تعزف.

(الفصل الثامن عشر)

طائفة صانعى السهام والقسى

أبوهم الروحى أبو محمد بن عمران القواس، ولأنه - رضى الله عنه - كان يحمل السهم والقسى سمى بالقواس، وكان يصنعهما. أما سعد بن أبى وقاص فكان يرمى بالسهام وهو الأب الروحى للرماة بالسهام. ومن بعد أصبح الأب الروحى لصانعى القسى محمد الأكبر بن أبى بكر الصديق، وهو مدفون فى مصر فى رملة زين العابدين.

ولا بد لصانعى القسى والسهام من دكان يعملون فيه، ولهم ٤٨ دكانا، يعمل بها ١٦٠.

- طائفة الرماة:

لا دكاكين لهم، لأنهم أبطال ليس إلا، وقد نزلت فى شأنهم آية شريفة هى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وعددهم ٨٠٠ بطل.

- طائفة صائدى الطيور:

وهم فى زمرة صانعى السهام، وعددهم ٦٠٠، يصيدون الطيور ويحضرون أجنحتها وريشها لصانعى السهام، ولذلك فإن عدد الطيور فى مصر قليل.

- طائفة صانعى المراوح: دكاكينهم ١٢، وهم ٢٦.

- طائفة مربى الطيور: لهم ٦ دكاكين، وهم ١٢.

- طائفة بائعى الدجاج: لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها ١٦٢٩، وقد مضى منهم مائة مدججين بالسلاح ومائة آخرون حاملين المطارق ومروا مع كبير صانعى السهام والقسى، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل التاسع عشر)

طائفة الفرائين

وهؤلاء لا يتبعون أحدًا اعتماداً على قوتهم وعلى قوة رئيس فرائى الباشا. وأبوهم الروحى هو شنك شاه. وهو أول من لبس الفرو على أنه درع، وبقى ذلك عنه فاستحسنه الناس وبدأوا يلبسون الريش، والآن فى بلاد داغستان وبالوخان وقازان، وتتارستان يلبسون الريش.

وللفرائين فى مصر ٢٠٠ دكان، ويعمل بها ٨٠٠، لأن الفلاحين يكثرون من لبس فراء الغنم.

- **طائفة صانعى قلانس الفرو:** لهم ٦ دكاكين، وهم ١٦.
- **طائفة صيادى الحيوانات:** عددهم ٦٠٠.

وهذه الطوائف الثلاث يبلغ عدد أفرادها (   )[1]، ومضوا يحملون كامل أسلحتهم وعليهم فراء الأسد والنمر والببر والذئب، ومروا مثنى مثنى يجرون السلاسل، وألقوها على الناس الذين اصطفوا لمشاهدة موكبهم فتفرق الناس ثم مر كبير فرائى قصر الباشا وكبير فرائى المدينة وسط عزف الموسيقى العسكرية.

(الفصل العشرون)

طائفة نساجى كسوة الكعبة الشريفة

وهم يعملون فى جوسق يوسف. عددهم ٣٠٠، وعلى الرغم من أن عيونهم غائرة إلا أن صناعتهم فوق قدرة البشر وكأنها سحر إعجاز.

ويصبغ حريرهم طائفة الصباغين.

- **طائفة الصباغين:** لهم ١٧ معملا حكوميا، ويعمل فيها ٣٠٠.
- **طائفة صباغى القماش:** دكاكينهم ٣٠، وعددهم ٥٥.
- **طائفة نساجى البَزّ:** أى من ينسجون البز الملون. لهم ٤٠ دكانا، وهم ١٨٠.
- **طائفة البزازين:** لهم ٢٠٠ دكان، وعددهم ٣٢٠.

(١) بياض فى الأصل.

- **طائفة صانعى القمصان:** سبق الحديث عن هذه الطائفة.

- **طائفة الجلاة:**

أبوهم الروحى شيث بن آدم عليه السلام. لهم ١٨٠٠ دكان، وهم ٣٠٠.

وكثرة أفراد هذه الطائفة مما تختص به مدينة القاهرة، أما عدد من يعملون فى منازلهم الله أعلم بعددهم.

- **طائفة نساجى البسط:**

لهم عشرون ٢٠ مصنعا، وهم ٣٠٠ من مهرة الصناع الذين ينسجون بسطا من الحرير تبهر عين من يراها وتصيبه بالوله.

- **طائفة نساجى الأطلس والمخمل:** لهم ١٠٠ مصنع، وهم ٦٠٠ نساج ماهر.

وهذه الطوائف العشر عددها ( )[1]، مضوا وهم يعرضون سلعتهم وفى معيتهم ناظر الكسوة، وأمين طائفة نساجى الحرير متحازين، وفى أثرهم غلمان صِباح وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الحادى والعشرون)

طائفة الدباغين

أبوهم الروحى «زيد الهندى»، وهو راوية للحديث، ونال الأجازة من سلمان الفارسى بين يدى على كرم الله وجهه، وقبره فى مكة.

ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٣٠٠ من مهرة الصناع.

- **طائفة صانعى الرقوق:** لهم ٦ دكاكين، وهم ٢٠.

- **طائفة صناعى اللباد:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- **طائفة بائعى الجلود:** لهم ٦ دكاكين، وهم ٩.

ويبلغ عدد أفراد طوائف الدباغين ( )[2]، وقد مضوا يلبسون القلنسوة والقباء من الفرو قارعين طبولهم.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

(الفصل الثانى والعشرون)

طوائف الخفافين - أى الإسكافية.

دكاكينهم قليلة، لكنهم كثيرون فى الوكالات. لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٥٥٠٠.

- **طائفة صانعى الخف الشركسى:** لهم ٧٠ دكانا، وهم ٢٠٠.
- **طائفة صانعى الجوارب:** لهم مائة دكان، وهم ٨٠٠.
- **طائفة صانعى الخفاف التى تلبس فى المنزل:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى الأحذية طويلة الساق:**

لهم (   )[١] دكانا، وهم ١٥٠، وهؤلاء يختصون بتصنيع هذا النوع من الأحذية لبيعه لرجال الباشا وضيوفه. فالمصريون لا يلبسون ذلك النوع من الأحذية بل يلبسون الخفاف الشركسية الحمراء.

- **طائفة بائعى الأشياء القديمة:**

علاوة على دكاكينهم عند أبواب الحمامات لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١٢٠٠.

ومن يسرقون الخفاف من المساجد وغيرها يبيعونها لهم.

- **طائفة بائعى الخفاف الحاضرة:**

لهم ٣٠٠ دكان نظيف بالقرب من باب الحديد، وفى خان الخليلى، وهم ٦٥٠.

والأب الروحى لصانعى الخفاف وتجارها «محمد الأكبر اليمنى»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، وعمر مائة وعشرين عاما، وقبره فى البصرة.

وعدد أفراد هذه الطوائف السبع (   )[٢]، وقد مضى صفوتهم مدججين بالسلاح وفى معيتهم كبير الخفافين، وهم قارعين الطبول متبادلين الفكاهات.

(الفصل الثالث والعشرون)

طوائف السراجين

أبوهم الروحى أبو النصر حاتم البغدادى، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه. لهذه الطائفة ٦٠٠ دكان، وعددهم ١٠٦٠ من الأثرياء الأتقياء.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- **طائفة صانعو السروج:** وهم يصنعون السروج من الخشب، لهم ٢٠ دكانا، وهم ٥٥.
- **طائفة صانعى سروج الحُمُر:** لهم عشرون دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى القرب:**

لهم ١٠٠ دكان وهم ٦٠٠. وجميع الحجاج فى حاجـة إليهم، فهم يقومون بأعظم الأعمال، وبعضهم من المتصوفة.

- **طائفة صانعى السلال والصناديق:** دكاكينهم ٤٠، ويعمل بها ١٥٠.
- **طائفة صانعى الإكاف:**

أبوهم الروحى «أبو ذر الغفارى»، لهم ٨٥ دكانا، وهم ٣٠٠.

وهذه الطوائف الخمس عدد أفرادها (   )[1]، مضوا حاملين كامل أسلحتهم وفى أيديهم شمـوع الكافور ووجوهم تشع نورا واجتـمعوا فى مكان فكأنهـم الشمس بددت ظلام الليل، ومروا قارعين الطبول.

(الفصل الرابع والعشرون)

طائفة العطارين

أبوهم الروحى حسام بن عبد الله البصرى، أخذ الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه بين يدى الرسول ﷺ، وتتبع طائـفة العطارين عدة مئات من الطوائف الأخرى لأن كل شئ لدى هؤلاء العطارين، ولهم ١٢٠٠ دكان، يعمل بها ١٨٠٠ شخص.

- **طائفة سوق الفحامين:**

يبيعون الأعشاب الطبية والأدوية، لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ١٥٠ معلما كلهم أطباء.

- **دكاكين شمع العسل:** لهم (   )[2] دكانا، يعمل بها ٨٢.
- **طائفة بائعى المسك:** لهم ١٠ دكاكين، وهم ١٥.
- **طائفة بائعى الصابون المسك:** لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١٢.
- **طائفة بائعى العود والعنبر:** لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٢٠.
- **طائفة بائعى ماء الورد:** لهم ٤٠ دكانا يعمل بها ١٠٠.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة بائعى البخور:

يصغنون البخور لمكة والمدينة. لهم ٢٠ دكانا، وهم كذلك ٢٠ شخصا.

- طائفة بائعى الفناجين: لهم (   )[١] دكانا يعمل بها ٥٠ شخصا.

- طائفة بائعى أوعية الفخار للعطارين:

لهم ٢٠٠ دكان يعمل بـها ٢٠٠. يتوفر لديهم أوعية فخاريـة وأكواب يتسع الواحد منها لرجل، وهم من أهل التقوى والصلاح.

- طائفة بائعى الكبريت:

لا دكاكين لهم يعملون بها لأن رائحة الكبريت كريهة، لذا فهم يعملون فى منازلهم وعددهم ٢٠٠.

- طائفة صانعى القذائف النارية:

٨ دكاكيـن، وهم يصنعون مـختلف أنواع القـذائف النارية بـآلاف الحيل الشيطـانية ودكاكيـنهم عند باب الحـديد. وفى عهد إبراهـيم باشا فى يوم الـعيد اتفق أنهـم باعوا القذائف للصـبيان كالمجانين وفى الحال أشعـل أحد الغلمان قذيفة انطـلقت داخل أحد دكاكيـنهم ففجرت عـدة آلاف من القذائف النـارية وعدة قناطـير من البارود فتـطايرت دكاكينهم فى الـهواء وسط الطريق العام الذى كان يغص بالمـارة، وشوت القذائف أكثر من أربعين شخصا من بينهم كبير هذه الطائفة، وجرح مائتان.

إنها حرفة ملعونة إلى هذا الحد البعيد، ومع ذلك ففى موكب العطارين أطلقوا آلاف القذائف الناريـة على الأماكن القديمة التى لا يـسكنها إلا العناكب ولم يـنتج عنها أى حريق بإذن الله، ولو كانت هـذه النار فى اسطنبول[٢] لضاعت هباء والعياذ بالله. لقد حفظ الله مصر.

- طائفة صانعى النارجيلة:

لهم ٣ مصانع يعمل بها ٣٠٠، وكثير من الناس يدخنون النارجيلة.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) كانت اسطنبول فى ذلك الوقت معظم مبانيها من الخشب، لذا فهى بلد كثيرة الحرائق.

- **طائفة بائعى الحناء:** ٣٠٠ تاجر، مخازنهم فى الوكالات.

- **صانعو الحصير:**

لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠ ينسجون شتى أنواع الحصير المنقوش الذى يبلغ غاية الغايات فى جماله وجودته. ومن عجب أن منهم العميان، وأعجب من ذلك أن هؤلاء العميان يصنعون المراوح من سعف النخيل ويشكلون عليها عبارات مثل: «يا شافى، يا كافى، وشفاء القلوب»، وما يجرى هذا المجرى.

- **نساجو الكتان:** لهم ٢٠٠ دكان يعمل بها ٢٥٠ نساجا.

- **طائفة تجار البُن:**

٦٠٠ من التجار الأثرياء، إلا أنهم أرسلوا خدامهم إلى هذا الموكب ومروا ناثرين البُن على حشود الناس.

- **طائفة تجار الأرز:**

وهم كذلك من ثراة التجار، وقد سلحوا خدامهم وأرسلوهم إلى الموكب، وهم ١٥٠٠ تاجر بالتمام.

- **صانعو المصائد أو الشرك:** لهم ٣٠٠ دكان يعمل بها ٥٠٠.

- **طائفة ناسجى شباك السمك:**

لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١ نساجا.

وموكب العطارين كان يتألف من (   )[1] شخص ولموكبهم مهابة وما فيه من عظمة وأبهة لم يكن لأى موكب آخر. وما فى موكبهم من زينة وفتيان صباح لا وجود له فى طائفة غيرهم، ومر كبير العطارين وفى معيته فرقة الموسيقى العسكرية رباعا رباعا وهم يعزفون وغلمانهم يرفعون أصواتهم بالهتاف والتهليل على نحو يعجز عنه.

---

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الخامس والعشرون)

طائفة الحمامية

لهم ٥٥ حماما، والحمامية كذلك ٥٥. وأبوهم الروحى «حسن بن عثمان».

- **طائفة المنادين:** إنهم ١٢٠٠.
- **طائفة النواطير:** إنهم ١٠٠٠، أبوهم الروحى «المنصور بن القاسم».
- **طائفة صانعى العمائم:**

لهم دكان فى أعلى القلعة، وهم ٣ من البكم يصنعون العمائم المعروفة بالمجوزة والبريشانى والقلاوى لأعضاء الديوان.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها (   )[1]، وقد ارتدوا الملابس العسكرية وأصبحوا فى كامل زينتهم حاملين كامل أسلحتهم ومضوا على تلك الهيئة ومن خلفهم صبيانهم قارعين الطبول.

(الفصل السادس والعشرون)

طائفة نقاشى القسى

يعملون فى بيوتهم، وكل منهم فى فنه بهزاد ومانى.

- **طائفة المذهبين بصحائف الذهب:** أى دكاكين صحائف الذهب وهى ٣ يعمل بها ١١.
- **طائفة المذهبين:** لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١. إلا أنهم ليسوا مهرة فى فنهم.
- **طائفة مجلدى الكتب:** لهم ٨ دكاكين يعمل بها ١٥٠.
- **طائفة الصحافين:**

لهم ٢٠ دكانا يعمل بها ٣٠. أبوهم الروحى «عبد الله اليتيم»، وهو مدفون فى سهل الخرق بالحبشة، وقد تيسرت لى زيارته ثلاث مرات، وضريحه يزوره العوام والخواص.

- **طائفة الوراقين:** لهم ٥٠ دكانا يعمل بها ٦٨.
- **طائفة صانعى أختام الأوراق:** لهم ١١ دكانا يعمل بها ٣٠.

(١) بياض فى الأصل.

- **طائفة الرمالين (المنجمون):**

لهم (   )[١] دكانا يعمل بها ٤٠ شخصا ولكن فيهم الجهابذة الكمل.

- **طائفة كاتبى «العرضحال»:**

٤٥ دكانا يعمل بها كذلك ٤٥، منهم نصارى سريعو الكتابة.

- **طائفة صانعى المداد:**

لهم ٣ دكاكين يعمل بها ٦، وهم لا يذيبونه فى هاون مثل الترك، وإنما يغلونه على النار.

- **طائفة المصورين:**

إنهم ٢٠، ولا دكاكين لهم، وفى كل مكان يجتمع فيه الناس يرسمون صورا على الجدران تكون غاية فى الروعة والإبداع.

- **طائفة الزجاجين:** لهم ٨ دكاكين يعمل بها ٢٠.

وعدد أفراد هذه الطوائف المذكورة أعلاه (   )[٢]، مضوا مقيمين الزينات حاملين القناديل وفى معيتهم كبير الرسامين وسط عزف الفرقة العسكرية.

(الفصل السابع والعشرون)

تجار خان الخليلى

لهم ١٥٠٠ خزانة متنوعة تقوم طائفة من الحراس على حراستها كل ليلة وهم ستمائة من الزنوج الشجعان يحملون الحراب، وفى كل ليلة تضاء أرجاء الخان بثلاثة آلاف قنديل.

- **طائفة الدلالين المعتمدين:** عددهم ٣٠٠ دلال.
- **طائفة الدلالين الضامنين:** وهم ٦٠٠ دلال.
- **طائفة سماسرة الخيول:** عددهم ٢٠٠ لهم أمين أغا واحد، وجورباجى واحد، وثلاثة كتاب.
- **طائفة وسطاء سوق الخيول:** وهم ٢٠٠ شخص.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة سماسرة خان الخليلى:

عددهم ٥٠، ومهمة هؤلاء هى أنه إذا شاء أحد شراء شىء ما نادر بحث عنه هؤلاء السماسرة وأخبروا المشترى بمكانه.

- طائفة الصوافين: لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ١٨.

- بائعو الحرير والمخمل والخلع والبز والسجاجيد والعباءات والعمائم:

وعدد أفراد هذه الطوائف سالفة الذكر (   )[١]، وهم قد حملوا كامل أسلحتهم وأصبحوا وكأنهم الجيش الجرار، ووصفهم فى فكاهاتهم وزينتهم مما يقصر عنه الوصف ومروا وفى معيتهم كبير التجار وكبير الرسامين وكبير الوراقين، وطبولهم تقرع.

(الفصل الثامن والعشرون)

طائفة المهرجين

ذكروا تفصيلا فيما سبق، وهم جميعا ٧٠٠٠٠ مهرج يمثلون ٧٠ طائفة وإذا ما تحدثنا عن ماهية كل منهم لطال بنا الكلام ونكون قد امتدحنا الدجال وما قالوا من فكاهات وأضاحيك فى تلك الليلة لم يأتى بمثلها أبوهم الروحى «أبو على». حتى أن جميع المشاهدين وضعوا أصابعهم على أفواههم مندهشين متعجبين وبالغوا فى الضحك. وهؤلاء من شياطين الإنس فى مصر لا وجود لهم فى أوربا ولا الهند. وبينهم من كان يلعب بالنار فى الموكب ويطلق القذائف النارية ولم يكن لهؤلاء فرقة موسيقية لأنهم يجتذبون انتباه الناس إليهم أكثر من الفرقة الموسيقية.

(الفصل التاسع والعشرون)

طائفة الموسيقيين

أبوهم الروحى فيثاغورث التوحيدى وعبد الله الفارابى . عددهم ٧٠٠، وقد مروا وهم يعزفون على سبع وأربعين آلة موسيقية.

---

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الثلاثون)

موكب جند مصر

مروا موكبًا موكبًا يفصل الموكب عن الآخر زينات من القناديل والمشاعل، ومرت كل فرقة وفيها شعراء ومغنون وعازفون. وبعد مرور موكب المصريين على هذا النحو مر أغوات الباشا وهم فى كامل زينتهم وأبهتهم متحارين، وجنائب الباشا وملازمو الانكشارية من ذوى الطوغين، وشطار الباشا وعلى رءوسهم الخوذات، وسقاءوا ركاب الباشا وفى معيتهم المحتسب أغا الذى امتطى جوادا مطهما عليه سرج محلى بالجواهر وكان يلوح بالسلام على جانبيه، وفى أثره مضى كتخدا بوابى الباشا وأربعمائة من غلمان قصر الباشا وسط عزف الفرقة العسكرية ذات التسعة صفوف، وبعد ست ساعات وصل الموكب العظيم إلى قصر القاضى عسكر وأطلقت فرقة المدفعية طلقة واحدة تحية وابتهاجا وصفق جاويشية ديوان مصر. ثم تقدم القاضى عسكر وتبوأ مكانه فى المجلس. وبعد تقديم القهوة وماء الورد وإحراق البخور ألقى المحتسب أغا كلمته ترحيبا بالقاضى عسكر أفندى فقال:

«إن مولاى صاحب الدولة يقرأ عليكم السلام. هل هذه الليلة المباركة ليلة رمضان؟ وهل غدا غرة الشهر المبارك أم يوم الشك؟ أننوى الصيام؟ أفِدْنا يا مولاى حتى نرسل هذه الجموع من الجند حاملة البشرى لسلطاننا بحلول شهر رمضان المعظم». وعندما انتهى المحتسب أغا من إلقاء كلمته قال قاضى العسكر أفندى: «ليحضر فى التو شيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة» وعندئذ تقدم نحو القاضى عسكر جميع العلماء والصلحاء وشيوخ الإسلام.

وإن كان الهلال ظهر فإن ذلك يثبت ويقيد فى سجلات القاضى عسكر، ويسلم المحتسب أغا حجة شرعية فيها أن غدًا هو غرة رمضان. فيرسل المحتسب أغا والكتخدا البُشرى إلى الباشا ويقرأ الباشا الحجة الشرعية وينوى الصيام بناء على ما ورد فيها. وتضاء القناديل أول ما تضاء فى منارة جامع الدهيشة فى ميدان قصر الباشا ومن بعد فى منارات جامع قلاوون وتطلق المدافع فى القلعة فى منتصف الليل أربعين طلقة أو أكثر

فتهتز السماء والأرض وتزدان الثمانمائة وستون منارة فى مدينة القاهرة فإذا هى نور على نور، ويمضى كل شخص لأداء صلاة التراويح وينوون الصيام.

وإذا سأل المحتسب أغا قاضى العسكر أفندى ولم يشاهد الهلال، فإن القاضى عسكر - طبق القانون- يبسط سماطا ليسد جميع الأغوات والأعيان وأرباب الديوان جوعتهم، ويمر جميع أفراد الطوائف الذين فى فناء قصر قاضى عسكر أفندى من أمام مجلس المحتسب أغا وقاضى العسكر حاملين زيناتهم. ثم يطلق اللاعبون بالألعاب النارية سبعين قذيفة كقذائفهم فى يوم الإحتفال بقطع النيل، وتستمر عروضهم ثلاث ساعات، وعندما ينتهى موكب المغنيين والموسيقيين يبدأ موكب جند الأوجاقات السبعة فى التحرك لإخبار الباشا بأن هلال رمضان لم يشاهد من أى جهة إلى تلك اللحظة ولا تضاء القناديل ولا يكون يوم تلك الليلة رمضان وإنما يوم الشك. وبما أن هذا الأمر يحتمل وجهين يخبر المحتسب حتما الباشا بذلك.

وعندما حانت لحظة الوداع خلع المحتسب أغا على القاضى عسكر أفندى خلعة أرسلها إليه الباشا لأن القاضى عسكر فى تلك الليلة أنفق ألف قرش فى ضيافته تلك. وعلى هذا النحو مضى المحتسب أغا ثانية إلى الموكب وعاد إلى منزله قبيل الفجر، وعندما نزل عن صهوة جواده تبادل شيوخ الطوائف الفكاهات قائلين «طريق طريق» ويمضون فى شوارع القاهرة فى ضجة وجلبة كما مضى الشيوخ إلى بيوتهم وعاد الجميع إلى ديارهم. وعندما وصل المحتسب فى موكبه إلى داره جلس على كرسيه وبعد أن وزعت القهوة والبخور على أغوات الأوجاقات السبعة منح طائفة العسكر - على نحو ما سبق ذكره فى تعريفات الطوائف العسكرية - كيسين ومضى جند مصر جميعا. ثم منح أغوات الباشا كيسين ليوزعوها فيما بينهم وكيسين لتقديمهما إلى الباشا ونصف كيس للكتخدا كما وزع المحتسب أغا العمائم على اثنى عشر من أصحاب المراتب من أغوات قصر الباشا تطييبًا للخاطر.

وعلى هذا النحو انتهى موكب ليلة المحتسب أغا. والمنح التى قدمها المحتسب أغا للباشا والكتخدا وأغوات الباشا وأفراد الأوجقات السبعة فهى من الأكياس العشرة التى جمعها ممن تحت إدارته من طوائف الشيوخ الثلاثين أصحاب الطبل خانه ومن

تحت سيطرته كذلك من أفراد مائة وستين طائفة حرفية، وذلك بمعاونة الكتخدا والنقباء والجاويشية.

ولكن بما أن عدة طوائف تحت إدارة خدام الباشا لا يحصل منهم أى شيء. فالطهاة تحت حماية كبير طهاة الباشا، وجميع أصحاب المقاهى تحت حماية رئيس شطار الباشا، وجميع الخبازين تحت حماية كبير خبازى القصر وكل الجوهريين تحت حماية كبير جوهريى الباشا.

وبما أننى كنت أعد فى خدمة الباشا والأمين أغا وصاحب العيار ورئيس ضاربى العملة والناظر أغا والوزان أغا و١٥ من (وهده كش)، وعشرة من حراس الخزانة وضاربو العملة العشرون وعشرون من الماهرين وخمسة من الفرائين وعشرة من «يصى جى»، وعشرة من الصيارفة القائمين على الإحصاء وعشرة من الوزانين ورئيس الصيارفة وهو واحد وهؤلاء جميعا يبلغ مجموعهم خمسمائة من العاملين فى الضرب خانه لا يدفعون شيئا للمحتسب.

وجميع الحاكة تحت حماية كبير حاكة الباشا لا يدفعون شيئا كذلك.

ونفس الشأن بالنسبة للفرائين الذين تحت حماية رئيس فرائى الباشا. إلا أن هؤلاء جميعا يشتركون فى الموكب. وهذه الطوائف لا تدفع أى أموال للمحتسب فى الظاهر ولكن حينما يعزل الباشا فلا يقام أى وزن لرئيس الشطار ولا رئيس الطهاة ويرهبون المحتسب ولذا يقدمون له الأموال سرا وعلانية لأنه حينئذ الحاكم الحر المطلق الإرادة الذى يخشونه. ويساهم أهل الطوائف جميعا فى نفقات موكب ليلة المحتسب حسب ما جاء فى قانون مصر.

وموكب ليلة المحتسب أحد مواكب الأعياد فى مصر والبالغ عددها (   )[1]، ولا نظير لهذا الموكب على وجه الأرض. حتى أن أهل مصر يحددون مواعيد زواجهم على ليلة هذا الموكب.

وإذا ما تحدثت عما رأيته تفصيلا لاقتضى ذلك منى تأليف مجلد قائم بذاته. لذا تحدثت عنه بإيجاز.

***

(١) بياض فى الأصل.

الفصل التاسع والأربعون
ذكر أهل الصناعات فى مصر
ممن لا وجود لهم فى غيرها من البلاد

- الترياق الفاروقى:

إن الترياق الفاروقى الذى يجهز فى مستشفى قلاوون التى سلف الحديث عنها لا وجود لمثله فى الدنيا بأسرها. ومن مصر يصدر هذا الترياق ومشتقاته إلى شتى بقاع العالم.

- الترياق الكنعانى:

وفى المستشفى ذاته يصنعون سما زعافا يبلغ من قوته أنه يؤثر على الخيول والبغال حتى من حوافرها. و«الترياق الكنعانى» يبطل مفعول هذا السم. إنه عبارة عن شىء صلب أصفر يشبه الكشتبان. ولله الحمد أننى أملك شيئا من هذا الترياق. وقد اكتشفه من يدعى كنعان رحمه الله بينما كان يبحث فى علم الكاف. وكان متضلعا من شتى العلوم ولم يفته الإحاطة بعلم قط. حتى إنه كان له سبعون من مخترعاته حازت على إعجاب العالم بأسره.

- معجون العقرب:

إنه كذلك شىء عجيب، وممن يجرى عليهم راتب من أوقاف قلاوون من إذا رأهم الشيطان استعاذ بالله يسمون «صيادى العقارب»، وهم عشرة أشخاص. إذا ما أراد كبير الأطباء تحضير «معجون العقرب» هذا أرسلوا هؤلاء الصيادين إلى البرية وهناك يحفرون عدة حفر فى الرمال، ويضعون فى كل حفرة وعاء من الفخار المبطن من الداخل بالزجاج، ويسوون فوهته بالأرض ويضعون بداخله قطعة من الكبد ويضعون قطعا أخرى عند حافته حتى إذا ما انتصف الليل خرجت العقارب متصيدة فتشم رائحة الكبد ويسيل لعابها كالكلب وتسقط فى الوعاء إذا ما بلغت حافته. ويتوالى سقوط العقارب على هذا النحو. وفى الصباح تكون هذه الأوعية قد امتلأت بما لا يحصى كثرة من العقارب وتصبح عاجزة على الخروج منها. فيأتى الصيادون ويملأون مخلاتهم بهذه

العقارب ويسلمونها إلى كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون. فيقومون بقطع ذيلها وأرجلها بالمقص ويطبخونها فى قدور من الفخار ويفصلون زيتها ويصنعون من لحمها معجونا بالسكر.

وإذا ما أصيب أحد باحتباس البول وأكل منه مقدار نصف حبة حمص تفتحت مثانته فهذا المعجون مدر قوى للبول. ولكن ينبغى عدم الإكثار من استعمال هذا المعجون.

- **مصنع السكر:** وهو حقا جدير بالمشاهدة.

- **معمل النوشادر:** وهو جدير كذلك بالمشاهدة وسوف أتحدث عنه فى حينه.

- **مصنع ملح البارود:**

إنه مصنع عظيم فى بولاق يستحق المشاهدة، وفى القرى الأخرى مصانع كثيرة لملح البارود وكلها مملوكة للدولة. ويصنعون منه البارود الأسود.

- **ملح النطرون:**

إنه كذلك يشبه الملح. والكثرة الكاثرة من أهل مصر يستخدمونه بديلا من الملح فى طعامهم فهو ينضج اللحم فى طرفة العين. كما أنه إذا أذيب فى طعام نيئ حله لذا لا لذة فى طعام أهل مصر. ولندرة الحطب فى مصر يضعون هذا الملح فى طعامهم كى ينضج سريعا. بيد أنه يسبب تورم الخصية وسلس البول لمن يستعمله بكثرة.

وصانعو النرجيلة يستخدمونه كذلك. ويُصَدَّر من مصر إلى بلاد الترك. وبإضافته إلى الزجاج يذيبه ويجعله كالماء عندما يوضع على نار هادئة. ويوجد بكميات هائلة فى مخازن بولاق بالقاهرة. ولهذا الملح أمانة مستقلة وهو يدر دخلا للحكومة.

- **طائفة صانعى خزانات ماء الحمامات:**

إن خزانات المياه الساخنة لجميع الحمامات مصنوعة من الرصاص، وهذا أمر عجب.

فى بيان قبائح مصر وطوائف الصوباشى

وهذه الطائفة ملاعين وزنادقة.

- **بغايا باب اللوق:**

٨٠٠ بغى، وهن من أهل المعصية، ولهن أكواخ بين الرمال وعند باب حصن باب اللوق:

- بغايا المنازل:

وهن يعملن سرا فى منازلهن، ولكن لهن قوادون. وعددهن ٢١٠٠ بغى، وهن مقيدات فى دفتر الصوباشى ويؤدين الضرائب. ولأنهن تحت سيطرة طوائف الجند لا يستطيع الصوباشى تحكما فيهن ولذا لا تقع البغى تحت طائلة العقاب.

- غلمان باب اللوق:

يترددون على المقاهى والخانات وميدان الروملى وكلهم مأفونون ولوطيون. وهم كذلك يؤدون الضرائب للدولة.

- شيوخ القوادين:

إنهم ٣ أحدهم فى باب اللوق والآخر فى مصر العتيقة والثالث فى مصر الجديدة. وجميع البغايا والغلمان مقيدون فى سجلاتهم. وعليهم دفع الضريبة للدولة.

- جاويشية باب اللوق:

٤٠ وهؤلاء يعرفون بيت كل بغى ويعرفون كذلك هل باتت البغى فى منزلها أم لم تبت.

- دياثو باب اللوق:

يمضون من بيت إلى بيت مقيمين سوقا كسوق الخيول والبغال ويربحون من ذلك.

- قوادات النساء:

إنهن عجائز مهمتهن البحث عن حسان البغايا لمن يقبل عليهن وينلن عن ذلك أجورهن. وهن ٣٠٠ عجوز لعينة.

- المتسوقه:

يذهبون لشراء ما يطلب منهم من حانات باب اللوق أو دكاكين الكباب وينقلون آلات الطرب ويتقاضون على ذلك أجورهم وهذا ما يكفل لهم العيش.

وبعض الفتيان من أسفه السفهاء يستأذنون من سادتهم فى الخروج بحجة أنهم ماضون إلى الحَمَّام ويولون وجوههم شطر باب اللوق. وحينما يجالس الواحد منهم

بغيا فى أحد الأكواخ تطلب منه خمرا وكباب بـ «پاره»[1] وفى التو يعطى من يذهب إلى السوق ٣ أقچات[2] ليهيئ طلبه. ويضعون فى الخمر القرنفل الأبيض والطاطوله وصمغ الأذن ورماد الحصير. وإذا ما تناول هذا الشاب قدحا ثمل ومال كأنه غرارة الحناء.

وسرعان ما يجردوه من كل ملابسه وسكينه وخنجره، وكيس نقوده ويحمله الرعاع دون أن يحقق مرامه ليطرحوه فى الطريق ولا يستطيع أحد أن يكشف سر من جرد من ثيابه وبقى عاريا هكذا. وإن كان لديه كثير من النقود قتلوه وأخفوا جثته دون أن يعلم أحد إلا الله.

وفى عهد «جان بولاد زاده» كثر القيل والقال عن وقوع مثل هذه الحوادث فأصدر الباشا أوامره إلى أحد رؤساء البوابين بهدم بيوت هؤلاء الفُسَّاق، وعندئذ جمع الأغا المذكور ألفا من الزنوج والفلاحين فسووا بالأرض جميع الحانات ومضارب البوزة وبيوت الدَّعارة ونفى جميع البغايا وطهر القاهرة من رجسهن.

والغرض من ذكرنا لهؤلاء هو تنبيه الغافلين حتى يتحرزوا منهم فى المناطق التى يجب التحرز فيها.

- شيخ الشحاذين:

له تكايا فى ميدان الرومـلى يجتمع فيها كل الشحاذين. وله اثنا عشر من الجاويشية يقفون عند باب الباشا وباب القاضى عسكر أفندى حتى يخبروا شيخهم بأى صوب يمضى الباشا فيحتشد الشحاذون على جانبى الطريق العام. ويبلغ عدد الشحاذين فى القاهرة ٩٠٠٠ شحاذ وهم مقيدون فى دفاتر شيخ الشحاذين وهم يتلقون الصدقات من الباشا والأعيان ويدعون الله لهم بالخير.

وإذا ما بسط شحاذ لسانه بالسوء فى حق أحد نبه شيخه بذلك ليقتص منه.

- أضحوكة أخرى:

وفى يوم خروج الكسوة الشريفة يركب شيخ الشحاذين حمارا وإلى جانبه أعور وأقطع وأقرع ومعهم عدة آلاف من الشحاذين. وهذا ما لا وجود له فى بلد آخر غير مصر.

(١) الپاره: العملة العثمانية.

(٢) الأقچه: وحدة النقد العثمانية.

- طائفة صانعى القناديل:

لهـم ٤٠ دكانا، تظـل مفتوحـة حتى الصـباح أيام الموالـد والمواسم وشهـور رجب وشعبان ورمضان. وتزين هذه الدكاكين بالقناديل. ويلزم كل تاجر أن يضع قنديلا على دكانه المغلق. وفى ليالى المواسم تزين المديـنة بالقناديل. وإذا ما أردنا إشعال ألف قنديل أو أكثر اتفقنا مع أفراد هذه الطائفة على أن يزينوا المنازل والطرق العامة بالقناديل. وهذا فى مصر وحدها لا فى بلاد غيرها.

- تجار الرقيق:

عددهـم ٢٠٠٠، مقرهم فـى الوكالات. يمـضون فى العـام مرة إلى بلاد الـفونج وولايات أواسط أفريقيا لصيد الزنوج. وأغلب تجار هذه الطائفة من جنوب مصر.

- جراحو تجار الرقيق:

عددهم ١٠ يعملون فى منازلهم أما مهنتهـم اللهم عافنا فهى إجراء عمليات الخصى حيث يقدمون شراب الزعفران المخدر إلى أربعين أو خمسين أو مائة من الأطفال الزنوج ثم يصففونهم ويقطعون بالموسى ذكورهم بأكملها ويضعون قطعة من القصب فى موضع الذكر ويوقـفون نزيف الدم بمسـحوق أحد الأعشاب التـى تنمو فى السـودان ويضعون مسحوق أشجار السنـطة مع دهان أسود ثم يلفون الجرح بقماش معـين. وبذلك ينقطع نسل جميع هؤلاء الأطفال الأبرياء.

إنهم عشرة رجال سمـر البشرة لا يعرفون الرحمة، قساة، انعـدم النور من وجوههم الدميمـة. وقد خصوا أكثر من مـائة من الأطفال الزنوج ليـرسلونهم هدايا إلـى كتخدا إبراهيم باشا ومضيت لمشاهدتهم فإذا بهم - الله عافنا- كالدجاج المذبوح مقيدين، منهم من يخر على الأرض إعياء ومنهم من امتنع عن النطق من عدة أيام.

إلى هذا الحد البعيد هؤلاء النخاسون قساة.

- نساجو البسط:

لهم ٢٠ مصنعـا، يعمل بها ٣٠٠ نساج ينسـجون البسط الحريرية والسجـاجيد التى يعجز اللـسان عن وصف جمالها وروعتهـا. وعلى الرغم من أن السجاجيـد تصنع فى مدينة عشاق وقولا و والاشهر إلا أنها ليست فى جودة ما ينسج فى مصر منها.

- الحَمَّارة:

إنهم ٣٠٠ حَمَّــار. وحُمُر القاهرة حُــمُر سريعة لا يدركــها الخيول السريــعة. وفى القاهرة ٤٠٠٠٠ حمار على نحو ما يقال. وجميع أعيان مصر يركبونها ما فى ذلك من عيب. لأن ذلك سُنَّة عن الرسول ﷺ. فقد كان له حمــار يسمى «اليغفور» يركبه على الدوام. حتى إن أحدا إذا ركب حمارا وسخر منه أحد اتهمه الناس بالكفر والزندقة.

- حلاقو الحمر:

لا دكاكين لهم، إلا أنهم يوجدون فى أماكن معــلومة يظلون فيها. وهم يقصون وبر الحُمُر والجِمال مرة كل شهر. وعددهم ٢٠٠ حلاق يــقصون وبر الحُمُر والجِمَال بالمقص ولا يبقون له من أثر وكأنهم استخدموا فى ذلك الموسى.

- النشالون:

إنهم تحت سيطرة الصــوباشى، وهم يسرقون أكياس النقود والخناجــر والسكاكين من جانب الناس ومن صدورهم، ويقدمون على ذلك دون حياء أو تردد.

إنهم ٣٠٠ نشال. ولابد من الاحتراس منهم فــى الأماكن المزدحمة. إنهم مهرة إلى حد جد بعيد فهم يــسرقون العين من الكحل ويبقى الكحل فــى موضعه. ولهم كذلك مشيخة مستقلة. وإذا ما سرق أحدهم شيئا وطــلبه الصوباشى بحث عنه شيخهم ووجده له فى التو فجميع النشالين مسجلون فى دفتره.

- صانعو الأسرة:

يصنــعون الأسِّرة وأقــفاص السكـــر مـــن سعـــف النخيل. وعـــدد أفراد هذه الطائفة (   )[1] ولا وجود لمثلهم فى بلد آخر غير مصر.

- الزبالــون:

عددهم (   )[2] يكنسون كذلك الشوك والقش فى الطرق العامة ويحملونه إلى مواقد الحَمَّامَات ومصانع الزجاج والمخابز ومصانع الجص والجير ومصانع الأكواب حيث يستخدم وقودا. وليس فى مصر من يشبه هذه الطائفة فى غرابة هيئتها وسيماها وكأنهــم

(١، ٢) بياض فى الأصل.

مخلـوقـات نسـخت. لقد رأيت أن بـعض أتقيـاء الأمة يقبلـون أيدى هؤلاء الزبـالين المحتقريـن المذمومين عندمـا يشاهدونهم. وكثيـر من الناس لهم راسخ الاعـتقاد فى أن هؤلاء الزبالين من أولياء الله مثل المجاذيب وبـائعى الأشياء القديمة. لا يعلم الغيب إلا الله. يقول المولى سبـحانه وتعالى فى حديثه القدسى: «أوليائى تحـت قبابى لا يعرفهم غيرى».

- بائعو لحم الجمال المطبوخ:

يبيعون كذلك كبد الجمال. إنهم ١٠ أشـخاص ولهم ١٠ دكاكين. إنه طعام الفقراء إلا أنه غاية فى لذة طعمه ولقد أكلت منه مرات ومرات.

- بائعو الفئران المطبوخة:

لا دكاكين لهم، يبـيعون ما يبيعون فى أكواخ وخيام فـى ميدان الروملى. وهم ٢٠ بائعا. ولكن لهذه الفـئران مواسم فعند قطع النيل يخرج الصيـادون لصيدها وإحضارها إلى ميدان الروملى ويبيعونها.

والفأر حيوان صـغير، يشبه الأرنب إلى حد بـعيد وهو يكثر فى الأرض بمشـيئة الله ولقد شاهدت ذات مرة دماءها تسيل أثناء مرور حديدة المحراث على جحورها. ولذلك كان أكلها حلال فى المذاهب الأربعة. وعندما تكبر الفئران يجدون عند موضع جحورها أكواما من الرمـل فيعلم من ذلك أن ثمة فـأرا كبيرا فيحفرون الأرض ويـخرجونه. إنه حيوان لطيف يشبه السنجاب فى وبره، يزن خمسين أو ستين درهما. إنه سمين الجسم، لحمه خفـيـف وشحمه خفيـف وهو سريع الهضـم ومقو. وعندما ذهبـت إلى الواحات أكلت من لحمـه كثيرا. وهو يقتات بـجذور النباتات تحت الأرض، ولا يأكـل شيئا ذى روح.

- بائعو الحشيش والخمر:

لـهـم دكانـان فـى ميـدان الروملـى، يعمـل بهمـا شخصـان، ينقعـون الحشيش لليلة ويـستخرجـون مـاءه الذى يضعـون فيـه العـسـل المصفى ويبيعونـه كذلك فى كؤوس لمن يطلب.

ويقال إن من يشرب منه كأسا وراح ينظر إلى وجه حبيبته وقع نشوة وأنشد ألف بيت من الشعر ويصبح خصب الخيال.

- **بائعو السوبية:**

والسوبية بوزة تصنع من الأرز، وقد سبق الحديث عنها وهذا المشروب لا وجود له إلا فى مصر.

- **بائعو التمر هندى:** إنه مشروب راحة للأبدان وهو لا وجود له إلا فى مصر.
- **بائعو شراب العرقسوس:** ذكر آنفا وهم كذلك لا وجود لهم إلا فى مصر.
- **صانعو العقوة:**

يصنعون الخنجر العربى المعروف بالعقوة فى حجم السيف، لا وجود لمثل هؤلاء فى بلاد الترك.

- **صانعو الحصير:** ينسجون الحصير المنقوش الجميل الذى يباع بأربعين أو خمسين قرشا.
- **الطهاة:**

يطهون أرز «الكوسكوس»، والملوخية والبامية والقلقاس والقرنبيط. وصنوف الطعام هذه لا وجود لها إلا فى مصر.

- **دراويش التوابل:**

أغلبهم من دراويش اليمن يحملون أنواعا من الرياحين والسنبل والياسمين داخل منشفة ويوزعون الفل وشقائق النعمان على من يصادفونه من الأعيان وينالون منهم الصدقات إنهم سبعون أو ثمانون، وهم كذلك فى مصر وحدها.

***

الفصل الخمسون

طوائف الحرفيين ممن لا وجود لهم فى القاهرة والموجودين فى البلاد الأخرى

ثمة مثل له عظيم الشيوع والانتشار بين العلماء والعارفين وهو أن فى مصر كثيرا من الخيول ولكن لا وجود لبيطار ماهر ولا وجود إلا لبيطار الحُمُر. والمرضى كثير ولا وجود لطبيب، والعميان كثير ولا وجود لكحال. وهذه الأقوال صحيحة لا تتجافى عن الصواب. وإذا اتفق أن مرض رجل من اثنين ورمدت عينه قيل لـه فى المثل: إذا لم ير أحد شيئا جليا قيل له إن عينه تشبه عين ابن العبد المصرى. وحقيقة الحال بأمر الحى المتعال أن من يولدون فى مصر لآباء من الترك تضعف أبصارهم وتسيل دموعهم.

ويقولون لا وجود لحاكم وهم لا يجعلون الحكم للشرع والعرف وكل شئ مصون. إلا أن الوزير كالملتزم فقط يحصل مال السلطان.

ولا وجود كذلك لطواحين الماء، ولا وجود لَلحُمَّة أى نبع للماء الحار ولكن الآبار كثيرة. ولا وجود لميزان خاص بالدقيق والزيت والعسل ويوجد ميزان للحرير ومصانع الشمع ومصانع الصِرْمة ودور الوشم ووكالات الرقيق والبزازين.

وهذه الطوائف الحرفية موجودة إلا أنها ليست لها الصفة الرسمية.

إن سوق البَز كأنها خان الخليلى، ولا وجود لدكان خاص ببائع الدقيق ولا ببائع الغلال، ولا وجود لدكان صانع البوصلة، ولا لمعمل الأوتار. ولا وجود لبائع البضاعة الدقيقة، ولا وجود لصانع السلطة. ولا دكان لصانع الدروع ولا لصانع التروس، ولا وجود لدكان الجل ولا وجود لدكان صانع الطبنجات ولا لصانع البنادق. فالدروع والخوذ تأتى من بلاد الشركس وداغستان. أما الترس فيأتى من حلب، والجل يأتى من كل البلاد والبنادق والطبنجات تأتى من الجزائر.

ولا وجود لدكاكين وَزَّانِى الحديد ولا النحاس ولا دكاكين لصانع المثقاب، ولا لصانع المطرقة ولا المنشار. ولا دكاكين لصانعى الكشتبان والإبر، ولا دكاكين لمدربى

الرمى بالسهام ولا لمدربى النفخ فى بوق الفرقة الموسيقية العسكرية، ولا نافخى المزمار. إلا أنهم يصنعون طبولا عجيبة للكاشف.

ولا وجود لدكاكين الأوانى الزجاجية ولا دكاكين لصانعى الصحون النحاسية، ولا لصانعى دولاب السفينة. ولا وجود كذلك لمن يحك الماس ولا لصانع الأسلاك الحديدية وهذه الأشياء تستورد جاهزة من بلاد الفرنجة.

ولا دكاكين لصهر القصدير ولا لصنع ألواح الرصاص. إلا أن ثمة من يسمى الحاج ناصر وهو رجل من رشيد تعلم على يدى صناعة القوالب وصب ما يقرب من ألف لوح من الرصاص وأرسلت إلى مكة لعمل خزانات الماء لمبرة (خاصكى سلطان) ومستشفى، ولا وجود لدكاكين صانعى الريش الذى يوضع على الرأس، ولا دكاكين لصنع رق الغزال ولا للباد الانكشارية، ولا دكان صانع السياط.

ومصنوعات تلك الطوائف الغير موجودة فى مصر تستورد من جميع أرجاء الدنيا وتتوفر جميع الأشياء ذات القيمة النفيسة.

ولا وجود كذلك لطوائف صانعى القيشانى، ومستخرجى الفضة بحامض الكبريت، وطوائف صناع البراميل من الخشب والخرانة وقنوات المياه والجص والقرميد والبلاط، ولا وجود لأحدها فى مصر، فمدينة القاهرة فى غنى عنها وجميع النفائس ترد من الهند واليمن إلى مصر.

***

الفصل الحادى والخمسون

الموكب الرابع فى مصر وهو موكب العيد ومظاهر البهجة والسرور

والموكب الأول فى مصر هو موكب «دخول وزير مصر إليها» والموكب الثانى هو موكب الاحتفال «بقطع النيل» والثالث «موكب ليلة المحتسب»، أما الموكب الرابع فهو موكب عيد الفطر المبارك، وهى الأيام التى تصبح فيها حسان الدنيا فى أجمل وأبهى زينتهن، ونساء مصر يذهبن لمشاهدة مظاهر الاحتفال بهذا العيد ويعقد زواجهن شريطة ذلك. والشأن فيه لا يختلف عن الشأن فى موكب ليلة المحتسب فلا يمكثن فى منازلهن فى ليالى هذا الموكب.

ولعقد ديوان موكب عيد الفطر المبارك ووقفة عرفات، أقام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية السرادقات العظيمة فى ساحة قصر الباشا وأقام مظلة لأفراد فرقته وزين هذه الساحة وفى تلك الليلة أحضر مع أربعين من رجاله الطبول العثمانية السلطانية، وعزفوا المقطوعات الموسيقية فى اثنى عشر مقاما حتى مطلع الفجر، وقدمت القهوة الفاخرة والمشروبات والبخور لكل الأغوات الذين حضروا فى السرادقات.

وطلع الفجر عليهم وهم على هذا النحو. وأدى وزير مصر صلاة الفجر فى قصره وفرش ساحة قصره من الخارج بالحصير وصلى جميع الأشراف والأعيان وأرباب الديوان ركعتى سنة الفجر فى تلك الساحة. ثم قام مؤذن الديوان بتصعيد الأذان وتلى الآية الشريفة الخاصة بالعيد وهى: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وأقيمت صلاة الصبح ورفعت جميع البسط والحصير، ووقف جميع أعضاء الديوان كل منهم فى مكانه حسب رتبته، وأعد كتخدا الباشا واثنى عشر من الأغوات من ذوى الرتب العالية خلع فرو السمور والعمائم، ولبس الباشا عمامته السليمية المزينة بالجواهر وقباءه الأحمر المزين بالفرو وعلى يمنته ويسرته السلحدار والجوقدار[1] وعندما هم الباشا بالخروج جاء الكتخدا ليقف على يمنته ووقف على يسرته «الشهر حواله»،

(١) الجوقدار: المسئول عن الملابس الصوف.

فوقف السلحدار خلف الباشا وعلى رأسه قلنسوة من اللباد الأحمر الحريرى ويرتدى السروال الشركسى الأصفر والسروال الحريرى المحلى بصفر الأزهار وفى يده سيفه المرصع بالجواهر. وكان الجوقدار كذلك فى أبهى حلة له، ووقف جنبا إلى جنب مع السلحدار خلف الباشا. وجاء اثنى عشر من أغوات قصر الباشا من أصحاب الرتب وفى يد كل منهم سيف وعليهم فرو السمور وتبعوا الباشا وتقدم موكبه كتخدا الجاويشية وبجانبه رئيس فرقة المتفرقة وكذلك رئيس التراجمة وكتخدا البوابين واثنى عشر من أغوات الديوان وفى يد كل منهم عصا من القصب، وأنزلوا الباشا من سلم ديوان قايتباى. وعندما امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه المحتسب وجلادو الصوباشى ماشين، خرج جميع البكوات لاستقباله وأنزلوا الباشا فى ديوان السلطان سليم.

ولكن جان بولاد زاده حسين باشا كان يذهب إلى ديوان السليمية من ديوان قايتباى مشيا تواضعا منه وتبركًا وتيمنا كما كان يفعل أسلافه.

حقا كان ذلك منه تواضع الدراويش العارفين بالله.

وما إن جلس الباشا على عرش السلطان سليم حتى قرعت الطبول تحت المظلات كما لو كانت تقرع فى الحرب، ثم صافح الباشا أول من صافحه أمير الحج باشا ثم الكتخدا فأبو الكلام وسائر الأمراء ثم انصرفوا، ثم صافح الباشا بعد ذلك أربعون من بكوات الشراكسة وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وسائر شيوخ الديوان وقبلوا يده جميعا.

ثم امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه جميع الأغوات على خيولهم إلى الجامع وتبعه جميع البكوات مثنى مثنى متحازين.

وعندما وصل الباشا إلى جامع قلاوون وفى معيته المحتسب أغا وجلادى الصوباشى وعلى جانبيه جميع الشطار وعلى رؤوسهم الخوذات المذهبة مع حملة البنادق وسقائى ركاب الباشا كانت الشمس فى كبد السماء. وصعد المؤذنون تسع تكبيرات وصلُّوا ركعتى صلاة العيد وعندما اعتلى الخطيب المنبر خلع عليه كتخدا البوابين قباء من الصوف الأبيض، وبينما كان يلقى خطبته كان خدام الباشا يعطرون الجامع بمجامر العود والعنبر والبخور.

وأتم الخطيب وعظه وإرشاده وبعد الفراغ من الدعاء صافح الباشا الإمام والخطيب والمشايخ ونالوا آلاف الـ «پارات» منحة منه.

وعندما استوى الباشا على كرسيه في ديوان الغورى مع موكب قليل العدد، صفق جميع جاويشية الديوان له وجلس الباشا على رأس سماط عظيم عليه ثلاثة آلاف صحن مذهب وممسك فيه أطايب الطعام، وجلس على يمنته أمير الحج والقائم مقام بك وغيرهم من البكوات، وجلس على يسرته الدفتردار بك وأبو الكلام وأغوات الأوجاقات العسكرية وأغا العزب. أما الجبه جى باشى[1] ورئيس المدفعية ورئيس مركبات المدفعية والمحتسب أغا والصوباشى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة هؤلاء كانوا يقومون على خدمة الديوان السلطانى ولم يجلس منهم أحد على السماط مع الباشا.

ثم ألقى الباشا قطعا من الكباب والدجاج والحمام على من بجانبه يتناولون الطعام فمن كان يلبس العمامة المجوزة وقعت عمامته عندما سقطت عليها قطع الدجاج واللحم فكان يكتم ضحكه، ومنهم من كانوا يبتسمون إذا ما تعلقت أجنحة الحمام بلحيتهم وعلى هذا النحو قسم الباشا الطعام على من حوله وعندما قالوا «بسم الله» بدأوا يتناولون الطعام. وفى ساحة ديوان الغورى العظيمة قدم ألفا صحن من الطعام.

وفى الساحة العظيمة لديوان الغورى قدم ١٢٠٠٠ صحن من الطعام التهمها الانكشارية وأرباب الديوان فى طرفة العين، حتى إنه من صوت الأكلين وصوت الأطباق النحاسية سمعت القاهرة ما يشبه الرعد، ثم قام مائتان من خدام موائد الباشا برفع الصحون فكوموا منها تلالا تلالا، ونظفها فراشو الديوان معهم. بعد ذلك دعوا الباشا إلى سماط آخر ودعى إليه كذلك بكوات الشراكسة وشيوخ الأوجقات السبعة ورؤساء السبعة وسبعين إدارة للديوان، وألقى الباشا عليهم كذلك قطعا من اللحم فأسقطت عمائمهم عن رءوسهم وحار البعض فى خجله.

وكان إذا ما قال الباشا «فليجلس رئيس المتفرقة وكتخدا الشاويشية والترجمان أغا»، جلسوا ثم وقفوا وتولوا خدمة المدعوين ثانية، ثم دعو الاختيارية أى القدماء. أما

(١) مسئول الأسلحة والذخيرة.

أغوات الباشا الإثنى عشر أصحاب الخِلَع وحاصل خرج الباشا فقد وقفوا للخدمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام نهض الباشا من مكانه وجلس على سجادة السلطان سليم ونهض كذلك جميع البكوات وانتظروا غسل أيديهم، وأثناء ذلك أومأ كتخدا البوابين إلى رئيس فرقة الموسيقى العسكرية حتى يقرع الطبول وصنوجها، وأشار رئيس فرقة الانكشارية لرئيس فرقة المدفعية فى برج القلعة فأطلقت المدافع أربعين طلقة ترددت أصداؤها فى جبل الجوشى.

ومن ناحية أخرى هجم رئيس خدم موائد الباشا مع مائتين من رجاله على ثلاثة آلاف صحن، وبعد الفراغ من ذلك رفعت الصحون وجاء فراشو الديوان بالأباريق النحاسية التى تشبه الذهب وتعود إلى عهد السلطان فرج وقلاوون وقايتباى وقبلوا ما بين قدم الباشا ووضعوا منشفة على ركبته، وقدم إليه أحدهم الصابون المعطر فغسل الباشا يديه وغسل الجميع أيديهم كذلك على هذا النحو، واستكان كل فى مكانه وتلى الدعاجى أفندى[1] قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، وعندما ذكر اسم النبى ﷺ وقف جميع الأعيان والأشراف إجلالا وإعظاما، ولما ذكر سلطان آل عثمان مرتين وقفوا كذلك، ثم أنهى الدعاء وبينما كانوا يمسحون وجوههم بأيديهم وقف جميع البكوات وتقدموا نحو الباشا وهو على السجادة وصافحوه فصفق جاويشية الديوان، ثم صافح الباشا أغوات الفرق السبع، ثم صافحه قدماء الفرق وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا، ثم نهض جاويشية الديوان بين جملة أعضائه وسلموا جميعا على الباشا ومضوا إلى بيوتهم.

ودخل الباشا «حجرة العرض»، وجلس على كرسيه فى حجرة قايتباى على رأسه العمامة وبدأ الكتخدا بتقبيل يده فخلع عليه الباشا خلعة من الفرو وجلس ثانية على كرسيه، كما خلع الباشا كذلك ثوبا من صوف وقماش على كل من الشهر حواله وأفندى الديوان والإمام أفندى والمؤذن أفندى والمقابله جى أفندى وكتخدا البوابين وكبير رؤساء البوابين وأغا البريد وأمين بيت المال والحاصل خرج أفندى وأحد عشر من

(١) دعاجى افندى: القائم بالدعاء.

أصحاب الرتب العالية ورؤساء البوابين بحسب درجاتهم وأغوات واجب الرعايا ورئيس المتفرقة وأتباعه ورئيس فرقة الدلاة وأتباعه، ورئيس فرقة الكونكليان أى المتطوعة وأتباعه ونائب نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس فرقة الموسيقى العسكرية مع أتباع، وكاتب الخبازين وكاتب بيت المال والكلارجى باشى أى رئيس مخارن طعام قصر الباشا، وسقائى ركاب الباشا وشُطاره ورئيس القائمين على خدمة موائد الباشا وبك اسطبل الباشا مع رجاله وأمين الشعير، وكتخدا الاسطبل ورئيس السراجين ورئيس الجنائب ورئيس الحمالة ورئيس الحَمَّارة ورئيس سائسى الخيل ورئيس حاملى المشاعل ورئيس العكامين وهؤلاء جميعا قبلوا يد الباشا وحظوا بعطفه ورضائه.

أما رئيس فرقة الموسيقى العسكرية ووكيل نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس القائمين على موائد الباشا ورئيس حاملى المشاعل هؤلاء الست شرفوا بنيل خلعة من الباشا.

وفى ليلة العيد استمرت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف مقطوعاتها حتى مطلع الفجر وزين رئيس خيامية الباشا ميدان القصر بالسرادقات وكان يقوم بالخدمة فيها مائة وخمسون من الخدم، وطهى رئيس الطهاة فى خمسة أيام وخمس ليال خمسة عشر ألف صحن من الطعام وبذل جهدا حتى شوى كأنه كباب.

وحمل كذلك رئيس القائمين على خدمة موائد الباشا مع مائتين من رجاله آلافًا من الصحون، كما قام رئيس حاملى المشاعل بإنارة ميدان القصر فى ليلة العيد تلك بمائتى مشعل، كما أضىء ديوان الغورى بآلاف القناديل، وقد منح هؤلاء خلعا فاخرة لقاء خدماتهم تلك، كما منح كل جاويش من جاويشية الموكب عشرة دنانير ذهبية وكذلك جميع الأغوات وانصرفوا.

- أغوات القصر:

وهم خواص الغلمان. وفى البداية قام شيخ الأئمة والمؤذنين بتقبيل يد الباشا ومن

بعده الخزينه دار أغا والسلحدار والجوقدار والنشانجى[١] والمهر دار[٢] وكاتب الخزانة والكلارجى باشى ورئيس مقدمى القهوة وغلام المفتاح ورئيس صانعى عمائم الباشا ورئيس غسالى قصر الباشا ورئيس حاكة قفاطين الباشا ورئيس الحلاقين ورئيس الدلاكين ورئيس الحمامية وكبير حاملى المنشفة والشمعانجى باشى وهؤلاء العشرين من خدام الباشا قبلوا يده وانصرفوا، كما قدم فتيان صِباح فى ثيابهم الفاخرة لتقبيل يد الباشا، ثم جاء بعدهم سبعون أو ثمانون من طواشية الزنوج حاملين الهدايا وقبلوا يد الباشا، ومن بعدهم قام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية الخاصة بقصر الباشا مع ثلاثين من رجاله بتقبيل يد الباشا. بعد ذلك خلد الباشا إلى الراحة وبعد الظهر أقبل بعض الأعيان والأشراف لمصافحته.

وفى صبيحة اليوم التالى من أيام العيد قدم كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغوات التراجمة وبدأ أربعون من قدامى المتفرقة بزف التهانى إلى الباشا بالعيد السعيد وقبلوا جميعا يده. وفى أثرهم قدم أغوات قصر الباشا وعليهم أبهى الثياب ووزعوا على الحضور مناشف القهوة وخرجوا، وفى أثرهم دخل من قدموا القهوة فى فناجين غاية فى جمالها وزخرفها وانتظروا لأخذ الفناجين، ثم أحضر الخدم المناشف المنقوشة ووضعوها على ركبتى جميع الضيوف وانصرفوا، وفى عقبهم أحضر الخدم الكاسات المذهبة والمزخرفة وفيها الأشربة المعنبرة وشراب الليمون والتمر هندى وما إلى ذلك من صنوف المشروبات وقدموها فى كاسات إلى الأعيان، وبعد أن شربوا ما فيها أمسكوا مناشفهم ومسحوا أفواههم، ثم دخلت جماعة من الخدم وفى يدهم أوعية العطور وماء الورد ونضحوا هذه العطور على أيدى جميع الأعيان وانصرفوا، وجاءت مجموعة أخرى من الخدم ومعهم مباخر العود والعنبر حتى غمروا بعبيرها جميع الحضور. ولم يكن من الجائز عند تقديم البخور ستر الرؤوس بالشال حيث إنه حدث فى بعض المرات أن طعن من يلبس الشال بعض الحضور، والبعض بمجرد أن شربوا القهوة شكوا فى أن يكونوا قد دسوا لهم السم فيها.

---

(١) النشانجى: الذى يتولى التوقيع بطغرا السلطان على ما يصدر من أوراق رسمية.

(٢) مُهر دار: حامل الخاتم.

ثم انصرف قدامى فرقة المتفرقة وجاء قدامى الجاويشية وهؤلاء جميعا شملهم الباشا بكرمه على نحو ما شمل به من قدموا قبلهم. ثم قدم بعد ذلك قدامى السباهية وحملة البنادق والمطوعة وكرم كل منهم على حسب رتبته وانصرفوا.

ثم قدم رؤساء شاويشية الانشكارية لـلقاء الباشا ودخلوا عـليه قائلين «جئنا لنزف التهنئة بالعيد لمولانا السلطان» وقبلوا يد الباشا ووقف كل منهم فى مكانه وألقوا كلمات التحية والإطراء على الباشا. وهؤلاء كانوا يحظون بمزيد من رعاية الباشا، إذ إن للانكشارية فى مصر مرموق المكانة ومن متقاعدى الانكشارية ممن شغل مناصب كتخدا الانكشارية ورئاسة الشاويشية وقيادة الجيش من يملكون آلاف الأكياس وهم واسعو الثراء إلى حد جد بعيد. وقد انصرفوا بعد أن طيب الباشا خاطرهم، وبعد ذلك قدم رئيس شاويشية العزب واستأذن فى الدخول على الباشا فدخل وفى معيته قدامى فرقة العزب وقبلوا يد الباشا وانصرفوا بعد أن أكرمهم الباشا دون أدنى تقصير.

أما جان بولاد زاده حسين باشا فقد كان يدعو فرق العزب والانكشارية للمثول بين يديه ليهنأهم بالعيد السعيد، وكان ذلك من وقت فى المجاملة. ولشهرة هاتين الفرقتين فإنهما كانتا خليقتين بكل تعظيم.

وقدم بعدهم بعض المشايخ ودخلوا إلى مجلس الباشا قائلين: «عيد شريف مبارك يا مولانا السلطان» ثم انصرفوا. وبعد ذلك طلب الباشا جواده ومضى فى موكب عسكرى وسط عزف الموسيقى العسكرية. هذا هو عرف مصر وما ذكرناه خاصا بموكب العيد.

وفى العيد يلبس جميع الأعيان والأشراف فاخر ثيابهم ويتزاورون جماعات جماعات ويتبادلون التهانى بالعيد، وهذا فيهم فطرة إلهية كما أن ذلك بأمر السلطان وفى تلك المناسبة، لا يشرب أى مشروب فى القاهرة إلا بوزة الأرز التى يسمونها «السوبية» وقد سبق الحديث عنها آنفا. إلا أنهم فى تلك الأيام يجهزونها قبل ثلاثة أو أربعة أيام ويضيفون إليها السكر والقرفة والقرنفل. وهى شراب مقو نافع مرطب لا وجود له إلا فى مصر.

وتدوم مظاهر الاحتفال والبهجة فى العيد الشريف ثلاثة أيام بلياليها.

وفى ميادين الروملى وقره ميدان وميدان حارة أمير اخور وميدان مصر العتيقة وبولاق وخارج باب الناصر وحى عابدين وعدة مئات من ميادين القاهرة تنصب آلاف الأراجيح التى يركبها الصبيان والفتيات.

لنذهب إلى مكان العيد وفيه الأراجيح نشهد وما مرآة الزمان أبدت.

أى يخرج من يخرج لمشاهدة الجمال والترويح عن نفوسهم.

وإذا ما شاهد قريب أو غريب حسناء اقترب منها وزف إليها التهانى بالعيد واستطاع أن يقول لها كل ما يريد. وهذا فى عرف أهل مصر ليس عملا شائنا.

وثمة شىء يحمل فى طياته العبرة وهو أن مصر فى أيام العيد تلك يكثر بها الأوباش والرعاع إلا أن النساء والأطفال يسيرون زرافات زرافات ولا يتعرض لهن أحد بأذى فالأمن مستتب تماما.

وإذا ما وجد من يسير فى الطريق العام ثملا قبض عليه وانهالوا عليه ضربا بعصيهم وركلوه بأرجلهم. فظهور الشخص وهو ثمل شىء معاب كثيرا. وإذا ما شوهد مضوا به إلى الشرطة فينفوه إلى قبرص* أو إلى قلعة صاى على أطراف بلاد الفُونج . إن السير فى الطريق العام فى حالة سكر مما يثير غضب الناس ونفورهم.

وفى العيد الشريف يتزاور الناس ويركب الفتيان على جيادهم وهم فى سراويل حمراء متجولين من قرية إلى أخرى. واللسان يعجز عن وصف هذا العيد الشريف وموكبه.

الموكب الخامس وهو موكب عيد الأضحى

وفى عيد الأضحى من يوم عرفة إلى آخر الأيام الثلاثة التى تتلو يوم عرفة يكبر المشايخ والدراويش إلى وقت العصر ويتزاورون قائلين لبعضهم البعض: «يسر الله تعالى عرفات فى أيام التشريق» ويتصافحون.

ولما كانت الولاية على مصر لكتخدا إبراهيم باشا نحرت ٥٠٠٠٠ من الغنم والجاموس والجمال وهذا مدون فى دفتر أمين الغنم.

ويزدحم الناس فى المدينة وكأنهم البحر وهكذا تكون الحال فى عيد الأضحى وتعم فيه البهجة أكثر مما تعم فى عيد الفطر. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

***

الفصل الثانى والخمسون

الموكب السادس للأعياد طبق ما جاء فى قانون مصر وهو موكب دخول الباشا مصر

سبق أن تحدثنا عن موكب الباشا هذا، عند ذكر مواكب جند مصر وطرقاتها ورتبها وعدد أفراد فرقهم العسكرية ومرتباتهم السنوية إلا أننا سوف نذكر هنا ألزم لوازم الباشا فى هذا الموكب وكل أحواله.

يسمون هذا الموكب «موكب الاستقبال». وعندما يكون الباشا فى طريقه إلى مصر يمضى الجاويشية من ولاية إلى أخرى لحشد الجند من جميع الأرجاء قبل مقدم الباشا إلى مصر بشهر واحد، فى مدينة القاهرة وذلك لاستعراض عظمتها وضخامتها ويحتشد مائة ألف من الجند يمثلون جيشا جرارا كأنه البحر.

وإذا ما تأخر وصول الباشا فإن الخلل يلحق بتجارة الشهر حواله[1]. وألزم لوازم الباشا هى أنه يرسل السعاة واحد تلو الآخر إلى الشهر حواله ليعرفه بكل موضع يبلغه الباشا وموعد وصوله ويشد ذلك من أزره ومن أزر القائم مقام ويأمنان القيل والقال.

كما ينبغى أن يأتى مبعوث الباشا من غزة ليبلغه أن الباشا سوف يصل فى يوم كذا فى شهر كذا إن شاء الله الرحمن. وهذا من ألزم لوازم الباشا. لأنه فى ذلك اليوم يخرج جميع أغوات الأوجاقات العسكرية فى مصر حاملين الهدايا والخيام لاستقباله.

ويحضر كتخدا الجاويشية مع سرادق كبير، ومعه على خمسن جملا محمله بماء النيل صندوق من سكر النبات ومائة وعاء تحمل الأشربة المتنوعة وكميات ضخمة من الفاكهة وعشرين جملاً تحمل الخبز الأبيض الخاص والسُوريك[2]. وما إلى ذلك من صنوف الطعام والشراب. بالإضافة إلى جواد مطهم عليه سرج مرصع بالجواهر وعنان ذهبى وسيف مذهب ذو حدين ودبوس مرصع وقباء مقصب وطواشى وثلاثة أكياس من النقد. ويهيئ كتخدا الباشا كل ذلك لاستقبال الباشا.

(١) الموظف المسئول عن إدارة الشئون البلدية بالمدينة.

(٢) السُوريك نوع من الفطائر.

أما التحف والهدايا التى تقدم إليه بعد بلوغه القاهرة، فتكون تبعاً لإسم الباشا وما عُرف عنه وجرأته فهم مهرة فى أعمال الطرافة والنقش. وما أن يرووا الباشا حتى يدرك إن كان عسلاً أم سمناً. أما سُماً وله طبيعة الماء البارد. فإذا ما وضُع على المحك. عرفوا عياره الذى يعاملونه تبعاً له.

ثم يمر كتخدا الجاوشية ومعه مائتان من لابسى العمائم المجوزة، وثلاثة مائة من لابسى الـ «طاس» وهم جاوشيه. أصحاب مكر وسوء طوبه وقد شيّع كل واحد منهم أربعين أو خمسين باشا (ذوى منطق وعقل أرسطو).

وثم جاء رئيس المتفرقة بهداياه مثل كتخدا الجاويشية إلا أن جواده لم يكن له سلسلة من ذهب ولكن جميع هداياه فاخرة ومضى وفى معيته مائتان من مشاة المتفرقة حاملين خيامهم.

ثم كان الدور على رئيس التراجمة وهداياه أدنى درجة من سابقيه ومضى معه عشرة من الجلادين.

ثم خرج رئيس جاويشية الانكشارية ومعه مائتان من ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم عمامة اللباد والصوف لاستقبال الباشا. إلا أن هؤلاء لا يقدمون أى هدايا للباشا. ولأن كل ملازمى الانكشارية يسيرون على الأقدام يتقاضون من الباشا ألف باره فى اليوم ورئيس الشاويشية يتقدم الباشا مترجلا ويتقاضى راتبا يوميا قدره ألف باره. ويمنح سقاء الانكشارية ثلاثمائة باره - كما ينال مشاة المتفرقة ثلاثمائة قرش.

وخامس من مضوا لاستقبال الباشا هو مسلمه وقد أعد كذلك من أجل الموكب ثلاثة احمال من حمول الجمال ومضى ومعه الأحذية والخفاف الخاصة بأغوات قصر الباشا وقباء من فرو للباشا وكنانة وسيفا مرصعين بالجواهر وسراويل مخملية حمراء وعمامة سليمية وريشتان وحذائين شركسيين وسرج محلى بالجوهر وسلسلة من ذهب وعمود وجواد مطهم.

وكان كتخدا القائم مقام سادس من خرجوا لاستقبال الباشا وقد مضى ومعه جواد مطهم سرجه محلى بالجواهر.

وصل هؤلاء من القاهرة إلى مدينة الصالحية فى اليوم الرابع ومكثوا فيها وانتظر جميع الجند مقدم الباشا لأنه إذا ما تجاوز الباشا غزة فإنه يعبر صحارى العريش والقطية وأم الحسن وكلها صحارى مجدبة موحشة والعياذ بالله.

إلا أن مسلم الباشا مضى من الصاحية إلى العريش ومعه الهدايا مع ألف من فرسان كاشف الشرقية والشهر حواله لتقديم هداياهم إلى الباشا.

وفى تلك الليلة أقام كاشف الشرقية وليمة للباشا وغادر الباشا العريش فى تلك الليلة ووصل إلى جسر (   )[1] فى ست ساعات واستراح الباشا فى ذلك المكان وقدم عليه فى هذا الموضع كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة وكتخدا القائم مقام ومعهم كل هداياهم والتقوا بالباشا وقدموا له هداياهم وقَبِلَهَا.

إلا أن رئيس الانكشارية ظل فى الصالحية وفى ذلك الوقت تناول الباشا الفطور ثم تابع سيره إلى الصالحية وعندما اقترب منها وقف رئيس شاويشة الانكشارية مع مشاة الملازمين وقبلوا الأرض فالتفت إليهم الباشا وتقدموا نحوه ومضى رئيس شاويشية الانكشارية مترجلا وفى قدمه حذاء أحمر وحول خصره حزام. إلا أن عبدى باشا كبير الملاحين والذى كان بلغ من الكبر عتيا سمح له بركوب الجواد ولم يكن هذا بصفة رسمية وإنما بصفة ودية ولكنه اعتذر قائلا: إننا فى فرقتنا فى الأستانة كنا نخاف من ركوب الخيل.

فقال الباشا أنا الوزير المعظم لقد كنت بنفسى ضريح حاجى بكتاش ولى قبل أربعين عاما ولقد أذنت لك فامتط صهوة الجواد.

وعندئذ كان من اللازم أن يقبل ركبة الباشا ولقد أنقذنى فى مصر كونى من مسنى فرقتى ولكى لا يتهمونى بخرق القانون التمست العذر، وركب الشاويش الجواد بمساعدة ستة من الجند وأراد الباشا أنى تفكه فقال له لقد تقدمت فى السن بحيث لا تستطيع ركوب الخيل إلا بمساعدة سبعة من الرجال. فرد على الوزير قائلا: ولكن ليس بمقدور عشرين من الرجال أن ينزلونى عن جوادى. فضحك الباشا ومنحه أربعة وسبعين دينارا من ذهب وعلى هذا النحو دخل الباشا مدينة الصالحية فى موكب عظيم ونزل فى سرادق عظيم وجلس على كرسيه وكان ذلك أول جلسة للديوان يعقدها فى هذا السرادق. واستمع الباشا إلى بعض القضايا الهامة وفصل فى بعض المنازعات.

(١) بياض فى الأصل.

وخاف المصريون من أحمد باشا الدفتردار فى هـذا المكان ولم يقبل حبة قمح من أحد وتصدق كل أحد حسب استعداده ومقدرته وفصل فى الدعاوى مثل القاضى عسكر.

وعندما نزل الباشا إلـى حجرته نحر مائتين من الغنم وخمسـين عجلا وعشرة جمال والتهمها البدو والفقراء المعدمون وغادر البـاشا الصالحية وعندما بلغ «أم القُرين» وزعت الهدايا على جميع الجند كأنها فيضان النيـل، وأقام كاشف الشرقية مأدبة عظيمة للباشا، وبعد الفراغ من الطعام امتطى الباشا صهوة جواده المطهم وبلغ قصبة «أم القُربن»، وأقـام هناك فى سـرادق جميل عقد فـيه الديوان كذلك ونـال الهدايا من أغوات الأوجـاقـات السـبعـة. وسوف نصـف هذه الهـدايا عند حـديثنـا عن قانـون مصر فيـما يخـتص بالتشريفات.

ولقد خرج أهل أم القـرين لاستقبال الباشا عندمـا اقترب منها الباشا، كمـا استقبله كذلك الروزنامجـى وكل أرباب الديوان وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجـاقات السبعة وقَبَّلَ الجميع يد الباشـا، وانعقد الديوان فى مدينة بلبيس كذلك، وحـيث إنها تعد مقرا لكاشف الشـرقية أقام وليمة عظيـمة للباشا أنفق عـليها خمسة عشر كـيسا ودامت هذه الوليمة أربعة أيام. وفى هذا الديوان أصبح شيخ العربان عايد (صاحب الدرك)، ولكى يتم عبور عسـاكر الإسلام فى سهولة ويسر ثبت هـذا الشيخ فى منصبه كرئـيس لقبائل عايد ونال خلعة فاخرة. وقد أحضر خمسة جياد فارهة .

ثم غادر الباشا أم القـرين وفى طريقه إلى «الخانكاه» أقبل عليـه أمير الحج والدفتردار وأرباب الديوان وتوجه إلى «الخانكاه» فى موكب عظـيم وهناك عقد ديوانا عظيما ولأنها أرض كاشف قلـيوب أقام كاشفها الولائـم العظيمة للـباشا ومن معه وقدم إليـه خمسة برازين يصل ثمن كل واحد منها إلى ألف قرش، وفى هذا الديوان خلعت خلعة فاخرة على شيخ عرب الدشيـشة وثبت فى مشيخته، وجاءه الكثير من أعـيان القاهرة، والتقوا مع الباشا، وعندئذ قـدم القائم مقام فى موكب عظيم وقبل يد البـاشا وقدم إليه الهدايا من الجواهر، وقدم للقائم مقام القهوة والشراب والبخور، ثم عاد ثانية إلى القاهرة وفى معيته الشهر حواله. وقدم الكثير من أعيان القاهرة كذلك لتقبيل يد الباشا.

ذكر موكب العادلية والولائم الربانية
والديوان العثمانى وأفراح القاهرة المعزية

وفى اليوم التالى قدم الباشا إلى العادلية فى موكب عظيم استغرق خمس ساعات، ونزل فى سرادق سلطانى غاية فى الفخامة والأبهة، وعفر كبير معدى السماط جبينه على قدم الباشا ودعى الباشا إلى المأدبة قائلا: نحن عبيد فى خدمة مولانا السلطان، فليتفضل مولاى إلى الطعام.

وجلس الباشا على رأس السماط وعلى يمنته أمير الحج وعلى يسرته دفترداره، وجلس الأمراء وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجاقات السبعة وسائر قدامى الفرق العسكرية يتناولون الطعام، وعقب الفراغ من ذلك دعى شاويشية الموكب جميع الأغوات لحضور الديوان واعتلى الباشا منصة العدل فى العادلية وعزفت الموسيقى العسكرية وأقيمت الدعاوى وفصل فى الخصومات، ثم رفع الديوان على أن يعقد فى اليوم التالى. ونادى شاويشية الموكب فى الحضور ونبهوا عليهم إلى أن الإقامة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

وقدم أهل القاهرة إلى ساحة العادلية بخيامهم صغيرة كانت أو كبيرة، مستأجرة كانت أو مستعارة وأقاموا خيامهم تلك ومكثوا فيها. وأقيم فى هذه الساحة عدة آلاف من الخيام فأصبح كذلك أشبه شيء بمعسكر عظيم للجيش، وفى تلك الأيام لم يبق أحد فى بيته بالقاهرة وازدانت ساحة العادلية والطوبخانة وساحات سبيل علام والغورية بالخيام والسرادقات المزينة وكأنها روضة ورد يغمرها مظاهر السرور والبهجة ليل نهار وازدانت كذلك بآلاف القناديل فأصبحت تلك الليالى كأنها ليلة القدر، أما نهارها فنهار العيد. وأقيمت الألعاب النارية فى سماء العادلية وأطلقت آلاف المدافع والبنادق من الخيام هز دويها الأرض والسماء، وعلق على أعمدة الخيام والسرادقات ما يقرب من ثلاثة آلاف قنديل، وشكلت هذه القناديل صورا جميلة كالشمس وخاتم سليمان والقصور وبدت كأنها نجوم.

وأمام سرادق الباشا ربطوا سوارى السفن حتى بلغ ارتفاعها ذروة السماء وعلقوا فيها ما يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ قنديل فبددت أنوارها ظلام الليل إلى نهار.

وقدمت الهدايا إلى الباشا فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال وكانت الهدايا بالقدر الذى ينوء خدام الموكب عن حمله وقدم كل بك من البكوات جوادا ذا سرج مزين بالجواهر أما دفتردار القائم مقام فقد قدم جوادين زين سرجهما بالجواهر وسلسلتين من ذهب. كما منح الباشا هدايا نفيسة أخرى.

وقدم أغوات الأوجاقات السبعة والأغوات الزنوج المصاحبون للسلطان وبكوات الشراكسة والروزنامجى أفندى وموظفو الإدارات السبعين والأمناء السبعون والكشاف السبعون والملتزمون الذين لا يحصون كثرة الجياد والطواشية وغير ذلك من الهدايا إلى الباشا. كما وزع كتخدا الباشا المنح والصدقات على خمسة وعشرين أغا من الأغوات أصحاب المراتب ورئيس من يسوسون الخيل ورئيس العكامين.

وجملة القول أن كلا من خدام الباشا ممن لهم لقب «باشى»-أى الرئيس قدم المصريون إلى كل واحد منهم التحف والهدايا.

وكان جملة ما قدم إلى الباشا من هدايا مائتان من الجياد المطهمة ذات السروج المزدانة بالجواهر ومائتان أخرى سروجها عادية.

كما نال كل من الخمسة وعشرين من أصحاب المراتب جوادا هدية.

وعندما وصل أمراء الإسطبل العادلية قادمين من الصالحية كان الباشا والكتخدا مشغولين بتلقى الهدايا والنفائس.

وإذا ما تعرضت بالوصف للعادلية كما رأيتها لاصبح كتابى ككتاب ابن جرير الطبرى. وكانت جميع الضيافات والولائم فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال من صلب مال الباشا، وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم. وتكلفت الولائم أربعين كيسا واشترى رئيس العطارين عنبرا بخمسة آلاف باره وعودا بألفى باره وحاسبه الدفتردار على ثمن ذلك. وهذا فى الواقع إسراف فى الإنفاق على الولائم. وكانت كل الأطعمة عبارة عن حلوى وطيلة الثلاثة أيام من أولها إلى آخرها، ولم يشرب أحد ماء وإنما كان يشرب أنواعا من الشراب.

وكم كان ينفق أهل القاهرة فى تلك الأيام على مجالسهم الخاصة وكأن كل منهم ورث سبعة من الأثرياء. وبعض الأعيان من أنفقوا ألف ألف قرش على الألعاب النارية. ومنهم من كان يطلق كل قذيفة بأربعين قرشا.

ومن عجب أن كواكب القاهرة منسوبة إلى كوكب الزهرة والناس يتعللون بذلك طلبا للبهجة والسرور. وأهل القاهرة منعمون ولله الحمد، وأقلهم راتبه يتراوح بين خمس إلى ست يارات، وحتى للنساء منهم لهن رواتب ومعاشات. إن وفرة المال هى السبب فى سفاهة الرجال، ففى المثل التركمانى: (إذا ما زاد السمن لدى العربى فإنه يبحث عن وسيلة يضيع بها هذا السمن).

ويحرص المصريون على إلحاق لفظ الغنى والمغنى بأسمائهم.

ذكر دخول وزراء مصر إلى القاهرة قادمين من العادلية لأول مرة

وفى منتصف الثلاثة أيام خلع المصريون وجميع أغوات الباشا خيامهم وعادوا إلى القاهرة بخيامهم وأمتعتهم وأرسل إلى الشهر حواله إلى أغوات المراحل، وتخفف كل شخص من ثيابه الثقيلة ولبس ثيابا خفيفة لطيفة نظيفة، وبقى فى كل بيت من بيوت الأغوات خادم ومضوا إلى موكب الباشا فى العادلية.

وفى صباح اليوم التالى أدى الباشا صلاة الفجر مع أغا الانكشارية وأغا العزب وأغوات الأوجاقات السبعة، ثم تناولوا طعام الفطور، وجهزت صفوف الموكب على الفور، وأصبح الجند على أهبة الاستعداد للتحرك ودعو بالخير لعزيز مصر.

وعندما ركب الباشا جواده هتف جميع الجاويشية بحياته قائلين: أطال الله عمر سلطاننا وأيده وأدام دولته. وأخذوا يصفقون. وفى ساعة السعد بإذن من رئيس المنجمين سيقت الجياد ومر الباشا بجواده من أمام قبر طومانباى فى العادلية وقرأ الفاتحة ترحما عليه، ثم عاد إلى صفوف المواكب وعندئذ عزفت الموسيقى العسكرية وتردد أصداء عزفها فى كل الجهات وبدأ الموكب فى التحرك، ومضى الجاويشية فى ثياب مزركشة على جيادهم وقد تحلت أيديهم من فضة وتحلت رؤوس جيادهم بالريش قارعين طبولهم

واصطفت صفوف الموكب ودخل شاويشية الموكب بين العسكر ونادوا فيهم بالمحازاة يمينا ويسارا، وتحرك موكبهم، وكان الصوباشى قد تقدم الصفوف لتمهيد الطريق لسير الموكب مع سبعمائة من رجاله. مضت فرقة قوامها مائتان من جند الباشا التتار مدججين بالسلاح حاملين الأعلام، وبعدهم موكب رئيس الدلاة ومعه ثلاثمائة ممن لبسوا جلد النمر وعلى رؤوسهم القلانس وتيجان فرو السمور حاملين الأعلام، وفى أثرهم موكب أغا الكوكليان أى المطوعة وهم كذلك فى بزة الدلاة مروا حاملين الأعلام إلا أنهم أكثر زينة من الدلاة، بعد ذلك موكب الـ «دش كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام وهؤلاء كذلك مروا رافعين الأعلام إلا أنهم مضوا حاملين أسلحتهم، ثم موكب موسيقى الخيمة ومر هؤلاء وعلى رؤوسهم بيض العمائم رافعين بيض الأعلام.

ثم موكب غلمان صراجى القصر وكانوا كذلك مدججين بالسلاح راكبين جيادهم المهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة.

بعد ذلك مضى موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا، مضوا وعلى رؤوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام. إنهم أغوات كُمَّل.

ومن بعدهم موكب رؤساء البوابين وهم يرتدون قباء فرو السمور وفى أثرهم عشرون أو أكثر حاملين الحراب ورءوس النمور، ولأنهم أصحاب امتيازات فقد تقدموا الصفوف، وبذلك انتهى موكب أغوات الباشا بهم وبدأ موكب جند مصر فى التحرك يتقدمهم موكب الجاويشية وعليهم قباء السمور الفاخر وعلى رؤوسهم المجوزات راكبين الجياد، ولم يمر صغارهم خلفهم، إذ إن قانون السلطان سليم يقضى بأن يكون خدام هؤلاء من القواسين.

ومن بعد موكب السباهية ولهؤلاء أعلام خضر وسراويل حمر وطوال الرماح وخلفهم مضى صغارهم مثنى مثنى متحارين وفى يدهم الحراب. كما مر مائة من جورباجيتهم مثنى مثنى ولكن لم يكن فى يد هؤلاء عصى وتقدمهم القواسون حاملين

العلم (الكاويانى)، وهؤلاء الجورباجيه معروفون بأنهم يتبعون أغوات السباهية وخلف كل واحد منهم مضى عشرة أو عشرون غلاما مدججين بالسلاح ثم تبعهم مائتان من جاويشيتهم يلبسون العمامة المعروفة بالمجوزة وفى أيديهم عمدهم وخلفهم لم يمر صغار لأن هؤلاء فرقة شاويشية السباهية وبعد هؤلاء مر اثنان من وكلاء السباهية وخدامهم ومر هؤلاء وهم مدججين بالسلاح، حاملين عصيهم، ثم مر كتابهم مع صغارهم.

ثم مضى أغا السباهية وأمامه اثنان من حملة السيوف ويحيط به أربعون أو أكثر من مشاة القواسين، وخلفه أربعون أو أكثر مدججون بالسلاح حاملين خضر الأعلام والحراب الطوال ويرتدون أبهى ثيابهم ويقرعون طبولهم السلطانية ومثلهم مضى موكب سباهية حملة البنادق، ثم جند السباهية، ومعهم الكتخدا وكتابهم وأغواتهم قارعين الطبول، إلا أن الفرق بينهم وبين فرقة السباهية هو أن لون أعلامهم أصفر.

ومن بعد هؤلاء مضى موكب سباهية المطوعة وهؤلاء كذلك مثل السالف ذكرهم مروا متحازين مدججين بالسلاح لابسين حمر السراويل وفى معيتهم جاويشتهم ووكلاؤهم وكتابهم وأغواتهم قارعين طبولهم، وهؤلاء جميعا حملوا حمر الأعلام وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من فرق الجند الأخرى.

ومن بعدهم موكب بكوات الشراكسة ومر هؤلاء مدججين بالسلاح على جياد سروجها محلاة بالجواهر على رءوسهم العمامة المعروفة بالبريشانى وخلف كل واحد منهم أربعون أو أكثر من غلمانهم الصغار فى ثياب من مخمل حاملين عصيهم. إلا أنهم بلا أعلام ولا طبول.

ثم موكب بكوات مصر وهؤلاء جميعًا مضوا لابسين قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانى يتقدمهم أربعة من شطارهم عليهم بيض العمائم وحريرى الخلع وفى أيديهم الطبر، وبجانب البكوات ما يقرب من أربعين من قواسيهم وخلفهم ما يقرب من مائة وخمسين من أغوات القصر فى ثيابهم المزركشة، وكل منهم مدجج بالسلاح وهؤلاء لا أعلام لهم ولا طبول.

ثم موكب رؤساء البوابين من ذوى الرتب وهؤلاء لطول مدة خدمتهم للباشا أصبحوا خاصته وندماءه ولذا وعدوا بدرجة أغا ومروا متحازين عليهم قباء فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانية مثنى مثنى يتقدمهم رئيس البوابين وجنابهم وأغوات القصر وهؤلاء مروا عشرة عشرة أو عشرين عشرين وفى معيتهم الصراجون والخدام. إنهم سبعة وعشرون من رؤساء البوابين ومناصبهم أعلاها منصب «سردار» (أى أمير الجيش) يرقى إلى مسلم ثم إلى شهر حواله، و «صاغ وزير كتخدا» (أى الوكيل الأول للوزير، و«صول وزير كتخدا» (أى الوكيل الثانى للوزير) وله رتبة الشهر حواله، «أغا الرسالة» و «أمين المخازن» و «أمين بيت المال» و «أمين الشعير» و«الحاصل خرج» و«وكيل الخرج»، و«أغا السويس»، و«أغا دمياط» و«كاتب الحواله» و «أغا رشيد» و«أغا الإسكندرية» و«أغا المنزلة» و«بك الإسطبل و أمين جمرك بولاق» و«أمين دار الضرب» و«ناظرها» و«المقابلة جى» و«الروزنامجى الصغير» و «أمين الدفتر» و«جاويش السلام» و«كبير رؤساء البوابين» و«أغا بنى سويف» و«أغا المنيا» و«أغا منفلوط» و«أغا جرجا» و«رئيس طائفة البوابين» و«كتخدا البوابين».

وهؤلاء الأغوات السبعة وعشرون لبسوا العمائم البريشانية وخلع السمور ومروا مثنى مثنى، أعقبهم من مروا رافعين الطوغات والأعلام لابسين ثيابهم المزركشة ثم مرت تسع جنائب عليها سروج مرصعة بالجواهر ولها سلاسل من ذهب.

إنها جنائب يساوى كل منها خراج بلاد الروم ومرت بين الحين والآخر جنائب مثلها عليها من لبسوا العمائم المجوزة والسراويل الحمر وفى أقدامهم الخفاف الشركسية ثم مر أغا بكوات الإسطبل مع رئيس طائفة البوابين وعليهما العمامة البريشانى ومر الإثنان سيرًا على الأقدام ومر كتخدا البوابين وأغا السلام على جواديهما أما أتباعهما فمروا مشاة وعلى رءوسهم العمائم البريشانية.

ومن بعد مر موكب جند عزب مصر حاملين الأعلام الحمراء المنسوجة بالذهب يتقدمهم أطفالهم ثم كبارهم ثم فتيانهم ثم رؤساء مشاتهم وخدامهم وهم جميعًا غزاة مدججون بالسلاح لبسوا جلد النمر وحملوا تروسًا من ذهب وعلى رءوسهم ريش الصقور وكانوا يحملون بنادقًا كأنها المدافع.

وعلى بعد مائة قدم يتقدمهم من يصعد الدعاء المحمدى وردد جميع غزاة المسلمين «الله الله» تردد أصداؤها فى جميع أرجاء القاهرة. ومروا على هذا النحو ولكن بلا طبول ومر جاويشيتهم رافعين الأعلام.

ثم موكب الانكشارية يتقدمهم صغارهم وأطفالهم بوجناتهم الوردية ماشين وقد ازدهرت أرواحهم وابتسمت وجوههم، ثم مرت فصائل الدّلاة و من بعدهم رؤساؤهم المسنون وعلى رءوسهم القلانس كلها من الصوف المخيط بالذهب، ثم مر مسنوهم وعليهم جلود النمر وعلى رءوسهم ريش الرخم.

ومن بعدهم مر متقاعدو الأوده باشية مدججين بالسلاح وعلى أكتافهم التروس المذهبة، مروا حاملين بنادقهم الثقيلة ومن بعدهم مر مسنوهم أفواجا أفواجا رويداً رويداً يتوسطهم جاويشية الموكب والبوابون و السقاءون يرتدون سود السراويل.

وعلى بعد مائة قدم أمامهم صَعَّد داعى الدعاء الصيحات الإسلامية وردد الجند من أعماق قلوبهم الله الله هز دويها الأرض والسماء حتى استولى العجب والدهشة على جموع المتفرجين. ومضى الأبطال جميعًا كأنهم الغزلان أو طاووس إرم وهؤلاء هم صفوة جيش المسلمين فكل جند المدفعية والجبه جية وجند مركبات المدفعية وفرقة موسيقى القلعة يمرون جميعًا فى موكب الإنكشارية ومجموعهم ٧٣٣٨ من الجند الأشداء ولكن هؤلاء لهم قوة وشهرة عشرين ألف جندى.

وهؤلاء كذلك مروا بلا طبول مشاة رافعين أعلامهم الكبيرة وانتهى بذلك موكبهم أما إذا مضى مائتان أو ثلاثمائة مع قائد إلى الحرب فإنهم يقرعون الطبول.

مر كذلك جند مشاة الإنكشارية مشاة ثم تحرك موكب أغا الإنكشارية وأغا العزب يتقدمهم چورباجيه العزب على جيادهم يلبسون فرو السمور وأمامهم (جدا لرى) وخلفهم غلمان يلبسون حمر السراويل، وعلى يمنتهم چورباجية الإنكشارية مضوا على جيادهم عليهم قباء فرو السمور والصوف أمامهم (جدالرى) وعبر جاويشيتهم القدامى ورؤسائهم، وعلى يسرتهم العزب وعلى يمنتهم الإنكشارية، مروا متحازين ورئيس الجاويشية بجانب الباشا وقد لزم موظفو بيت المال إدارتهم، ومر فقط كتخدا العزب

وكتخدا الإنكشارية متحازبين وكذلك أغا الإنكشارية، وأغا العزب تلاهما صغار مدججين بالسلاح، ثم تحرك ملازمو الإنكشارية وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس المزركشة ذات الريش معلقين السيوف فى وسطهم، ومضوا مشاة بلا بنادق، ومن بعدهم شطار الباشا وهم فى ثياب مزركشة وفى يدهم الطَّبر وعلى رءوسهم خوذات مذهبة مروا على جانبى الباشا حاملين الطوغات، وعلى رأس رئيس الشطار عمامة بريشانية ذات ريش ملكى، وقام رئيس الشطار هذا بتوزيع ما فى جيوبه من عملات ذهبية وفضية صدقة على الفقراء، ورئيس سقائى ركب الباشا على يمنته بسرواله الأحمر وقلنسوته المزركشة وحملة البنادق كذلك لابسين حمر السراويل والقلانس حاملين ذيل ثوب الباشا الذى ركب جواده مزين السرج بالجواهر، وقد لف حول وسطه جعبة محلاة بالجواهر ولبس سروالاً من المخمل وفى قدمه الخف الشركسى وعلى رأسه العمامة السليمية التى علق عليها ريشتين سلطانيتين، وعلى يمنته ثمانية من الجلادين وعلى يسرته سار الصوباشى والمحتسب أغا وهما فى أبهى مظاهر العظمة والأبهة وعندئذ لوح الباشا بالسلام على يمنته ويسرته ووزع عطاياه على الفقراء والناس قاطبة الغنى منهم والشحاذ، الشاب منهم والشيخ رفعوا أصواتهم بالدعاء له قائلين:

«حفظك الله يا والى مصر»، «حفظك الله يا عزيز مصر»، «حفظك الله يا متولى مصر»، وفى أثر الباشا مضى خدمه فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم السيوف المرصعة بالجواهر وعلى رءوسهم القلانس الحمراء المزركشة.

وخلف الباشا كتخدا الباشا وافندى الديوان وهما فى قبائين من فرو السمور وعلى رأسهما العمامة البريشانية، ويتلوهم اثنان وعشرون من خدام الباشا من أصحاب المراتب وغيرهم، وهم جميعًا على الجياد لابسين الطيلسان المحمدى ومر جاويشية القصر وسط أغوات القصر مصطفين حسب درجاتهم ثم مر رئيس موسيقى القصر مع أربعين من رجال فرقته، ثم مر الخزينة دار ورئيس مؤذنى القصر جنبًا إلى جنب، ثم مر العلم واللواء وفرقة الموسيقى العسكرية يدقون الطبول كأنها الرعود، ومن بعدهم مضى صراجو أغوات القصر ثم رئيس السقائين مع أكثر من سبعين من رجاله على جيادهم

المزينة بالورود رافعين خضر الأعلام، ثم مر حملة المشاعل بمشاعلهم المزينة بشتى الألوان يتراقصون ويصفقون صائحين: «الله ينصر السلطان»، وعندما دخل الباشا القاهرة على هذا النحو اصطف لاستقباله فى ميدان الروملى جميع السباهية وفرق حملة البنادق والمطوعة والشراكسة ومشاة المتفرقة وهنأوه بسلامة الوصول فحياهم وانصرف جميع الفرسان إلى ديارهم وعندما خطَا الباشا من باب العزب قائلاً: بسم الله، نحر العزب مائة من الكباش وأراقوا دماءها تحت حوافر جواد الباشا وبسطوا أكفهم بالدعاء له بكل خير، وسار العزب والإنكشارية بجانب جواد الباشا حتى دخل قصره وسط مظاهر الجلال والعظمة وعندئذ ذبحوا مائتين من الخراف وتعالت أصواتهم بالدعاء للباشا وقرأ الباشا الفاتحة وعندما ترجل عن جواده صفق جميع الجاويشية والموضع الذى نزل فيه الباشا عن جواده هو الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم فاتح مصر فجلس الباشا فيه قليلاً تبركا وتيمنًا.

ثم صعد الباشا سلما حجريًا من خمس وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى ناطقا باسم الله وعلى يمنته الكتخدا وعلى يسرته كتخدا الجاويشية والجاويشية يدعون الله للباشا قائلين: «بارك الله ثبت الله قدمكم وأدام دولتكم»، وفى التو أشار رئيس جاويشية الإنكشارية بمنديله إلى القلعة فأطلقت المدفعية أكثر من أربعين طلقة من برج الطوبخانه وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة صغيرة.

ونادى كتخدا الجاويشية قائلاً: «هل من صاحب مظلمة أو مصلحة»، وعندئذ لزم الصمت كل من فى الديوان ثم تقدم نحوه ستة من مكة والمدينة يتقدمهم من يطلق عليه مصطلح «صاحب المصلحة» وقال: «مرحبًا بمقدمك يا وكيل السلطان خادم الحرمين الشريفين». وسلمه تقريرًا يتعلق ـ ولابد ـ بشئون مكة والمدينة فتسلمه الباشا قائلاً: بسم الله، وخط بالقلم مستصوبًا وأصدر أوامره وتوصياته فى تلك المسألة بوصفه وزير مصر ووكيل السلطان العثمانى خادم الحرمين الشريفين، لذا أنشأ فى ديوان مصر إدارة مهمتها النظر فى أمور الحرمين الشريفين وكان ذلك أول أمر بت الباشا فيه فى ديوان مصر. ثم دعا داعى الديوان وتليت الفاتحة، ثم قبل الأعيان والأشراف جميعا يد الباشا وجددوا له

البيعة وعندئذ عزفت فرقة موسيقى القلعة فى ميدان القصر إحدى المقطوعات الموسيقية ونالوا من الباشا منحة قدرها ألف پاره وانصرفوا. وقبل جميع أرباب الديوان يد الباشا طيلة ساعة.

وبعد ذلك قرأ داعى الديوان الفاتحة وأخذ كَتْخُدَا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة بيد الباشا ليرفعاه من جلسته على سجادة قايتباى. ثم صافح الباشا جميع أرباب الديوان وصفق جميع الجاويشية وسلموا على الباشا، ثم دخل الباشا حجرته وتفرق جميع الحضور.

وفى تلك الساعة بالذات تلا أربعون من القراء سورة «الأنعام» فى قاعة ديوان الغورى وقد جرت عادتهم على قراءتها كل صباح هناك. وبعد أن مضى الباشا إلى الحجرة التى جلس فيها على كرسيه وتخفف من بعض ملابسه لكى ينعم بالراحة قدم على الفور جاويشية الفرق السبع وطالبوا الباشا بمنحهم.

ولقد أعطى جان بولاد زاده حسين باشا كيسين إلى فرقة الإنكشارية، كما أعطى كيسا إلى كل فرقة من الفرق السبع وبذلك يكون إجمالى ما دفعه لهم تسعة أكياس.

وما ذكرنا من أوصاف موكب استقبال الباشا كان خاصًا باستقبال جان بولاد زاده حسين باشا. لأن من ولى بعده من الوزراء أكثروا من اتخاذ الحجاب.

واستراح الباشا فى تلك الليلة. وبمقتضى قانون السلطان سليم كان لابد من تقديم ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأرباب الديوان صباحًا مرتين فى الأسبوع. وإذا لم يقم الباشا هذه الولائم وأضاف نفقاتها إلى الخزانة أو إلى ماله الخاص فإنه يطالب بها عند خلعه. ويطلبون من الباشا اثنين وتسعين كيسا فى السنة بواقع كيسين لكل وليمة.

وبعد الفراغ من تناول الثلاثة آلاف صحن من الطعام وبعد إحقاق الحق فى عدة دعاوى دفعت مرتبات الفرق المختلفة فى مجلس الباشا وعلم المستحق من غير المستحق، والديوان فى ذلك اليوم على هذا الحال، وقدم أعيان القاهرة زرافات زرافات للتبريك ودام الحال*على هذا ثلاثة أيام والناس يأتون لزف التهانى للباشا كأنهم البحر.

أما ما كانوا يـقدمونه من هدايا إلى البـاشا فلا يعلم عددهـا إلا الله، وإذا ما رغب الباشا عن هذه الهدايا فهذا منه تصرف غايـة فى الحكمة والسداد، لأنه إذا ما قبلها لقاء أداء مصلحة ما ولم يؤد هـذه المصلحة طالبوه برد تلك الهدايا عنـد عزله وجملة القول أننا تحدثنا عن الموكب الخامس لمصر بناء علية تلك المراسم.

رسالة تحذير لوزراء مصر بشأن التشريفات

وبعد الموكـب سالف الذكر إذا ما أخـطأ الباشا التـصرف وخلع على أهـل المناصب خلعًا أكثر من التى أرسلت من قبل السلطان فإن هذه الخلع الزائدة تكون من صلب مال الباشا وهذه نفقات باهـظة تكون وبالا على الباشا حين عزله. وينبـغى عليه التحرز من ذلك تمام الاحتراز.

فعندما أصبح كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قـسم هذه الخلع ثلاثة أقسام متنوعة الأعلى والأوسط والأدنى. والخلـعة من القسم الأعلى كانت تـساوى ألـفى بادة والخلعة من القسم الـثانى تساوى ألف پارة، أما القســم الأدنى فخلعته تـساوى خمـسمائة بارة، وجعل يهوديًا رئيسًـا لصانعى الخلع فصنع له ستة آلاف خلـعة فى العام وبمجرد أن قدم الباشا إلى مصر جدد البيعة لجميع أصحـاب المناصب والكشاف والأمناء فبلغ عدد الخلع التى وزعها عليهم من قدوم الموكب من الصالحية إلى العادلية إلى القصر ١٠٤٥ خلعة، منها خلع من مـال السلطان وأخرى من صلب مال الباشا وكان مـن اللازم التحكم فى ذلك وبقدر ما مـنح من خلع أقر فى المنـاصب، وفى خلال سبعة أيام وسـبع ليال كان الباشا قد أنفق ألف ومائتى كيس (قبل الشروع فى المعركة).

وصية إبراهيم باشا لوزراء مصر

ويقول إبراهيم باشا:

الباشا الحكيم ينبـغى عليه أن يقيم وليمة لجميع أعيان البـلاد وبعد الفراغ من الطعام يشاورهم فـى الأمر ويسأل عما إذا كان فى ذمـة الباشا الأسبق من مـال ويعرف ذلك. وإذا ما ثبت له ذلك استـدعى إلى الديوان كل من كتخدا الباشا المخـلوع والشهر حواله وافندى الديوان ومـسئول بيت المال ووكيل مـصروفات الباشا وكل أولى الأمـر وسألهم

عما تبقى فى ذمة الباشا السابق، بقدر السنوات التى قضاها فى الحكم، من أموال القرى المحلولة والخزانة طِبق سجلات الروزنامة ويسأل كل ما يطير فى السماء ويدب على الأرض ويسبح فى البحر.

ولكى لا ( )[1] الباشا يمضى إلى الباشا المخلوع وفى معيته مسنو الجاويشية وقد ساء أدبهم واستبدوا برأيهم وثارت ثائرتهم، ومسنو جميع الفرق العسكرية، وكتخدا الجاويشية، وكل وكلاء الفرق العسكرية، ويدخلون على الباشا المخلوع دون مراعاة ما كان له من حقوق عليهم سابقًا، ويسلمونه دفتر الروزنامة قائلين: تبقى عندك قدر مائة كيس من مال السلطان. فإذا ما قال الباشا المخلوع: سوف ألتقى بأخى الباشا غدًا وإذا ما كنت مدينًا أديت ما على من دين. أمهلوه.

أما إذا أنكر واستكبر فينبغى عليهم أن يحبسونه فى قصره أسفل المدينة أو قصر يوسف يحاصره چورباجى من كل فرقة فى عدد من رجاله وينبغى ألا يتعرض له أحد بأى أذى لأنه حدث ذات مرة أن جزءا من قصر «قوجه مصطفى باشا» انهدم نتيجة هجمات الجند فالتمس مصطفى باشا عطف السلطان فقرر إبقاءه فى مصر ثانية، ودخل القاهرة فى أربعين يومًا فأعمل السيف فى عدة آلاف من جند مصر حتى إنهم لقبوه بقاتل الجند ولهذا السبب يحبسون الباشا ويحرصون على سلامته.

أما إذا رق له الباشا الجديد وقال: إن هذا المال فى ذمتى فإن ذلك يقيد فى السجل المحمدى فى حضور قاضى العسكر وشيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة وكبار الأعيان والأشراف، ويحصل الباشا ما تبقى وعندما يخلع الباشا يحاسبونه على ذلك.

أما إذا قال الباشا إنى لا أتحمل ما على الباشا المخلوع أى إذا قال إنه لا يستطيع أن يسدد دينه. يعرض الباشا أمره على الأستانة قائلاً: إن فى ذمة فلان باشا الوزير الأسبق عليه دين (بقايا) للخزانة السلطانية وهذا ما يسبب عجزًا فى الخزانة. والأمر لمولاى السلطان.

وعلى هذا النحو يبعث بتقريره إلى الإستانة. وفى خلال أربعين يومًا أو أكثر يصل الأمر السلطانى مع أحد رؤساء البوابين أو أحد القواد وفيه: «أنت وزير مصر وعليك تحصيل ما فى ذمة الباشا المخلوع من مال السلطان».

(١) بياض فى الأصل.

وإذا ما صدر الفرمان السلطانى بذلك، حُبس الباشا المخلوع وكبار أغواته فى برج يوسف وباعوا كل أمواله وممتلكاته فى المزاد، فيخلو وفاض الباشا وأتباعه ويدوم حبسهم ثمانية أو تسعة أشهر وقد يمتد سجنهم إلى عام ويصبح الباشا فى حاجة إلى الدوانق[1]، ويطلق سراحه بعد سداد ديونه وينقل إلى قصر أو يبقى فى ذلك القصر تحرسه فرقة من الجند.

يأتى بعد ذلك المدعون وأصحاب المظالم والشكاوى من كل صوب يطلبون ما أخذه الباشا المخلوع من رشوة دون مراعاة لمصالح المسلمين وانحرافا عن جادة الشرع الشريف.

فأما أن يعينه وزير مصر ويصونه قاضى العسكر ويدفعان لكل واحد من المدعين جزءًا من الشىء لإصلاح ذات بينهم. أو أن يحرص الباشا والقاضى عسكر والفرق السبع المدعين فتسوء حالة الباشا المخلوع وأغواته إلى أبعد حد فيطوفون بهم من مكان إلى مكان للتشهير بهم.

- خلاصة القول:

إذا كان الباشا عاقلاً ومدبرًا - حاسب المصريين قبل أن يحين عزله بخمسة أو ستة أشهر وألا يعتمد عليهم فى حساب ما عليه من ديون بل يراجعها مع الأستانة وعند خلعه يصدر فرمان سلطانى مع المسلم أو كتخدا الباب يجىء فيه: «أنت يا فلان وزيرى على مصر إذا ما وصلك فرمانى هذا عليك أن ترسل إلى الأستانة الوزير فلان معززًا مكرمًا» وعندما يصدر فرمان على هذا النحو فإنه - والعظمة لله - لا يفارقون الباشا المخلوع لشهر أو أكثر حبًا فيه ومجاملة له إذ إنه فى طريقه إلى الباب العالى ومن المؤكد أنه سيصبح صدرًا أعظم. ولا يجترئ وزير مصر ولا القاضى عسكر ولا جند مصر على الفصل فى ديونه ولا يستطيع أحد القول بأن حبة واحدة بقيت فى ذمة الباشا المخلوع وفى خلال أشهر أو أكثر عندما يهيئ الباشا أمتعته يأتيه مائتان أو ثلاثمائة بغل أو جمل وما يقرب من ألف من الجياد والطواشية ومال لا يحصى كثرة حتى إن الهدايا التى تأتى

---

(١) الدوانق: وحدة النقد العباسية ومفردها دونق.

الباشا عند عزله تكون بقدر الهدايا التى تقدم إليه حين توليه على مصر فقد تسلم إبراهيم باشا ألف كيس حين عزله، وبينما كان فى طريقه معززًا مكرمًا إلى الأستانة أسندت إليه ولاية الشام.

الموكب السابع لمصر حينما يعزل الباشا ويخرج مكرمًا

وهذا الموكب مثل موكب دخوله القاهرة بل إنه من الوزراء من تزاد له المواكب.

أما ـ والعياذ بالله ـ إذا ما عزل الباشا عن مصر منكوبًا ولم يظهر له صديق فى الأستانة خرج إلى العادلية بلا تعظيم وبلا تكريم مع أتباعه ويمضى إلى الأستانة محزونًا كاسف البال.

وينبغى للعقلاء من وزراء مصر أن يأخذوا العبرة من هؤلاء فعندما يتولى أمور مصر يتوخى الحكمة وسداد الرأى ويلزم جانب الحيطة. وعليه أن يطلع على كافة أحوال من سجنوا من الأمناء والملتزمين والكشاف المفلسين ويسعى فى إطلاق سراح كل منهم وعليه أن يفتش عن الأموال المطلوبة ممن سجنوا لدى الفرق السبع ويطالب بذلك المال.

وهذا ألزم ما يلزم الباشا العاقل فى البداية حتى إذا سألنا عنه حين عزله لا نُفَاجَأ بأنه فى السجن! يقولون له: كان ينبغى لك التحرز وقت توليك الحكم، ما الذى منعك عن عدم الاحتياط؟

- ومن ألزم لوازم الباشا كذلك أن يسأل من تبقت غلال فى ذمته وأن يساعد المظلومين والمقهورين على استرداد حقوقهم من ظالميهم ويرشق أكباد الظالمين بالسهام ويقتص منهم، ويتجاوز عن جرائم بعضهم ويعفو عنهم امتثالا لقوله ﷺ: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا»، ويتصدق على كثير منهم ويعمل السيف فى بعضهم الآخر وهذا من ألزم لوازمه وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم.

- وعلى الباشا ألا يقبل رشوة من أحد لأنها تسترد منه عند عزله، وعليه ألا يثق بقول أهل الزيغ والفساد ويتصرف كيفما شاء دون أن يحيد عن صلاحه فينعم براحة البال.

- وعليه كذلك أن يقوم كل شهر بمحاسبة الروزنامه جى وكل أهل الديوان وأن يسجل كل ما يحصلونه. والسلام.

- وعلى الباشا أن يتخذ روزنامجى من أهل الاستقامة والصلاح والثقة، إذ إنه عند خلع الباشا يصبح في إمكان الروزنامجى أن يعمل كافة حيله الشيطانية ـ فلقد جاد إبراهيم باشا على من يدعى عبد الرحمن أفندى الروزنامجى بمائتى كيس وعند عزل الباشا حسب عليه ستمائة كيس، وفى الوقت الذى تبقى فيه لإبراهيم باشا سبعمائة كيس لدى عبد الرحمن الروزنامجى بإيعاز من الأخير ادَّعُوا أنَّ فى ذمة إبراهيم باشا ستمائة كيس. بيد أن جان بولاد زاده حسين باشا اتهم الروزنامجى بالخيانة، وقتله خفية بعد الطعام؛ فحمد الله جميع أعضاء الديوان وكان جميع الأمناء والكشاف من ظلمه شاكين باكين.

- وهكذا فمن الحتم أن يكون الروزنامجى من أهل التقوى والصلاح.

وصية أوليا لوزراء مصر

اللهم عافنا فقد انخدع باشوات مصر بمظاهر العظمة فى مواكبهم التى أسلفنا وصفها، فدخلهم الغرور، إذ إن من نهل من ماء النيل حكم حكم الجبابرة المستكبرين فمصر هى أرض الفراعنة.

ولكن على الباشا أن يألف الناس ويعاملهم باللين والرفق، وعليه الالتزام بحدود الشرع الشريف. وعليه أن يسند أمر الخزانة السلطانية إلى كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والدفتردار، وأن يلح فى كل ساعة على تحصيلها.

وعليه ألا يبيع القرى المحلولة بل يجب عليه أن يسجلها لأن الأوامر ترد إليه من الأستانة مع بعض أغوات الباب العالى يطلبون «الترقيات». ويلزمُ منح «الترقيات» إلى من يخرج إلى الحج ومن يذهب إلى خزينة اسطنبول ومن يأتون من مكة والمدينة والذاهبين إلى القتال وكثير من أمثالهم.

وينبغى حصر القرى المحلولة بحيث يدفع سبعة آلاف أقجه كـ «ترقيات» حسب ما جاء فى قانون السلطان سليم. وهذا كله يطالب به الباشا. ومعظم وزراء مصر لهذا السبب لا

يمنحــون الكشوفيات إلى الـكشاف المفلسيــن من مخزن يوسف وإدارة الروزنـامجى وهذا سبب اتهـامهم ومذمتهم. وعنـد خلع الباشا يطالـب بسداد مال السلطان و «الـترقيات». وعلى وزراء مصـر أن يرفعوا أيديهم عن أوقـاف الله، وألا يتعرضوا لهـا وألا يأخذوا من هذه الأوقاف مالا. وكل ما عليهم هو الإشراف عليها وتعميرها لتحسن العواقب.

وعليهم كذلك ألا يثقوا فى كلمة مفســد وألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وألا يكونوا عونًا للمجرمين من طائفة جند «القاسمية وذى الفقارية» ومن والاهم وعليه محاسبة الإدارات الاثنتى عشرة فى كل عام ويُحكم الرقابة عليهم.

وجملة الـقول أنه يجب على الـسلطان ألا يحاسـب وزيره على الوسيلـة وإنما على الغاية والنتيجة، فـفى المثل التركى: «إذا كنت سوف تعطى فأعط الحاشـية لتعطى البك ليعطى الباشا».

وعملاً بهذا المثل فأعط السلطان تسعة ولا تعطيه عشرة من خلال أتباع الوزير.

ولا تأت إلى مصر فى جنـد كثير ويكفيك أن تأتى فى ثلاثيـن أغا وثلاثمائة حارس وإذا عقدت العزم أن تحكم مصر بالحديـد والنار وأحضرت عشرة آلاف جندى فإن ذلك قطرة فى مـحيط، وذرة فى شمس. وإذا جـئت بعشرين ألـف جندى فلا تسكـنهم فى المدينة فلا طاقة لولايتك بتحملهم لأن جميع قراها من مال الحكومة.

وجند مصر جميعًا فى خدمتك ورهن إشارتك فـاستخدمهم بسهولة، وعامل الجميع بيسر واعتدال، وإذا كنـت من أهل التقوى والاعتدال وعاملت النـاس بالحسنى، فسوف يتحصل لك فى العام ألفا كيس وإذا ما زاد عدد القرى المحلولة يتحصل لك ثلاثة آلاف كيس وتأتيك هدايا سنوية تقدر بألف كيس. ولكن شريطة أن تبسط جناح رعايتك على أصحـاب الشـأن ورجال الـسـيف وأهل الـكرم والـصادقيـن وأهل الوقـار وتجزل لـهم الصدقات، وإلا امتلأت مصر بمـن يتسلطون على العباد ويستبدون بهـم. وينبغى عليك أن تعقد أواصـر الألفة بينك وبـين الأمراء وأغوات الأستانـة ممن قضوا فترة طـويلة فى خدمة أكثر من سلطان وتولوا أكثر من وزارة. وثمة بيت فريد يقول:

لو لـم يكـن الـنـاس عـالـم بقلبـه ∴ ينبغى عليه أن يعيش بقدر المستطاع

وهؤلاء ممن تولوا المناصب ورغد عيشهم، أما حينما عزلوا لعنوا وحقروا وساءت أحوالهم.

الموكب الثامن وهو موكب وصول مقرر وزير مصر

عندما يصل هذا المقرر إلى مدينة بلبيس فإنهم يرسلون الخبر حتى يتجهز الجميع للموكب. وفي ذلك اليوم يُخطِر كتخدا الباشا جاويشية الموكب ليكونوا على أهبة الاستعداد، ويرسل وكيل مصروفات الباشا مطبخه إلى العادلية لتهيئة الولائم. وفي ذلك اليوم وفي تلك الليلة يكثر الهَرْج والمَرْج ويستأجر جميع أهل القاهرة الدكاكين حتى باب الناصر لمشاهدة الموكب. وفي صباح اليوم التالي يستأذن الكتخدا من الباشا للمضي على الموكب وفي معيته فرقة الموسيقى العسكرية وهي تعزف إحدى المقطوعات الموسيقية.

أما في عهد إبراهيم باشا الكتخدا لأنه كان من اللازم إحضار من جاء بالمقرر السلطاني والخلعة الشريفة والسيف وسط مظاهر الأبهة والعظمة، أمر الكتخدا بأن يحمل جميع أفراد فرقة الموسيقى العسكرية وأغوات قصر الباشا كامل أسلحتهم وعندما ذهبنا لم يكن معنا إلا فرقة الموسيقى العسكرية.

وعند مَقْدِمِنا بمرسوم التثبيت (المقرر السلطاني) نبه علينا بأن نقرع الطبول، وفي البداية مر موكب التتار، والدلاة، والمطوعة، والقائمون على خدمة موائد الباشا، ثم موكب الصراجين، وموكب مشاة المتفرقة، وموكب رئيس البوابين، وموكب الكتخدا.

ثم خرج كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية جنبًا إلى جنب وفي معيتهم رئيس المتفرقة والشهر حواله أفندى وأفندى الديوان وكتخدا البوابين وقد لبسوا جميعًا الثياب المزركشة ومعهم صغارهم وقد لبسوا كذلك أفخر ثيابهم وطافوا داخل شوارع القاهرة وخرجوا من باب الناصر، ولا وجود في هذا الموكب لجندى واحد من جند مصر. وانتظر المصريون جميعًا في الدكاكين الصغيرة في السوق السلطانية وعندما بلغ الموكب العادلية وقف من جاء بمرسوم تثبيت الباشا ـ بقطع النظر عن كونه بك اسطبل السلطان، أو كتخدا بوابين، أو أغا من أغوات الصدر الأعظم ـ للكتخدا وبعد أن صافحه بسط

السماط وتناول الطعام جميع البكوات والأعيان. وبعد القهوة وإحراق البخور ركبوا جيادهم وتحرك الموكب على النحو الذى أسلفنا ذكره، ومضى كتخدا الباشا والأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا جنبًا إلى جنب، وعندما مر دفتردار الأغا يحمل الخلعة الفاخرة والكتخدا يحمل السيف المرصع والأوامر السلطانية التى فى جيب الأغا والكيس الحريرى والصرة المخيطة بالذهب وبداخلها الفرمان السلطانى، عزفت الموسيقى العسكرية ودخل الموكب من باب الناصر وإذا ما رضى المصريون عن الباشا ازدحمت الأسواق السلطانية بهم لمجيئ فرمان التثبيت، وعندما صعد عدة (   )[1] على هذا النحو إلى قاعة ديوان الغورى بالقصر السلطانى بقلعة القاهرة قارعين الطبول، وصل الباشا إلى رأس السلم لاستقبال الموكب ثم وقف أسفل عرش السلطان سليم، وفى التو خرج الأغا الذى أحضر مرسوم التثبيت مع الصرة وهو يحمله فى يده وأخرج كذلك الفرمان والأمر السلطانى من الصرة المزركشة وقبلها ووضعها على رأسه وسلمها إلى يد الباشا فقبلها هو الآخر ووضعها على رأسه ووضعت الطغراء الشريفة مع البسملة وفض خاتمها. وعند إخراج الفرمان الشريف حفل ديوان الغورى بحشود من الناس قدموا لمتابعة ما يجرى بالديوان. ثم تلى أفندى الديوان الفرمان الشريف فى جرأة وجهارة وفى الأغلب يتضمن خير الدعاء للبرايا والرعايا وأحوال مكة والمدينة والخزانة وقول السلطان: لقد قررت تثبيتك فى هذه السهنة المباركة. فصفق جميع الجاويشية وعمت البهجة والابتسام وجوه جميع أرباب الديوان وفى التو تقدم الأغا الوافد نحو الباشا حاملاً الخلعة الفاخرة فى يده، ثم قبلها وألبسها الباشا وعندما ارتدى الباشا الخلعة صفق كل الجاويشية قائلين: «بارك الله لك فيها»، بعد ذلك علق الأغا الوافد السيف المرصع بالجواهر فى وسط الباشا والأغا تحت إبط الباشا وصعدا به سجادة السلطان الغورى وتليت الأوامر السلطانية بأعلى صوت للمرة الثانية، وبيض الجاويشية والأغوات الأوامر السلطانية ووزعوها لتنفيذ ما جاء فيها. وعندما انفض الديوان أطلقت مدافع القلعة سبعين طلقة وعمت البهجة والفرحة الناس جميعًا، وفى تلك الساعة حضر موسيقيو

---

(١) بياض فى الأصل.

القلعة وعزفوا إحدى المقطوعات العربية ومنحوا منحة قدرها ألف باره على الفور وانصرفوا.

وفى صباح اليوم التالى بُسط السماط فى الديوان، وحضره جميع أرباب الديوان وأصحاب المناصب العليا وثبتوا فى مناصبهم وطيبت نفوسهم بما خلع عليهم من خلع فاخرة، وانصرف كل إلى داره وعزف رئيس فرقة الموسيقى العسكرية للقصر مقطوعة موسيقية ونال هو ورجاله على الفور منحة قدرها ألف باره وأقمشة.

وبعد ذلك قدم أربعة وعشرون من أصحاب المراتب لزف التهانى إلى الباشا، ونالوا المنح منه، وفى هذا الديوان عزل بعض الأعضاء وأسندت مناصبهم إلى غيرهم، وحصل مال الكشوفية الخاص بالباشا من جميع أصحاب المناصب وحصل عشرة أكياس من كتخدا الجاويشية وعشرة أكياس من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس التراجمة وخمسة من الروزنامجى وستة من أغا الإنكشارية وأربعة أكياس من رؤساء الفرق العسكرية الخمس الأخرى وخمسة أكياس من كل من الصوباشى والمحتسب أغا نظير تثبيتهم فى مناصبهم وحصل ثلاثمائة وستون كيسًا ممن خلعت عليهم الخلع.

ووزعت عشرون أو ثلاثون كيسًا على أغا الباب العالى الذى جاء بمرسوم التثبيت وأغوات الصدر الأعظم ودفع ما يقرب من عشرة أكياس كذلك على الخيل والطواشية وسائر الهدايا الأخرى.

وأقام كتخدا الباشا وسائر أصحاب المناصب المآدب، وقدموا هداياهم إلى الباشا وأرسلوا بعض الهدايا إلى الأستانة. ونال بذلك الأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا مائة كيس وهكذا ينتهى موكب مرسوم تثبيت الباشا فى منصبه.

الموكب التاسع

موكب إرسال خزانة مصر إلى الأستانة

بمجرد أن يصل مرسوم التثبيت الخاص بالباشا والذى أسلفنا الحديث عنه وتجدد جميع المناصب يوافق ذلك رأس السنة، ولذا يصبح لزاما على الباشا أن يحصل خزانة

مصر ويحظى ذلك باهتمامه ويبحث دفتر دار الباشا وكتخدا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة وكتخدا الباشا والشهر حواله وكل أولى الأمر عما تبقى من أموال فى ذمة الأمناء والكشاف والملتزمين والولاة، ولا تنتهى عند تحصيل مال الثلث الأول والثانى والثالث والمال الصيفى والشتوى، بل يقومون بتحصيل الأموال المتبقية فى ذمة الأمناء العاجزين عن السداد ويكابدون فى ذلك عناء ومشقة لا مزيد عليها، ويقبض على الكشاف العاجزين عن السداد ويعلقون من أذرعهم فى بكرات فى ديوان الغورى ويصلبون وتجرى الدماء من عظامهم ويطرحون فى السجن.

ويحصلون المال السلطانى ويطلقون عليه اسم « الخزانة الكبرى» ونوضح الآن من أين تحصل هذه الخزانة.

بيان بجميع قرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها والدوانق والأوقيات وثقل مثقال القمح والشعير

فى مصر ٧٦٠ مدينة و ٣٠٠٠ قرية و ٦٠ قلعة، وفيها كذلك ٢٤ محكمة على نحو ما سلف ذكره بالإضافة إلى ٣٦ محكمة فى ولاية الصعيد العالى.

يحصل سنويًا ٢٤ خزانة من جميع قرى الكشوفيات والأوقاف والأمناء والملتزمين وأوقاف السلاطين وأوقاف الحرمين والأعيان وغير ذلك من القرى. وهذا ما ورد فى سجلات «الغزالى» وسوف أتحدث عن كل منها فى حينه بمشيئة الله.

إلا أنه ثمة اثنتى عشرة خزانة خاصة بالمال السلطانى وهذا ما سوف نوضحه.

والخزانة الكبرى هذه تمثل المال السلطانى فى ديوان مصر والأستانة وينبغى أن تصل بأى وجه كان لصرف مرتبات عيد الفطر المبارك وتقدر هذه الخزانة بـ « ٢٢٠٠ كيس مصرى» فى كل كيس «٨٤٦ قرشا»، وكل قرش يعادل « ٣٠ باره»، وعلى ذلك فإن كل كيس يحتوى على « ٢٨٠٠٠ » باره، وكل باره تعادل دانقًا وكل دانق يعادل « ١٠ أثقال من الشعير»، والدرهم يعادل «٤ دوانق» ويعادل كذلك « ٤٠ ثقلا من الشعير»، والمثقال يعادل « ١٠٠ ثقل من الحنطة» بناء على هذا الحساب يزن الكيس المصرى( )[١] أوقية.

(١) بياض فى الأصل.

وفى الديوان يسطون بسطًا من الجلد المدبوغ ويحصيها ثلاثمائة من الصيارفة ويزنها الوزانون كلها وتلف كيسًا كيسًا ويختمها الدفتر دار أمام الباشا ثم تسلم إلى «الحاصل خرج»[1] فى ديوان الغورى يضعها الحاصل خرج فى صناديق من خشب الصنوبر (الأرز) بواقع ثلاثة أكياس فى كل صندوق ويسمر كل منها على حدة، وهذه الصناديق مبطنة من الداخل ومن الخارج باللباد ويغطونها كذلك بجلد العجل الرطب ويلفونها بحبل متين ثم يغطونها ببسط حمر. وعلى هذا النحو تجهز الخزانة ويحملها أحد البكوات الثراة المعروفين بشدتهم، ويصرف له نفقات سفره من خزانة السلطان ويؤكد عليه بضرورة التأهب لهذه المهمة.

ويتبعه أحد أغوات الإنكشارية عمن فى سبيلهم لنيل درجة كتخدا وقديم ثرى من كل فرقة من الفرق الخمس الأخرى وجاويش وبيرقدار ويصل إجمالى المكلفين بهذه الخزانة إلى اثنين وسبعين شخصًا يطيبون نفسًا بمايخلع عليهم من خلع سلطانية.

وإذا ما كانت غرة شهر رجب يبسط سماط ديوانى عظيم يدعى إليه جميع أرباب الديوان والعلماء والصلحاء والقاضى عسكر ونائب الديوان وشهود وكتاب السجل السلطانى ويحصى كتخدا الباشا الصناديق التى تكومت كالجبال فى الديوان صندوقًا صندوقًا فى حضور الباشا والعلماء وبك الخزانة ويسلمها إلى بك الخزانة وقادة الفرق السبع وعندئذ يوجه الكتخدا كلامه إليه قائلاً: لقد تسلمت منى ألف ومائتى (١٢٠٠) كيس من مال السلطان بالتمام وأخذت منك صكًا بذلك وهو الآن لدى. فليشهد الباشا بذلك.

ويسجل هذا فى السجل الشرعى ويدعو داعى الديوان وتقرأ الفاتحة. ثم ينزلون الصناديق من ديوان الغورى إلى ميدان القصر يحرسها مائتان من رجال الباشا مدججين بالسلاح راكبين البغال المزينة وقد جلجلت جلاجلها ويحمل الإنكشارية والعزب كل بغل صندوقين بهما ستة أكياس.

(١) الحاصل خرج: مُحَصِّل الخراج.

ذكر موكب خزانة مصر

وتبدأ المواكب فى المسير تتقدمها مواكب الباشا بمقتضى القانون ثم جند الفرق السبع المكلفين بإرسال الخزانة وعددهم سبعمائة، ويمر الموكب بمرأى من الباشا وهم رافعين الأعلام يقرع قادتهم الطبول ومعهم بك الخزانة وعليه قباء فرو السمور وعلى رأسه العمامة البريشانى ومن ورائه رجاله فى كامل زينتهم وسط عزف الموسيقى وقرع الطبول ويلوحون للباشا بالتحية بأعلامهم وطوغاتهم ويقول الباشا لهم: « أمضوا يسر الله لكم أمركم» وعندما ينزل الموكب من القلعة على هذا النحو ينخرط فيه، بمقتضى القانون، عشرة آلاف جندى ممن تجرى عليهم الرواتب (النظاميين) وعندما يطوفون شوارع القاهرة على مهل يصطف الناس على جانبى الطريق العام وقد احتشدت جموعهم لمشاهدة الموكب ويرفع الرجال أصواتهم بالدعاء قائلين: «إن شاء الله بالسلامة»، بينما تطلق نساؤهن الزغاريد ويمشى جند الإسلام يختالون كأنهم الطواويس والبهجة والسرور تعلو وجوههم.

وعندما يصل الموكب من باب الناصر إلى الموضع المسمى بالعادلية يلزم كل مكانه وتكوم كل صناديق الخزانة داخل خيمة بك الخزانة ثم يأتى على الفور الصيارفة وقدامى الفرق السبع ويتولون جميعًا عد الخزانة، بعد ذلك يمررون السلاسل فى حلقات الصناديق ويشبكون طرفى السلسلة بقفل ثم يغطونها بالبسط ويحيط بها الناس جميعا لحراستها ويحتشد كل الجند ويبقى المكلفون بالخزانة، ثم يسترون كل الصناديق بالبسط الحمر. ولفظ «سترك الله» جاء من هنا. وهذا اللفظ شائع على ألسنة المصريين. ويدوم بقاؤهم فى العادلية ثلاثة أيام وثلاث ليال وفى هذه الفترة تعم البهجة والسرور وتعزف الموسيقى العسكرية وهم يقومون على حراسة الخزانة وعند خروج الخزانة من العادلية تصدر الأوامر السلطانية إلى بك سبيل علام وكاشف قليوب وصوباشى المدينة بأن يلحقوا جنودهم بموكب الخزانة فى سهل العادلية وتضاء مئات المشاعل والقناديل حول الجند لحراسة الخزانة.

ولأن صوباشى المدينة مشغول بمهام الحراسة فى العادلية لا تكفى جنود «الديودار» أى حاكم القلعة لحراسة المدينة فيمضى كتخدا الإنكشارية فى ألف أو ألفين من رجاله مدججين بالسلاح إلى الغورية فيقومون بها حتى مطلع الفجر فى لهو ومرح ويؤنسهم ويطربهم مئات المغنين والموسيقيين، ويختصون بحراسة الأشراف. ويتقاضى أفرادهم المكلفين بإرسال الخزانة مرتبًا سنويا يدفع مقدمًا.

يصدر بك الخزانة أوامره لكاشف قليوب بأن يمضى بجنوده مع الخزانة إلى كاشف الشرقية ويصبح الموكب فى هذا اليوم غاية فى أبهته وعظمته ويمضى جميع القادة المكلفين بالسفر من كل الفرق العسكرية.

الموكب العاشر

موكب الفرقة العسكرية المختصة بالخزانة

وفى اليوم الثالث لا وجود لرجال الباشا ولا لغيرهم من جنده، يقتصر هذا الموكب على قدامى الفرق العسكرية وأثريائها. إنه موكب غاية فى روعته وزينته، وكل من فيه من المسافرين مدججون بالسلاح أما من لا يسافرون يمضون بسيف فقط ويعود الباقون أدراجهم. بعد ذلك ينفخ بك الخزانة فى أبواق الرحيل وتقرع الطبول، وبعد أن يسلم كاشف قليوب الخزانة إلى كاشف الشرقية فى حراسة ثلاثة آلاف فارس يتسلم حجة شرعية بذلك يمضى بها إلى الباشا وعندما يسلم كاشف الشرقية الخزانة إلى باشا غزة يتسلم كذلك حجة شرعية يمضى بها إلى الباشا وعندئذ يطمئن الباشا ويهدأ بالاً ويقول: «حمدًا لله الآن فقط سلمت الخزانة إلى البك ودخل بها حدود الشام». ويباشر الباشا مهامه الأخرى.

ما ينبغى أن نعلمه

ينبغى أن نعلم أن نفقات الخزانة التى تحوى ألفًا ومائتى كيس ومصروفات خلع الجند المكلفين بها ومأكولاتهم ومشروباتهم وعلف خيولهم وخيام القادمين بالبغال وأثمان الصناديق والترقيات التى تدفع إلى بكوات الجند القائمين بهذه المهمة لدى عودتهم إلى القاهرة ومرتبات أغوات الفرق السبع ورؤساء خدم القصر الثلاثة والجاويش والبيرقدار

والطبردار والحاصل ترقيات الثمانمائة شخص المكلفين بالمهمة والتى تتراوح بين أقجتين إلى ألف أقجة يوميًا إضافة إلى الخلع تصرف لهم جميعًا لدى عودتهم سالمين إلى القاهرة.

وبناء على حساب هذه النفقات فإن كل خزانة تحوى ألفى كيس بتمامها ولأن هذه الترقيات تصرف من الضرائب التى يحصلها الباشا فإن ذلك يمثل عبئًا عليه يقدر بـ ( )[1] مائة كيس.

وإذا ما أراد الباشا أن يدفع الترقيات طبق الموجود وغير الموجود ومن أدى خدمة ومن لم يؤد فإن الثورة تقوم عليه، وفى النهاية يتصالح أفراد الفرق السبع مع الباشا على أن يدفع لهم خمسة وعشرين قرشًا على كل أقجة ما لم يكن هناك قرى محلولة.

واتفق ذات مرة أن أحصاهم ( )[2] بغتة فكان بها ثلاثمائة شخص وجاءت التعليمات إلى إبراهيم باشا بأن يدفع المنح لثلاثمائة رجل.

هذا قانون السلطان سليم الذى سيبقى ما شاء الله.

الموكب الحادى عشر

موكب إرسال الباشا «منحة العيد» إلى السلطان

إذا ما وصلت بشرى وصول الخزانة إلى دمشق من بك الخزانة وأغوات الفرق المبعوثين يبتهج الباشا لذلك ابتهاجا لا مزيد عليه. وإذا ما حلت غرة شهر شعبان يبدأ فى إعداد خزانة منحة العيد (العيدية) ولا يشترك فى ذلك بكوات مصر ويقيد الباشا لهذا أحد أغواته من ذوى الوقار والمنزلة وأحد قواده الأكفاء ويجود بصدقاته على رجال أشداء أكفاء مدججين بالسلاح من فرق التتار والدلاة والمطوعة والمتفرقة وغيرهم من الفرق الأخرى إضافة إلى ثلاثمائة رجل آخرون من الشباب الأشداء المتفردين من الفرق السبع لهم القدرة على استعمال السلاح وركوب الخيل ويقرر لكل منهم ترقية قدرها أقجه لأن هؤلاء يمضون كأنهم ذاهبين للقتال ويتخطون الخزانة الكبرى ويصلون قبلها بخمسة عشر أو عشرين يومًا إلى الأستانة وهذا عليهم من الحتم.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وتضرب عملة ذهبية خاصة بالسلطان فى دار الضرب من أجل إرسال منحة العيد إليه ويتوسط هذه العملة حلقة من الفضة الخالصة ولا تدخل هذه العملة ضمن ميزانية الخزانة بل هى من صلب مال الباشا وتقدر بـ (   )[1] كيسا من العملة المصرية، وترفق بهذه الخزانة بما يقدر بثلاثمائة كيس من السلع النفيسة الواردة من بلاد اليمن والهند والحبشة وتحزم هذه الأمتعة فى صرر.

ترسل عشر صرر منها إلى والدة السلطان وخمس صرر لمحظيات السلطان وخمس لأبنائه وخمس لوالدة كتخدا السلطان وثلاث صرر لأغا السعادة واثنان لخدام الباب العالى واثنان للخزينة دار الرئيس، واثنان لكبير خدام قصر السلطان واثنان لكل سلاحدار وجوقدار وركابدار وأغا القصر القديم ورئيس حاملى الطبر، ورئيس مقدمى القهوة فى بلاط السلطان وهؤلاء جميعًا ممن لهم صلة بالقصر السلطانى.

كما يمنح الصدر الأعظم عشر صرر وعشرة آلاف دينار من ذهب ويمنح كتخدا الصدر الأعظم خمس صرر ويرسل إلى رئيس الكُتّاب ألف دينار وكل كاتب من كتاب التذكرة صرة وثلاثمائة دينار ذهبى، وصرة وثلاثمائة دينار ذهبى لكل من كاتم السر فى الديوان والروزنامجى أفندى وكتخدا بوابى الصدر الأعظم والخزينة دار ورئيس طائفة البوابين ورئيس الجاويشية كما يعطون صرة واحدة لكل من الدفتردار باشا وشيخ الإسلام وقاضى عسكر اسطنبول، إلا أنهم يمنحون لكل من شيخ الإسلام والدفتردار باشا خمس صرر وألف دينار من ذهب أخرى.

ويمنحون كذلك صرة لكل وزير من وزراء القبة السبعة[2].

وبناء على ما سبق ذكره يكون عدد الصرر التى توزع مائة وسبعين صرة.

إلا أن هذه الصرر لا تكفى فيرسل كتخدا الباب صورة من دفتره بأنه استلم مائة صرة وعلاوة على هذه الصرر وعيدية الصدر الأعظم التى تقدر بـ اثنى عشر ألفا من الدنانير الذهبية يرسل عشرة آلاف دينار أخرى كعيديات. ويصبح هذا وبالا عظيمًا على وزراء مصر.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) اصطلاح يعنى: الوزراء الذين يجتمعون فى قصر طوب قابو فى المكان المعروف باسم تحت القبة للنظر فى أمور الدولة، لذا سموا وزراء القبة. محمد زكى پاك آلين، معجم مصطلح التاريخ العثمانى ٢/٣٠٧/١.

وبعد أن أرسل إبراهيم باشا خزانة منحة العيد إلى السلطان أرسل مع أحد أغواته وعشرين من رجاله خمسة جياد مطهمة إلى السلطان إضافة إلى مائة جواد أخرى لأعيان الدولة فى اسطنبول.

ومن عجب أنه علاوة على صرر منحة العيد المذكورة أعلاه وما أرسل من هدايا إلى أعيان اسطنبول أرسل إبراهيم باشا مع أحد رؤساء البوابين ثمانين ألف كيلة أرز ومائة ألف كيلة من العدس ومائة ألف كيلة من الحمص والفول وستمائة فردة من البن وألف قنطار من السكر وألف زجاجة من مختلف الأشربة المعطرة وخمسمائة زوج من الحصير الملون ومائة وخمسين من الطواشية إضافة إلى سائر التحف والهدايا من أجل أعيان الدولة ومائة كبش وغزال وعجل وحشى ومائة قفص من الببغاوات والنعام وشحنت كل هذه الهدايا فى السفن فى رشيد والإسكندرية لإرسالها إلى الأستانة.

ويسلم الباشا كل هذه الأموال إلى أغا الخزانة وعندما يمضى جند الباشا فى موكب غاية فى الزينة وهم مدججون بالسلاح يمضى كذلك كتخدا الباشا وأغا الخزانة جنبًا إلى جنب ويقيمون جميعًا فى سهل العادلية ويحتشدون فى خيمة أغا الخزانة وفيها يمنح كتخدا الباشا أغا الخزانة أربعة أكياس نفقة الرحلة وأربعة آلاف أقجة لكل من رجال الباشا ويقوم جند مصر وجند الباشا بحراسة الخزانة. وبما أنهم فى مقر إدارة بك سبيل علام وكاشف قليوب يحيط الخزانة ألفى فارس طيلة ثلاث ليال لحراستها وثم يودع أغا الخزانة الكتخدا ويدخل الأخير إلى القاهرة ثانية، ثم تمضى الخزانة إلى الخانكة ومنها إلى بلبيس فيتسلمها كاشف الشرقية، وفى غضون عشرة أيام يسلمها إلى باشا غزة وتصبح فى حمايته.

وبعد قطع المنازل وطى المراحل تصل هذه الخزانة إلى الدفتردار باشا فى الأستانة قبل العيد، ثم تعرض بعد ذلك على السلطان وتسلم إلى الخزانة السلطانية ويقوم كتخدا الباب العالى بتوزيعها فى وجوهها بموجب الدفتر، وبعد ذلك مباشرة فى منتصف شهر

رمضان يأتى المبشرون من جند مصر ويحظون بالخلع والترقيات. وفى الخامس والعشرين من شهر رمضان يسلم بك القاهرة الخزانة فى موكب عظيم ويسعد القادة بالخلع السلطانية ويقيمون فى قصر مخصص للوزراء، وتحصى الخزانة ويعد محتواها ويبدو أن هناك خمسة أكياس أو أكثر ناقصة حسبت على كتخدا الباب.

تصرف رواتب الجند بمناسبة حلول العيد، ثم يحصون عدد الجند القادمين مع البك المصرى وتصل الفرمانات إلى الباشا متضمنة عدد الجند القائمين بمهمة إرسال الخزانة وأنهم سلموها ويستحقون أن ينالوا «الترقيات»، وما عدا ذلك من الأسماء لاحق لهم فى أى منح. ولقاء وصول الخزانة الكبرى وخزانة منحة العيد إلى السلطان يصل الباشا مع أحد رؤساء الباب العالى السيف والقباء، فيمنح الباشا من يحمل إليه هذا القباء وهذا السيف خمسة عشر كاتبًا.

الموكب الثانى عشر

موكب وصول السيف والقباء

إنه موكب كبقية المواكب السابقة المفروضة، لا فرق بينه وبينها فى شىء. ولا يشارك فيه جند مصر، وكل ما فى الأمر أن جند الباشا يمضون إلى العادلية ويرسلون المطبخ إلى هناك قبل ذلك بيوم واحد، وتبسط الأسمطة ويطعم الطاعمون ويمضى كتخدا الباشا مع الأغا الوافد ويدخلان من باب الناصر فى موكب عظيم وسط جموع الناس ويصل إلى قصر الباشا فى القلعة، وفى الديوان تتلى الأوامر السلطانية ويجىء فيها:

«وصلتنى خزانتك أيها الوزير بالتمام ولقد أرسلت إليك سيفا وحلة فاخرة، فلتكن فى خدمة الرعايا والبرايا ولترعى أمور مكة والمدينة».

ويلبس الباشا الخلعة الفاخرة ويعلق السيف البراق فى وسطه فيزيده ذلك هيبة ووقارًا.

الموكب الثالث عشر

موكب الصرة المحمدية من مصر القاهرة إلى الشام

لم يكن لتلك الخزانة وجود فى قانون السلطان سليم ولكن صدر الأمر السلطانى بها فى عام ١٠٨٢هـ بمشورة الكتخدا إبراهيم باشا، ولأن السفر من إستانبول إلى المدينة مع أمين الصرة كان أمراً عسيراً فقد تقرر تسليم الصرة إلى أمينها فى موضع ( )[1] على مسافة عشرين منزلاً بين مصر والشام وقد استحسن أن يسافر بها أمين الصرة ووالى الشام ( )[2] بخفة إلى استانبول لتسليم الصرة إلى الشخص المكلف، وفى الخامس عشر من شهر رمضان المبارك تخلع خلعة فاخرة للأغا المدبر الذى سيكون مع الصرة سرداراً لها، وتمنح ألف پارة كل من أغوات الباشا الثلاثمائة الشجعان الأبطال الذين يؤلفون عشرة طوابير، وألف پارة لكل بطل من المائة المصريين المدججين بالسلاح. ولكن ليست لهم ترقية ميرية، لأن هذا السفر خدمة سخرة يكلفونها من أوجاقاتهم.

يمنح أغا الباشا كيساً لنفقات الطريق وفى حضور كل العلماء والصلحاء والأعيان يتسلم الباشا بيديه اثنتين وستين ألف سَكّة تزن مثقالاً كاملاً من الذهب البندقى - والمثقال يزن مائة حبة حنطة -، فقد قطعت هذه القطع الذهبية على أن تزن كل مائة قطعة منها مائة وستة وعشر درهماً كامل العيار تام الميزان. إن وجد فى قطعة منها نقص مقدار حبة قمح، وعَرَض شريف مكة وشيخ الحرم بالمدينة بأن صرتهم جاءت ناقصة فى هذا العام، فإن هذا يحدث اضطراباً فى أحوال وزير مصر. فلذا تحضر هذه الخزانة من الذهب الخالص النظيف الطاهر. وتحمل هذه الخزانة على بغال الباشا من ميدان السراى، ثم يمر رجال الباشا والمعينون لمرافقتها من المصريين أمام الباشا دون أن ترافقهم الفرقة الموسيقية. فقط تقرع طبول أغا الباشا وسردار الخزينة دار، ويجتازون القاهرة شاقين طريقهم فى بحر متلاطم من البشر، ثم يتوقفون فى العادلية، وهناك تُسلم إلى أمين الصرة، ويأخذ أغا الباشا الحجة الشرعية، وفى اليوم الخمسين يدخلون مصر مرة ثانية.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

الموكب الرابع عشر للخزانة
(موكب الكسوة السوداء للكعبة)

سلف وصف الكسوة الشريفة غير مرة، وهى كذلك إحدى الخزانات السلطانية. إلا أنها ليست من أوقاف آل عثمان. إنها أوقاف شجرة الدر فى عهد سلاطين الأكراد، ولم تكن من قبل لأحد الملوك بل استأثرت بها شجرة الدر.

والآن هناك عشرة قرى معمورة بالقرب من القاهرة، يتحصل منها سنويًا مائة وسبعون كيسًا، يشترى بها ناظر الكسوة سبعين قنطاراً من الحرير وثلاثة قناطير من الفضة الخالصة. وفى شهر المولد يبدأ مهرة الصناع فى صنع الكسوة وفى شهر رجب يقوم ناظر الكسوة بعرض نماذج للكسوة الشريفة على الباشا، وإذا كانت غاية فى دقة الصنع خلع الباشا الخلع الفاخرة على ناظر الكسوة وصناعها المهرة. وإذا كانت على العكس من ذلك أغلظ عليهم اللائمة وأخذهم بشديد العقاب.

ومن غرة شهر شوال تبلغ الباشا البشرى بالانتهاء من صنع الكسوة الشريفة، فيأمر بإعداد الموكب. وعدد الجند فى هذا الموكب قليل ويقتصر على كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وناظر الكسوة وأمينها ودراويش مائة وسبعين طريقة صوفية.

وقبل الموكب بيوم يحضرون الكسوة الشريفة إلى الباشا فيزنها ويفحص ما فيها من أشغال الصرمة والحرير ويحاسب ناظر الكسوة على ذلك. وإذا وجدها الباشا على خير ما يرام ألبس ناظرها خلعة، أما إذا نقص من خيوطها الذهبية شىء أخذ من ناظر الكسوة عدة أكياس ليعفو عنه.

وفى صبيحة اليوم التالى تخرج الكسوة الشريفة من جوسق يوسف حيث إنها تصنع هناك و يثبتونها على إطار من خشب فى حجم الباب الشريف للكعبة خارج باب الوزير لقياسها وهذا الإطار الخشبى يقام على أوتاد يصنعه أهل المغرب. وستار الباب الشريف غاية فى ارتفاعه وبما أن باب القلعة لا يتسع له يفتحون هذا الستار خارج باب القلعة.

ويحملون مع الكسوة عشرين لفافة سوداء لكسوة الكعبة وعشرين لفافة أخرى من الحبال الغليظة وردية اللون لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة، وثمانية صناديق تشبه النعوش تحمل عليها الأجزاء الثمانية الخاصة بأحزمة الكعبة والتى يبلغ طول الواحدة منها عشرين ذراعًا وكذلك تبسط سترة مقام إبراهيم - عليه السلام - على إطار خشبى ويزينون كل ذلك.

يتلقى جميع المشايخ الخبر بذلك ويبدأ الموكب فى التحرك من باب الوزير إلى مشهد الإمام الحسين، وتمضى حبال الكعبة فى المقدمة ويتصدق بعض الناس على حاملى الكسوة من المغاربة، ويقتربون منهم ويمسحون بوجوههم الكسوة تبركًا وتيمنًا. وكل لفافة من هذه اللفائف يحملها مغربى على رأسه وذلك اليوم يوم المغاربة.

يحضر هؤلاء المغاربة الكسوة وهم يرددون (لا إله إلا الله محمد رسول الله). والكسوة بتمامها سوداء لذلك تسمى الكسوة السوداء لبيت الله. وبعد الكسوة تمر الصناديق التى تشبه النعوش والبالغ طول الواحد منها عشرة أذرع وبها أحزمة الكعبة وهى مزدانة بالذهب حتى إن من يشاهدها تبهر نظره.

وفى هذه الكتابة الذهبية لهذه الأحزمة آية كريمة هى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ [النور: ٣٦]، وكلها مذهبة وليس فيها ألوان. وعرض الحزام من هذه الأحزمة ذراعان، أما طوله فعشرون ذراعا. ويحمل المغاربة كذلك هذه الأحزمة الثمانية، ويمضى خلفهم الجند حتى لا يصيبهم أحد بسوء ويمضون إلى ميدان القصر لعرضها على الباشا. وعندما يراها الباشا يمسح وجهه عليها ويدعو لهم بالخير ويثنى عليهم ويأمرهم بالمرور أمامه تباعًا ثم يبتهل شيوخ مائة وسبعين طريقة صوفية وما يربو على أربعين ألف درويش ذاكرين الله، ويقرعون الطبول وينفخون فى الأبواق، ويغيب الصوفية فى نشوة، ويمر الموكب والجميع يوحدون الله ويذكرون ويشكرون بصوت رخيم، وهؤلاء المشايخ العشرة آلاف يحملون أعلامهم موحدين الله ويستغرق مرورهم أربع ساعات.

ثم تمر بعد ذلك كسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى كذلك مزدانة بالذهب ويحملها رجل على رأسه فى صندوق مغطى وتكون هذه الكسوة غاية فى دقة الصنع ولا يخفى على الصوفية أن يشاهدونها.

ثم يأذن الباشا لنساجى الكسوة الشريفة الأربعين ويمرون مثنى مثنى أمامه ويخرج وراء هؤلاء بالتبعية كل من فى مصر القاهرة من صناع الحرير والمخمل وفى هذا الموكب يجرح كثير من الناس لشدة الازدحام. لأن الناس يجتمعون مزدحمين على جانبى الطريق لمشاهدة الكسوة الشريفة وكسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويمسحون وجوههم على الكسوة الشريفة تبركًا. ويتفق أن أحدا كان يمس بطرف عمامته الكسوة فسرق منه أحد الرعاع عمامته.

وبعد مرور مهرة صناع الكسوة يبدأ مرور جند أمير الحج وهم كذلك يحملون أسلحتهم ويمرون مثنى مثنى. ويخرج المغاربة حاملى كسوة باب الكعبة الشريفة مهللين مكبرين.

إنها كسوة باب رائعة مزركشة مختلفة الألوان والزخارف، طولها عشرة أذرع تنسج فيها بخيوط الذهب عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وبعد مرورها يمر المحمل الشريف على جميل جميع مخضب بالحناء.

ولما كان جان بولاد زاده عزيزا لمصر جدد كسوة الكعبة بالذهب فأصبحت كأنها النور الإلهى.

وجملة القول أن اللسان يعجز عن وصفها. وفى هذا العام يمر المحمل فى هذا الموكب العظيم وفى وقت آخر يمر مع أمير الحج، وبجانب هذا المحمل يمشى عدة آلاف من العكامين وحاملى المشاعل وهم يقرعون الدفوف والطبول صائحين بقولهم (الله ينصر السلطان) ويمضى رؤساء الحرفيين ثم ناظر الكسوة وكتخدا أمير الحج وأمين الكسوة وقد لبسوا ما خلع عليهم الباشا من خلع، ويتبعهم أغوات القصر حاملين سلاحهم وهم كاملى الزينة وخلفهم كذلك فرقة موسيقى أمير الحج وهم يقرعون الطبول ويَصْطَفُّ الناس لمشاهدة هذا الموكب فى حشود وحشود.

تصل الكسوة الشريفة إلى مقام الحسين وهنا توضع الكسوة الشريفة وغيرها من الأمتعة ويحتشد العلماء هناك سبع ليال محتفلين بذلك ويقيسون أستار وحبال الكسوة الشريفة. ولأن محيط مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه يماثل محيط الكعبة الشريفة يحيطون أعمدة مشهد الجامع بالكسوة الشريفة ويقيسونها بناء على ذلك ثم يرسلونها إلى الكعبة فتكون مناسبة لحجم الكعبة تمامًا.

إن أوقاف هذه الكسوة أوقاف عظيمة عجيبة. وفى الزمان الخالى كان تبابعة اليمن يكسون الكعبة المعظمة كل عام بحصير منقوش والتبابعة هم ملوك اليمن. ومن بعد كساها هارون الرشيد العباسى بالحرير، ثم كساها الخليفة المأمون بالحرير الأحمر. وفى المرة الرابعة لما ملك ملوك الترك مكة كان لأحد ملوكهم وهو أيبك زوجة تسمى شجر الدر كست الكعبة بالحرير الأسود وخصصت لذلك أوقافا وهذه الأوقاف قرى مُسَلَّمة معفاة من الضرائب ومن يعين ناظرًا للكسوة ملتزم بمائتى كيس من العملة المصرية.

إنها قرى غاية فى كثرة خيراتها. إلا أنه عندما فتح السلطان سليم مصر أضاف إليها أوقافا أخرى.

وذلك الحزام المذهب للسلطان سليم، أما كسوة الباب الشريف فمن أوقاف السلطان سليمان، أما الميزاب الذهبى فمن أوقاف السلطان أحمد وتجديد مقام إبراهيم فى كل عام هو وقف السلطان إبراهيم. رحمة الله عليهم أجمعين. حقًا إنها أوقاف تليق بعظمة السلاطين وهذا الموكب موكب لا يكون لملك عظيم وهو يستحق المشاهدة.

الموكب الخامس عشر

موكب أمير الحج وخزانة نفقات مكة والمدينة والحجاج

هذا الموكب كذلك موكب عيد لأهل القاهرة وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال يشكل موكب أمير الحج وقبله بخمسة أو عشرة أيام يستأجر المصريون الدكاكين بخمسة أو عشرة قروش ويسكنونها مع أطفالهم وذويهم ومعهم أطعمتهم وأشربتهم لأن مرور هذا الموكب والمحمل الشريف من الصباح إلى العصر. لذا يقيم جميع الناس فى الدكاكين ومعهم أطعمتهم وأشربتهم.

يزين المحمل الشريف فى حارة مشهورة، ويخرج فى عظمة وجلال، وقد بقيت هذه العادة منذ عهد السلطان بيبرس، والمحمل الشريف فى أول الأمر لم يكن يخرج على هذا النحو من المراسم فجعل له السلطان بيبرس هذه الصفة رحمه الله.

وفى ليلة الموكب بعد العصر يحضر كتخدا أمير الحج وجميع مشاهير المشايخ والعلماء وجند أمير الحج وعدة آلاف من المتصوفة قارعين طبولهم مع مائة من الجمال ومئات البغال وجمال السبيل التى تسمى جمال الصحابة وهى تحمل آلاف القرب المملوءة بالماء العذب والمحمل الشريف إلى قره ميدان فى موكب عظيم، وفى صُفَّة سبيل الظاهر بيبرس ينزلون المحمل الشريف ويضعونه هناك وبجانبه، يقيم كتخدا أمير الحج خيمته ويقيم فيها، كما يقيم جند أمير الحج وسائر الشيوخ الخيام والسرادقات ويمكثون فيها. ويعقلون الآلاف من الجمال صفا صفا فى قره ميدان ويخطرون الباشا بوصول المحمل الشريف إلى قره ميدان، وفى التو يقيمون ظلة للباشا على مصطبة بك الإصطبل (أمير آخور) وفى هذه الليلة يكون الجميع تحت إمرة كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، ويصعد آذان المغرب وبعد أداء الصلاة تزين كل الخيام والسرادقات التى فى الميدان بآلاف المصابيح والمشاعل فيصبح الميدان مغموراً بالنور.

يأتى عدة آلاف من الشيوخ والفقراء من أهل المدينة ويحتشدون حول المحمل الشريف ويبتهلون إلى الله حتى مطلع الفجر ويبسط الباشا عشر موائد لهؤلاء المشايخ لأنهم ضيوفه وعليه إكرامهم، ويرسل رئيس خدام سرادقات الباشا نصف أوقية من البخور وتشعل النار فى المباخر ويحرق فيها البخور وينثر ماء الورد على جميع الشيوخ والمتصوفة ويتلون المولد النبوى حتى مطلع الفجر، ويختمون القرآن فى كل مكان ويبتهلون إلى الله، وفى الصباح تقرع طبول كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة وترفع جميع الخيام والقناديل ويحملون الجمال بأمتعتهم ويقفون على أهبة الاستعداد.

وفى وقت السحر يقدم جميع أرباب الديوان والبكوات الشراكسة ويجلسون على الكراسى فى سرادق الباشا المزين. وكل من يلحقون بخدمة الحجاج من الجوربـاجية

والقواد والجاويشية وحاملى الأعلام وحاملى الطبر والقلجدار والأعيان والأشراف رؤساء سقائى قافلة الحج يزينون رءوس الجمال وتصبح وكأنها التنانين ذات الرءوس السبعة وتزدحم ساحة قره ميدان براكبى الهجين من الحجازيين والناس يطوفون بجمالهم.

ويزين كل جمل بما يزيد على خمسين علمًا منقوشا والمحفات المزخرفة والهوادج وتطوف فى الميدان وينفخ فى الأبواق وتقرع الطبول فى أرجاء الميدان وتخرج الكسوة السوداء المزينة فى قره ميدان، ثم يقدم القاضى عسكر أفندى ونوابه الأربعة والعشرون وكل أتباعه وعلى رأس كل منهم العمامة المعروفة بـ «عرفى» ويجلس قاضى العسكر بجانب الباشا فى صدر سرادق الباشا المزين وينتظرون كلمة أمير الحج ثم يأتى عدة آلاف من أتباع سيدى (   )[1] الساداتى فى موكب حاملين اللواء النبوى الشريف وتأتى مواكب قاضى العسكر والشيوخ والأئمة والخطباء وشيوخ البكرية والساداتية وينزلون فى سرادق الباشا ويجلسون خلف القاضى عسكر ويكتظ قره ميدان بجند الأوجاقات السبعة. ثم:

موكب أمير الحج باشا

على الرغم من أنه من أمراء مصر القاهرة إلا أن له طوغان وبدو الصحراء يسمونه «سلطان البر» ويصرف له من قبل السلطان ستة وثلاثون كيسًا نفقة السفر. ولأمير الحج قرى عظيمة الخيرات خاصة به، ويتحصل له كذلك منها أربعون كيسًا، وله علوفة سنوية من ديوان مصر قدرها اثنى عشر كيسًا.

وحقيقة الحال أن أمير الحج له مرموق المكانة فى مصر حتى إن وكيله (الكتخدا) يضع فوق عمامته المجوزة ريشة كوزير مصر، لأنه وكيل السلطان.

يمنح أمير الحج مائتا جمل من المال الحكومى ويشترى كذلك ألف جمل من ماله الخاص ولا يكفى ذلك فيمده أصدقاؤه بالعون فيتحصل له كذلك خمسمائة جمل حتى يبلغ عدد الجمال التى يملكها ألفى جمل لأن كل حجاج مصر فى حاجة إلى معونته ويمنح كذلك خمسمائة جندى من الأوجاقات السبعة دفعت أجورهم ونصفهم يحملون

(١) بياض فى الأصل.

المعونات إلى جدة فى بحر السويس ويذهب النصف الآخر فى مَعِيَّة أمير الحج ويقومون على حراسة قواده ويبقون فـى مكة. وثمة خمسمائة جندى آخرون يسمونـهم بالسبعين (يتمشلـى) وهؤلاء كذلك يذهبون ويعـودون مع أمير الحج وعندما لا يـكون أمير الحج حاضراً ثم يـظهر أثناء عزف المـوسيقى فالجند الـذين فى قره ميدان يـنقسمون طائـفتين ويَصْطَـف العزب فى جـانب والإنكشاريـة فى جانب آخر لأداء الـتحية، وفـى جانب سباهية الأوجـاقات السبعة وهم فى ثـيابهم المزركشة وعلـى خيولهم الفارهة مـدججين بالسلاح ينتظرون تحية أمير الحج.

أما أمير الحج فـيمضى بين الصفين فـى موكب ويلوح بالسلام إلى الجانـبين وتعزف الموسيقى العسكرية فينزل الباشا إلى السرادق ويتقدم جميع البكوات ويجلس أمامهم، ثم تطلق المدافع تحية ويطوفون بعلم رسول الله ﷺ والمحمل الشريف على الجمال فى ذلك الميدان ثم يتقدم أمير الحج إلى الباشا وعندما يقولون للباشا إن أمير الحج جاء وكل الجند والموكب فى انتظار تشريفه، ينضم الباشا إلى الموكب ويمضى أغوات واجب الرعايا فى المقدمـة مشيا، أما رؤسـاء البوابين فـعلى الجيـاد مع خدامهم وعـلى رءوسهم العـمامة البريشانى مع جاويشية السلام وكتخدا البوابـين ورئيس التراجمة ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية وهم جميعًا على جيادهم، ثم يمـضى الباشا يرتدى قباء فرو السمور وعمامته المعروفة بـ «سليمى» وخلفه السلحدار و الجـوقدار وهم بسراويلهم وخفافهم الخاصة بهم مع أربعة وعشـرين من أغوات الداخل أصحاب المـراتب وهم على جيادهم ويـحملون سيوفهم.

ينزل الـباشا فى سرادقه المـزين فى قره ميـدان وعندئذ يصـطف له عامة الجاويـشية وعندما يجلس فى مكانه يبدأ أمير الحج بتـقبيل يده ويجلس هو الآخر فى مكانه، وبعد أن يتجاذب معه أطراف الحديـث يدعو الباشا بقية الأعيان لمجلسه، وعـندما يسأل الباشا أمير الحج عما إذا كان قـد أخذ كُلٌّ نفقاته ونفقات صرر شرفاء مكـة المكرمة وغير ذلك من نفقات يـجيب أمير الحج قائلاً: تسـلمتها كاملة غـير منقوصة، وعندئذ يـأمر الباشا المولا افنـدى قائلاً اكتب ذلـك فى السجلات ويـطرح الباشا الـسؤال ثلاثة علـى القواد المكلـفين برعايـة الحج عن أخذهم المـهمات والمأكولات والمـشروبات والجمال والـبغال

ومرتبات عام مسبقا فيجيبونه كذلك قائلين: تسلمنا ذلك وسجلناه، وعندئذ يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات، ثم يخلع على أمير الحج خلعة مذهبة، وإذا كان مقربا إليه مختصًا به يلبسه فرو السمور، كما يخلع على الكتخدا ومحافظ القلعة وقواد الأوجاقات السبعة وحاملى اللواء وجاويشية المحمل وقاضى المحمل وإمامه والمؤذنين وأغا بيت المال من أغوات الباشا، وكاتبه، فيكون عدد من يخلع عليهم مائتين وعشرة ممن اشتركوا فى هذا الموكب.

ثم ينهض الباشا من مجلسه قائلاً: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويترك فرسه ويمضى على النعلين حتى يصل إلى الجمل الذى يحمل المحمل ويمسح بوجهه وعينيه المحمل الشريف ويقول: (بسم الله) ويمسك بالزمام الفضى للجمل ويطوف هذا الجمل فى الميدان غير مرة وبذلك يكون جَمَّالَ رسول الله ﷺ ويقوم بخدمته ويأمر جميع البكوات بالسير معه حفاة ويصعد العسكر صيحة عالية قائلين: (شفاعة يا رسول الله) ويرتفع دعاؤهم إلى عنان السماء ومن يرى الباشا على تلك الحالة وهو على صورة الجمال يبكى فلا يبقى فى الروح بقية.

ثم يوجه الباشا حديثه إلى أمير الحج قائلاً: إن مكة والمدينة لسلطان آل عثمان وهو خادم الحرمين الشريفين وأنا فى يومى هذا وكيله وعبده المملوك وبمقتضى وكالتى سلمتك المحمل الشريف وأنا أستودع الله الحجاج السالمين الغانمين وقد عهدت إليك بهذا. هل تسلمت المحمل الشريف؟ فيجيبه أمير الحج قائلاً: نعم تسلمته وبمجرد أن يتسلم منه الزمام الفضى للجمل فى يده يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات. ثم يجلس الباشا تحت ظلته. وبينما يسير أمير الحج المحمل الشريف تبدأ المواكب فى التحرك والحاضرون فى هذه الساعة يقيدون فى دفاترهم ما شاهدوه ويرفعون أصواتهم بالدعاء والحمد والثناء وتبدأ المواكب فى الانسحاب، ويودع أمير الحج الباشا ويمتطى صهوة جواده ويولى وجهه شطر الحجاز.

عبور ما تحمله القافلة من أمتعة مع أمير الحج

يمضى آلاف الجمالة والعكامين وحاملى المشاعل بجمالهم ، ثم تمضى الجمال التى تحمل قرب الماء، ثم تمر فرق الجبه جيه والعزب مع ستة مدافع ضخمة على المركبات وهم ثلاثمائة جندى، ثم يمر بعد ذلك جميع أمتعة وخيام أمير الحج.

ذكر سبب المحمل الشريف وذكر كبار المشايخ

وإذا سئل عن أصل إحضار المشايخ المحمل الشريف قلنا: إن الظاهر بيبرس من سلاطين الشراكسة هو أول من سن قانونا بخروج المحمل الشريف إلى العادلية فى موكب عظيم، وفى ذلك العهد كان سيدى الشيخ مرزوق كفافى قطبا عظيما من أقطاب التصوف، وكان آنئذ على قيد الحياة، وأخذ المحمل من يد الظاهر بيبرس، وبينما كان يطوف به صاح قائلاً: «أنا لويس وأنا لويسى وكيسى»، وذهب بالمحمل الشريف إلى الكعبة على النعلين ودخل المدينة المنورة وزار الروضة المطهرة ودخل الشبكة النبوية الشريفة وعندما خرج رأوا على رأسه عمامة جمال مزينة بالجواهر ثم عاد بالمحمل إلى مصر على النعلين كذلك وكان طوال حياته يمضى إلى مكة فى صحبة الدراويش وكان أول من ذهب بالمحمل الشريف وأصبح ذلك قانونًا مرعيًا.

أخذ مصطفى أفندى المحمل من يد الشيخ كفافى وأحضره إلى العادلية حتى وقت الغروب وهذا أقدم من القانون وفى يومنا هذا المحمل الشريف لمشايخ الصوفية.

والسبب فى قيادة الصوفية للمحمل هو أنه ليس فيهم أحد من طائفة الجند، إنهم جميعًا من المتصوفة ولو كان فيهم أحد من طائفة الجند يبايعهم ويسير فى أثرهم، فقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم): «الفقر فخرى». (بيت):

والله إننا لنفخر بفقرنا فى كبرياء ∴ لذلك نسير فى صفة الفقراء

وفى مصر ١١١٧ طريقة صوفية ولكن أكبرها مائة وأربعون وهذا ما سبق ذكره فى حديثنا عن التكايا والدراويش ولا حاجة إلى مزيد من القول فى هذا الصدد. ولكن هؤلاء المائة والأربعون طريقة لهم ثلاثمائة وستون (٣٦٠) تكية. وأعظم هذه الطرق عددا هى الطريقة الأحمدية. فصوفية سيد أحمد البدوى لا يدخلون تحت حصر، فقد انتشرت هذه الطريقة فى مصر كما انتشر المذهب الشافعى فى مصر وكردستان، أما عبد القادر الجيلانى فقد انتشرت طريقته فى الهند وبغداد، أما طرق الخلوتية والمولوية والجلوتية والبكتاشية فانتشرت فى الأناضول. كما انتشرت طرق الواحدية والحيدرية والشمسية والبكتاشية والقلندرية فى إيران.

ويلى الطريقة الأحمدية فى كثرتهم بمصر أصحاب الطريقة البرهانية ولا يعلم عددهم إلا الله والصوفية إذا ما التقوا يعرف كل منهم طريقة الآخر.

وفى بداية موكب المحمل الشريف يمضى متصوفة الطريقة المطاوعية وهم فى نشوة وفى أيديهم الرماح والسيوف والتروس وهم ألفا متصوف فى موكبهم يقرعون الدفوف والطبول وينفخون فى الأبواق رافعين ما يزيد على خمسمائة علم وهم يهللون ويكبرون ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر، وكأنهم فى حرب ويمزق بعضهم ثياب البعض ويمرون وهم يوحدون الله.

ثم يمضى بعدهم دراويش الواحدية والحمزوية والبيرامية والصعودية والعشاقية والمولوية والشمسية والولدية والعبائية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية، وهؤلاء آلاف من الدراويش يرفعون أعلامهم ويمضون طريقة طريقة وشيوخهم على جيادهم ويزينون جوانبهم الأربعة بالأعلام وهم يوحدون الله ويبتهلون قارعين طبولهم ودفوفهم وتملأ أصواتهم جنبات القاهرة وفى هذا الموكب عدد دراويش الدسوقية والبرهانية ليس بالكثير ولهم رايات بيضاء وسوداء، ويمضى بعدهم صوفية طريقة حسن الراعى والطريقة الرفاعية والسعدية والأحمدية وهم يربون على العشرين ألف درويش، وهم من مختلف الطرق الصوفية، ويعجز كُتّاب الدينا حصر أوصافهم.

أما ألوية الأحمدية فحمر ومشايخهم يمضون فى وسطهم على جيادهم وأمامهم آلاف من الدراويش مشغولون بالابتهال ويمضون وهم يقرعون آلاف الطبول والدفوف ويدقون الأجراس، ويتلوهم دراويش طريقة عبد القادر الجيلانى ومنهم عدة آلاف من المجاذيب يمضون حُفَاةَ الأقدام حاسرى الرءوس.

ثم يأتى الدور على متصوفة طريقة مرزوق كفافى الكَلشنية، والطريقة الإمبابية والشناوية والكميلية، والطريقة النقشبندية والروشنية، وطريقة نعمة الله، والطريقة النوربخشية والطريقة السعودية والليثية والفارضية والزينية والفنائية واليمنية والجنيدية والإدريسية والعبائية والشاهينية والجيوشية والجهينية. وهؤلاء من أتباع الطرق الصوفية

كل منهم يوحد الله حسب مراسم طريقتهم القديمة، وهم كذلك يقرعون الطبول والدفوف ويدقون الأجراس وينفخون فى الأبواق وهم فى حالة من النشوة والجذب.

بعدهم يمضى دراويش الطريقة اليمنية وهم مجاذيب يمضون حفاة عراة حاملين السيوف والطبر والعمد والترس وسيوفًا من خشب، ولهم أعلام مختلفة ولكنى لم أسمع توحيدهم.

ويمضى بعدهم أصحاب الطريقة الفنائية ومعظمهم ممزق القميص حافى القدم حاسر الرأس وبعضهم يلبس خرقة من صوف تزن الواحدة منها أربعين أوقية أو أكثر وبها جيوب متنوعة فمأكولاتهم ومشروباتهم وأباريق قهوتهم وبنهم وتبغهم وكل ما يحتاجون إليه يحملونه فى هذه الجيوب وكأن الواحد منهم حجرة متنقلة. ومعظمهم دراويش معدمون ينامون حيثما شاءوا ولا يملكون الدانق، وفيهم من لهم ألف رقعة فى خرقتهم.

وبعضهم يمضون وعلى رءوسهم آنية مائلة ويحملون الطبر والرمح المذهب والعصى المزينة ووضعوا على رءوسهم عمائم الفنائية ذات الذوائب كأنها حمل بعير وقد ازدانت بالخرز وعلى أوساطهم جلد منقوش عليه حزام مزين بأحجار ذات ألوان.

وقد أعجبت بنفخ صوفية العجم فى أبواقهم ومن الحق قولنا إن الاستمتاع إلى نافخى الأبواق من اليمن ينفخ الروح الأبدية فيمن يلقى السمع إليه.

ويمضى دراويش الفارضية والشاهينية والجيوشية والجهينية واليسوية وهم ينشدون قصائد (   )[1] والأشعار العربية.

وهذه الطرق سالفة الذكر خاصة بمصر، ولم تكن لها الشهرة فى بلاد أخرى.

وبعد ذلك يمر دراويش الطريقة الخلوتية وهم يذكرون الله فى رعاية للتقاليد والمراسم الخلوتية، وبعدهم دراويش الطريقة الخواجه كانية أى الطريقة النقشبندية التى ينتهى نسبها إلى سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ومعظم دراويشها من الأوزبك وهم ينطقون بالتوحيد فى تضرع وخشوع رافعين راياتهم، ولكن ليس لهم طبول ولا دفوف

(١) بياض فى الأصل.

ولا أجراس ولا أبواق، وعندما يمرون لكل منهم أسلوبه فى التوحيد تنشق مرائر الناس ويبلغ منهم العجب مبلغه وفى هذا اليوم يغمر النور طرقات مدينة القاهرة وأسواقها.

ثم يأتى الدور على دراويش طريقة عمر الروشنى وطريقة الشيخ إبراهيم الـگُلْشَنى وهم كذلك بلا طبول ولا دفوف ولا يرفعون أصواتهم، وعليهم خرقتهم وقد لفوا على رءوسهم الشيلان الكشميرية واللاهورية والبهارية ويمرون يذكرون الله ومعهم شيخهم چلبى أفندى على صهوة جواده رافعين الأعلام.

وعندما يقترب دراويش الطريقة البكتاشية من معسكر الإنكشارية الذى يتولى مهمة رعاية المحمل الشريف يمضى مائتان من الصوفية وعليهم خرقتهم البيضاء النظيفة وهم حفاة الأقدام حاسرو الرءوس وعليهم اثنتا عشرة علامة رمزًا للأئمة الإثنى عشر والأئمة الراشدين وهم على وعمر وعثمان وأبو بكر العتيق وعليهم ندوب جراح عشقهم لشهداء كربلاء وعلى أذرعهم وصدورهم جراح لمقتل الحسين، وأجسامهم قوية وعيونهم مكتحلة، وصدورهم عارية ويمضون موكبًا من الدراويش مرددين اسم الله، وبعدهم تمر أطفالهم يحملون العمد وعندما يمرون خلال السوق ينشدون أبياتًا وقصائد فى مدح النبى ﷺ والخلفاء الأربعة - رضوان الله عليهم - فينشدون:

أصبح قبلة أهل الصفا وجه محمد

أصبح محراب أرباب القلوب حاجب محمد

حلقة سلسلة الجنون فى رقبتى

من حب ذؤابة محمد ذات العبق

ويرددون ذلك الشعر فى عشق المصطفى ﷺ وهم مارّون.

الموكب السادس عشر
وصول حملة المشاعل والعكامين
من القاهرة إلى بلبيس فى ثمانى ساعات
وادعاؤهم - فى ديوان مصر القاهرة -
أن المحمل الشريف لهم يحملونه مع علماء مصر

وبعد مرور هؤلاء يسمع صوت مرتفع صادر عن عدد عظيم من الجند من سمعة ركع على رُكْبَتَيه وقد استولت عليه الدهشة فينبع من كبده النجيع وتنهمر الدموع من عينه مثل «جيحون»، ويرتفع صوت الطبول والدفوف والأبواق إلى عنان السماء، أما أصحاب هذا الصوت فيأتون رويدًا رويدًا بينهم عكامون وخيامون لخدمة سبعين ألف حاج ويقول جمع غفير بينهم (الله ينصر السلطان، إن شاء الله بالسلامة) ويمضون وهم يوحدون الله.

إن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب للصوت الحزين لهذه الطائفة. ويمرون حاملين المشاعل على أكتافهم وهم مبتهجون وبينهم اثنى عشر من رؤساء حملة المشاعل لقادة الأوجاقات السبعة وأمير الحج ومحافظ القلعة ورؤساء السقائين وهم يحكمون مصر القاهرة وهم قادة عدة آلاف من حملة المشاعل ولهم السيطرة على جميع من يحملون المشاعل ويقولون إن سلسلتهم تنتهى إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهم أصحاب امتيازات عظيمة وهؤلاء الرؤساء الإثنا عشر يخرجون من باب الناصر بالقاهرة، ويبلغون بلبيس فى أربع وعشرين ساعة ويمرون بالمحكمة ويطلبون الحجة الشرعية، ولا يتوقفون قط، ويغادر بلبيس ألف رجل ويعودون فيجدوا الحجة قد كتبت، وبعد الوداع يمضون إلى القاهرة، وعندما يبلغونها تكون بعض جيادهم قد نَفَقَتْ.

وعندما يدخل حملة المشاعل هؤلاء القاهرة وقت العصر فاليوم يوم للغبطة والفرحة فيدقون الدفوف قائلين: «الحمد لله بالسلامة» ويدخلون من باب الناصر فى صخب وضجيج حتى يصلوا إلى رئيس شطار قصر الباشا فيخلع الباشا عليه خلعة فاخرة وبمقتضى الفرمان الشريف يصبح رئيسا للمشعلجية، ويوليه رئاسة المحمل الشريف ويصبح مبعوث رسول الله ﷺ، ويرقى الجميع إلى قادة وضباط.

وإذا ما أراد أحد أن يكون من حملة المشاعل طلب الإجازة نظير قرش واحد ولكن منهم من يموت من فرط ما يبذل من جهد فى عمله، وكثير منهم لا يستطيع العودة إلى مصر ويبقون فى الطريق وهم يستوفون شهرًا بتمامه، ثم يعودون ويلبسهم الباشا الخلع ويمضون إلى أقصى المدينة ولا يتوقفون قط ويطوفون بالقاهرة وبعد الغروب يعودون إلى بيوتهم، وفى تلك الليلة يقوم خدامهم بتدليك أجسامهم بالزيت فيشعرون بالراحة ثم ينهضون ويضعون فوق رءوسهم طرة مزدانة بالجوهر ويرقصون، وهذا من عمل المهرجين، ويتأهبون لأن يكونوا رؤساء حملة المشاعل.

وفى يوم الموكب هذا يخلع عليهم الباشا خلعة أخرى ويمضى أمام المحمل الشريف كبار المشايخ وعلى وجوههم مظاهر البهجة والسرور.

ولحملة المشاعل هؤلاء مع الشيوخ مشاحنات كثيرة فى عهد إبراهيم باشا؛ فقد قال المشايخ: منذ صدور قانون السلطان بيبرس ونحن نتولى مهمة إرسال المحمل الشريف.

فقال حاملو المشاعل: إذا ما حملتم المحمل الشريف إلى الكعبة على هذا النحو لاستحال عليكم ذلك؛ بارك الله لكم أما إذا ما بلغتم به باب الناصر فحينما تجتازونه سلمونا المحمل ولينعم كل منكم بالبقاء فى القاهرة، أما نحن فسوف نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به. إن سلطان مصر جعل المحمل لأمير الحج وهو يختار من بيننا، وقد خلع علينا وكيل السلطان ونحن نتقدم موكب المحمل.

وفى آخر الأمر حكم بعض الرجال المنزهين عن الأغراض بأن يبقى جميع المشايخ والصوفية فى القاهرة. ومنحوا حملة المشاعل الجواب الشافى، وقيد ذلك فى السجلات، وأصبح ذلك حجة أكيدة فى يد حملة المشاعل وتسلموا المحمل الشريف، ومضوا به وهم يرددون قولهم هاتفين «الله ينصر السلطان» وهذا ما تنشق له مرارة الإنسان تأثرًا به.

وتقع خلفهم ضجة عالية ويسمع صوت مخيف كأنه صوت هاتف ربانى، وبينهم من ينتسبون إلى مائة وأربعين طريقة قد رفعوا آلاف الأعلام والرايات ويجتمع جميع مشايخ الصوفية وبجانبهم خلفاؤهم ونقباءهم وجاويشيتهم، ويعبرون موحدين الله، ويحيطون المحمل الشريف بآلاف من أعلامهم وهم فى جلبة وضجة كأنما الثورة قامت فى القاهرة.

أما جمل المحمل فيكون فى كسوة مزركشة يمشى متبخترا كأنه طاووس روضة الجنان ويمسح آلاف من الناس المحمل الشريف بوجوههم ومن لا يستطيع الوصول إليه يلقى عليه عمامته أو منديله يلمس بها المحمل ثم يجذبونها مرة أخرى يمسحون بها وجوههم وأعينهم تبركًا وتيمنًا.

أوصاف المحمل الشريف

المحمل الشريف هو هودج النبى ﷺ وفيه خرقته الشريفة ومساوكه وخفه وإبريق وضوئه وهذا الإبريق من الحصير المطلى بالقار من داخله ومصحف وغير ذلك من الضروريات. وكانت تركبه السيِّدة عائشة زوج رسول الله ﷺ.

والآن هذا الهودج يشبه الهودج الذى كانت تركبه السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلا أن سلاطين السلف وآل عثمان جعلوه مربعًا عليه قبة من الحرير وذلك تبركًا وتيمنا.

وأعلى هذه القبة كرة ذهبية مثقوبة تحمل علمًا مذهبا. وفى أركانه الأربعة كرات ذهبية كذلك وهو بتمامه مكسو بالحرير عليه أزرار مذهبة ذات زخارف وقد كتب عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويمضى خلف المحمل الشريف جوقة موسيقية بطبولها وأبواقها وأجراسها على الجمال، وإذا ما كان هناك من علية القوم مَنْ يشاهد المحمل فى بعض الدكاكين مر كل المشايخ بالمحمل أمام الدكان الذى فيه هذا الشريف، وأبطأوا فى سيرهم حتى إذا ما واجه المشايخ هؤلاء الأشراف يتلو جميع المشايخ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ... إلى قوله: تَسْلِيماً... ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويمضون ويكررون ذلك أمام دكان أى شريف يشاهدونه فيه؛ ولذلك فالمحمل الشريف منذ خروجه فى الصباح من (قره ميدان) وحتى وصوله إلى باب الناصر فى وقت العصر، ومن باب الناصر حتى العادلية وهم يوحدون الله فتصبح القاهرة نورا على نور من توحيدهم. وقبل الغروب يسلم جميع الدراويش المحمل لأمير الحج، ويودع جميع المشايخ أمير

الحج ويعود كل إلى منزله. وبأمر أمير الحج ينادى المنادون بأن المحمل سيبقى فى العادلية ثلاثة أيام لتجهيز الأمتعة.

وبهذا يبلغ الحديث عن موكب أمير الحج منتهاه.

الموكب السادس عشر

موكب وصول الخزانة من مصر إلى مكة والمدينة

وخزائن وصرر شيوخ البدو على طريق الحج

منذ صدور قانون السلطان سليم وهذه الخزانة عبارة عن الصرر والعطايا والكسا والنفقات لمشايخ البدو من أهل التقوى على جانبى الطريق من القاهرة إلى مكة.

وأول هؤلاء المشايخ على الطريق من القاهرة على السويس مشايخ آل صفر وآل بنى عابد وآل بنى صالح فى جهات العقبة، وآل بنى شاهين عند بلوغ مدينة «مدين» التى بناها شعيب - عليه السلام -، وآل بنى زيد عند يَنْبُعُ البرة.

كما أن لكثير من الأعراب صررا وفى كل عام يوزعها أمير الحج بنفسه على هؤلاء المشايخ شريطة أن يحضروا المأكولات والمشروبات والجمال القوية على طريق الحجاج المسلمين الذين يتزودون منها ويقدمون لهم المدد من منزل إلى منزل ويكونوا أدلاء لهم فى الطريق فى مقابل أن يمنحهم أمير الحج الصرر والمنح.

وعلى الرغم من أنهم يقصرون فى خدمة الحجيج فى هذه الأيام إلا أنهم يتسلمون رواتبهم بالتمام. وإذا ما أنقصوهم شيئًا قطعوا الماء عن طريق الحجاج وألقوا جثث الحيوانات فى آبارهم وسدودها بإلقاء الحجارة فيها وأغاروا عليهم من جميع النواحى وخرج عليهم اللصوص من كل صوب ناهبين وسالبين أمتعة الحجاج فلا يمرون بسلام.

ولهذا السبب يخصص لهؤلاء خزانة فى ديوان مصر لصررهم ومنحهم وكسوتهم، ويسلمها كتخدا الباشا أمير الحج فى موكب عظيم من جند الباشا فى العادلية ويتسلم منه الحجة بذلك. وفى اليوم التالى:

الموكب السابع عشر

موكب خزانة الصرة ونفقات تعمير الحرمين الشريفين

وهذا كذلك قانون منذ عهد العباسيين والسلطان قايتباى، إلا أنه عندما فتح سليم خان مصر زاد من إحسانه لشريف مكة فى «صك الأمان» واعتبر صرر ومنح وكسوات ونفقات تعمير الحرمين خزانة مصرية. والواقع أن أمير الحج يقسم هذه الخزانة بنفسه على جميع الأشراف.

وإذا ما نقص منها دينار واحد ـ اللهم عافنا ـ رفع جميع الأشراف الأمر إلى السلطان قائلين: «إن صدقة السلطان سليم وأجداده العظام لم تصلنا كاملة».

وعندئذ تنهدم الدنيا فوق رأس وزير مصر.

وبعض ظرفاء الأشراف يقولون: «وصلنا خراج الترك وهو حقنا على آل عثمان» ولا يقولون إنه صدقة السلطان، بل يقولون: «نحن نتلقى خراجهم». إن فيهم أسفه السفهاء.

جملة القول أن لهؤلاء صررا ومنحا مقيدة لهم فى ديوان مصر، ويسلم كتخدا الباشا أمير الحج هذه الخزانة فى العادلية فى موكب عظيم من رجال الباشا ويأخذ منه حجة بذلك ويسجلها فى سجلات شرع رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الموكب الثامن عشر

خزانة النفقات اليومية للجند المعينين مع أمير الحج ووصولهم الأراضى المقدسة وعودتهم فى مائة يوم وعشرة أيام ومصروفات هذه الرحلة

فى قانون مصر أن بين القاهرة ومكة المكرمة ستًا وثلاثين مرحلة ويقيم الحجيج عشرين يومًا فى مكة ويمضون إلى المدينة المنورة فى عشرة أيام ويمكثون بها يومين ويعودون إلى القاهرة فى ستة وثلاثين يوما وجملة ذلك مائة يوم وأربعة أيام، مع أيام استراحتهم فالمدة مائة يوم وعشرة. أما من يشاء المجىء إلى السويس ويدخل القاهرة فى يومين يكون ذهابه إلى الأراضى المقدسة من مصر وعودته إليها فى مدة مائة يوم.

جملة القول يخصص مائة وعشرون ألف دينار من ذهب لتغطية النفقات اليومية فى كل مرحلة والتى تصل اليومية منها إلى ألف دينار حتى لا يثقل أمير الحج على الحجيج بمشقة السفر وهى خزانة كبيرة أخرى.

بيد أنه فى عهد إبراهيم باشا خفضت هذه الخزانة عشرة آلاف دينار ذهبى بحجة أنها نفقات باهظة غير معقولة، ولأنهم لم يراعوا قانون السلطان سليم، أقام حجاج مصر يومين فى المدينة ولم يستطيعوا البقاء فيها اثنى عشر يوما مثل حجاج الشام وزاروا قبر المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فى عجالة وعادوا إلى مصر.

وثمة خزانة أخرى تجهز لأمير الحج لجنده ومأكولاتهم ومشروباتهم تحمل على ألف جمل وإذا ما منح ألف وخمسمائة أصبح الحجاج المعسرون فى راحة. لأن طريق الكعبة هذا يسمى «طريق ذبح الجمال» لأن أهل البصيرة يركبونها فى( )[1] بمكة وهم يتوبون من الذهاب إلى مكة. ومن له القدرة والقوة مضى على صهوة جواده أو على النعلين.

جملة القول أن كتخدا الباشا يسلم أمير الحج ( )[2] ألف دينار من ذهب كنفقات يومية للحجيج، وذلك بموكب عظيم من جند الباشا، ويطالب كتخدا الباشا أمير الحج بالحجة لإبرازها عند الضرورة، ثم يعود إلى القاهرة.

الموكب التاسع عشر

وهو موكب خزانة الأوقاف والتى تسلم لأمير الحج

يتحصل من أوقاف جميع السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان والخيرين من العوام والخواص عدة مئات الآلاف من الدنانير الذهبية وآلاف من قطع الثياب كالسراويل والقمصان، وهذا ما لا يعلم حصره إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه هى إحدى خزانتين ترسلان من القاهرة إلى مكة. إلا أن هذه الخزانة لا ترسل فى موكب ويقتصر الأمر على أن يسلمها ناظر الأوقاف إلى أمير الحج ويتلقى منه الحجة بذلك.

وإذا ما كتبنا عن أحوال أمير الحج على حد علمنا لاقتضى ذلك منا أن نكتب مجلدًا ضخمًا.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

الفصل التاسع عشر

مواكب الجند المكلفين بالذهاب إلى الأراضى المقدسة من الأوجاقات ومظاهر عظمتهم

وفى هذا الموكب لا وجود لجند الخزانة أو لجند من أتباع الباشا. إنهم الجند المنوطون بالحج وعلى هذا يثبت الجند المنوطون بهذه المهمة من الأوجاقات السبعة ويمرون أمام الباشا.

وفى صباح اليوم الثالث لمواكب الخزانة - والتى سلف الحديث عن أوصافها - فإن هؤلاء الرجال السبعين المنتمين إلى الأوجاقات السبعة يخصص لهم مائتا رجل بأتباعهم لأن طريق الكعبة طريق مبارك فيصبح مجموعهم ألف رجل فى أتم زينة وسلاح . وهؤلاء الجند مكلفون بالذهاب بالحجيج والعودة بهم. ويحكم هؤلاء وهم ألف من صفوة الجند سبعة قادة من الأوجاقات السبعة وسبعة ممن لهم رتبة الكتخدا وسبعة من الجاويشية وسبعة من حاملى الرايات وسبعة من حاملى الطبر وسبعة من رؤساء خدم قصر الباشا وسبعة من الجورباجية. وهؤلاء يقيمون سنة فى مكة للمحافظة على الأمن فيها.

يمر هؤلاء الألف وهم من صفوة الجند كل منهم مع فرقته وأغواته وچورباجيته على مرأى من الباشا وهم مدججون بالسلاح ويتدفقون كالموج من أحد أبواب القصر ويخرجون من باب آخر زرافات ويقرع كل أغا منهم طبلة ولكن ليست لهم جوقة موسيقية عسكرية خاصة بهم ويهرع جميع القادة والچورباجية والجاويشية ومن لهم رتبة الكتخدا إلى قاعة ديوان الغورى حيث يشرفون بتلقى الخلع السلطانية ويوزع عليهم سبعون خلعة، وبعد الدعاء والثناء يلقنهم الباشا أوامره ويودعونه داعين له، ثم يلتحقون ثانية بالمواكب وخارج باب الوزير يصطف مئات الآلاف من الناس لتشييع الجند الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ويصبح موكبًا خاصًا يجل عن الوصف.

وفى هذا الموكب يأتى اثنا عشر جاويشًا من جاويشية وزير مصر بدروعهم الفضية لتجهيز هذا الموكب وهم كذلك من صفوة الجند. وهذا الموكب كغيره من المواكب لا يمضى فيه الأثرياء من الأعيان إلا باختيارهم.

ولكن رعاية للحجاج يركب السادة والفقراء جميعًا ويكون موكبًا مزينًا يجل عن الوصف. وفى هذا الموكب يعبر الجنود أفواجًا أفواجًا بالخيول العربية الأصيلة والإبل والنوق المزينة بالقطع التى لها ألوان طاووسية.

ويعرف من هذا أن هؤلاء هم جنود الحج. ويكون أمير الحج قد ذهب مقدمًا ومعه ستة قطع من المدافع، وذلك لعدم وجود مدافع فى هذا الموكب، وتمر هذه الطائفة من الجنود من مصر وهم يطلقون الأعيرة النارية ويهللون ويكبرون ابتهاجًا وسرورًا ومن شدة ازدحام الجند لا يستطيع أى رجل أن يخطو خطوة فى طريق موكب الحج. ويصل هؤلاء الجند على هذا النسق إلى العادلية ويضعون خزينة الصرة ويضربون خيامهم، ويودعون الباقين فى مصر ثم يبقى منهم من يبقى ويسير من يسير، وحينئذ يقوم أمير الحج بإرسال الصرة إلى بركة (الحج) ثم يرتحل هو فى اليوم التالى، حيث يصل هو وجملة حجاج المسلمين إلى البركة بعد أربع ساعات ويمكثون هناك.

الفصل العشرون

فى بيان الموكب البهيج لجند أزلم وخزائنهم ومصاريفهم

عندما يتجه الحجاج المسلمون من مكة إلى مصر، يتم تعيين سبع فرق من جنود المسلمين لإمداد حجاج مصر فى تلك الناحية، وتعد قلعة أزلم بمثابة نصف الطريق بين مكة المكرمة ومصر (القاهرة). وهو عبارة عن ثمانية عشر منزلاً، ويذهب جملة جنودها إلى أزلم، والقلعة من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمه الله، لها خيرات عظيمة يعجز اللسان عن وصفها. و يُكلف الباشا أحد الأمراء الشراكسة فى مصر بالسفر إلى أزلم ويخلع عليه خلعة ويختار ثلاثمائة من الجنود المنتخبين من كل فرقة من فرق مصر السبع، وليس لهؤلاء الجند درجات للترقى، حيث إنهم يُسَخَّرون لاداء هذه الرحلة. ويتم صرف أربعين كيسًا من المال السلطانى لطعامهم وشرابهم وحمايتهم وخيامهم ومعسكرهم. ويُعطى للمائتى ألف جندى ألف رأس من الإبل لنقل متاعهم وأغراضهم الثقيلة. ويقوم أغا الحسبة بتجهيز الإبل بالمؤنة اللازمة وتحسب كافة مصاريفها على نفقته. ومؤنتهم هى البقسماط والجبن الحلوم والعسل والزيت والقهوة والأرز والفول والشعير وغيرها من المؤن.

ويُعين معهم ستة مدافع سلطانية، وفرقة من المدفعية ورئيس فرقة الذخيرة وفرقة من سائقى عربات المدافع، وبذلك يكون جملة المكلفين بتلك الرحلة خمسة آلاف رجل مسلح مع خدامهم، وخمسة آلاف تاجر وهؤلاء يذهبون مسلحين لأنه يوجد مضيق ضيق ومخيف غاية فى الخطورة يُطلقون عليه مضيق العقبة.

وذات مرة قام العربان بحصار جند أزلم هناك وقُتل منهم بأسنة الرماح عدة مئات ويذهب هؤلاء الجنود فى تمام التسلح والانضباط حيث يجلبون الأموال الزائدة، وفى حالة عدم وصول هؤلاء الجند إلى الحجاج. فمن المؤكد أن الحجاج لن يصلوا إلى مصر بأمن وسلام. هذا بالإضافة إلى أن التجار يجلبون ألفين أو ثلاثة آلاف حمل بعير من الفول والشعير والبقسماط والزيت والعسل والأرز والدقيق، بل حتى لبن العصفور يأتون به معهم، كما يجلبون معهم مائة جمل محمل بمياه النيل كهدايا.

ويرسل كل شخص إلى أصدقائه عدة آلاف علبة من سكر النبات والحلويات والزلابية والزبادى. لذلك يعتبر لقاء الحجاج بجنود «أزلم» كعودة الروح إلى الجسد الهامد نظرًا لأن جملتهم يكونوا منهكين وضعفاء، وفيهم المرضى والعجزة من عناء السفر، وإبلهم وخدمهم منهكين أيضًا.

وعندما يقوم الأشخاص بإعلام الباشا الوالى بفائدة الجند فى الرحلة للحجاج. يتم التنبيه على كافة التجار والجمالين وكان يُهتم غاية الاهتمام بزيادة عدد الجند.

وعندما صدر الفرمان بخروج هؤلاء الجنود المكلفين بالخروج للرحلة، خرج الموكب فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة إلى القصر وهو موكب يتكون من خمسة آلاف جندى من الجند المنتقاة. ويخرجون فى حضرة الباشا الوالى فرقة فرقة وهم يعزفون ويبتهلون، ثم يحضر سبعون سردارًا وكتخدا وجملة أصحاب المناصب العليا فى حضرة الباشا الوالى، الذى ينعم عليهم بالخلع السلطانية ويوصيهم باحترام الحجاج المسلمين، ثم يخرج الموكب من القصر على دقات الطبول، ثم تجتمع كل فرقة مع كافة الجنود ويُطلق عليهم حينئذ «موكب الفرح».

ويخرج الموكب العظيم جماعات جماعات من مصر بين مئات الألوف من الرجال يشاهدونهم ويدعون لهم بالخير قائلين: «ينصركم الله يا عساكر الفرح» وعندما يصل الموكب إلى الحجاج يطلقون عليه «موكب الفرح» لأنه به أفراح وتُعزف الموسيقى أثناء مشاهدة الأهالى له، وتُطلق البنادق، وتنطلق الأدعية المحمدية للموكب، ثم يخرج الموكب من باب النصر، ويمكث فى العادلية ثلاثة أيام، ويأتى آلاف التجار بأمتعة كثيرة ويظلون هناك، وفى اليوم الثالث فى وقت الشفق تُطلق قذائف المدفعية ويُنفخ فى البوق، وتُعزف الموسيقى، ويصل الموكب فى الساعة الرابعة إلى منزل البركة. ويمكثون هناك ثلاثة أيام، وبعظمة الله يأتى سبعة آلاف أو ثمانية ألف حمل بعير محملة بالمأكولات والمشروبات من الشرقية والقليوبية والبحيرة ودمياط ورشيد، وحينئذ يقوم «حاكم أزلم» بإطلاق قذائف المدفعية، ثم يقطعون المنازل ويطوون المراحل حتى يصلوا فى اليوم العاشر إلى قلعة العقبة ويمكثون هناك لمدة يوم، ويقومون بتحميل كافة الإبل بالمياه، وعندما يدخلون إلى صحراء قلعة «أزلم» فى اليوم الثامن تنطلق قذائف المدافع وطلقات البنادق المتتالية، ويقوم التجار والجنود بنصب خيامهم فى مكان يبعد ساعة عن القلعة ويقوم كل شخص بإخراج ما معه من متاع وينشره على جانبى طريق الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى يخرج أمير أزلم مع ثلاثة آلاف جندى وأغا أزلم مع ثلاثمائة جندى لاستقبال الحجاج، وفى وقت المساء يفد حجاج البحر أيضًا ويسلمون على أمير الحج. وبمجرد وصول الموكب العظيم إلى قلعة أزلم تنطلق طلقات المدافع، وبعد ذلك يمكث كافة الحجاج فى صحراء أزلم يجددون نشاطهم، حيث يمكثون هناك ثلاثة أيام ويتركون إبلهم المنهكة المتعبة ويؤجرون رواحل جديدة بدلا منها.

ويشترى كل شخص كافة الأمتعة وقطعان الإبل الصغيرة، ولكن يتعرض الحجاج والجنود المنهكين المتعبين لقطاعى الطرق واللصوص والنشالين الماهرين فى السرقة مما يجعل هؤلاء الحجاج وهؤلاء الجنود يتعرضون لمشقة فى هذا الطريق. حيث يقوم هؤلاء

اللصوص بنهب أموالهم والإغارة عليهم ليلاً ونهاراً مثلما قام هؤلاء الملاعين بقتل جان بولاد أوغلو وقره يازيجى وسعيد عرب، فيكون هؤلاء اللصوص بمثابة من ألقى الذئب الجائع إلى القطيع، ولم يقم ابن رشيد بقتل الحجاج فى طريق الشام فى عهد قره على باشا، ويحتاج الحجاج الغافلون فى أزلم إلى النقود الحمراء، أما العقلاء منهم فهم على بصيرة، ولما كانوا أصحاب حوائج، لذا يجب أن ينتبه الحجاج غاية الانتباه فى أزلم.

وفى السنة الماضية قام هؤلاء اللصوص بسرقة سرج أمير الحج من على جواده، ووجد خدام الأمير السرج فى منزل شخص يسمى نواطر واكتشفوا أنه ليس سرج الأمير المسروق بل يشبهه تماماً فقاموا بأخذه ووضعه مكان سرج الأمير من خوفهم، وتستروا على الموضوع، ويوجد لصوص بهذه المهارة كثيرين جداً، لذا يلزم الاحتياط جداً، ويذهب رجال من الفرقة السابعة مع الهجانة للإخبار ببشارة الحجاج القادمين إلى مصر ويخبرون بمن مات ومن هو على قيد الحياة، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فى أزلم يقطع الحجاج المنازل فى طريقهم إلى مصر.

الفصل الواحد والعشرون

فى بيان موكب العقبة ومصاريف الجنود والخزينة

يتم تعيين ألف جندى من الفرقة السابقة، ويُعين أيضاً أحد الضباط الكشافين والمتفرقة المعزولين مع ثلاثمائة جندى كقائد عام على العقبة، ويكون عددهم جميعاً ألفى جندى ولكن ليس لهم درجات ترقى، ويؤدى القائد العام خدمته فى مقابل منحه عند عودته درجة كاشف أو أغا وذلك عند وصول الحجاج بسلام، ويعطى للحجاج ألف بعير للإمداد وألف بعير أخرى للمؤن لزوم الطعام والشراب، ويُعطى أيضاً ستة مدافع وغرفة من الذخيرة والمدفعية وغرفة من سائقى عربات المدافع، وكافة المؤن اللازمة. كما يُعطى لهم عشرة قناطير من البارود الأسود، وأربعين كيساً من النقود المصرية، ويخرج جنود العقبة من مصر فى نفس الوقت الذى يصل فيه الحجاج المسلمون إلى قلعة أزلم، ويتقابل الحجاج معهم فى قلعة العقبة.

وبعد ذلك أى فى اليوم العشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندى بلا سلاح من إحدى أبواب قصر الباشا الوالى فى القلعة، وعند مسير الموكب من أمام الباشا الوالى يقوم سبعون رجلاً من الأغوات والأمناء والجاويشية بارتداء الخلع الفاخرة، ويحصلون على الدعاء من الوالى ويخرج الموكب من القلعة ويخرج مع الموكب من جاءوا للمشاهدة من المصريين ويخرجون جميعًا من باب مصر، ويمكثون ثلاثة أيام فى العادلية، ويأتى إلى هناك أيضًا من البلدان المجاورة خمسة أو ستة آلاف ناقة وبغل وحمار، وستة آلاف أو سبعة آلاف تاجر بلا سلاح يجلبون معهم الطعام والشراب، وعلى الفور يرسل أعيان مصر مع مماليكهم ثلاثة آلاف حمل بعير من مياه النيل، وذلك لعدم وجود مياه فى صحراء العقبة بدءًا من العقبة وحتى منازل ثنيات عجرود، وتكون جملة أحمال التجار من غلال الشعير والفول والسكر والعسل والزيت، كما يجلبون إبلاً زائدة عن العدد ليست محملة بشىء، ومهما كان فى مصر من حمالين وإبل فإنها تخرج كلها عن بكرة أبيها فى تلك الرحلة، ثم بعد ذلك يقوم أمير العقبة بإطلاق المدافع من العادلية، والحكمة من الذهاب إلى العقبة أنه فى شهر المحرم عام ١٠٨٩هـ، عندما كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر، وصل أمير العقبة بكم هائل من الخزائن إلى مضيق العقبة، فجاء من ناحية الشام حثالة مقاتلى بنى زهد وبنى رشيد وآل عمور، وتحاربوا مع جند القلعة وكانت حربًا عظيمة، وأطلقت المدفعية قذائف متتالية وقتل من العربان العرايا مائة شخص واحتل العربان مضيق العقبة ومكثوا فيه فما كان من أمير العقبة إلا أن تصرف بحكمة، حيث عاد من العقبة ومكث فى واد منبت مياهه وفيرة وأقام المخافر على الطرق البرية للجهات الأربعة للمكان وبعد ثلاث أيام بلياليها وصل الخبر إلى حضرة عبد الرحمن باشا بأنه قد حل العقاب الأليم برءوسنا فى العقبة، فقام بجمع الديوان السلطانى، وتحير أعضاء الديوان من حكمة الخالق فى هذا، وقال الوزير صاحب الدولة إن حال الحجاج دائمًا ما سيكون مضطربًا فى العقبة إذا لم يأتِ لهم أمير العقبة بمدد.

وعلى الفور استدعى الوالى عامل الخزينة وأمره بأن يصرف لهم أربعين كيس من النقود المصرية على سبيل المحبة، وأخبر بذلك جاويشية الموكب وسائر العربان والفرقة السابعة، وعلى الفور يقام اللواء الأبيض المحمدى فى فناء قصر الباشا الوالى، وفى اليوم التالى فى وقت العصر يمر الموكب من أمام قصر الباشا وهو موكب مكمل مزين يتكون من خمسمائة جندى منتخبين، فيقوم الباشا الوالى بإلباسهم الخلع الفاخرة لابتهاجه وصفائه من الموكب ويُعلّق على رءوسهم الطرة السلطانية، ويعبر الموكب من مصر ثم يمكثون فى العادلية حتى الصباح، ثم يخرج إلى العادلية ألف ومائة أو مائتين شاب ممن يقولون نحن لها، ويصل بعدهم ثلاثة مدافع شاهانية وتضرب طلقات المدافع إعلامًا بوصولهم، ثم يصل ألفا رجل من الجنود المهاجمين إلى العقبة فى خلال أربعة أيام وليال، ويأتى جملتهم فى مكان ما، ثم ينتشر الجنود المشاة على الجبال والأحجار، وعندما يرى العربان الأمر على هذا النحو يلوذون بالفرار بناء على المقولة التى تقول «فرارًا على توالى الكثرة» لا سيما بعد وصول الجنود البحرية أيضًا، وبذلك يستطيع جملة جند المسلمين أن يتخطوا العقبة ويتقابلوا مع الحجاج المسلمين فى الناحية الأخرى، غير أنهم يكونون فى غاية التعب.

وعندما يرى الحجاج الجنود فى العقبة فإن هذا يكون بمثابة تجديد الروح لهم، ثم بعد ذلك تُرسل البشارة مع مبشرى الجبل إلى الباشا الوالى بسلامة وصول الحجاج، حيث يصل حاملوا البشرى إلى الباشا فى اليوم الرابع من خروجهم، وعندما يعلم الوالى بهذا يبتهج ويمنح حاملوا البشرى كل واحد منهم خمس أقجات ويهبهم الخلعة والصرة.

ثم يقوم الحجاج المسلمون بتبديل الإبل التى بقيت فى العقبة، وبذلك يغتنمون أقوات الدواب والأموال المصرية، ويتجه الحجاج بعد ذلك إلى مصر فى تأن وتؤدة وبينما هم فى الطريق يطلب أعضاء الديوان صدور الفرمان الذى يجيز لهم الخروج لاستقبال موكب الحج، وفى تلك الأوقات تبقى ستة أكياس من الأموال المصروفة إلى الباشا.

فصل فى المواكب المتفرقة

يخرج كل أغا من أغوات الفرق السبع بخيامه ومؤنته فى موكب يدقون الطبول، وينصبون الخيام فى الأودية والأراضى الفضاء الواقعة من باب النصر وحتى البركة ويمكثون هناك فى بادئ الأمر يمكثون فى قصر شاد بك لتحصيل الجمرك، ثم يمكث بعدهم كتخدا (أمين) الجنود العزب فى الطوبخانه ويمكث أغا التوفكجية (حاملى البنادق) فى سبيل علام ويمكث أغا المتطوعين فى مصطبة أبو جاموس ويمكث أغا صانعى البنادق فى سبيل محمد أغا ويمكث أغا الشركس فى مصطبة (   )[1] ويمكث رئيس المتفرقة وكتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس الديوان فى البركة ينتظرون جميعًا قدوم موكب الحجاج، إلا أن لواء الإنكشارية يمكث فى الأرض الصحراء البعيدة عن البركة فى خمسمائة أو ستمائة خيمة.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم موكب أمير الحج من الكعبة

إلى منزل البركة وقضائه تلك الليلة هناك

فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر تبدأ مسيرة طليعة الحجاج ولما يصل أمير الحج بالمحمل إلى موضع يسمى دار الحمراء، ينقل الخبر إلى كتخدا الباشا فى بركة الحج.

فصل فى بيان محلة الأكواب الشهيرة عظيمة الخيرات

يمكث أغا تحصيل الخراج فى مكان يسمى الأكواب بسبعين أو ثمانين خيمة من الجنود المتطوعة، وذلك قبل ورود موكب الحج بثلاثة أيام، وبالرغم من أن مصر يوجد بها ألف سقاء ماء ممن يشتغلون بالسقى على الإبل والحُمر، إلا أنهم جميعًا يأتون مع أغا تحصيل الخراج، ويقومون بملئ الأحواض والصهاريج والأكواب وأسبلة الخير التى أنشأها الوزراء، ثم يقومون بنقل هؤلاء الحجاج الضعفاء المنهكين من عناء السفر على تلك الإبل والجياد من البركة ويقف جند الوالى من التتار والشباب المتطوع وجنود المتفرقة على طريق الحجاج، ويقدمون ماء النيل لهؤلاء الحجاج العطشى، ويجتمع الحجاج الجوعى على مائة حمل جمل من الخبز وألف حمل جمل من الألبسة وألف قميص ومائة شاه، ويدفعون عطشهم بشربهم ماء الرحمة. ويقدمون الألبسة لكافة الحجاج العرايا، ويدعون لهم بالخير.

ويوجد لأعيان مصر ألف جمل محملة بالمياه، وإذا حدث ولم تُرسل تلك المياه فى هذا اليوم مع أغا تحصيل الخراج، فإن معظم الحجاج سيصاب بمرض الحكة، وتلك الأيام تعتبر فى حكم مسئولية ومهمة كاشف قليوب، حيث أنه مكلف بحفظ وحراسة الحجاج لمدة ثلاثة أيام بلياليها فى دار الحمرا على طريق الحج، حيث تقوم فرقتان من العربان كل فرقة قوامها مائتى جندى بحماية الحجاج من أولهم لآخرهم، أما بقية الحجاج الآخرين الضعفاء الذين بقوا فى الطريق فقد يتعرضون لنهب أشقياء العربان. هذا بالإضافة إلى أن أى ضرر يصيب الحجاج فى تلك الأيام يكون مسئولية كاشف قليوب، وذلك لأن تلك النواحى تعد حدود المنطقة.

ويقوم الكاشف بانتظار النوبة كل ليلة فى خيمة أغا تحصيل الخراج، وعلى هذا يُطعم العامة من مال الباشا لمدة ثلاثة أيام، ويعطى لهم الثياب والسراويل والقمصان، ويتم حفظ الأماكن التى يستقر بها كل الأمراء وكل أغوات الأوجاقات ويسير الحجاج على ذلك فى موكب بهيج، والبعض يدعو الحجاج إلى خيامهم ويضيفونهم، وينشر كل أغا سبعة أو ثمانية أكواب من المياه أمام خيمته ويقومون كل ليلة بإضاءة ألف خيمة بمائة ألف قنديل، ويصل صدى صوت طلقات المدافع والبنادق إلى صحراء سبيل العلام، ويقوم أمير العبيد الموجود فى سبيل العلام بصرف مصاريف كثيرة، حيث يقوم بحراسة الحجاج لمدة ثلاث ليال، ويُعد استقبال الحجاج ثلاثة أيام ولياليها بمثابة الثواب، لما فيه من العيش والعشرة والمتعة والصفاء، وهذا هو ما يتردد على ألسنة الناس.

كما أنه عالم مختلف ويقول أهل مصر عن هذا الاستقبال العربى «جند حجاج الصفا» وفى المكان الذى سيصل فيه أمير الحج فى البركة، ينتظر أمين الديوان بعد استئذانه من الباشا الوالى، ثم يقوم أمين الديوان باستدعاء أغا العزب فى المطبخ السلطانى ليتناول ضيافته، ثم يستدعى بعده أغا السباهيه أى (الفرسان) ثم أغا المتطوعين ثم أغا التوفكجيه، ويأكل الجميع من هذا الطعام، ويحصل كل واحد منهم على جواد عربى أصيل، ويصلون إلى خيامهم فى البركة، وعند منتصف الليل يمتطى جميعهم الجياد ويسيرون مع ألف من أعيان مصر بألف شعلة، ويمتطى أمين الوالى وأمين الديوان ورئيس المتفرقة وأمين الجاويشية وسائر الأغوات والباشوات الجياد وتصبح ظلمة الليل ضياء منيرًا بفضل مشاعلهم، وعلى هذا الحال يسير الباشاوات حتى ظهور راية أمير الحج وظهور المحمل الشريف عند مصطبة الأغا وتدق الطبول لقدومهم ويتقابل كافة الأعيان مع الأشراف فيتبادلون التهنئة ويتعانقون ويقبل بعضهم بعضًا ويرفع الآذان المحمدى، وبعد أداء صلاة الفجر يتناولون القهوة ثم يمتطون الجياد.

ويتقابلون مع جملة المشتاقين الذين خرجوا لاستقبالهم، ويظلون هكذا حتى يصلوا إلى البركة فى موكب عظيم، ويتناولون مائدة عظيمة، ويقوم أمين الباشا الوالى بإهداء أمير الحج جوادًا مزينًا مكملاً ويمتطى أمير الحج الفرس ويذهب إلى خيمته، ويأخذ على أغا كتخدا عبد الرحمن باشا بجواده المزين إلى مصطبة الأغا حيث يمتطى أمير الحج هذا الجواد وعندما يصل إلى البركة ينزل فى خيمته، ولا يقوم كتخدا الباشا الوالى بضيافته،

بل يضيّفه «نيشلى» على فى ضيافة عظيمة، ويذهبون بعد ذلك إلى مصر مع موكب الباشا الوالى، ويظل الباشا أمير الحج فى البركة تلك الليلة، وتنطلق المدافع والبنادق العظيمة ابتهاجًا وسرورًا، حتى حجاج القصبات الأخرى يظلون فى البركة فى تلك الليلة.

وفى اليوم الخامس والسادس والسابع من شهر صفر يدخل حجاج مصر وسائر حجاج الديار الأخرى إلى مصر. وبذلك تكون جملة رحلاتهم مائة وعشرة يوم، ويقوم أحد أمناء إبراهيم باشا بالذهاب إلى مكة فى أربعة عشر يوم ويلحق بالحجاج وهم على جبل عرفات ويحج معهم، ويأخذ الرسائل من شريف مكة ويقوم بالسعى والطواف فى مكة، وفى اليوم التالى أى فى اليوم الخامس عشر من رحلته يعزم الخروج إلى مصر ويصلها بعد أربعة عشر يومًا وبذلك يكون الإياب والذهاب مع الحج فى مقدار شهر. وهذا يعنى أن الحج من مصر قريب وآمن، ويقضى أمير الحج ليلته فى البركة، وتنصب الموائد العظيمة للأعيان والأغوات وأغوات البلوك وكتخذا الجاويشية الذين خرجوا لاستقبال الحجاج، وتنطلق فى تلك الليلة طلقات المدافع والبنادق ابتهاجًا وفرحًا، وفى صباح اليوم التالى يأخذ أمير الحج المحمل الشريف ويتقدمه أعيان مصر الخارجون لاستقباله ويمرون على خيام أغوات الفرقة السابقة المقامة على الطريق، ويسلم الحجاج على كافة الأغوات ويعبرون وعندما يكونون بالقرب من باب النصر يظهر موكب عبد الرحمن باشا، فيتركون الموكب ويمتطون الجياد، وعندما يصلون إلى المحمل الشريف ينزلون من على الجياد، ويسيرون مسافة أربعين أو خمسين خطوة حتى يصلوا إليه ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وتُعزف الموسيقى العسكرية ثم يقوم عبد الرحمن باشا بإهداء الباشا أمير الحج الخلعة الفاخرة من فرو السمور. فيقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ويستقر الباشا فى العادلية، ويصلون جميعًا إلى باب النصر، ويقضى أمير الحج ليلته ضيفًا فى جامع جان بولاد، ويسهرون الليل حتى الصباح، وهم يتلون المولد الشريف، وهذا المولد الشريف الذى يتلونه هو أول مولد يُتلى فى مصر، ثم مولد الشيخ البكرى والشيخ الكلشنى ومولد السادات، وستحرر تلك الموالد فى موضعها،

ولكن فـى مولد جان بولاد هذا يـقوم أمير الحج بـإعطاء ألف قرش لـلعلماء فى نـظير تلاوتهم للمولد، وفى صباح اليوم التالى وهـو اليوم السابع من شهر صفر تمتلئ أسواق مصر بالأهالى، حيث ينتظرون قدوم أمير الحج من الحج الشريف.

(تابع) الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم أمير الحج من الحج

هذا الموكب أحد مواكب العيدين فى مصر، ويُـذكر هذا الموكب عندما تذهب النساء لمشاهدة الموكـب، وتُؤجر الحوانيت الواقعة علـى الطريق العام الذى سيسيـر فيه الموكب قبلها بشهر، حيث يقوم كافة الأهالى حتى الفقراء منهم للخروج لاستقبال الحجاج نظرًا لأن العلماء والمشايخ والصلحاء والأئمة والخـطباء الذين يُعدون بمئات الآلاف فى أقاليم مصر الـسبعة يعتـبرون الخروج لاستقـبال الحجاج فرضًـا، من هنا يخرج كـل الأهالى وينتشرون فى الحوانيت والأسواق والطرق، ويخرج المشايخ والفقراء براياتهم وسناجقهم لاستقبال الحجاج، ولا يخرج جنود الإنكشارية وجنود العزب فى هذا الموكب، ويمر فى بداية هـذا الموكب أميـر الحج ثم لواء الـتفكچية وبعدهـم المتطوعـة ثم الشراكـسة ثم الجاويشية. ثـم جنود المتفرقة. ثم يمر بـعدهم أغوات خمس فرق عسكـرية على دقات الطبول، ثم يمـر بعدهم أمير الحج بالجنود الـذين احترقت وجوههم وعيـونهم من شدة الحر، ثم يمر بعدهم مائـتين وخمسين جنديًا إنكشاريًا، يعلقون الـسيوف على خصورهم والدلايات على رءوسهم، ومعهم الجند المعروفون بالجند الملازمين لجنود الإنكشارية، ثم يمر من بعدهم كافة أمراء مصر من الشراكـة على الموسيقى العسكرية، ويكون الأغوات حينئـذ بلا سلاح ومزينيين، ثم يـأتى من بعدهم إحتيـاطيو الباشا أمير الحـج. وبعدهم طائفة الشطار ويكون المحمل الشريف أمام أمير الحج. ويدخل أمير الحج من باب النصر بالموكب العظيم عـلى دقات الطبول وصيحات التهليل، ويعـبرون فى حضور كافة أهل مصر. ويـقوم أمير الحج بـسـحب الجواد فى الميدان فـى حضور جملة الأمـراء والكرام وأعيان الديوان ذوى الاحترام، وينـزل الباشـا الوالـى بالجنود من القصر، وعندما يصل الباشا إلى بـاب القصر يقوم أمير الحج بتـقبيل الأرض، ثم يسلم المحمل إلـى يد الباشا الوالى، حـيث يقوم الـباشا الوالى بـالدوران والسير ثـلاث مرات بالمحمـل ويُدون فى

السجل الرسمى أن المحمل الشريف تم تسليمه إلـى الباشا الوالى ثم يقوم الوالى بتسليم المحمل إلى الكتخدا، ويقـوم الكتخدا مع جنود الوالى بنقل المحمل فى موكب مزين من باب العزب إلى باب الوزير.

وتبرك نـاقة المحمل أمام بـاب القلعة ويـتم تـسليمه إلى ناظـر الكسوة حيـث يقوم النساجون بحـفظه حتى السنة التاليـة، أما جمل المحمل فيُنقل إلى بـلاد الريف على يد الأميراخور[1] ليرعى هناك مع بقية الإبل الأميرية حتـى السنة المقبلة. ثم يذهب كتخدا الباشـا بعد ذلك إلى خيـمة الوالى فى قره مـيدان ويقوم الأهالـى بالدعاء بالخيـر لأمير الحج، ويُعطى أمير الحج خلعتين فاخرتين فيقـوم أمير الحج بتقبيلهم ويجلس فى المركز، ثم يُمنح قـادة الفرقة السابقة والجاويشـية، والحاصل أنه تُقَدم الخلع إلى سـبعين أغا من أغوات الأوجاقات ويذهبون كـلهم إلى منازلهم ما عدا أمير الحـج، ثم يقوم أمير الحج إطلاع الباشا الوالى عـلى رسائل أهالى مكة والمدينة واليمن وشـيخ الحرم المدنى وشيخ الحرم المكى وأشراف مكة، وتتم قراءة تلـك الرسائل فى ديوان الأوطاق فى قره ميدان، ثم يقوم الدفتردار والروزنامجى بكتابتها فى السجل الرسمى.

ويصدر الفرمان بأن يـقوم أمير الحج بعرض الحساب على الوالـى الباشا ويكون ذلك فى حضور جملـة أرباب الديوان، ويوفى أمير الحج حقه فـإذا كان له شىء يأخذه، وإذا كان عليـه شىء يدفعه، وبعدهـا يستأذن أمير الحج فـى الذهاب إلى بيته، ويـذهب معه لتوصيلـه جملة أغوات الباشا الـوالى حيث يكون كتخـدا البوابين قائدًا عليـهم، فيكون موكبًا عظيـمًا مع أمير الحج ويعطى أمير الحج لـلجنود الذين أتوا معه إلى بيـته كيسًا من النقود ويعطى الجنود الملازمين لهم مائة قـرش، وبذلك يخلو باله ويستريح، وفى صباح اليوم التالى يقوم أميـر الحج كما هو معهود فى قانون التشريفات بتقـديم الهدايا للكتخدا وإلى أصحـاب المراتب الإثنى عـشر وهى عبارة عـن عشرة أكياس مـن الهدايا الهـندية القيمة، وعشرين شمعة من العنبر وصرة مـسك وعنبر وعشرين أوقية من العود التوتى، والبنزهير وعشرة قرون زبادى حلبى وعشرة طواشى حبشية وعشرة حسان حجازية وكيس

(١) الأميراخور: أمير الإصطبل.

من الهدايا، وسنحرر ذلك فى فصل التشريفات بمشيئة الله، وتأتى هدايا أخرى من أغوات البلوك السابع، والحاصل أن الهدايا التى تأتى من الحجاج تصل فى جملتها إلى عشرين ألف قرش، وتأتى هدايا أخرى تقدر بعشرة آلاف قرش من أشراف وأعيان مكة والمدينة ومن أمير جدة وتقدر كلها بعشرة أكياس، هذا ويحتاج وزراء مصر إلى كل تلك الهدايا، وتكون جملة الصرر والهدايا فى يد وزير مصر، لذا يلزم أن يكون وزير مصر من المشاهير، ومن هنا يكون الموكب قد بلغ تمامه بدخول أمير الحج مصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان موكب خزينة الصقر

يذكر قانون السلطان سليم فى مصر بأنه على الباشا الوالى أن يقوم بإهداء الخلعة الفاخرة لأحد الأمراء الشراكسة أو أحد الكشافين، وذلك مقابل أن يجعله موظفًا ومسئولا عن خزينة الصقور التابعة لخزينة مصر العمومية، ويكون تحت إمرته سبعمائة رجل من مُربى الصقور، وجملة هؤلاء معافون من الضرائب، وذلك لأن اصطيادهم تلك الصقور والنسور إنما يكون فى الأماكن الوعرة الخطيرة، وبعد اصطيادهم يقوموا بتسليمها إلى رئيس خزينة الصقور، ولا يخفى علينا أن صيد الصقور إنما يكون فى الجبال الشاهقة الارتفاع، ويمكننا القول بأنهم فى تلك المهمة يكونوا قد التحموا بالسماء، ولا يوجد بمصر غابات وجبال شاهقة لذا لا توجد تلك المهنة فى مصر.

ولو جُلبت الصقور إلى مصر فإنها لن تعيش فيها لأنها طيور تعيش على التحليق والرعى ولا يكون هذا إلا فى الغابات لأن مصر بلدًا ساحلية لا تقف الصقور المهاجرة بها.

كما أن الإنسان يعيش بلا كدر ∴ فإن الصقر لن يقف فى ضرر

ومضمون البيت أن مصر لا توجد بها صقور، وأن موسم الربيع الذى يأتى منه صيادى الطيور للتدريب عند قناطر الغورى، يكون هذا الوقت هو وقت موسم الصيف بالنسبة للصقور المهاجرة، وتتم ترقية هؤلاء المدربين من البلوك السابع، حيث يتم تدريب كل مائة على حده ويكون منهم مائة شخص فقط تابعين لرئيس صيادى

الصقور، أما السبعمائة الآخرين فيكونوا رؤساء على صيادى الصقور العرب. وجملتهم ألفى رجل، وتمر مواكبهم فى حضرة الباشا الوالى ويكون عبورهم بلا سلاح. حيث يعبر صائد الصقور العربى راكبًا على حمار وفوق رأسه صقر وعلى ذراعه صقر وعلى يده صقر ويخرج منهم على هذا المنوال سبعة عشر شخص، وفى هذا الموكب يُمنح رئيس صيادى الصقور والكتخدا وعشرة أغوات الخلع الفاخرة. ويلاحظ أن الموسيقى العسكرية لا تعزف فى هذا الموكب نظرًا لأن رئيس صيادى الصقور ليس بأمير، ولكن تُدق الطبول فقط أثناء عبوره، ويمكث هذا الموكب فى العادلية ولا يوجد به جنود لذا لا يعد موكبًا عظيمًا، إلا أن كافة مصاريفه تعرض على الخزينة. وذلك لأن مأكل ومشرب وملبس ودواب هذا الموكب وكافة مصاريفهم تُعد خزينة بنفسها، ويقوم هذا الموكب بقطع المراحل وطى المنازل من هناك حتى يصلوا إلى دار السعادة، ويُعرضون على الصدر الأعظم والسلطان صاحب السعادة، ويمر الموكب فى حضور الأمير ويتم تسليم كافة الصقور إلى رئيس مربى الصقور، ويُمنح الخلعة السلطانية، ويقوم بتسليم الأمراء بعض الصقور كهدايا لهم، وعندما تحوز خزينة صيادى الصقور رضا السلطان يأمر أحد الخاصكية أو أحد القابجى باشى بتصفيتها، ثم يأخذ السلطان الخبر بأنه لا يوجد بها شىء، ويعود جملتهم إلى مصر، وينالون الترقيات والتى يستحقونها من الباشا الوالى.

الفصل الرابع والعشرون

فى بيان موكب قدوم البنطال والسيف والقفطان إلى وزير مصر

يقوم الجنود بتفتيش خزينة الصقور بناءً على الأمر السلطانى الذى يأخذوه وما يجدوه بها يقوموا بتصفيته، إلا السيف والقفطان والبنطال، فيسمح السلطان بإرسالهم إلى وزيره فى مصر. حيث يقوم خمسة عشر رجل بقطع المسافات وطى المراحل فى طريقهم إلى مصر وعندما يصلون إلى بلبيس يقوم رجل منهم بالتوجه إلى كتخدا الوالى، حيث يأمر الوالى بتجهيز المطبخ خانه فى العادلية، وفى صباح اليوم التالى يغادرون كلهم ويعبرون من مصر مع كتخدا الوالى الباشا ولا يوجد فى هذا الموكب سوى جاويشية الديوان وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغا الترجمة وبالرغم من ذلك يكون موكبًا فخمًا، ويسيرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى العادلية ويتناولون طعامهم ثم يمتطون جيادهم ويسيرون فى موكب ويدخلوا من باب النصر برفقة الأغا وكتخدا الوالى. ويكون عبورهم على موسيقى المهتر والموسيقى العسكرية البسيطة وهم يرددون «الله ينصر السلطان» ويتسلم الباشا الوالى الرسالة الموجودة مع الأغا ويقبلها ويضعها فوق رأسه ثم يعطيها لرئيس الديوان ليقرأها، وبعد معرفة ما فيها يقوم الأغا بإهداء الباشا الوالى الخلعة السلطانية والبنطال القطيفة الخاص بصائد الصقر الأحمر ويتمنطق بالسيف، وتخلع الخلع الفاخرة على سبعين شخص من أغوات الفرق السبع وجاويشية الديوان كما هو متبع فى قانون مصر، ويدعون للباشا بطول العمر وبهذا يبتهج الجميع وتأتى الموسيقى العسكرية إلى القلعة وتعزف بشكل جميل، ثم بعد ذلك يُحصلون الأموال ويُعطى عشرة أكياس للأغا القادم مع الموكب ثم يعودون بالغنائم إلى دار السعادة.

الفصل الخامس والعشرون

فى بيان دخول قاضى مصر وموكب العلماء

من المؤكد أن قضاة مصر يُعزلون عند وظائفهم وهم فى الستين من عمرهم ويخرج لهم موكب أيضًا، حيث أنهم عندما يصلوا إلى المكان القريب من مصر والمسمى الخانكة

يقوم وكيل الخراج بإرسال المطبخ إلى العادلية، وفى اليوم التالى يخرج إلى العادلية كتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين وكافة جنود الوالى والعلماء والصلحاء والأشراف والأئمة والخطباء والمشايخ لاستقبالهم ويكون فى هذا الموكب مائتين من ملازمى جنود الإنكشارية، وينتظر الجميع عند باب القاضى، ولا يوجد فى هذا الموكب أى جنود سوى المائتين جندى إنكشارى المذكورين، وذلك لأن كافة من فى الموكب علماء.

ويقوم كتخدا الوالى بضيافة حضرة القاضى، ويمتطى الجميع الجياد، ويعبر الموكب أفواجًا أفواجًا كلٌ على حسب طبقته، حيث يعبر كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية ثم يعبر جملة العلماء، ويركب القضاة الخيل المزينة وهم هنا ليسوا فرسان الخيل بل فرسان البلاغة والفصاحة، فصحاء اللسان بديعى البيان حفاظ الكتاب الكريم قال فيهم رسول الله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[1]، فمنهم الأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والبكرية ثم مفتيو المذاهب الثلاثة، ثم يأتى بعدهم أغا ملازمى جنود الإنكشارية المشاة، ثم جنود إنكشارية باب القاضى عسكر، ثم المدرسين ثم المحدثين ثم القضاة ثم قسَّام الجند ثم نائب الديوان ثم جملة السادات الكرام، ثم نقيب الأشراف ثم جملة علماء الجامع الأزهر وكبير محضرى المحاكم وكتخدا قاضى مصر ثم شيخ الإسلام الحنفى مصطفى افندى البلوى، ويسير هذا الموكب العظيم على دقات الطبول الأربع والعشرين، والنفير حتى منزل كتخدا الباشا الوالى ويأتى الكتخدا إلى القصر ويبلغ الوالى سلام القاضى مولا مصر، وفى نفس اليوم يخرج المولا لمقابلة الباشا الوالى.

---

(١) الحديث ليس بلفظه هذا، إنما أخرج ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله: «.. إن العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ». سنن ابن ماجه المقدمة (كتاب السنة) (١٧)، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص٨١. حديث رقم ٢٢٣.

فى بيان موكب مولا مصر

فى اليوم الذى يذهب فيه حضرة المولا إلى قصر الباشا الوالى مع طائفته الخاصة يمر محضرو المحاكم الأربعة وعشرين سيرًا على الأقدام مثنى مثنى فى أيديهم العصى، ثم يسير من بعدهم جاويشية الديوان مثنى مثنى على الخيول العربية الأصيلة المزينة، ثم يسير من بعدهم نواب المحاكم الأربعة وعشرين على جيادهم العربية الأصيلة المزينة ومعهم خدامهم مترجلين ثم من بعدهم المحضرين المحليين مترجلين، ثم من بعدهم جنود الإنكشارية أصحاب الخيام يرتدون على رءوسهم العمامات السوداء، ثم ضباط الإنكشارية الذين يُطلق عليهم (چوربجى) ومن بعدهم كتخدا المولا وبجانبهم رئيس محضرى القابجى أصحاب الطربوش من لواء القابجى بإستانبول، ثم يمر من بعدهم نائب الباب ونائب الديوان على جيادهم جنبًا إلى جنب، ثم القضاة الأربعة، ثم القاضى عسكر على الفرس العربى الأصيل وعلى رأسه الطرة وبجانبه الموظف المختص بمسابقات الوالى، يرتدى على رأسه الطربوش وعشرة من مختصى مسابقات الوالى ويكونوا مترجلين، وعندما يصل الموكب إلى القصر يخرج الباشا الوالى إلى القصر ويتقابل معهم ويقدم لهم مائدة عظيمة، بعدها يدور الحديث فيما بينهم وبعد ذلك يمنح الباشا افندى الخلع من فرو السمور ويتصافحان ويُمنح الكتخدا أيضًا الخلعة الفاخرة ويُمنح نائب الباب والباشا المحضر الخلع الفاخرة، وبعد القهوة والبخور يتجولون حتى يصلون إلى القصر مع توابعهم، وهذا هو موكب القاضى عسكر وليس لهم أى مواكب أخرى حين عزلهم.

الفصل السادس والعشرون

فى بيان موكب أمير جرجا

يأتى كافة الأمراء والبكوات والكشافون إلى ديوان مصر لمناقشة حساباتهم، بعد قطع النيل، من هؤلاء الأمراء أمير جرجا الذى يأتى فى موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه أو وصفه، ويقول العربان عن حاكم جرجا إنه سلطان الصعيد العالى وحاكم البر الوالى، ويمكننا القول أن غنيمة مصر كلها تأتى من الصعيد، حيث يحتاج إليها كافة أهالى

مصر. وفى يوم الموكب ينزل الباشا الوالى إلى قره ميدان، ويستطلع الوالى من قصره عن مجيء حاكم جرجا، ولحب أهل مصر لهذا الموكب فإنهم يخرجون لاستقباله وهو موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه، وحاصل الكلام أن هذا الموكب كغيره من المواكب الأخرى المذكورة فيما سبق إلا أن هذا الموكب يختلف عن غيره من المواكب بوجود ثلاثة آلاف جندى من التوفنكجية السود المشاة وألفى فارس عربى بالعمامات وألفًا من صبيان الواحات الذين يحاربون فى بلدتهم وفى بلاد الفونج ويجلبون البنات والصبيان السود الذين يقعوا غنيمة لهم.

وعند قدوم أمير جرجا تدق الطبول الحبشية وتُعزف الموسيقى ويُنفخ فى النفير إيذانًا بقدومه، ومن المعلوم أن جرجا لا يتم بها الضبط أو الربط إلا فى وجود عشرة آلاف جندى وألف مقاتل رومى، ولأمير جرجا حصة فى الإقليم وحكومته نافذة وملكه فى مملكة كبيرة، وتُعد جرجا هى منبع مياه مصر، وبعد مرور موكب أمير جرجا يمر من بعده المهترخانه (الموسيقى العسكرية) ويأتى أمير جرجا إلى حضرة الباشا الوالى فى معية مائتين من خواص غلمانه غير المسلمين.

وتعزف الموسيقى العسكرية وعندما يصل حاكم جرجا إلى حضرة الباشا الوالى ينزل من على جواده ويتحدث معه الوالى بكلمات ثم يُنعم عليه بالخلعة، ويتم الإنعام على أربعة وعشرين كاشفٍ والدفتردار والكتخدا وعددهم سبعة وسبعين بالخلع الفاخرة ثم يقوم الباشا الوالى بمخاطبة الدفتردار والروزنامجى ويصدر الوالى أمره بالإطلاع على حساب أمير جرجا، ويتم تعيين أغا لتحصيل الأموال.

وبعد ذلك يخرج أمير جرجا، حيث يذهب الموكب مع أغا الباشا إلى قصر الأمير، وفى اليوم التالى يقوم الأمير بإرسال الهدايا إلى الباشا وبيانها كالتالى: أربعون فرسًا عربيًا أصيلاً وعشرة نبال وعشرة طواشى وعشرة أكياس وخمسة آلاف أردب من الشعير وثلاثة آلاف أردب حنطة وهدايا أخرى قيمة مماثلة لها، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وخمسة جياد عربية أصيلة وتُعطى هدايا أخرى

إلى أصحاب اثنى عشر مرتبة كلٌ على حسب مرتبته لا يقبل الزيادة أو النقصان، وبعد توزيع الهدايا يقوم أمير جرجا بإظهار حسابه ثم يُحصل ما تبقى فى زمته من الأموال الأميرية.

الفصل السابع والعشرون
فى بيان موكب الأسطول الهمايونى

يكون هذا الموكب فى حالة فتح إحدى القلاع فى إحدى الإيالات أو فى حالة مولد أو ختان أو زفاف أحد الأمراء أبناء السلطان أو فى حالة جلوس السلطان على العرش، حيث يفد من الآستانة أحد أغوات السلاح أو أغا أو أحد أغوات الخاصكية أو رئيس البوابين، وعند وصول الأغا القادم من الأستانة إلى بلبيس يُرسل أحد الأشخاص إلى كتخدا الوالى بإرسال الخبر إلى مطبخ العادلية وإلى جنود الفرق السبع، وكما هو معتاد أيضًا يذهب كتخدا الوالى مع الجنود بصحبة المهترخانه إلى العادلية ويخرج الموكب من باب النصر، وتُنصب الموائد ويتم تناول الطعام ثم يمر الموكب ويضم الأغا القادم وكتخدا الوالى، داخل مصر على دقات الموسيقى العسكرية ويخرج الباشا الوالى لمقابلتهم عند ديوان الغورى، وتُقرأ الفاتحة فى الديوان ثم يُقرأ الفرمان الشريف، ويقوم كل جاويشية الديوان بالدعاء ثم يصدر الوالى فرمانًا إلى الصوباشى بأن يأمر الدلالين بأن ينادوا فى الناس لتنصب الأفراح أربعين يومًا وليلة بمناسبة الخط الشريف. ويُمنح الأشراف الخلع الديوانية وتُطلق المدافع من القلعة وتعزف الفرقة العسكرية الموسيقية بجوار القلعة، بعدها تُزين مصر أربعين يومًا وليلة أو عشرين يومًا وليلة على حسب ما يرد فى الخط الشريف وتكون زينتها غاية فى الجمال لا يستطيع اللسان أو القلم وصفها، ويظهر فى تلك الأيام ويكون ظاهرًا للعيان مَن فى مصر مِن أصحاب رءوس الأموال والأعيان والمنعمين ورجال الدولة حيث يقوم كل شخص بإظهار ما عنده من زينة وجواهر وتزيين القلعة والحوانيت ويُقال عن مصر حينئذ أم الدنيا وعروس الدنيا، حتى أن الفقير إلى الله[1] كان فى مصر فى هذه السنة فى عهد الكتخدا إبراهيم باشا ورأيت الإحتفالات

(١) يقصد المؤلف نفسه.

المبهجة التى تمت بمناسبة فتح قلعة قمانجه فى عهد السلطان محمد خان وتحيرت كثيراً لتلك الأوصاف، وكانت لياليهم تجل عن الوصف، فى نفس الوقت تكون هناك مشكلة بالنسبة للجنود القائمين على الضبط والربط فى مصر حينئذ، ودائمًا ما يُقال ما لى أبالى لأن مصر فى تلك الأيام تكون أم الدنيا وهى هبة النيل إنها جلجلة مصر وطنطنة مصر.

حقيقية إن إستانبول مدينة كبيرة إلا أن أهلها على ضبط وربط، أما طائفة الجند فى مصر يرفعون القيد عن الغنى والفقير والشاب والشيخ، وسرعان ما يتشاجرون كالخيل الشرس، فكلهم مجبولون على الشقاوة، ولا يستطيع أحد أن يسيطر على خدامه ومماليكه وأهله وعياله. حيث يقومون بامتطاء الجياد غير المروضة يكون كل شخص فى عالمه الخاص يلهو ويلعب، الكل فى حالة فرح وابتهاج، ولكن فى حالة فتح إحدى القلاع على يد الوزير الأعظم تكون الزينة والاحتفالات اثنتى عشرة ليلة فقط.

وإذا ما فتح القائد العام قلعة عظيمة تكون الإحتفالات عشرة أيام وعشر ليال أو سبعة أيام وسبع ليال، ويكون الناس فى مصر سعداء بهذا القدر والإقليم الأصلى المشهور فى ذلك الإقليم الآخر وجزيرة القاهرة، حيث يميل أهالى مصر إلى اللهو واللعب والموسيقى والغناء وأهلها كثيرون جداً، ولأنهم يملكون أموال فرعون فإنهم يصرفونها فى اللهو واللعب والموسيقى والغناء. وبالرغم من أن عزيز مصر غلب زليخة إلا أن أهل مصر ما زالوا منذ ذلك الوقت وحتى الآن مغلوبين لمخدوميهم فهم دائمًا يميلون للشقاوة والظرف. وإذا ما لاحت لهم الفرصة يبتهجون إبتهاجًا عظيم حتى الاحتفالات التى قام بها الكتخدا إبراهيم باشا فى قره ميدان بسبب فتح قلعة قمانچه أنفق على من يقومون بالألعاب النارية فى تلك الإحتفالات عشرون كيسًا من النقود المصرية فى مصر بلد المعرفة ويضاء فى قره ميدان مائة ألف قنديل تجعله بمثابة ميدان النور ـ حفظك الله تعالى ـ.

الفصل الثامن والعشرين
فى بيان خزينة مصاريف شموع وبخور
وعود العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة

يتم ترتيب هذا الموكب بعد موكب الخزينة المارّ ذكره، ولا يوجد فى هذا الموكب جنود من الأساس، إلا أنه يوجد بهذا الموكب رئيس عمال المسك ومحصل خراج الباشا الوالى وهؤلاء يقومون بجمع الشمع الكافورى والشمع الدهن الململَع، وبالرغم من وجود هذا الكم الهائل من الحمالين فى بولاق إلا أنهم جميعًا يشتغلون بجمع الشمع، ويحضر الحرفيون قنطاراً من الشمع الأبيض الكافورى من الشمع خانه على الأوانى الخاصة به فوق رءوسهم، حيث يوجد فى تلك الأوانى البخور والمسك والعنبر وخمسين وعاء ضخمًا من ماء الورد المعطر وخمسين شمعة من العنبر واثنى عشر ألف قنديل وهذا كله خاص بمصر، ويوجد بكل قنديل زيت يحترق، ويتم جلب ألف قنطار من الزيت المعطر كل عام من أرض المغرب يشبه كثيراً ماء الحياة وتُحمل هذه الأشياء إلى الديوان بواسطة الحمالين، ويخرجون فى هذا الموكب العظيم فى حضرة الباشا الوالى فى ديوان الغورى داعين، «الله ينصر السلطان» حيث يحمل كل الحرفيين الأوانى الخاصة فوق رءوسهم بخلاف الخمسمائة صينية المحملة بالشمع والعنبر وما ذكر، ويقوم الباشا الوالى بكسر عدة شمعات ثم يخلع الخلع الفاخرة على رأس كلٍ من حامل المسك ومحصل الخراج والشَمَّاع، ويأتى ناصبو الفخاخ ويمرون جميعًا، ويتم تسجيلهم فى دفتر الأحوال اليومية، ويظهر رئيس عمال المسك فى مكان على يمين الباشا الدفتردار، ويتم تحصيل تلك الصناديق وحفظها حتى يتم تسليمها إلى قبطان السويس فى حضرة الباشا، وتُؤدى أجرتها من الجانب الميرى، وهذا أيضًا من الخزينة.

الفصل الثانى والعشرون
فى بيان أحوال الطعام والشراب
الذاهبة إلى المطبخ السلطانى
ومخزن الطعام والشراب الخاص

عند تحصيل هذا المال السلطانى لا يسير موكب للجنود المصريين إلا أن وزير الأمراء المصريين يقوم بإلباس أمير مخزن الطعام والشراب السلطانى خِلعة.

ولا يؤمر أى شخص بهذا سوى أمين مخزن الطعام والشراب السلطانى ومعه خمسمائة رجل يقومون بتحصيل المأكولات من قضاء فرسكور ومدينة المنزلة وبندر دمياط وقضاء برميجال وبندر رشيد، حيث يقومون بإحضار مائة ألف أردب أرز خمس مرات من الأماكن التى يُجمع فيها الأرز والشعير، وألفى قفص سكرى وعمادى، وثلاثمائة فرد من القهوة ومائتى ألف أردب عدس ومائتى ألف أردب حمص ومائة حفنة من الحنة وخمسمائة زنبيل تمر ناضج وسائر المأكولات.

وتوجد بمدينة رشيد مخازن أميرية، وتتجمع كلها وتُدخر مع العمل، وفى ناحية الأستانة يأتى خليفة من خواص الحلوى خانه وبالرغم من وجود شجر الخيار والحمص والليمون فى مدينة الفيوم وفى كل حدائق وبساتين مصر إلا أنه يتم جمعها بمعرفة الميرية، ثم يقوم دفتردار الخزينة بجمع تلك المحاصيل من مدينة الفيوم مع الماء المعطر وماء القاضى وماء الورد من العطريات والدهنيات ومائة قنطار من الورد الممسك وبعض الزهور التى تنبت فى مصر مثل النيلوفر والليمون والبنفسج ويجلبون من المعاجين سبعين نوع من المعاجين الممسكة المبهجة مثل الترياق الفاروقى وفاروق الأربعة ومعجون العقرب ومعجون السقنقر البرى ومعجون التمساح الأبيض الذى إذا وضع فى العين يجلو البصر.

الفصل الثالث والعشرون
فى بيان السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود
المأخوذة من خزينة مصر بناء على القانون السلطانى

لا توجد فى مصر مواكب عسكرية سوى مواكب عمال الذخيرة وعمال البارود وصنّاع الطلقات النارية، وفى زاوية من قصر الباشا الوالى يوجد مقرين لصنع الذخيرة المعروف بالبارود خانه، يوجد بكل مقر منها أربعين شاب يتجولون به ليل نهار ويطلقون الأعيرة الناريه، يا له من مشهد عجيب، ولكنه ملعون فى نفس الوقت مثل البارود، وعندهم البارود مكتمل، ويقومون بإظهار كفاءة البارود للباشا الوالى فى الديوان، حقيقة إن البارود المصرى أعلى فى الدرجة من البارود البغدادى لا سيما وأن مادته المعدنية لطيفة فهى بيضاء مثل حجر الطاحونة.

وتوجد سبعون كرة بارودية أميرية ويكون الملتزمون مكلفين بهذا العمل، ففى كل أسبوع يتم جلب مقدار حمولتين بعير من مادة البارود السماة (الكهرجله) وتدق الطبول وتُعد الطبول لذلك، حيث يتم تسليمها لرئيس دار الذخيرة، ويقوم العمال المكلفون بإحضار مادة البارود بعرضها على الباشا الوالى ليعاينها فإذا أعجبته يقوم الوالى بإهداء رئيس دار الذخيرة ورئيس الفرق العسكرية والأمناء الخلع الفاخرة، وتوضع السبعة آلاف قنطار من البارود فى الأجولة الخاصة بها والمصنوعة من الصوف فى البارود خانه بالقلعة حيث يُشد عليها بجلود الإبل وتُحمل على ثلاثة آلاف دابة وثلاثة آلاف ناقة ويسير فى موكب ويتم التنبيه على الحدادين ونافخى الكير والمدخنين بأن موكب الذخيرة سوف يمر ويُنبّه عليهم بعدم إشعال النيران فى طريق الموكب وتنطفئ نيران حوانيت الحدادين وغيرهم. كما لا تشتغل النيران فى الخانات الموجودة على الطريق الرئيسى فى ذلك اليوم، بل إن الأشخاص يخرجون من بيوتهم فى ذلك اليوم فالخطر محقق، فبضعة آلاف دابة تسير محملة بالبارود، وتبدأ الأحمال فى السير أفواجًا أفواجًا ويسير بجانب كل فوج شخص يمسك بيده عصا إذا ما وجد أى نيران يطفئها على الفور، ويمر أيضًا موكب آخر به ستة آلاف قنطار من فتيل القطان ويتم تحزيم تلك الحمولة أيضًا وتحمل

على الدواب والإبل ويسير بجانب هذا الموكب ثلاثة آلاف من البربر فى أيديهم العصى ينبهون الفلاحين بعدم إشعال النيران فى ذلك اليوم. حتى أن مفلسى أغوات الباشا الوالى كانوا يحلفون قائلين: «لقد خرجت بثلاثة إحتياطى وأحدهم يقول لقد خرجت بستة إحتياطى» ثم يسير بعدهم موكب البارود، وبينما هم سائرون ينبهون الأهالى بخطورة البارود الأسود وأنه مثل البلاء الأسود إذا انفجر، ثم يعبر رئيس عمال الذخيرة بخلعة فاخرة وحوله خمسين غلام من خواصه، وتدق الطبول أثناء سير الموكب، وعندما يصل الموكب إلى بولاق تملأ السفن ومن هناك إلى رشيد ومن رشيد إلى الإسكندرية ثم يُحمل البارود على السفن المسماة قادرجه، ويأخذ القبطان الحجة لمسيره بالبارود وبذلك يكون الخلاص، وهذا أيضًا أحد خزائن مصر والسلام.

الفصل الرابع والعشرون
فى متحصلات شيخ مصر
والستة والأربعين قاض فى ولاية مصر

فى زماننا هذا يتم تحصيل أموال زائدة، حيث يحصل لمولا مصر سنويًا ثلاثمائة كيس وهذا مقام القضاة، ثم يأتى بعده قاضى مكة ثم قاضى إستانبول وهذا طبقًا لما جاء فى قانون السلطان محمد خان.

الفصل الخامس والعشرون
فى بيان خزينة مصر من أوقاف السلاطين الماضية
وأوقاف الوزراء وأعيان وأشراف القضاة

عندما فتح السلطان سليم مصر كان خيره بك وزيرًا عليها، وكمال باشا زاده أحمد افندى قاضى العسكر بها. وتحرر بقلم الغزالى فى سجل مصر الخاقانى أن مصر كان بها سبعة وسبعين ألف وقف لله تعالى، يعمل على إدارتها إثنى عشر ألف موظف ويؤمر كل قاض يأتى إلى مصر بأمر السلطان بالتفتيش وعمل فحص لتلك الأوقاف ويبلغ أدنى حد للأوقاف فى السنة الواحدة ما بين مائة وألف قطعة ذهبية، ولتلك الأوقاف قرى وأرزاق وأفدنة مرتبة يعمل عليها مديرون، كما يوجد لها أموال أميرية، وعلى ما سجله الغزالى فإن تلك القرى تحصل لمصر ثلاث خزائن وهذا مسطور فى دفتر خانه مصر.

الفصل التاسع والعشرون

فى بيان الذى يُتحصل من الأموال المصرية

أقر قانون السلطان سليم فى مصر أنه فى مكالمة السلطان مع الولاة المصريين يُحصل أربعمائة وسبعين كيس من الأموال المصرية، ويُخرج معه عند السلطان كل يوم ألف عملة للتصدق على الفقراء، ويكون مجموعه السنوى تسعون كيس وبخلاف ذلك يأتى إلى مصر كل سنة على سبيل الهدايا مقدار خزينة من المجوهرات والهدايا القيمة التى توزع على الفقراء، كما يحصل أيضًا خزنتين من الأموال سنويًا، وعندما كان الفقير إلى الله[1] فى مصر أيام وزارة الكتخدا إبراهيم باشا أمر بتحصيل ثلاث خزائن لمصر، وكان الوزير الأعظم كوپرلى دده أحمد فاضل باشا هو حامى تلك الخزائن القادمة من الأستانة، وعندما ظهر الطاعون فى مصر أعطيت التطعيمات تسع مرات فى ثلاثة شهور فى إحدى القرى، وفى النهاية لم يُعَمِّر هذا الرجل ولكنه كان مثال الكرم مثل حاتم الطائى ـ رحمه الله ـ، وتصرف أحد الخزائن الثلاث على الطعام، والإثنتان الباقيتان تبقيان له.

الفصل الثالث والثلاثون

فى بيان الخزينة التى يحصلها وزير مصر للأغوات أصحاب المراتب الثلاث والعشرين

إذا ما كان الكتخدا رجلاً بصيرًا بالأمور مدبرًا فإنه يُحصل ألف كيس من المال، أما إذا كان غير أهل لذلك فإنه يفتح فمه للهواء ويُحَصل من المدينة وما حولها خمسمائة كيس فقط، وعندما كان الفقير إلى الله[2] فى مصر كان الوزير الأعظم بها درويش محمد باشا وأخبرنى بأنه أثناء وزارته لمصر جمع منها خمسمائة كيس من المال. وتحصيل خزنتين من المال لكلٍ من أمين الديوان والكاتب والكتخدا والخزينه دار وأغا الرسائل وأغا دمياط وأغا السويس وأغا رشيد وأغا الإسكندرية وأغا بنى سويف وأغوات المنيا ومنفلوط وجرجا يُحصل لهم جميعًا خزنتان كما يُحصل خزنتان أخريان لغير الأغوات، والخمس أغوات من العبيد السود.

(١، ٢) يقصد المؤلف نفسه.

الفصل التاسع والثلاثون

فى بيان الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة وعشرين فى مصر وأمراء الشراكسة الأربعين وسائر الأعيان

بعد أداء كافة الأموال الأميرية فى إيالة مصر وتسجيلها فى سجل الروزنامه ويُحصل الفائض منها وهو خمس الخزائن لجملة أعيان مصر على أن يحرر هذا فى دفتر الأحوال اليومية، والحق أنه يُحصل أزيد من هذا، حتى أن الكتخدا إبراهيم باشا عندما كان فى منصب عزيز مصر حُصلت ثلاث خزائن من قرى مصر للأشراف فضلاً عن الأعيان ومجاورى السلطان القاطنين فى إستانبول فلما عرض عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا الأمر على إبراهيم باشا، واستدعى عبد الرحمن افندى الروزنامجى وسأله لمن هذا المال بعد أداء حق السلطان فقال عبد الرحمن افندى «والله يا سلطانى تبقى خمس خزائن تُحصل للأعيان والأشراف والأمراء».

ثم قام إبراهيم باشا بتحرير ثلاثة آلاف عبد لمكة وفى حج عام ٨٢-١هـ عُزل الشريف سعد وأصبح الشريف بركات شريفًا على مكة بدلاً منه، وبهذا الترتيب تم تحصل ثمان خزائن من مصر فى تلك السنة. ولما كشف عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا السر للسلطان، أمر جان بولاد زاده بقتله.

الفصل الرابع والأربعون
فى بيان تحصيل ثلاث خزائن أخرى
للحرفيين من خزينة مصر

وجملة قرى إيالة مصر وإيالة الصعيد ألف قرية تنقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول منها يُعطى جملته للأموال الأميرية السلطانية، وهى ما يعرف بالبدل، القسم الثانى القرى الكشوفية، القسم الثالث القرى الموقوفة، والقسم الرابع القسم الخاص بالكشاف والأمراء والملتزمين، إلا أنه يتم تحرير فائض تلك الخزائن لأصحاب هذه القرى، ولتلك القرى شيخ بلد وكتّاب وشهود وأقباط ويتم تحصيل خزينة لهم تحرر فى السجل.

الفصل الثامن والأربعون
خزينة مصر

بالرغم من وجود رعايا وبرايا من الرجال بلا حد ولا حساب فى قرى الإيالات المذكورة فيما سبق، إلا أنهم يقومون بزراعة أرض مصر ويحصدونها سبع مرات فى السنة الواحدة ويُجنى منها سبعون نوع. وأرض منبتة كهذه ورجال مجتهدون، ولا يوجد فى الدنيا فلاحين وقوم جبارين ومَردة مثلهم، ويحصلون المال لأنفسهم بأى وجه كان سواء كان طائرًا فى السماء أو سابحًا فى البحر أو سائرًا على الأرض، ويعطون العُشر (المال الميرى) لأغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكشافيهم ويبقى لهؤلاء الرعايا خُمس الخزائن بعد تصفية كل الديون ويحرر هذا فى سجلات مصر، وبذلك يكون متحصل هؤلاء الرعايا ثلاث وخمسين خزينة.

الفصل الخامس والخمسون
فى بيان الخزينة المحصلة من طائفة التجار
فى بنادر مصر السبعة

فرض الكتخدا إبراهيم باشا لكلا من رشيد والإسكندرية كيسًا من المال كالتزام يومى لهم، وفرض لبندر دمياط التزام سنوى مائة وأربعون كيس وفرض لبولاق وباب النصر ومصر القديمة والبساتين والمعادى مائة وخمسين كيس كالتزام سنوى عنها، وفرض بندر السويس ثلاثمائة كيس يقولون عنها أمانة الربيع، وبعضهم كان يُحصل خمسمائة كيس، وعلى هذا الحساب يتم تحصيل خزينتين لمصر من البنادر السبعة الموجودة بها وجملة حسابهم سبع وخمسين خزينة.

الفصل الستون
فى بيان الأموال التى تحصلها خزينة مصر
من التجار القادمين إلى البنادر السبعة

يأتى جميع التجار من كافة أقاليم الدنيا السبعة من العرب والعجم والهند واليمن ويجلبون الأمتعة والبضائع ويبيعونها ويُحصلون من ذلك ثلاث خزائن لمصر.

الفصل الخامس والستون
فى بيان تحصيل خزينتين لمصر من الحرف
البالغ عددها مائة وسبعين حرفة

ويقولون إن الحجاج المسلمون القادمون من الديار الإسلامية للأقاليم السبعة يصرفون ثلاثة خزائن مصرية وقد حرّر هذا العافون الواقفون..

الفصل الثالث والسبعون
فى بيان خزينة الحبوب الواردة
إلى أنبار يوسف ـ عليه السلام ـ فى مصر

هذه المخازن موصوفة فى أوصاف مصر القديمة وهى من بناء سيدنا يوسف، وقد ورد ذكر لسبب بناء تلك المخازن فى آيات سورة يوسف، وإذا دخل معه السجن فَتَيَان، وللرؤية التى رآها الملك الريان الواردة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، نزلت تلك الآية عن سيدنا يوسف على طريق القياس ومصرح بذلك فى جميع التفاسير ولكننا حررناه هنا على سبيل الاختصار حيث رأى الملك الريان رؤية قصها على سيدنا يوسف، ففسرها سيدنا يوسف بأنه سوف تكون سبع سنوات قحط، وأمر ببناء تلك المخازن. وبينما العمل جارٍ فى بنائها، توفى الملك وبمرور الأيام أوتى سيدنا يوسف الخلافة والنبوة، ومسطور أن سيدنا يوسف هو من قام ببناء تلك المخازن وهى أربعة وما تزال

تعمل حتى الآن، وفى كل سنة يقوم جملة الأهالى وأغوات الفرق السبع والباشا والقاضى بزيارتها والدعاء عند أبوابها، ويقوم أمين تلك المخازن بنصب الرايات عند بابها وينصب مائدة عظيمة للوالى الباشا ويعطى لأمين المخزن جوادًا عربيًا أصيلاً له جراب مجوهر وثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وألف أردب من الغلال ويُحسن عليه بالخلعة الفاخرة.

وينبه عليه بالاستقامة، وبعد العصر تنتهى المأدبة ويُعين أغا الباشا الوالى ناظرًا على تلك المخازن ويُمنح أيضًا جوادًا عربيًا أصيلاً مزينًا وخلعة فاخرة.

ويُمنح چورباجى الأنبار وكيالها وكاتبها وجملتهم ثلاثة وعشرين شخص الخلعة الخاصة بعزيز مصر، ثم يذهبون إلى منازلهم بعد أن يتبادلون التحية وتُنصب الراية ويعم السرور جملة أهالى مصر، ويقوم كافة تجار مصر ومحتكرو السلع بإخراج الغلال من المخازن ويوزعونها ويبكون لأنهم يبيعونها بسعر زهيد، ويمكننا القول بأنه فى حالة عدم امتلاء تلك المخازن سيحدث القحط فى مصر أم الدنيا حيث يحتاج لهذا المخزن ٤٧٫٧٠٠ شخص من جملة طائفة جنود مصر والأيتام والمتقاعدون، وطائفة النساء والطواشية والجوالى وطبقًا لتسجيلات بيرام باشا يحتاج إلى أنبار يوسف هذه مائة ألف شخص لستة عشر مرة[1]، ويوجد للجنود عليق وجرايات بها، إذا لم يحصل الجنود عليها فى خلال شهرين تضيق الدنيا على رأس والى مصر أم الدنيا.

وتمتلئ مخازن يوسف المذكورة من بركات وخيرات إيالة جرجا وإيالة أعالى الصعيد، وكتّاب تلك المخازن يعدون أقلام مختلفة، فى أيديهم سبعون خليفة وسبعون تَرّاسًا وسبعون كحالاً وسبعون مُغَربلاً، حيث يقومون بغربلة غلال الجنود بها وينظفونها، وكل هؤلاء هم جملة خدام المخزن، ولكن كتابهم يحسبون حسابات المخازن قيراطًا قيراطًا، ويأتى كل عام إلى مخزن يوسف من غلة الحنطة ثلاثة آلاف أردب ومن غلال الشعير

(١) يعنى ستة عشر ضعفًا.

(   )[١] ومن غلال الفول (   )[٢] أردب، ولو اقتضى الأمر بيع تلك الغلال بالمزايدة فى السوق السلطانى فإن هذا يحصل لمصر ثمانِ خزائن، وفى حالة عدم فيضان النيل ـ اللهم عافنا ـ فإن كافة العباد يطلبون هذه الخزائن الثمانية من الباشا الوالى وبهذا تحقق أنهم ثمانِ خزائن بالضبط، ويُطعم من مخازن يوسف غير بنى آدم الطيور التى تطير فى السماء، حيث تأكل الطيور غلال الفول الموجودة فى المخازن فى حالة عدم وجود سقف للمخازن.

ودائمًا ما تمتلئ تلك المخازن وتفرغ، ثم تمتلئ مرة أخرى، إنها دورة الدهر، وجملة أهل مصر يتكففون منها، وعندما كان الفقير إلى الله[٣] فى مصر لمدة ثمان سنوات كان له نصيب من أنبار يوسف، ويقومون بتولية منصب ناظر أنبار يوسف لأشخاص غير مؤهلين لذلك ونظرًا لعدم النظر فى حساب هؤلاء الأشخاص شهر بعد شهر فإنه ينكسر وينحبس، والوزراء الذين يحترزون من هذه الأشياء الثلاثة يخرجون من مصر بسلام. ولم يأتى مصر حتى وقت قريب وزير مدبر ذو بصيرة مثل الكتخدا إبراهيم باشا. وعصره كان العصر المنفرد فى علم الحساب، وكانت الإيرادات والمصروفات مع بعضها فى تلك المرتبة وجُمع على هذا القدر ألف أقجه يوميًا، ووضعت كافة السجلات فى صندوق ذو سياج فضى ورُبطت إلى خزينة مصر، ثم عُزل الكتخدا بعد ذلك ووصل إلى العادلية بسلام، ولكن بعد شهرين دخل حضرة حسين باشا جان بولاد زاده إلى مصر ودعا الكتخدا إبراهيم باشا للمحاسبة، وظل فى ذمته من بقايا خزائن يوسف مائتين وسبعين كيس فلما طالبوه بسدادها أداها فى طرفة عين. لقد كان رجلاً منعمًا، وبقى فى ذمة الأمناء والكشافين والملتزمين ثلاثمائة كيس لإبراهيم باشا، ولم يستلم حسين باشا مهمته على دين إبراهيم باشا، وقال إنه قادر على تحصيل ماله فقط وقال ينبغى أن يكون مكانه رجلاً يقدر على تحصيل تلك الأموال.

ووضع إبراهيم باشا على بقايا الكتخدا وعُين إبراهيم باشا متصرفًا على الشام، وأصبح مخزن يوسف على الأرض لا سيما وأن اللصوص كثيرون والمستقيمون قليلون وأصبح المخزن فى ذمة الله ليستره الله، وخلاصة الكلام أن هناك من يقولون أن مصر أم

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) يقصد المؤلف نفسه.

الدنيا، حقًا إنها تطعم جميع الأمم، ويقولون أيضًا أن لو خرب العالم تُعمره مصر، ولا يعجز اللسان عن وصف جمال مصر وأحوالها وأطوارها، إلا أن الفقير إلى الله قليل البضاعة كثير السياحة حضر إلى القلعة، واجتهد أن حرر كل ما رآه فى مصر ولا يترك شيئًا، ولم يترك شيئًا إلا وذكره، فحرر أوصاف مصر، ولم يترك مقدار القطرة بالنسبة للبحر أو الذرة بالنسبة للشمس إلا وذكره.

وذكرنا أن جملة الخزائن المصرية المشروحة على المنوال المذكور ثمانين خزينة هى جملة خزائن مصر منها ما هو بموكب ومنها ما هو بدون موكب، فى كل خزينة منها ألف ومائتى كيس، وكما أن مصر هى أم الدنيا فإن كل تلك الأموال تكون مِلكًا للسلطان ـ أيد الله خلافته إلى انقراض الدوران، على رتبة آل عثمان ـ وتكون جملة مواكب مصر ومنها موكب دخول وخروج وزير مصر وفيضان النيل ومواكب الخزينة وهى خمسة وثلاثون خزينة ويوجد أيضًا موكب يستمر عشرة أيام فى السنة حين ذهاب السلطان إلى أنبار يوسف وموكب ذهابه لأداء الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة، ومن المواكب التى لا تدخل فى هذا الحساب أيضًا موكب ذهاب وزير مصر مرتين أسبوعيًا إلى قدم النبى والبساتين وأم القياس وقصر الغورى وقصر العينى والسبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى والعادلية والمطبخ خانه وقد تحرر هذا فى تشريفات السلطان سليم خان وكتبت كلها فى مواضعها.

الفصل الثانى والخمسون

فى تشريفات قوانين عوائد وزراء مصر

يُطلق على الخاصة الهمايونية للباشا اسم الكشوفية الرئيسية، وهى أربعمائة وثمانون كيس، كما يتم تعيين ثلاثة آلاف پاره يوميًا أى تسعون كيس سنويًا من نفقة السلطان للتصدق بها على الفقراء ويقوم أمين بيت المال بإدارة بيت مال الباشا بخلاف بيت مال الانكشارية. أما الباشا فيدير جملة بنادر مصر السبعة وكذا أموال من توفوا ولا وارث لهم فى القرى وكذا معاشات الجند الذين لا وارث لهم، ويعطى أغا إنكشارية مصر للباشا الوالى ستة أكياس من المال، يأخذ الأغا من بيت مال الإنكشارية عشر أكياس

وتوجد سبع نِظارات تحت إدارة أغا الإنكشارية، كما أن نظارة السليمانية والدشيشة الكبرى، حيث يصل إلى مكة والمدينة كل سنة أردب (   )[1] من الغلال من أغا الإنكشارية.

ويأخذ أغا الإنكشارية اثنين وعشرين كيسًا من الوالى الباشا لتقديمها إلى عربان الدشيشة الكبرى ويعطيها لشيخ العرب صقر، فيقوم شيخ العرب صقر مقابل هذا بإعطاء الوالى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة خيول عربية أصيلة وخمسين جملاً، ويُعطى كيسًا لكتخدا الباشا الوالى وكيسًا للأغا لكونه فى حكم أغا الإنكشارية.

وتُنقل الغلال إلى السويس من عنابر بولاق بمائة ألف جمل ثم تنقل من هناك إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا الوالى يقوم كتخدا الجاويشية بتقديم عشرة أكياس له وجواد عربى أصيل مرصع ومزين بسرج فضى وذلك فى الصالحية، كما يقدم له هدايا أخرى قيمة ويقوم رئيس الجنود المتفرقة بتقديم ثمانية أكياس سنوية للوالى، ويعطى كتخدا الباشا كيسين ورئيس الديوان عشرين ألف پاره، كما يقوم رئيس الجنود المتفرقة بإعطاء سبعة آلاف پاره لأى محافظ قلعة يُعزل أو يتقاعد وذلك لكونه من لواء الجند المتفرقة وذلك على حسب قانون السلطان سليم، وتُسند نظارة خان الباشا الوالى الموجودة فى رشيد لرؤساء الجنود المتفرقة، ويأتى من تلك النظارة ثلاثة أكياس، ويقدم رئيس عمال المسك للباشا الوالى جواد مزين وذلك عندما يأتى إلى مصر، ولأن رئيس عمال المسك لم يقم بتقديم هذا الجواد لإبراهيم باشا، بل قدمه إلى قاضى مصر لدى وصوله ويقدمه له رئيس المسكية ويحسب من كشوفيته ويُلزم بتقديم ثمانية آلاف پاره ويسلمها للباشا الوالى ثم يعطى لخازن الوالى الباشا عشرة آلاف، وخازن الكتخدا أربعة آلاف، وكيسًا واحدًا لكتخدا.

ويؤخذ من رئيس عمال المسك زيت الشمع حيث يُقدم للباشا والكتخدا وسائر نواحى المدينة كما تؤخذ منه كمية من قناطير شمع العسل والبخور والعنبر إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا إلى مصر يقيم فى العادلية ثلاث ليال وثلاثة أيام، وتُسلم كمية البخور والعنبر والمسك إلى أمير السماط، ويأخذ أجرته من الأموال الأميرية ويأخذ الباشا كيسًا من المال كلما جدد مقام رئاسته عمال المسك «مسكجى باشى»، ويُعطى

(١) بياض فى الأصل.

الباشا هدايا من أمين العنبر عندما يصل إلى مصر عبارة عن سبعة عشر كيسًا وسبعة طواشى وثلاثة جياد غير مزينة. وذلك محسوب على الجواد الذى يُعطى لقاضى مصر عند قدومه إليها، ويُعطى كتخدا الباشا الوالى كيسين وفرس وطواشى وتكون جملة ما يدفعه تسعة عشر كيسًا.

ولكن أمين الأنبار يأخذ ثلاثة آلاف پاره، ويأخذ رؤساء الغلال عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين قرشًا لكل واحد منهم، ويُعبّرون عنها بلفظ الكَرَّتين أى فى الذهاب الثانى لهم يأخذون خمسة أو عشرة قروش ويكون جملة ذلك خمسون كيسًا.

ولو أُخذ المال منهم جميعًا تكون جملته مائة كيس ولكن طائفة العبيد لا يرتضون ذلك وتحدث بينهم ضجة، هذا بالإضافة إلى أن هذا المال يحصل من غلال العبيد وهم لا يوافقون على ذلك، ويكون أحد أغوات الباشا ناظرًا للمخزن ويقوم هذا الأغا بتقديم ثلاثة أكياس كشوفية وطواشى للباشا الوالى، ويأخذ الأغا الناظر أيضًا من أمين المخزن كيسين إما على سبيل الهدايا أو على سبيل العيدية.

ويلزم فى الرجل الذى سيكون أمين الأنبار أن يكون متعقلاً فى عقلية أرسطو فى علم الكتابة، فهو مسئول عن جملة حساب الغلال حين عزله، ويؤخذ من كل شخص أقچة أو أقچتين كحساب عن الخاتم ويجلبون هدايا عديدة، أما أغا الرسائل فيعطى للباشا الوالى خمسة وعشرين كيسًا ويحصل هو من أربعين إلى خمسين كيسًا، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس ويعطى لأمين الديوان والخازندار كل واحد منهم عشرة آلاف پاره، ويأتى إلى كتخدا الباشا كيس من الأموال من أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا كلٌ على حده، وقد حررنا الهدايا الكشوفية التى يجلبها أغا جرجا فى موكب أغا جرجا، وتوجد كشوفية أخرى لرئيس الديوان تبلغ خمسة عشر كيسًا على حسب القانون، يأخذ منها كافة الأمناء، والملتزمون والكشافون، ويأخذ رئيس المراتب والمناصب فى القصر أربعين پاره، ويأتى سنويًا أربعين جوادًا كهدايا، ويأتى عشرون عُدّة حصان، ويحصل سنويًا لكتخدا الباشا الوالى من الأمانات السبعة ومن كافة الكشاف والملتزمين والبكوات ومن القرى المباعة أربعمائة كيس من المال، وعند قطع

النيل توجد كشوفية أخرى عبارة عن أربعن عُدّة حصان وخمسين فرسًا وجملة المحصول السنوى الذى يُحصل من البنادر السبعة المجاورة للمدينة ومن جملة الأمانات ومن أمين الصرة ومن أمين الخردة ومن الضرب خانه (دار سك العملة) مائتى كيس.

ويقوم أمين الخردة بتعيين الخبز واللحم، وتأمين كافة ما يلزمهم ويلزم دوابهم، ويأخذ الأغوات الداخلين للمدينة ثمانية عشر ألف پاره من ناظر الضرب خانه أما الصرّاجون فيأخذون عشرين قرش على مدار ثلاثة شهور من رئيس الصرافين.

ولكل من وزارتى جمرك الربيع والكتاب السماسرة اليهود والصرافين وخازن المدينة وصراجى المدينة حوالات خاصة بهم. وقد تحررت حوالاتهم فى مواضعها.

وجملة خدام الديوان والكيسه دار وكيسه دار رئيس الديوان اثنين وثلاثين شخص، ولكل منهم يوميًا أقچتين من المال الميرى إلا أن إبراهيم باشا ألغى هذا. كما توجد حوالات من البرسيم والحشائش فى حدود الملتزمين والأمناء والكشافين بمقتضى قانون الأغوات أصحاب المراتب الأربعين لكتخدا الباشا، ويوجد أيضًا أربعين كيس لجملة أمناء وكشافى وملتزمى خزينة دار الباشا.

ويتحصل سنويًا أربعمائة كيس لأمير آخور الواح الباشا. ويقوم بإحدى الضيافات بإهداء الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وجواد مُزيّن وكافة التبن وأعلاف الخيل والإبل هى مسئولية أمير الآخور. ويقدم للباشا سنويًا مائتى جواد عليهم القماش والصوف.

وبذلك تتم كافة الخزائن والمواكب بناء على قانون مواكب الخزينة ويكون تمامها فى شهر يوليو الموافق شهر توت بالحساب القبطى ولا يبقى فى السنة من الخزائن والمواكب إلا موكب مولد السيد أحمد البدوى.

محتوى المجلد الأول

الموضــوع	رقم الصفحة
العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة	
الفصل الثانى والعشرون فى بيان أحوال الطعام والشراب	
الفصل الثالث والعشرون فى بيان السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود	
الفصل الرابع والعشرون فى متحصلات شيخ مصر والستة والأربعين قاض فى ولاية مصر	
الفصل الخامس والعشرون فى بيان خزينة مصر من أوقاف السلاطين الماضية وأوقاف الوزراء وأعيان وأشراف القضاة	
الفصل التاسع والعشرون فى بيان الذى يتحصل من الأموال المصرية	
الفصل الثالث والثلاثون فى بيان الخزينة التى يحملها وزير مصر للأغوات أصحاب المراتب الثلاث والعشرين	
الفصل التاسع والثلاثون فى بيان الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة وعشرين فى مصر وأمراء الشراكسة الأربعين وسائر الأعيان	
الفصل الرابع والأربعون فى بيان تحصيل ثلاثة خزائن أخرى للحرفيين من خزينة مصر	
الفصل الثامن والأربعون خزينة مصر	
الفصل الخامس والخمسون فى بيان الخزينة المحصلة من طائفة التجار فى بنادر مصر السبعة	
الفصل الستون فى بيان الأموال التى تحصلها خزينة مصر من التجار القادمين إلى البنادر السبعة	
الفصل الخامس والستون فى بيان تحصيل خزينتين لمصر من الحرف البالغ عددها مائة وسبعين حرفة	
الفصل الثالث والسبعون فى بيان خزينة الحبوب الواردة إلى أنبار يوسف - عليه السلام - فى مصر	
الفصل الثانى والخمسون فى تشريفات قوانين عوائد وزراء مصر	
المحتوى	٦٠٠